تفسير

حدائق الروح والريحان

في

روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

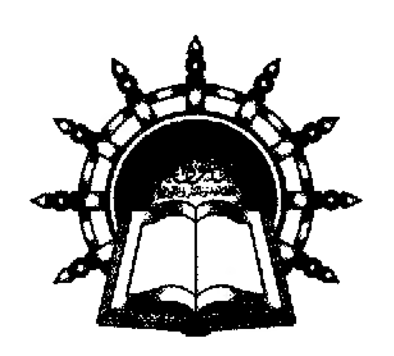
مكة المكرمة

المجلد الثامن والعشرون

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م



دار طوق النجاة

بيروت - لبنان

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن


بسم الله الرحمن الرحيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله على نواله، والصلاة والسلام على نبيِّه وآله، محمد ﷺ وصحبه وعترته.

أما بعد: فلمَّا فرغت من تفسير الجزء السادس والعشرين من القرآن الكريم.. تفرغت بعون الله تعالى لتفسير الجزء السابع والعشرين منه، مستمِدّاً من الله سبحانه التوفيق، والهداية لأقوم الطريق في تفسير كتابه الكريم، وأقول: وقولي هذا:

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

المناسبة

قد تقدّم أنَّ قلنا غير مرة: إن الذين قسموا القرآن إلى أجزائه الثلاثين نظروا

إلى العد اللفظي، ولم يعنوا بالنظر إلى الترتيب المعنويّ، ومن ثم تجد جزءاً قد انتهى، وبدىء بآخر بأثناء القصّة كما هنا.

فبعد أن بشر الملائكة إبراهيم عليه السلام بالغلام، سألهم ما شأنكم، وما الذي جئتم لأجله؟ قالوا: إنّا أرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم بحجارة من سجيل، بها علامةٌ تدل على أنها أعدّت لإهلاكهم. ثم نأمر من كان فيها من المؤمنين بالخروج، من القرية حتى لا يلحقهم العذاب الذي سيصيب الباقين، وسنترك فيها علامةً تدل على ما أصابهم من الرجز، جزاء فسوقهم، وخروجهم من طاعة ربهم.

قوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمّا ذكر[1] ما كان من قوم لوط من الفسوق والعصيان، وما أصابهم من الهلاك جزاءً وفاقاً لما اجترحوا من السيئات، تسليةً لرسوله ﷺ على ما يرى من قومه.. عطف على ذلك قصص جمع آخرين من الأنبياء لقوا من أقوامهم من الشدائد مثل ما لقي هذا الرسول الكريم.

فحقت على أقوامهم كلمة ربّهم، ونزل بهم عذاب الاستئصال، وصاروا كأمس الدابر عبرة ومثلاً للآخرين. فذكر أنه أرسل موسى إلى فرعون بشيراً ونذيراً، فأبى، واستكبر، واعتزّ بقوّته وجنده، وقال: أنا ربكم الأعلى، فأغرق هو وقومه في البحر. وأرسل هوداً إلى عادٍ، فكذّبوه، فأهلكهم بريح صرصرٍ عاتية. وأرسل صالحاً إلى ثمود، فكذّبوه، فأخذتهم الصاعقة، ولم تبق منهم أحداً. وبعث نوحاً إلى قومه، فلم يستجيبوا لدعوته، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لما أثبت الحشر، وأقام الأدلة على أنه كائن لا محالة، أرشد إلى وحدانية الله، وعظيم قدرته.. فبيَّن أنه خلق السماء بغير عمد، وبسط الأرض ودحاها لتصلح لسكنى الإنسان والحيوان، وخلق من كل نوع من أنواع الحيوان، زوجين ذكراً وأنثى، ليستمرّ بقاء الأنواع إلى أن يشاء الله سبحانه فناء هذا العالم. ثمّ أمرهم أن يعتصموا بحبل الله، وأنذرهم شديد عقابه، وحذّرهم أن يجعلوا مع الله

---

(١) المراغي.

سبحانه نداً وشريكاً.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر أنَّ هؤلاء المشركين في قول مختلف، مضطرب، لا يلتئم بعضه مع بعض، فبينما هم يقولون: خالق السموات والأرض هو الله، إذا هم يعبدون الأصنام والأوثان، وطوراً يقولون: محمد ساحر، وطورا آخر يقولون: هو كاهن، إلى نحو ذلك.. قفى على ذلك، بأن ذكر أنَّ قومه ليسوا بدعاً في الأمم. فكما كذَّبت قريش نبيها فعلت الأمم التي كذبت رسلها، فأحل الله بهم نقمته، كقوم نوح، وعاد، وثمود. ثم عجب من حالهم، وقال: أتواصى بعضهم مع بعض بذلك!؟ ثم قال: لا بل هم قوم طغاة، متعدون حدود الله تعالى، لا يأتمرون بأمره، ولا ينتهون بنهيه. ثم أمر رسوله أن يعرض عن جدلهم ومرائهم. فإنه قد بلغ ما أمر به، ولم يقصر فيه فلا يلام على ذلك، وأن يذكر من تنفعه الذكرى، ولديه استعداد لقبول الإرشاد والهداية.

ثم أردف هذا أن ذكر أنه ما خلق الجن والإنس إلا ليأمرهم، ويكلفهم بعبادته، لا لاحتياجه إليهم في تحصيل رزق، ولا إحضار طعام. فالله هو الرزّاق ذو القوّة. ثم ختم السورة بتهديد أهل مكة، بأنه سيصيبهم من العذاب مثل ما أصاب من قبلهم من الأمم السالفة. فأولى لهم أن لا يستعجلوه بقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾. فقد حقت عليهم كلمة ربك في اليوم الذي يوعدون، وسيقع عليهم من العذاب ما لا مرد له، ولا يجدون له دافعاً.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ سبب نزول هاتين الآيتين[1]: ما أخرجه ابن منيع، وابن راهويه، والهيثم بن كليب بأسانيدهم من طريق مجاهد عن عليّ قال: لمَّا نزلت: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾﴾ لم يبق منا أحد إلا أيقن بالهلكة إذ أمر النبي ﷺ أن يتولى منّا، فنزلت: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾، فطابت أنفسنا.

---

(١) لباب النقول.

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال: ذكر لنا أنه لما نزلت: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ...﴾ الآية، اشتد على أصحاب رسول الله ﷺ، ورأوا أن الوحي قد انقطع، وأنَّ العذاب قد حضر. فأنزل الله: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام لمَّا علم أنهم ملائكة أرسلوا لأمر ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾؛ أي: فما شأنكم الخطير الذي لأجله أرسلتم سوى البشارة. فإنَّ الخطب يستعمل في الأمر العظيم الذي يكثر في التخاطب، وقلما يعبر به عن الشدائد والمكاره، حتى قيل: خطوب الزمان، ونحو هذا. والفاء[1] فيه للتعقيب المتفرع على العلم بكونهم ملائكة.

﴿أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ من جهة الله سبحانه وتعالى.

وقال الشوكاني: قوله: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ جملة[2] مستأنفة جواباً عن سؤال مقدّر، كأنه قيل: فماذا قال إبراهيم بعد هذا القول من الملائكة؟ والخطب: الشأن والقصة.

والمعنى: فما شأنكم وما قصتكم أيّها المرسلون من جهة الله تعالى، وما ذاك الأمر الذي لأجله أرسلتم سوى هذه البشارة؟ انتهى.

وفي «المراح»:[3] فما أمركم العظيم الذي لأجله أرسلتم سوى البشارة، فلعظمتكم لا ترسلون إلا في عظيم أيها المرسلون، فأتى إبراهيم عليه السلام بما هو من آداب المضيف، حيث يقول لضيفه إذا استعجل في الخروج: ما هذه العجلة، وما شغلك الذي يمنعنا من التشرف بالاجتماع معك؟ ولا يسكت عند خروجهم لأنّ سكوته يوهم استثقالهم، انتهى.

فأجابوه عمّا سأل حيث: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾؛ أي: إلى قوم متمادين في إجرامهم وآثامهم مصرّين عليها. والمراد بهم: قوم لوط.

---

(١) روح البيان.

(٢) فتح القدير.

(٣) المراح.

وفي «فتح الرحمن»: المجرم فاعل الجرائم، وهي صعاب المعاصي.

﴿لِنُرْسِلَ﴾؛ أي: لننزل ﴿عَلَيْهِمْ﴾ من السماء ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ متحجّر كالآجرّ. وهو ما طبخ فصار في صلابة الحجارة، وهو السّجيل، يعني:[1] أنّ السّجيل حجارةٌ من طين طبخت بنار جهنم، مكتوب عليها أسماء القوم، ولو لم يقل: ﴿مِّن طِينٍ﴾ لتوهّم أنّ المراد من الحجارة: البرد بقرينة إرسالها من السماء، فلمّا قيل: ﴿مِّن طِينٍ﴾ اندفع ذلك الوهم؛ أي: لنرسل عليهم حجارة من طين بعد ما قلبنا قراهم، وجعلنا عاليها سافلها.

قال السديّ ومقاتل: كانوا ست مئة ألف، فأدخل جبرائيل جناحه تحت الأرض فاقتلع قراهم ـ وكانت أربعة ـ ورفعها حتى سمع أهل السماء أصواتهم، ثم قلبها بأن جعل عاليها سافلها. ثم أرسل عليهم الحجارة فتتبعت الحجارة مسافريهم وشذاذهم؛ أي: المنفردين عن الجماعة.

وانتصاب[2] ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ على كونه صفة ثانية لـ ﴿حِجَارَةً﴾، أو على الحال من الضمير المستكن في الجار والمجرور، أو من الحجارة لكونها قد وصفت بالجار والمجرور. ومعنى ﴿مُّسَوَّمَةً﴾: مرسلةً من عند ربك من سوّمت الماشية؛ أي: أرسلتها لترعى لعدم الاحتياج إليها. قال سعديٌ المفتي: فيه أنّ الظاهر حينئذٍ من عند ربك بإثبات من الحجارة، انتهى. أو معلمةً بعلامات تعرف بها، من السومة وهي العلامة، قيل: كانت مخططة بسواد وبياض، وقيل: بسواد وحمرة، وقيل: معروفة بأنها حجارة العذاب. وقيل: معلّمة بسيما تتميّز بها عن حجارة الأرض. وقيل: مكتوب على كل حجر منها اسم من يرمى بها ويهلك.

وقوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ ظرف لـ ﴿مُّسَوَّمَةً﴾؛ أي: معلّمة عنده، أو مخزونةً عنده في خزائنه التي لا يتصرّف فيها غيره تعالى. ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾؛ أي: للمجاوزين الحدَّ في الفجور؛ إذ لم يقنعوا بما أبيح لهم من النساء للحرث، بل أتوا الذكران. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾؛ أي: للمشركين، فإنّ الشرك أسرف الذنوب وأعظمها.

---

(١) روح البيان. (٢) فتح القدير.

ولمّا أراد سبحانه أن يهلك المجرمين.. ميّز عنهم المؤمنين، وأبعدهم عنهم كما قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ الفاء: عاطفة على محذوف معلوم من السياق، تقديره: فباشروا ما أمروا به. فأخرجنا بقولنا: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ...﴾ إلخ. فهو إخبار من الله سبحانه، وليس بقول الملائكة. ﴿مَن كَانَ فِيهَا﴾؛ أي: في قرى قوم لوط. وهي خمس على ما في تفسير الكاشفيّ. وإضمارها[1] بغير ذكرها لشهرتها. ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: من آمن بلوط ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا﴾؛ أي: في قرى قوم لوط ﴿غَيْرَ بَيْتٍ﴾ أي: غير أهل بيت واحد. وهو بيت لوط ﴿بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ قيل: هم لوط، وابنتاه. وأما امرأته فكانت كافرةً. وقيل: كان لوط وأهل بيته الذين نجوا ثلاثة عشر. قال العلماء[2]: يأتي النبي يوم القيامة ومعه أمّته، وآخر معه قومه، وآخر معه رهطه، وآخر معه ابنه، وآخر معه رجل، وآخر استتبع ولم يتبع، ودعا فلم يجب، وذلك لإتيانه في الوقت الشديد الظلمة.

وفي الآية: إشارة إلى أنّ المسلم والمؤمن متحدان صدقاً وذاتاً لا مفهوماً. والمسلم أعمُّ من المؤمن. فإنّه ما من مؤمن إلا وهو مسلم من غير عكس، والعامّ والخاص قد يتصادقان في مادّة واحدة، وقال بعضهم: الإيمان: هو التصديق بالقلب: أي: إذعان الحكم المخبر، وقبوله، وجعله صادقاً، والإسلام: هو الخضوع والانقياد بمعنى قبول الأحكام والإذعان. وهذا حقيقة التصديق كما لا يخفى على من له أدنى عقل وتأمل، وإنكار ذلك مكابرة.

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ﴾؛ أي: في تلك القرى ﴿ءَايَةً﴾؛ أي: علامةً دالةً، على ما أصابهم من العذاب. هي تلك الحجارة، أو ماء أسود منتن خرج من أرضهم. ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾؛ أي: من شأنهم أن يخافوه لسلامة فطرتهم ورقّة قلوبهم، دون من عداهم من ذوي القلوب القاسية، فإنهم لا يعتدون بها، ولا يعدونها آيةً. كما شاهدنا أكثر الحجاج حين المرور بمدائن صالح عليه السلام.

وكان ﷺ يبكي حين المرور بمثل هذا الموضع، وينكس رأسه، ويأمر بالبكاء والتباكي، ودلت الآية على كمال قدرته تعالى على إنجاء من يؤيّد دينه، والانتقام من أعدائه ولو بعد حين، وعلى أنّ المعتبر في باب النجاة والحشر مع أهل الفلاح

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

والرشاد هو حبّهم، وحسن اتباعهم، وهو الاتصال المعنوي لا الاختلاط الصوري، وإلا لنجت امرأة نوح ولوط. وقد قال تعالى في حقهما: ﴿ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾.

ومعنى الآيتين[1]: أي وبعد أن ذهبت رسلنا إلى قوم لوط، ووقعت بينهم وبينهم محاورات.. أخرجوا من كان في القرى من المؤمنين تخليصاً لهم من العذاب، ولم يجدوا فيها سوى بيت واحد أسلم وجهه لله ظاهراً وباطناً، وانقاد لأوامره، واجتنب نواهيه.

وهو بيت لوط بن هاران أخِ إبراهيم عليه السلام. ﴿وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةً...﴾ إلخ، أي: وجعلناها عبرة بما أنزلنا بهاِ من العذاب والنكال، وحجارة السجيل، وخسف الأرض بهم حتى صارت قريتهم بحيرة منتنة خبيثة. وهي بحيرة طبرية لتكون ذكرى لمن يخشى الله، ويخاف عذابه.

وفي الآية: إيماء إلى أنّ الكفر متى غلب، والفسق إذا انتشر، لا تنفع معه عبادة المؤمنين، أمّا إذا كان أكثر الخلق على الطريقة المستقيمة، وفيهم شرذمة يسيرة يسرقون ويفجرون.. فإنّ الله لا يأخذ الكثرة الصالحة بذنب العدد القليل من الفاجرين.

وقوله: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ معطوف[2] على قوله: ﴿وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾ على معنى وجعلنا في إرسال موسى إلى فرعون، وإنجائه مما لحق فرعون وقومه من الغرق آية. كقوله: «علفتها تبناً وماءً بارداً»: أي: وسقيتها ماءً بارداً، وإلا فقوله ﴿في موسى﴾ لا يصح كونه معمولاً لـ ﴿تركنا﴾. إذ لا يستقيم أن يقال: تركنا في موسى آيةً، كما يصح أن يقال: تركنا في تلك القرية آيةً. لأنّ الترك ينبيء عن الإبقاء، فإذا لم يبق موسى كيف يبقى ما جعل فيه؟ وقيل: معطوف على قوله: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ۝٢٠﴾. فقصة إبراهيم ولوط عليهما السلام معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه تسلية لرسول الله ﷺ من تكذيبهم، ووعداً له بإهلاك أعدائه الأفاكين. كما أهلك قوم لوط. وقيل: غير ذلك. والأول أولى.

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

وقوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ﴾ ظرف لـ ﴿جَعَلْنَا﴾ المقدّر؛ أي: وجعلنا في إرسال موسى، وإنجائه مع قومه، وإهلاك فرعون وقومه آيةً للذين يخافون العذاب الأليم وقت إرسالنا إيّاه. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ صاحب مصر حال كون موسى متلبساً ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: بحجة واضحة ظاهرة دالة على صدقه. وهو ما ظهر على يديه من المعجزات الباهرة: كالعصا، واليد البيضاء، وغيرهما. والسلطان مصدر يطلق على المتعدد.

﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ فرعون ﴿بِرُكْنِهِۦ﴾؛ أي: ثنى بعطفه وجانبه. وهو كناية عن الإعراض؛ أي: فأعرض عن الإيمان به وأزورَّ، فالتولي بمعنى الإعراض، والباء في ﴿بِرُكْنِهِۦ﴾ للتعدية كما في قوله: ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾. فإنها معدية لـ ﴿نأى﴾ بمعنى بعد. فيكون الركن بمعنى الطرف والجانب، والمراد بهما: نفسه؛ أي: أعرض بنفسه عن الإيمان بموسى. فإنه كثيراً ما يعبر بطرف الشيء وجانبه عن نفسه، وفي «الصحاح»: ركن الشيء جانبه الأقوى كالمنكب بالنسبة إلى الإنسان. وقيل: فتولى بما يتقوى به من ملكه وعساكره. فإنّ الركن اسم لما يركن إليه الإنسان، ولكن من مال، وجند، وقوة، فالركن مستعار لجنوده تشبيهاً لهم بالركن الذي يتقوى به البنيان، وعلى هذا الباء للسببية، أو للملابسة والمصاحبة.

﴿وَقَالَ﴾ فرعون في حق موسى هو؛ أي: موسى ﴿سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ فردد فيما رآه من أحوال موسى بين كونه ساحراً أو مجنوناً، وهذا[1] من اللعين مغالطة وإبهام لقومه، فإنه يعلم أن ما رآه من الخوارق لا يتيسر على يد ساحر، ولا يفعله من به جنون، وقيل: إن ﴿أَوْ﴾ بمعنى الواو، لأنّه قد قال ذلك جميعاً، ولم يتردد. قاله المؤرج والفراء كقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾.

﴿فَأَخَذْنَٰهُ﴾؛ أي: أخذنا فرعون ﴿وَجُنُودَهُۥ﴾؛ أي: قومه وعساكره ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾؛ أي: فطرحناهم في بحر القلزم مع كثرتهم، كما يطرح أحدكم فيه حصيات أخذهن في كفه، لا يبالي بها، وبزوالها عنه. ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾؛ أي: أخذناه، والحال أنه آتٍ بما يلام عليه صغيرةً أو كبيرةً، حيث كذب الرسل، وادعى الربوبية، إذ كل صاحب ذنب ملوم على مقدار ذنبه.

---

(١) الشوكاني.

والمعنى[1]: أي وفي قصص موسى عبرة لقوم يعقلون؛ إذ أرسلناه إلى فرعون بحجج ظاهرةٍ، وآيات باهرة فأعرض، ونأى، وكذب ما جاء به معتزّاً بجنده، وقوته، وجبروته. وقال حيناً تحقيراً لشأن موسى: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾. وقال حيناً آخر: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾. وما مقصده من هذا إلا صرفهم عن النظر والتأمّل فيما جاء به من الآيات خوفاً على ملكه أن ينهار، وعلى دولته أن يلحقها الدماء، وإبقاء على ما له من النفوذ والسلطان في البلاد.

ثم ذكر جزاءه هو وقومه على ما صنع، فقال: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ...﴾ إلخ؛ أي: فألقينا فرعون وجنوده في البحر، وهو آت بما يلام عليه من الكفر والطغيان. وفي هذا إيماء إلى عظمة القدرة على إذلال الجبابرة، وسوء عاقبتهم جزاء عتوهم واستكبارهم وعصيانهم أمر خالقهم.

ثم ذكر قصص عاد، فقال: ﴿وَفِى عَادٍ﴾؛ أي[2]: وجعلنا في عاد قوم هود آيةً على تقدير كونه معطوفاً على قوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾، أو وفي قوم هود ﴿ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ إن كان معطوفاً على ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ﴾. ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا﴾ ظرف لـ ﴿جعلنا﴾ المقدر ﴿عَلَيْهِمُ﴾؛ أي: على أنفسهم أصالة، وعلى دورهم وأموالهم وأنعامهم تبعاً. ﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾؛ أي: المعقم. أي: المهلك لكل شيء، أو العاقم: أي: القاطع لكل خير. وهي التي لا خير فيها ولا بركة، لا تلقح شجراً، ولا تحمل مطراً إنّما هي ريح الإهلاك والعذاب، وفي «بحر العلوم»: ولعله سمَّاها عقيماً لأنّها كانت سبب قطع الأرحام من الولادة بإهلاكها إيّاهم، وقطعها دابرهم، وهي ريح العذاب والهلاك، وهي[3] النكباء على قول عليّ رضي الله عنه. وهي التي انحرفت ووقعت بين ريحين، أو بين الصبا والشمال، وهو الدبور على قول ابن عباس رضي الله عنهما. ويؤيده قوله ﷺ: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور». وهي ريح تقابل الصَّبا. أي: ريح تجيء من جانب المغرب. فإنَّ الصَّبَا تجيء من جانب المشرق. وقال ابن المسيب: الريح العقيم: هي الجنوب مقابل الشمال. وهي ريح تجيء من شمال من يتوجه إلى المشرق. وهي كثيرة في فصل الشتاء، وآخر فصل الخريف.

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

ثم وصف سبحانه هذه الريح، فقال: ﴿مَا تَذَرُ﴾؛ أي: ما تترك تلك الريح ﴿مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: مرّت عليه من أنفسهم، وأنعامهم، وأموالهم ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾؛ أي: كالشيء البالي المتفتت. والرميم: كل ما رم، وبلي، وتفتت من عظم أو نبات أو غير ذلك، وقال قتادة[1]: الرميم: ما ديس من يابس النبات. وقال السديُّ، وأبو العالية: إنه التراب المدقوق. وقال قطرب: إنه الرماد. وأصل الكلمة: من رم العظم إذا بلي، فهو رميم. والرمة: العظام البالية كما سيأتي.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ما أرسل على عاد من الريح إلا مثل خاتمي هذا. يعني: أنّ الريح العقيم تحت الأرض، فأخرج منها مثل ما يخرج من الخاتم من الثقب، فأهلكهم الله تعالى.

والمعنى[2]: أي وفي عاد آية لكل ذي لب. إذ أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً عاتية لم تبق منهم ديَّاراً، ولا نافخ نار، ولا تركت شيئاً من الأبنية والعروش إلا جعلته كالشيء الهالك البالي.

ثم ذكر قصص ثمود فقال: ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾؛ أي: وجعلنا في ثمود قوم صالح آيةً، أو وفي قوم صالح آيات للموقنين. وقوله: ﴿إِذْ﴾ ظرف متعلق بـ ﴿جعلنا﴾؛ أي: جعلنا فيهم آية وقت إذ ﴿قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا﴾؛ أي: انتفعوا بالحياة الدنيا ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾؛ أي: إلى وقت نزول العذاب. وهو آخر ثلاثة أيّام الأربعاء، والخميس، والجمعة. فإنهم عقروا الناقة يوم الأربعاء، وهلكوا بالصيحة يوم السبت. وقد فسر بقوله: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾. قيل: قال لهم صالح عليه السلام: تصبح وجوهكم غداً مصفرة، وبعد غد محمرة، واليوم الثالث مسودة، ثم يصبحكم العذاب، فكان كذلك.

وإنما[3] تبدلت ألوانهم بما ذكر، لأنهم كانوا كل يوم في الترقي إلى سوء الحال. ولا شك أنّ الأبيض يصير أصفر ثم أحمر ثم أسود. والسواد من ألوان الجلال والقهر، وأيضاً لون جهنم، فإنّها سوداء مظلمة، فعند الهلاك صاروا إلى لون جهنم لأنّها مقرّهم، ونعوذ بالله منها.

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

﴿فَعَتَوۡا﴾؛ أي: استكبروا ﴿عَنۡ﴾ امتثال ﴿أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ وهو ما أمروا به على لسان صالح عليه السلام من قوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ وقوله: ﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ﴾. والفاء ليست للعطف على ﴿قِيلَ لَهُمۡ﴾. فإنّ العتوّ لم يكن بعد التمتع، بل قبله. وإنما هو تفسير وتفصيل لما أجمله في قوله: ﴿وَفِي ثَمُودَ...﴾ إلخ. فإنّه يدلّ إجمالاً على أنه تعالى جعل فيهم آيةً، ثمّ بيّن وجه الآية وفصّلها.

قال في «شرح الرضيّ»: إنّ الفاء العاطفة للجمل قد تفيد كون المذكور بعدها كلاماً مرتّباً على ما قبلها في الذكر، لأنّ مضمونها عقيب مضمون ما قبلها في الزمان، انتهى.

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾؛ أي: أهلكتهم النار النازلة من السماء ﴿وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم ينظرون إليها، ويعاينونها. لأنّهم جاءتهم معاينة بالنهار، فينظرون من النظر بالعين. وفيه ترجيح لكون المراد بالصاعقة: حقيقة النار. لأنّها حين ظهرت رأوها بأعينهم، والصيحة لا ينظر إليها، وإنما تسمع بالأذن. والظاهر: أنّ الصاعقة لا تنافي أن يكون معها صيحة جبرئيل. وقيل: هو الانتظار؛ أي: ينتظرون ما وعدوا به من العذاب، حيث شاهدوا علامات نزوله من تغيّر ألوانهم في تلك الأيّام. ويقال: سمعوا الصيحة وهم ينظرون: أي: يتحيّرون.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾. وقرأ عمر، وعثمان رضي الله عنهما، وحميد، وابن محيصن، ومجاهد، والكسائي، وزيد بن علي ﴿الصعقة﴾. قيل[2]: لمّا رأوا العلامات التي بيّنها صالح من اصفرار وجوههم، واحمرارها، واسودادها عمدوا إلى قتله عليه السلام فنجاه الله إلى أرض فلسطين. ولما كان ضحوة اليوم الرابع تحنطوا، وتكفنوا بالأنطاع، فأتتهم صيحة جبرئيل عليه السلام كما صرح بها في قوله: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾. فهلكوا. فالمراد بالصاعقة: الصيحة لا حقيقتها. وهي نار تنزل من السماء فتحرق ما أصابته. وقيل: أتتهم صيحة من السماء، فيها صوت كل صاعقة، وصوت كل شيء في الأرض، فتقطعت قلوبهم في صدورهم. وقال بعضهم: أهلكوا بالصاعقة حقيقة بأن جاءت نار من السماء

---

(١) الشوكاني والبحر المحيط.

(٢) روح البيان.

فأهلكتهم جميعاً، كما مرَّ.

والمعنى[1]: أي وفي ثمود عظة لمن تدبر، وفكر في آيات ربّه؛ إذ قال لهم نبيهم: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾. ثم يحل بكم من العذاب ما لا قبل لكم به، فكذَّبوه، واستكبروا، وعتوا عن أمر ربهم. فأرسل عليهم صاعقة من السماء أهلكتهم جميعاً، وهم ينظرون إليها جزاء ما اكتسبت أيديهم من الآثام، وارتكاب الخطايا، والأوزار.

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ﴾؛ أي: لم يقدروا على القيام. قال قتادة: من نهوض يعني: لم ينهضوا من تلك الصرعة. والمعنى: أنهم عجزوا عن القيام فضلاً عن الهرب. ومثله قوله: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾؛ أي: لاصقين بمكانهم من الأرض، لا يقدرون على الحركة والقيام فضلاً عن الهرب. فالقيام ضد القعود.

﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾؛ أي: ممتنعين من عذاب الله بغيرهم كما لم يمتنعوا بأنفسهم.

والخلاصة: فما استطاعوا من هرب، ولم يجدوا مفرًّا ولا نصيراً يدفع عنهم عذاب الله تعالى.

ثم ذكر موجزاً لقصص قوم نوح عليه السلام، فقال: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾؛ أي: وأهلكنا قوم نوح، فإنَّ ما قبله يدل عليه. ويجوز أن يكون منصوباً باذكر المقدر. ﴿مِّن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل هؤلاء المهلكين ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: إنّ قوم نوح ﴿كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾؛ أي: خارجين عن الحدود فيما كانوا فيه من الكفر والمعاصي. وهو علة لإهلاكهم.

والمعنى: وأهلكنا قوم نوحٍ بالطوفان قبل هؤلاء المذكورين بسبب فسقهم، وفجورهم، وانتهاكهم حرمات الله تعالى. وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي ﴿وقوم نوحٍ﴾ بالجر عطفاً على ما تقدم؛ أي: وفي قوم نوح آية. وهي قراءة عبد الله وقرأ[2] باقي السبعة، وأبو عمرو في رواية بالنصب. قيل: عطفاً على الضمير في ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾. وقيل: عطفاً على ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ﴾؛ لأنَّ معنى كل منهما فأهلكناهم.

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

وقيل: منصوب بإضمار فعل، تقديره: وأهلكنا قوم نوح. لدلالة معنى الكلام عليه. وقيل: باذكر مضمرة. وروى عبد الوارث، ومحبوب، والأصمعيّ عن أبي عمرو، وأبو السمال، وابن مقسم ﴿وقومُ نُوحٍ﴾ بالرفع على الابتداء. والخبر محذوف؛ أي: أهلكناهم.

والنصب في قوله[1]: ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ على الاشتغال؛ أي: وبنينا السماء ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾ حال كوننا متلبسين ﴿بِأَيْيْدٍ﴾؛ أي: بقوة وقدرة قاهرة. قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: كقوله: ﴿دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾. فهو[2] حال من الفاعل أو حالة كون السماء متلبسة بقوة وإحكام، فيكون حالاً من المفعول. ويجوز أن تكون الباء للسببية: أي: بسبب قدرتنا، فتتعلق ببنيناها، لا بالمحذوف، والقوة هنا بمعنى القدرة. فإنّ القوة عبارة عن شدة البنية وصلابتها المضادة للضعف. والله تعالى منزه عن ذلك. والقدرة هي الصفة التي بها يتمكن الحي من الفعل وتركه بالإرادة. والأيد: مصدر: آد يئيد أيداً إذا اشتد وقوى. قال في «القاموس»: الآد: الصلب والقوة كالأيد، وأيدته مؤايدة، وأيدته تأييداً فهو مؤيد قويته، انتهى. قال الراغب: ولما في اليد من القوة قيل: أنا يدك وأيدتك، قويت يدك اهـ.

﴿وَإِنَّا﴾ نحن ﴿لَمُوسِعُونَ﴾؛ أي: لقادرون على إيساعها من الوسع بمعنى الطاقة. والموسع: القادر على الإنفاق. يقال: أوسع الله عليك؛ أي: أغناك. فيكون قوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ حالاً مؤكدة، أو تذييلاً إثباتاً لسعة قدرته كل شيء فضلاً عن السماء. أو لموسعون السماء؛ أي: جاعلوها واسعة في نفسها، أو واسعون ما بينها وبين الأرض، أو واسعون الرزق فيها على خلقنا؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾.

وقرأ أبو السمال[3]، ومجاهد، وابن مقسم برفع السماء، ورفع الأرض على الابتداء. وقرأ الجمهور بنصبهما.

والمعنى: أي ولقد بنينا السماء ببديع قدرتنا، وعظيم سلطاننا، وإنا لقادرون

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

على ذلك، لا يمسنا نصب ولا لغوب. وفي ذلك تعريض باليهود الذين قالوا: إنّ الله خلق السموات والأرض في ستّة أيّام، واستراح في اليوم السابع مستلقياً على عرشه.

﴿وَٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: وفرشنا الأرض ﴿فَرَشْنَٰهَا﴾؛ أي: مهدناها، وبسطناها على الماء من تحت الكعبة مسيرة خمس مئة عام ليستقروا عليها، ويتقلبوا فيها كما يتقلب أحدهم على فراشه ومهاده. ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾؛ أي: فنعم الفارشون نحن. والمخصوص بالمدح محذوف كما قدرنا؛ أي: هم نحن، فحذف المبتدأ والخبر من غير أن يقوم شيء مقامهما.

وقد اختلف القدماء في هيئة الأرض وشكلها[1]، فذكر بعضهم أنها مبسوطة مستوية السطح في أربع جهات: المشرق، والمغرب، والجنوب، والشمال. وزعم آخرون أنها كهيئة المائدة، ومنهم من زعم أنها كهيئة الطبل، وذكر بعضهم أنها تشبه نصف الكرة كهيئة القبة، وأنّ السماء مركبة على أطرافها. وزعم قوم أنَّ الأرض مقعرة وسطها كالجام. والذي عليه الجمهور أنَّ الأرض مستديرة كالكرة، وأنّ السماء محيطة بها من كل جانب إحاطة البيضة بالمح. فالصفرة بمنزلة الأرض، وبياضها بمنزلة السماء، وجلدها بمنزلة السماء الأخرى. غير أنَّ خلقها ليس فيه استطالة كاستطالة البيضة، بل هي مستديرة كاستدارة الكرة المستوية الخرط حتى قال مهندسوهم: لو حفر في الوهم وجه الأرض لأدى إلى الوجه الآخر، ولو ثقب مثلاً ثقب بأرض الأندلس لنفذ الثقب بأرض الصين.

واختلف في كمية عدد الأرضين. فروي في بعض الأخبار: أنَّ بعضها فوق بعض. وغلظ كل أرض مسيرة خمس مئة عام، حتى عد بعضهم لكل أرض أهلاً على صفة وهيئة عجيبة. وسمى كل أرض باسم خاص كما سمى كل سماء باسم خاص. وزعم بعضهم أن في الأرض الرابعة حيات أهل النار، وفي الأرض السادسة حجارة أهل النار.

وعن عطاء بن يسار: في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ قال:

---

(١) خريدة العجائب.

في كل أرض آدم كآدمكم، ونوح مثل نوحكم، وإبراهيم مثل إبراهيمكم. وليس هذا القول بأعجب من قول الفلاسفة: إنّ الشموس شموس كثيرة، والأقمار أقمار كثيرة. ففي كل أقليم شمس وقمر ونجوم. وقال القدماء: سبع على المجاورة والملاصقة وافتراق الأقاليم لا على المطابقة والمكابسة. وأهل النظر من المسلمين يميلون إلى هذا القول. ومنهم من يقول: سبع على الانخفاض والارتفاع كدرج المراقي. ويزعم بعضهم أن الأرض مقسومة لخمس مناطق. وهي المنطقة الشمالية، والجنوبية، والمستوية، والمعتدلة، والوسطى.

واختلفوا في مبلغ الأرض، وكمّيتها. فروي عن مكحول أنه قال: ما بين أقصى الدنيا إلى أدناها مسيرة خمس مئة عام مئتان من ذلك في البحر، ومئتان ليس يسكنها أحد، وثمانون فيها يأجوج ومأجوج، وعشرون فيها سائر الخلق.

وعن قتادة قال: الدنيا أربعة وعشرون ألف فرسخ، فملك السودان ـ يعني: إفريقيا كلها منها ـ اثنا عشر ألف فرسخ، وملك الروم ثمانية آلاف فرسخ، وملك العجم والترك ثلاثة آلاف فرسخ، ملك العرب ألف فرسخ. وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: ربع من لا يلبس الثياب من السودان أكثر من جميع الناس. وقال بطليموس: بسيط الأرض كلها مئة واثنان وثلاثون ألف ألف وست مئة ألف ميل. فتكون مئتي ألف وثمانية وثمانين ألف فرسخ. فإن كان حقاً فهو وحي من الحق أو إلهام، وإن كان قياساً واستدلالاً فهو قريب من الحق أيضاً. وأما قول قتادة، ومكحول فلا يوجب العلم اليقيني، الذي يقطع على الغيب، كذا في «خريدة العجائب». وكل هذه الأقاويل ظنية لا مستند لها ولا أصل.

والمعنى[1]: أي ومهدنا الأرض وجعلناها صالحة لسكنى الإنسان والحيوان، وجعلنا فيها الأرزاق، والأقوات من الحيوان والنبات، وغيرهما مما يكفل بقاءهما إلى حين، ووضعنا فيها من المعادن في ظاهرها وباطنها ما فيه زينة لكم. فتبنون المساكن من حجارتها، وتتخذون الحلي من ذهبها وفضتها وأحجارها الكريمة، وتصنعون آلات الحرب، والسفن، والطائرات من حديدها ومعادنها الأخرى.

---

(١) المراغي.

وفي الآية: إشارة إلى أنَّ دحو الأرض كان بعد خلق السماء؛ لأنّ بناء البيت يكون قبل الفرش، وهذا ما يثبته العلم الحديث الآن. وقد تقدم ذكر ذلك غير مرّة.

ثم مدح سبحانه نفسه على ما صنع، فقال: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ﴾؛ أي: فنعم ما فعلنا، وأجمل ما خلقنا مما فيه عظة لمن يتذكر ويتدبر. ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ أي: من أجناس الموجودات. فالمراد بالشيء: الجنس. وقيل: من الحيوان ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾؛ أي: صنفين ونوعين مختلفين كالذكر والأنثى، والسماء والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والصيف والشتاء، والبر والبحر، والسهل والجبل، والإنس والجن، والنور والظلمة، والأبيض والأسود، والدنيا والآخرة، والإيمان والكفر، والسعادة والشقاوة، والحق والباطل، والحلو والمر، والموت والحياة، والرطب واليابس، والجامد والنامي، والناطق والصامت، والجود والبخل، والعزّ والذلّة، والعرش والكرسي، واللوح والقلم، إلى غير ذلك مما لا يدخل تحت حصر.

وفي قوله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ تنبيه على أنَّ الأشياء كلها مركبة من جوهر وعرض، ومادّة وصورة، وأن لا شيء يتعرى منها، إذ الأشياء كلها مركبة من تركيب يقتضي كونه مصنوعاً. وأنه لا بد له من صانع تنبيهاً على أنه تعالى هو الفرد وإنما ذكر ههنا ﴿زَوْجَيْنِ﴾ تنبيهاً على أنه وإن لم يكن له ضد، ولا مثل فإنه لا ينفك من تركب صورة ومادة، وذلك زوجان. قال الخراز رحمه الله: أظهر معنى الربوبية والوحدانية بأن خلق الأزواج ليخلص له الفردانية.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: فعلنا ذلك كله من البناء، والفرش، وخلق الأزواج كي تتذكروا فتعرفوا أنه خالق الكل، ورازقه، وأنه المستحق للعبادة، وأنه قادر على إعادة الجميع. فتعملوا بمقتضاه.

والمعنى: أي وإنا خلقنا لكل ما خلقنا من الخلق ثانياً له مخالفاً له في مبناه والمراد منه، وكل منهما زوج للآخر. فخلقنا السعادة والشقاوة، والهدى والضلال إلى غير ذلك لتتذكروا، وتعتبروا، فتعلموا أنَّ الله ربكم الذي ينبغي لكم أن تعبدوه وحده، لا شريك له، هو الذي يقدر على خلق الشيء وخلافه، وابتداع زوجين من كل شيء، لا ما لا يقدر على ذلك.

﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ والفاء فيه فاء الفصيحة؛ أي: قل لهم يا محمد: إذا علمتم أن الله تعالى فرد لا نظير له، وأنَّ هذه المذكورة شؤونه وأفعاله، فاهربوا إلى الله الذي هذه شؤونه بالإيمان والطاعة كي تنجوا من عقابه، وتفوزوا بثوابه. وقيل[1]: معنى ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾: أخرجوا من مكة. وقال الحسين بن الفضل: احترزوا من كل شيء غير الله، فمن فر إلى غيره.. لم يمتنع منه. وقيل: فروا من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن. وقيل: فروا من الجهل إلى العلم.

وجملة قوله: ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ﴾؛ أي: من جهته تعالى ﴿نَذِيرٌ﴾؛ أي: منذر مخوف من عذاب الله ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: بين كونه منذراً منه تعالى بالمعجزات الظاهرة على يديه، أو مظهر لما يجب إظهاره من العذاب المنذر به. تعليل للأمر بالفرار.

وفي أمره[2] للرسول ﷺ بأن يأمرهم بالهرب إليه من عقابه، وتعليله بأنّه ﷺ ينذرهم من جهته تعالى لا من تلقاء نفسه وعد كريم بنجاتهم من المهروب، وفوزهم بالمطلوب.

وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ نهي موجب للفرار من سبب العقاب بعد الأمر بالفرار نفسه. فقد نهاهم عن الشرك بالله بعد أمرهم بالفرار إلى الله. كأنّه قيل: وفروا من أن تجعلوا معه تعالى اعتقاداً، أو تقولوا: إلهاً آخر. وجملة قوله: ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ﴾؛ أي: من الجعل المنهي عنه ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: بيِّن الإنذار. تعليل للنهي المذكور. وفيه تأكيد لما قبله من الفرار من العقاب إليه تعالى، لا بطريق التكرير بل بالنهي عن سببه، وإيجاب الفرار منه. وفي «المراح»: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾؛ أي:[3] بل وحِّدوا الله سبحانه. فإنَّ التوحيد بين التعطيل والتشريك. فالمعطل يقول: لا إله. والمشرك يقول: إنّ في الوجود آلهةً. فقوله: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أثبت وجود الله. وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ نفي الأكثر من الواحد، فصح التوحيد بالآيتين؛ ولهذا قال مرتين: ﴿إِنِّى لَكُم نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾: أي: لا أقول شيئاً إلا بدليل ظاهر. فالرسول نذير من الله في المقامين عند الأمر بالطاعة، وعند النهي عن الشرك. وذلك ليعلم أنَّ العمل لا ينفع إلا مع الإيمان،

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراح.

وأنه لا يفوز عند الله إلا الجامع بينهما، انتهى.

وحاصل معنى الآيتين: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾؛ أي:[1] فالجؤوا إلى الله، واعتمدوا عليه في جميع أموركم، واتبعوا أوامره، واعملوا على طاعته. ﴿إِنِّي لَكُم نَذِيرٌ﴾ من الله أنذركم عقابه، وأخوفكم عذابه الذي أحله بهؤلاء الأمم التي قص عليكم قصصها، وإني مبين لكم ما يجب عليكم أن تحذروه، ولا تجعلوا مع معبودكم الذي خلقكم معبوداً آخر سواه؛ فإنَّ العبادة لا تصلح لغيره، إني لكم نذير ومخوف من عقابه على عبادتكم غيره. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم...﴾ إلخ[2]، تسلية لرسول الله ﷺ ببيان أنَّ هذا شأن الأمم المتقدمة، وأنَّ ما وقع من العرب من التكذيب لرسول الله ﷺ، ووصفه بالسحر والجنون قد كان ممن قبلهم لرسلهم. و﴿كَذَٰلِكَ﴾ في محل رفع، خبر لمبتدأ محذوف: أي: أمر الأمم السابقة عند مجيء الرسل إليهم مثل أمر كفّار قومك الذين بعثت إليهم من تكذيبهم إيّاك، وتسميتهم لك ساحراً، أو مجنوناً. أو في محل نصب نعت لمصدر محذوف: أي: أنذركم إنذاراً كإنذار من تقدمني من الرسل الذين أنذروا قومهم. والأول أولى.

ثم فسر ما أجمله بقوله: ﴿مَآ أَتَى﴾؛ أي: ما جاء الأمم ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم﴾؛ أي: من قبل قريش ﴿مِن﴾ زائدة؛ أي: ﴿رَّسُولٍ﴾ من رسل الله تعالى ﴿إِلَّا قَالُواْ﴾ في حقّه هو ﴿سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ فلا تأس على تكذيب قومك إيّاك. ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ﴾ الاستفهام فيه للإنكار والتعجيب من حالهم، واتفاقهم مع تفرق أزمانهم على تلك الكلمة الشنيعة التي لا تكاد تخطر ببال أحد من العقلاء فضلاً عن التفوه بها في حق الأنبياء؛ أي: هل وصى الأولون الآخرين بعضهم بعضاً بهذا القول، حتى اتفقوا عليه. ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾؛ أي: مجاوزون الحد في الطغيان والفساد إضراب عن كون مدار اتفاقهم على الشر. تواصيهم بذلك لبعد الزمان وعدم تلاقيهم في وقت واحد. وإثبات لكونه أمراً أقبح من التواصي، وأشنع منه. وهو الطغيان الشامل للكل الدال على أنّ صدور تلك الكلمة الشنيعة عن كل واحد منهم بمقتضى

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

جبلته الخبيثة لا بموجب وصية من قبلهم بذلك من غير أن يكون ذلك مقتضى طباعهم.

وفيه[1] إشارة إلى أنَّ أرباب النفوس المتمردة من الأولين والآخرين مركوزة في جبلتهم طبيعة الشيطنة من التمرد، والإباء، والاستكبار. فما أتاهم رسول من الأنبياء إلا أنكروا عليه، وقالوا: ساحر يريد أن يسحرنا، أو مجنون لا عبرة بقوله. كأنَّ بعضهم أوصىٰ بعضهم بالتمرد، والإنكار، والجحود؛ لأنهم خلقوا على طبيعة واحدة. بل هم قوم طاغون بأنهم وجدوا أسباب الطغيان من السعة، والتنعم، والبطر، والغنى. قال الشاعر:

إنَّ الشَّبَابَ وَٱلْفَرَاغَ وَٱلْجِدَهْ ... مَفْسَدَةٌ لِلْمَرْءِ أيُّ مَفْسَدَهْ

فعكسوا الأمر، وكان ينبغي لهم أن يصرفوا العمر والشباب والغنى في تحصيل المطلوب الحقيقيّ.

والمعنى[2]: أي كما كذبك قومك من قريش، وقالوا: ساحر أو مجنون فعلت الأمم التي كذبت رسلها من قبلهم، وقالوا مثل مقالتهم. فهم ليسوا ببدع في الأمم، ولا أنت ببدع في الرسل. فكلهم قد كذبوا، وأوذوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله تعالى. وفي هذا تسلية لرسوله ﷺ على احتمال الأذىٰ والإعراض عن جدالهم؛ فإنهم قد أبطرتهم النعمة، وغرهم الإمهال فلا تجدي فيهم العظة، ولا تنفعهم الذكرى. ثم تعجب من إجماعهم على إنكار نبوة محمد ﷺ، فقال: أأوْصَى أولهم آخرهم بتكذيب محمد ﷺ فقبلوا ذلك منهم. ثم أضرب عن أن الذي جمعهم على هذا القول هو التواصي إلى أنّ الذي جمعهم على ذلك هو الطغيان، فقال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾؛ أي: بل الذي جمعهم على ذلك هو الطغيان، وتجاوز حدود الدين والعقل. فقال متأخرهم: مثل مقالة متقدمهم. ثم سلى رسوله بقوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾.

ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بالإعراض عنهم فقال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾؛ أي: أعرض عنهم، وكف عن جدالهم ودعائهم إلى الحق. فقد فعلت ما أمرك الله به،

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

وبلغت رسالته، وكررت عليهم الدعوة فأبوا إلا الإباء والاستكبار ﴿فَمَآ أَنتَ﴾ يا محمد ﴿بِمَلُومٍ﴾ عند الله سبحانه على هذا التولي والإعراض بعد بذل المجهود؛ لأنك قد أديت ما عليك. وهذا منسوخ بآية السيف.

ثم بعد ما أمره بالإعراض عنهم أمره بأن لا يترك التذكير والموعظة بالتي هي أحسن فقال: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ قال الكلبي: أي: عظ بالقرآن من آمن من قومك فإن الذكرى تنفعهم. وقال مقاتل: عظ كفار مكة، فإنّ الذكرى تنفع من سبق في علم الله أنه يؤمن. وقيل: ذكرهم بالعقوبة، وأيام الله. وخص المؤمنين بالتذكير لأنّهم المنتفعون به.

والمعنى[1]: فأعرض عنهم أيّها الرسول، ولا تأسَّف على تخلفهم عن الإسلام فإنك لم تأل جهداً في الدعوة. وهم ما زادوا إلا عتوا واستكباراً، وطغياناً، وإعراضاً، ودم على العظة والنصح، فإنّ الذكرى تنفع من في قلوبهم استعداد للهداية والرشاد.

وجملة قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ...﴾ إلخ[2]، مستأنفة مقررة لما قبلها. لأنَّ كون خلقهم لمجرد العبادة مما ينشط رسول الله ﷺ للتذكير، وينشطهم للإجابة؛ أي؛ وما خلقت المؤمنين من الجن والإنس ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي؛ إلا ليطيعوني، ويعرفونني. قال القشيري: والآية دخلها التخصيص بالقطع، لأنَّ المجانين لم يؤمروا بالعبادة، ولا أرادها منهم. وقد قال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾. ومن خلق لجهنم لا يكون ممن خلق للعبادة. فالآية محمولة على المؤمنين منهم. ويدل عليه قراءة ابن مسعود، وأبيٍّ بن كعب ﴿وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين إلا ليعبدون﴾.

وقال مجاهد: إنّ المعنى: إلا ليعرفوني. قال الثعلبيّ: وهذا قول حسن، لأنّه لو لم يخلقهم لما عرف وجوده وتوحيده. وروي عن مجاهد أنه قال:

المعنى: إلا لآمرهم وأنهاهم. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. واختار هذا

---

(1) المراغي. (2) الشوكاني.

الزجاج. وقال الواحدي: مذهب أهل المعاني في معنى الآية: إلا ليخضعوا لي، ويتذللوا. ومعنى العبادة في اللغة: الذل والانقياد. وكل مخلوق من الجن والإنس خاضع لقضاء الله تعالى، مذلل لمشيئته، خلقه على ما أراد، ورزقه كما قضى، لا يملك أحد لنفسه خروجاً عما خلق عليه.

والحاصل[1]: أنهم خلقوا للعبادة تكليفاً واختياراً لا جبلة وإجباراً. فمن وفقه وسدده أقام العبادة التي خلق لها، ومن خذله وطرده حرمها، وعمل بما خلق له. وفي الحديث: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»، كما في «عين المعاني».

فينبغي للعبد أنّ يعبد ربَّه، ويتذلل لخالقه بأيّ وجه كان من الفرائض، والواجبات، والسنن، والمستحبّات على الوجه الذي أمره أن يقوم فيه. فإذا كملت فرائضه، وكمالها فرض عليه، فيتفرغ فيما بين الفرضين لنوافل الخيرات كانت ما كانت. ولا يحقر شيئاً من عمله؛ فإنّ الله تعالى ما احتقره حين خلقه وأوجبه، فإنَّ الله تعالى ما كلَّفك بأمر إلا وله بذلك الأرم اعتناء وعناية، حتى كلفك به، وإذا واظب على أداء الفرائض؛ فإنه يتقرب إلى الله بأحب الأمور المقرّبة إليه. وورد في الخبر الصحيح عن الله تعالى: «ما تقرَّب إليَّ عبد بشيء أحب إلي مما افترضته، وما يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أُحبَّهُ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي به يسمع، وبصره الذي به يبصر، ويده التي بها يبطش، ورجله التي بها يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنّه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت، وأنا أكره مساءته».

ووجه تقديم الجن على الإنس ها هنا تقدم وجودهم على الإنس[2].

﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم﴾؛ أي: من الجن والإنس في وقت من الأوقات ﴿مِن رِّزْقٍ﴾ لي، ولا لأنفسهم، ولا لغيرهم يحصّلونه بكسبهم. ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ ولا أنفسهم ولا غيرهم. وأصله: ﴿أن يطعموني﴾ بياء المتكلم. وهو بيان لكون شأنه تعالى مع عباده متعالياً عن أن يكون كسائر السادة مع عبيدهم، حيث يَملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معايشهم، وتهيئة أرزاقهم فإنَّ منهم من يحتاج إلى كسب

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

عبده في نيل الرزق، ومنهم من يكون له مال وافر يستغني به عن حمل عبده على الاكتساب، لكنه يطلب من العبد قضاء حوائجه من طبخ الطعام، وإصلاحه، وإحضاره بين يديه. وهو تعالى مستغن عن جميع ذلك. ونفع العباد وغيره إنما يعود عليهم.

فإن قلت: ما فائدة تكرار لفظ ﴿مَآ أُرِيدُ﴾؟

قلت: فائدته إفادة حكم زائد على ما قبله. إذ المعنى: ما أريد منهم أن يطعموا أنفسهم، وما أريد منهم أن يطعموا عبيدي. وإنما أضاف تعالى الإطعام إلى نفسه؛ لأنّ الخلق عياله وعبيده، ومن أطعم عيال غيره فكأنما أطعمه. ويؤيده خبر: إنّ الله تعالى يقول يوم القيامة: «يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني» أي: استطعمك عبدي فلم تطعمه، انتهى من «فتح الرحمن».

والمعنى[1]: ما أريد أن أصرفهم في تحصل رزقي، ولا رزقهم، ولا في تهيئته بل أتفضل عليهم رزقهم، وبما يصلحهم، ويعيشهم من عندي، فليشتغلوا بما خلقوا له من عبادتي. وفي الآية تعريض بأصنامهم؛ فإنّهم كانوا يحضرون لها المآكل فربما أكلتها الكلاب فبالت على الأصنام، ثم لا يصدهم ذلك عن عبادتها.

وهذه الآية دليل على أنّ الرزق أعم من الأكل[2]، كما في تفسير المناسبات. وقال بعضهم: معنى ﴿أَن يُطْعِمُونِ﴾: أن يطعموا أحداً من خلقي. وإنما أسند الإطعام إلى نفسه، لأنّ الخلق عيال الله، ومن أطعم عيال أحد فقد أطعمه. كما جاء في الحديث: يقول الله: «استطعمتك فلم تطعمني»؛ أي: لم تطعم عبدي. كما مرّ آنفاً. وذلك أنَّ الاستطعام وسؤال الرزق يستعمل في وصف الله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ لا رازق سواه، ولا معطي غيره. فهو الذي يرزق مخلوقاته.

والجملة[3]: تعليل لعدم إرادة الرزق منهم. وهو من قصر الصفة على الموصوف؛ أي: لا رزاق إلا الله الذي يرزق كل ما يفتقر إلى الرزق. وفيه تلويح

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

بأنه غني. ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ على جميع ما خلق. تعليل لعدم إرادته منهم أن يعملوا ويسعوا في إطعامه. لأنَّ من يستعين بغيره في أموره يكون عاجزاً لا قوة له. ﴿ٱلْمَتِينُ﴾؛ أي: الشديد القوّة، لأنَّ القوة تمام القدرة، والمتانة: شدّتها. وهو بالرفع على أنه نعت للرزّاق، أو لذو، أو خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف. وفي التأويلات النجمية: إنّ الله هو الرزاق لجميع الخلائق، ذو القوة المتين في خلق الأرزاق والمرزوقين. وقد سبق أنَّ القوة في الأصل عبارة عن شدّة البنية، وصلابتها المضادة للضعف. والله تعالى منزه عن ذلك. فهي في حقه تعالى بمعنى القدرة التامّة.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿ٱلرَّزَّاقُ﴾ بصيغة المبالغة. وقرأ ابن محيصن ﴿الرازق﴾ بصيغة اسم الفاعل. كما قرأ ﴿وفي السماء رازقكم﴾ اسم فاعل، وهي قراءة حميد. وقرأ الجمهور ﴿ٱلْمَتِينُ﴾ بالرفع. وقرأ يحيى بن وثاب، والأعمش بالجر صفة للقوة على معنى الاقتدار، قاله الزمخشري، أو كأنه قال: ذو الأيد. وقيل: التذكير لكون تأنيثها غير حقيقي. قال الفراء: كان حقه المتينة، فذكرها لأنه ذهب بها إلى الشيء المبرم المحكم الفتل. يقال: حبل متين؛ أي: محكم الفتل. ومعنى المتين هنا: الشديد القوّة كما مرّ آنفاً. وأجاز أبو الفتح أن تكون صفة لذو. وخفض على الجوار كقولهم: هذا حجر ضبٍّ خربٍ.

والمعنى[2]: أنه تعالى غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم؛ لأنّه خالقهم، ورازقهم، وهو ذو القدرة القاهرة، والقوّة التامّة، الغالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون. روى أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنًى، وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك».

ولما أقسم سبحانه في أول السورة على الصدق في وعيدهم أخبر بإيقاع هذا الوعيد بهم يوم القيامة، فقال: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم بتعريضها للعذاب بسبب تكذيب محمد ﷺ، أو وضعوا مكان التصديق تكذيباً، وهم أهل مكة. ﴿ذَنُوبًا﴾؛ أي: حظًّا وافراً من العذاب ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾؛ أي: مثل أنصباء نظرائهم من

---

(١) البحر المحيط والشوكاني.
(٢) المراغي.

الأمم الماضية المحكية. وهو[1] مأخوذ من مقاسمة السقاة الماء بالذَّنوب. وهو الدلو العظيم المملوء. قال الشاعر:

لَنَا ذَنُوبٌ وَلَكُمْ ذَنُوبٌ فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَلَنَا الْقَلِيبُ

والفاء في قوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فاء الفصيحة. لأنَّها أفصحت عن جواب شرط محذوف، تقديره: إذا عرفت حال الكفرة المتقدمين من عاد، وثمود، وقوم نوح وأردت بيان حال كفرة قومك فأقول لك: فإنَّ لهؤلاء المكذبين لك نصيباً مثل نصيبهم. وعبر عن النصيب بالذنوب ليشبهه به في أنه يصب عليهم العذاب كما يصب الذنوب. قال تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ انتهى «من الفتوحات» بتصرف.

﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ أصله: فلا يستعجلوني بياء المتكلم؛ أي: فلا يطلبوا منّي أن أعجل في المجيء به؛ لأنَّ له أجلاً معلوماً، فهو نازل بهم في وقته المحتوم. يقال: استعجله إذا طلب وقوعه بالعجلة.

والمعنى: فإنَّ للذين ظلموا أنفسهم باشتغالهم بغير ما خلقوا له من العبادة، وإشراكهم بالله عزّ وجل، وتكذيبهم رسوله نصيباً من العذاب مثل نصيب نظرائهم من الأمم السالفة التي كذبت رسلها. فلا يطلبوا مني أن أعجل بالإتيان به، فإني لا أخاف الفوت، ولا يلحقني عجز. وهذا جواب عن قولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. وكان النضر بن الحارث يستعجل بالعذاب، فأمهل إلى بدر ثم قتل في ذلك اليوم، وصار إلى النار، فعذب أولاً بالقتل ثم بالنار.

﴿فَوَيْلٌ﴾؛ أي: فشدّة عذاب. ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بما جاء به محمد ﷺ وهم أهل مكة. ﴿مِن يَوْمِهِمُ﴾ من للتعليل؛ أي: من أجل يومهم ﴿الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ العذاب فيه. وهو يوم بدر. وهو الأوفق لما تقدم من حيث إنه من العذاب الدنيوي أو يوم القيامة. وهو الأنسب لما في صدر السورة الآتية. وأيّا ما كان فالعذاب آت، وكل آت قريب. ووضع الموصول موضع ضميرهم تسجيلاً عليهم بما في حيز الصلة من

---

(١) روح البيان.

الكفر، وإشعاراً بعلة الحكم. والفاء لترتيب ثبوت الويل لهم على أنَّ لهم عذاباً عظيماً. كما أنَّ الفاء الأولى لترتيب النهي عن الاستعجال على ذلك؛ أي: فويل لهم من حلول ذلك العذاب الذي وعدوه يوم القيامة. حين لا تغني نفس عن نفس شيئاً ولا هم ينصرون.

وقرأ يعقوب[1]: ﴿لِيَعْبُدُونِي﴾، ﴿أَنْ يُطْعِمُونِي﴾، ﴿فلا يستعجلوني﴾ بالياء وقفاً ووصلاً. ووافقه سهل في الوصل. وقرأ الباقون بغير ياء في الحالين.

الإعراب

﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير مستتر يعود على إبراهيم، والجملة مستأنفة ﴿فَمَا﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر، تقديره: إن كنتم ملائكة كما تقولون فأقول لكم: ما خطبكم وشأنكم. ﴿ما﴾ اسم استفهام في محل الرفع، مثلاً ﴿خَطْبُكُمْ﴾ خبره. ﴿أَيُّهَا﴾ ﴿أيّ﴾: منادى نكرة مقصودة، حذف منه حرف النداء للتخفيف، والهاء حرف تنبيه زائد، ﴿الْمُرْسَلُونَ﴾ صفة لـ﴿أيّ﴾، أو بدل منها. والجملة الاسمية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدَّرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب، مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿قَالُوا﴾ فعل، وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿أُرْسِلْنَا﴾ فعل ماض مغير، ونائب فاعل، ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ﴾ متعلق به، ﴿مُجْرِمِينَ﴾ صفة لـ ﴿قَوْمٌ﴾. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾ في محل النصب، مقول ﴿قَالُوا﴾. ﴿لِنُرْسِلَ﴾ ﴿اللام﴾ حرف جر وتعليل، ﴿نرسل﴾ فعل مضارع، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على الملائكة، ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿نرسل﴾، ﴿حِجَارَةً﴾ مفعول به، ﴿مِنْ طِينٍ﴾ صفة لـ ﴿حِجَارَةً﴾. والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام؛ أي: لإرسالنا عليهم حجارة من طين. الجار والمجرور متعلق بـ ﴿نرسل﴾. ﴿مُسَوَّمَةً﴾ صفة ثانية لـ ﴿حِجَارَةً﴾، ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ ظرف متعلق بمسوَّمة، ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ متعلق به أيضاً.

---

(١) النسفي.

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة على محذوف معلوم من السياق، تقديره: فباشروا ما أمروا به. فأخرجنا بقولنا: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ...﴾ إلخ. فهو إخبار من الله تعالى، وليس من كلام الملائكة. كما مرَّ في مبحث التفسير. ﴿أخرجنا﴾ فعل، وفاعل. والجملة معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل النصب، مفعول ﴿أخرجنا﴾، ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص واسمها ضمير يعود على ﴿مَن﴾، ﴿فِيهَا﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حال من الضمير المستكن في خبر ﴿كَانَ﴾، أو ﴿مَن﴾ اسمها. وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لمن الموصولة. ﴿فَمَا﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة، «ما» نافية، ﴿وَجَدْنَا﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿أخرجنا﴾؛ أي: أردنا إخراجهم فما وجدنا حين الإخراج. ﴿غَيْرَ بَيْتٍ﴾ مفعول به لـ ﴿وَجَدْنَا﴾. لأنّه من وجدان الضالّة. ﴿مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ صفة ﴿بَيْتٍ﴾، ﴿وَتَرَكْنَا﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿أخرجنا﴾، ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ﴿تركنا﴾، ﴿ءَايَةً﴾ مفعول به، ﴿لِّلَّذِينَ﴾ صفة لـ ﴿ءَايَةً﴾، ﴿يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به، ﴿ٱلْأَلِيمَ﴾ صفة للعذاب. والجملة صلة الموصول.

﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَفِى مُوسَىٰٓ﴾ معطوف على قوله: ﴿فِيهَا﴾ بإعادة الجار. لأنّ المعطوف عليه ضمير مجرور، فيتعلق بـ ﴿تركنا﴾ من حيث المعنى. ويكون التقدير: وتركنا في قصة موسى آية. أو معطوف على ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾ على معنى: وجعلنا في إرسال موسى آيةً. على حد قوله: علفتها تبناً وماءً بارداً. ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بمحذوف. لأنّه صفة لـ﴿ءَايَةً﴾؛ أي: آية كائنة في وقت إرسالنا إيّاه، أو متعلق بجعلنا المقدر. ﴿أَرْسَلْنَٰهُ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول. والجملة في محل الجر، مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ متعلق بـ ﴿أَرْسَلْنَٰهُ﴾، ﴿بِسُلْطَٰنٍ﴾ حال من ضمير ﴿أَرْسَلْنَٰهُ﴾؛ أي: مؤيّداً بسلطان. ﴿مُّبِينٍ﴾ صفة لـ ﴿سلطان﴾. ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة، ﴿تولى﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿فِرْعَوْنَ﴾. والجملة معطوفة على جملة ﴿أَرْسَلْنَٰهُ﴾. ﴿بِرُكْنِهِۦ﴾ حال من ضمير فرعون؛ أي: متلبساً بركنه. ﴿وَقَالَ﴾

معطوف على ﴿تولى﴾، ﴿سَٰحِرٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هو؛ أي: موسى ساحر. ﴿أَوْ مَجْنُونٌ﴾ معطوف على ساحر. والجملة في محل النصب، مقول قال. و﴿أَوْ﴾ هنا للإبهام على السامع، أو للشك نزل نفسه منزلة الشاكّ مع أنه يعرفه نبياً حقاً تمويهاً على قومه.

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿فَأَخَذْنَٰهُ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة، ﴿أخذناه﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به، معطوف على ﴿تولى﴾. ﴿وَجُنُودَهُۥ﴾ معطوف على ضمير المفعول. ويجوز أن يكون مفعولاً معه. ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة، ﴿نبذناهم﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به، معطوف على ﴿أخذناه﴾، ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾ متعلق بـ ﴿نبذنا﴾. ﴿وَهُوَ﴾ ﴿الواو﴾ حالية، ﴿هو مليم﴾ مبتدأ وخبر. والجملة في محل النصب حال من مفعول ﴿نبذناهم﴾، أو من مفعول ﴿أخذناه﴾. والفرق بين الحالين: أنَّ ﴿الواو﴾ في الأولى واجبة لازمة. إذ ليس فيها ذكر ضمير يعود على صاحب الحال. وفي الثانية ليست واجبة لازمة إذ في الجملة ذكر ضمير يعود عليه. ﴿وَفِى عَادٍ﴾ معطوف على ما تقدم. ويقال فيها: ما قيل: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ﴾؛ أي: وجعلنا في عاد آيةً، وعبرةً للذين يخافون العذاب الأليم. ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بـ جعلنا المقدر، أو صفة لآية، ﴿أَرْسَلْنَا﴾ فعل وفاعل، ﴿عَلَيْهِمُ﴾ متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾ ﴿ٱلرِّيحَ﴾ مفعول به، ﴿ٱلْعَقِيمَ﴾ صفة لـ ﴿ٱلرِّيحَ﴾. والجملة الفعلية في محل الجر، مضاف إليه لـ ﴿إذ﴾. ﴿مَآ﴾ نافية، ﴿تَذَرُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الريح. والجملة في محل النصب حال من الريح. ﴿مِن﴾ زائدة، ﴿شَىْءٍ﴾ مفعول به لـ ﴿تَذَرُ﴾، ﴿أَتَتْ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الريح، ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بـ ﴿أَتَتْ﴾. وجملة ﴿أَتَتْ﴾ صفة لـ ﴿شَىْءٍ﴾، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرّغ لـ ﴿جعل﴾ ﴿الرميم﴾ مضاف إليه للكاف؛ أي: مثل الرميم، وجملة جعل في محل النصب مفعول ثان ﴿جَعَلَتْهُ﴾ فعل، وفاعل مستتر يعود على الريح، ومفعول أول، ﴿كَٱلرَّمِيمِ﴾ الكاف اسم بمعنى مثل، في محل النصب، مفعول ثان لـ ﴿تَذَرُ﴾. كأنّه قيل: ما تترك شيئاً أتت عليه إلا مجعولاً مثل الرميم.

﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ

﴿يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ معطوف على ما تقدم أيضاً. ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى، متعلق بجعلنا المقدّر أو صفة لـ ﴿ءَايَةً﴾، ﴿قِيلَ﴾ فعل ماض، مغير الصيغة، ﴿لَهُمْ﴾ متعلق بـ ﴿قِيلَ﴾، ﴿تَمَتَّعُوا﴾ إلى آخره نائب فاعل، محكيّ لـ ﴿قِيلَ﴾. ويجوز أن يكون ﴿لَهُمْ﴾ نائب فاعل، و﴿تَمَتَّعُوا﴾ الخ مقولاً. وجملة ﴿قِيلَ﴾ في محل الجر، مضاف إليه لـ ﴿إِذْ﴾. وإن شئت قلت: ﴿تَمَتَّعُوا﴾ فعل أمر، وفاعل، ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ جار ومجرور، متعلق بـ ﴿تَمَتَّعُوا﴾. والجملة في محل الرفع، نائب فاعل لـ﴿قِيلَ﴾. ﴿فَعَتَوْا﴾ ﴿الفاء﴾ حرف عطف وتفصيل لإجمال ما تضمّنه قوله: ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ الخ. والتقدير: وجعلنا في ثمود آية، إذ قيل لهم: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، فعتوا عن أمر ربهم، وقيل لهم: تمتعوا حتى حين. ﴿عتوا﴾ فعل وفاعل، معطوف على ذلك المحذوف، ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿عتوا﴾، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ فعل، ومفعول به، وفاعل، معطوف علىٰ ﴿عتوا﴾، ﴿وَهُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَنظُرُونَ﴾ خبره. والجملة في محل النصب، حال من مفعول ﴿أخذتهم﴾.

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿فَمَا﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة، ﴿ما﴾ نافية، ﴿اسْتَطَاعُوا﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿أخذتهم﴾، ﴿مِن﴾ زائدة، ﴿قِيَامٍ﴾ مفعول به، ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿ما﴾ نافية، ﴿كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ فعل ناقص واسمه وخبره، معطوف على ﴿ما استطاعوا﴾. ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿قوم نوح﴾ منصوب بفعل محذوف مفهوم ضمناً؛ أي: وأهلكنا قوم نوح. ولك أن تقدّره: وأذكر قوم نوح. وقرىء بالجر عطفاً على ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾. ﴿مِّن قَبْلُ﴾ جار ومجرور حال من ﴿قوم نوح﴾؛ أي: وأهلكنا قوم نوح حالة كونهم من قبل عاد وثمود، أو متعلق بـ ﴿أهلكنا﴾ المقدر. ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ خبره. وجملة إنّ مستأنفة مسوقة لتعليل الإهلاك، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَالسَّمَاءَ﴾ منصوب على الاشتغال بفعل محذوف وجوباً، والتقدير: وبنينا السماء بنيناها. والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿بَنَيْنَاهَا﴾ فعل، وفاعل، ومفعول والجملة جملة مفسّرة للمحذوف، لا محل لها من الإعراب. ﴿بِأَيْيدٍ﴾ جار ومجرور، حال من فاعل ﴿بَنَيْنَاهَا﴾؛ أي: متلبسين بأيد، أو

من مفعوله؛ أي: متلبسةً بقوّة. ويجوز أن يتعلق ببنيناها، فتكون الباء للسببية؛ أي: بسبب قدرتنا. ﴿وَإِنَّا﴾ ﴿الواو﴾ حالية، ﴿إنا﴾ ناصب واسمه، ﴿لَمُوسِعُونَ﴾ اللام حرف ابتداء، ﴿موسعون﴾ خبره. والجملة في محل النصب، حال من فاعل ﴿بَنَيْنَاهَا﴾. ﴿وَالْأَرْضَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿الأرضَ﴾ منصوب على الاشتغال بفعل محذوف وجوباً، تقديره: وفرشنا الأرض. والجملة المحذوفة معطوفة على جملة ﴿والسَّمَاءَ﴾. ﴿فَرَشْنَاهَا﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به. والجملة مفسّرة؛ لا محل لها من الإعراب. ﴿فَنِعْمَ﴾ ﴿الفاء﴾ استئنافية، ﴿نعم﴾ فعل ماض من أفعال المدح، ﴿الْمَاهِدُونَ﴾ فاعل. والمخصوص بالمدح محذوف، تقديره: نحن، وجملة ﴿نعم﴾ خبره. والجملة إنشائية لا محل لها من الإعراب.

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَمِن﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿من كل شيء﴾ متعلق بـ ﴿خَلَقْنَا﴾ ومضاف إليه. ويجوز أن يكون حالاً من ﴿زَوْجَيْنِ﴾؛ لأنّه في الأصل صفة له. ﴿خَلَقْنَا﴾ فعل، وفاعل، ﴿زَوْجَيْنِ﴾ مفعول به. والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ خبره. والجملة تعليلية لا محل لها من الإعراب. ﴿فَفِرُّوا﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا علمتم أنّ الله فرد لا نظير له ولا نديد، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم فأقول لكم: فرّوا إلى طاعة الله. ﴿فرّوا﴾ فعل أمر، وفاعل. والجملة في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدَّرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿فرّوا﴾ ﴿إِنِّي﴾ ناصب واسمه، ﴿لَكُم﴾ متعلق بـ ﴿نَذِيرٌ﴾، ﴿مِّنْهُ﴾ متعلق به أيضاً، ﴿نَذِيرٌ﴾ خبر إنّ، ﴿مُّبِينٌ﴾ صفة ﴿نَذِيرٌ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. . ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿لَا﴾ ناهية جازمة، ﴿تَجْعَلُوا﴾ فعل، وفاعل، مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية. والجملة معطوفة على جملة ﴿فرّوا﴾. ﴿مَعَ اللَّهِ﴾ ظرف متعلق بمحذوف في موضع المفعول الثاني لـ ﴿جعل﴾. ﴿إِلَٰهًا﴾ مفعول أول لـ ﴿جعل﴾، ﴿آخَرَ﴾ صفة لـ ﴿إِلَٰهًا﴾. وجملة ﴿لا تجعلوا﴾ معطوف على ﴿فرّوا﴾. ﴿إِنِّي﴾ ناصب واسمه، ﴿لَكُم﴾ متعلق بـ ﴿نَذِيرٌ﴾ و﴿مِّنْهُ﴾ متعلق به أيضاً، ﴿نَذِيرٌ﴾ خبر ﴿إنّ﴾، ﴿مُّبِينٌ﴾ صفة لـ ﴿نَذِيرٌ﴾. وجملة إنَّ مستأنفة مسوقة لتعليل النهي.

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف جوازاً، تقديره: الأمر والشأن كذلك؛ أي: أمر الأمم المكذّبة في تكذيب رسولهم، وشأنها كذلك المذكور من تكذيب قومك إيّاك. والجملة مستأنفة. ﴿مَآ﴾ نافية، ﴿أَتَى﴾ فعل ماض، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مفعول به، ﴿مِن قَبْلِهِم﴾ صلة الموصول، ﴿مِن﴾ صلة زائدة، ﴿رَّسُولٍ﴾ فاعل. والجملة مفسرة لجملة ﴿كَذَٰلِكَ﴾. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ، ﴿قَالُوا۟﴾ فعل، وفاعل. والجملة في محل النصب، حال من ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾؛ أي: ما أتاهم رسول إلا حالة قولهم: هو ساحر أو مجنون. ﴿سَاحِرٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هو ساحر، ﴿أَوْ مَجْنُونٌ﴾ معطوف على ﴿سَاحِرٌ﴾. والجملة الاسمية في محل النصب، مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿أَتَوَاصَوْا۟﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري التعجبي، ﴿تواصوا﴾ فعل ماض، والواو فاعل، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿تواصوا﴾. والجملة جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. والمعنى: ما وقع منهم وصية بذلك؛ لأنّهم لم يتلاقوا في زمان واحد، ﴿بَلْ﴾ حرف عطف وإضراب، ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، ﴿قَوْمٌ﴾ خبر، ﴿طَاغُونَ﴾ صفة لـ ﴿قَوْمٌ﴾. والجملة الإضرابية معطوفة على محذوف، تقديره: هم غير متواصين بذلك بل هم قوم طاغون. ﴿فَتَوَلَّ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا كان هذا شأنهم، وأردت بيان ما هو النصيحة لك.. فأقول لك: تولّ عنهم؛ أي: أعرض عن جدالهم. ﴿تولّ﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، ﴿عَنْهُمْ﴾ متعلق بـ ﴿تولّ﴾. والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿فَمَا﴾ ﴿الفاء﴾ تعليلية، ﴿ما﴾ نافية حجازية، ﴿أَنتَ﴾ في محل الرفع، اسمها، ﴿بِمَلُومٍ﴾ خبرها، و﴿الباء﴾ زائدة. والجملة تعليل للأمر بالتولي، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وَذَكِّرْ﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، معطوف على ﴿فَتَوَلَّ﴾. ﴿فَإِنَّ﴾ ﴿الفاء﴾ تعليلية، ﴿إن الذكرى﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ خبره. والجملة تعليلية، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية،

﴿ما﴾ نافية، ﴿خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول، ﴿وَٱلْإِنسَ﴾ معطوف على الجنّ. والجملة مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ، ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ اللام: حرف جر وتعليل، ﴿يعبدون﴾ فعل مضارع، منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعل، والنون المذكورة للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاءاً عنها بكسرة نون الوقاية، أو للفاصلة في محل النصب مفعول به. والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل الجار والمجرور متعلق بـ ﴿خَلَقْتُ﴾؛ أي: وما خلقتهما إلا لعبادتي. ﴿مَآ﴾ نافية، ﴿أُرِيدُ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله سبحانه، ﴿مِنْهُم﴾ متعلق بـ ﴿أُرِيدُ﴾، ﴿مِن﴾ زائدة، ﴿رِّزْقٍ﴾ مفعول به. والجملة مستأنفة. ﴿وَمَآ﴾ الواو: عاطفة، ﴿ما﴾ نافية، ﴿أُرِيدُ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، معطوف على ﴿أُرِيدُ﴾ الأول، ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿يُطْعِمُونِ﴾ فعل مضارع، منصوب بأن المصدرية، وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعل، والنون المذكورة للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بكسرة نون الوقاية، في محل النصب، مفعول به. والجملة الفعلية مع أن المصدرية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية؛ أي: وما أريد منهم إطعامهم إيّاي.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه، ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل، ﴿ٱلرَّزَّاقُ﴾ خبره. والجملة مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ خبر ثان لـ ﴿إنّ﴾ ﴿ٱلْمَتِينُ﴾ خبر ثالث لها. وقيل: نعت لـ ﴿ٱلرَّزَّاقُ﴾ أو لـ﴿ذو﴾، ﴿فَإِنَّ﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت حال الكفرة المتقدمين من عاد، وثمود، وقوم نوح، وأردت بيان حال كفرة قومك فأقول لك: ﴿إنّ للذين ظلموا﴾. ﴿إنّ﴾ حرف نصب، ﴿لِلَّذِينَ﴾ خبر مقدم لـ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿ظَلَمُوا۟﴾ صلة الموصول، ﴿ذَنُوبًا﴾ اسم ﴿إنّ﴾ مؤخر، ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ﴾ صفة لـ ﴿ذَنُوبًا﴾. وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿فَلَا﴾ الفاء: حرف عطف وتفريع ﴿لا﴾ ناهية، ﴿يَسْتَعْجِلُونِ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعل، والنون المذكورة للوقاية، والياء المحذوفة مفعول به. والجملة الفعلية معطوفة مفرّعة على جملة ﴿إنّ﴾. ﴿فَوَيْلٌ﴾ الفاء: عاطفة

تفريعية، ﴿ويل﴾ مبتدأ. وسوّغ الابتداء بالنكرة ما فيه من معنى الدعاء. ﴿لِّلَّذِينَ﴾ خبر المبتدأ. والجملة معطوفة مفرّعة على جملة ﴿إنّ﴾ أيضاً. وجملة ﴿كَفَرُواْ﴾ صلة الموصول، ﴿مِن يَوۡمِهِمُ﴾ جار ومجرور، صفة لويل، و﴿من﴾ بمعنى في؛ أي: في يومهم. ﴿ٱلَّذِى﴾ صفة ليومهم، ﴿يُوعَدُونَ﴾ فعل مضارع، مبني للمجهول، والواو: نائب فاعل. والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: يوعدونه؛ أي: يوعدون العذاب فيه.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فَمَا خَطۡبُكُمۡ﴾؛ أي: شأنكم. والخطب: الشأن الخطير، والأمر الجليل. ومنه: الخطبة؛ لأنها كلام بليغ يستهدف أموراً جليلة؛ أي: فما شأنكم الذي أرسلتم لأجله سوى البشارة.

﴿إِلَىٰ قَوۡمٍ مُّجۡرِمِينَ﴾ هم قوم لوط. وفي «فتح الرحمن»: المجرم فاعل الجرائم. وهي صعاب المعاصي، وكبارها، وفاحشها. ﴿مِّن طِينٍ﴾؛ أي: من طين متحجّر. وهو ما طبخ، وصار في صلابة الحجارة. وهو السجيل. فإنَّ السجيل حجارة من طين طبخت بنار جهنم.

﴿مُّسَوَّمَةً﴾؛ أي: معلمة من السؤمة. وهي العلامة؛ أي: معلمة ببياض أو حمرة، أو بسيما تتميز بها عن حجارة الأرض أو بكتابة اسم من يرمىٰ بها أو مرسلة من سومت الماشية إذا أرسلتها لترعى لعدم الاحتياج إليها. ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾؛ أي: في خزائنه، لا يتصرف فيها غيره تعالى.

﴿لِلۡمُسۡرِفِينَ﴾؛ أي: للمجاوزين الحد في الفجور. إذ لم يقنعوا بما أبيح لهم من النسوان للحرث، بل أتوا الذكران. ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ أي: ممن آمن بلوط.

﴿بِسُلۡطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: بحجة واضحة. وهي ما ظهرت على يديه من المعجزات الظاهرة: كاليد والعصا. والسلطان: مصدر يطلق على المتعدّد. ﴿بِرُكۡنِهِۦ﴾ والركن: ما يركن إليه الشيء، ويتقوى به. والمراد هنا: جنوده وأعوانه، ووزراؤه. كما جاء في سورة هود: ﴿أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾. وفي «الصحاح»: ركن الشيء.. جانبه الأقوى، كالمنكب بالنسبة إلى الإنسان. وقيل: فتولى بما يتقوى به من ملكه وعساكره. فإنّ الركن اسم لما يركن إليه الإنسان. ويكون من مال، وجند، وقوة. فالركن هنا مستعار لجنوده تشبيهاً لهم بالركن الذي يتقوى به

البنيان.

﴿وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ والمجنون: ذو الجنون. وهو زوال العقل وفساده كأنه نسب ما ظهر على يديه من الخوارق العجيبة إلى الجن، وتردد في أنه حصل باختياره وسعيه أو بغيرهما.

﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ والنبذ: إلقاء الشيء، وطرحه لقلة الاعتداد به؛ أي: فطرحناهم في بحر القلزم. ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾؛ أي: ملام؛ أي: آتٍ بما يلام عليه. أصله: ملوم بوزن مفعل اسم فاعل، نقلت حركة ﴿الواو﴾ إلى اللام، فسكنت إثر كسرة فقلبت ياء حرف مد. وفي «المصباح»: ألام الرجل فعل ما يستحق عليه اللوم، اهـ. وفي «المختار»: اللوم: العذل، تقول: لامه على كذا، من باب قال، ولومه أيضاً فهو ملوم، واللائمة، والملامة. وألام الرجل أتى بما يلام عليه. اهـ.

﴿الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾؛ أي: التي لا خير فيها ولا بركة، فلا تلقح شجراً، ولا تحمل مطراً. سميت عقيماً؛ لأنّها أهلكتهم وقطعت دابرهم. من العقم بالضم. وهو هزمة «يُبْسٌ» تقع في الرحم، فلا تقبل الولد، كما في «القاموس».

﴿مَا تَذَرُ﴾؛ أي: ما تترك. يقال: ذره؛ أي: دعه، يذره تركاً، ولا تقل؛ وذراً. وأصله: وذره يذره نحو: وسعه يسعه، لكن ما نطقوا بماضيه، ولا بمصدره، ولا باسم الفاعل. ﴿كَالرَّمِيمِ﴾ والرميم: الشيء البالي من عظم ونبات وغير ذلك؛ أي: كالشيء البالي المتفتت. وفي «القاموس»: رمَّ العظم يرم رمة بالكسر، ورماً ورميماً، وأرم بلي، فهو رميم. وفي «المفردات»: الرمة بالكسر تختص بالعظم، والرمة بالضم بالحبل البالي، والرم بالكسر بالفتات من الخشب والحشيش والتبن.

﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ يقال: عتا عتوا وعتياً وعتيا استكبر، وجاوز الحد، فهو عات وعتي. وأصله: عتووا بواوين: الأولى لام الكلمة، والثانية: واو الجماعة. قلبت الأولى منهما ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت لالتقائهما ساكنة مع واو الجماعة.

﴿الصَّاعِقَةُ﴾ نار تنزل من السماء بالاحتكاكات الكهربية. ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا﴾ أصله: استطوعوا بوزن استفعلوا، نقلت حركة ﴿الواو﴾ إلى الطاء، ثم أبدلت ألفاً لتحركها أصالة وفتح ما قبلها في الحال. ﴿مِنْ قِيَامٍ﴾ أصله: قوام، أبدلت ﴿الواو﴾ في المصدر ياء لوقوعها بعد كسرة، وقبل ألف، كما في صيام ونيام مثلاً.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ وفي «المختار»: آد الرجل اشتد، وقوي، وبابه بلع. والأيد والآد: القوة، اهـ. فالأيد مصدر، لكن يكتب في المصحف بيائين بعد الهمزة وقبل الدال كما نبَّه عليه الخطيب. ورسم المصحف سنة متبعة، وإن لم يعلم له وجه، اهـ شيخنا.

﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ وفي «المصباح»: وسع الله عليه رزقه يوسع وسعاً من باب نفع، بسطه وكثره، وأوسعه ووسعه بالألف، والتشديد مثله. وأوسع الرجل بالألف صار ذا سعة وغنى، اهـ. ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ والفرش كناية عن البسط، والتسوية، اهـ شهاب؛ أي: بسطناها ومهدناها. ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ من مهدت الفراش إذا بسطته، ووطأته. وتمهيد الأمور تسويتها. وفي «المختار»: المهد: مهد الصبيّ، والمهاد: الفرش. ومهد الفراش بسطه ووطأه. وبابه قطع. وتمهيد الأمور تسويتها وإصلاحها، وتمهيد العذر بسطه وقبوله، اهـ.

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ أي: من كل جنس من الحيوان. ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾؛ أي: أمرين متقابلين ذكراً وأنثى. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ بحذف إحدى التاءين. أصله: تتذكرون. ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وفي «المصباح»: فرّ من عدوه يفر من باب ضرب فراراً إذا هرب، وفر الفارس فرًّا أوسع الجولان للإنعطاف، وفر إلى الشيء ذهب إليه.

﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ﴾ أصله: أتواصيوا بوزن تفاعلوا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة. والتواصي: أن يوصي القوم بعضهم إلى بعض.

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أصله: طاغيون، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فسكنت فالتقى ساكنان، فحذفت الياء وضمت الغين لمناسبة الواو. ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فيه إعلال بحذف حرف العلة لام الفعل لمناسبة بناء الأمر على ذلك. ﴿بِمَلُومٍ﴾ أصله: ملووم اسم مفعول من لام، نقلت حركة ﴿الواو﴾ إلى اللام فسكنت فالتقى ساكنان: ﴿الواو﴾ عين الكلمة، وواو مفعول، فحذفت ﴿الواو﴾ الأولى على قول، أو الثانية على قول. فوزنه مفعول على كل حال، أو مفعل.

﴿ٱلْمَتِينُ﴾ من المتانة. وهو شدة القوة. والمتنان: مكتنفا الصلب، وبه شبه المتن من الأرض، ومتنته ضربت متنه، ومتن قوي متنه فصار متيناً. ومنه قيل: حبل متين. ﴿ذَنُوبًا﴾ قال في «المفردات»: الذنوب: الدلو الذي له ذنب، واستعير للنصيب

كما أستعير السجل. وهو الدلو العظيم. وفي «القاموس»: الذنوب: الفرس الوافر الذنب، ومن الأيام الطويل الشر. وهو صفة على زنة فعول. والدلو أو فيها ماء، أو الملأى أو دون الملأى، والحظ، والنصيب. والجمع أذنبة وذنائب وذناب، انتهى.

﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ يقال: استعجله حثه على العجلة، وأمره بها. ويقال: استعجله؛ أي: طلب وقوعه بالعجلة. ومنه قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ ﴿فَوَيْلٌ﴾ والويل: الأشد من العذاب، والشقاء، والهم. ويقال: واد في جهنم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإضمار، بلا ذكر مرجع الضمير في قوله: ﴿مَن كَانَ فِيهَا﴾؛ أي: في قرى قوم لوط لشهرتها، وعلمها من السياق.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ فالركن حقيقة فيما يتقوى به البنيان. فاستعاره للجنود، والجموع. لأنّه يحصل بهم التقوي والاعتماد كما يعتمد على الركن في البناء.

ومنها: الكناية في التولي في قوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ لأنه كناية عن الإعراض؛ أي: فأعرض عن الإيمان بموسى.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾؛ أي: آتٍ بما يلام عليه على حد عيشة راضية. فأطلق اسم الفاعل على اسم المفعول؛ أي: ملام على طغيانه.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ حيث شبه ما في الريح من الصفة التي تمنع من إنشاء مطر أو إلقاح شجر بما في المرأة من الصفة المذكورة التي تمنع الحمل. ثم قيل: العقيم، وأريد به ذلك المعنى بقرينة وصف الريح به. فالمستعار له الريح، والمستعار منه ذات النتاج، والمستعار العقم. وهو عدم النتاج. والمشاركة بين المستعار له والمستعار منه في عدم النتاج. وهي استعارة محسوس لمحسوس للإشتراك في أمر معقول. وهي من ألطف الاستعارات. وفي «الشهاب»: أصل العقم: اليبس المانع من قبول الأثر، كما قاله الراغب. وهو فعيل بمعنى فاعل أو مفعول كما مرّ.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ لأنّ الفرش كناية عن البسط

والتسوية.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾؛ أي: إلا مهيئين ومستعدين للعبادة. وذلك أنني خلقت فيهم العقل، وركزت فيهم الحواس والقدرة التي تمكنهم من العبادة. وهذا لا ينافي تخلف العبادة بالفعل عن بعضهم. لأنَّ هذا البعض المتخلف، وإن لم يعبد الله مركوز فيه الاستعداد والتهيؤ الذي هو الغاية في الحقيقة. وقد شجر خلاف بين أهل السنة والاعتزال حول هذه الآية فلا نطيل الكلام به.

ومنها: التعريض في قوله: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧﴾ فإنَّ فيه تعريضاً بأصنامهم. فإنهم كانوا يحضرون لها المآكل، فربما أكلتها الكلاب، ثم بالت على الأصنام، كما مرّ.

ومنها: الإطناب بتكرار ﴿أُرِيدُ﴾ في قوله: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧﴾ للمبالغة والتأكيد.

ومنها: القصر في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ وهو من قصر الصفة على الموصوف؛ أي: لا رزّاق إلا الله سبحانه. وفيه أيضاً التلويح بأنه سبحانه غني عن كل ما سواه.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا﴾ فإنّه حقيقة في الدلو العظيم، استعارة للحظ والنصيب.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾؛ أي: لهم نصيب من العذاب مثل نصيب أسلافهم المكذبين لأنبيائهم في الشدة والغلظة. لأنّه حذف منه وجه الشبه فهو مجمل.

ومنها: وضع الموصول موضع ضميرهم في قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ تسجيلاً عليهم بما في حيز الصلة من الكفر، وإشعاراً بعلة الحكم.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة الكريمة

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

١ ـ دلائل البعث من العجائب الطبيعية، والعلوم النفسية.

٢ ـ جزاء المتقين بما يلقونه من النعيم يوم القيامة.

٣ ـ أخبار الأمم السالفة التي كذبت رسلها.

٤ ـ تسلية رسول الله ﷺ على ما يلقاه من أذى قومه.

٥ ـ الفرار إلى الله من هذه الدنيا المحفوفة بالمخاطر.

٦ ـ النهي عن الإشراك بالله تعالى.

٧ ـ إخبار رسوله ﷺ بأن قومه ليسوا ببدع في التكذيب بك فقد كذب رسل من قبلك.

٨ ـ أمره ﷺ بالإعراض عنهم، وتذكير من تنفعه الذكرى من المؤمنين.

٩ ـ إخباره بأن الله ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه.

١٠ ـ وعيد الكافرين بأن العذاب سيحل بهم يوم القيامة.

١١ ـ أن المشركين سينالهم نصيب من العذاب مثل نصيب نظرائهم من المكذبين[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) تم تفسير هذه السورة في تاريخ ٢/٥/١٤١٥ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

سورة الطور

سورة الطور مكية، نزلت بعد السجدة. قال القرطبي: مكية في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الطور بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

وهي[1] تسع أو ثمان وأربعون آية، وثلاث مئة واثنتا عشرة كلمة، وألف وخمس مئة حرف.

مناسبتها لما قبلها:

١ ـ إنّ في[2] ابتداء كل منهما وصف حال المتقين.

٢ ـ إنّ في نهاية كل منهما وعيداً للكافرين.

٣ ـ إنّ كلاًّ منهما بدأت بقسم بآية من آياته تعالى الكونية التي تتعلق بالمعاش أو المعاد. ففي الأولى أقسم بالرياح الذاريات التي تنفع الإنسان في معاشه، وهنا أقسم بالطور الذي أنزلت فيه التوراة النافعة للناس في معادهم.

٤ ـ في كل منهما أمر النبي ﷺ بالتذكير، والإعراض عمّا يقول الجاحدون من قول مختلف.

٥ ـ تضمّنت كلتاهما الحجاج على التوحيد والبعث إلى نحو ذلك من المعاني المتشابهة في السورتين، انتهى من المراغي.

وقال أبو حيان: مناسبتها لآخر ما قبلها ظاهرة[3]؛ إذ في آخر تلك: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾، وقال هنا: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧﴾.

تسميتها: سمّيت سورة الطور لذكر الطور ـ الذي هو جبل طور سيناء ـ فيها

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

أقسم الله به تشريفاً وتكريماً وتذكيراً بما فيه من الآيات. وهو أحد جبال الجنّة، قاله السدّي.

فضلها: ومن فضائلها: ما أخرجه البخاري، ومسلم، وغيرهما عن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور.

وأخرج البخاري وغيره عن أمّ سلمة: أنها سمعت رسول الله ﷺ يصلي إلى جنب البيت بالطور وكتاب مسطور. وعنه ﷺ: «من قرأ سورة الطور كان حقًّا على الله أن يؤمّنه من عذابه، وأن ينعمه في جنّته». وفيه مقال.

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال محمد بن حزم: سورة الطور كلها محكم، إلا آيةً واحدةً. وهي قوله: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا...﴾ الآية (٤٨) نسخ الصبر منها بآية السيف.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

المناسبة

وقد تقدّم لك آنفاً بيان مناسبة أوّل هذه السورة لآخر السابقة، وأقسم سبحانه بمخلوقاته[1] العظيمة الدالّة على كمال قدرته، وبديع صنعته، وعدَّ منها أماكن ثلاثةً: الطور، والبيت المعمور، والبحر المسجور لأنبياء ثلاثة كانوا ينفردون للخلوة بربهم، والخلاص من الخلق لمناجاة الخالق. فانتقل موسى إلى الطور، وخاطب ربَّه، وقال: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾، وقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾. وانتقل محمد إلى البيت المعمور، وناجى ربه، وقال: «سلام علينا وعلى عباد الله

---

(١) المراغي.

الصالحين»، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك». وكلّم يونس ربه في البحر، وقال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقرن الكتاب بالطور؛ لأنَّ موسى كان ينزل عليه الكتاب وهو به. وقرن السقف المرفوع بالبيت المعمور، ليعلم عظمة شأن محمد ﷺ. وأقسم بكل هذا علي أن العذاب يوم القيامة نازلٌ بأعدائه الذين يخوضون في الباطل، ويتخذون الدين هزواً ولعباً فيدفعون إلى النار دفعاً عنيفاً، ويقال لهم: هذه هي النار التي كنتم بها تكذّبون، ادخلوها، وقاسوا شدائدها، وسواء علكيم أجزعتم أم صبرتم ما لكم منها مهرب ولا خلاص.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ﴿١٧﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمّا بيّن ما يصيب الكافرين من العذاب الأليم الذي لا دافع له، ولا مهرب منه.. ذكر ما يتمتع به المؤمنون في ذلك اليوم من صنوف اللذّات في المساكن، والمآكل، والمشارب، والفرش، والأزواج بحسب سنن القرآن من ذكر الثواب بعد العقاب ليتم أمر الترغيب بعد الترهيب، حتى يكون المرء بين عاملين عامل الرهبة من بطش ربّه، وعامل الرغبة في رحمته. وكلاهما لا غنىً للمرء عنه؛ ليكمل صلاحه، ويرعوي عن غيّه، ولا يقنط من رحمة ربّه.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنّه سبحانه وتعالى لمّا ذكر ما يتمتع به أهل الجنة من المطاعم والمشارب والأزواج كرماً منه وفضلاً.. أردف ذلك ذكر ما زاده لهم من الفضل والإكرام. وهو أن يلحق بهم ذريتهم المؤمنة في المنازل والدرجات، وإن لم تبلغ بهم أعمالهم ذلك لتقربهم أعينهم إذا رأوهم في منازلهم على أحسن الأحوال. فيرفع الناقص في عمله إلى الكامل فيه، ولا ينقص من عمله هو، ولا منزلته.

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ﴿٢٩﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله[1] سبحانه وتعالى لمّا ذكر فيما سلف أنّ العذاب واقع بالكافرين لا محالة، وأنّ الفريقين المصدقين والمكذبين مجزيون

---

(١) المراغي.

بأعمالهم، وأنَّ الرسول على الحق المبين الذي من كذبه باء بغضب من الله، ومن صدقه استحق رضوانه ومغفرة من لدنه. . أمر رسوله هنا بالثبات على التذكير والموعظة، وعدم المبالاة بما يكيد به أولئك الكائدون فإنه هو الغالب حجة وسيفاً في هذه الدار، ومنزلة ورفعة في دار القرار. ثم ذكر تناقض أقوالهم لينبه إلى فساد آرائهم، وإلى أنهم ما أعرضوا عن الحق إلا اتباعاً للهوى، لا اتباعاً للدليل والبرهان.

وفي ذلك تسلية لرسوله ﷺ، كما لا يخفى؛ إذ ما أبعد حال من كان أرجحهم عقلاً، وأبينهم قولاً منذ ترعرع إلى أن بلغ الأشد من الجنون والكهانة إلى ما في هذا من التناقض والاضطراب. فإن الكهان كانوا من الكملة، وكان قولهم مقنعاً. فأين هذا من الجنون! ثم ترقوا في نسبته إلى الكذب، فقالوا: إنه شاعر، وأعذب الشعر أكذبه. ثم قالوا: فلنصبر عليه، ولنتربص صروف الدهر وأحداثه فسيكون حاله حال زهير، والنابغة، وأضرابهم ممن انقرضوا، وصاروا كأمس الدابر. ثم أمره بتهديدهم بمثل صنيعهم بقوله ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾. ثم زاد في تسفيه أحلامهم بأن مصدر هذا التكذيب إما كتاب أنزل عليهم بذلك، وإما أن عقولهم تأمرهم بما يقولون، لا بل الحق أنهم قوم طاغون يفترون، ويقولون ما لا دليل عليه لا من كتاب، ولا مقتضى له من عقل. ثم زادوا في الإنكار، ونسبوه إلى التقول والافتراء. فإن صح ما يقولون فليأتوا بمثل أقصر سورة من مثل هذا المفترى إن كانوا صادقين، لا بل هم قوم جاحدون لا يؤمنون فليقولوا ما تسوله لهم أنفسهم فإن الله قد أعمى بصائرهم، فهم لا أحلام لهم تميز الحق من الباطل، والغث من السمين. فامض لشأنك، ولا تأبه لمقالتهم، فالله معك ولن يترك شيئاً من أعمالك.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه ابن إسحاق، وابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما

(١) لباب النقول.

قال: إنّ قريشاً لـمّا اجتمعوا إلى دار الندوة في أمر النبي ﷺ قال قائل منهم: احبسوه في وثاق، وتربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء، زهير والنابغة، إنما هو كأحدهم. فأنزل الله في ذلك: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾﴾ ﴿الواو﴾ للقسم. والطور[1] بالسريانية: الجبل. وقال بعضهم: هو عربي فصيح، ولذا لم يذكره الجواليقي في «المعربات». وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الطور: كل جبل ينبت. قال الشاعر:

لَوْ مَرَّ بِالطُّوْرِ بَعْضُ نَاعِقَةٍ ... مَا أَنْبَتَ الطُّوْرُ فَوْقَهُ وَرَقَهْ

وقيل: بل هو جبل محيط بالأرض. والأظهر الأشهر: أنه اسم جبل مخصوص، هو طور سينين. يعني: الجبل المبارك، وهو جبل مدين، واسمه زبير، سمع فيه موسى عليه السلام كلام الله تعالى، ولذا أقسم الله تعالى به. لأنّه محل قدم الأحباب وقت سماع الخطاب.

وقال في «خريدة العجائب»: جبل طور سينا هو بين الشام ومدين. قيل: إنه بالقرب من أيلة. وهو المكلم عليه موسى عليه السلام. كان إذا جاءه موسى للمناجاة ينزل عليه غمام، فيدخل في الغمام ويكلم ذا الجلال والإكرام. وهو الجبل الذي دك عند التجلي، وهناك خر موسى عليه السلام صعقاً. وهذا الجبل إذا كسرت حجارته يخرج من وسطها شجرة العوسج على الدوام. وتعظيم اليهود لشجرة العوسج لهذا المعنى. ويقال لشجرة العوسج: شجرة اليهود، انتهى كلام «الخريدة». والعوسج جمع عوسجة. وهو شجر الشوك، كما في «القاموس».

﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾﴾؛ أي: مكتوب على وجه الانتظام. فإنَّ السطر ترتيب الحروف المكتوبة. والمراد به: القرآن أو ألواح موسى. وهو الأنسب بالطور أو اللوح المحفوظ. وقيل: جميع الكتب المنزلة، أو ما يكتبه الحفظة يخرج إليهم يوم القيامة منشوراً. فآخذ بيمينه، وآخذ بشماله. نظيره قوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

---

(١) روح البيان.

كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾﴾.

﴿فِى رَقٍّ﴾ متعلق بمسطور؛ أي: مكتوب في رقّ؛ أي: في جلد رقيق. ﴿مَّنشُورٍ﴾؛ أي: مبسوط. وقرأ الجمهور[1] ﴿فِى رَقٍّ﴾ بفتح الراء. وقرأ أبو السَّمال في ﴿رق﴾ بكسرها. قال الجوهري: الرق بالفتح: ما يكتب فيه. وهو جلد رقيق، ومنه قوله تعالى: ﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾﴾. وقال المبرد: الرق: ما رق من الجلد ليكتب فيه. والمنشور: المبسوط. قال أبو عبيدة: وجمعه رقوق. وأما الرق بالكسر: فهو المملوك. يقال: عبد رق، وعبد مرقوق.

﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾﴾ في السماء السابعة. وقيل: في سماء الدنيا. ويسمى الضراح[2] بضم الضاد المعجمة. لأنّه ضرح؛ أي: رفع وأبعد، حيث كان في السابعة. ووصفه بالعمارة باعتبار من يدخل إليه من الملائكة، ويعبد الله فيه. وقيل: الكعبة، ووصفها بالعمارة باعتبار عمارتها بالحجاج، والعمار، والمجاورين فيها. وقال بعضهم: المراد بالبيت المعمور: قلب المؤمنين، وعمارته بالمعرفة والإخلاص. فإنَّ كل قلب ليس فيه ذلك فهو خراب، فكأنه لا قلب.

﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾﴾؛ أي: السماء المرفوعة عن الأرض مقدار خمس مئة عام. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾. سمَّاها سقفاً لكونها كالسقف للأرض. وقيل: هو العرش. ولا يخفى[3] حسن موقع العنوان المذكور من حيث اجتماع السقف مع البيت، ومن حيث أن العرش على التقدير الثاني، والبيت المعمور متقاربان تقارب السقف بالبيت.

﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾﴾؛ أي: المملوء ماء. وهو البحر المحيط الأعظم الذي منه مادة جميع البحار المتصلة والمنقطعة. وهو بحر لا يعرف له ساحل، ولا يعلم عمقه إلا الله تعالى. والبحار التي على وجه الأرض خلجان منه. وفي هذا البحر عرش إبليس لعنه الله. وفيه مدائن تطفو على وجه الماء. وهي آهلة من الجن في مقابلة الربع الخراب من الأرض. وفيه من الجزائر المسكونة والخالية ما لا يعلمه

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

إلا الله تعالى. وقيل: معناه: والبحر المحبوس ماؤه من أن يفيض فيغرق جميع ما في الأرض من حيوان ونبات. وقيل: المسجور بمعنى الموقد من السجر. وهو إيقاد النار في التنور، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾﴾. وقد روي: أنّ البحار تسجر يوم القيامة، فتكون ناراً. وهذا على أن يكون البحر بحر الدنيا وبحر الأرض. وقال عليّ رضي الله عنه، وعكرمة: هو بحر تحت العرش عمقه كما بين سبع سموات إلى سبع أرضين، فيه ماء غليظ، يقال له: بحر الحيوان. وهو بحر مكفوف، أي: عن السيلان، يمطر منه على الموتى ماء كالمني بعد النفخة الأولى أربعين صباحاً، فينبتون في قبورهم.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾﴾؛ أي: لنازل حتماً. وهو جواب القسم. قال في «فتح الرحمن»: المراد: عذاب الآخرة للكفّار، لا العذاب الدنيوي؛ أي: كائن لا محالة لمن يستحقه. ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾ يدفعه، ويرده عن أهل النار. وهو كقوله تعالى: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾. وهذه الجملة خبر ثان لـ﴿إن﴾، أو صفة لواقع. و«من» مزيدة للتأكيد. والفرق بين الدفع والرفع: أنّ الدفع بالدال يستعمل قبل الوقوع، والرفع بالراء يستعمل بعد الوقوع. ووجه تخصيص هذه الأمور بالإقسام بها لما أنها من أمور عظام تنبىء عن عظم قدرة الله تعالى وكمال علمه، وحكمته الدالة على إحاطته بتفاصيل أعمال العباد، وضبطها الشاهدة بصدق أخباره التي من جملتها الجملة المقسم عليها.

والمعنى: أي أقسم لك يا محمد بهذا الجبل العظيم الشأن، الذي كلمت فوقه موسى، وأنزلت عليه التوراة التي كتبت بنظام بديع مرتب الحروف في رق منشور، سهل على كل أحد أن يطلع على ما فيها من حكم وأحكام وآداب وأخلاق، وبالكعبة التي يعمرها عشرات الآلاف الذين يهرعون لها كل عام من أرجاء المعمورة، وينسلون إليها من كل حدب كما يعمرها المجاورون لها تبركاً بالعبادة فيها، وطلباً لقبولها عند ربهم، والسقف المرفوع؛ أي: بالعالم العلوي، وما حوى من شموس، وأقمار، وكواكب ثابتة، وسيارت، وما فيه من عرشه، وكرسيه، وملائكته الذين لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون. وبالبحر المحبوس من أن يفيض ماؤه فيغرق جميع ما على الأرض، ولا يبقى ولا يذر من حيوان ونبات، فيفسد نظام العالم، وتعدم الحكمة التي لأجلها خلق. وقد يكون المعنى:

وبالبحر الموقد في باطن الأرض بمنزلة التنور المحمي.

ثم ذكر ما أقسم عليه، فقال: إنّ عذاب ربك يا محمد المحيط بالكافرين المكذّبين بالرسل لواقع يوم القيامة، لا يدفعه عنهم دافع، ولا يجدون من دونه مهرباً جزاء ما دسوا به أنفسهم من الشرك والآثام، ودسوا به أرواحهم من التكذيب بالرسل.

﴿يَوْمَ تَمُورُ﴾ وتضطرب وتتحرك ﴿ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾؛ أي: اضطراباً. وهو ظرف لواقع، مبين لكيفية الوقوع مُنَبِّىء عن كمال هوله وفظاعته، لا لدافع؛ لأنّه يوهم أنّ أحداً يدفع عذابه في غير ذلك اليوم.

والغرض: أنّ عذاب الله لا يدفع في كل وقت. والمور: الاضطراب والتردد في المجيء والذهاب، والجريان السريع؛ أي: تضطرب، وتجيء، وتذهب. قيل: تدور السماء كما تدور الرحى، وتتكفأ بأهلها تكفؤ السفينة. وقيل: يختلج أجزاؤها بعضها في بعض، ويموج أهلها بعضهم في بعض، ويختلطون، وهم الملائكة. وذلك من الخوف.

والمعنى[1]: أي ليس للعذاب دافع في ذلك اليوم الذي ترتج فيه السماء. وهي في أماكنها، وتتحققون أنه لا مانع من عذاب الله، ولا مهرب منه.

﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ﴾ عن أماكنها ﴿سيرا﴾ كسير السحاب، وتزول عن مواضعها، وتطير في الهواء، ثم تقع على الأرض مفتتة كالرمل، ثم تصير كالعهن ـ الصوف المندوف ـ ثم تطيرها الرياح، فتكون هباء منثوراً. كما دل على ذلك ما جاء في سورة النمل.

والحكمة في مور السماء، وسير الجبال: الإعلام والإنذار بأن لا رجوع ولا عودة إلى الدنيا لخرابها، وعمارة الآخرة. وتأكيد[2] الفعلين بمصدريهما للإيذان بغرابتهما، وخروجهما عن الحدود المعهودة؛ أي: موراً عجيباً وسيراً بديعاً، لا يدرك كنههما، كما سيأتي في مبحث البلاغة.

والفاء في قوله: ﴿فَوَيْلٌ﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

مقدر، تقديره: إذا عرفت مور السماء، وسير الجبال في ذلك اليوم وأردت بيان ما سيقع للمكذّبين فأقول لك ويل، وشدة عذاب. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ يقع ذلك المور والسير واقع ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالله ورسوله وباليوم الآخر. وهذا[1] لا ينافي تعذيب غير المكذبين من أهل الكبائر. لأنّ المعنى: أنَّ الويل والعذاب الشديد خاص بالمكذبين.

ثم وصف المكذبين بقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ﴾؛ أي: في اندفاع وانغماس عجيب في الأباطيل والأكاذيب ﴿يَلْعَبُونَ﴾؛ أي: يلهون، ويتشاغلون بكفرهم؛ أي: الذين هم يلعبون، ويلهون، ويتشاغلون في أباطيل، فأفعالهم مثل أفعال الخائض في الماء، فهو لا يدري أين يضع رجله. قال في «فتح الرحمن»: الخوض: التخبط في الأباطيل، شبه بخوض الماء، وغوصه.

والمعنى: أنهم يخوضون في أمر محمد ﷺ بالتكذيب والاستهزاء. وقيل: يخوضون في أسباب الدنيا، ويعرضون عن الآخرة.

وفي «الروح»: قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ﴾ ليس صفة قصد بها تخصيص المكذبين وتمييزهم، وإنما هو للذمّ كقولك: الشيطان الرجيم.

والمعنى: أي فإذا حدث ما ذكر من مور السماء، وسير الجبال فهلاك يومئذٍ للمكذبين الذين يخوضون في الباطل، ويندفعون فيه، لاهين عن الآخرة، لا يذكرون حساباً، ولا يخافون عقاباً.

والظرف في قوله: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ إما بدل من ﴿يَوْمَ تَمُورُ﴾؛ أي: إنّ عذاب ربك لواقع للمكذبين يوم يدعون، ويدفعون ﴿إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ﴾ ويساقون إليها ﴿دَعًّا﴾؛ أي: دفعاً عنيفاً شديداً بأن تغل أيديهم إلى أعناقهم، وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم فيدفعون إلى النار دفعاً عنيفاً على وجوههم وفي أقفيتهم، حتى يردوها. قرأ الجمهور[2] بفتح الدال وتشديد العين. وقرأ علي، والسلميّ وأبو رجاء، وزيد بن عليّ، وابن السميقع بسكون الدال وتخفيف العين مفتوحة. من الدعاء؛ أي: يدعون إلى النار، أو متعلق بقول مقدر قبل قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِ النَّارُ﴾؛ أي: يقال لهم يوم

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

يدعون إلى نار جهنم دعا: هذه النار التي تشاهدونها الآن هي ﴿ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا؛ أي: تكذبون الوحي الناطق بها. والقائل لهم بهذه المقالة هم خزنة النار.

أي: إنَّ عذاب ربك لواقع يوم يدفعون، ويساقون إلى نار جهنم دفعاً عنيفاً. فإذا دنوا منها تقول لهم خزنتها تقريعاً وتوبيخا: هذه النار التي تشاهدونها هي التي كنتم بها تكذبون في الدنيا. وتكذيبهم بها تكذيب للرسول الذي جاء بخبرها، وللوحي الناطق بها.

ثم وبخهم سبحانه أو أمر ملائكته بتوبيخهم، فقال: ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ﴾ الذي ترون، وتشاهدون الآن كما كنتم تقولون لرسل الله المرسلة، ولكتبه المنزلة. وقدم الخبر هنا على المبتدأ؛ لأنَّه الذي وقع الاستفهام عنه، وتوجه التوبيخ إليه.

﴿أَمۡ أَنتُمۡ﴾ عمي عن هذا ﴿لَا تُبۡصِرُونَ﴾ به، كما كنتم عمياً عن الحق في الدنيا. والهمزة في قوله: ﴿أَفَسِحۡرٌ﴾ للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف. والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أكنتم تقولون للوحي: هذا سحر؟ فهذا المصداق؛ أي: هذه النار التي ترونها الآن سحر. والمصداق: ما يصدق الشيء، وأحوال الآخرة ومشاهدتها تصدق أقوال الأنبياء في الإخبار عنها. يعني: أنَّ الذي ترونه من عذاب النار حق. ﴿أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ﴾؛ أي: أم أنتم عمي عن المخبر عنه كما كنتم عمياً عن الخبر، أو أم سدت أبصاركم كما سدت في الدنيا على زعمكم، حيث كنتم تقولون: إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون.

وعبارة زاده: ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ﴾؛ أي: هل في المرئي تلبيس وتمويه، حتى قيل لكم: إنه نار، مع كونه ليس بنار في نفس الأمر، أم هل في بصركم خلل. فكلمة «أم» متصلة، والاستفهام للإنكار؛ أي: ليس شيء منهما ثابتاً. فثبت أنكم قد بعثتم وجوزيتم بأعمالكم، وأنَّ الذي ترونه حق. فهو تقريع شديد، وتهكم فظيع. وبعد هذا التقريع يقال لهم: ﴿ٱصۡلَوۡهَا﴾ إلخ؛ أي: ادخلوها، وقاسوا حرها وشدائدها ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ﴾ عليها إن شئتم ﴿أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ﴾ إن شئتم؛ أي: ادخلوها فافعلوا ما شئتم من الصبر وعدمه. فإنه لا خلاص لكم منها. وهذا على جهة قطع رجائهم.

وكان المشركون في الدنيا ينسبون إلى محمد ﷺ أنه يسحر العقول، ويغطي

الأبصار، فَأَنّبهم على ما قالوا مستهزئاً بهم، وقال لهم: هل ما ترونه بأعينكم الآن مما كنتم تنبئون به في الدنيا من العذاب حق، أو سحرتم أيضاً كما كان يفعل بكم محمد في الدنيا، أو قد غطيت أبصاركم فلا ترى شيئاً، بلى إنه لحق فلم تسحر أعينكم ولم تغط أبصاركم.

والخلاصة: هل في المرئي شك، أو في أبصاركم علل، لا واحد منهما بموجود. فالذي ترونه حق فاصلوها إلخ؛ أي: إذا لم يمكن لكم إنكارها، وتحققتم أن ذلك ليس بسحر، ولم يكن في أبصاركم خلل.. فالآن ادخلوها، وقاسوا شدائدها. فاصبروا على العذاب أو لا تصبروا، وافعلوا ما شئتم.

فالأمران ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ في عدم النفع. قيل أيضاً: تقول لهم الملائكة هذا القول. و﴿سَوَآءٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: الأمران سواء. ويجوز أن يكون مبتدأ، والخبر محذوف؛ أي: سواء عليكم الصبر وعدمه.

وفي قوله[1]: ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ﴾ بيان لعدم الخلاص، وانتفاء لعدم المناص. فإن من لا يصبر على شيء يحاول دفعه إما بإبعاده عنه، وإما بمحقه وإزالته. ولا شيء من ذلك بحاصل يوم القيامة؛ لأنّ عذاب الآخرة ليس كعذاب الدنيا. فإن المعذب في الدنيا إن صبر انتفع بصبره. إما بالجزاء في الآخرة، وإما بالحمد في الدنيا فيقال: ما أشجعه، وما أقوى قلبه. وإن جزع ذم. وقيل فيه: يجزع كالصبيان والنسوان. وأما في الآخرة فلا مدح ولا ثواب على الصبر.

ثم علل استواء الصبر وعدمه بقوله: ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ في الدنيا من الخير والشر، لا الذي تعملون في الآخرة من الصبر، والخضوع، والخشوع، والتضرع، والدعاء. فإنه لا ينفع شيء منها. وإذا كان الجزاء واقعاً حتماً.. كان الصبر وعدمه سواء.

والمعنى[2]: سواء عليكم الأمران: أجزعتم أم صبرتم في عدم النفع، لا بدفع العذاب، ولا بتخفيفه. إذ لا بد أن يكون الصبر حين ينفع، وذلك في الدنيا، لا غير. فمن صبر هنا على الطاعات لم يجزع هناك؛ إذ الصبر وإن كان مرًّا بصلاً لكن

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

آخره حلو عسل.

ولمَّا فرغ سبحانه من ذكر حال المجرمين ذكر حال المتقين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ عن الكفر والمعاصي ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ وبساتين خالدة ﴿وَنَعِيمٍ﴾ مقيم وملاذ دائمة. وهذه الجملة يجوز أن تكون مستأنفة. ويجوز أن تكون من جملة ما يقال للكفّار زيادة في غمهم وحسرتهم. والتنوين في «جنات ونعيم» إما للتفخيم؛ أي: جنات، أيُّ جنّة، ونعيم، أي نعمة بمعنى الكامل في الصفة. وإما للتنويع؛ أي: في جنات ونعيم مخصوصة بالمتقين. والجنة مع كونها أشرف المواضع قد يتوهم أن من يدخلها إنما يدخلها ليعمل فيها، ويصلحها، ويحفظها لصاحبها كما هو شأن ناطور الكرم؛ أي: مصلحه وحافظه. فلما قال: ﴿وَنَعِيمٍ﴾ أفاد أنهم فيها متنعمون كما هو شأن المتفرج بالبستان، لا كالناطور والعمال.

حالة كونهم ﴿فَٰكِهِينَ﴾؛ أي: ناعمين متلذذين ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ وأعطاهم من إنعامه، ورضاه عنهم مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وذلك أن المتنعم قد يستغرق في النعم الظاهرة، وقلبه مشغول بأمر ما. فلمَّا قال: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ تبين أن حالهم محض سرور وصفاء وتلذّذ، ولا يتناولون شيئاً من النعيم إلا تلذّذاً، لا لدفع ألم جوع أو عطش.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ بالألف، وبالنصب على الحال، وخبر ﴿إِنَّ﴾ ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾. وقرأ خالد ﴿فاكهون﴾ بالرفع على أنَّه خبر بعد خبر لـ﴿إِنَّ﴾ عند من يجيز تعدد الخبر، أو هو خبر، و﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ متعلق به. وقرأ ابن عباس ﴿فكهين﴾ بغير ألف. والفكه: طيب النفس، كما تقدم في الدخان. ويقال للأشر والبطر. ولا يناسب التفسير به هنا.

والمعنى[2]: أي إنّ الذين خافوا ربهم، وأخلصوا له العبادة في السر والعلن، وأدوا فرائضه، وتحلوا بآداب دينه، وانتهوا عن معاصيه، ولم يدنسوا أنفسهم بالمعاصي، والآثام، ولم يدسوا أرواحهم بالذنوب يجازيهم ربهم جزاء وفاقاً بجنات يتنعمون فيها، ويجدون ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر

---

(١) الشوكاني.　　(٢) المراغي.

كفاء ما قاسوا به من جليل الأعمال في الدنيا، وما حرموا منه أنفسهم من لذاتها، وما صبروا عليه من مكارهها ابتغاء رضوانه. وهم فيها قريرو الأعين، طيبو النفوس، لا يشغلهم شاغل، ولا يجدون همًّا ولا نصباً، ولا يكدر صفو عيشهم مكدر.

وقوله: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ لبيان[1] أنَّ حالهم كحال من يتمتع بالبستان، لا كالناطور الذي يحرسه. وقوله: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ إشارة إلى أن قلوبهم لا يشغلها هم ولا نصب، بل هم في لذة وسرور وفرح وحبور.

ثم ذكر أنهم تمتعوا بنعمة أخرى قبل هذه فقال: ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ والوقاية: حفظ الشيء مما يؤذيه، ويضره. والجحمة: شدة تأجج النار، ومنه الجحيم؛ أي: جهنم، لأنه من أسمائها. وهو معطوف على ﴿ءَاتَىٰهُمْ﴾ على أنّ «ما» مصدرية؛ أي: متلذذين بسبب إيتاء ربهم، ووقايتهم عذاب الجحيم. فإنها إن جعلت موصولة يكون التقدير: بالذي وقاهم ربهم عذاب الجحيم، فيبقى الموصول بلا عائد، أو معطوف على خبر إنّ، أو الجملة في محل نصب على الحال بإضمار قد. وإظهار الرب في موضع الإضمار مضافاً إلى ضميرهم للتشريف والتعليل. وقرأ أبو حيوة ﴿ووقّاهم﴾ بالتشديد.

وقوله: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ على إضمار القول؛ أي: يقال لهم من قبل خزنة الجنة دائماً: كلوا واشربوا أكلا وشرباً. ﴿هَنِيٓـًٔا﴾؛ أي: مأمون العاقبة من التخم والسقم. فـ﴿هنيئاً﴾ صفة لمصدر محذوف، أو طعاماً وشراباً هنيئاً. فهو صفة مفعول به محذوف. فإنّ في ترك ذكر المأكول والمشروب دلالة على تنوعهما وكثرتهما. ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: بسببه أو بدله[2]. وقيل: الباء زائدة، و«ما» فاعل هنيئاً. والمعنى عليه: هناكم ما كنتم تعملون؛ أي: جزاؤه.

والمعنى[3]: كلوا مما رزقكم ربكم من الطيبات، واشربوا مما لذ وطاب بلا تعب في تحصيل الطعام والشراب، وبلا داء في تناولهما، وبلا خوف نفاد، وبلا إثم كما تشاهدون ذلك في طعام الدنيا وشرابها كفاء ما قدمتم من صالح الأعمال،

---

(١) روح البيان.
(٢) البيضاوي.
(٣) المراح.

وآثرتم من تعب الدنيا لراحة الآخرة. فلا منَّ عليكم في هذا اليوم، وإنما منتي عليكم في الدنيا إذ هديتكم ووفقتكم للأعمال الصالحة؛ لأنّ هذا إنجاز الوعد.

قيل للربيع بن خيثم، وقد صلى طوال الليل: أتعبت نفسك، فقال: راحتها أطلب. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾.

وفي قوله: ﴿هَنِيئًا﴾ إشارة[1] إلى خلو المآكل والمشارب مما ينغصهما؛ فإنّ الآكل قد يخاف المرض فلا يهنأ له الطعام، أو يخاف النفاد فيحرص عليه، أو يتعب في تحصيله وتهيئته بالطبخ والإنضاج، ولا يكون شيء من هذا في الآخرة.

وفي قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إيماء إلى أنَّ هذا إنجاز لما وعدهم ربهم به في الدنيا، فلا من عليهم فيه، بل كان المن عليهم في الدنيا بهدايتهم للإيمان. وتوفيقهم لصالح الأعمال. كما قال: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾.

ثمّ ذكر ما يتمتعون به من الفرش، فقال: ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ حال من الضمير في ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾؛ أي: معتمدين ومستندين ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ جمع سرير. وفي الكلام حذف، تقديره: متكئين على نمارق على سرر مصفوفة. وهو الذي يجلس عليه. وهو من السرور إذا كان ذلك لأولى النعمة. وسرير الميت تشبيه به في الصورة، وللتفاؤل بالسرور الذي يلحق الميت برجوعه إلى الله، وخلاصه من سجنه المشار إليه بقوله ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن». وقرأ أبو السَّمال[2]: ﴿على سرر﴾ بفتح الراء. وهي لغة لكلب في المضعف فراراً من توالي ضمّتين مع التضعيف.

﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾؛ أي: مصطفة، قد صف بعضها إلى جنب بعض، أو مرمولة؛ أي: مزينة بالذهب، والفضة، والجواهر. والظاهر[3]: أنّ جمع السرر مبني على أن يكون لكل واحد منهم سرر متعددة مصطفة معدة لزائريهم. فكل من اشتاق إلى صديقه يزوره في منزله.

قال الكلبيّ: طولها مئة ذراع في السماء، يتقابلون عليها في الزيارة، وإذا أراد

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

أحدهم القعود عليها تطامت واتضعت، فإذا قعد عليها ارتفعت إلى أصل حالها.

والمعنى[1]: أي يجلسون على سرر مصفوف بعضها بجوار بعض جلسة المتكيء الذي لا كلفة عليه، ولا تكلف لديه. فإن من يكون عنده من يكلف له يجلس ولا يتكيء ومن يكون في مهم لا يتفرغ للاتكاء فحالهم حال اطمئنان، ورفع كلفة، وخلو بال. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾.

ثم ذكر ما يتمتعون به من الأزواج، فقال: ﴿وَزَوَّجْنَـٰهُم﴾؛ أي: قرناهم ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾؛ أي: جعلنا لهم قرينات صالحات، وزوجات حسانات، واسعات العيون. واحد الحور: حوراء، وواحد العين: عيناء. وإنما سمين حوراً؛ لأنَّ الطرف يحار في حسنهن، وعيناً لأنهن الواسعات الأعين مع جمالها. والتزويج هنا ليس على أصل معناه: وهو عقد النكاح. بل بمعنى تصييرهم أزواجاً. لأنّه ليس في الجنة تزويج كالدنيا، لأنّ الجنة ليست دار تكليف. فشأن تزوج أهل الجنّة بالحور بقبول بعضهم بعضاً، لا بأن يعقد بينهم عقد النكاح. وقرأ عكرمة[2]: ﴿بحور عين﴾ على الإضافة.

ولمّا فرغ سبحانه من ذكر أهل الجنّة على العموم.. ذكر حال طائفة منهم على الخصوص، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مبتدأ، خبره ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ﴾. ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم﴾؛ أي: نسلهم، معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾ ﴿بِإِيمَـٰنٍ﴾ متعلق بـ ﴿اتبعوا﴾. والتنكير فيه[3] للتقليل؛ أي: بشيء من الإيمان. وتقليل الإيمان ليس مبنياً على دخول الأعمال فيه، بل المراد: قلة ثمرته، ودناءة قدره بذلك. فالتقليل فيه بمعنى التحقير.

والمعنى: واتبعتهم ذريتهم بإيمان في الجملة، قاصرين عن رتبة إيمان الآباء. واعتبار هذا القيد للإيذان بثبوت الحكم في الإيمان الكامل أصالةً، لا إلحاقاً.

﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ أي: أولادهم الصغار والكبار في الدرجة. كما روي: أنه ﷺ قال: «أنه تعالى يرفع ذرية المؤمن في درجته»، وإن كانوا دونه لتقر بهم عينه؛ أي: يكمل سروره. ثم تلا هذه الآية.

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

وفي الآية: دلالة بينة على أن الولد يحكم بإيمانه تبعاً لأحد أبويه، وتحقيقاً للحوقه به. فإنه تعالى إذا جعلهم تابعين لآبائهم، ولا حقين بهم في أحكام الآخرة، فينبغي أن يكونوا تابعين لهم، ولا حقين بهم في أحكام الدنيا أيضاً. قال في «فتح الرحمن»: إنّ المؤمنين اتبعتهم أولادهم الكبار والصغار بسبب إيمانهم. فكبارهم بإيمانهم بأنفسهم، وصغارهم بأن اتبعوا في الإسلام بآبائهم بسبب إيمانهم؛ لأنّ الولد يحكم بإسلامه تبعاً لأحد أبويه إذا أسلم. وهو مذهب أبي حنيفة، والشافعيّ، وأحمد. وقال مالك: يحكم بإسلامه تبعاً لإسلام أبيه دون أمه.

وقيل[1]: إنّ الضمير في ﴿بِهِمْ﴾ راجع إلى الذرية المذكورة أولاً؛ أي: ألحقنا بالذرية المتبعة لآبائهم بإيمان ذريتهم. وقيل: المراد بالذين آمنوا: المهاجرون والأنصار فقط. وظاهر الآية العموم، ولا يوجب تخصيصها بالمهاجرين والأنصار كونهم السبب في نزولها إن صح ذلك. فالاعتبار بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ﴾ بإسناد الفعل إلى الذريّة. وقرأ أبو عمرو ﴿أَتْبَعْنَاهم﴾ بإسناد الفعل إلى المتكلّم كقوله: ﴿أَلْحَقْنَا﴾. وقرأ الجمهور ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ بالإفراد. وقرأ ابن عامر، وأبو عمرو، ويعقوب بالجمع، إلا أن أبا عمرو قرأ بالنصب على المفعولية لكونه قرأ ﴿وأَتْبَعْناهم﴾. ورويت قراءة الجمع هذه عن نافع والمشهور عنه كقراءة الجمهور.

والمعنى: أي إن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرّيتهم في الإيمان.. يلحقهم ربهم بآبائهم في المنزلة فضلاً منه وكرماً، وإن لم يبلغوا بأعمالهم منزلتهم لتقر بهم أعينهم، ويكمل بهم فرحهم وحبورهم لوجودهم بينهم. وروى ابن مردويه، والطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنّ النبي ﷺ قال: «إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه، وزوجته، وولده فيقال له: إنّهم لم يبلغوا درجتك وعملك، فيقول: ربّ قد عملت لي ولهم، فيؤمر بإلحاقهم به».

﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾؛ أي[3]: وما نقصنا الآباء بهذا الإلحاق، وإلا لأبغضوهم في

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط والشوكاني.

(٣) روح البيان.

الدنيا شحاً، كما في «عين المعاني». من ألت يألت كضرب يضرب. ﴿مِّنْ عَمَلِهِم﴾؛ أي: من ثواب عملهم ﴿مِن شَيْءٍ﴾ من الأولى متعلقة بألتناهم، والثانية زائدة.

والمعنى: ما نقصناهم من عملهم شيئاً بأن أعطينا بعض مثوباتهم أبنائهم، فتنتقص مثوبتهم، وتنحط درجتهم. وإنما رفعناهم إلى درجتهم ومنزلتهم بمحض الفضل والإحسان.

وقرأ الجمهور[١]: ﴿أَلَتْنَهُم﴾ بفتح اللام، من ألات. والحسن، وابن كثير بكسرها. وابن هرمز ﴿آلتناهم﴾ بالمد، من آلت على وزن أفعل. وابن مسعود، وأبي ﴿لتناهم﴾ من لات. وهي قراءة طلحة، والأعمش. ورويت عن شبل، وابن كثير، وعن طلحة، والأعمش أيضاً ﴿لتَناهم﴾ بفتح اللام. قال سهل لا يجوز فتح اللام من غير ألف بحال. وأنكر أيضاً آلتناهم بالمدّ كما قرأ ابن هرمز. وقال: لا يروى عن أحد، ولا يدل عليها تفسير ولا عربية. وليس كما ذكر بل قد نقل أهل اللغة آلت بالمد. وقرىء ﴿وما ولتناهم﴾ ذكره ابن هارون. قال ابن خالويه: فكيون الحرف هنا من لات يليت، وولت يلت، وألت يألت، وألات يليت ويؤلت. وكلها بمعنى نقص. ويقال: ألت بمعنى غلظ. فقد قام رجل إلى عمر رضي الله عنه فوعظه فقال رجل: لا تألت أمير المؤمنين؛ أي: لا تغلظ عليه.

والمعنى[٢]: أي وما أنقصنا مثوبات الآباء، وحططنا درجاتهم، بل رفعنا منزلة الأبناء تفضلاً منّا وإحساناً.

وبعد أن أخبر عن مقام الفضل، وهو رفع درجة الذريّة إلى منزلة الآباء من غير عمل لهم.. أخبر عن مقام العدل. وهو أن لا يؤاخذ أحد بذنب أحد فقال: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾؛ أي: كل امرىء مرتهن بعمله، لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس سواء كان أباً أو ابناً. وقد جعل العمل كأنه دين، والمرء كأنه رهن به. والرهن لا ينفك ما لم يؤد الدين. فإن كان العمل صالحاً.. فقد أدى الدين؛ لأنّ العمل الصالح يقبله الله سبحانه ويصعد إليه، وإن كان غير صالح فلا أداء ولا خلاص. إذ لا يصعد إليه غير الطيب. ونحو الآية قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

﴿٣٨ إِلَّا أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ٣٩﴾؛ أي: إنّ كل نفس رهن بعملها عند الله، لا يفك رهنها إلا أصحاب اليمين. فإنهم فكوا عنه رقابهم بما أطاعوه من عملهم وكسبهم. والرهن[1]: ما يوضع وثيقة للدَّين. ولما كان الرهن يتصور منه حبسه أستعير ذلك للمحتبس؛ أيَّ شيء كان. وقال ابن الشيخ: ﴿ما﴾ مصدرية. والفعيل بمعنى المفعول، والعمل الصالح بمنزلة الدين الثابت على المرء، من حيث أنه مطالب به. ونفس العبد مرهونة به. فكما أنَّ المرتهن ما لم يصل إليه الدين لا ينفك منه الرهن كذلك العمل الصالح ما لم يصل إلى الله لا تتخلص نفس العبد المرهونة.

فالمعنى: كل امرىء مرهون عند الله بالعمل الصالح الذي هو دين عليه. فإن عمله، وأداه كما هو المطلوب منه فك رقبته من الرهن، وإلاّ أهلكها.

وفي الآية: وجه آخر، وهو أن يكون الرهين فعيلاً بمعنى فاعل. فيكون المعنى: كل امرىء بما كسب راهن دائم ثابت مقيم. إن أحسن.. ففي الجنة مؤبّداً، وإن أساء.. ففي النار مخلَّداً؛ لأنّ في الدنيا دوام الأعمال بدوام الأعيان. فإنّ العرَض لا يبقى إلا في جوهر، ولا يوجد إلا فيه. وفي الآخرة دوام الأعيان بدوام الأعمال. فإنّ الله يبقي أعمالهم لكونها عند الله تعالى من الباقيات الصالحات، وما عند الله باق. والباقي من الأعيان يبقى ببقاء عمله.

قال في «الإرشاد»: وهذا المعنى أنسب بالمقام. فإنّ الدوام يقتضي عدم المفارقة بين المرء وعمله. ومن ضرورته أن لا ينقص من ثواب الآباء شيءٌ. فالجملة تعليل لما قبلها، انتهى.

وبعد أن ذكر وجوه النعيم فيما سلف ذكر أنّه يزيدهم على ذلك حيناً فحيناً مما يشتهون من فنون النعماء، فقال: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم﴾؛ أي: زدناهم على ما كان لهم من النعيم ﴿بِفَٰكِهَةٍ﴾ متنوعة كثيرة. والفاكهة: هي الثمار كلها. والتنوين فيها للتكثير؛ أي: بفاكهة لا تنقطع كلما أكلوا ثمرة عاد مكانها مثلها. ﴿وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾؛ أي: من اللحوم التي يشتهونها ويستطيبونها، وإن لم يقترحوا ولم يطلبوا.

والمعنى: وزدناهم عل ما كان من مبادي التنعم وقتاً فوقتاً مما يشتهون من

---

(١) روح البيان.

فنون النعماء، وضروب الآلاء. وذلك أنه تعالى لما قال: ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم﴾ ونفى النقصان يصدق بإيصال المساوى دفع هذا الاحتمال بقوله: ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم﴾؛ أي: ليس عدم النقصان بالاقتصار على المساوي بل بالزيادة على ثواب أعمالهم، والإمداد لهم.

و﴿ما﴾[1] في ﴿مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ للعموم لأنواع اللحوم. وفي الخبر: «إنك لتشتهي الطير في الجنة فيخرُّ بين يديك مشويًّا». وقيل: يقع الطائر بين يدي الرجل في الجنة فيأكل منه قديداً ومشويًّا، ثم يطير إلى النهر. وذكر الفاكهة واللحم دون أنواع الطعام الأخرى؛ لأنهما طعام المترفين في الدنيا.

وبعد أن ذكر طعامهم أردفه بذكر شرابهم، وسرورهم لدى احتسائهم له، فقال: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾؛ أي: يتعاطون ﴿فِيهَآ﴾؛ أي: في الجنات، ويتداولون هم وجلساؤهم بكمال رغبة واشتياق. كما ينبىء عنه التعبير بالتنازع الذي هو التعاطي والتداول على طريق التجاذب. يعني: تجاذب الملاعبة لفرط السرور والمحبّة. وفيه نوع لذّة. إذ لا يتصور في الجنة التنازع بمعنى التخاصم.

﴿كَأۡسٗا﴾؛ أي: يتعاطون ويتناولون فيها كؤوساً من خمر، ويتجاذبونها هم وجلساؤهم تجاذب ملاعبة كما يفعل الندامى في الدنيا فيما بينهم لشدّة سرورهم. والكأس: قدح فيه شراب، ولا يسمى كأساً إلا إذا كان فيه شراب، كما لا يسمّىٰ مائدة إلا إذا كان فيه طعام.

والمعنى[2]: ﴿كَأۡسٗا﴾؛ أي: خمراً تسمية لها باسم محلها.

ولمّا كانت الكأس مؤنّثة مهموزة أنّث الضمير في قوله: ﴿لَّا لَغۡوٞ﴾؛ أي: لا باطل من الكلام، ولا ساقط منه. ﴿فِيهَآ﴾؛ أي: في شرب تلك الكأس. فلا يتكلّمون في أثناء الشرب بلغو الحديث، وسقط الكلام.

قال الراغب: اللغو من الكلام: ما لا يُعتدّ به. وهو الذي يورد لا عن روية وفكر. فيجري مجرى اللغا. وهو صوت العصافير ونحوها من الطيور. ﴿وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾ في شربها؛ أي: لا يفعلون ما يأثم به فاعله؛ أي: ينسب إلى الإثم لو فعله في دار

---

(1) روح البيان.

(2) روح البيان.

التكليف من الكذب، والسبّ، والفواحش. كما هو ديدن المنادمين في الدنيا. وإنما يتكلّمون بالحِكَم وأحاسن الكلام، ويفعلون ما يفعله الكرام؛ لأنّ عقولهم ثابتة غير زائلة.

قرأ الجمهور[1]: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ بالرفع، والتنوين فيهما. وقرأ ابن كثير، وابن محيصن، وأبو عمرو بفتحهما من غير تنوين. ومعنى ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾؛ أي: لا فضول من الكلام فيها. ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾؛ أي: لا سِبَابَ ولا تَخاصم فيها. وقد أخبر سبحانه في موضع آخر عن حسن منظرها، وطيب مطعمها، فقال: ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾﴾، ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾، وقال: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

ثم ذكر ما لهم من خدم وحشم في الجنّة، فقال: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: يدور على أهل الجنة بالكؤوس، والفواكه، والأطعمة. من الطواف. وهو المشي حول الشيء. ومنه الطائف لمن يدور حول البيت. وقال هنا، وفي الإنسان: ﴿وَيَطُوفُ﴾ بالواو. حيث قال في الإنسان: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ لأنه معطوف على ما قبله. وقال في الواقعة بلا واو، حيث قال: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾. لأنّه حال أو خبر بعد خبر، انتهى «فتح الرحمن».

﴿غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾؛ أي: مماليك مخصوصون بهم. ولم يضفهم[2] بأن يقول: غلمانهم؛ لئلا يظن أنهم الذين كانوا يخدمونهم في الدنيا، فيشفق كل من خدم أحداً في الدنيا أن يكون خادماً له في الجنة، فيحزن لكونه لا يزال تابعاً. وأفاد التنكير أنّ كل من دخل الجنّة، وجد له خدم لم يعرفهم، كما في «حواشي سعدي المفتي».

وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ . . .﴾ إلخ، حال من ﴿غلمان﴾. لأنّهم قد وصفوا؛ أي: كأنهم في الحسن، والبياض، والصفاء ﴿لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾؛ أي: درّ مستور مصون في الصدف لم تمسه الأيدي. من كننت الشيء إذا سترته، وصنته من الشمس؛ لأنّه رطباً أحسن، وأصفى إذ لم تمسه الأيدي، ولم يقع عليه غبار. أو لؤلؤ مخزون؛ لأنّه لا يخزن إلا الثمين الغالي القيمة.

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

قيل لقتادة: هذا الخادم فكيف المخدوم؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنّ فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب». أخرجه ابن جرير، وابن المنذر. وعنه ﷺ: «إنّ أدنى أهل الجنة منزلة من ينادي الخادم من خدامه فيجيبه ألف ببابه لبّيك لبيك».

والمعنى[1]: أي ويطوف عليهم بالكؤوس مماليك لهم يتصرّفون فيهم بالأمر والنهي والاستخدام، كأنهم اللؤلؤ الرطب المكنون في الأصداف في الحسن، والبهاء. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾.

ثمّ بيّن أنهم في الجنة يتذاكر بعضهم مع بعض في أحوال الدنيا، فقال: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ﴾؛ أي: بعض أهل الجنة ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ آخر، حال كونهم ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾؛ أي: يسأل كل بعض منهم بعضاً آخر عن أحواله، وأعماله، وما استحق به نيل ما عند الله سبحانه من الكرامة. وذلك تلذّذاً واعترافاً بالنعمة العظيمة على حسب الوصول إليها على ما هو عادة أهل المجلس يشرعون في التحادث ليتمَّ به استئناسهم. فيكون كل بعض سائلاً ومسؤولاً، لا أنه يسأل بعض عين منهم بعضاً آخر معيّناً.

أي[2]: يسأل بعضهم بعضاً في الجنة عن حاله، وما كان فيه من تعب الدنيا وخوف العاقبة، فيحمدون الله الذي أذهب عنهم الحزن، والخوف، والهمِّ، وما كانوا فيه من الكدِّ والنكدِ بطلب المعاش، وتحصيل ما لا بدَّ منه من الرزق. وقيل: يقول بعضهم لبعض: بم صِرتم في هذه المنزلة الرفيعة؟ وقيل: إنّ التساؤل بينهم عند البعث من القبور. والأوّل أولى لدلالة السياق على أنهم قد صاروا في الجنة.

وجملة قوله: ﴿قَالُوٓا۟ . . .﴾ إلخ، مستأنفة استئنافاً بيانياً. كأنَّه قيل: ماذا قال بعضهم لبعض عند التساؤل؟ فقيل: قالوا؛ أي: المسؤولون. وهم كل واحد منهم في الحقيقة: ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿قَبْلُ﴾؛ أي: قبل دخول الجنة ﴿فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾؛ أي: خائفين، وجلين من عذاب الله تعالى. أو كنا خائفين من عصيان الله معتنين بطاعة الله. قيّد[3] بقوله: ﴿فِىٓ أَهْلِنَا﴾ فإنّ كونهم بين أهليهم مظنة الأمن. فإذا

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.

خافوا في تلك الحال فلأن يخافوا في سائر الأحوال والأوقات أولى.

يقول الفقير: الظاهر أنَّ هذا الكلام وارد على عرف الناس. فإنهم يقولون: شأننا بين قومنا وقبيلتنا كذا. فهم كانوا في الدنيا بين قبائلهم وعشائرهم على صفة الإشفاق. وفيه تعريض بأنّ بعض أهليهم لم يكونوا على صفتهم، ولذا صاروا محرومين. ويدلّ[1] على هذا أنّ الأهل يفسّر بالأزواج، والأولاد، وبالعبيد والإماء، وبالأقارب، وبالأصحاب، وبالمجموع. كما في «شرح المشارق لابن الملك».

أخرج البزّار عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة اشتاقوا إلى الإخوان، فيجيء سرير هذا حتى يحاذي سرير هذا، فيتحدّثان، فيتكيء ذا ويتكيء ذا، فيتحدّثان بما كانوا في الدنيا، فيقول أحدهما لصاحبه: يا فلانُ أتدري أيَّ يوم غفر الله لنا اليوم الذي كنّا في موضع كذا وكذا، فدعونا الله فغفر لنا، ثم فصل ما يجيب به بعضهم بعضاً، فقال: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾ في الدنيا، ونحن بين أهلنا خائفين من ربنا مشفقين من عذابه وعقابه.

﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ سبحانه؛ أي: تفضّل وأنعم ﴿عَلَيْنَا﴾ بالمغفرة والرحمة، أو بالهداية والتوفيق لطاعته.

يقول الفقير: الظاهر: أنّ المنَّ والإنعامَ إنَّما هو بالجنة ونعيمها، كما دلّ عليه قوله: ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾؛ أي:[2] حفظنا من عذاب النار النافذة في المسامّ؛ أي: ثقب الجسد كالمنخر، والفم، والأذن نفوذ السموم. وهي الريح الحارّة التي تدخل المسامّ. فأطلق على جهنم لنفوذ حرّها في المسام كالسموم. وقرأ أبو حيوة ﴿ووقّانا﴾ بتشديد القاف.

روي: أنَّ عائشة قالت: لو فتح الله على أهل الأرض من عذاب السموم قدر الأنملة لأحرقت الأرض ومن عليها.

ثم تمموا العلة في استحقاقهم للكرامة في تلك الدار بقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل لقاء الله سبحانه، والمصير إليه ﴿نَدْعُوهُ﴾؛ أي:

---

(1) روح البيان.

(2) روح البيان.

نعبده، ونسأله أن يمنّ علينا بالمغفرة والرحمة، فاستجاب دعائنا، وأعطانا سؤلنا. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ أي: لأنّه هو المحسن الكثير الرحمة الواسع الفضل الذي إذ عُبد أثاب، وإذا سئل أجاب. وكل من المؤمن والكافر لا ينسى ما كان له في الدنيا. وتزداد لذّة المؤمن إذا رأى نفسه قد انتقلت من سجن الدنيا إلى نعيم الجنة، ومن الضيق إلى السعة. وتزداد آلام الكافر إذا رأى نفسه انتقل من الترف إلى التلف، ومن النعيم إلى الجحيم.

وقرأ الحسن وأبو جعفر، ونافع، والكسائي[1]: ﴿أنه﴾ بفتح الهمزة؛ أي: لأنّه. وقرأ باقي السبعة ﴿إنّه﴾ بكسر الهمزة. وهي قراءة الأعرج، وجماعة، وفيها معنى التعليل.

والفاء في قوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾ فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدّر تقديره: إذا عرفت يا محمد أنّ في الوجود قوما يخافون الله سبحانه، ويشفقون في أهليهم، وأردت بيان ما هو اللازم لك فأقول لك: أثبت ودم على ما أنت عليه من تذكير المشركين بما أنزل إليك من الآيات والذكر الحكيم، ولا تكترث بما يقولون مما لا خير فيه من الأباطيل.

﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾؛ أي: بسبب إنعام الله عليك بالنبوّة، ورجاحة العقل ﴿بِكَاهِنٍ﴾؛ أي: بمخبر عن المغيبات بلا وحي. ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾؛ أي: ولا زائل عقل، ولا فاسده. والباء[2] متعلقة بمحذوف هو حال؛ أي: ما أنت متلبّساً بنعمة ربك التي أنعم بها عليك من رجاحة العقل بكاهن ولا مجنون. وقيل: متعلقة بمحذوف يدل عليه الكلام؛ أي: ما أنت في حال إذكارك بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون. وقيل: الباء سببية متعلقة بمضمون الجملة المنفية.

والمعنى: انتفى عنك الكهانة والجنون بسبب نعمة الله عليك. كما تقول: ما أنا بمعسر بحمد الله. وقيل: الباء للقسم متوسطة بين اسم ﴿ما﴾ وخبرها. والتقدير: ما أنت ونعمة الله بكاهن ولا مجنون. والكاهن: هو الذي يوهم أنه يعلم الغيب من دون وحي؛ أي: ليس ما تقوله كهانة. فإنك إنما تنطق بالوحي الذي

---

(١) البحر المحيط.   (٢) الشوكاني.

أمرك الله بإبلاغه. والمقصود من الآية: ردّ ما يقوله المشركون: إنه كاهن أو مجنون.

والمعنى: أي[1] فذكر أيها الرسول من أرسلت إليهم من قومك وغيرهم، وعظهم بالآيات والذكر الحكيم، ولا تكثرت بما يقولون فيك من الأكاذيب. وقد انتفت عنك الكهانة والجنون بسبب نعمة الله عليك. والمقصود بذلك: الرد على القائلين بذلك، وإبطاله. فإن ما أوتيته من رجاحة العقل، وعلو الهمة، وكرم الفعال، وصدق النبوّة لكاف جد الكفاية في دحض هذا، وأشباهه. وممن قال: إنه كاهن: شيبة بن ربيعة. وممن قال: إنه مجنون: عقبة بن أبي معيط.

ثم ذكر أنهم ترقوا في الإنكار عليه، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ و﴿أَمْ﴾[2] المكرّرة في هذه الآيات منقطعة بمعنى بل الأضرابية، وهمزة الاستفهام. وقال في «برهان القرآن»: أعاد أم خَمْسَ عَشْرَةَ مرّة. وكلّها إلزامات وليس للمخاطبين بها عنها جواب. وفي «عين المعاني»: ﴿أَمْ﴾ ههنا خمسة عشر. وكلّها استفهام. أربعة للتحقيق والتقرير مع التوبيخ بمعنى بل. ١ - ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾. ٢ - ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ وقد قالوها. ٣ - ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ ٤ - ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾. وقد فعلوهما. وسائرها للإنكار. وفي «فتح الرحمن»: جميع ما في هذه السورة من ذكر ﴿أم﴾ استفهام غير عاطفة. واستفهم تعالى مع علمه بهم تقبيحاً عليهم وتوبيخاً لهم، كقول الشخص لغيره: أجاهل أنت؟ مع علمه بجهله؛ أي: بل أيقول كفّار مكة: هو؛ أي: محمّد ﷺ ﴿شَاعِرٌ﴾ يتقوّل الكلام من تلقاء نفسه. وصفوه بالشعر، لأنهم يعدُّون الشعر دناءة. لأنّ الشعر كان مكسبة وتجارة. وفيه وصف اللئيم عند الطمع بصفة الكريم، والكريم عند تأخر صلته بوصف اللئيم. ومما يدل على شرف النثر أنَّ الإعجاز وقع في النثر دون النظم؛ لأنّ زمن النبيّ ﷺ زمن الفصاحة.

فإن قلت: فإذا كان الإعجاز واقعاً في النثر، فكيف قالوا في حقّ القرآن: شعر، وفي حقّه ﷺ: شاعر؟

قلت: ظنوا أنه ﷺ كان يرجو الأجر على التبليغ. ولذا قال تعالى: ﴿قُل مَّآ

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

﴿أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾. فكان ﷺ عندهم بمنزلة لشاعر، حيث إنّ الشاعر إنما يستجلب بشعره في الأغلب المال، وأيضاً لمّا كانوا يعدون الشعر دناءة حملوا القرآن عليه. ومرادهم عدم الإعتداد به.

قال ابن الشيخ: قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ إلخ، من باب الترقي إلى قولهم فيه: «إنه شاعر». لأنّ الشاعر أدخل في الكذب من الكاهن والمجنون. وقد قيل: أحسن الشعر أكذبه. وكانوا يقولون لا نعارضه في الحال مخافة أن يغلبنا بقوة شعره. وإنا نصبر ونتربص موته وهلاكه كما هلك من قبله من الشعراء. وحينئذٍ تتفرق أصحابه، وإنَّ أباه مات شابًّا، ونحن نرجوا أن يكون موته كموت أبيه.

وذلك قوله تعالى: ﴿نَتَرَبَّصُ﴾؛ أي: ننتظر ﴿بِهِ﴾؛ أي: بذلك الشاعر. والجملة صفة لشاعر. ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾؛ أي: تقلبات الزمان، وحوادث الدهر، ونزول الموت. فإنه إن كان شاعراً فصروف الزمان قد تضعف ذهنه، فيتبين كساد شعره.

وقد سبق آنفاً أنَّ ﴿أَمْ﴾ هنا بمعنى بل الإضرابية، وهمزة الاستفهام التقريري.

والمعنى: أي بل قال كفّار قريش: هو شاعر نتربّص، وننتظر به نوائب الدهر. فيهلك كما هلك غيره من الشعراء: زهير، والنابغة، وطرفة، وغيرهم. أو ننتظر به الموت كما مات أبوه شابًّا. وذلك كما تتمنَّى الصبيان في المكتب موت معلمهم ليتخلصوا من يده، فويل لمن أراد هلاك معلمه في الدين، وكان محروماً من تحصيل اليقين.

روي: أنّ قريشاً اجتمعت في دار الندوة، وذهبت مذاهب شتى في صدّ دعوته ﷺ، ومقابلة هذا الخطر الداهم عليهم، وماذا يفعلون في الخلاص منه. فقال قائل من بني عبد الدار: تربصوا به ريب المنون. فإنّه شاعر، وسيهلك كما هلك زهير، والنابغة، والأعشى. ثم افترقوا على هذه المقالة. فنزلت الآية.

وخلاصة هذا: أنا نبتعد من إيذائه، ونتقي لسانه مخافة أن يغلبنا بقوّة شعره. وإنما سبيلنا معه أن نصبر عليه، ونتربص موته كما مات الشعراء من قبله.

فأمره الله سبحانه أن يهددهم، ويتهكم بهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد جواباً لهم ﴿تَرَبَّصُواْ﴾؛ أي: انتظروا وتمهلوا في ريب المنون. وهذا أمر تهديد. ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾؛ أي: فإني متربص منتظر معكم قضاء الله سبحانه فيَّ وفيكم،

وستعلمون لمن تكون له حسن العاقبة، والظفر في الدنيا والآخرة. وفي هذا عِدَةٌ كريمة بإهلاكهم.

قرأ الجمهور[1]: ﴿نَتَرَبَّصُ﴾ بإسناد الفعل إلى جماعة المتكلمين. وقرأ زيد بن عليّ ﴿يتربص﴾ بالياء مبنياً للمفعول، ﴿ريب المنون﴾ بالرفع على النيابة.

وقد أهلكوا قبل رسول الله ﷺ في يوم بدر، وفي غيره من الأيّام. وقيل[2]: إنَّ معنى الآية: إني أخاف الموت، ولا أتمناه لا لنفسي، ولا لأحد، وإنما أنا نذير فتربصوا موتي، وأنا متربصه. ولا يسرنكم ذلك لعدم حصول ما تتمنون بعدي.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ﴾؛ أي: بل أتأمرهم ﴿أَحْلَٰمُهُم﴾؛ أي: عقولهم السخيفة السفيهة ﴿بِهَٰذَآ﴾ المقال المتناقض، حيث قالوا في حقّ الرسول: هو كاهن مجنون شاعر. فإنّ الكاهن يكون ذا فطنة، ودقة نظر في الأمور، والمجنون مغطى عقله مختل فكره، والشاعر ذو كلام موزون، متسق، مخيل فكيف يجتمع أوصاف هؤلاء في رجل واحد. فالشاعر غير الكاهن وغير المجنون[3]. وفرق عظيم بين من زال عقله، ومن يقول الشعر الحكيم الرصين، ومن يجعل قوله حجة في معرفة أخبار الغيب، ويعتقد أنَّ الجن توحي إليه بما يقول.

وقصارى هذا: أنهم لا أحلام لهم ولا عقول، فدع تفوههم بهذه الأقوال الزائغة المتناقضة. وفي الآية إشارة إلى التربص في الأمور، ودعوة الخلق إلى الله تعالى، والتوكل على الله فيما يجري على عباده، والتسليم لأحكامه في المقبولين والمردودين. إذ كل يجري على ما قضاه الله تعالى.

ثم ذكر السبب الحق في كل ما يعملون، فقال: ﴿أَمْ هُمْ﴾؛ أي: بل أهم ﴿قَوْمٌ طَاغُونَ﴾؛ أي: مجاوزون الحدود في المكابرة والعناد مع ظهور الحقّ، لا يحومون حول الرشد والسداد. ولذلك يقولون ما يقولون من الأكاذيب الخارجة عن دائرة العقول والظنون، أي: بل الحق أن الذي حملهم على أن يقولوا ما قالوا هو طغيانهم، وعنادهم، وضلالهم عن الحق. وقرأ مجاهد[4] ﴿بل هم﴾ مكان ﴿أم هم﴾.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراح.
(٣) المراغي.
(٤) البحر المحيط.

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ محمد ﷺ؛ أي: اختلق القرآن من تلقاء نفسه. ثم قال: إنه من عند الله افتراء عليه تعالى، وليس الأمر كما زعموا. ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ البتة؛ لأن الله سبحانه ختم على قلوبهم. وفي «الإرشاد»: فلكفرهم وعنادهم يرمونه بهذه الأباطيل التي لا يخفى على أحد بطلانها، كيف لا وما رسول الله ﷺ إلا واحد من العرب، أتى بما عجز عنه كافة الأمم من العرب والعجم، وفي كون ذلك مبنياً على العناد إشارة إلى أنهم يعلمون بطلان قولهم، وتناقضه؛ أي: إنَّ كفرهم هو الذي حملهم على هذه المطاعن، وزين لهم أن يقولوا ما قالوا.

ثم رد عليهم جميع ما زعموا، وتحداهم في دحض ما قالوا، فقال: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ والفاء فيه فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره؛ أي:[1] إذا كان الأمر كما زعموا من أنه كاهن أو مجنون أو شاعر، ادّعى الرسالة وتقول القرآن من عند نفسه، فليأتوا بكلام مثل القرآن في النعوت التي استقل بها من حيث النظم، ومن حيث المعنى.

قال في «التكملة»: والمشهور عند القراء ﴿بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ بتنوين حديث، فيكون الضمير في ﴿مِّثْلِهِ﴾ راجعاً إلى القرآن. وقرأ الجحدري[2]، وأبو السمال ﴿بحديث مثله﴾ بالإضافة، فيكون الضمير راجعاً إلى الرسول ﷺ؛ أي[3]: بحديثِ رجل مثل الرسول في كونه أميًّا لم يصحب أهل العلم، ولا رحل عن بلده، أو مثله في كونه واحداً منهم. فلا يجوز أن يكون مثله في العرب فصاحة فليأت بمثل ما أتى به، ولن يقدر على ذلك أبداً.

﴿إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ فيما زعموا. فإنَّ صدقهم في ذلك يستدعي قدرتهم على الإتيان بمثله بقضيّة مشاركتهم له ﷺ في البشرية والعربية مع ما بهم من طول الممارسة للخطب، والأشعار، وكثرة المزاولة لأساليب النظم والنثر والمبالغة في حفظ الوقائع والأيام. ولا ريب في أن القدرة على الشيء من موجبات الإتيان به، ودواعي الأمر بذلك.

والمعنى[4]: أي إن كان شاعراً.. فلديكم الشعراء الفصحاء، أو كاهناً..

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

(٤) المراغي.

فلديكم الكهان الأذكياء، وإن كان قد تقوله.. فلديكم الخطباء الذين يحبرون الخطب، ويجيدون القول في كل فنون الكلام. فهلم فليأتوا بمثل هذا القرآن إن كانوا صادقين فيما يزعمون؛ فإن أسباب القول متوافرة لديهم كما هي متوافرة لديه، بل فيهم من طالت مزاولته للخطب والأشعار، وممارسته لأساليب النظم والنثر، وحفظ أيام العرب، ووقائعها أكثر من محمد ﷺ.

فائدة: واعلم أنَّ الإعجاز إما أن يتعلق بالنظم من حيث فصاحته وبلاغته، أو يتعلق بمعناه، ولا يتعلق به من حيث مادته. فإن مادته ألفاظ العرب، وألفاظه ألفاظهم. قال تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ تنبيهاً على اتحاد العنصر، وأنه منظم من عين ما ينظمون به كلامهم. والقرآن معجز من جميع الوجوه لفظاً ومعنى، ومتميز من خطبة البلغاء ببلوغه حد الكمال في أثنيْ عشر وجهاً. إيجاز اللفظ، والتشبيه الغريب، والاستعارة البديعية، وتلاؤم الحروف والكلمات، وفواصل الآيات، وتجانس الألفاظ، وتعريف القصص والأحوال، وتضمين الحكم والأسرار، والمبالغة في الأسماء والأفعال، وحسن البيان في المقاصد والأغراض، وتمهيد المصالح والأسباب، والإخبار عما كان وما يكون.

الإعراب

﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾.

﴿وَالطُّورِ ۝١﴾ ﴿الواو﴾ حرف جر وقسم، ﴿الطور﴾ مجرور بالواو، الجار والمجرور متعلق بفعل قَسَمٍ محذوفٍ وجوباً، تقديره: أقسم بالطور إنّ عذاب ربّك لواقع. ﴿وَكِتَٰبٍ﴾ معطوف على ﴿الطور﴾، ﴿مَّسْطُورٍ﴾ صفة كتاب، ﴿فِي رَقٍّ﴾ متعلق بـ ﴿مَّسْطُورٍ﴾. ﴿مَّنشُورٍ﴾ صفة ﴿رَقٍّ﴾. ﴿وَالْبَيْتِ﴾ معطوف على ﴿الطور﴾، أو كل منها قسم مستقل بنفسه، وجوابه جميعاً قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ﴾. ﴿الْمَعْمُورِ﴾ صفة لـ ﴿البيت﴾، ﴿وَالسَّقْفِ﴾ معطوف على ﴿الطور﴾ أيضاً، ﴿الْمَرْفُوعِ﴾ صفة لـ ﴿السقف﴾، ﴿وَالْبَحْرِ﴾ معطوف على ﴿وَالطُّورِ ۝١﴾، ﴿الْمَسْجُورِ﴾ صفة لـ ﴿البحر﴾، ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿عَذَابَ﴾ اسمها، ﴿رَبِّكَ﴾ مضاف إليه، ﴿لَوَاقِعٌ﴾ اللام حرف ابتداء، ﴿واقع﴾ خبر ﴿إنّ﴾. وجملة إنّ جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة

القسم مستأنفة. ﴿مَّا﴾. نافية، ﴿لَهُۥ﴾ خبر مقدم، ﴿مِن﴾ زائدة، ﴿دَافِعٍ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة خبر ثان لـ ﴿إنّ﴾.

﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤﴾.

﴿يَوْمَ﴾ منصوب على الظرفية، متعلق بـ ﴿واقع﴾؛ أي: يقع العذاب في ذلك اليوم. وتكون جملة النفي معترضة بين العامل ومعموله. وقيل: الظرف متعلق بـ ﴿دَافِعٍ﴾. ﴿تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ﴾ فعل، وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يَوْمَ﴾. ﴿مَوْرًا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة، ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ﴾ فعل، وفاعل، معطوف على جملة ﴿تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ﴾، ﴿سَيْرًا﴾ مفعول مطلق. ﴿فَوَيْلٌ﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت وقوع العذاب في ذلك اليوم، وأردت بيان حال هؤلاء المكذبين لك.. فأقول لك: ويل للمكذبين لك. ﴿ويل﴾ مبتدأ، وسوّغ الابتداء بالنكرة تضمنه معنى الدعاء. ﴿يَوْمَ﴾ منصوب على الظرفية، متعلق بـ ﴿ويل﴾، ﴿يَوْمَ﴾ مضاف، ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل الجر، مضاف إليه، مبنيّ بسكون مقدر منع من ظهوره اشتغال المحل بحركة التخلّص من التقاء الساكنين لشبهه بالحرف شبهاً افتقارياً. ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ جار ومجرور، خبر المبتدأ. والجملة الاسمية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، ﴿فِى خَوْضٍ﴾ متعلق بـ ﴿يَلْعَبُونَ﴾، وجملة ﴿يَلْعَبُونَ﴾ خبر المبتدأ. والجملة الاسمية صلة الموصول. ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ الظرف فيه بدل من ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩﴾، أو بدل من ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، ﴿يُدَعُّونَ﴾ فعل، ونائب فاعل. والجملة في محل الجر، مضاف إليه لـ ﴿يَوْمَ﴾. ﴿إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يُدَعُّونَ﴾، ﴿دَعًّا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة. ﴿هَٰذِهِ﴾ مبتدأ، ﴿ٱلنَّارُ﴾ خبره. والجملة في محل الرفع نائب فاعل، محكي لقول محذوف، تقديره: ويقال لهم: هذه النار، ﴿ٱلَّتِى﴾ صفة لـ ﴿ٱلنَّارُ﴾، ﴿كُنتُم﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿بِهَا﴾ متعلق بـ ﴿تُكَذِّبُونَ﴾. وجملة ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ خبر كان، وجملة كان صلة الموصول.

﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا

تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿أَفَسِحْرٌ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف. والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره: أكنتم تقولون للوحي هذا سحر فسحر هذا؟ والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿سحر﴾ خبر مقدم، ﴿هَٰذَآ﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة الاسمية معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى بل الأضرابية، وهمزة الإنكار، ﴿أَنتُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿لَا تُبْصِرُونَ﴾ خبره. والجملة مستأنفة، لأنّ الكلام الأول تمّ عند قوله: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾. ويجوز أن تكون متصلة؛ أي: ليس شيء منهما ثابتاً، فثبت أنكم قد بعثتم وجوزيتم بأعمالكم، وأنّ الذي ترونه حقّ. فهو تقريع شديد، وتهكّم فظيع. وبعد هذا التقريع يقال لهم: اصلوها الخ. ﴿ٱصْلَوْهَا﴾ فعل أمر، وفاعل، ومفعول به. والجملة في محل النصب، مقول للقول المحذوف. ﴿فَٱصْبِرُوٓاْ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة، ﴿اصبروا﴾ فعل أمر وفاعل، والجملة معطوفة على ﴿ٱصْلَوْهَا﴾، ﴿أَوْ﴾ حرف عطف، ﴿لَا﴾ ناهية جازمة، ﴿تَصْبِرُواْ﴾ فعل، وفاعل مجزوم بلا الناهية. والجملة معطوفة على ﴿اصبروا﴾. ﴿سَوَآءٌ﴾. خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: صبركم وعدم صبركم مستويان. ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿سَوَآءٌ﴾. والجملة مقول للقول المحذوف. ونحا الزمخشري إلى إعرابها مبتدأ، خبره محذوف؛ أي: سواء عليكم الأمران، وتبعه أبو حيان. ولا مانع من ذلك؛ لأنّ ما في سواء من معنى التسوية أفادها فائدة سوّغت إعرابها مبتدأ. ﴿إِنَّمَا﴾ كافّة ومكفوفة، ﴿تُجْزَوْنَ﴾ فعل مضارع، مغير الصيغة، ونائب فاعل، ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب، مفعول ثان لـ ﴿تُجْزَوْنَ﴾. والجملة الفعلية مقول للقول المحذوف على كونها معللة لما قبلها. ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ خبره. وجملة كان صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف؛ أي: ما كنتم تعملونه.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ناصب واسمه، ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ خبره، ﴿وَنَعِيمٍ﴾ معطوف على ﴿جَنَّٰتٍ﴾. والجملة مستأنفة، مسوقة لبيان بشرى المتقين. ﴿فَٰكِهِينَ﴾ حال من الضمير المستكن في خبر ﴿إِنَّ﴾، ﴿بِمَآ﴾ متعلق بـ ﴿فَٰكِهِينَ﴾، ﴿ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ فعل ومفعول أول، وفاعل، والمفعول الثاني محذوف؛ أي: إيّاه. والجملة صلة لـ﴿ما﴾

الموصولة. ويصح أن تكون ﴿ما﴾ مصدرية؛ أي: بإيتاء ربهم إياهم. ﴿وَوَقَىٰهُمْ﴾ معطوف على الصلة؛ أي: بإيتاء ربهم وبوقايته لهم عذاب الجحيم. ويجوز أن تكون الجملة حالاً، ولكن بتقدير قد. ﴿رَبُّهُمْ﴾ فاعل ومضاف إليه ﴿عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ مفعول ثان، ﴿كُلُواْ﴾ فعل أمر، وفاعل. والجملة في محل النصب مقول للقول المحذوف؛ أي: يقال لهم: كلوا. ﴿وَٱشْرَبُواْ﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿كُلُواْ﴾، ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ حال من الفاعل؛ أي: مهنئين، أو مفعول مطلق؛ أي: أكلاً وشرباً هنيئين. ﴿بِمَآ﴾ متعلق بـ ﴿كُلُواْ﴾، أو ﴿اشربوا﴾. وجملة ﴿كُنتُمْ﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ خبر كان.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾.

﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال من الضمير المستكن في قوله: ﴿فِى جَنَّـٰتٍ﴾؛ أي: كائنون في جنات حال كونهم متكئين، أو من فاعل ﴿كلوا﴾، أو من مفعول ﴿آتاهم﴾، أو من مفعول ﴿وقاهم﴾. ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ متعلق بـ ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾، ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ صفة ﴿سُرُرٍ﴾، ﴿وَزَوَّجْنَـٰهُم﴾ الواو: عاطفة، ﴿زوجناهم﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به، معطوف على خبر ﴿إِنَّ﴾. أعني: في جنات. فهو خبر آخر. ﴿بِحُورٍ﴾ متعلق بـ ﴿زوجناهم﴾. وزوّج يتعدّى إلى المفعولين بنفسه. وعدي إلى الثاني هنا بالباء لتضمينه معنى قرنّاهم. ﴿عِينٍ﴾ صفة ﴿حور﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ الواو: استئنافية، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿ءَامَنُواْ﴾ صلته، ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ﴾ فعل ومفعول به، ﴿ذُرِّيَّتُهُم﴾ فاعل. والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَامَنُواْ﴾. ﴿بِإِيمَـٰنٍ﴾ حال من الذريّة، أي: حالة كون الذرية متلبسة بإيمان. ﴿أَلْحَقْنَا﴾ فعل وفاعل، ﴿بِهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿أَلْحَقْنَا﴾، ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ مفعول به. والجملة في محل الرفع خبر ﴿ٱلَّذِينَ﴾. والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَمَآ﴾ الواو: عاطفة، ﴿ما﴾ نافية، ﴿أَلَتْنَـٰهُم﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به. والجملة معطوفة على ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ﴾. ﴿مِّنْ عَمَلِهِم﴾ حال ﴿مِّن شَىْءٍ﴾، ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ ﴿مِن﴾ زائدة، ﴿شَىْءٍ﴾ مفعول ثان لـ ﴿أَلَتْنَـٰهُم﴾. ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍ﴾ مبتدأ ومضاف إليه، ﴿بِمَآ﴾ الباء حرف جر، ﴿ما﴾ موصولة أو مصدرية، والجار والمجرور متعلق بـ ﴿رَهِينٌ﴾، ﴿كَسَبَ﴾ فعل ماض و﴿رَهِينٌ﴾ خبر ﴿كُلُّ﴾. والجملة الاسمية معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه.

﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم﴾ فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿أَلْحَقْنَا﴾. ﴿بِفَٰكِهَةٍ﴾ متعلق بـ ﴿أمددنا﴾، ﴿وَلَحْمٍ﴾ معطوف على ﴿فاكهة﴾، ﴿مِّمَّا﴾ جار ومجرور، صفة لـ ﴿لحم﴾، وجملة ﴿يَشْتَهُونَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف؛ أي: مما يشتهونه ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾ فعل وفاعل والجملة مستأنفة أو حال من مفعول ﴿أمددناهم﴾ ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾ ﴿كَأْسًا﴾ مفعول به. ومعنى يتنازعون كأساً: يتجاذبونها تجاذب ملاعبة كما مر. إذ أهل الدنيا لهم لذّة في ذلك. وقيل: معناه: يتعاطونها. ﴿لَّا﴾ نافية للجنس مهملة لتكرّرها، ﴿لَغْوٌ﴾ مبتدأ، خبره ﴿فِيهَا﴾، وسوّغ الابتداء تقدّم النافي عليها. والجملة الاسمية في محل النصب، صفة لـ ﴿كَأْسًا﴾. ﴿وَلَا﴾ الواو: عاطفة، ﴿لَا﴾ زائدة زيدت لتأكيد ﴿لا﴾ الأولى، ﴿تَأْثِيمٌ﴾ معطوف على ﴿لَغْوٌ﴾.

﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَيَطُوفُ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿يطوف﴾ فعل مضارع، ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق به، ﴿غِلْمَانٌ﴾ فاعل، ﴿لَّهُمْ﴾ صفة لـ ﴿غِلْمَانٌ﴾. والجملة معطوفة على ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾. ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿لُؤْلُؤٌ﴾ خبره، ﴿مَّكْنُونٌ﴾ صفة ﴿لُؤْلُؤٌ﴾، وجملة ﴿كأن﴾ صفة ثانية لـ ﴿غِلْمَانٌ﴾، أو حال منه. ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾، ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ متعلق بـ ﴿أقبل﴾، وجملة ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ حال من الفاعل، ومن المجرور بـ ﴿عَلَىٰ﴾.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿قَالُوٓا۟﴾ فعل، وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿كُنَّا﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿قَبْلُ﴾ في محل النصب على الظرفية الزمانية، مبني على الضم لشبهه بالحرف شبهاً افتقارياً لافتقاره إلى المضاف إليه المحذوف، والظرف متعلق بمحذوف حال من اسم كان. ﴿فِىٓ أَهْلِنَا﴾ متعلق بـ ﴿مُشْفِقِينَ﴾، و﴿مُشْفِقِينَ﴾ خبر

كان. وجملة كان في محل الرفع خبر إنّ، وجملة إن في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾. ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة، ﴿من الله﴾ فعل، وفاعل. والجملة في محل الرفع، معطوفة على جملة كان. ﴿عَلَيْنَا﴾ متعلق بـ ﴿مَنَّ﴾، ﴿وَوَقَىٰنَا﴾ فعل، ومفعول أول، وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ مفعول ثان. والجملة معطوفة على جملة ﴿من الله﴾.

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿كُنَّا﴾ في محل الرفع خبر إنّ، وجملة إنّ في محل النصب، مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾. ﴿مِن قَبْلُ﴾ جار ومجرور، متعلق بمحذوف حال من اسم كان. ﴿نَدْعُوهُ﴾ فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به. والجملة الفعلية في محل النصب خبر كان. ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل، ﴿ٱلْبَرُّ﴾ خبر أول لـ﴿إنَّ﴾، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ خبر ثان له، وجملة إنّ في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾ على كونها معللة لما قبلها. ﴿فَذَكِّرْ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أنّ في عباد الله مشفقين، وأردت بيان ما هو اللازم لك... فأقول لك. ﴿ذكّر﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد. والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿فَمَآ﴾ ﴿الفاء﴾ تعليلية، ﴿ما﴾ نافية حجازية، ﴿أَنتَ﴾ في محل الرفع، اسمها، ﴿بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بما في ما من معنى النفي، فتكون الباء سببية. وهذا أرجح الأوجه الجارية هنا. والمعنى: انتفت عنك الكهانة، والجنون بسبب نعمة ربك عليك. وقال أبو البقاء: إنّ الباء في موضع نصب على الحال، والعامل فيها ﴿بِكَاهِنٍ﴾ أو ﴿مَجْنُونٍ﴾. والمعنى: ما أنت كاهناً ولا مجنوناً حال كونك متلبساً بنعمة ربك. وقيل غير ذلك. ﴿بِكَاهِنٍ﴾ الباء زائدة، ﴿كاهن﴾ خبر لما الحجازية، ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾ معطوف عليه. وجملة ما الحجازية جملة تعليلية، لا محل لها من الإعراب. ﴿أَمْ﴾ منقطعة مبعنى بل الأضرابية، وهمزة الاستفهام التقريري كما مر. ﴿يَقُولُونَ﴾ فعل، وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿شَاعِرٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هو شاعر. والجملة في محل النصب مقول ﴿يَقُولُونَ﴾، وجملة ﴿نَّتَرَبَّصُ﴾ صفة لـ

﴿شَاعِرٌ﴾، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿نَّتَرَبَّصُ﴾، ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ مفعول به. ﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد. والجملة مستأنفة. ﴿تَرَبَّصُواْ﴾ فعل أمر، وفاعل. والجملة في محل النصب مقول قل. ﴿فَإِنِّى﴾ ﴿الفاء﴾ تعليل للأمر المقصود به التهديد، ﴿إني﴾ ناصب واسمه، ﴿مَعَكُم﴾ حال من اسم إنّ. ﴿مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ خبر إنّ، وجملة إنّ في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ على كونها تعليلية للأمر المقصود به التهديد.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿أَمْ﴾: حرف إضراب بمعنى بل، وهمزة الاستفهام، ﴿تَأْمُرُهُمْ﴾ فعل، ومفعول به، ﴿أَحْلَٰمُهُم﴾ فاعل، ﴿بِهَٰذَآ﴾ متعلق بـ ﴿تَأْمُرُهُمْ﴾. والجملة استفهامية إضرابية، لا محل لها من الإعراب. ﴿أَمْ﴾ حرف عطف، ﴿هُمْ قَوْمٌ﴾ مبتدأ وخبر، ﴿طَاغُونَ﴾ صفة ﴿قَوْمٌ﴾. والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى بل الأضرابية، وهمزة الاستفهام التقريري، ﴿يَقُولُونَ﴾ فعل، وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿تَقَوَّلَهُۥ﴾ فعل، وفاعل، مستتر، ومفعول به. والجملة في محل النصب مقول ﴿يَقُولُونَ﴾. ﴿بَل﴾ حرف إضراب، ﴿لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿يَقُولُونَ﴾. ﴿فَلْيَأْتُواْ﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أنهم يقولون تقوّله، وأردت بيان ما هو اللازم لهم... فأقول لك فليأتوا إلخ. واللام لام الأمر، ﴿يأتوا﴾ فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، والواو فاعل، ﴿بِحَدِيثٍ﴾ متعلق بـ ﴿يأتوا﴾، ﴿مِّثْلِهِۦٓ﴾ صفة لـ ﴿حديث﴾. والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدّرة مستأنفة. ﴿إِن﴾ حرف شرط، ﴿كَانُواْ﴾ ﴿صَٰدِقِينَ﴾ فعل ناقص واسمه وخبره في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وجواب إن الشرطية محذوف دلَّ عليه ما قبله، تقديره: إن صدقوا في هذا القول... فليأتوا بحديث مثله، وجملة إن الشرطية مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾﴾ بالسريانية: الجبل. والمراد به: طور سينين. وهو الجبل الذي كلَّم الله عليه موسى عليه السلام. أقسم الله سبحانه به تشريفاً وتكريماً وتذكيراً بما

فيه من الآيات. وهو أحد جبال الجنة، قاله السدّيُّ. وقيل: إن الطور كل جبل ينبت الشجر المثمر، وما لا ينبت فليس بطور.

وقال المبرّد: يقال لكل جبل: طور. فإذا دخلت الألف واللام المعرفة فهو شيء بعينه.

﴿وَكِتَٰبٖ﴾ والمراد بالكتاب هنا: ما كتب من الكتب السماوية: كالقرآن، والتوراة، والإنجيل.

﴿مَّسۡطُورٖ﴾؛ أي: متفق الكتابة بسطور مصفوفة في حروف مرتبة جامعة لكلمات متفقة، اهـ خطيب. وفي «المختار»: السطر: الصف من الشيء، يقال: بني سطراً. والسطر أيضاً: الخط والكتابة. وهو في الأصل مصدر، وبابه نصر. وسطر أيضاً بفتحتين. والجمع أسطار، كسبب وأسباب. وجمع الجمع أساطير وجمع السطر أسطر وسطور كأفلس وفلوس، اهـ.

﴿فِي رَقّٖ﴾ الرق بالفتح والكسر: الجلد الرقيق الذي يكتب فيه. وجمعه رقوق. والرق بالكسر: المملوك. قال الراغب: الرق: كل ما يكتب فيه جلداً كان أو غيره. وهو بفتح الراء على الأشهر. ويجوز كسرها كما قرىء به شاذًّا. وأما الرق الذي هو ملك الأرقاء فهو بكسر الراء، لا غير.

﴿مَّنشُورٖ﴾؛ أي: مبسوط، غير مطويّ، وغير مختوم عليه. قوله: ﴿تَمُورُ﴾ أصله: تمور بوزن تفعل، نقلت حركة ﴿الواو﴾ إلى الميم، فسكنت إثر ضمة، فصارت حرف مدّ. ﴿مَوۡرٗا﴾ مصدر من مار يمور كقال يقول قولاً. والمور: الاضطراب والتردد في المجيء والذهاب، والجريان السريع؛ أي: تضطرب، وتجيء وتذهب اضطراباً.

﴿وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ﴿١٠﴾﴾؛ أي: تزول عن وجه الأرض فتصير هباءً منثوراً. وأصله تسير بوزن تفعل بكسر العين، نقلت حركة الياء إلى السين فسكنت إثر كسرة فصارت حرف مدًّ.

﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ﴿٤﴾﴾ هو الكعبة المعمورة بالحجاج والمجاورين. ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ﴿٥﴾﴾ هو السماء. ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ﴿٦﴾﴾؛ أي: الموقد المحمي. من سجر النار؛ أي: أوقدها. وعني به باطن الأرض. وهو الذي دل عليه الكشف الحديث،

ولم تعرفه الأمم قديماً. وقد أشارت إليه الأحاديث. فعن عبد الله بن عمر: «لا يركبنَّ رجل البحر إلا غازياً أو معتمراً أو حاجّاً؛ فإنَّ تحت البحر ناراً، وتحت النار بحراً».

وقد أثبت علماء طبقات الأرض ـ الجيلوجيا ـ أنَّ الأرض كلها كبطيخة، وقشرتها كقشرة البطيخة؛ أي: إنّ نسبة قشرة الأرض إلى النار التي في باطنها كنسبة قشرة البطيخة إلى باطنها الذي يؤكل، فنحن الآن فوق نار عظيمة؛ أي: فوق بحر مملوء ناراً. وهذا البحر مغطي من جميع جهاته بالقشرة الأرضية المحكمة السدّ عليه. ومن حين إلى آخر تتصاعد من ذلك البحر نار تظهر في الزلازل، والبراكين، كبركان فيزوف الذي هاج بإيطاليا سنة (١٩٠٩ م)، وابتلع مدينة مسينا، والزلزلة التي حدثت باليابان سنة (١٩٢٥ م)، وخرّبت مدناً بأكملها.

﴿فِي خَوْضٍ﴾ وأصل الخوض: السير في الماء، ثم استعمل في الشروع في كل شيء، وغلب في الخوض في الباطل. كالإحضار فإنه عامّ في كل شيء، ثم غلب استعماله في الإحضار للعذاب.

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾﴾؛ أي: يدفعون دفعاً عنيفاً شديداً بأن تغل أيديهم إلى أعناقهم، وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم، ويدفعون إلى النار، ويطرحون فيها. والدع: الدفع الشديد، وأصله أن يقال للعاثر: دع دع. أصله: يدعُعون بوزن يفعلون، نقلت حركة العين الأولى إلى الدال فسكنت، فأدغمت في العين الثانية. وقوله: ﴿دَعًّا﴾ وزنه فعل، أدغمت العين في اللام. وفي «المختار»: دعَّه دفعه، وبابه ردّ. ومنه قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾﴾.

﴿اصْلَوْهَا﴾ في «المصباح»: صلي بالنار، وصليها صلي من باب تعب وجد حرها والصلاء وزان كتاب حر النار، وصليت اللحم أصليه من باب رمي شويته. وأصله: اصليوها، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح ثم حذفت لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة.

﴿فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ النعيم: الدعة، والراحة، والتنعم، والترفه. والاسم النعمة بالفتح. قال الراغب: النعيم: النعمة الكثيرة، وتنعم تناول ما فيه النعمة وطيب العيش، ونعمه تنعيماً جعله في نعمة؛ أي: لين عيش. وفي «البحر»: التنعم

استعمال ما فيه النعومة واللين من المأكولات والملبوسات.

﴿فَٰكِهِينَ﴾؛ أي: ناعمين متلذّذين. في «القاموس»: الفاكه: صاحب الفاكهة، وطيب العيش، والضحوك، والناعم الحسن العيش. كما أنَّ الناعمة والمنعمة: الحسنة العيشة.

﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أصله: أتيهم بوزن أفعل، أبدلت الهمزة الساكنة ألفاً حرف مد للأولى، وقلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها. ﴿وَوَقَىٰهُمْ﴾ الوقاية، حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره. ﴿عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ من الجحمة. والجحمة: شدة تأجج النار. ومنهم الجحيم؛ أي: جهنّم؛ لأنه من أسماءها كما مر.

﴿هَنِيٓـًٔا﴾ والهنيء، والمريء صفتان من هنوء الطعام ومروء، إذا كان سائغاً سهلاً بحيث لا يورث الكدر من التخم والسقم وسائر الآفات.

﴿بِحُورٍ﴾ الحور بوزن فعل، جمع حوراء كسود جمع سوداء. من الحور. وهو شدة بياض العين في شدة سوادها. ﴿عِينٍ﴾ جمع عيناء. وهي الواسعة العينين. وقياسه فعل بضم ﴿الفاء﴾ كما جمع حوراء على ذلك إلا أنه لما كانت عينه ياء كسرت فاؤه، فقيل: عين بوزن فعل بكسر الفاء.

﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾ أي: نقصناهم. من ألت يألت من باب ضرب. قال في «القاموس»: ألته حقًّا يألته نقصه كألته إيلاتاً.

﴿بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ والرهن: ما يوضع وثيقة للدين. ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم﴾ أصل المد: الجر. وأكثر ما جاء الإمداد في المحبوب، والمد في المكروه. وفي «القاموس»: الإمداد: تأخير الأجل، وأن تنصر الأجناد بجماعة غيرك، والإعطاء، والإغاثة. ﴿بِفَٰكِهَةٍ﴾ الفاكهة: ثمار الأشجار. ﴿مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أصله: يشتهيون، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فلما سكنت التقى ساكنان، فحذفت ثم ضمت الهاء لمناسبة الواو.

﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا﴾ يقال: نزع الشيء جذبه من مقره كنزع القوس من كبدها. والتنازع والمنازعة: المجاذبة، ويعبَّر بها عن المخاصمة والمجادلة. والمراد بالتنازع هنا: التعاطي والتداول على طريق التجاذب.

﴿كَأْسًا﴾ والكأس: قدح فيه شراب، ولا يسمى كأساً ما لم يكن فيه شراب.

كما لا تسمى مائدة ما لم يكن عليها طعام. ﴿لَّا لَغْوٌ﴾ قال الراغب: اللغو من الكلام: ما لا يعتد به. وهو الذي يورد لا عن روية وفكر، فيجري مجرى اللغا. وهو صوت العصافير، كما مرّ.

﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ والتأثيم: فعل ما يأثم فاعله؛ أي: ينسب إلى الإثم لو فعله في دار التكليف من الكذب، والسب، والفواحش.

﴿وَيَطُوفُ﴾ من الطواف. وهو المشي حول الشيء، والدوران به. ومنه: الطائف لمن يدور حول البيوت حافظاً لها. أصله: يطوف بوزن يفعل بضم العين نقلت حركة ﴿الواو﴾ إلى الطاء فسكنت إثر ضمة، فصارت حرف مد.

﴿غِلْمَانٌ﴾ جمع غلام. وهو الطار الشارب. ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ﴾ واللؤلؤ: جوهر بحريٌّ أبيض براق. ﴿مَّكْنُونٌ﴾؛ أي: مصون محفوظ في صدفه، ووعائه الذي خلق فيه.

﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ فيه إعلال بالقلب. أصله: وقينا، تحركت الياء وانفتح ما قبلها، قلبت ألفاً. وفي «المفردات»: السموم في الأصل: الريح الحارَّة التي تؤثر تأثير السم، فأطلقت على جهنم لنفوذ حرها في المسام كالسموم.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ قال الراغب: البرُّ: خلاف البحر، وتصور منه التوسع، فاشتق منه البر؛ أي: التوسع في فعل الخير، وينسب ذلك تارة إلى الله تعالى. نحو: إنه هو البر الرحيم، وإلى العبد تارة فيقال: بر العبد ربه؛ أي: توسع في طاعته. فمن الله الثواب، ومن العبد الطاعة.

﴿بِكَاهِنٍ﴾ وفي «المفردات»: الكاهن الذي يخبر بالأخبار الماضية الخفية بضرب من الظن كالعراف الذي يخبر بالأخبار المستقبلة على نحو ذلك، ولكون هاتين الصّناعتين مبنيتين على الظن الذي يخطىء ويصيب. قال ﷺ: «من أتى عرافاً أو كاهناً.. فصدقه بما قال فقد كفر بما أنزل الله على محمد». ويقال: كهن فلان كهانة إذا تعاطي ذلك، وكهن إذا تخصص بذلك، وتكَّهن تكلف ذلك وفي القاموس كهن له كجعل ونصر وكرم، كهانة بالفتح، وتكهّن تكهناً وتكهيناً قضى له بالغيب، فهو كاهن. والجمع كهنة، وكهان، وحرفته الكهانة بالكسر، انتهى.

﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾ وهو من به جنون. وهو زوال العقل أو فساده. وفي «المفردات»: الجنون: الحائل بين النفس والعقل. وفي «التعريفات»: الجنون: اختلال العقل بحيث يمنع جريان الأفعال والأقوال على نهج العقل إلا نادراً.

﴿نَّتَرَبَّصُ﴾ التربص: الانتظار بالشيء من انقلاب حال له إلى خلافها. ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ الريب: ما يقلق النفوس؛ أي: يورث قلقاً واضطراباً لها من حوادث الدهر، وتقلبات الزمان. فهو بمعنى الرائب من قولهم: رابه الدهر، وأرابه إذا: أقلقه. والمنون: الدهر، والموت، والكثير الامتنان كالمنونة. وسمَّاه ريباً لا من حيث إنه مشكك في كونه، بل من حيث إنه يشكك في وقت حصوله. فالإنسان أبداً في ريب المنون من جهة وقته، لا من جهة كونه. وعلى هذا قال الشاعر:

ٱلـنَّـاسُ قَـدْ عَـلِـمُـوا أَنْ لاَ بَـقَـاءَ لَـهُـمْ   لَـوْ أَنَّـهُـمْ عَـمِـلُـوا مِـقْـدَارَ مَـا عَـلِـمُـوا

وهو في الأصل فعول، من منه إذا: قطعه؛ لأنّ الدهر يقطع القويَّ، والموت يقطع الأماني والعمر.

﴿قُلْ تَرَبَّصُواْ﴾ قال الراغب: التربص: انتظار الشخص سلعة كان يقصد بها غلاء، أو رخصاً، أو أمراً ينتظر زواله، أو حصوله. انتهى. ﴿أَحْلَٰمُهُم﴾؛ أي: عقولهم. وفي «القاموس»: الحلم بالضم وبضمتين: الرؤيا. والجمع أحلام. والحلم بالكسر: الأناة والعقل، والجمع أحلام وحلوم. ومنه: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم﴾ وهو حليم، والجمع حلماء وأحلام، انتهى.

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ والتقول: تكلف القول، ولا يستعمل إلا في الكذب. ﴿فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ أصله: يأتيون بوزن يفعلون بكسر العين، حذفت منه نون الرفع لدخول لام الأمر، ثمّ استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فلمّا سكنت التقى ساكنان، فحذفت الياء وضمت التاء لمناسبة الواو.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإلتزام في قوله: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢﴾ فإنّه قد جاءت

الطاء قبل واو الردف لازمةً.

ومنها: تنكير ﴿كتاب﴾، و﴿رق﴾، في قوله: ﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣﴾ للتفخيم، أو للإشعار بأنهما ليسا مما يتعارفه الناس.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَرَقّٖ﴾ لأنه حقيقة في جلد الحيوان الرقيق، ثم استعير لكل ما يكتب فيه من الصحائف والألواح.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا﴾، وقوله: ﴿وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ۝١٠﴾.

ومنها: طباق السلب بين قوله: ﴿ٱصۡبِرُوٓاْ﴾، وقوله: ﴿لَا تَصۡبِرُواْ﴾ وفيه أيضاً من الإهانة والتوبيخ ما لا يخفى.

ومنها: تأكيد الفعلين بمصدريهما في قوله: ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ۝١٠﴾ للإيذان بغرابتهما وخروجهما عن الحدود المعهودة؛ أي: موراً عجيباً وسيراً عجيباً، لا يدرك كنههما.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصليّة في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ۝١٢﴾ حيث شبّه التخبّط والاندفاع في الأباطيل بخوض الغائص في الماء بجامع الانغماس في كل. فاستعار له اسمه على طريق الاستعارة التصريحية الأصليّة.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣﴾.

ومنها: الاستفهام التوبيخي التقريعيّ في قوله: ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ۝١٥﴾.

ومنها: إظهار الرب في موضع الإضمار مضافاً إلى ضميرهم في قوله: ﴿وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ للتشريف والتعليل.

ومنها: ترك ذكر المأكول والمشروب في قوله: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ دلالة على تنوّعهما، وكثرتهما.

ومنها: تنكير ﴿إيمان﴾ في قوله: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ إفادة للتقليل؛ أي: بشيء من الإيمان.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا

بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍۚ كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾؛ لأنّ الــرهــن حقيقة فيما يوضع وثيقة للدين. فاستعاره للمحتبس بأيّ شيء كان من عمله.

ومنها: تنكير ﴿فاكهة﴾ في قوله: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ﴾ إفادة للكثرة وعدم الانقطاع؛ أي: بفاكهة كثيرة لا تنقطع، كلّما أكلوا ثمرة عاد مكانها مثلها.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿كَأْسًا﴾؛ أي: خمراً، تسمية لها باسم محلها.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ حيث شبه الغلمان باللؤلؤ المكنون في الأصداف. لأنّه أحسن وأصفى، أو لأنّه مخزون، ولا يخزن إلا الثمين الغالي القيمة. فهو تشبيه مجمل؛ لأنّه حذف منه وجه الشبه.

ومنها: التعريض في قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ لأنّ فيه تعريضاً بأنّ بعض أهلهم لم يكونوا على صفتهم، ولذا صاروا محرومين، حيث قال: ﴿مُشْفِقِينَ﴾؛ أي: خائفين من عصيان الله سبحانه.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصليّة في قوله: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ شبهت حوادث الدهر بالريب الذي هو الشكّ بجامع التحيّر، وعدم البقاء على حالة واحدة في كل منهما. واستعير لفظ الريب لصروف الدهر وتواليه على طريق الاستعارة التبعية.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم﴾ فقد أسند الأمر إلى الأحلام. وقد كان العرب يتفاخرون بعقولهم، فأزرى الله بها، حيث لم تثمر لهم معرفة الحق والباطل. ويجوز اعتبارها استعارة مكنية إن أريد التشبيه. وكل مجاز عقلي يصح أن يكون استعارة مكنية، ولا عكس. كما هو مقرر في محله.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لما[1] أثبت رسالة محمد ﷺ، ورد عليهم ما زعموا من أنه كاهن، أو شاعر، أو مجنون، وأمره أن يذكر الناس، ويبشرهم، وينذرهم، ولا يأبه لمقالتهم، فالله ناصره عليهم.. انتقل إلى الرد عليهم في إنكارهم للخالق كما هو شأن الدهريين، أو في ادعائهم لله شريكاً كما هو شأن كثير من العرب الذين قالوا: الملائكة بنات الله، وقالوا: ما نعبد الأوثان، والأصنام إلا ليقربونا إلى الله زلفى، وبعد أن أقام عليهم الحجة في كل ذلك، وسد عليهم المسالك.. طلب إليه أن يتوكل عليه، وأن يعلم أن كيدهم لا يضره شيئاً، فالله ناصره عليهم، وسيظهر دينه، ويتم له الغلبة والفلج عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا...﴾ الآيات إلى آخر السورة، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر مزاعمهم في النبوة، وبين فسادها بما لم يبق بعده وجه للعناد والمكابرة. ثم أعقبه بالرد عليهم في جحوده للألوهية إما بإنكارها بتاتاً، وإما بادعاء الشريك، أو باتخاذه الولد، سبحانه وتعالى

---

(١) المراغي.

عما يصفون. أردف هذا بيان أن هؤلاء قوم بلغوا حدّاً في العناد أصبحوا به يكابرون في المحسوسات فضلاً عن المعقولات، فدعهم وشأنهم حتى يأت اليوم الذين لا مرد له يوم لا تنفعهم حبائلهم وشراكهم التي كانوا ينصبون مثلها في الدنيا، ولا يجدون لهم إذ ذاك وليًّا ولا نصيراً. وأنَّ الله سيصيبهم بعذاب من عنده في الدنيا قبل ذلك اليوم. وأنه ناصرك عليهم، وكالئك بعين رعايته. واذكر ربك حين تقوم من منامك، ومن مجلسك، وحين تغيب النجوم، ويصبح الصباح، وتغرد الأطيار مسبحة منزهة خالق السموات والأرض قائلة: سبوح قدوس رب الملائكة والروح.

التفسير وأوجه القراءة

﴿أَمْ خُلِقُوا۟﴾ و﴿أم﴾ هنا وفيما بعده منقطعة، تقدر ببل الإضرابية، وهمزة الاستفهام الإنكاري، كما مر؛ أي: بل أخلقوا، وأحدثوا، وقدّروا على هذه الكيفية البديعة والصنعة العجيبة.

﴿مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾؛ أي[1]: من غير خالق لهم، ولا مقدر، ولا محدث، ولا موجد. فـ ﴿مِن﴾ لابتداء الغاية. قال الزجاج؛ أي: أخلقوا باطلاً وعبثاً لغير شيء لا يحاسبون، ولا يؤمرون، ولا ينهون. وجعل ﴿مِن﴾ تعليلية بمعنى اللام؛ أي: أخلقوا من أجل لا شيء عليهم من عبادة ولا جزاء. وقال ابن كيسان: أخلقوا عبثاً، وتركوا سدى، لا يؤمرون، ولا ينهون. وقيل: المعنى: أم خلقوا من غير أب، ولا أم. فهم كالجماد لا يفهمون، ولا تقوم عليهم الحجة.

﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ لأنفسهم. فلذلك لا يعبدون الله تعالى؛ أي: بل أيقولون هم الخالقون لأنفسهم فلا يؤمرون، ولا ينهون مع أنهم يقرون أن الله خالقهم وإذا أقروا لزمتهم الحجة.

ومعنى الآية[2]: أي كيف ينكرون الخالق الموجد، فهل هم خلقوا هذا الخلق البديع الصنع من غير خالق ولا موجد، والعقل يشهد بأن كل ما يوجد من العدم لا بد له من موجد. ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾؛ أي: بل أهم أوجدوا أنفسهم، والضرورة والعقل يكذبان ذلك. إذ يلزم من هذا أن الشيء يكون مقدماً في الوجود على نفسه.

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

فهم باعتبار أنهم خالقون مقدمون على أنفسهم في الوجود باعتبار أنهم مخلوقون. وهذا بين البطلان.

﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وهم لا يدعون ذلك، فلزمتهم الحجة. ولهذا أضرب عن هذا، وقال: ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾؛ أي: ليسوا على يقين من الأمر، بل يتخبطون في ظلمات الشك في وعد الله ووعيده. فأم للاستفهام الإنكاري بمعنى النفي؛ أي[1]: ما خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون بأنّ الله واحد. فإذا سئلوا من خلقكم، وخلق السموات والأرض؟ قالوا: الله، وهم غير موقنون بما قالوا، وإلا لما أعرضوا عن عبادته؛ أي: لما لم ينشأ من إيقانهم بالله أثر، وهو الإقبال على عبادته جعل إيقانهم كالعدم، فنفي عنهم. وفي هذا تسلية للنبي ﷺ؛ أي: إنهم كما طعنوا فيك يا محمد طعنوا في خالقهم، فلا تحزن لعدم إيمنهم ولا تبخع نفسك عليهم.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ﴾ رحمة ﴿رَبِّكَ﴾ ورزقه. فهو على حذف مضاف؛ أي: هل عندهم خزائن النبوّة، ومفاتيح الرسالة فيضعونها حيث شاؤوا، ويمسكونها عمن شاؤوا؛ أي: أعندهم خزائن علمه وحكمته، حتى يختاروا لها من اقتضت الحكمة اختياره. وقيل: هل عندهم خزائن أرزاق العباد فيعطونها من شاؤوا، ويحرمونها من شاؤوا.

﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾؛ أي: بل أهم المسلطون الجبارون الغالبون على الأمور، يدبرونها كيفما شاؤوا، حتى يدبر أمر الربوبية، ويبنوا الأمور على إرادتهم ومشيئتهم. وفي «عين المعاني»: بل أهم الأرباب المسلطون على الناس فيجبرونهم على ما شاؤوا. جمع مسيطر، من السطر كأنه يخط للمسلط عليه خطّاً لا يجاوزه. وفي «كشف الأسرار»: المسيطر: المسلط القاهر الذي لا يكون تحت أمر أحد ونهيه، ويفعل ما يشاء. وفي «القاموس»: السطر: الصف من الشيء كالكتاب، والشجر وغيره، والخط والكتابة. ويحرك في الكل كما سيأتي.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿المصيطرون﴾ بالصاد الخالصة. وهشام، وقنبل، وابن

---

(١) المراح. (٢) البحر المحيط.

محيصن وحميد، ومجاهد، وحفص بخلاف عنه بالسين الخالصة. وهو الأصل. ومن أبدلها صاداً فلأجل حرف الاستعلاء. وهو الطاء. وقرأ خلف عن حمزة، وخلاد عنه بخلاف عنه بصاد مشمة زاياً. والمراد: أنه ليس الأمر كذلك بل الله هو المالك المتصرف الفعال لما يريد.

﴿أَمْ لَهُمْ﴾؛ أي: بل ألهم ﴿سُلَّمٌ﴾؛ أي: مصعد ومرقى منصوب ممدود إلى السماء ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ خبر السماء، وكلام الملائكة، وما يوحى إليهم من علم الغيب حال كونهم صاعدين ﴿فِيهِ﴾؛ أي[1]: في ذلك السلم حتى يعلموا ما هو كائن من الأمور التي يتقولون فيها رجماً بالغيب، ويعلقون بها أطماعهم الفارغة. وفي «كشف الأسرار»: فيه؛ أي: عليه، كقوله: ﴿فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾؛ أي: عليها.

فإن كانوا يدعون ذلك ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: فليأتوا بحجة تبين أنهم على الحق ما أتى محمد ﷺ بالبرهان الدال على صدق قوله فيما جاءهم به من عند ربه.

وبعد أن رد على الذين أنكروا الألوهية بتاتاً.. ردَّ على من قالوا: الملائكة بنات الله. وسفه أحلامهم إذ اختاروا له البنات ولأنفسهم البنين، فقال: ﴿أَمْ لَهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾؛ أي: بل أَلربكم البنات ولكم البنون ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾. وهذا[2] إنكار عليهم، حيث جعلوا لله ما يكرهون، أو تسفيه لهم، وتركيك لعقولهم، وإيذان بأن من هذا رأيه لا يكاد يعد من العقلاء، فضلاً عن الترقي بروحه إلى عالم الملكوت، والتطلع على الأسرار الغيبية.

وذلك أن من جعل خالقه أدنى حالاً منه بأن جعل له ما لا يرضى لنفسه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾. فإنه لم يستبعد منه أمثال تلك المقالات الحمقاء.

والالتفات إلى الخطاب لتشديد ما في ﴿أَمْ﴾ المنقطعة من الإنكار والتوبيخ. والمعنى؛ أي[3]: بل أيضيفون إلى الله سبحانه البنات، وهي أضعف الصنفين،

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

ويجعلون لأنفسهم البنين وهم أعلاهما. ومن كان هذا رأيه فهو بمحل سافل في الفهم والعقل، فلا يستبعد منه إنكار البعث، وجحد التوحيد.

ثم رجع سبحانه إلى خطاب رسوله، وأعرض عنهم، فقال: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾؛ أي: بل أتسأل يا محمد هؤلاء المشركين الذين أرسلناك إليهم على ما تدعوهم إليه من توحيد الله وطاعته ﴿أَجْرًا﴾ وجعلا تأخذه من أموالهم ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ﴾؛ أي: من غرامة ما حملتهم من الأجرة؛ أي: من التزام غرامة تطلبها منهم ﴿مُّثْقَلُونَ﴾؛ أي: متعبون، مجهودون، مثقلون بحملهم ذلك المغرم الثقيل. فلا يقدرون على إجابتك إلى ما تدعوهم إليه. فالمغرم مصدر ميمي بمعنى الغرم. ولا بد من تقدير مضاف. يعني: لا عذر لهم أصلاً، والدين لايباع بالدنيا. فالأجر على الله تعالى، كما قال: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾. وقد سبق تحقيقه في مواضع متعددة.

﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ﴾؛ أي: بل أعندهم علم ما غاب عن الخلق. أو المعنى: هل عندهم[1] اللوح المحفوظ المثبت فيه الغيوب ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ما فيه للناس فينبئونهم بما شاؤوا، ويخبرونهم بما أرادوا. ليس الأمر كذلك. إذ لا يعلم غيب السموات والأرض إلا الله.

قال قتادة: وهذا جواب[2] لقولهم: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾. يقول الله تعالى: أم عندهم الغيب حتى علموا أن محمداً يموت قبلهم، فهم يكتبون؛ أي: يحكمون بما يقولون.

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾؛ أي: ألا يكتفون بهذه المقالات الفاسدة، ويريدون مع ذلك أن يكيدوا بك كيداً وإساءة. وهو كيدهم برسول الله ﷺ في دار الندوة، ومكرهم بالقتل، أو الحبس، أو الإخراج. فإن الكيد هو الأمر الذي يسوء من نزل به سواء كان في نفسه حسناً أو قبيحاً. فالاستفهام في المعطوف للتقرير، وفي المعطوف عليه للإنكار.

وقال سعدي المفتي: الظاهر: أنه من الإخبار بالغيب. فإن السورة مكية وذلك الكيد كان وقوعه ليلة الهجرة. فإن قيل: فليكن نزول الطور في تلك الليلة.

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

قلنا: قد ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه نزل بعدها بمكة ﴿تَبَارَكَ﴾ الملك وغيرها من السور، انتهى.

وقال في «فتح الرحمن»: والظاهر أنه من الإخبار بالغيب. فإنّ السورة مكية، وذلك الكيد كان وقوعه ليلة الهجرة. ثم أهلكهم الله تعالى ببدر عند انتهاء سنين. عدتها عدة ما هنا من كلمة ﴿أَمْ﴾. وهي خمس عشرة. فإن بدراً كانت في الثانية من الهجرة. وهي الخامسة عشرة من النبوة. وأذلهم في غير موطن. ومكر سبحانه بهم: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ القصر فيه إضافي؛ أي: هم الذين يحيق بهم كيدهم، أو يعود عليهم وباله، لا من أرادوا أن يكيدوه. فإنه المظفر الغالب عليهم قولاً وفعلاً حجةً وسيفاً، أو هم المغلوبون في الكيد من كايدته فكدته. فالمراد: ما أصابهم يوم بدر من القتل، كما مرّ آنفاً.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ يعينهم، ويحرسهم من عذابه تعالى؛ أي: بل أيدعون أن لهم إلهاً غير الله تعالى يحفظهم، ويرزقهم، وينصرهم.

ثم نزه سبحانه نفسه عن هذه المقالة الشنيعة، فقال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾؛ أي: تنزه الله تعالى: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي[1] عن إشراكهم به. فما مصدرية، أو عن شركة ما يشركونه به، فما موصولة. والمضاف مقدر، وكذا العائد.

ثم ذكر سبحانه بعض جهالاتهم، فقال: ﴿وَإِن يَرَوْا﴾؛ أي: وإن يرى هؤلاء المشركون ﴿كِسْفًا﴾؛ أي: قطعة ﴿مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ عليهم لتعذيبهم. وفي «عين المعاني»: قطعة من العذاب، أو من السماء، أو جانباً منها. من الكسف وهو التغطية، كالكسوف. والكسف والكسفة بمعنى واحد. وهو القطعة من الشيء. ﴿يَقُولُوا﴾ من فرط طغيانهم، وشدة عنادهم: هو ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾؛ أي: متراكم غليظ يمطرنا؛ أي: هم في طغيان بحيث لو أسقطناه عليهم حسبما قالوا: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ لقالوا: هذا السحاب سحاب تراكم؛ أي: ألقي بعضه على بعض يمطرنا، ولم يصدقوا أنه كسف ساقط للعذاب.

---

(١) روح البيان.

وفي «التأويلات النجمية»: يعني: أنهم وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ حتى شاهدوه بالعين.. لقالوا إنما سكرت أبصارنا. وليس هذا عياناً عن مشاهدة. وقد تقدم[1] اختلاف القراء في ﴿كِسَفًا﴾. قال الأخفش: يعني: بكسر الكاف وفتح السين جعله جمعاً.

والمعنى[2]: أي إنَّ هؤلاء قوم ديدنهم العناد، والمكابرة. فلو رأوا بعض ما سألوا من الآيات، فعاينوا كسفاً من السماء ساقطاً لكذَّبوا، وقالوا: هذا سحاب بعضه فوق بعض؛ لأنّ الله قد ختم على قلوبهم، وأعمى أبصارهم. فأصبحوا ينكرون ما تبصره الأعين، وتسمعه الآذان.

ثم أمر الله سبحانه رسوله لله أن يتركهم، فقال: ﴿فَذَرْهُمْ﴾؛ أي: فاتركهم يا محمد، وخلهم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟﴾ ويشاهدوا ﴿يَوْمَهُمُ﴾ مفعول به، لا ظرف ﴿ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾؛ أي: يموتون، ويهلكون. وهو على البناء للمفعول. من صعقته الصاعقة، أو من أصعقته أماتته، وأهلكته. قال ابن الشيخ: المقصود[3] من الجواب عن الاقتراح المذكور: بيان أنهم مغلوبون بالحجة، مبهوتون، وأن طعنهم ذلك ليس إلا للعناد والمكابرة، حتى لو أجبناهم في جميع مقترحاتهم لم يظهر منهم إلا ما يبنى على العناد والمكابرة. فلذلك رتب عليه قوله: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ بالفاء. وهو أمر موادعة، منسوخ بآية السيف.

والمعنى: أي فدعهم وشأنهم، ولا تكترث بهم، حتى يأتي اليوم الذي يجاوزن فيه بسيئات أعمالهم. وهو يوم بدر، قاله البقاعيّ. وهو الظاهر في الآية، لا النفخة الأولى كما قيل. إذ لا يصعق بها إلا من كان حيًّا حينئذٍ.

وقرأ الجمهور:[4] ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟﴾. وقرأ أبو حيوة ﴿يلقوا﴾. وقرأ الجمهور ﴿يَصْعَقُون﴾ بفتح الياء بالبناء للفاعل. وقرأ ابن عامر، وعاصم على البناء للمفعول. وقرأ السلمي بضم الياء، وكسر العين من أصعق الرباعيّ.

وقوله: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى﴾ ولا يدفع ﴿عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ من الإغناء في رد

---

(1) الشوكاني.

(2) المراغي.

(3) روح البيان.

(4) البحر المحيط.

العذاب، أو شيئاً من عذاب الله سبحانه، بدل من ﴿يَوْمَهُمُ﴾؛ أي: لا ينفعهم في ذلك اليوم كيدهم الذي كادوا به رسول الله ﷺ في الدنيا. ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ من جهة الغير في رفع العذاب عنهم؛ أي: ولا يمنع عنهم العذاب النازل بهم مانع، بل هو واقع بهم لا محالة.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ أي:[1] وإنّ لهؤلاء الظلمة: أبي جهل وأصحابه. ﴿عَذَابًا﴾ آخر ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: غير ما لاقوه من القتل؛ أي: قبله. وهو القحط الذي أصابهم سبع سنين، كما مر في سورة الدخان. أو وراءه. وهو عذاب القبر، وما بعده من فنون عذاب الآخرة؛ أي: وإن لهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي عذاباً في الدنيا دون عذاب الآخرة؛ أي: قبله. وهو قتلهم يوم بدر. والظاهر: أن المراد بالعذاب: القحط والجوع سبع سنين قبل يوم بدر؛ لأنّه كان في السنة الثانية للهجرة. والقحط وقع لهم قبلها.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما سيصيرون إليه من عذاب الله، وما أعده لهم في الدنيا والآخرة لفرط جهلهم، وسوء غفلتهم، أو لا يعلمون شيئاً أصلاً.

وفيه إشارة[2] إلى أن منهم من يعلم ذلك، وإنما يصر على الكفر عناداً. فالعالم الغير العامل والجاهل سواء. فعلى العاقل أن يحصل علوم الآخرة، ويعمل بها.

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالهم إلى يومهم الموعود الذي وعدناهم فيه العذاب، وإبقائك فيما بينهم مع مقاساة الأحزان والشدائد، ولا تكن في ضيق مما يمكرون.

يقول الفقير: أمر الله تعالى نبيه عليه السلام بالصبر لحكمه، لا لأذى الكفار وجفائهم تسهيلاً للأمر عليه؛ لأنّ في الصبر لحكمه حلاوةً، ليست في الصبر للأذى والجفاء. وإن كان الصبر له صبراً للحكم، فاعرف.

﴿فَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾؛ أي: بمرأى ومنظر منا، وفي حفظنا، وفي حمايتنا. فلا تبال بهم. قال الزجاج: إنّك بحيث نراك، ونحفظك، ونرعاك فلا يصلون إليك. وجمع العين لجمع الضمير، والإيذان بغاية الاعتناء في الحفظ،

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

وبكثرة أسبابه إظهاراً للتفاوت بين الحبيب والكليم، حيث أفرد فيه العين والضمير، حيث قال: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾. وقيل: جمع العين هنا لأنّه أضيف إلى ضمير الجماعة، وأفرد هناك لكون الضمير مفرداً. وقرأ أبو السمال ﴿بأعينّا﴾ بنون واحدة مشدّدة.

والمعنى[1]: واصبر على أذاهم، ولا تبال بهم، وامض لأمر الله ونهيه، وبلغ ما أرسلت به فإنك بمرأى منا، نراك ونرى أعمالك، ونحوطك، ونحفظك فلا يصل إليك منهم أذى.

﴿وَسَبِّحۡ﴾؛ أي: نزهه تعالى عما لا يليق به، حال كونك متلبساً ﴿بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ وشكره على نعمائه عليك ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ من أي مقام قمت. قال سعيد بن جبير، وعطاء؛ أي: قل حين تقوم من مجلسك: سبحانك اللهم وبحمدك؛ أي: سبح الله متلبساً بحمده. فإن كان ذلك المجلس خيراً ازددت إحساناً، وإن كان غير ذلك كان كفارة له.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من جلس مجلساً فكثر فيه لغطه ـ الكلام الرديء القبيح ـ فقال قبل أن يقوم: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.. كان كفارةً لما بينهما». وفي «فتح القريب»: «فقد غفر له». يعني: من الصغائر ما لم تتعلق بحق آدمي كالغيبة. وقال الضحاك، والربيع: إذا قمت إلى الصلاة فقل: سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك. وقال الكلبي: واذكر الله باللسان حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل في الصلاة، وهي صلاة الفجر. والأول أولى.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾؛ أي: وفي بعض ساعات الليل ﴿فَسَبِّحۡهُ﴾ سبحانه وتعالى. وأفرد بعض الليل بالتسبيح والصلاة؛ لأنّ العبادة فيه أشق على النفس، وأبعد عن الرياء. كما يلوح إليه تقديمه على الفعل. يقول الفقير؛ ولأن الليل زمان المعراج، والصلاة هو المعراج المعنوي. فمن أراد أن يلتحق برسول الله ﷺ في معراجه فليصل بالليل والناس نيام؛ أي: في جوفه حين غفلة الناس. ولشرف ذلك الوقت كان معراجه ﷺ

---

(١) المراغي. (٢) الخازن.

في ذلك الوقت، لا قرب الصباح. لأن في قربه قد يستيقظ بعض النفوس للحاجات. وإن كان السحر الأعلى مما له خواص كثيرة. وقال مقاتل؛ أي: صل صلاة المغرب والعشاء. وقيل: ركعتي الفجر.

﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ بكسر الهمزة مصدر أدبر الرباعي. والنجوم: جمع نجم. وهو الكوكب الطالع. يقال: نجم نجوماً ونجماً؛ أي: طلع.

والمعنى: وسبح وقت إدبارها من آخر الليل؛ أي: وقت غيبتها بضوء الصباح. وقيل: صلاة الفجر. واختاره ابن جرير. وقيل: هو التسبيح في أدبار الصلوات.

وقرأ الجمهور ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ بكسر الهمزة على أنه مصدر. وقرأ سالم بن أبي الجعد، ومحمد بن السميقع، ويعقوب، والمنهال بن عمر بفتحها على الجمع؛ أي: أعقاب النجوم، وأدبارها إذا غربت. ودبر الأمر آخره. وقد تقدم الكلام على هذا في سورة ق. وفي ختم هذه السورة بالنجوم، وافتتاح السورة الآتية بالنجم من حسن الانتهاء والابتداء، ما لا يخفى.

الإعراب

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى بل وهمزة الاستفهام، ﴿خُلِقُوا۟﴾ فعل ماض، مغير الصيغة، ونائب فاعل. والجملة مستأنفة أو معطوفة. ﴿مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ متعلق بـ ﴿خُلِقُوا۟﴾، ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ مبتدأ وخبر، ﴿أَمْ﴾ حرف إضراب وعطف، ﴿عِندَهُمْ﴾ خبر مقدم، ﴿خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة مستأنفة أو معطوفة. ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ مبتدأ وخبر، معطوف على ما قبله، ﴿أَمْ﴾ حرف إضراب بمعنى بل وهمزة الاستفهام، ﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدم، ﴿سُلَّمٌ﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة مستأنفة. وجملة ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ صفة لـ ﴿سُلَّمٌ﴾، ﴿فِيهِ﴾ متعلق بـ ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾. ﴿فَلْيَأْتِ﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إن ادّعوا ذلك، وأردت إلزامهم الحجة... فأقول لك قل لهم ليأت مستمعكم بسلطان مبين على ذلك. واللام حرف

جزم وطلب، ﴿يأت﴾ فعل مضارع مجزوم بلام الطلب، ﴿مُسْتَمِعُهُم﴾ فاعل، ﴿بِسُلْطَانٍ﴾ متعلق بـ ﴿يأت﴾، ﴿مُّبِينٍ﴾ صفة لـ ﴿سلطان﴾. والجملة في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣)﴾.

﴿أَمْ﴾ حرف إضراب واستفهام، ﴿لَهُ﴾ خبر مقدم، ﴿الْبَنَاتُ﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة مستأنفة. ﴿وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ معطوف على ﴿لَهُ الْبَنَاتُ﴾. ﴿أَمْ﴾ حرف إضراب، ﴿تَسْأَلُهُمْ﴾ فعل، وفاعل مستتر، ومفعول أول، ﴿أَجْرًا﴾ مفعول ثان. والجملة مستأنفة. ﴿فَهُم﴾ الفاء: حرف عطف وتفريع، ﴿هم﴾ مبتدأ، ﴿مِّن مَّغْرَمٍ﴾ متعلق بـ ﴿مُّثْقَلُونَ﴾، و﴿مُّثْقَلُونَ﴾ خبر. والجملة معطوفة مفرعة على الجملة الفعلية. ﴿أَمْ﴾ حرف إضراب ﴿عِندَهُمُ﴾ خبر مقدم، ﴿الْغَيْبُ﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة مستأنفة. ﴿فَهُمْ﴾ الفاء: حرف عطف وتفريع، ﴿هم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَكْتُبُونَ﴾ خبره. والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها. ﴿أَمْ﴾ حرف إضراب، ﴿يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ فعل، وفاعل، ومفعول. والجملة إضرابيّة، لا محل لها من الإعراب. ﴿فَالَّذِينَ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿الذين﴾ مبتدأ، وجملة ﴿كَفَرُوا﴾ صلة الموصول، ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل، لا محل له من الإعراب، ﴿الْمَكِيدُونَ﴾ خبر. والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية. ﴿أَمْ﴾ حرف إضراب ﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدم، ﴿إِلَٰهٌ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿غَيْرُ اللَّهِ﴾ صفة لـ ﴿إِلَٰهٌ﴾. والجملة مستأنفة. ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً. والجملة مستأنفة. ﴿عَمَّا﴾ متعلق بـ ﴿سُبْحَانَ﴾، وجملة ﴿يُشْرِكُونَ﴾ صلة لما الموصولة، أو لما المصدرية.

﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (٤٤) فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧) وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩)﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إن﴾ حرف شرط، ﴿يَرَوْا﴾ فعل، وفاعل، مجزوم

بإن الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿كِسْفًا﴾ مفعول به، ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ صفة لـ ﴿كِسْفًا﴾، ﴿سَاقِطًا﴾ صفة لـ ﴿كِسْفًا﴾. ﴿يَقُولُوا۟﴾ فعل، وفاعل، مجزوم على كونه جواب الشرط. والجملة مستأنفة، أو معطوفة. ﴿سَحَابٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هو سحاب. ﴿مَّرْكُومٌ﴾ صفة ﴿سَحَابٌ﴾. والجملة في محل النصب، مقول لـ ﴿يَقُولُوا۟﴾. ﴿فَذَرْهُمْ﴾ الفاء: فاء الفصيحة، لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا بلغوا في الكفر والعناد إلى هذا الحدّ، وتبيّن أنّهم لا يرجعون عن الكفر، وأردت بيان ما هو الأسهل عليك فأقول لك ذرهم. ﴿ذرهم﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر، ومفعول به. والجملة في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جر وغاية، ﴿يُلَٰقُوا۟﴾ فعل، وفاعل، منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد حتى بمعنى إلى. ﴿يَوْمَهُمُ﴾ مفعول به. والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور بحتى، تقديره: إلى ملاقاتهم يومهم، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿ذرهم﴾. ﴿ٱلَّذِى﴾ صفة لـ ﴿يَوْمَهُمُ﴾، ﴿فِيهِ﴾ متعلق بـ ﴿يُصْعَقُونَ﴾، و﴿يُصْعَقُونَ﴾ فعل مغير، ونائب فاعل، صلة الموصول، والعائد ضمير «فيه»، ﴿يَوْمَ﴾ بدل من ﴿يَوْمَهُمُ﴾، ﴿لَا﴾ نافية، ﴿يُغْنِى﴾ فعل مضارع، ﴿عَنْهُمْ﴾ متعلق به، ﴿كَيْدُهُمْ﴾ فاعل ﴿يُغْنِى﴾، ﴿شَيْـًٔا﴾ مفعول به أو مفعول مطلق. وجملة ﴿لَا يُغْنِى﴾ في محل الجر، مضاف إليه لـ ﴿يَوْمَ﴾. ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿لا﴾ نافية، ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يُنصَرُونَ﴾ من الفعل المغير، ونائب فاعله في محل الرفع خبر المبتدأ. والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿لَا يُغْنِى﴾. ﴿وإن﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿إنّ﴾ حرف نصب، ﴿لِلَّذِينَ﴾: خبر ﴿إن﴾ مقدم وجملة ﴿ظَلَمُوا۟﴾ صلة الموصول. ﴿عَذَابًا﴾: اسم ﴿إن﴾ مؤخر، ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ ظرف متعلق بمحذوف صفة لـ ﴿عَذَابًا﴾. وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة. ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ الواو: عاطفة، ﴿لكن﴾ حرف نصب، ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ اسمها، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ خبرها. وجملة لكن معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾. ﴿وَٱصْبِرْ﴾ الواو: استئنافية، ﴿اصبر﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد. والجملة مستأنفة. ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ متعلق بـ ﴿اصبر﴾، ﴿فَإِنَّكَ﴾ الفاء: تعليلية، ﴿إنك﴾ ناصب واسمه، ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ خبره؛ أي: بمرأى منّا. وجملة ﴿إنّ﴾ تعليلية، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَسَبِّحْ﴾ فعل، وفاعل مستتر، معطوف على ﴿اصبر﴾، ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ حال من فاعل ﴿سبّح﴾، ﴿حِينَ﴾ ظرف متعلق بـ ﴿سبح﴾، وجملة

﴿تَقُومُ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿حِينَ﴾، ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ متعلق بـ ﴿فَسَبِّحْهُ﴾، و﴿فَسَبِّحْهُ﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف على ﴿اصبر﴾، ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ مصدر ناب مناب الظرف، منصوب على الظرفية، معطوف على محل ﴿من الليل﴾ على كونه متعلقاً بسبّحه.

التصريف ومفردات اللغة

﴿مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾؛ أي: من غير خالق. ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ جمع خزانة بالكسر. وهو مكان الخزن، يقال: خزن المال أحرزه، وجعله في الخزانة. وهو على حذف مضاف؛ أي: خزائن رزقه ورحمته.

﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ جمع مسيطر. والمسيطر: المسلط القاهر، حتى لا يكون تحت أمر أحد من سيطر عليه إذا راقبه وحفظه أو قهره. ولم يأت على مفيعل إلا خمسة ألفاظ. أربعة صفة اسم فاعل. مهيمن: من هيمن، إذا اطلع وراقب. ومبيقر: من بيقر، إذا أفسد وأهلك، ومشى مشية المتكبر، كما في «القاموس». ومسيطر: من سيطر، إذا تسلط. ومبيطر: من بيطر الدواب إذا عالج. وواحد اسم جبل. وهو المحيصر.

﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ قال الراغب: السلم: ما يتوصل به إلى الأمكنة العالية فيرجىٰ به السلامة. ثم جعل اسماً لما يتوصل به إلى كل شيء رفيع. ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: بحجة واضحة تصدق استماعه. ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ﴾؛ أي: التزام غرامة تطلبها منهم. فالمغرم: مصدر ميمي بمعنى الغرم. وفي «الكشاف»: المغرم: أن يلتزم الإنسان ما ليس عليه. وفي «فتح الرحمن»: المغرم: ما يلزم أداؤه. وفي «المفردات»: الغرم: ما ينوب الإنسان من ماله من ضرر بغير جناية منه، وكذا المغرم والغريم يقال لمن له الدين، ولمن عليه الدين، انتهى.

﴿مُّثْقَلُونَ﴾؛ أي: محملون ثقلاً وحملاً. ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾؛ أي: مكراً وتحيلاً في هلاكك. وفي «المصباح»: كاد كيداً من باب باع، إذا خدعه ومكر به. والاسم المكيدة. وكان هذا المكر في دار الندوة، وهي دار من دور أهل مكة للمشاورة فيها إذا أشكل عليهم الأمر. وفي «التعريفات»: الكيد: إرادة مضرة الغير خفية. وهو من الخلق الحيلة السيئة، ومن الله التدبير بالحق لمجازاة أعمال الخلق.

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ﴾ جمع مكيد، اسم مفعول من كاد يكيد، فهو مكيد بوزن مبيع. وأصله: مكيودون، جمع مكيود، نقلت حركة الياء إلى الكاف فسكنت، فالتقى ساكنان: الياء، وواو مفعول، فحذفت واو مفعول لأنَّها زائدة، هذا على رأي سيبويه، ثم كسرت الكاف لمناسبة الياء. وأما على رأي الأخفش فإنه يرى أن المحذوف منه الياء، وأنها لما حذفت كسر فاء الكلمة، ثم قلبت ﴿الواو﴾ ياء لسكونها إثر كسرة.

﴿كِسۡفًا﴾؛ أي: قطعة. وفي «القاموس»: الكسفة بالكسر: القطعة من الشيء، والجمع كسف كسدرة وسدر، وكسف كقربة وقرب. وفي «المختار»: وقيل: الكسف والكسفة واحد. ﴿مَّرۡكُومٞ﴾؛ أي: متراكم ملقى بعضه على بعض. ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ﴾ أصله: يلاقيون بوزن يفاعلون، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فلما سكنت حذفت لالتقاء الساكنين، وضمت القاف لمناسبة الواو، وحذفت نون الرفع لدخول أداة النصب.

﴿ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ﴾؛ أي: يهلكون من صعقته الصاعقة، أو من أصعقته أماتته وأهلكته. قال في «المختار»: صعق الرجل بالكسر صعقة غشي عليه، ومنه: قوله تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: مات. ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾؛ أي: في حفظنا وحراستنا. ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾؛ أي: وقت إدبار النجوم، وغيبتها، وغروبها. والمراد بغروبها: ذهاب ضوئها بغلبة ضوء الصبح عليه، وإن كانت باقية في السماء، وذلك بطلوع الفجر، اهـ خطيب.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الجناس المغاير بين ﴿ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ و﴿خُلِقُواْ﴾ في قوله: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٣٥﴾.

ومنها: المجاز بالحذف في قوله: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾؛ أي: خزائن رحمة ربك.

ومنها: ضرب المثل بالخزائن؛ لأنّ الخزانة بيت يهيأ لجمع أنواع مختلفة من الذخائر. ومقدرات الرب كالخزائن التي فيها من كل الأجناس، فلا نهاية لها، اهـ قرطبي.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب لزيادة التوبيخ والتقريع لهم في قوله: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ تسجيلاً عليهم بصفة الكفر القبيحة.

والأصل: أم يريدون كيداً فهم المكيدون. وفيه أيضاً القصر الإضافي؛ أي: هم الذين يحيق بهم كيدهم، أو يعود عليهم وباله، لا من أرادوا أن يكيدوه.

ومنها: أسلوب الفرض والتقدير في قوله: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا﴾؛ أي: لو رأوا ذلك... لقالوا ما قالوا. ومن المعلوم أنّ قريشاً لم ينزل عليهم قطع من السماء تعذيباً لهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ الآية. فالكلام على سبيل الفرض والتقدير. كأنه يقول: لو عذبناهم بسقوط قطع من السماء عليهم لم ينتهبوا ولم يرجعوا، ويقولون في هذا النازل عناداً واستهزاءً، وإغاظة لمحمد ﷺ: إنه سحاب مركوم، اهـ شيخنا.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما حوته هذه السورة الكريمة

تضمنت هذه السورة ما يلي:

١ ـ القسم بالعالم العلوي والسفلي على أن العذاب آت لا محالة.

٢ ـ وصف عذاب النار، وما يلاقيه المكذبون حينئذٍ من الذلة والمهانة.

٣ ـ وصف نعيم أهل الجنة، وما يتمتعون به من اللذات في مساكنهم، ومطاعمهم، ومشاربهم، وأزواجهم، وخدمهم، وحشمهم.

٤ ـ أمر الرسول ﷺ بالثبات على تبليغ الرسالة، والإعراض عن سفاهتهم من نحو قولهم: هو شاعر، هو كاهن، هو مجنون، هو مفتر.

٥ ـ إثبات الألوهية بالبراهين التي لا تقبل جدلاً.

٦ ـ النعي على المشركين في قولهم: الملائكة بنات الله.

٧ ـ بيان أنهم بلغوا في عنادهم حدّاً ينكرون معه المحسوسات التي لا شك فيها.

٨ ـ أمر الرسول ﷺ أن يتركهم وشأنهم حتى يأتي اليوم الذي كانوا يوعدون.

٩ ـ الإخبار بأن الظالمين في كل أمة، وكل جيل يعذبون في الدنيا قبل عذابهم في الآخرة.

١٠ ـ الإخبار بأن الله حارس نبيه وكالئه فلا يصل إليه أذى من خلفه كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾.

١١ ـ أمره ﷺ بالذكر والتسبيح آناء الليل، وأطراف النهار، وفي كل موطن ومجلس يقوم فيه[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) فرغنا من هذه السورة في تاريخ ١٧/٥/١٤١٥ هـ.

سورة النجم

سورة النجم مكيّة جميعاً في قول الجمهور، وروي عن ابن عباس، وعكرمة: أنّها مكية، إلا آية منها وهي مدنية، وهي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ الآية، نزلت بعد سورة الإخلاص.

وهي[1] اثنتان وستون آيةً، وثلاثمائة وستون كلمةً، وألف وأربع مئة وخمسة أحرف.

مناسبتها لما قبلها من وجوه[2]:

١ ـ إنّ السورة قبلها ختمت بقوله: ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾، وبدئت هذه بقوله: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ①﴾.

٢ ـ إنّ السورة قبلها ذكر فيها تقوُّل القرآن، وافتراؤه وذكر هذا في مفتتح هذه السورة.

٣ ـ إنه ذكر في التي قبلها أن ذرية المؤمنين تبع لآبائهم، وفي هذه ذكر ذرية اليهود في قوله: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ﴾.

٤ ـ إنه قال هناك في المؤمنين: ﴿أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ وقال هنا في الكفار: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ㊴﴾.

وقال أبو حيان: مناسبتها لآخر ما قبلها ظاهرة؛ لأنه قال: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ﴾؛ أي: اختلق القرآن، ونسبوه إلى الشعر، وقالوا: هو كاهن ومجنون. فأقسم تعالى إنه ﷺ ما ضل، وإن ما يأتي به هو وحي من الله، انتهى.

تسميتها: سميت سورة النجم لقوله في أوّلها: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ①﴾.

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

فضائلها: ومن فضائلها ما أخرجه ابن مردويه عن ابن مسعود أنها أول سورة أعلن النبي ﷺ قراءتها، فقرأها في الحرم والمشركون يسمعون.

ومنها ما أخرجه البخاري ومسلم، وأبو داود، والنسائي: إنَّ أول سورة أنزلت فيها سجدة ﴿وَالنَّجْمِ﴾، فسجد رسول الله ﷺ، وسجد الناس كلهم إلا رجلاً رأيته أخذ كفًّا من تراب، فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً. وهو أمية بن خلف.

الناسخ والمنسوخ فيها: قال أبو عبد الله محمد بن حزم(١): سورة النجم كلها محكم إلا آيتين:

إحداهما: قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ (٢٩) الآية، نسخت بآية السيف.

والثانية: قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ (٣٩) نسخت بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ الآية. فيجعل الولد الطفل يوم القيامة في ميزان أبيه، ويشفِّع الله تعالى الآباء في الأبناء، والأبناء في الآباء. ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ (١١) سورة النساء، انتهى.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) الناسخ والمنسوخ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾.

المناسبة

قد تقدم آنفاً بيان المناسبة بين أوّل هذه السورة، وآخر التي سبقت. وقد أقسم[1] ربنا بخلق من مخلوقاته العظيمة التي لا يعلم حقيقتها إلا هو، وهي نجوم السماء التي تهدي الساري في الفلوات، وترشده إلى البعيد من المسافات، على أن محمداً صاحبكم نبي حقًّا، وما ضل عن طريق الرشاد، ولا اتبع الباطل، ولا يتكلم إلا بوحي يوحيه الله إليه، ويعلمه إياه جبريل شديد القوىٰ.

---

(١) المراغي.

ولقد رآه مرتين على صورته التي خلقه الله عليها بأجنحته وأوصافه الملكية. مرة بغار حراء في بدء النبوة، وأخرى ليلة المعراج، حين عرج به إلى السماء، ورأى من عجائب صنع الله ما رأى مما استطاع أن يخبركم به، ومما لم يستطع ذلك. فكيف بكم تجادلونه فيما أخبركم به؟ وتقولون طوراً: إنه مجنون، وطوراً آخر: إنه كاهن، وطوراً ثالثاً: إنه شاعر، وما كل هذا بالذي ينطبق على أوصافه. وهو صاحبكم، وأنتم أعلم بحاله، فحق عليكم أن تسمعوا قوله، وأن تطيعوا أمره. فتفوزوا برضوان من ربه.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ . . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى[1] لما بين أن ما رآه محمد ﷺ من العجائب ليلة المعراج قال للمشركين: ماذا رأيتم في هذه الأصنام، وكيف تحصرون أنفسكم في العالم الماديّ وأصنامه، وتقطعون على أنفسكم طريق التقدم والارتقاء، وإن النفس لا ترقىٰ إلا بما استعدت له. فإذا وقفت النفوس عند هذه المادة، وتلك الأصنام لم يكن لها عروج إلى السماء. ولا سيما أن هذه الأصنام لا تشفع لهم عند ربهم، ولا تجديهم نفعاً.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ . . .﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن لله سبحانه لما أمر رسوله بالإعراض عن المشركين مع شدة ميله إلى إيمانهم، وتطلعه إلى هدايتهم، وتعلقه بصلاحهم وإرشادهم، وهم قومه وعشيرته، وأبان له أن هؤلاء قوم انصرفوا عن النظر إلى الحق، ووجهوا همهم إلى زخرف الدنيا، وأن منتهىٰ علمهم التصرف في شؤونها فهي قبلتهم التي إليها يحجون، ومطمح أنظارهم الذي إليه يرنون. وذكر أنه هو العليم باستعدادهم، وأنهم قوم ضالون، لا يصل الحق إلى شغاف قلوبهم، ولا يلتفتون إليه بعيونهم.. ذكر هنا أنه لا يهملهم، بل سيجزيهم بسوء صنيعهم. وهو العليم بما في السموات والأرض، فلا يترك عباده هملاً، بل يجازيهم بعدله. فيثيب المحسن بالجنة، ويعاقب المسيء على سوء صنيعه بما هو أهله. ثم أردف ذلك ذكر أوصاف المحسنين، وأنهم هم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، ولا

(١) المراغي.

يقع منهم إلا اللمم من صغائر الذنوب الفينة بعد الفينة، ويتوبون منه، ولا يصرون عليه. ثم حذر عباده بأنه لا تخفي عليه خافية من أمورهم من لحظة أن كانوا أجنة في بطون أمهاتهم إلى أن يموتوا. فيعلم المطيع من العاصي. فلا حاجة للعبد إذاً إلى مدح نفسه بفعل الطاعات، واجتناب السيئات.

أسباب النزول

قوله تعالى[1]: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه الواحدي، والطبراني، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ثابت بن الحارث الأنصاري قال: كانت اليهود تقول إذا هلك لهم صبيٌّ صغيرٌ: هو صدِّيقٌ. فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ، فقال: «كذبت اليهود، ما من نسمة يخلقه الله سبحانه في بطن أمه، إلا ويعلم أنه شقي أو سعيد». فأنزل الله عند ذلك هذه الآية: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَٱلنَّجْمِ﴾؛ أي: أقسم لكم أيها المشركون بالنجم. ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ①﴾ وسقط للغروب. والتعريف فيه[2] للجنس. والمراد به: جنس النجوم، وبه قال جماعة من المفسرين. وقيل: المراد به: الثريا. وهو اسم غلب فيها. تقول العرب: النجم، وتريد به الثريا، وبه قال مجاهد، وغيره. والثريا[3] سبعة كواكب، ولا يكاد يرى السابع منها لخفائه.

وفي الحقيقة إنها اثنا عشر كوكباً. وكان رسول الله ﷺ يراها كلها بالقوة التي جعلها الله سبحانه في بصره. وقال في «عين المعاني»: وهي سبعة أنجم ظاهرة، والسابع تمتحن به الأبصار، وكانت قريش تجلها، وتقول: أحسن النجم في السماء الثريا. والثريا في الأرض زين السماء، وكانت رحلتاها عند طلوعها وسقوطها. فإذا طلعت بالغداة عدُّوها من الصيف، وإذا طلعت بالعشي عدوها من الشتاء، وقال السدي[4]: النجم هنا: هو الزهرة. لأنَّ قوماً من العرب كانوا يعبدونها. وقيل:

---

(١) لباب النقول.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.
(٤) الشوكاني.

النجم هنا: النبت الذي لا ساق له، كما في قوله: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦﴾، قاله الأخفش. وقيل: النجم محمد ﷺ.

وقيل: النجم القرآن، وسمي نجماً لكونه نزل منجماً مفرقاً، والعرب تسمي التفريق تنجيماً، والمفرق المنجم، وبه قال مجاهد، والفرّاء، وغيرهما، والأول أولى، قال الحسن: المراد بالنجم: النجوم، إذا سقطت يوم القيامة. وقيل: المراد بها: النجوم التي ترجم بها الشياطين. ومعنى هويه: سقوطه من علو إلى سفل. يقال: هوى النجم يهوى هويًا، إذا سقط من علو إلى سفل. وقيل: غروبه. وقيل: طلوعه. والأوّل أولى. وبه قال الأصمعيّ، وغيره. ومعنى الهويّ على قول من فسّر النجم بالقرآن: أنه نزل من أعلى إلى أسفل. وأما على قول من قال: إنه النبت الذي لا ساق له، أو إنه محمد ﷺ، فلا يظهر للهوي معنى صحيح.

وهذا القسم[1] جرياً على عادة العرب فإنها تقسم بكل ما تستعظمه، وتريد إظهار تعظيمه. وقيل: كل موضع أقسم فيه الرب بمخلوق، فالرب فيه مضمر كقوله: ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾، ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾؛ أي: ورب النجم، ورب الذاريات، وأشباه ذلك. والعامل في ﴿إِذَا﴾ هو فعل القسم المقدر؛ أي: أقسم. فإنه بمعنى مطلق الوقت، منسلخ عن معنى الاستقبال، كما في قولك: أتيتك إذا احمر البُسْر. فلا يلزم عمل فعل الحال في المستقبل. يعني: إن فعل القسم إنشاء، والإنشاء حال، و﴿إذا﴾ لما يستقبل من الزمان، فيكون المعنى: أقسم الآن بالنجم وقت هوى بعد هذا الزمان.

ثم إن الله سبحانه أقسم بالنجم حين هوى؛ أي: وقت هويه؛ لأن شأنه أن يهتدي به الساري إلى مسالك الدنيا. كأنّه قيل: والنجم الذي يهتدي به السابلة في البر، والجارية في البحر إلى سواء السبيل.

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ﴾ أيها المشركون محمد ﷺ. وهو جواب القسم؛ أي: ما عدل، ولا مال في أقواله وأفعاله عن طريق الحق الذي هو مسلك الآخرة. وهذا دليل على أن قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ ليس من ضلال الغي. فإنه ﷺ قبل الوحي، وبعده لم يزل يعبد ربه، ويوحده، ويتوقى مستقبحات الأمور. وفيه[2] بيان فضل

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

النبي ﷺ حيث إن الله تعالى قال في حق آدم عليه السلام: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾، وقال في حقه ﷺ: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾.

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝﴾ وأخطأ في اعتقاده؛ لأنَّ الغي اعتقاد شيء فاسد باطل. فعطفه على ﴿مَا ضَلَّ﴾ من عطف الخاصّ على العام، للاهتمام بشأن الخاص. فإنه فرق بين الغي والضلال، بأن الغي هو الخطأ في الاعتقاد خاصة، والضلال أعم منه. لأنه يتناول الخطأ في الأقوال، والأفعال، والأخلاق، والعقائد التي شرعها الله سبحانه، وبينها لعباده.

والمعنى: ما عدل صاحبكم عن طريق الحق في الأقوال، والأفعال، والاعتقاد، وغيرها. وما اعتقد باطلاً قط؛ أي: هو في غاية الهدى والرشد، وليس مما تتوهمونه من الضلال والغواية في شيء أصلاً. وكانوا يقولون: ضل محمد عن دين آبائه، وخرج عن الطريق، وتقوَّل شيئاً من تلقاء نفسه. فرد الله عليهم بنفسه بتنزيل هذه السورة تعظيماً له.

والخطاب لقريش[1]، وإيراده ﷺ بعنوان صاحبيته لهم للإيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله، وإحاطتهم خبراً ببراءته ﷺ مما نفي عنه بالكلية، واتصافه بغاية الهدى والرشاد. فإنَّ طول صحبتهم له، ومشاهدتهم محاسن شؤونه العظيمة مقتضية لذلك حتماً، كما في «الإرشاد». ويؤيد ما في «الإرشاد»: قول الراغب في «المفردات»: لا يقال: الصاحب في العرف إلا لمن كثرت ملازمته، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾. سمي النبي ﷺ صاحبهم تنبيهاً على أنكم صحبتموه، وجربتموه، وعرفتم ظاهره وباطنه، ولم تجدوا به خبلاً ولا جنة.

وتقييد القسم بوقت الهوى؛ لأنَّ النجم لا يهتدي به الساري عند كونه في وسط السماء، ولا يعلم المشرق من المغرب، ولا الشمال من الجنوب. وإنما يهتدي به عند هبوطه أو صعوده مع ما فيه من كمال المناسبة لما سيحكي من تدلي جبريل من الأفق الأعلى، ودنوه منه عليهما السلام. وقال سعدي المفتي: ثم التقييد بوقت الهوى؛ أي: الغروب لكونه أظهر دلالة على وجود الصانع، وعظيم قدرته،

(١) روح البيان.

كما قال الخليل عليه السلام: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾.

قال ابن الشيخ في «حواشيه»: وفيه لطيفة. وهي أن القسم بالنجم يقتضي تعظيمه، وقد كان فيهم من يعبده، فنبه بهويه على عدم صلاحيته للإلهية بأفوله.

وقيل: خص الهوى دون الطلوع؛ لأنَّ لفظة النجم دلت على طلوعه. فإن أصل النجم الكوكب الطالع.

ومعنى الآية: أقسم[1] بمخلوقاتي العظيمة. وهي النجوم التي تسير في مداراتها، ولا تعدوا أفلاكها، والتي تهتدون بها في الفيافي والقفار في حلكم، وترحالكم، في سفركم وحضركم، وفي البحار، ولها لديكم منزلة عظمى في حياتكم المعيشية أنَّ محمّداً نبي حقًّا، وما حاد عن سبيل الحق، ولا سلك سبيل الباطل. وقد خاطب سبحانه بهذا القسم العرب الذين يعرفون ما للنجوم من جزيل الفضل عليهم في تعيين المواسم، والفصول ليستعدوا للنجعة، ويرتادوا الكلأ بعد سقوط المطر، ويزرعوا ما يتسنى لهم أن يزرعوه، وهم يتيامنون ببعضها، ويتشاءمون ببعض آخر.

إلى أن القسم بها ينبهنا إلى أن هناك عوالم وأجراماً علوية، يجب علينا أن نتعرف أمرها، لنستدل بها على عظيم قدرة مبدعها، وبديع صنعه.

والخلاصة: أنَّ الرسول ﷺ راشد، مرشد، تابع للحق ليس بضال، ولا هو بسالك للطريق بغيرِ علم، ولا بغاو يعدل عن الحق قصداً إلى غيره. وبهذا نزه الله رسوله وشرعه عن مشايعة أهل الضلال من اليهود والنصارى الذين يعلمون الحق، ويعملون بخلافه. فهو في غاية الاستقامة، والاعتدال، والسداد.

وضمن كلمة ﴿يَنطِقُ﴾ في قوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾ معنى الصدور[2]، فعداه بكلمة ﴿عَنِ﴾. فالمعنى: وما يصدر نطقه بالقرآن عن هواه ورأيه أصلاً. فإن المراد: استمرار نفي النطق عن الهوى، لا نفي استمرار النطق عنه، وقد يقال: ﴿عَنِ﴾ هنا بمعنى الباء؛ أي: وما ينطق بالهوى، كما يقال: رميت السهم عن القوس؛ أي: بالقوس. وفي «التنزيل»: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾؛ أي:

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان ببعض تصرف.

بقولك.

قال ابن الشيخ: قال أوّلاً: ﴿مَا ضَلَّ﴾، ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ بصيغة الماضي، ثم قال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣﴾ بصيغة المستقبل بياناً لحاله قبل البعثة وبعدها، أي: ما ضل، وما غوى حين اعتزلكم وما تعبدون قبل أن يبعث رسولاً، وما ينطق عن الهوى الآن، حين يتلو عليكم آيات ربه، انتهى.

﴿إِنْ هُوَ﴾؛ أي: ما الذي ينطق به محمد ﷺ من القرآن، وغيره ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ من الله سبحانه وتعالى. وقوله: ﴿يُوحَىٰ﴾ إليه بواسطة جبرئيل عليه السلام صفة مؤكدة لوحي، رافعة لاحتمال المجاز، مفيدة للاستمرار التجددي. يعني: أن فائدة الوصف التنبيه على أنه وحي حقيقة، لا أنه يسمى به مجازاً. والوحي قد يكون اسماً بمعنى الكتاب الإلهي، وقد يكون مصدراً. وله معان: الإرسال، والإلهام، والكتابة، والكلام، والإشارة، والإفهام.

وفيه[1] إشارة إلى أن النبي ﷺ قد فني عن ذاته، وصفاته، وأفعاله في ذات الله، وصفاته، وأفعاله. بحيث لم يبق منه لا اسم، ولا رسم، ولا أثر، ولا عين. فكان ناطقاً بنطق الحق، لا بنطق البشرية. فلا يتوهم فيه أن يجري عليه الخطرات الشيطانية، والهواجس النفسانية. وقال بعض المفسرين[2]: إن قوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ رد لقولهم: إنه مجنون. وقوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ رد لقولهم: ﴿هُوَ شَاعِرٌ﴾؛ أي: ليس بينه وبين الغواية تعلق وارتباط.

وقوله: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ۝٢٢٤﴾، وقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣﴾ رد لقولهم: كاهن. وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ تأكيد لما تقدم؛ أي: فلا هو بقول كاهن، ولا هو بقول شاعر. والهوى كما سيأتي الميل إلى الشهوات والمستلذات من غير داعية الشرع.

﴿عَلَّمَهُ﴾؛ أي: علم صاحبكم محمداً ﷺ القرآن ملك شديد القوى؛ أي: نزل به عليه، وقرأه عليه، وبينه له. هذا على أن يكون الوحي بمعنى الكتاب. وإن كان بمعنى الإلهام، فتعليمه بتبليغه إلى قلبه. فيكون كقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾.

وقوله: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ من[1] إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها، مثل: حسن الوجه، والموصوف محذوف، كما قدرنا آنفاً؛ أي: علمه ملك شديد قواه؛ أي: شديد قوة الجسم والبدن، وهو جبريل عليه السلام. فإنه الواسطة في إبداء الخوارق. ويكفيك دليلاً على شدة قوته أنه قلع قرى قوم لوط من الماء الأسود الذي تحت الثرى، وحملها على جناحه، ورفعها إلى السماء، حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة، ثم قلبها، وصاح بثمود صيحة، فأصبحوا جاثمين. وكان هبوطه على الأنبياء عليهم السلام، وصعوده في أسرع من رجعة الطرف.

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾؛ أي: صاحب حصافة واستحكام في عقله ورأيه، ومتانة في دينه. وقوله: ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ معطوف على قوله: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾، كما أشار إليه القرطبي ونصه. ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾؛ أي: ارتفع[2] جبريل، وعلا إلى مكانه في السماء بعد أن علَّم محمداً ﷺ، قاله سعيد بن المسيب، وابن جبير. وقيل: معنى ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾؛ أي: قام، وظهر في صورته التي خلق عليها؛ لأنّه كان يأتي النبي ﷺ في صورة الآدميين، كما يأتي إلى الأنبياء. فسأله النبي ﷺ أن يريه نفسه التي جبله الله عليها، فأراه نفسه مرتين. مرة في الأرض، ومرة في السماء ليلة المعراج عند سدرة المنتهى.

وذلك أن رسول الله ﷺ أحب أن يراه في صورته التي جبل عليها. وكان رسول الله ﷺ بجبل حراء. وهو الجبل المسمى بجبل النور في قرب مكة. فقال: إنّ الأرض لا تسعني، ولكن أنظر إلى السماء، فطلع له جبريل من المشرق، فسد الأرض من المغرب، وملأ الأفق، فخر رسول الله ﷺ، كما خر موسى في جبل الطور، فنزل جبريل في صورة الآدميين، فضمه إلى نفسه، وجعل يمسح الغبار عن وجهه. ولم يره أحد من الأنبياء على صورته التي خلق عليها إلا نبينا محمد ﷺ. وقيل: إن معنى ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾؛ أي: استوى القرآن في صدر محمد ﷺ حين نزل عليه.

---

(١) روح البيان. (٢) القرطبي.

وقوله: ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: جبرئيل عليه السلام ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ من الأرض؛ أي: بالمشرق، حال من فاعل ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾؛ أي: استوى جبريل، وظهر على صورته الأصلية، والحال أن جبريل بأفق الشمس؛ أي: أقصى الدنيا عند مطلع الشمس[1]. والأفق: هي الدائرة التي تفصل بين ما يرى من الفلك وما لا يرى. والأفق الأعلى مطلع الشمس، كما أن الأفق الأدنى مغربها.

﴿ثُمَّ دَنَا﴾ جبريل عليه السلام؛ أي: ثم بعد ما استوى، وظهر على صورته الأصلية، ومد جناحه، وسد الأفق الأعلى عاد إلى الصورة التي كان يعتاد النزول عليها. وهو صورة دحية بن خليفة الكلبي أمير العرب. ﴿ثُمَّ دَنَا﴾؛ أي: أراد الدنو والقرب إلى النبي ﷺ حال كونه في جبل حراء.

﴿فَتَدَلَّىٰ﴾؛ أي: استرسل، واستنزل جبريل من الأفق الأعلى مع تعلقه به. والدنو: القرب بالذات أو بالحكم. والتدلي: استرسال مع تعلق. وفي العبارة تقديم وتأخير؛ أي: تدلى ونزل جبريل في الأفق الأعلى، ثم دنا، وقرب إلى النبي ﷺ. وهو في غار حراء.

﴿فَكَانَ﴾ مقدار مسافة ما بين النبيّ ﷺ وبين جبريل عليه السلام ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾؛ أي: مقدار قوسين عربيين في القرب؛ أي: مقدار قرب إحدى قوسين إلى الأخرى. وذكر القوس؛ لأن القرآن نزل بلغة العرب، والعرب تجعل مساحة الأشياء بالقوس. وأصل ذلك أن الحليفين من العرب كانا إذا أرادا عقد الصفاء، والحلف، والعهد خرجا بقوسيهما، فألصقا بينهما يريدان بذلك أنهما متظاهران، يحامي كل واحد منهما عن صاحبه. وفي «معالم التنزيل»: معنى قوله: كان بين جبريل ومحمد عليهما السلام مقدار قوسين، إنه كان بينهما مقدار ما بين الوتر والقوس. كأنه غلب القوس على الوتر. وهذا إشارة إلى تأكيد القرب. وقيل: معنى ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾: قدر ذراعين. ويسمي الذراع قوساً؛ لأنه يقاس به المذروع؛ أي: يقدر. فلم يكن قريباً قرب التصاق، ولا بعيداً، بحيث لا يتأتى معه الإفادة والاستفادة. وهو الحد المعهود في مجالسة الأحباء المتأدبين.

---

(١) روح البيان.

وقيل: في الكلام قلب؛ أي: وكان مسافة ما بينهما قدر مسافة ما بين قابي قوس؛ لأن لكل قوس قابين. وهذا كناية عن شدة الاتصال، لأنه ضمه جبريل إلى نفسه حتى سكن عنه الروع. وفي القرطبي: والقاب: ما بين المقبض والسية مخففة الياء. وهي طرف القوس المنحني.

﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾؛ أي: بل كان قدر مسافة ما بينهما أقرب من ذلك؛ أي: من قاب قوسين على تقديركم أيها المخاطبون، كما في قوله: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾، فـ﴿أو﴾ للشك من جهة العباد، كما أن كلمة ﴿لَعَلَّ﴾ كذلك؛ أي: للترجي من العباد في مواضع من القرآن. فإن التشكيك والترجي لا يصحان على الله تعالى؛ أي: لو رآهما راء منكم لقال: هو قدر قوسين في القرب أو أدنى؛ أي لالتبس عليه مقدار القرب.

والمراد؛ أي: من قوله[1]: ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ تمثيل ملكة الاتصال، وتحقيق استماعه، لما أوحى إليه بنفي البعد الملبس وحمله بعضهم على حقيقته، حيث قال: فكلما دنا جبريل من النبي عليهما السلام انتقص، فلما قرب منه مقدار قوسين رآه على صورته التي كان يراه عليها في سائر الأوقات، حتى لا يشك أنه جبرئيل.

﴿فَأَوْحَىٰ﴾ جبريل، وبلَّغ ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾؛ أي: إلى عبد الله تعالى. وإضماره قبل الذكر لغاية ظهوره، كما في قوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾؛ أي: على ظهر الأرض. والمراد بالعبد المشرَّف بالإضافة إلى الله تعالى: هو الرسول محمد ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾.

﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾؛ أي: من الأمور العجيبة التي لا تفي بها العبارة، أو المعنى: فأوحى الله سبحانه حينئذٍ بواسطة جبريل ما أوحى إلى عبده محمد ﷺ، وقيل: المعنى: فأوحى الله إلى عبده جبريل ما أوحى. وفي الإبهام تفخيم للوحي الذي أوحى إليه على كل من الأقوال، وقد أبهم سبحانه ما أوحى جبريل إلى محمد، أو ما أوحاه إلى جبريل، فليس لنا أن نتعرض لتفسيره. وقال سعيد بن جبير: الذي أوحى إليه هو ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ...﴾ إلخ. وقيل: أوحى إليه أن الجنة حرام على

---

(١) روح البيان.

الأنبياء، حتى تدخلها، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك، اهـ من الشوكاني.
والوحي: إلقاء الشيء بسرعة. ومنه: الوحا. وهو السرعة.

﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ﴾؛ أي: فؤاد محمد ﷺ. و﴿مَا﴾ نافية. ﴿مَا رَأَىٰ﴾ ما موصولة، وعائدها محذوف؛ أي: لم يكذب فؤاده وقلبه ما رآه ببصره من صورة جبريل؛ أي: ما قال فؤاده لما رآه: لم أعرفك. ولو قال ذلك لكان كاذباً، لأنّه عرفه بقلبه، كما رآه ببصره.

وقال بعضهم: ﴿كَذَبَ﴾ مخفّفاً ومشدّداً بمعنى واحد. وقال بعضهم: من خفف ﴿كَذَبَ﴾ جعل ﴿مَا﴾ في موضع النصب على نزع الخافض وإسقاطه؛ أي: ما كذب فؤاده فيما رآه ببصره؛ أي؛ لم يقل فيه: كذباً. وإنما يقول ذلك أن لو قال له: لا أعرفك، ولا أعتقد بك. وقرأ الجمهور[1] ﴿مَا كَذَبَ﴾ مخفّفاً. وقرأ هشام، وأبو جعفر بالتشديد.

ومعنى قوله: ﴿فَاسْتَوَىٰ...﴾ إلخ؛ أي[2] فاستقام جبريل، وظهر له ﷺ على صورته التي خلقه الله عليها، حين أحب رسول الله ﷺ أن يراه كذلك. فظهر له في الأفق الأعلى. وهو أفق الشمس الشرقي، فملأه، ثم أخذ يدنو من رسول الله ﷺ، ويتدلي؛ أي: يزيد في القرب والنزول، حتى كان منه مقدار قوسين، أو أقرب على تقديركم، وعلى مقدار فهمكم، فأوحى إلى عبده ورسوله ما شاء أن يوحيه إليه من شؤون الدين.

ولا غرو فإن ظهور الأرواح في صورة مرئية أصبح الآن معروفاً. وقد قص علماء الروح عجائب وغرائب، وأصبح في طوقهم أن يظهروا الروح في صور بشرية، وصور نورية، وتخاطبهم حين التنويم المغناطيسي، وإذا صح ذلك للعلة، فليكن ذلك للقديسين والأنبياء بالأولى بطريق يشاكل مقامهم. ولا تتجلى الأرواح إلا بالمناسبة بين المتجلي والمتجلى عليه. وظهوره في صورة مرئية يرجع إلى قوته وشدته. وقوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ يرجع إلى قوته العلمية.

ولما كان الإنسان كثيراً ما يظن أنه قد تخيل ما رآه، ويكذب قلبه ما ظهر له،

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.

حتى قال علماء الأرواح: إنهم لما خاطبوا الأرواح قالت لهم: إنكم كثيراً ما يظهر لكم عجائب روحية، فتظنونها من الوهم، وتنسبونها إلى خداع الحواس.. أعقب سبحانه هذا بما دل على أنه ﷺ لم يقم بنفسه أن هذا تخيل، ولا أنه وهم، فقال: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾؛ أي: ما كذب فؤاد محمد ﷺ ما رآه ببصره من صورة جبريل عليه السلام؛ أي: إن فؤاده ﷺ ما قال لما رآه ببصره: «لم أعرفك»، ولو قال ذلك لكان كاذباً. لأنه عرفه بقلبه كما رآه ببصره.

والخلاصة: أنه لما قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ أكد هذا المعنى، وفصله بقوله: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ ليبين أنه ليس من الشعر، ولا من الكهانة في شيء. ولما قال: ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾، وذكر قيامه بصورته الحقيقية أكد أن مجيئه بصورة دحية الكلبي لا يعمي وصفه. إذ قد عرفه بشكله الحقيقيّ من قبل، فلا يشتبه عليه. وقوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾﴾ تتميم لحديث نزوله عليه السلام، وإتيانه بالمنزل. وقوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ بين به أنه لما عرفه وحققه لم يكذبه فؤاده بعد ذلك في أنه جبريل، ولو تصور بغير تلك الصورة.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ للاستفهام التقريري التوبيخي، داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف. والتقدير: أتكذبون محمداً ﷺ أيها المشركون، فتجادلونه على ما يراه معاينة من صورة جبريل عليه السلام وغيره، وذلك أنهم جادلوه حين أسري به، فقالوا: صف لنا مسجد بيت المقدس؛ أي: فأتجادلونه جدالاً ترومون به دفعه عما شاهده وعلمه.

وقرأ الجمهور: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾؛ أي: أتجادلونه على شيء رآه ببصره، وأبصره. وعدى بعلى لما في الجدال من المغالبة. وجاء ﴿يَرَىٰ﴾ بصيغة المضارع وإن كانت الرؤية قد مضت إشارة إلى ما يمكن حدوثه بعد. وقرأ علي، وعبد الله، وابن عباس، والجحدري، ويعقوب، وابن سعدان، وحمزة، والكسائي: ﴿أفتَمْرُونَه﴾ بفتح التاء وسكون الميم، مضارع مريت؛ أي: جحدت، يقال: مريته حقه إذا جحدته. وقرأ عبد الله فيما حكى ابن خالويه، والشعبي فيما ذكر شعبة ﴿أفَتُمْرُونَه﴾ بضم التاء وسكون الميم، مضارع أمريت؛ أي: أتريبونه، وتشكون فيه. قال أبو حاتم: وهو غلط.

وقال الحسن البصري رحمه الله، وجماعة[1]: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾؛ أي: علمه الله. وهو وصف من الله نفسه بكمال القدرة والقوة. ﴿ذو مرة﴾؛ أي: ذو إحكام الأمور والقضايا. وبين المكان الذي علمه فيه بلا واسطة، فقال: ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ محمد ﷺ. وهو بالأفق الأعلى؛ أي: فوق السموات. ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ محمد إلى ربه فتدلى؛ أي: تزايد في القرب إلى ربه ﴿فَكَانَ﴾ مقدار ما بينه وبين ربه ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾؛ أي: مقدار ما بين قابي قوس. وهو كناية عن شدة القرب. ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾؛ أي: بل أدنى، وأقرب من ذلك ﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾ الله سبحانه ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ محمد ﷺ ﴿ما أوحى﴾ من أحكام الدين، ومن خصائص الكرم والجود.

ويدل على أن ضمير ﴿دَنَا﴾ يعود ويرجع إليه ﷺ أنه قال في رواية «لما أسري بي إلى السماء قربني ربي حتى كان بيني وبينه كقاب قوسين أو أدنى، قيل لي: قد جعلت أمتك آخر الأمم لأفضح الأمم عندهم؛ أي: بوقوفهم على أخبارهم، ولا أفضحهم عند الأمم لتأخرهم عنهم». ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ﴾؛ أي: فؤاد محمد ﷺ ﴿مَا رَأَىٰٓ﴾ من ذات ربه، ومن عجائب الأمور الغيبية، ومن الألطاف عليه وعلى أمته. وقال أبو علي الفارسي في هذه الآية قولا يطول شرحه، وقصاراه: يرجع إلى أنه تعالى ستر بعض ما أوحى إلى نبيّه عن الخلق لما علم أن علمهم بذلك يفترهم عن السير في طريق العبودية اتكالاً على محض الربوبية. ولهذا قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه، حيث قال معاذ: أأخبر الناس بذلك يا رسول الله، فقال: «لا تخبرهم بذلك لئلا يتكلوا»، انتهى.

لاَ يَكْتُمُ ٱلسِّرَّ إلاَّ كُلُّ ذِيْ خَطَرٍ ... وَالسِّرُّ عِنْدَ كِرَامِ ٱلنَّاسِ مَكْتُوْمُ
وَٱلسِّرُّ عِنْدِيَ فِيْ بَيْتٍ لَهُ غَلَقٌ ... قَدْ ضَاعَ مِفْتَاحُهُ وَٱلْبَابُ مَخْتُوْمُ

وقد قيل:

بَيْنَ ٱلْمُحِبِّيْنَ سِرٌّ لَيْسَ يُفْشِيْهِ ... قَوْلٌ وَلاَ عَمَلٌ لِلْخَلْقِ يَحْكِيْهِ
سِرٌّ يُمَازِجُهُ أُنْسٌ يُقَابِلُهُ ... نُوْرٌ تَحَيَّرَ فِيْ بَحْرٍ مِنَ ٱلتِّيْهِ

وعبارة «الخازن»: قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ﴾ قرىء بالتشديد؛ أي: ﴿ما

(١) روح البيان.

كذَّب﴾ قلب محمد ﷺ ﴿مَا رَأَىٰٓ﴾؛ أي: بعينه تلك الليلة، بل صدقه، وحققه، وقرىء بالتخفيف؛ أي: ما كذب فؤاد محمد الذي رآه، بل صدقه. والمعنى: ما كذب الفؤاد فيما رأى.

واختلفوا في الذي رآه فقيل: رأى جبريل. وهو قول ابن عباس، وابن مسعود، وعائشة. وقيل: هو الله عز وجل. ثم اختلفوا في معنى رؤية الله، فقيل: جعل بصره في فؤاده، وهو قول ابن عباس.

عن ابن عباس ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾. قال: رآه بفؤاده مرتين. وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه حقيقة. وهو قول أنس بن مالك، والحسن، وعكرمة. قالوا: رأى محمد ربه عز وجل. وروى عكرمة عن ابن عباس قال: إن الله عز وجل اصطفى إبراهيم بالخلة، واصطفى موسى بالكلام، واصطفى محمداً بالرؤية. وقال كعب: إنَّ الله قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى، فكلم موسى مرتين، ورآه محمد مرتين. أخرجه الترمذي بأطول من هذا.

وكانت عائشة تقول: لم ير رسول الله ﷺ ربه، وتحمل الآية على رؤية جبريل. وعن مسروق قال: قلت لعائشة: يا أماه هل رأى محمد ربه، فقالت: لقد قَفَّ شعري مما قلت، أين أنت من ثلاث من حدثكهن، فقد كذب؟ من حدثك أن محمداً رأى ربه، فقد كذب ثم قرأت ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾، ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾، ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ﴾، ومن حدثك أن محمداً كتم أمراً فقد كذب، ثم قرأت ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ﴾. ولكنه رأى جبرئيل في صورته مرتين. أخرجاه في «الصحيحين».

عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى أراه».

قوله عز وجل: ﴿أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ يعني: أفتجادلونه على ما يرى. وذلك أنهم جادلوه حين أسري به، وقالوا: صف لنا بيت المقدس، وأخبرنا عن عيرنا في الطريق، وغير ذلك مما جادلوه به.

والمعنى: أفتجادلونه جدالاً ترومون به دفعه عما رآه وعلمه.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد رأى محمد جبريل عليهما السلام في

صورته التي خلق عليها، حالة كون جبريل نازلا من السماء ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ وذلك أنه رآه في صورته مرتين: مرة في الأرض، ومرة عند سدرة المنتهى.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ قال: رأى جبريل، وعلى قول ابن عباس يعني: نزلة أخرى هو أنه كانت للنبي ﷺ في تلك الليلة عرجات لمسألة التخفيف من أعداد الصلوات، فيكون لكل عرجة نزلة، فرأى ربه عز وجل في بعضها، وروي عن ابن عباس: أنه رأى ربه بفؤاده مرتين. وعنه: أنه رآه بعينه. انتهى من «الخازن».

وعبارة «الروح»: قوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ الضمير البارز في «رآه» جبريل، و﴿نَزْلَةً﴾ منصوب على الظرفية نصب الظرف الذي هو مرة، لأن الفعلة اسم للمرة من الفعل، فكانت في حكمها.

والمعنى: وبالله لقد رأى محمد جبريل عليهما السلام على صورته الحقيقية مرة أخرى من النزول. وذلك أنه كان للنبي ﷺ في ليلة المعراج عرجات لمسألة التخفيف من أعداد الصلوات المفروضة، فيكون لكل عرجة نزلة، فرأى جبريل في بعض تلك النزلات.

﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾ وهو مقام جبريل. وكان قد بقي هنا عند عروجه ﷺ إلى مستوى العرش، وقال: «لو دنوت أنملة لاحترقت». قال النبي ﷺ: «رأيته عند سدرة المنتهي عليه ست مئة جناح، يتناثر منه الدر والياقوت». وقيل: رأى محمد ربه مرة أخرى بفؤاده عند سدرة المنتهى. و﴿عِندَ﴾ يجوز أن يكون متعلقاً برأى، وأن يكون حالاً من المفعول المراد به: جبريل؛ لأنَّ جبريل لكونه مخلوقا يجوز أن يراه النبي ﷺ في مكان مخصوص. وهو سدرة المنتهى. وهي شجرة نبق في السماء السابعة عن يمين العرش، ثمرها كقلال هجر، وورقها كآذان الفيلة، ينبع من أصلها الأنهار التي ذكرها الله سبحانه في كتابه يسير الراكب في ظلها سبعين عاماً لا يقطعها. و﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ مصدر ميمي بمعنى الانتهاء، كما قال الزمخشري، أو اسم مكان بمعنى موضع الانتهاء، كأنها في منتهى الجنة. وقيل: ينتهي إليها الملائكة، ولا يتجاوزونها؛ لأنّ جبريل رئيس الملائكة إذا لم يتجاوزها فبالحري أن لا يتجاوزها غيره. فأعلاها لجبريل كالوسيلة لنبينا ﷺ. فكما أن خواص الأمة

يشتركون مع النبي ﷺ في جنة عدن بدون أن يتجاوزوا إلى مقامه المخصوص به، فكذا الملائكة يشتركون مع جبريل في السدرة بدون أن يتعدّوا إلى ما خص به من المكان، وقيل: إليها ينتهي علم الخلائق، وأعمالهم، ولا يعلم أحد ما وراءها.

﴿عِندَهَا﴾؛ أي: عند تلك السدرة ﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾؛ أي: جنة تعرف بجنة المأوى. وسميت جنة المأوى؛ لأنه أوى إليها آدم. وقيل: إن أرواح المؤمنين تأوى إليها، وتنزل فيها. وقرأ الجمهور[1] ﴿جَنَّةُ﴾ برفع جنه، على أنها مبتدأ وخبرها الظرف المتقدم. والجملة حال من ﴿سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾. قيل: الأحسن أن يكون الحال هو الظرف، و﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ مرتفع به بالفاعلية، وإضافة الجنة إلى المأوى مثل إضافة مسجد الجامع؛ أي: الجنة التي يأوي إليها المتقون. وقرأ علي، وأبو الدرداء، وأبو هريرة، وابن الزبير، وأنس، وزر بن حبيش، ومحمد بن كعب، وقتادة، ومجاهد، وأبو سبرة الجهني ﴿جَنَّهُ المأوى﴾ بهاء الضمير، وجن فعل ماض من جن يجن، والهاء ضمير النبي ﷺ، مفعول به، و﴿ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ فاعل؛ أي: عندها ستره إيواء الله تعالى، وجميل صنعه. وقيل: المعنى: ضمه المبيت والليل. وقيل: جنه بظلاله، ودخل فيه. وقال الأخفش: أدركه المأوى، كما تقول: جنه الليل؛ أي: ستره، وأدركه. وردت عائشة وصحابة معها هذه القراءة، وقالوا: أَجَنَّ الله من قرأها.

ومعنى الآية: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ...﴾ إلخ؛ أي[2]: ولقد رأى النبي ﷺ جبريل في صورته الأصلية التي خلقه الله عليها عند شجرة النبق التي ينتهي إليها علم كل عالم، وما ورائها لا يعلمه إلا الله، قاله ابن عباس. وقد يكون المراد بالمنتهى: الله عزّ وجلّ؛ أي: سدرة الله الذي إليه المنتهى، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾. وعند هذه السدرة الجنّة التي يأوي إليها المتقون يوم القيامة، قاله الحسن البصري.

وعلينا أن نؤمن بهذه الشجرة كما وصفها الله سبحانه، ولا نعين مكانها، ولا نصفها بأوصاف أكثر مما وصفها به الكتاب الكريم، إلا إذا ورد عن المعصوم ﷺ ما يبين ذلك، ويثبت لدينا بالتواتر؛ لأن ذلك من علم الغيب الذي لم يؤذن لنا بعلمه. روى أحمد، ومسلم، والترمذي، وغيرهم أنها في السماء السابعة، ثمرها

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

كقلال هجر، وأوراقها مثل آذان الفيلة يسير الراكب في ظلها سبعين خريفاً لا يقطعها. والمشاهد في الدنيا أن النبات يعيش إذا وجد التراب والماء والهواء، ولكن لا عجب فالله يخلقه في أي مكان شاء، كما أخبر عن شجرة الزقّوم أنها نبت في أصل الجحيم.

وقصارى ما سلف: أنّ النبيّ ﷺ رأى جبريل في صورته الحقيقية مرّتين: مرةً، وهو في غار حراء في بدء النبوة، والثانية في ليلة المعراج، ولم يكن ذلك في الأرض، بل كان عند شجرة نبق عن يمين العرش. وهي منتهى الجنّة؛ أي: آخرها، وعلم الملائكة ينتهي إليها.

ومن المعلوم[1]: أنَّ الإسراء كان قبل الهجرة بسنة وأربعة أشهر أو بثلاث سنين على الخلاف، والرؤية الأولى كانت في بدء البعثة، فبين الرؤيتين نحو عشر سنين.

قال الماوردي في «معاني القرآن»: فإن قيل: لِمَ اختيرت السدرة لهذا الأمر دون غيرها من الشجر؟ قيل: لأنَّ السدرة تختص بثلاثة أوصاف: ظل مديد، وطعام لذيذ، ورائحة ذكيّة. فشابهت الإيمان الذي يجمع قولاً، وعملاً، ونيّةً. فظلها من الإيمان بمنزلة العمل لتجاوزه، وطعمها بمنزلة النية لكونه، ورائحتها بمنزلة القول لظهوره.

وقوله: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ﴾ ويغطيها ﴿مَا يَغْشَىٰ﴾؛ أي: ما غطاها زيادة في تعظيم السدرة. و﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، متعلق برأى السابق، لا لما بعده من الجملة المنفية. فإن ﴿مَا﴾ النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها. والغشيان بمعنى التغطية والستر، ومنه: الغواشي وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضاراً لصورتها البديعة، أو للإيذان باستمرار الغشيان بطريق التجدد.

والمعنى: وعزّتي وجلالي لقد رأى محمد جبريل عند السدرة وقت ما غشَّاها، وغطَّاها، وسترها، وعلاها ما لا يكتنهه الوصف ولا يفي به البيان كيفاً ولا كمًّا.

---

(١) الفتوحات.

وفي الحديث: «وغشيها ألوان لا أدري ما هي، فليس أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها». وعنه ﷺ: «رأيت السدرة يغشاها فراش من ذهب، ورأيت على كل ورقة ملكاً قائماً يسبح الله». وعنه ﷺ: «يغشاها رفرف»؛ أي: جماعة من طيور خضر. وقيل: يغشاها فراش أو جراد من ذهب. وقيل: يغشاها سبحات أنوار الله حين تجلَّى لها كما تجلَّى للجبل، لكنها كانت أقوى من الجبل، حيث لم يصبها ما أصابه من الدك. وذلك لأن الجبل كان في عالم الملك الضعيف، والسدرة في عالم الملكوت القوي، ولذا لم يخر ﷺ هناك مغشياً عليه حين رأى جبريل كما غشي عليه حين رآه في الأفق الأعلى لقوة التمكين، وغاية لطافة الجسد الشريف. وقيل: يغشاها الجم الغفير من الملائكة أمثال الغربان حين يقمن على الشجر، يعبدون الله تعالى عندها أو يزورونها متبركين بها، كما يزور الناس الكعبة. وقيل: غير ذلك.

﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾؛ أي: ما مال بصر رسول الله ﷺ أدنى ميل عما رآه في ذلك المقام، وفي تلك الحضرة المقدسة الشريفة يميناً ولا شمالاً ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾؛ أي: وما جاوز ما أمر برؤيته مع ما شاهد هناك من الأمور المذهلة مما لا يحصى، بل أثبته على ما أمر به إثباتاً صحيحاً متيقناً.

والمعنى[1]: أي[2] ولقد رأى محمد ﷺ جبريل عند السدرة، حين غطى السدرة ما غطاها من الخلائق الدالة على عظمة الله وجلاله، ومن الإشراق، والحسن من الملائكة. وقد أبهم ذلك الكتاب الكريم، فعلينا أن نكتفي بهذا الإبهام، ولا نزيده إيضاحاً بلا دليل قاطع ولا حجة بينة. ولو علم الله سبحانه الخير لنا في البيان لفعل. ﴿مَا زَاغَ﴾، ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾؛ أي: ما مال بصر رسول الله ﷺ عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها ومكن منها وما جاوزها إلى رؤية ما لم يؤمر برؤيته.

والخلاصة: أنه رأى رؤية المستيقن المحقق لما رأى.

وعزتي وجلالي ﴿لَقَدْ رَأَىٰ﴾ محمد ﷺ ليلة المعراج ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ أي: الآيات التي هي كبراها وعظماها، فأري من عجائب الملك

(١) المراغي.

والملكوت ما لا يحيط به نطاق العبارة. فقوله[1]: ﴿مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ﴾ حال قدمت على صاحبها. وكلمة ﴿مِنْ﴾ للبيان، لأنّه المناسب لمرام المقام. وهو التعظيم والمبالغة. ولذا لم تحمل على التبعيض على أن يكون هو المفعول. ويجوز أن يكون ﴿ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ صفة للآيات، والمفعول محذوف؛ أي: شيئاً عظيماً من آيات ربه. أي: ولقد رأى الآيات الكبرى من آيات ربه، وعجائبه الملكوتية. روى البخاري، وابن جرير، وابن المنذر في جماعة آخرين عن ابن مسعود: أنه قال في الآية: «رأى رفرفاً أخضر من الجنة سد الأفق»، أي: فجلس عليه، وجاوز سدرة المنتهى. والرفوف: البساط. وهو صورة همته البسيطة العريضة المحيطة بالآفاق مطلقاً؛ لأنّه ﷺ في سفر العالم البسيط، ولا يصل إليه إلا من له علو الهمة مثله. وقد قال حسّان بن ثابت رضي الله عنه في نعته ﷺ:

لَـهُ هِـمَـمٌ لاَ مُـنْـتَـهَـىٰ لِـكِـبَـارِهَـا   وَهِـمَّـتُـهُ ٱلـصُّـغْـرَىٰ أَجَـلُّ مِـنَ ٱلـدَّهْـرِ

وروى مسلم عن عبد الله بن مسعود قال في الآية: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ قال: رأى جبريل في صورته له ست مئة جناح، ورأى في تلك الليلة طوائف الملائكة، وسدرة المنتهى، وجنة المأوى، وما في الجنان لأهل الإيمان، وما في النيران لأهل الطغيان والظلم والأنوار، وما يعجز عنه الأفكار، وتحار فيه الأبصار. ومن ذلك ما رآه في السموات من الأنبياء عليهم السلام إشارة بكل نبي إلى أمر دقيق جليل، وحالة شريفة، كما ذكره الإمام السهيلي في «الروض الأنف».

وعلينا أن لا نحضر ما رآه في شيء بعينه بعد أن أبهمه القرآن. إذ هو قد رأى من الآيات الكبرى ما يجل عنه الحصر والاستقصاء.

فصل

نبذة من كلام الشيخ محيي الدين النواوي رحمه الله تعالى في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ وهل رأى نبينا محمد ﷺ ربه عز وجل ليلة الإسراء؟. قال القاضي عياض: اختلف السلف والخلف هل رأى نبينا ﷺ ربه ليلة الإسراء، فأنكرته عائشة كما وقع في «صحيح مسلم»، وجاء مثله عن أبي هريرة،

---

(١) روح البيان.

وجماعة، وهو المشهور عن ابن مسعود، وإليه ذهب جماعة من المحدثين والمتكلمين.

وروي عن ابن عباس: أنه رآه بعينه، ومثله عن أبي ذر، وكعب، والحسن، وكان يحلف على ذلك. وحكي مثله عن ابن مسعود، وأبي هريرة، وأحمد بن حنبل.

وحكى أصحاب المقالات عن أبي الحسن الأشعري، وجماعة من أصحابه: أنه رآه. ووقف بعض مشايخنا في هذا، وقال: ليس عليه دليل واضح، ولكنه جائز. ورؤية الله عز وجل في الدنيا جائزة. وسؤال موسى إياها دليل على جوازها. إذ لا يجهل نبي ما يجوز أو يمتنع على ربه.

واختلفوا في أن نبينا ﷺ هل كلم ربه ليلة الإسراء بغير واسطة أم لا؟. فحكي عن الأشعري، وقوم من المتكلمين أنه كلمه. وعزا بعضهم هذا القول إلى جعفر بن محمد، وابن مسعود، وابن عباس. وكذا اختلفوا في قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾. فالأكثر على أن معنى هذا الدنو والتدلي منقسم بين جبريل والنبي ﷺ، أو مختص بأحدهما من الآخر، أو من سدرة المنتهى. وذكر ابن عباس، والحسن، ومحمد بن كعب، وجعفر بن محمد، وغيرهم أنه دنو من النبي ﷺ إلى ربه، أو من الله. فعلى هذا القول يكون الدنو والتدلي متأولاً ليس على وجهه، بل كما قال جعفر بن محمد: الدنو من الله لا حد له، ومن العباد بالحدود. فيكون معنى دنو النبي ﷺ وقربه منه ظهور عظيم منزلته لديه، وإشراق أنوار معرفته عليه، وإطلاعه من غيبه، وأسرار ملكوته على ما لم يطلع عليه سواه. والدنو من الله تعالى له إظهار ذلك، وعظيم بره وفضله لديه. ويكون قوله تعالى: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ هنا عبارة عن لطف المحل، وإيضاح المعرفة، والإشراف على الحقيقة من نبينا محمد ﷺ، ومن الله تعالى إجابة الرغبة، وإنابة المنزلة. هذا آخر كلام القاضي عياض.

قال الشيخ محيي الدين النواوي: وأما صاحب «التحرير»، فإنه اختار إثبات الرؤية قال: والحجج في المسألة وإن كانت كثيرة، ولكن لا نتمسك إلا بالأقوى منها. وهو حديث ابن عباس: «أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد ﷺ وعليهم أجمعين». وعن عكرمة قال: سئل ابن عباس

هل رآى محمد ﷺ ربّه؟ قال: نعم. وقد روي بإسناد لا بأس به عن شعبة عن قتادة عن أنس قال: رأى محمد ربّه عزّ وجل. وكان الحسن يحلف بالله لقد رأى محمد ﷺ ربّه عزّ وجل. والأصل في المسألة حديث ابن عباس حبر هذه الأمة وعالمها، والمرجوع إليه في المعضلات. وقد راجعه ابن عمر في هذه المسألة، وراسله هل رأى محمد ﷺ ربه عز وجل؟ فأخبره أنه رآه. ولا يقدح في هذا حديث عائشة؛ لأن عائشة لم تخبر أنها سمعت النبي ﷺ يقول: لم أر ربي، وإنما ذكرت ما ذكرت متأولة لقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾، ولقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾. والصحابي إذا قال قولاً، وخالفه غيره منهم لم يكن قوله حجّةً. وإذا صحت الروايات عن ابن عباس: أنه تكلم في هذه المسألة بإثبات الرؤية، وجب المصير إلى إثباها، لأنها لسيت مما يدرك بالعقل، ويؤخذ بالظن، وإنما يتلقى بالسمع، ولا يستجيز أحد أن يظن بابن عباس أنه تكلم في هذه المسألة بالظن والاجتهاد.

وقد قال معمر بن راشد حين ذكر اختلاف عائشة وابن عباس: ما عائشة عندنا بأعلم من ابن عباس، ثم إن ابن عباس أثبت ما نفاه غيره، والمثبت مقدم على النافي. هذا كلام صاحب «التحرير» في إثبات الرؤية.

قال الشيخ محيي الدين: فالحاصل أن الراجح عند أكثر العلماء أن رسول الله ﷺ رأى ربه عز وجل بعيني رأسه، ليلة الإسراء لحديث ابن عباس وغيره مما تقدم. وإثبات هذا لا يأخذونه إلا بالسماع من رسول الله ﷺ هذا مما لا ينبغي أن يتشكك فيه.

ثم إن عائشة لم تنف الرؤية بحديث عن رسول الله ﷺ، ولو كان معها حديث لذكرته، وإنما اعتمدت على الاستنباط من الآيات. وسنوضح الجواب، فنقول: أما احتجاج عائشة رضي الله عنها بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ فجوابه ظاهر، فإن الإدراك هو الإحاطة، والله لا يحاط به، وإذا ورد النص بنفي الإحاطة لا يلزم منه نفي الرؤية بغير إحاطة. وهذا الجواب في نهاية الحسن مع اختصاره. وأما احتجاجها بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا...﴾ الآية، فالجواب عنه من أوجه:

أحدها: أنه لا يلزم مع الرؤية وجود الكلام حال الرؤية، فيجوز وجود الرؤية من غير كلام.

والوجه الثاني: أنه عام مخصوص بما تقدم من الأدلة.

والوجه الثالث: ما قاله بعض العلماء: أن المراد بالوحي هنا: الإلهام والرؤية في المنام، وكلاهما يسمى وحياً. وأما قوله تعالى: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ فقال الواحدي وغيره: معناه: غير مجاهر لهم بالكلام، بل يسمعون كلامه سبحانه من حيث لا يرونه. وليس المراد أن هناك حجاباً يفصل موضعاً عن موضع. ويدل على تحديد المحجوب فهو بمنزلة ما يسمع من وراء حجاب، حيث لم ير المتكلم. وقول عائشة في أوّل الحديث: «لقد قف شعري» فمعناه: قام شعري من الفزع، لكوني سمعت ما لا ينبغي أن يقال. تقول العرب عند إنكار الشيء: قف شعري، واقشعر جلدي، واشمأزت نفسي. وقوله ﷺ في حديث أبي ذرّ: «نور أنى أراه» فهو بتنوين «نور»، وبفتح الهمزة في «أنّى»، وتشديد النون المفتوحة، ومعناه: حجابه نور فكيف أراه. قال الماوردي: الضمير في «أراه» عائد على الله تعالى.

والمعنى: أنّ النور يمنعني من الرؤية، كما جرت العادة بإغشاء الأنوار الأبصار، ومنعها من إدراك ما حالت بين الرائي وبينه. وفي رواية: رأيت نوراً، معناه: رأيت النور فحسب، ولم أر غيره. وفي رواية: «ذاته نور أنى أراه»، ومعناه: هو خالق النور المانع من رؤيته. فيكون من صفات الأفعال. ومن المستحيل أن تكون ذات الله نوراً، إذ النور من جملة الأجسام، والله يتعالى عن ذلك. هذا مذهب جميع أئمة المسلمين، والله أعلم. انتهى من «الخازن».

ولما قص الله سبحانه هذه الأقاصيص، قال للمشركين موبخاً لهم ومقرعاً: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾ والهمزة فيه للاستفهام الإنكاري[1]، داخلة على محذوف. والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أعقيب ما سمعتم من آثار كمال عظمته، وإحكام قدرته، ونفاذ أمره في الملأ الأعلى، وما تحت الثرى، وما بينهما أنكرتم وحدانية الله تعالى فرأيتم؛ أي: ظننتم هذه الأصنام مع غاية حقارتها وذلتها شركاء لله

---

(١) الفتوحات بتصرف.

سبحانه، وقيل: الهمزة للإستفهام الاستخباري المضمن للإنكار، مقدمة من تأخير. والفاء: للإفصاح، والتقدير: إذا سمعتم ما أخبرته لكم من آثار كمال عظمة الله سبحانه في ملكه، وملكوته، وجلاله، وجبروته، ونفاذ أمره في العالم الأعلى وفيما تحت الثرى، وأردتم بيان ما تستحقون من التوبيخ والتقريع على شرككم، فأقول لكم: أرأيتم.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾؛ أي: أخبروني عن حال آلهتكم هذه التي اتخذتموها معبودات، وتمكنتم على عبوديتها هل وجدتم فيها صفة من صفات الإلهية من الإيجاد، والإعدام، والنفع، والضر، وأمثالها؟ لا والله. بل اتخذتموها آلهة لغاية ظلوميتكم على أنفسكم، ونهاية جهوليتكم بالإله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. وقيل: المعنى: أفتظنون أن عبادتكم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى في الدنيا تنفعكم في الآخرة، أي: أخبروني عن هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله، هل لها قدرة توصف بها؟ وهل أوحت إليكم شيئاً كما أوحى الله إلى محمد، أم هي جمادات لا تعقل ولا تنفع. ثم ذكر هذه الأصنام الثلاثة التي اشتهرت في العرب، وعظم اعتقادهم فيها. قال الواحديّ وغيره: وكانوا يشتقون لها أسماء من أسماء الله تعالى. فقالوا من الله: اللات، ومن العزيز: العزّى. وهي تأنيث الأعز بمعنى العزيزة، ومناة من منى الله الشيء إذا قدره، وكان اللات بالطائف. وقيل: بنخلة، كانت قريش تعبده. روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان اللات رجلاً يلت السويق للحجاج. قيل: فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه.

وقيل: كان في رأس جبل له غنيمة يسلأ منها السمن، ويأخذ منها الأقط، ويجمع رسلها، ثم يتخذ حيساً، فيطعم الحجاج. وكان ببطن نخلة، فلما مات عبدوه، وهو اللات، وقيل: كان رجلاً من ثقيف يقال له: صرمة بن غنم، وكان يسلأ السمن، فيضعه على صخرة، فتأتيه العرب، فتَلُتُّ به أسوقهم. فلما مات الرجل حولتها ثقيف إلى منازلها، فمرت الطائف على موضع اللات.

وأما العزى: فهو تأنيث الأعز، كانت لغطفان. وهي سمرة، كانوا يعبدونها، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد، فقطعها، فجعل يضربها بالفأس، وهو يقول:

يَـا عُـزَّىٰ كُـفْـرَانَـكِ لاَ سُـبْـحَـانَـكِ   إِنِّـــيْ رَأَيْـــتُ ٱللهَ قَـــدْ أَهَـــانَـــكِ

فخرجت من أصلها شيطانة ناشرة شعرها، واضعة يدها على رأسها، وهي تولول؛ أي: تقول: يا ويلاه، فجعل خالد يضربها بالسيف، حتى قتلها، فأخبر رسول الله ﷺ؛ فقال: تلك لن تعبد أبداً. وفي «القاموس»: العزى: صنم أو سمرة، عبدتها غطفان، أول من اتخذها ظالم بن أسعد الغطفاني فوق ذات عرق إلى البستان بتسعة أميال، بني عليها بيتاً، وسماه بسا، وكانوا يسمعون فيها الصوت، فبعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد، فهدم البيت، وأحرق السمرة، انتهى. وقيل: هي صنم لغطفان، وضعها لهم أسعد بن ظالم الغطفاني.

وقيل: إنه قدم مكة، فرأى الصفا والمروة، ورأى أهل مكة يطوفون بينهما، فرجع إلى بطن نخلة، فقال لقومه: إنّ لأهل مكة الصفا والمروة وليستا لكم، ولهم إله يعبدونه وليس لكم. قالوا: فما تأمرنا؟ قال: أنا أصنع لكم كذلك، فأخذ حجراً من الصفا، وحجراً من المروة، ونقلهما إلى نخلة، فوضع الذي أخذ من الصفا، فقال: هذا الصفا، ثم وضع الذي أخذ من المروة، وقال: هذه المروة، ثم أخذ ثلاثة أحجار، وأسندها إلى شجرة، وقال: هذا ربكم، فجعلوا يطوفون بين الحجرين، ويعبدون الحجارة الثلاث، حتى افتتح رسول الله ﷺ مكة، وأمر برفع الحجارة، وأمر خالد بن الوليد بالعزى، فقطعها. وقيل: هي بيت بالطائف، كان تعبده ثقيف.

وأما مناة فصخرة لهذيل وخزاعة، يعبدها أهل مكة. سمّيت مناة لأنّ دماء المناسك تمنى عندها؛ أي: تراق، ومنه: مني. وقالت عائشة رضي الله عنها: في الأنصار كانوا يهلون لمناة، وكانت حذ وقديد. وقيل: هي بيت بالمشلل، كانت بنو كعب تعبده. وفي «إنسان العيون»: مناة صنم، كان للأوس والخزرج، أرسل رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأشهلي رضي الله عنه في عشرين فارساً إلى مناة ليهدم محلها، فلما وصلوا إلى ذلك الصنم قال السادن لسعد: ما تريد؟ قال: هدم مناة، قال: أنت وذاك، فأقبل سعد إلى ذلك الصنم، فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس، تدعو بالويل، فضرب صدرها، فقال لها السادن: مناة دونك بعض عصاتك، فضربها سعد، فقتلها، وهدم محلها، انتهى.

وقوله: ﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ وصف لمناة، وصفها بأنها ثالثة تأكيداً؛ لأنّها لما عطفت عليهما علم أنها ثالثتهما. والأخرى صفة ذمٍّ لها، وهي المتأخرة الوضيعة المقدار؛ أي: مناة الحقيرة الذليلة، لأنَّ الأخرى تستعمل في الضعفاء، كقوله تعالى: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾؛ أي: ضعفاؤهم لرؤسائهم. وذلك لأن اللات كان وثناً على صورة آدمي، والعزى صورتها صورة شجرة سمرة. ومناة صورتها صورة صخرة. فالآدمي أشرف من النبات، وهو أشرف من الجماد، وهو متأخر.

فالمناة في أخريات المراتب. قال أبو البقاء: فالوصف بالأخرى للتأكيد. وقد استشكل وصف الثالثة بالأخرى، والعرب إنما تصف به الثانية. فقال الخليل: إنما قال ذلك لوفاق رؤوس الآي، كقوله: ﴿مأرب أخرى﴾. وقال الحسين بن الفضل: فيه تقديم وتأخير. والتقدير: أفرأيتم اللات والعزى الأخرى ومناة الثالثة.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿ٱللَّٰتَ﴾ خفيفة التاء. وابن عباس، ومجاهد، ومنصور بن المعتمر، وأبو صالح، وطلحة، وأبو الجوزاء، ويعقوب، وابن كثير في رواية بشدها. وقرأ الجمهور ﴿مناة﴾ مقصوراً، فقيل: وزنها فعلة، واشتقاقها من مني يمني؛ أي: صب. لأن دماء النسائك تصب عندها يتقربون بذلك إليها. وقرأ ابن كثير ﴿ومناءة﴾ بالمد والهمزة، ووزنها مفعلة، والألف منقلبة من واو، والهمزة أصل؛ لأنها مشتقة من النوء. وهو المطر؛ لأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركاً بها. والقصر أشهر، وهي قراءة الجمهور.

والمعنى[2]: أي فبعد أن سمعتم ما سمعتم من آثار كمال الله عزّ وجلّ، وعظمته في ملكه، وملكوته، وجلاله، وجبروته، وأن الملائكة على رفعة مقامهم، وعلو قدرهم ينتهون إلى السدرة، ويقفون عندها تجعلون هذه الأصنام على حقارة شأنها شركاء لله مع ما علمتم من عظمته. وفي هذا تقريع شديد، وتوبيخ عظيم، وتأنيب لا إلى غاية. وإن العاقل لا ينبغي أن يخطر بباله مثل هذا، ويمتهن رأيه إلى هذا الحد.

وبعد أن أنبهم على سخف عقولهم، وسفاهة أحلامهم بعبادتهم الأصنام التي

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

كانوا يزعمون أنها هياكل للملائكة، والملائكة بنات الله.. وبخهم على نسبة البنات إليه سبحانه، وهم لا يرضونها لأنفسهم، فقال: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ الاستفهام فيه[1] للتوبيخ المبني على التوبيخ الأول؛ أي: هل لكم أيها المشركون الذكر الكامل، وله سبحانه الأنثى الناقصة؟ حيث قلتم: الملائكة بنات الله مع كراهتكم البنات لأنفسكم. واختار لفظ الأنثى على البنات لوقوعه رأس فاصلة، ولأنه الذي يذكر في مقابلة الذكر، لا البنات؛ لأن البنات إنما تذكر في مقابلة البنين.

وقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى القسمة المفهومة من الجملة الاستفهامية. ﴿إِذًا﴾؛ أي: إذ جعلتم البنات له والبنين لكم ﴿قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾؛ أي: جائرة معوجة، حيث جعلتم له تعالى ما تستنكفون منه، وتجعلون لأنفسكم ما تحبون.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿ضِيزَىٰٓ﴾ بكسر الضاد من غير همز. والظاهر: أنه صفة على وزن فعلى بضم الفاء، كسرت لتصح الياء. ويجوز أن يكون مصدراً على وزن فعلى كذكرى، ووصف به. وقرأ ابن كثير ﴿ضئزى﴾ بالهمزة، فوجه على أنه مصدر، كذكرى. وقرأ زيد بن عليّ ﴿ضَيْزَى﴾ وبفتح الضاد وسكون الياء، ويوجه على أنه مصدر كدعوى، وصف به، أو وصف كسكرى. ويقال: ضوزى بالواو وبالهمز.

والمعنى[3]: أي أتجعلون له ولداً وتجعلون هذا الولد أنثى، وتختارون لأنفسكم الذكران على علم منكم أنَّ البنات ناقصات، والبنين كاملون، والله كامل العظمة. فكيف تنسبون إليه الناقص. وأنتم على نقصكم تنسبون إلى أنفسكم الكامل. تلك القسمة إذا كانت على تلك الحالة قسمة جائرة، غير مستوية، ناقصة غير تامة. لأنكم جعلتم لربكم ما تكرهونه لأنفسكم، وآثرتم أنفسكم بما ترضون لها.

ثم أنكر عليهم ما ابتدعوه من الكذب والإفتراء في عبادة الأصنام، وتسميتها

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

آلهة، فقال: ﴿إِنْ هِيَ﴾ الضمير للأصنام؛ أي: ما هذه الأصنام باعتبار الألوهية التي تدعونها؛ أي: باعتبار إطلاق اسم الإله ﴿إِلَّآ أَسْمَآءٌ﴾؛ أي: أسماء محضة ليس تحتها مسميات؛ أي: ما تنبىء هي عنه من معنى الألوهية، ليس بشيء ما أصلاً. كما إذا أردت أن تحقر من هو ملقب بما يشعر بالمدح، وفخامة الشأن تقول: ما هو إلا اسم.

﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ صفة لأسماء[1]، وضمير «ها» لها، لا للأصنام. والمعنى: جعلتموها أسماء، لا جعلتم لها أسماء. فإن التسمية نسبة بين الاسم والمسمى. فإذا قيست إلى الاسم فمعناها: جعله اسماً للمسمى، وإذا قيست إلى المسمى فمعناها: جعله مسمى للاسم. وإنما اختير هنا المعنى الأول من غير تعرض للمسمى لتحقيق أن تلك الأصنام التي يسمونها آلهة أسماء مجردة، ليس لها مسميات قطعاً كما في قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ لا أنَّ هناك مسميات، لكنها لا تستحق التسمية، أي: ما هي إلا أسماء خالية من المسميات وضعتموها. ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ بمقتضى أهوائكم الباطلة، ليس فيها شيء من معنى الألوهية التي تدعونها. لأنها لا تبصر، ولا تسمع، ولا تعقل، ولا تفهم، ولا تضر، ولا تنفع. فليست إلا مجرد أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم قلد الآخر فيها الأول، وتبع في ذلك الأبناء الآباء. ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا﴾؛ أي: بصحة تسميتها ﴿مِن سُلْطَٰنٍ﴾؛ أي: برهان تتعلقون به، ولا حجة. في جميع القرآن ﴿أَنزَلَ﴾ بالألف، إلا في الأعراف، فإنه نزل بالتشديد.

والمعنى[2]: أن هذه الأسماء التي تسمونها آلهة هي أسماء فقط، وليس لها مسميات هي آلهة البتة كما تزعمون، وتعتقدون أنها تستحق أن يعكف على عبادتها، وتقديم القرابين إليها. وليس لكم من حجة ولا برهان تؤيدون به ما تقولون. وإنما قلد فيها الآخر الأول، وتبع في ذلك الأبناء الآباء. ولا يخفي ما في ذلك من التحقير، كما تقول: ما هو إلا اسم إذا لم يكن مشتملاً على صفة معتبرة لها شأن، وقدر.

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

ثم أكد ما سلف بقوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ فيه[1] التفات من الخطاب إلى الغيبة للإيذان بأن تعداد قبائحهم اقتضى الإعراض عنهم، وحكاية جناياتهم لغيرهم، أي: ما يتبعون فيما ذكر من التسيمة والعلم بموجبها ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ الذي لا يغني من الحقّ شيئاً، أي: إلا توهم أن ما هم عليه حق توهماً باطلاً ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾؛ أي: وما تشتهيه أنفسهم الأمّارة بالسوء، من غير التفات إلى ما هو الحقّ الذي يجب الإتباع له. فما موصولة، ويجوز كونها مصدرية. والألف واللام بدل من الإضافة، وهو معطوف على الظنّ.

وقرأ الجمهور:[2] ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ بياء الغيبة. وقرأ عيسى بن عمر، وأيوب، وابن السميقع بالفوقية على الخطاب. ورويت هذه القراءة عن ابن مسعود، وابن عباس، وطلحة، وابن وثّاب، والأعمش.

وفي «فتح الرحمن»: قوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ ذكره هنا[3]، وفيما بعد، وليس بتكرار. لأنَّ الأول متصل بعبادتهم الأصنام اللات، والعزى، ومناة، والثاني بعبادتهم الملائكة، والظن فيها مذموم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾؛ أي: لا يقوم مقام العلم. فإن قلت: كيف لا يقوم مقامه مع أنه يقوم مقامه في كثير من المسائل، كالقياس؟.

قلت: المراد هنا: الظن الحاصل من اتباع الهوى، دون الظن الحاصل من الاستدلال والنظر بقرينة قوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ انتهى.

والمعنى[4]: أي ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم، وإلا حظوظ نفوسهم في رياستهم، وتعظيم آبائهم الأقدمين.

والخلاصة: إنكم تعبدون هذه الأصنام توهماً منكم أنّ ما عليه أباؤكم حق، واتباعاً لشهوات أنفسكم.

ثم بين أنه ما كان ينبغي لهم ذلك، لأنّه قد جاءهم ما ينبههم إلى سوء رأيهم

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) فتح الرحمن.
(٤) المراغي.

وعظيم غفلتهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ حالٌ[1] من فاعل ﴿يَتَّبِعُونَ﴾؛ أي: يتبعون الظن، وهوى النفس في حال تنافي ذلك. وهي مجيء الهدى من عند ربهم. أو اعتراض، لأن قوله: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ متصل بقوله: ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾. والأول أولى. وأيًّا ما كان ففيه تأكيد لبطلان إتباع الظن. وهوى النفس، وزيادة تقبيح لحالهم. فإن اتباعهما من أي شخص كان قبيح وممن هداه الله بإرسال الرسول، وإنزال الكتاب أقبح. فالهدى القرآن والرسول، ولم يهتدوا بهما.

والمعنى: كيف يتبعون ذلك، والحال أنه قد جاءهم ما فيه هدى لهم من عند الله تعالى على لسان رسوله الذي بعثه الله بين ظهرانيهم وجعله من أنفسهم؛ أي[2]: هم يتبعون ما كان عليه أسلافهم، وينقادون إلى آرائهم، وقد أرسل الله إليهم الرسول بالحق المنير، والحجة الواضحة، وقد كان ينبغي أن يكون لهم في ذلك مزدجر، لكنهم أعرضوا عنه، وتولوا كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة.

وبعد أن بين أن جعلهم الأصنام شركاء لله لا يستند إلى دليل، بل لا يستند إلا إلى التشهي والهوى وإتباع الظن ذكر أنها مع هذا لا تجديهم نفعاً. فهي لا تشفع لهم عند الله، ولا يظفرون منها بجدوى، فقال: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ و﴿أَمْ﴾ فيه منقطعة تقدر ببل الإضرابية، وهمزة الإنكار والنفي، والتمنّي. تقدير شيء في النفس وتصويره فيها كما سيأتي. فأضرب عن اتباعهم الظن الذي هو مجرد التوهم، وعن اتباعهم هوى الأنفس، وما تميل إليه. وانتقل إلى إنكار أن يكون لهم ما يتمنون من كون الأصنام تنفعهم، وتشفع لهم.

والمعنى: بل أيظن الكافر أن له ما يتمنى ويشتهي من شفاعة الأصنام؛ أي:[3] ليس له كل ما يتمناه، وتشتهيه نفسه من الأمور التي من جملتها أطماعهم الفارغة في شفاعة الآلهة، ونظائرها التي لا تكاد تدخل تحت الوجود.

مَا كُلُّ مَا يَتَمَنَّى ٱلْمَرْءُ يُدْرِكُهُ ... تَجْرِي الرِّيَاحُ بِمَا لاَ تَشْتَهِي السُّفُنُ

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

ثم علل انتفاء أن يكون للإنسان ما تمنى بقوله: ﴿فَلِلَّهِ﴾ سبحانه ﴿ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾؛ أي: إن أمور الآخرة والدنيا بأسرها لله عز وجل، فليس لهم معه تعالى أمر من الأمور. ومن جملة ذلك أمنياتهم الباطلة، وأطماعهم الفارغة. فالجملة تعليل لانتفاء أن يكون للإنسان ما يتمناه حتماً. فإن اختصاص أمور الآخرة والأولى جميعاً به تعالى مقتض لانتفاء أن يكون له أمر من الأمور.

والمعنى[1]: أي بل ألهم ما يتمنونه من شفاعة الآلهة يوم القيامة؟ كلا إنَّ هذا لن يكون، ولن يجديكم ذلك فتيلاً ولا قطميراً، فإنَّ كل ما في الدنيا والآخرة فهو ملك له تعالى، ولا دخل لهذه الأصنام في شيء منه. وهذا تيئيس لهم من أن ينالوا خيراً من عبادتها، والتقرب إليها، ولا تكون وسيلة لهم عند ربهم.

ثم حرمهم فائدة عبادتها من وجه آخر، فقال: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ وهذا[2] إقناط لهم مما علقوا به أطماعهم من شفاعة الملائكة لهم، موجب لإقناطهم عن شفاعة الأصنام بطريق الأولوية. و«كم» خبرية مفيدة للتكثير، محلها الرفع على الابتداء، والخبر هي الجملة المنفية. وجمع الضمير في ﴿شَفَٰعَتُهُمْ﴾ مع إفراد الملك باعتبار المعنى، أي: وكثير[3] من الملائكة لا تغني شفاعتهم عند الله شيئاً من الإغناء في وقت من الأوقات، أي: لا تنفع شيئاً من النفع. وهو القليل منه أو شيئاً؛ أي: أحداً. وليس المعنى: أنهم يشفعون فلا تنفع شفاعتهم، بل معناه: أنهم لا يشفعون. لأنه لا يؤذن لهم كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه لهم في الشفاعة ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ ويريد أن يشفعوا له ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ عنه، ويراه أهلاً للشفاعة من أهل التوحيد والإيمان. وأما من عداهم من أهل الكفر والطغيان فهم من إذن الله بمعزل ومن الشفاعة بألف منزل. فإذا كان حال الملائكة في باب الشفاعة كما ذكر فما ظنهم بحال الأصنام.

والمعنى[4]: أي وكثير من الملائكة لا تفيد شفاعتهم شيئاً إلا إذا أذن بها

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

ربهم لمن يشاء، ويريد شفاعتهم له، ويرضى عنه عمله ممن أخلص له في القول والعمل. وإذا كان هذا حال الملائكة، وهم عالم روحي، لهم القرب من ربهم، والزلفى لديه، فما بالكم بأصنام أرضية ميتة، لا روح فيها ولا حياة، فهي بعيدة كل البعد عن الذات الأقدس.

وخلاصة ذلك: أنَّهُ لا مطمع لهم في شفاعة هذه الأصنام، ولا تجديهم نفعاً في هذا اليوم. وقرأ الجمهور[1]: ﴿شَفَٰعَتُهُمْ﴾ بإفراد الشفاعة، وجمع الضمير. وقرأ زيد بن عليّ ﴿شفاعته﴾ بإفراد الشفاعة، والضمير. وابن مقسم ﴿شفاعاتهم﴾ بجمعها، وهو اختيار صاحب الكامل؛ أي: القاسم الهذلي. وأفردت الشفاعة في قراءة الجمهور، لأنّها مصدر، ولأنهم لو شفع جميعهم لواحد لم تغن شفاعتهم عنه شيئاً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾؛ أي: لا يصدقون بمجيء يوم القيامة مع ما فيه من الحساب والعقاب على ما يتعاطونه من الكفر والمعاصي ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾ المنزهين عن سمات النقصان على الإطلاق؛ أي: كل منهم يسمون كل واحد منهم ﴿تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ منصوب[2] على أنه صفة مصدر محذوف؛ أي: تسمية مثل تسمية الأنثى. فإنَّ قولهم: الملائكة بنات الله قول منهم: بأن كلا منهم بنته تعالى. وهي التسمية بالأنثى. فاللام في الملائكة للتعريف الاستغراقيّ، وفي تعليقها بعدم الإيمان بالآخرة إشعار بأنها في الشناعة، والفظاعة. واستتباع العقوبة في الآخرة بحيث لا يجترىء عليها إلا من لا يؤمن بها رأساً.

قال ابن الشيخ: فإن قيل: كيف يصح أن يقال: إنّهم لا يؤمنون بالآخرة؟ مع أنهم كانوا يقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، وكان من عادتهم أن يربطوا مركوب الميت على قبره، ويعتقدون أنه يحشر عليه.

أجيب: بأنهم ما كانوا يجزمون به، بل كانوا يقولون لا نحشر. فإن كان.. فلنا شفعاء بدليل ما حكى الله عنهم: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾، وأيضاً ما كانوا يعترفون بالآخرة على الوجه الذي وردت به الرسل، فهم لا يؤمنون بها على وجهه.

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

والمعنى[1]: أي إن هؤلاء الذين لا يؤمنون بالبعث وما بعده من أحوال الدار الآخرة على الوجه الذي بينته الرسل يضمون إلى كفرهم مقالة شنعاء، وجهالة جهلاء. وهي قولهم: الملائكة بنات الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وإنما جعلها مقالة من لا يؤمن للإشارة إلى أنها بلغت من الفظاعة حدًّا لا يمكن معه أن تصدر من موقن بالجزاء والحساب، فقد اشتملت على جريمتين. أولاهما: نسبة الولد إلى الله. ثانيتهما: أن الولد أنثى تفضيلاً لأنفسهم على بارئهم وموجدهم من العدم.

وقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ حال من فاعل ﴿يسمّون﴾؛ أي: يسمُّونهم أنثى، والحال أنه لا علم لهم بما يقولون أصلاً؛ أي: ليس لهم بذلك برهان، ولا أتى لهم به وحي، حتى يقولوا ما قالوا. وقرىء ﴿وما لهم بها﴾؛ أي: بالملائكة أو التسمية.

ثم أكد نفي علمهم الحق بذلك، فقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾؛ أي: ما يتبعون في ذلك ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ الفاسد، وليس هذا تكراراً مع ما سبق؛ لأنَّ الأول متصل بعبادتهم اللات والعزى ومناة، وهذا بعبادتهم الملائكة كما سبق بيانه.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ﴾ أي[2]: جنس الظن، كما يلوح به الإظهار في مقام الإضمار. ﴿لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ من الإغناء. فإن الحق الذي هو عبارة عن حقيقة الشيء لا يدرك إدراكاً معتبراً إلا بالعلم، والظن لا اعتداد به في شأن المعارف الحقية، وإنما يعتد به في العمليات، وما يؤدي إليها كمسائل علم أصول الفقه. وفيه ذم للظن، ودلالة على عدم إيمان المقلد. وقيل: الحق بمعنى العلم؛ أي: لا يقوم الظن مقام العلم. وقيل: الحق بمعنى العذاب؛ أي: إن ظنهم لا ينقذهم من العذاب.

والمعنى[3]: أي إنَّ معرفة الشيء معرفة حقيقية يجب أن تكون عن يقين، لا عن ظن وتوهم، وأنتم لا تتبعون فيما تقولون في هذه التسمية إلا الظن والتوهم، وليس هذا من سبيل العلم في شيء. وقد جاء في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

«إيّاكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث». ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

والخلاصة: أن مثل هذا الاعتقاد إما أن يكون عن دليل عقلي، والعقل لا يركن إليه في مثل هذا، وإما عن وحي، ولم يصل إليهم شيء منه يخبرهم بما يقولون.

ثم أمر رسوله بالإعراض عنهم، فقال: ﴿فَأَعْرِضْ﴾ يا محمد ﴿عَن مَّن تَوَلَّىٰ﴾؛ أي: عن دعوة من تولى وأعرض ﴿عَن ذِكْرِنَا﴾ وكتابنا المفيد للعلم اليقينيّ، ولم يؤمن به. وهو القرآن المنطوي على علوم الأولين والآخرين، المذكر لأمور الآخرة. ولا تتهالك على إسلامه، أو عن ذكرنا كما ينبغي. فإنَّ ذلك مستتبع لذكر الآخرة، وما فيها من الأمور المرغوب فيها، والمهروب عنها؛ أي: أعرض عمن أعرض عن ذكرنا. والمراد بالذكر هنا[١]: القرآن أو ذكر الآخرة أو ذكر الله على العموم. وقيل: المراد بالذكر هنا: الإيمان. والمراد: أترك مجادلتهم، فقد بلغت إليهم ما أمرت به، وليس عليك إلا البلاغ. وهذا منسوخ بآية السيف. وقيل: النهي[٢] عن الدعوة لا يستلزم نسخ الآية بآية القتال، بل الإعراض عن الجواب والمناظرة شرط لجواز المقاتلة، فكيف يكون منسوخاً بها.

فالمعنى: أعرض عنهم، ولا تشتغل بإقامة الدليل والبرهان. فإنهم لا ينتفعون به، وقاتلهم، واقطع دابرهم.

﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾؛ أي: لم يرد سواها، ولا طلب غيرها، بل قصر نظره عليها راضياً بها، منكباً مقبلاً على جمع حطامها، وجلب منافعها. فالمراد النهي عن دعوته، والاعتناء بشأنه. فإن من أعرض عما ذكر، وانهمك في الدنيا بحيث كانت منتهى همته، وقصارى سعيه لا تزيده الدعوة إلى خلافها إلا عناداً، وإصراراً على الباطل.

ومعنى الآية[٣]: أي فأعرض عن مثل هؤلاء الذين أعرضوا عن كتابنا، ولم

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

يأخذوا بما فيه مما يوصل إلى سعادتهم في المعاش والمعاد من المعتقدات الحقة، وقصص الأولين المذكرة بأمور الآخرة، وما فيها من نعيم مقيم، أو عذاب أليم. واقتصروا على شؤون الدنيا، ورضوا بزخرفها، وجدوا في بلوغ أسمى المراتب فيها كما فعل النضر بن الحارث، والوليد بن المغيرة، وأضرابهما.

والخلاصة: لا تبالغ في الحرص على هدى من تولى عن ذكرنا، وانهمك في أمور الدنيا، وجعلها منتهى همته، وأقصى أمنيته، وقصارى سعيه فلا سبيل إلى إيمان مثله، فلا تبخع نفسك على مثله أسفاً وحزناً، كما قال: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾﴾.

ثم أكد ما مضى من أن همتهم مقصورة على الحياة الدنيا بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ التولي، وقصر الإرادة على الحياة الدنيا ﴿مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ﴾؛ أي: غاية علمهم، ونهايته، لا يكادون يجاوزونه إلى غيره، حتى يجديهم الدعوة والإرشاد كقوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾. فـ﴿مبلغ﴾ اسم مكان، وجمع الضمير في ﴿مَبۡلَغُهُم﴾ باعتبار معنى ﴿مَنْ﴾ كما أنّ إفراده فيما سبق باعتبار لفظها.

قال الفرّاء: أي ذلك قدر عقولهم، ونهاية علمهم أن آثروا الدنيا على الآخرة. وقيل: الإشارة بذلك إلى جعلهم للملائكة بنات الله، وتسميتهم لهم تسمية الأنثى. والأول أولى. والمراد بالعلم هنا: مطلق الإدراك الذين يندرج تحته الظن الفاسد. والجملة مستأنفة لتقرير جهلهم، واتباعهم مجرد الظن. وقيل: معترضة بين المعلل والعلة. وهي قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ﴾ وحاد ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ وأعرض عن الحق الذي هو التوحيد والطاعة. والمراد ﴿بِمَن ضَلَّ﴾: هو من أصر عليه، ولم يرجع إلى الهدى أصلاً.

﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ فقبل الحق، وأقبل عليه، وعمل به. فإن هذا تعليل للأمر بالإعراض. فهو سبحانه مجازٍ كل عامل بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشراً. وفيه تسلية لرسول الله ﷺ، وإرشاد له بأنه لا يتعب نفسه في دعوة من أصر على الضلالة، وسبقت له الشقاوة؛ فإن الله سبحانه قد علم حال هذا الفريق الضالّ، كما علم حال الفريق الراشد.

وحاصل معنى الآية: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾؛ أي[1]: إن منتهى علمهم أن يتفهموا شؤون الحياة الدنيا، ويتمتعوا باللذات، ويتصرفوا في التجارات ليحصلوا على ما يكون لهم فيها من بسطة في المال، وسعة في الرزق، ويكونوا ممن يشار إليهم بالبنان، وما به يذكرون لدى الناس، ولا يعنون بما وراء ذلك. فشؤون الآخرة دبر أذنهم، ووراء ظهورهم لا يعرفون منها قبيلاً من دبير.

روى أحمد عن أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له». وفي الدعاء المأثور: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا». ثم ذكر السبب في الأمر بالإعراض عنهم فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ...﴾ إلخ؛ أي: إن ربك يا محمد هو العليم بمن واصل ليله بنهاره، وصباحه بمسائه مفكراً في آياته في الكون، وفيما جاء على ألسنة رسله، حتى اهتدى إلى الحق الذي ينجيه في آخرته، ويبلغه رضوان ربه، ويبلغه سعادة الدنيا بالسير على السنن التي وضعها في خليقته، فاحتذى حذوها، وسار على أثرها. وبمن حاد عن طريق النجاة، وجعل إلهه هواه، وركب رأسه فلم يلو على شيء مما جاء به الداعي الناصح الأمين. وإنه لمجاز كلاً بما كسب، واكتسب. وسيجزيه على الجليل، والحقير، والصغير، والكبير، بحسب ما أحاط به واسع علمه، وبمقدار فضله على من أخبت إليه. كما قال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾. ونكاله بمن دسى نفسه، واجترح السيئات مصداقاً لقوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾.

والخلاصة: أنّ هؤلاء قوم لا تجدي فيهم الذكرى، ولا تؤثر فيهم العظة فلا تبتئس بما كانوا يفعلون.

ثم أخبر سبحانه عن سعة قدرته، وعظيم ملكه، فقال: ﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه ملكاً، وخلقاً، وعبيداً، لا لغيره أصلاً لا استقلالاً ولا اشتراكاً ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: جميع ما في السموات من العالم العلوي، وجيمع ما في الأرض من العالم السفلي. فهو المالك لذلك، والمتصرّف فيه، لا يشاركه فيه أحد. واللام[2] في قوله: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟﴾ وأشركوا، متعلقة بما دل عليه الكلام. كأنه قيل: هو

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

مالك ذلك يضل من يشاء، ويهدي من يشاء ليجزي المسيء بإساءته والمحسن بإحسانه. وقيل[1]: متعلّقة بما دلّ عليه ﴿أعلم﴾... إلخ، وما بينهما اعتراض مقرر لما قبله. فإن كون الكل مخلوقاً له تعالى مما يقرر علمه تعالى بأحوالهم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾. كأنه قيل: فيعلم ضلال من ضل واهتداء من اهتدى، ويحفظهما ليجزى الذين أساؤوا، وضلّوا.

﴿بِمَا عَمِلُوا﴾؛ أي: بعقاب ما عملوا من الشرك والضلال الذي عبَّر عنه بالإساءة بياناً لحاله. شبه نتيجة علمه بكل واحد من الفريقين. وهي مجازاته على حسب حاله بعلته الغائية. فأدخل لام العلة عليها، وصح بذلك تعلقها بقوله: ﴿أعلم﴾.

﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾؛ أي: وحدوا، واهتدوا ﴿بِالْحُسْنَى﴾؛ أي: بالمثوبة الحسنى التي هي الجنة. والباء لتعدية الجزاء أو بسبب أعمالهم الحسنى، فالباء للسببية والمقابلة. وإنما قدر على مجازاة المحسن والمسيء إذا كان كثير الملك كامل القدرة، فلذلك قال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾. والحسنى تأنيث الأحسن. وقرأ زيد بن عليّ ﴿لنجزي﴾ بالنون فيهما. وقرأ الجمهور بالياء فيهما.

ومعنى الآية[2]: أي إنّ ما في السموات وما في الأرض تحت قبضته وسلطانه، وله التصرف فيه خلقاً، وملكاً، وتدبيراً. فهو العليم به، لا تخفى عليه خافية من أمره. فلا تظنوا أنه يهمل أمركم، كلًّا فإنه مجاز كل نفس بما كسبت من خير أو شر. وهذا ما عناه سبحانه بقوله: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا...﴾ إلخ؛ أي: فهو يجازي بحسب علمه المحيط بكل شيء. المحسن بالإحسان، ويدخله جنّات تجري من تحتها الأنهار، ويمتعه بنعيم لا يخطر على قلب بشر. والمسيء بصنيع ما أساؤوا، وبما دسى به نفسه من ضروب الشرك والمعاصي، وبما ران على قلبه من كبائر الذنوب والآثام. وقد أضله الله على علم، وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوةً.

ثم وصف هؤلاء المحسنين، فقال: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾ ويبتعدون

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

عنها. فالموصول في محل نصب على أنه نعت للموصول الأوّل أعني قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾. وقيل: بدل منه. وقيل: بيان له. وقيل: منصوب على المدح بإضمار أعني، أو في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هم الذين يجتنبون كبائر الإثم. وقرأ الجمهور[1] ﴿كَبَٰٓئِرَ﴾ على الجمع. وقرأ حمزة، والكسائي، والأعمش، ويحيى بن وثّاب ﴿كبير الإثم﴾ على الإفراد. وصية الاستقبال[2] في صلة هذا الموصول، دون صلة الموصوف، أو المبدل منه للدلالة على تجدد الاجتناب واستمراره. يعني: للإشعار بأن ترك المعصية سواء كانت بارتكاب المحرمات أو بترك الواجبات ينبغي أن يستمر عليه المؤمن، ويجعل الاجتناب عنها دأباً له وعادة، حتى يستحق المثوبة الحسنى. فإن من اجتنب عنها مرة، وانهمك عليها في باقي الأزمان لا يستحقها بخلاف الحسنات المتطوع بها. فإن من أتى بها ولو مرة يؤجر عليها.

قال سعدي المفتي: لا حسن في جعل الذين يجتنبون مقصوداً بالنسبة، وجعل الذين أحسنوا في حكم المسكوت عنه على القول: بأنه بدل منه، ولو كان النظم على العكس.. لكان لها وجه، انتهى.

يقول الفقير: الاجتناب من باب التخلية بالمعجمة. وهي أقدم من التحلية بالحاء المهملة، فلذا جعلت مقصوداً بالنسبة.

وكبائر الإثم: ما يكبر عقابه من الذنوب. وهو ما ترتب عليه الوعيد بخصوصه كالشرك والزنا مطلقاً خصوصاً بحليلة جاره، وقتل النفس مطلقاً لا سيما الأولاد. وهي الموؤدة. وقيل: ما ذم فاعله ذمًّا شديداً. وقيل: الكبيرة: كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب أو حدّ في الدنيا أو أقدم صاحبه عليه من غير استشعار خوف أو ندم أو ترتب عليه مفاسد كبيرة. ولو كان في نظر الناس صغيراً. فمن أمسك إنساناً ليقتله ظالم، أو دل العدو على عورات البلاد، فقد فعل أمراً عظيماً. فيكون أكل مال اليتيم إذا قيس على هذين قليلاً مع أنه من الكبائر. ولأهل العلم في تحقيق الكبائر كلام طويل. وكما اختلفوا في تحقيق معناها وماهيتها اختلفوا في عددها.

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.

والمشهور: أنّ الكبائر سبع. روي ذلك عن عليّ كرم الله وجهه، واستدلوا عليه بما روي في الصحيحين: «اجتنبوا السبع الموبقات: الإشراك بالله تعالى، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق؛ وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات». وروى الطبراني عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: أنَّ رجلاً قال له: الكبائر سبعٌ، فقال: هي إلى سبع مئة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار، اهـ.

والإثم: قيل: الذنب الذي يستحق صاحبه العقاب. وقيل: هو اسم للأفعال المبطئة عن الثواب. وقيل: هو فعل ما لا يحل. وقيل: الإثم جنس يشتمل كبائر وصغائر، وجمعه آثام.

وقوله: ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ معطوف على ﴿كَبَٰٓئِرَ﴾. جمع فاحشة. وهي ما فحش من كبائر الذنوب: كالزنا، ونحوه. فهو من قبيل التخصيص بعد التعميم. وقال مقاتل: كبائر الإثم: كل ذنب ختم بالنار. والفواحش: كل ذنب فيه الحد. وقيل: الكبائر: الشرك. والفواحش: الزنا.

والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ منقطع؛ أي: إلا ما قل وصغر من الذنوب لأن المراد باللمم: الصغائر. وهي لا تدخل في الكبائر. وذلك كالنظرة، والكذب الذي لا حد فيه ولا ضرر، والإشراف على بيوت الناس، وهجر المسلم فوق ثلاث، والضحك في الصلاة المفروضة، والنياحة، وشق الجيب في المصيبة، والتبختر في المشي، والجلوس بين الفساق إيناساً بهم، وإدخال مجانين وصبيان ونجاسةٍ المسجد إذا كان يغلب تنجيسهم له، واستعمال نجاسة في بدن أو ثوب لغير حاجة، اهـ خطيب.

والمعنى: إلا ما قلَّ وصغر من الذنوب. فإنه مغفور ممن يجتنب الكبائر. يعني: إن الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن، إذا اجتنب الكبائر. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ وقال: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾. وقيل: هي النظر بلا تعمد، فإن أعاد النظر فليس بلمم، وهو مذنب. والغمزة والقبلة كما روي أن نبهان التمّار أتته امرأة لتشتري التمر، فقال لها: أدخلي الحانوت، فعانقها وقبلها، فقالت المرأة: خنت أخاك، ولم تصب حاجتك، فندم، وذهب إلى رسول الله ﷺ، فنزلت

الآية. وقيل: هي الخطرة من الذنب؛ أي: ما خطره من الذنب على القلب بلا عزم. وقيل: كل ذنب لم يذكر الله عليه حدًّا ولا عذاباً. وقال بعضهم: اللمم والإلمام: ما يعمله الإنسان الحين بعد الحين ولا يكون له عادة، ولا إقامة عليه. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: إلا أن يلم بالفاحشة مرة، ثم يتوب ولم يثبت عليها. فإن الله يقبل توبته. ويؤيده تمثل النبي ﷺ قول أمية[1]:

إنْ تَغْفِرِ ٱللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمَّا وَأيُّ عَبْدٍ لَكَ لاَ أَلَمَّا

أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح غريب، وبه قال مجاهد، والحسن، والزهري، وغيرهم.

واختار هذا القول الزجاج والنحاس. فالاستثناء على هذا متصل. والراجح الأول. واللمم: مأخوذ من قولهم: ألممت بكذا؛ أي: نزلت به وقاربته من غير مواقعة. قال الأزهري: العرب تستعمل الإلمام في معنى الدنو والقرب.

وجملة قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾ وكثيرها، تعليل لما تضمنه الاستثناء؛ أي: إنّ ذلك، وإن خرج عن حكم المؤاخذة، فليس يخلو عن كونه ذنباً يفتقر إلى مغفرة الله، ويحتاج إلى رحمته، بل لسعة المغفرة الربانية. وقيل معناه: إنّه سبحانه يغفر لمن تاب عن ذنبه فيغفر ما يشاء من الذنوب بعد التوبة الصادقة، والندم على ما فرط من مرتكبها، إذا أخبت لربه، وتجافى عن ذنبه. ومثله قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه إحاطة علمه بأحوال عباده، فقال: ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَعْلَمُ﴾ منكم ﴿بِكُمْ﴾؛ أي: بأحوالكم يعلمها ﴿إِذْ أَنشَأَكُم﴾؛ أي: خلقكم في ضمن إنشاء أبيكم آدم عليه السلام ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ إنشاء إجمالياً. وقيل: المراد: آدم. فإنه خلقه من طين ﴿و﴾ هو سبحانه أعلم بأحوالكم ﴿إذ أنتم أجنة﴾؛ أي: وقت كونكم أجنة ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ﴾ على أطوار مختلفة مترتبة، لا يخفى عليه حال من

(١) نفى الإمام ابن حجر في «فتح الباري» نسبة هذا البيت وغيره إلى النبي ﷺ؛ لأنه لم يقل الشعر، وإنما ثبت تمثله أقوال الشعراء، كقول أمية هذا، وكقول لبيد:

ألا كل شيءٍ ما خلا اللّه باطل وكل نعيم لا محالة زائل

أحوالكم، وعمل من أعمالكم التي من جملتها اللمم الذي لولا المغفرة الواسعة لأصابكم وباله، وضرره. والأجنّة: جمع جنين مثل: أسرَّة وسرير، وسيأتي بسط الكلام فيه في مبحث اللغة والصرف.

والفاء في قوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ لترتيب[1] النهي عن تزكية النفس على ما سبق من أن عدم المؤاخذة باللمم، ليس لعدم كونه من قبيل الذنوب، بل لمحض مغفرته تعالى مع علمه بصدوره عنكم، أي: إذا كان الأمر كذلك.. فلا تثنوا على أنفسكم بالطهارة من المعصية بالكلية، أو بما يستلزمها من زكاء العمل، ونماء الخير، ولا تمدحوها بحسن الأعمال، ولا تبرئوها عن الآثام. فإن ترك تزكية النفس أبعد من الرياء، وأقرب إلى الخشوع. بل اشكروا الله تعالى على فضله ومغفرته.

وقال الحسن رحمه الله تعالى: علم الله من كل نفس ما هي صانعة، وإلى ما هي صائرة، فلا تزكوا أنفسكم، ولا تطهروها من الآثام، ولا تمدوحها بحسن الأعمال. لأن كل واحد من التخلية والتحلية إنما يعتد به إذا كان خالصاً لله تعالى، وإذا كان هو أعلم بأحوالكم منكم فأيُّ حاجة إلى التزكية.

وأما من زكاه الغير، ومدحه فقد ورد فيه «احثوا في وجه المداحين ـ أي: الذين يمدحون بما ليس في الممدوح ـ التراب» على حقيقته، أو مجاز عن ردهم عن المدح، لئلا يغتر الممدوح فيتجبر. وقيل: المراد به: أن لا يعطوهم شيئاً لمدحهم. أو معناه: الأمر بدفع المال إليهم لينقطع لسانهم، ولا يشتغلوا بالهجو، وفيه إشارة إلى أن المال حقير في الواقع كالتراب.

قال أبو الليث في «تفسيره»: المدح على ثلاثة أوجه:

الأول: أن يمدحه في وجهه، فهو الذي نهي عنه.

والثاني: أن يمدحه في غير حضرته، ويعلم أنه يبلغه فهذا أيضاً منهي عنه.

والثالث: مدح يمدحه في حال غيبته، وهو لا يبالي بلغه أم لم يبلغه، ومدح يمدحه بما هو فيه فلا بأس بهذا، انتهى. وأمَّا المدح بعد الموت فلا بأس إذا لم يجاوز الحد، كالروافض في مدح أهل البيت.

وجملة قوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ المعاصي جميعاً، مستأنفة مقرّرة للنهي

---

(١) روح البيان.

ومشعرة بأن فيهم من يتقيها بأسرها. وقيل: كان ناس يعملون أعمالاً حسنة، ثم يقولون: صلاتنا، وصيامنا، وحجنا، فنزلت فيهم هذه الآية، وهذا إذا كان بطريق الإعجاب أو الرياء أو السمعة. فأما من اعتقد أن ما عمله من الأعمال الصالحة من الله تعالى، وبتوفيقه وتأييده، ولم يقصد به التمدح لم يكن من المزكين أنفسهم. فإن المسرة بالطاعة طاعة، وذكرها شكر.

ومعنى الآية[1]: هو سبحانه وتعالى بصير بأحوالكم، عليم بأقوالكم وأفعالكم، حين ابتدأ خلقكم من التراب، وحين صوركم في الأرحام على أطوار مختلفة وصور شتى. ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ﴾؛ أي: فإذا علمتم ذلك فلا تثنوا على أنفسكم بالطهارة من المعاصي، أو بزكاة العمل وزيادة الخير، بل اشكروا على فضله ومغفرته. فهو العليم بمن اتقى المعاصي، ومن ولغ فيها، ودنس نفسه باجتراحها.

الإعراب

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ (١١)﴾.

﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ ﴿الواو﴾ حرف جر وقسم، ﴿النجم﴾ مقسم به، مجرور بواو القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف، تقديره: أقسم بالنجم. وجملة القسم مستأنفة. ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرّد عن معنى الشرط، متعلق بفعل القسم المحذوف، ﴿هَوَىٰ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿النجم﴾. والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إِذَا﴾، والتقدير: أقسم بالنجم وقت هويه. وقيل: الظرف متعلق بمحذوف حال من ﴿النجم﴾؛ أي: أقسم بالنجم حال كونه مستقرًّا في زمان هويّه. وقيل: غير ذلك. وفي كلٍ منها إشكال ذكرت مع الأجوبة عنها في المطولات. ﴿مَا﴾ نافية، ﴿ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ فعل، وفاعل. والجملة جواب القسم، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ معطوف على ﴿مَا ضَلَّ﴾. ﴿وَمَا﴾

---

(١) المراغي.

الواو: عاطفة، ﴿يَنطِقُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿صَاحِبُكُمْ﴾، ﴿عَنِ الْهَوَىٰ﴾ متعلق بـ ﴿يَنطِقُ﴾. والجملة معطوفة على ﴿مَا ضَلَّ﴾. ﴿إِنْ﴾ نافية، و﴿هُوَ﴾ مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿وَحْيٌ﴾ خبر ﴿هُوَ﴾. والجملة مستأنفة. وجملة ﴿يُوحَىٰ﴾ صفة لـ﴿وَحْيٌ﴾. ﴿عَلَّمَهُ﴾ فعل، ومفعول به، ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ فاعل، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: علم صاحبكم ذلك الوحي ملك شديد القوى. والجملة الفعلية صفة ثانية لـ ﴿وَحْيٌ﴾. ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ صفة لـ ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾، مرفوع بالواو، ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿استوى﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾. والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ⑤﴾ كما يشير إليه صنيع القرطبي. ونصّه ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾؛ أي: ارتفع جبرئيل، وعلا إلى مكانه في السماء بعد أن علمه محمداً ﷺ، اهـ. ﴿وَهُوَ﴾ ﴿الواو﴾ حالية، ﴿هُوَ﴾ مبتدأ ﴿بِالْأُفُقِ﴾ خبر، ﴿الْأَعْلَىٰ﴾ صفة لـ ﴿الأفق﴾. والجملة في محل النصب، حال من فاعل ﴿استوى﴾. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وتراخ، ﴿دَنَا﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾. والجملة معطوفة على جملة ﴿استوى﴾. ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿تدلى﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾. والجملة معطوفة على جملة ﴿دَنَا﴾. ﴿فَكَانَ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿كان﴾ فعل ماض، واسمه ضمير يعود على ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ ولكنه على تقدير مضافات. ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ خبرها. والجملة معطوفة على جملة ﴿تدلى﴾، والتقدير: فَكَانَ مقدار مسافة قربه مثل قاب قوسين. ﴿أَوْ﴾ حرف عطف وشكّ، أو بمعنى بل، ﴿أَدْنَىٰ﴾ معطوف على ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾. ﴿فَأَوْحَىٰ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿أوحى﴾ فعل ماض، وفعل مستتر يعود على ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾، أو إلى الله. ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِ﴾ متعلق بأوحى. والجملة معطوفة على جملة كان. ﴿مَا﴾ موصولة أو مصدرية، مفعول به على الأول، أو مفعول مطلق على الثاني. وجملة ﴿أوحى﴾ صلة لما على كلا الوجهين. ﴿مَا﴾ نافية، ﴿كَذَبَ الْفُؤَادُ﴾ فعل، وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿مَا﴾ موصولة، مفعول به لكذب، وجملة ﴿رَأَىٰ﴾ صلته، و﴿رَأَىٰ﴾ بصرية، ومفعوله محذوف؛ أي: ما رآه.

﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ⑫ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ⑬ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ⑭ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ⑮ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ⑯ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ⑰ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ⑱﴾.

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف. والجملة المحذوفة جملة طلبيّة، لا محل لها من الإعراب. ﴿تمارونه﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به، معطوف على الجملة المحذوفة، ﴿عَلَىٰ مَا﴾ جار ومجرور، متعلق بـ ﴿تمارون﴾، وحقّه أن يتعدّى بفي، ولكن ضمَّنه معنى الغلبة فعداه بعلى. وجملة ﴿يَرَىٰ﴾ صلة لـ ﴿مَآ﴾ الموصولة، ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ مصدرية، ﴿وَلَقَدْ﴾ الواو: حاليّة، واللام: موطئة للقسم، ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿رَءَاهُ﴾ فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به. والجملة جواب القسم، لا محل لها من الإعراب. وجملة القسم في محل النصب، حال من مفعول ﴿تمارونه﴾. ﴿نَزْلَةً﴾ إما منصوب على الظرفية الزمانية، متعلق بـ ﴿رَءَاهُ﴾؛ أي: مرّةً أخرى، أو على المفعولية المطلقة؛ أي: رؤية أخرى، و﴿أُخْرَىٰ﴾ صفة لـ ﴿نَزْلَةً﴾، ﴿عِندَ سِدْرَةِ﴾ ظرف متعلق بـ ﴿رَءَاهُ﴾، ﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ مضاف إليه، أو حال من الفاعل أو المفعول أو منهما معاً. ﴿عِندَهَا﴾ خبر مقدم، ﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة الاسمية في محل النصب، حال من ﴿سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾. ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، في محل النصب على الظرفية الزمانية، والظرف متعلق بـ ﴿رَءَاهُ﴾ ﴿يَغْشَى﴾ فعل مضارع، ﴿ٱلسِّدْرَةَ﴾ مفعول به، ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل الرفع فاعل. والجملة الفعلية في محل الجر، مضاف إليه لـ ﴿إِذْ﴾. وجملة ﴿يَغْشَىٰ﴾ صلة لما الموصولة ﴿مَا﴾ نافية، ﴿زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ فعل، وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ معطوف على ﴿مَا زَاغَ﴾. ﴿لَقَدْ﴾ اللام: موطئة للقسم المحذوف، ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿رَأَىٰ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على محمد. والجملة جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة. ﴿مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ﴾ حال من المفعول مقدّمة عليه، ﴿ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ مفعول به، والتقدير: لقد رأى الآيات الكبرى حال كونها من جملة آيات ربّه. ويحتمل أن تكون ﴿ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ صفة آيات ربّه، لا مفعولاً به، ويكون المرئي محذوفاً لتفخيم الأمر وتعظيمه، كأنه قال: لقد رأى من آيات ربّه الكبرى أموراً عظاماً لا يحيط بها الوصف، والحذف في مثل هذا أبلغ وأهول، لأنَّ فيه تفخيماً لآيات الله الكبرى، وأنّ فيها ما رآه وما لم يره. وهو على الوجه الأول يكون مقتضاه أنه رأى جميع الآيات الكبرى على الشمول والعموم، مع أنَّ آيات الله مما لا يحيط أحد بجملتها.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١

﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أعقب ما سمعتم آثار قدرة الله تعالى أنكرتم وحدانيته، فرأيتم، وظننتم هذه الأصنام شركاء لله سبحانه. ﴿رأيْتم﴾ فعل، وفاعل، ﴿ٱللَّٰتَ﴾ مفعول أول، ﴿وَٱلْعُزَّىٰ﴾ ﴿وَمَنَوٰةَ﴾ معطوفان عليه، ﴿ٱلثَّالِثَةَ﴾ صفة مؤكدة لمناة، ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ صفة ذمّ للثالثة، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: شركاء لله وجملة ﴿رأيتم﴾ معطوفة على تلك المحذوفة، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿أَلَكُمُ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري ﴿لكم﴾ خبر مقدم، ﴿ٱلذَّكَرُ﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة جملة طلبية، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَلَهُ﴾ خبر مقدم، ﴿ٱلْأُنثَىٰ﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ، ﴿إِذًا﴾ حرف جواب وجزاء بمعنى إذ الظرفية، مهمل حرف لا محل لها من الإعراب؛ أي: إذ جعلتم له البنات ولكم البنين. ﴿قِسْمَةٌ﴾ خبر، ﴿ضِيزَىٰٓ﴾ صفة لـ ﴿قِسْمَةٌ﴾. والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿إِنْ﴾ نافية، ﴿هِىَ﴾ مبتدأ، ﴿إِلَّآ﴾ أداة حصر، ﴿أَسْمَآءٌ﴾، خبر هي والجملة مستأنفة ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾: فعل وفاعل ومفعول ثانٍ والمفعول الأول محذوف تقديره: سميتم بها أصناماً وجملة ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾: في محل الرفع، صفة لـ ﴿أَسْمَآءٌ﴾ ﴿أَنتُمْ﴾ تأكيد لتاء الفاعل في ﴿سميتم﴾ ليصح عطف ﴿وَءَابَآؤُكُم﴾ عليها على حد قوله:

وَإِنْ عَلَىٰ ضَمِيْرِ رَفْعٍ مُتَّصِلْ عَطَفْتَ فَٱفْصِلْ بِٱلضَّمِيْرِ ٱلْمُنْفَصِلْ

﴿مَّآ﴾ نافية، ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فعل، وفاعل. والجملة صفة ثانية لـ ﴿أَسْمَآءٌ﴾، ﴿بِهَا﴾ حال ﴿مِن﴾ زائدة، ﴿سُلْطَٰنٍ﴾ مفعول به لـ ﴿أَنزَلَ﴾، ﴿إِن﴾ نافية، ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ فعل، وفاعل، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿ٱلظَّنَّ﴾ مفعول به. والجملة مستأنفة. ﴿وَمَا﴾ الواو: عاطفة، ﴿ما﴾ اسم موصول في محل النصب، معطوف على الظنّ، ويصح جعلها مصدرية، ﴿تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ فعل، وفاعل. والجملة صلة لما الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: وما تهواه الأنفس. ﴿وَلَقَدْ﴾ الواو: حالية، أو اعتراضية، واللام

موطئة للقسم، ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿جَآءَهُم﴾ فعل، ومفعول به ﴿مِّن رَّبِّهِمُ﴾ متعلق بـ ﴿جَآءَهُم﴾. ﴿ٱلْهُدَىٰٓ﴾ فاعل. والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب. وجملة القسم معترضة، أو حال من فاعل ﴿يَتَّبِعُونَ﴾. ﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى بل الإضرابية وهمزة الإنكار، ﴿لِلْإِنسَٰنِ﴾ خبر مقدم، ﴿مَا﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة إضرابية، لا محل لها من الإعراب. ﴿تَمَنَّىٰ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الإنسان. والجملة صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: ما تمنّاه. ﴿فَلِلَّهِ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿لله﴾ خبر مقدم، ﴿ٱلْءَاخِرَةُ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿وَٱلْأُولَىٰ﴾ معطوف على ﴿ٱلْءَاخِرَةُ﴾. والجملة معطوفة على ما قبلها.

﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَكَم﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿كم﴾ خبرية، في محل الرفع، مبتدأ، ﴿مِّن﴾ زائدة في تمييزكم، ﴿مَّلَكٍ﴾ تمييز لكم، ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ صفة لـ ﴿مَّلَكٍ﴾، ﴿لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ﴾ فعل، وفاعل، ﴿شَيْـًٔا﴾ مفعول ﴿تُغْنِى﴾ أو مفعول مطلق؛ أي: شيئاً من الإغناء. والجملة في محل الرفع، خبر لكم الخبرية. والجملة مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ متعلق بـ ﴿تُغْنِى﴾، ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾ فعل، وفاعل، منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية. والجملة في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه؛ أي: إلا من بعد إذن الله سبحانه. ﴿لِمَن﴾ جار ومجرور، متعلق بـ ﴿يَأْذَنَ﴾، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلة لمن الموصولة، ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ معطوف على ﴿يَشَآءُ﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ صلة الموصول، ﴿بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ متعلق بـ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿لَيُسَمُّونَ﴾ اللام حرف ابتداء، ﴿يسمون الملائكة﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة الفعلية خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة. ﴿تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ مفعول مطلق.

﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ الواو: حالية، ﴿ما﴾ نافية، ﴿لَهُم﴾ خبر مقدم، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بعلم،

﴿مِنْ﴾ زائدة، ﴿عِلْمٍ﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة في محل النصب، حال من فاعل ﴿يسمون﴾. ﴿إِنْ﴾ نافية ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ فعل، وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿ٱلظَّنَّ﴾ مفعول به، ﴿وَإِنَّ﴾ الواو: حالية، ﴿إنّ الظنّ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿لَا يُغْنِى﴾ خبر ﴿إنّ﴾. ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ متعلق بـ ﴿يُغْنِى﴾، ﴿شَيْـًٔا﴾ مفعول به، أو مفعول مطلق. وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب حال من الظنّ. ﴿فَأَعْرِضْ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما ذكرته لك من أحوالهم، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك أعرض ﴿أعرض﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، ﴿عَن مَّن﴾ متعلق بـ ﴿أعرض﴾. والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿تَوَلَّىٰ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿من﴾ الموصولة. والجملة صلة لمن الموصولة. ﴿عَن ذِكْرِنَا﴾ متعلق بـ ﴿تَوَلَّىٰ﴾ فعل ماض، ﴿وَلَمْ﴾ الواو: عاطفة، ﴿لَمْ﴾ حرف جزم، ﴿يُرِدْ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، مجزوم بـ ﴿لم﴾. والجملة معطوفة على ﴿تَوَلَّىٰ﴾. ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿ٱلْحَيَوٰةَ﴾ مفعول به، ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ صفة لـ ﴿ٱلْحَيَوٰةَ﴾، ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم﴾ مبتدأ وخبر، ﴿مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ متعلق بـ ﴿مَبْلَغُهُم﴾. والجملة الاسمية جملة اعتراضية، لا محل لها من الإعراب لاعتراضها بين الأمر وهو ﴿أعرض﴾، وبين تعليله الآتي بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ ناصب واسمه، ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، ﴿أَعْلَمُ﴾ خبره، ﴿بِمَن﴾ متعلق بـ ﴿أَعْلَمُ﴾، وجملة ﴿ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ صلة الموصول. وجملة ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ جملة تعليلية، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ﴾ مبتدأ وخبر، ﴿بِمَنِ﴾ متعلق بـ ﴿أَعْلَمُ﴾، وجملة ﴿ٱهْتَدَىٰ﴾ صلة لـ ﴿مَنْ﴾ الموصولة. والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى (٣١) ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ (٣٢)﴾.

﴿وَلِلَّهِ﴾ خبر مقدم، و﴿مَا﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة مستأنفة. ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾. ﴿لِيَجْزِىَ﴾ اللام حرف جر وتعليل، ﴿يجزي﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، يعود

على الله، منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مفعول به. والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، والجار والمجرور متعلق بمعلول محذوف معلوم من السياق، تقديره: يضل من يشاء، ويهدي من يشاء لجزائه الذين أساؤوا الخ. وجملة ﴿أَسَٰٓـُٔواْ﴾ صلة الموصول، ﴿بِمَا﴾ متعلق بـ ﴿يجزي﴾، وجملة ﴿عَمِلُواْ﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ﴾ فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف على ﴿يجزي﴾ الأول. وجملة ﴿أَحۡسَنُواْ﴾ صلة الموصول، ﴿بِٱلۡحُسۡنَى﴾ متعلق بـ ﴿يجزي﴾، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدل من ﴿ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾، أو عطف بيان له كما سبق بسطه. ﴿يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به. والجملة صلة الموصول. ﴿وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ معطوف على ﴿كَبَٰٓئِرَ﴾. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، ﴿ٱللَّمَمَۚ﴾ منصوب على الاستثناء، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ ناصب واسمه، ﴿وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مسوقة لتعليل استثناء ﴿ٱللَّمَمَۚ﴾، لا محل لها من الإعراب. ﴿هُوَ أَعۡلَمُ﴾ مبتدأ وخبر. والجملة مستأنفة. ﴿بِكُمۡ﴾ متعلق بـ ﴿أَعۡلَمُ﴾، ﴿إِذۡ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بـ ﴿أَعۡلَمُ﴾ أيضاً، ﴿أَنشَأَكُم﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ متعلق به. والجملة في محل الجر، مضاف إليه لـ﴿إذ﴾، ﴿وإذ﴾ معطوف على ﴿إذ﴾ الأولى، ﴿أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ﴾ مبتدأ وخبر. والجملة في محل الجر، مضاف إليه لـ ﴿إِذۡ﴾ الظرفية، ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ﴾ صفة لـ ﴿أَجِنَّةٞ﴾، ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أنّ الله سبحانه أعلم بكم في جميع أحولكم، وأردتم بيان ما هو اللائق بكم.. فأقول لكم لا تزكّوا. ﴿لا تزكّوا﴾ ﴿لا﴾. ناهية جازمة، ﴿تُزَكُّوٓاْ﴾ فعل مضارع، وفاعل مجزوم بلا الناهية ﴿أَنفُسَكُمۡۖ﴾ مفعول به. والجملة في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدّرة مستأنفة. ﴿هُوَ أَعۡلَمُ﴾ مبتدأ، وخبر، ﴿بِمَنِ﴾ متعلق بـ ﴿أَعۡلَمُ﴾، وجملة ﴿ٱتَّقَىٰٓ﴾ صلة الموصول. والجملة الاسمية جملة تعليلية، لا محل لها من الإعراب.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ النجم معروف، وجمعه نجوم، وأنجم، وأنجام، ونجم. وهو الكوكب. وعند الإطلاق الثريّا، وهي المراد به هنا.

أقوال منها: أنَّ المراد به هنا: جماعة النجوم، إذا هوت؛ أي: سقطت، وغابت عن الحس. وأرادبه: الجنس.

وقيل: أراد الثريّا، وأقسم بها إذا سقطت، وغابت مع الفجر.

والعرب تطلق اسم النجم على الثريا خاصة. قال ابن دريد: والثريّا سبعة أنجم، ستة ظاهرة، وواحد خفي، يمتحن الناس به أبصارهم. وقيل: أراد به: القرآن إذ أنزله نجوماً متفرقة على رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة. وسمي الكوكب نجماً لطلوعه. وكل طالع نجم، يقال: نجم السن، والبنت والقرن إذا طلع، اهـ خطيب. وبابه قعد كما في «المصباح».

﴿إِذَا هَوَىٰ﴾؛ أي: سقط. يقال: هوى يهوي من الثاني هَوِيًّا بوزن قبول إذا غرب. فإنَّ الهويَّ سقوط من علو إلى أسفل، وهُويًّا بوزن دخول إذا علا، وصعد ويقال: هوى يهوى إذا صبا. وقال الراغب: الهَوِيُّ سقوط من علو، ثم قال: والهوي ذهاب في انحدار، والهُوي ذهاب في ارتفاع. وقيل: هوى في اللغة: خرق الهواء، ومقصده السفل، أو مصيره إليه، وإن لم يقصده، اهـ سمين. وأصله: هوي بوزن فعل، قلبت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها.

﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ الغيُّ هو: الجهل المركب. قال الراغب: الغيُّ جهل من اعتقاد فاسد؛ وذلك أنَّ الجهل قد يكون من كون الإنسان غير معتقد أصلاً لا صالحاً ولا فاسداً، وقد يكون من اعتقاد شيء فاسد. وهذا الثاني يقال له: غي. فعطفه على ﴿مَا ضَلَّ﴾ من عطف الخاص على العام؛ للاهتمام بشأن الاعتقاد بمعنى أنه فرق بين الغي والضلال، وليسا بمعنى واحد. فإن الغواية هي الخطأ في الاعتقاد خاصة، والضلال أعم منها، يتناول الخطأ في الاعتقاد، والأقوال، والأفعال، كما مر. وأصله: غوي بوزن فعل، تحركت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفا.

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣﴾ يقال: نطق ينطق نطقاً ومنطقاً ونطوقاً إذا تكلم بصوت وحروف يعرف بها المعاني، كما في «القاموس». فلا يستعمل في الله تعالى لأن التكلم بالصوت والحروف من خواص المخلوق. والهوى مصدر هويه، من باب علم إذا أحبه، واشتهاه، ثم غلب على الميل إلى الشهوات والمستلذات من غير داعية الشرع. منه قيل: صاحب الهوى للمبتدع. لأنّه مائل إلى ما يهواه في أمر

الدين. فالهوى هو الميل المخصوص المذموم. وأصله: الهوي، تحركت الياء وانفتح ما قبلها، قلبت ألفاً فصار الهوى.

﴿يُوحَىٰ﴾ أصله: يوحي بوزن يفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها. ﴿بِٱلْأُفُقِ﴾ والأفق: ناحية السماء، وجمعه آفاق. وقال قتادة: هو الموضع الذي تأتي منه الشمس، وكذا قال سفيان: هو الموضع الذي تطلع منه الشمس. ويقال: أفق مثل: عسْر وعسُر. ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أصله بعد قلب الواو الواقعة رابعة ياء الأعلي، قلبت الياء ألفا لتحركها بعد فتح. ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾؛ أي: حصافة؛ أي: استحكام في عقله ورأيه، ومتانة في دينه. قال الراغب: أمررت الحبل إذا، فتلته والمرير والمُمَر: المفتول. ومنه: فلان ذو مرة، كأنه محكم الفتل.

وفي «القاموس»: المرّة بالكسر: قوة الخلق، وشدته. والجمع مِرر، وأمرار. والعقل، والأصالة، والإحكام، وطاقة الحبل كالمريرة. وذو مرة جبرئيل عليه السلام. والمريرة: الحبل الشديد الفتل.

﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ﴾ والأفق: هي الدائرة التي تفصل بين ما يرى من الفلك، وما لا يرى. والأفق الأعلى: مطلع الشمس، كما أن الأفق الأدنى مغربها كما سبق.

﴿ثُمَّ دَنَا﴾ من دنا يدنو دنوا، إذا قرب. والدنو: القرب بالذات أو بالحكم، ويستعمل في الزمان، والمكان، والمنزلة، كما في «المفردات». وفيه إعلال بالقلب، أصله: دنو بوزن فعل، من الدنو، قلبت ﴿الواو﴾ ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ أصله: تدلي بوزن تفعل، قلبت ياءه ألفا لتحركها بعد فتح.

﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ والقاب والقيب، والقاد والقيد: المقدار. قال الزجاج: إنَّ العرب قد خوطبوا على لغتهم، ومقدار فهمهم، قيل لهم في هذا ما يقال للذي يحدد.

فالمعنى: فكان على ما تقدرونه أنتم قدر قوسين أو أقل من ذلك.

وقال ابن السكيت: قاس الشيء يقوسه قوساً لغة في قاسه يقيسه، إذا قدره. وقد جاء تقديرهم بالقوس، والرمح، والسوط، والذراع، والباع، والخطوة، والشبر، والفتر، والإصبع.

وفي «القرطبي»: والقاب: ما بين المقبض والسية، ولكل قوس قابان. وقال

بعضهم: في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ أراد قابي قوس، فقلبه. وفي «المصباح»: سية القوس، خفيفة الياء، ولامها محذوفة. وترد في النسبة فيقال: سيوي، والهاء عوض عنها طرفها المنحني. قال أبو عبيدة: وكان رؤبة يهمزه، والعرب لا تهمزه. ويقال: لِسِيَتها العليا يدها، ولِسِيَتها السفلى رجلها، اهـ. ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ التدلي: استرسال مع تعلق. يقال: تدلت الثمرة، ودلى رجليه من السرير.

﴿فَكَانَ﴾ أصله: كون بوزن فعل، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿قَابَ﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: قوب بوزن فعل، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أصله: أدني بوزن أفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. وهو أفعل تفضيل، والمفضل عليه محذوف؛ أي: أو أدنى من قاب قوسين، و﴿أَوْ﴾ بمعنى بل. أي: بل أدنى.

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ على ما يراه معاينةً؛ أي: أفتجادلونه من المماراة. والمراء والمماراة: المجادلة بالباطل، فكان حقه أن يتعدى بفي، يقال: جادلته في كذا، لكنه ضمن معنى الغلبة، فتعدى تعديتها؛ لأنَّ المماري يقصد بفعله غلبة الخصم. واشتقاقه من مري الناقة كأن كلًّا من المتجادلين يمرى ما عند صاحبه. يقال: مريت الناقة مرياً مسحت ضرعها لتدر، ومريت الفرس إذا استخرجت ما عنده من الجري أو غيره.

﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ النزلة بوزن فعلة، اسم للمرة من الفعل الذي هو النزول. ﴿سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ شجرة نبق. والمنتهى: مصدر ميمي بمعنى الانتهاء، كما قال الزمخشري. أو اسم مكان بمعنى موضع الانتهاء، كأنها في منتهى الجنة.

وقد اختلف في سبب تسميتها بذلك على ثمانية أقوال، تفصيلها في المطولات. والمنتهى: أصله منتهي بوزن مفتعل، قلبت ياءه ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها.

﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾؛ أي: الجنة التي يأوي إليها المتقون يوم القيامة. فالإضافة فيها كإضافة مسجد الجامع. يقال: أويت منزلي وإليه أوياً وأويًّا عدت إليه، وأويته نزلته بنفسي. والمأوى: المكان. فالمأوى: أصله مأوي بوزن مفعل قلبت ياؤه ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها.

فائدة: قال بعضهم: آدم عليه السلام أنزل من جنّة المأوى التي هي اليوم مقام الروح الأمين جبرئيل عليه السلام. وهي اليوم برزخ لذرية آدم، ونزل إليها جبرئيل من السدرة بنزول آدم. وهذه الجنة لا تقتضي الخلود لذاتها، فلذلك أمكن خروج آدم منها، ولذلك تأثَّر بالاشتياق إلى أن يكون ملكاً بعد سجود الملائكة له بغرور إبليس إياه، ووعده في الخلود رغبة في الخلود والبقاء مع جبرئيل، والجنة التي عرضها السموات والأرض تقتضي الخلود لذاتها، يعلم من دخلها أنه لا يمكن الخروج منها؛ إذ لا سبيل للكون والفساد إليها. قال تعالى في وصف عطائها: إنه ﴿غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾؛ أي: غير منقطع، انتهى. فالجنة التي عرضها السموات والأرض أرضها الكرسيّ الذي وسع السموات والأرض، وسقفها العرش المحيط. فهي محيطة بالجنان الثمان، وليست هي الجنة التي أنزل منها آدم، كذا قاله أيضاً صاحب كتاب «تلقيح الأذهان».

﴿إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ﴾؛ أي: يغطي. والغشيان بمعنى التغطية والستر، ومنه: الغواشي. وأصله: يغشي بوزن يفعل، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ﴾؛ أي: ما مال. وأصل الزيغ: الميل عن الاستقامة. وفيه إعلال بالقلب، أصله: زيغ بوزن فعل، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح، أي: ما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها، ومكن منها، وما مال يميناً ولا شمالاً. ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾؛ أي: وما جاوز ما أمر به. وأصله: طغي بوزن فعل، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ﴾ قال الراغب: أصل اللات: اللاه، فحذفوا منه الهاء، وأدخلوا التاء فيه، فأنَّثوهُ تنبيهاً على قصوره عن الله، وجعلوه مختصاً بما يتقرب به إلى الله في زعمهم. وقال غيره: أصله: لوية، فأسكنت الياء، وحذفت لالتقاء الساكنين، فبقيت لوة، فقلبت الواو ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها، فصارت لاة. فهي فعلة من لوى؛ لأنهم كانوا يلوون إليها أعناقهم، ويطوفون بها، وكانت على صورة آدمي. وعلى هذا فالتاء زائدة فيه. لأنه من لوى يلوى. وقيل: التاء فيه أصلية لام الكلمة كالباء في الباب؛ لأنه من لات يليت، فألفها عن ياء. فإن مادة لَ يَ تَ موجودة، فإن وجدت مادة من لَ وَ تَ جاز أن تكون منقلبة من واو. وهل هي والعزى علمان بالوضع أو صفتان غالبتان فيه خلاف. ويترتب على ذلك جواز حذف الألف واللام

في اللات، وعدمه. فإن قلنا: إنهما ليسا وصفين في الأصل، فلا تحذف منهما أل وإن قلنا: إنهما صفتان، وإنّ أل للمح الصفة جاز. وبالتقديرين فأل زائدة. وقد اختلف القراء في الوقف على تائها، فوقف الكسائي عليها بالهاء، والباقون بالتاء. وهو مبني على القولين المتقدمين. فمن جعلها تاء أصلية أقرها في الوقف كتاء بيت. ومن جعلها زائدة وقف عليها هاء. والعامة على تخفيف تائها. وقرأ ابن عباس، ومجاهد، ومنصور بن المعتمر، وأبو الجوزاء، وأبو صالح، وابن كثير في رواية بتشديد التاء. فقيل: هو رجل كان يلت السويق، ويطعمه الحاج. فهي اسم فاعل في الأصل، غلب على هذا الرجل، وكان يجلس عند حجر، فلما مات سمي الحجر باسمه، وعكفوا على قبره يعبدونه؛ ثم صنعوا له صورة، وعبدوها. والعزى: فعلى من العز. وهي تأنيث الأعز، كالفضلى والأفضل. وهي اسم صنم أو شجرة تعبد. وأما مناة فاشتقاقها على قراءة العامة من مني يمني، إذا صب؛ لأن دماء النسائك كانت تصب عندها. وقال أبو البقاء: وألفه من ياء، كقولك: مني يمني إذا قدر، ويجوز أن تكون من الواو. ومنه: منوان. فوزنها على قراءة القصر فعلة، اهـ سمين. وقال بعضهم: قوله: ﴿وَمَنَوٰةَ﴾ يحتمل أن تكون الألف فيه منقلبة عن واو، كما يرشد لذلك رسمها في المصحف، وعليه يكون أصلها منوة بوزن فعلة، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح، وأن تكون منقلبة عن ياء، فيكون أصلها منية، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: جائرة ظالمة. من ضازه يضيزه إذا ضامه وجار عليه. وعلى هذا فتحتمل وجهين:

أحدهما: تكون صفة على فعلى بضم الفاء، وإنما كسرت الفاء؛ لتصح الياء، كبيض. فإن قيل: وأيُّ ضرورة تدعو إلى أن يقدر أصلها ضم الفاء، ولم لا قيل فعلى بالكسر؟. فالجواب: أن سيبويه حكى: أنه لم يرد في الصفات فعلى بكسر الفاء، وإنما ورد بضمها، نحو: حبلى، وأنثى، وربا، وما أشبهه. إلا أن غيره حكى في الصفات ذلك. حكى ثعلب: ميتة حيكي، ورجل كيسي. وحكى غيره: امرأة عزهي، وامرأة سعلي. وهذا لا ينقض على سيبويه؛ لأن سيبويه يقول في حيكي وكيسي كقوله في ضيزى لتصح الياء. وأمَّا عزهي وسعلي فالمشهور فيهما عزهاة وسعلاة.

والوجه الثاني: أن تكون مصدراً كذكرى. قال الكسائي: يقال: ضاز يضيز ضيزى، كذكر يذكر ذكرى. وقرىء ﴿ضِئْزَى﴾ بهمزة ساكنة. ومعنى ضأزه يضأزه نقصه ظلماً وجوراً. وهو قريب من الأول. وفي «المختار»: ضاز في الحكم جار، وضازه فيه نقصه وبخسه، وبابهما باع. وقال بعضهم: قوله: ﴿ضيزى﴾ يحتمل أن تكون أصلها ضيزى بوزن فعلى بضم الفاء، فقلبت الضمة كسرة لمناسبة الياء. ويحتمل أن يكون أصلها ضوزى بوزن فعلى بكسر الفاء، ثم قلبت الواو ياء لسكونها إثر كسرة. ويحتمل أن يكون أصلها ضوزى مثل: طوبى، بكسر أوله، فقلبت الواو ياء لمناسبة الكسرة. ومنشأ هذا الخلاف هل الكلمة واوية العين أو يائية؟ وعلى أنها يائية لا قلب، اهـ.

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ أصله: تمني بوزن تفعل، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح. والتمني: تقدير شيء في النفس، وتصويره فيها. وذلك قد يكون عن تخمين وظن، وقد يكون عن رؤية وبناء على أصل. لكن لما كان أكثره عن تخمين صار الكذب له أملك. فأكثر التمني تصوير ما لا حقيقة له.

﴿لَيُسَمُّونَ﴾ أصله: ليسميون، استثقلت الضمة علي الياء فحذفت، ثم حذفت لما التقت ساكنة بواو الجماعة، وضمت الميم لمناسبة الواو. ﴿تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ مصدر قياسي لسمي؛ لأنه قياس فعل المستعل اللام، فحذفت ياء التفعيل منه، وعوض عنها التاء في آخره، نظيره زكى تزكية، وورى تورية.

﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ قال الفراء: اللمم: أن يفعل الإنسان الشيء في الحين، ولا يكون عادة له. ومنه: إلمام الخيال.

﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ والأجنة: جمع جنين، مثل: أسرة وسرير. وأصله: أجننة بوزن أفعلة، نقلت حركة النون الأولى إلى الجيم فسكنت، وأدغمت في النون الثانية، فوزنه أفعلة. والجنين: الولد ما دام في البطن. وهو فعيل بمعنى مفعول؛ أي: مدفون مستتر. والجنين: الدفين في الشيء المستتر فيه من جنه إذا ستره. وإذا خرج من بطن أمه لا يسمى إلا ولداً أو سقطاً. وفي الأشباه: هو جنين ما دام في بطن أمه، فإذا انفصل ذكراً فصبي، ويسمى رجلاً، كما في آية الميراث إلى البلوغ. فغلام إلى تسعة عشر، فشاب إلى أربعة وثلاثين، فكهل إلى إحدى وخمسين، فشيخ

إلى آخر عمره.

﴿فَلَا تُزَكُّوٓا﴾ أصله: تزكيون، استثقلت الضمة على الياء، فحذفت فالتقى ساكنان، فحذفت الياء وضمت الكاف لمناسبة الواو، وحذفت نون الرفع.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ أصله: اوتقي بوزن افتعل، فقلبت ﴿الواو﴾ تاء، وأدغمت في تاء الافتعال، وقلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ①﴾ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ③﴾ فالأول ﴿هَوَى﴾ بمعنى خر وسقط، والثاني بمعنى هوى النفس.

ومنها: إيراده ﷺ بعنوان صاحبيته لهم للإيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله، وإحاطتهم خبراً ببراءته ﷺ مما نفي عنه بالكلية، وباتصافه بغاية الهدى والرشاد. فإن طول صحبتهم له، ومشاهدتهم محاسن شؤونه العظيمة مقتضية لذلك حتماً، كما في «الإرشاد».

ومنها: عطف الخاص الذي هو الغواية: وهو الخطأ في الاعتقاد فقط على الضلال الذي هو العام. لأنه خطأ في الاعتقاد، والأقوال، والأفعال، والأخلاق في قوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ②﴾.

ومنها: الإتيان بصيغة الماضي أولاً في قوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ②﴾ وبصيغة المستقبل ثانياً في قوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ③﴾ بياناً لحاله قبل البعثة وبعدها؛ أي: ما ضلَّ وما غوى حين اعتزلكم، وما تعبدون قبل أن يبعث رسولاً، وما ينطق عن الهوى الآن، حين يتلو عليكم آيات ربه، قاله ابن الشيخ. وقال صاحب الروح: والظاهر: أن صيغة الماضي باعتبار قولهم: قد ضل وغوى إشارة إلى تحقق ذلك في زعمهم. وأمَّا صيغة المضارع، فباعتبار تجدد النطق في كل حال، والله أعلم بكل حال.

ومنها: التأكيد لرفع احتمال المجاز في قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ④﴾ فإنَّ

﴿يُوحَىٰ﴾ صفة مؤكدة لوحي، رافعة لاحتمال المجاز، مفيدة للاستمرار التجددي يعني: أن فائدة الوصف التنبيه على أنه وحي حقيقة، لا أنه يسمى به مجازاً. والوحي قد يكون اسماً بمعنى الكتاب الإلهي، وقد يكون مصدراً. وله معان: الإرسال، والإلهام، والكتابة، والكلام، والإشارة، والإفهام.

ومنها: إضافة الصفة المشبهة إلى مرفوعها في قوله: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ وحذف الموصوف؛ أي: ملك شديد قواه.

ومنها: فن القلب في قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾﴾ وهو من المقلوب الذي تقدم فيه ما يوضحه التأخر، وتأخر ما يوضحه التقديم؛ أي: تدلى فدنا. لأنه تدلى للدنوّ، ودنا بالتدلي.

ومنها: الإبهام للتعظيم والتهويل في قوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ ومثله: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾، وكذلك قوله: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾.

ومنها: الاستفهام التوبيخي مع الإزراء بعقولهم في قوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾. والاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾.

ومنها: الإضمار قبل الذكر في قوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ لغاية ظهوره، كما في قوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾؛ أي: على ظهر الأرض. والمراد بالعبد المشرف بالإضافة إلى الله: هو الرسول ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾.

ومنها: تمثيل ملكة الاتصال، وتحقيق استماعه لما أوحي إليه بنفي البعد الملبس من قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾. **وفيه أيضاً**: الجناس المغاير بين: ﴿دَنَا﴾ ﴿أَدْنَىٰ﴾.

ومنها: الجناس المماثل بين ﴿يَرَىٰ﴾، و﴿رَأَىٰٓ﴾ في قوله: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾.

ومنها: إضافة الموصوف إلى الصفة في قوله: ﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾؛ أي: الجنّة التي يأوي إليها المتقون، فهو مثل: مسجد الجامع كما مرّ.

ومنها: الإتيان بصيغة المضارع في قوله: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦﴾ لحكاية الحال الماضية استحضاراً لصورتها البديعة، أو للإيذان باستمرار الغشيان بطريق التجدد.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾.

ومنها: الالتفات من الخطاب في قوله: ﴿إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ إلى الغيبة في قوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ للإيذان بأن تعداد قبحائهم اقتضى الإعراض عنهم، وحكاية جناياتهم لغيرهم.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ لإفادة إرادة الجنس.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بتكرير قوله: ﴿أَعْلَمُ﴾ لزيادة التقرير، والإيذان بكمال تباين المعلومين.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾. وفيه الإطناب أيضاً بتكرار لفظ ﴿يجزي﴾.

ومنها: الإتيان بصيغة الاستقبال في صلة الموصول الذي وقع بدلاً أعني: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾ دون صلة الموصول الذي وقع مبدلاً منه أعني: قوله: ﴿وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ للدلالة على تجدد الاجتناب واستمراره.

ومنها: عطف الخاص على العام في قوله: ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ اهتماماً بشأن الخاص.

ومنها: الإتيان بلام التعريف في الملائكة في قوله: ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ لإفادة الاستغراق.

ومنها: تعليق التسمية بعدم الإيمان بالآخرة إشعاراً بأنّها في الشناعة، والفظاعة، واستتباع العقوبة في الآخرة بحيث لا يجترىء عليها إلا من لا يؤمن بها.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ فإن قيل: الجنين إذا كان اسماً له ما دام في البطن، فما فائدة قوله تعالى: ﴿فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾؟ قلنا: فائدته

المبالغة في بيان كمال علمه، وقدرته. فإنّ بطون الأمهات في غاية الظلمة. ومن علم حال الجنين فيها لا يخفى عليه شيء من أحواله.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله[1] سبحانه وتعالى لمّا بيّن علمه، وقدرته، وأن الجزاء واقع على الإساءة والإحسان، وأن المحسن هو الذي يجتنب كبائر الإثم. وهذا لا يعرف إلا بالوحي من الله تعالى.. ذكر هنا أن من العجب العجاب بعد هذا أن يسمع سامع، ويرجو عاقل أن غيره يقوم مقامه في تحمل وزره، ويعطيه جعلاً. لكنه ما أعطاه إلا قليلاً، حتى وقف عن العطاء. ومن ثم وبخه على ذلك بأن علم هذا لا يكون إلا بوحي. فهل علم منه صحة ما اعتقده؟ كلا فجميع الشرائع المعروفة لكم كشريعة موسى، وإبراهيم على غير هذا. وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، فمن أين وصل له أن ذلك مجز له؟.

قوله تعالى: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه لما ذكر قبل ما جاء في صحف موسى وإبراهيم من أن الإحياء، والإماتة بيد الله سبحانه، وأنه هو الذي يصرف أمور العالم خلقاً، وتدبيراً،

(١) المراغي.

وملكاً، فيفقر قوماً ويغني آخرين، وأن أمر المعاد تحت قبضته، وأن الخلق إذ ذاك يرجعون إليه، وأن بعض الأمم كذبت رسلها، وأنكرت الخالق فأصابها ما أصابها. قفى على هذا بالتعجيب من أمر الإنسان، وأنه كيف يتشكك في هذا، ويجادل فيه منكراً له، وقد جاء النذير به فعليكم أن تصدقوه، وتؤمنوا به قبل أن يحل بكم عذاب يوم عظيم قد أزف، ولا يقدر على كشفه أحد إلا هو، فلا تعجبوا من القرآن منكرين، ولا تضحكوا منه مستهزئين، وابكوا حزناً على ما فرطتم في جنب الله، وعلى غفلتكم عن مواعظه وحكمه التي فيها سعادتكم في دنياكم وآخرتكم، واسجدوا شكراً لبارىء النسم الذي أوجدها من العدم، واعبدوه بكرةً وعشيًّا شكراً على آلائه، وتقلبكم في نعمائه.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ...﴾ الآيات، سبب نزولها[1]: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن عكرمة: أنّ النبي ﷺ خرج في غزوة، فجاء رجل يريد أن يحمل، فلم يجد ما يخرج عليه، فلقي صديقاً له، فقال: أعطني شيئاً فقال: أعطيك بكري هذا على أن تتحمل ذنوبي، فقال له: نعم. فأنزل الله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾ الآيات.

وقال مجاهد، وابن زيد[2]: إن الآية نزلت في الوليد بن المغيرة، وكان قد سمع قراءة رسول الله ﷺ، وجلس إليه، ووعظه، فلان قلبه للإسلام، فطمع فيه رسول الله ﷺ، ثم إنه عاتبه رجل من المشركين، وقال له: أأتترك ملة آبائك ارجع إلى دينك، واثبت عليه، وأنا أتحمل عنك كل شيء تخافه في الآخرة، لكن على أن تعطيني كذا وكذا من المال، فوافقه الوليد على ذلك، ورجع عما هم به من الإسلام، وضل ضلالاً بعيداً، وأعطى بعض المال لذلك الرجل، ثم أمسك عنه وشحَّ.

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال[3]: إنّ رجلاً أسلم، فلقيه بعض من يعيره،

---

(١) لباب النقول.

(٢) المراغي.

(٣) لباب النقول.

قال: أتركت دين الأشياخ، وضللتهم، وزعمت أنهم في النار؟ قال: إني خشيت عذاب الله، قال: أعطني شيئاً، وأنا أحمل كل عذاب كان عليك، فأعطاه شيئاً، فقال: زدني، فتعاسرا حتى أعطاه، وكتب كتاباً وأشهد له. ففيه نزلت هذه الآية: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾ سبب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كانوا يمرون على رسول الله ﷺ وهو يصلي شامخين، فنزلت: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

التفسير وأوجه القراءة

ولما بين سبحانه جهالة المشركين على العموم خصَّ بعضهم بالذم، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ يا محمد، أو أيها المخاطب؛ أي: هل أخبرت، وعلمت يا محمد ﴿ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾؛ أي: شأن وحال الذي تولى عن الخير، وأعرض عن اتباع الحق. فالفاء استئنافية، والهمزة للاستفهام التقريري. ﴿وَأَعْطَىٰ﴾ لمن يتحمل عنه الأوزار شيئاً ﴿قَلِيلًا﴾ من ماله أو إعطاء قليلاً. ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾؛ أي: قطع عطاءه عنه، وأمسك بخلاً. والاستفهام في قوله: ﴿أَعِندَهُۥ﴾؛ أي: هل عند ذلك المتولي ﴿عِلْمُ ٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: علم ما غاب عنه من أمر العذاب للإنكار.

والفاء في قوله[1]: ﴿فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ سببية. والرؤية قلبية؛ أي: هل عنده علم بالأمور الغيبية التي من جملتها تحمل صاحبه عنه يوم القيامة. فهو يعلم أن صاحبه يتحمل عنه. قال ابن الشيخ: أرأيت بمعنى أخبرت، و﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ﴾ مفعوله الثاني؛ أي: هل أخبرت، وعلمت يا محمد هذا المعطي المكدي هل عنده علم ما غاب عنه من أحوال الآخرة؟ فهو يعلم أن صاحبه يتحمل أوزاره على أن قوله: ﴿يَرَىٰٓ﴾ بمعنى يعلم، حذف مفعولاه لدلالة المقام عليهما. وقيل: الهمزة في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ للاستفهام التقريري، داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أفكرت يا محمد في حال بعض المعاندين فرأيت الذي تولى وأعطى قليلاً وأكدى هل عنده علم الغيب فهو يرى أن صاحبه يتحمل عنه أوزاره؛

---

(١) روح البيان.

أي: فكر في حاله، وأخبرني عن شأنه هل عنده علم الغيب، أم لا؟.

والمعنى[1]: أي أعلمت شأن هذا الكافر، وهل بلغك شأنه العجيب؟ فقد أشرف على الإيمان، واتباع هدى الرسول، فوسوس له شيطان من شياطين الإنس بأن لا يقبل نصح الناصح، ويرجع إلى دين آبائه، ويتحمل ما عليه من وزر إذا هو أعطاه قليلاً من المال، فقبل ذلك منه، لكنه ما أعطاه إلا قليلاً، حتى امتنع من إعطائه شيئاً بعد ذلك. أفعنده علم بأمور الغيب، فهو يعلم أن صاحبه يتحمل عنه ما يخاف من أوزاره يوم القيامة.

وقصارى ذلك[2]: أخبرني بأمر هذا الكافر، وحاله العجيبة. إذ قبل أن سواه يحمل أوزاره، إذا أدى له أجراً معلوماً أأنزل عليه وحي فرأى أن ما صنعه حق؟.

ثم أكد هذا الإنكار، فذكر أن الشرائع التي يعرفونها على غير هذا، فقال: ﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى بل وهمزة الاستفهام؛ أي: بل أهو جاهل ﴿لَمْ يُنَبَّأْ﴾؛ أي: لم يخبر ﴿بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾؛ أي: أسفار التوراة. جمع صحيفة. وهي التي يكتب فيها. ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ معطوف على موسى؛ أي: وبما في صحف إبراهيم ﴿ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ صفة لإبراهيم، أي: الذي وفر، وأكمل، وأتم ما ابتلي به من الكلمات، كما مر في سورة البقرة. قال المفسرون؛ أي: بلغ قومه ما أمر به، وأداه إليهم. وقيل: بالغ في الوفاء بما عاهد الله عليه؛ لأنّ التشديد يأتي للتكثير والمبالغة.

وتخصيصه بذلك[3] لاحتماله ما لم يحتمل غيره كالصبر على نار نمرود، حتى إنه أتاه جبريل حين ألقي في النار، فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا. وعلى ذبح الولد، وعلى الهجرة، وعلى ترك أهله وولده بواد غير ذي زرع. ونعم ما قيل هنا: ﴿وَفَّىٰٓ﴾ ببذل نفسه للنيران، وقلبه للرحمن، وولده للقربان، وماله للضيفان. وروي: أنه كان يمشي كل يوم فرسخاً يرتاد ضيفاً، فإن وجده أكرمه، وإلا نوى الصوم.

وروي: «ألا أخبركم لم سمى الله خليله ﴿ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾؟ كان يقول إذا أصبح،

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

وأمسى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾ حتى يختم الآيتين». ذكره أحمد في «مسنده» الآيات الثلاث. وفي «عين المعاني»: عن أبي ذرٍّ الغفاري رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله: كم من كتاب أنزل الله؟ قال: مئة كتاب وأربعة كتب. أنزل الله على آدم عشر صحائف، وعلى شيث خمسين صحيفة، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف. وأنزل الله التوراة، والإنجيل والزبور، والفرقان. قال: قلت: يا رسول الله ما كانت صحف إبراهيم؟ قال: «كانت أمثالاً منها: أيّها الملك المبتلى المغرور إني لم أبعثك، فتجمع الدنيا بعضها إلى بعض، ولكن بعثتك كيلا ترد دعوة المظلوم، فإني لا أردها، وإن كانت من كافر» الحديث.

وإنما ذكر ما جاء في شريعتي هذين النبيين فحسب؛ لأن المشركين كانوا يدعون أنهم على شريعة أبيهم إبراهيم، وأهل الكتاب كانوا يدعون أنهم متبعون ما في التوراة وصحفها قريبة العهد منهم.

فإن قلت: لم قدم موسى هنا على إبراهيم، وعكس في سورة الأعلى؟.

قلت: إنما قدم موسى هنا لما أنَّ صحفه التي هي التوراة أشهر عندهم وأكثر، وأيضاً هو من باب الترقي من الأقرب إلى الأبعد لكون الأقرب أعرف، وأيضاً أن موسى صاحب كتاب حقيقة بخلاف إبراهيم. وقدم إبراهيم على موسى في سورة الأعلى لغرض الفاصلة.

وقرأ الجمهور ﴿وَفَّىٰٓ﴾ بتشديد الفاء. وقرأ أبو أمامة الباهلي، وسعيد بن جبير، وأبو مالك الغفاري، وابن السميقع، وزيد بن علي بتخفيفها. ولم يذكر متعلق ﴿وَفَّىٰٓ﴾ إفادة للعموم، ذكره في «البحر».

ثم بين سبحانه ما في صحفهما، فقال: ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾؛ أي: والذي في صحفهما أنه لا تزر، ولا تحمل نفس ﴿وَازِرَةٌ﴾؛ أي: حاملة وزراً وحملاً ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾؛ أي: حمل نفس أخرى. ومعناه: لا تؤخذ نفس بذنب نفس أخرى. وأصله[1]: أن لا تزر؛ على أن ﴿أن﴾ هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، والجملة المنفية خبرها. ومحل الجملة الجر، على أنها بدل من ﴿مَا﴾ في قوله:

---

(١) روح البيان.

﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾، أو الرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف، كأنه قيل: أي شيء في صحفهما؟ فقيل: هو أنه؛ أي: الشأن لا تحمل نفس من شأنها الحمل حمل نفس أخرى، من حيث إنه تتعرى منه المحمول عنها، ولا يؤاخذ أحد بذنب غيره؛ ليتخلص الثاني من عقابه، فالمراد بالوازرة: هي التي يتوقع منها الوزر والحمل، لا التي وزرت وحملت ثقلاً، وإلا فكان مقتضى المقام أن يقال: لا تحمل فارغة وزر أخرى. إذ لا تحمل مثقلة بوزرها غير الذي عليها.

وفي هذا[1]: إبطال قول من ضمن للوليد بن المغيرة أنه يحمل عنه الإثم. وقال ابن عباس: كانوا قبل إبراهيم يأخذون الرجل بذنب غيره، كان الرجل يقتل بقتل أبيه، وابنه، وأخيه، وامرأته، وعبده حتى كان إبراهيم عليه السلام فنهاهم عن ذلك، وبلغهم عن الله تعالى أن لا تزر وازرة وزر أخرى.

ولا يعارض[2] هذه الآية قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾. إذ ليس المعنى: أنَّ عليه إثم مباشرة سائر القاتلين، بل المعنى: أنَّ عليه فوق إثم مباشرته للقتل المحظور إثم دلالته، وسببيته لقتل هؤلاء، وهما ليستا إلا من أوزاره، فهو لا يحمل إلا وزر نفسه.

وكذا لا يعارضها أيضاً قوله ﷺ: «مَن سنَّ سنةً سيئة فعليه وزرها، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة». فإن ذلك وزر الإضلال الذي هو وزره.

وقوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ معطوف على قوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ إلخ. و﴿أَن﴾ مخففة من الثقيلة كأختها السابقة، ﴿لِلْإِنسَانِ﴾ خبر ﴿لَّيْسَ﴾، و﴿إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ اسمها و﴿ما﴾ مصدرية، ويجوز أن تكون موصولة.

والمعنى: وأنه ـ أي: الشأن ـ ليس للإنسان في الآخرة إلا سعيه في الدنيا من العمل، والنية، أي: كما لا يؤاخذ أحد بذنب الغير لا يثاب بفعله. فهو بيان لعدم انتفاع الإنسان بعمل غيره من حيث جلب النفع إثر بيان عدم انتفاعه، من حيث دفع

---

(١) الخازن. (٢) روح البيان.

الضرر عنه. وظاهر الآية[1]: يدل على أنه لا ينفع أحداً عمل أحد. وهذا العموم مخصوص بمثل قوله تعالى: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، وبمثل ما ورد في شفاعة الأنبياء والملائكة للعباد، ومشروعية دعاء الأحياء للأموات، ونحو ذلك. ولم يصب من قال: إنَّ هذه الآية منسوخة بمثل هذه الأمور. فإن الخاص لا ينسخ العام، بل يخصصه. فكل ما قام الدليل على أن الإنسان ينتفع به، وهو من غير سعيه كان مخصصاً لما في هذه الآية من العموم.

وقال الربيع بن أنس[2]: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ يعني: الكافر. وأما المؤمن فله ما سعى، وما سعى له غيره. وكثير من الأحاديث يدل على هذا القول. وفي «فتح الرحمن»: واختلف الأئمة فيما يفعل من القرب: كالصلاة، والصوم، وقراءة القرآن، والصدقة، ويهدى ثوابه للميت المسلم. فقال أبو حنيفة وأحمد: يصل ذلك إليه، ويحصل له نفعه بكرم الله ورحمته. وقال مالك، والشافعي: يجوز ذلك في الصدقة، والعبادة المالية، وفي الحجّ. وأما غير ذلك كالصلاة، والصوم، وقراءة القرآن، وغيره فلا يجوز، ويكون ثوابه لفاعله. وعند المعتزلة: ليس للإنسان جعل ثواب عمله مطلقاً لغيره، ولا يصل إليه، ولا ينفعه لقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾، ولأن الثواب هو الجنة، وليس في قدرة العبد أن يجعلها لنفسه فضلاً عن غيره.

ومعنى الآية[3]: أي كما لا يحمل على الإنسان وزر غيره لا يحصل له من الأجر إلا ما كسب لنفسه. ومن هذا استنبط مالك، والشافعي، ومن تبعهما: أن القراءة لا يصح إهداء ثوابها إلى الموتى؛ لأنّه ليس من عملهم ولا كسبهم، وهكذا جميع العبادات البدنية كالصلاة، والصوم، والتلاوة. ومن ثم لم يندب إليها رسول الله ﷺ أمته، ولا حثهم عليها، ولا أرشدهم إليها بنصٍّ، ولا إيماءٍ، ولم ينقل من أحد من الصحابة رضي الله عنهم، ولو كان خيراً لسبقونا إليه. أما الصدقة فإنها تقبل.

وما رواه مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة من قوله ﷺ: «إذا مات ابن آدم

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

انقطع عمله، إلا من ثلاث: ولد صالح يدعو له، وصدقة جارية من بعده، وعلم ينتفع به» فهي في الحقيقة من سعيه، وكده، وعمله، كما جاء في الحديث: «إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولد الرجل من كسبه»، والصدقة الجارية كالوقف، ونحوه من أعمال البر هي من آثار عمله والعلم نشره في الناس فاقتدوا به، واتبعوه هو من سعيه. فقد ثبت في «الصحيح»: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجر من اتبعه من غير أن ينقص ذلك من أجورهم شيئاً».

ومذهب أحمد بن حنبل، وجماعة من العلماء: أن ثواب القراءة يصل إلى الموتى إن لم تكن القراءة بأجر، أما إذا كانت به، كما يفعله الناس اليوم من إعطاء الأجر للحفاظ للقراءة على المقابر، وغيرها فلا يصل إلى الميت ثوابها. إذ لا ثواب لها حتى يصل إليهم لحرمة أخذ الأجر على قراءة القرآن، وإن لم يحرم على تعليمه.

قال الشيخ تقي الدين أبو العباس[1]: من اعتقد أن الإنسان لا ينتفع إلا بعمله، فقد خرق الإجماع. وذلك باطل من وجوه كثيرة:

أحدها: أن الإنسان ينتفع بدعاء غيره. وهو انتفاع بعمل الغير.

والثاني: أن النبي ﷺ يشفع لأهل الموقف في الحساب، ثم لأهل الجنة في دخولها، ولأهل الكبائر في الإخراج من النار. وهذا الانتفاع بسعي الغير.

والثالث: أن كل نبي وصالح له شفاعة. وذلك انتفاع بعمل الغير.

والرابع: أن الملائكة يدعون، ويستغفرون لمن في الأرض. وذلك منفعة بعمل الغير.

والخامس: أن الله تعالى يخرج من النار من لم يعمل خيراً قط بمحض رحمته. وهذا انتفاع بغير عملهم.

والسادس: أن أولاد المؤمنين يدخلون الجنة بعمل آبائهم. وذلك انتفاع بمحض عمل الغير.

وكذا الميت بالصدقة عنه، وبالعتق بنص السنة والإجماع. وهو من عمل غيره. وأن الحج المفروض يسقط عن الميت بحج وليه عنه بنص السنة. وكذا تبرأ

---

(١) روح البيان.

ذمة الإنسان من ديون الخلق إذا قضاها عنه قاض، كما قال الشافعي: إذا أنا مت فليغسلني فلان؛ أي: من الدين. وذلك انتفاع بعمل الغير. وكذا من عليه تبعات ومظالم، إذا حلل منها سقطت عنه. وأن الجار الصالح ينتفع بجواره في الحياة والممات، كما جاء في الأثر: وأن جليس أهل الذكر يرحم بهم، وهو لم يكن منهم، ولم يجلس معهم لذلك، بل لحاجة أخرى. والأعمال بالنيات، وكذا الصلاة على الميت، والدعاء له فيها ينتفع بها الميت مع أن جميع ذلك انتفاع بعمل الغير. ونظائر ذلك كثيرة لا تحصى. والآيات الدالة على مضاعفة الثواب كثيرة أيضاً، فلا بد من توجيه قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾. فإنه لاشتماله على النفي والاستثناء، يدل على أن الإنسان لا ينتفع إلا بعمل نفسه، ولا يجزى على عمله إلا بقدر سعيه، ولا يزداد. وهو يخالف الأقوال الواردة في انتفاعه بعمل غيره، وفي مضاعفة ثواب أعماله. ولا يصح أن يؤول بما يخالف صريح الكتاب، والسنة، وإجماع الأمّة.

فأجابوا عنه بوجوه:

منها: أنه في حق الكافر. والمعنى عليه: ليس له من الخير إلا ما عمل هو، فيثاب عليه في الدنيا، بأن يوسع عليه في رزقه، ويعافى في بدنه، حتى لا يبقى له في الآخرة حسنة يثاب عليها.

ومنها: أنه بالنسبة إلى العدل، لا الفضل.

ومنها: أن الإنسان إنما ينتفع بعمل غيره؛ إذا نوى الغير أن يعمل له، حيث صار بمنزلة الوكيل عنه القائم مقامه شرعاً، فكان سعي الغير بذلك كأنه سعيه. وأيضاً أن سعي الغير إنما لم ينفعه إذا لم يوجد له سعي قط، فإذا وجد له سعي بأن يكون مؤمناً صالحاً كان سعي الغير تابعاً لسعيه، فكأنه سعي بنفسه. فإن علقة الإيمان وصلة وقرابة، كما قال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

والحاصل: أنه لما كان مناط منفعة كل ما ذكر من الفوائد عمله الذي هو الإيمان، والعمل الصالح، ولم يكن لشيء منه نفع ما بدونهما جعل النافع نفس عمله، وإن كان بانضمام غيره إليه.

﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ﴾؛ أي: سعي الإنسان. وهو عمله، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾. وهو مع خبره معطوف على ما قبله من قوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾ إلخ، على معنى: أنّ المذكورات كلها في الصحف، أي: ومما في صحفهما أن سعيه ﴿سَوْفَ يُرَىٰ﴾؛ أي: يعرض عليه، ويكشف له يوم القيامة في صحيفته، وميزانه. من أريته إذا عرضته عليه. أو يراه أهل الموقف، ويطلعون عليه تشريفاً للمحسن وتوبيخاً للمسيء.

﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ﴾؛ أي: ثم يجزى الإنسان سعيه؛ أي: جزاء عمله. فالضمير المرفوع عائد إلى الإنسان، والمنصوب إلى سعيه. ﴿ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾؛ أي: الجزاء الأوفر الكامل الأتم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وهو مفعول مطلق مبين للنوع. وفي قوله: ﴿ٱلْأَوْفَىٰ﴾ وعيد للكافر، ووعد للمؤمن.

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾؛ أي: ومما في صحفهما أن انتهاء الخلق في رجوعهم إلى الله تعالى بعد الموت إلى ربك، لا إلى غيره لا استقلالاً، ولا اشتراكاً، فيجازيهم بأعمالهم. وفي الحقيقة انتهاء الخلق إليه تعالى في البداية والنهاية ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾. إذ لا إله إلا هو؛ أي: وأن مرجع الأمور يوم المعاد إلى ربك. فيحاسبهم على النقير والقطمير، ويثيبهم أو يعاقبهم بالجنة أو النار، وفي هذا تهديد بليغ للمسيء، وحث شديد للمحسن، وتسلية لقلبه ﷺ. كأنّه يقول له: لا تحزن أيها الرسول، فإن المنتهى إلى الله سبحانه. وقرأ الجمهور[1] ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، وما بعدها من ﴿وأنّه﴾، و﴿أنّ﴾ بفتح الهمزة عطفاً على ما قبلها، وقرأ أبو السمال بالكسر فيهن.

﴿و﴾ مما في صحفهما ﴿أنه﴾ سبحانه وتعالى ﴿هُوَ﴾ وحده ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾؛ أي: خلق قوتي الضحك والبكاء في الإنسان منهما ينبعث الضحك والبكاء. والإنسان لا يعلم ما تلك القوة. والضحك[2]: انبساط الوجه، وتكشر الأسنان من سرور النفس. والبكاء بالمد: سيلان الدمع عن حزن. وقيل: هما كنايتان عن السرور، والحزن. كأنه قيل: أفرح، وأحزن. لأنَّ الفرح يجلب الضحك، والحزن يجلب البكاء، أو عما يسر ويحزن. وهو الأعمال الصالحة، والأعمال السيئة. أو

---

(١) البحر المحيط.   (٢) روح البيان.

أضحك في الدنيا أهل النعمة، وأبكى أهل الشدة والمصيبة، أو أضحك في الجنة أهلها، وأبكى في النار أهلها. أو أضحك الأرض بالنبات، وأبكى السماء بالمطر، أو أضحك الأشجار بالأنوار، والسحاب بالأمطار، أو القراطيس بالأرقام والأقلام بالمداد، أو أضحك القرد، وأبكىٰ البعير، أو أضحك بالوعد، وأبكىٰ بالوعيد، أو أضحك المطيع بالرضى، وأبكىٰ العاصي بالسخط، أو أضحك الأسنان، وأبكي الجنان. أو بالعكس. قال الشاعر:

السِّنُّ تَضْحَكُ وَٱلأَحْشَاءُ تَحْتَرِقُ ... وَإِنَّمَا ضِحْكُهَا زُوْرٌ وَمُخْتَلَقُ
يَا رُبَّ بَاكٍ بِعَيْنٍ لاَ دُمُوْعَ لَهَا ... وَرُبَّ ضَاحِكٍ سِنٌّ مَا بِهِ رَمَقُ

والمعنى[1]: أي وأنه خلق في عباده الضحك والبكاء، وسببهما. والمراد: أنه خلق ما يسر وما يحزن من الأعمال الصالحة والأعمال الطالحة.

﴿و﴾ مما في صحفهما ﴿أنه﴾ سبحانه ﴿هُوَ﴾ وحده ﴿أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾؛ أي: قضى أسباب الموت والحياة، ولا يقدر على ذلك غيره لا خلقاً، ولا كسباً. فإن أثر القاتل هو نقض البنية، وتفريق الاتصال، وإنما يحصل الموت عنده بفعل الله سبحانه على العادة. فللعبد نقض البنية كسباً دون الإماتة. وقيل: خلق نفس الموت والحياة كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾. وقيل: أمات الآباء، وأحيا الأبناء. وقيل: أمات في الدنيا، وأحيا للبعث. وقيل: المراد بهما: النوم واليقظة. وقال عطاء: أمات بعدله، وأحيا بفضله، وقيل: أمات الكافر، وأحيا المؤمن كما في قوله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾.

﴿و﴾ مما في صحفهما ﴿أنه﴾ سبحانه ﴿خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ أي: الصنفين ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ بدل من الزوجين. وفي بعض التفاسير من كل الحيوان. وفيه[2] أن كل حيوان لا يخلق من النطفة، بل بعضه من الريح كالطير؛ فإن البيضة المخلوقة منها الدجاجة مخلوقة من ريح الديك. ولا يدخل في ذلك آدم وحواء. فإنهما لم يخلقا من النطفة.

﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ متعلق بخلق. هي الماء الصافي، ويعبر بها عن ماء الرجل كما في

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

«المفردات». ﴿إِذَا تُمْنَىٰ﴾؛ أي: إذا تدفق، وتصب في الرحم والمعنى: أنه يقدر منها الولد. قال أبو عبيدة: ﴿إِذَا تُمْنَىٰ﴾ إذا تقدر. يقال: منيت الشيء إذا قدرته، ومنى له إذا قدر له. فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ ولم يقل: وأنه هو خلق، كما قال: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾؟ فالجواب: أن الضحك والبكاء ربما يتوهم أنهما بفعل الإنسان، وكذا الإماتة. وإن كان ذلك التوهم فيهما أبعد، لكن ربما يقول به جاهل، كما قال من حاج إبراهيم: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾. فأكد ذلك بالفصل. وأما خلق الذكر والأنثى من النطفة، فلا يتوهم أحد أنه بفعل أحد من الناس فلم يؤكد بالفصل. اهـ كرخي.

والمعنى: أي وأنه خلق الذكر والأنثى من الإنسان وغيره من الحيوان من المنيّ الذي يدفق، ويصب في الأرحام.

﴿و﴾ مما في صحفهما ﴿أن عليه﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾؛ أي: الخلقة الأخرى. وهو الإحياء بعد الموت وفاء بوعده، لا لأنّه يجب على الله كما يوهمه ظاهر كلمة على. وفيه تصريح بأن الحكمة الإلهية اقتضت النشأة الثانية الصورية للجزاء، والمكافأة، وإيصال المؤمنين بالتدريج إلى كمالهم اللائق بهم. ولو أراد تعجيل أجورهم في هذه الدار.. لضاقت الدنيا بأجر واحد منهم، فما ظنك بالباقي. ومن طلب تعجيل نتائج أعماله، وأحواله في هذه الدار.. فقد أساء الأدب، وعامل الموطن بما لا يقتضيه حقيقته؛ أي: وإن عليه الإحياء بعد الإماتة ليجازي كلاً من المحسن، والمسيء على ما عمل. وقرأ الجمهور[1] ﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾ بالقصر بوزن الضربة. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بالمد بوزن الكفالة. وهما على القراءتين مصدران.

﴿و﴾ مما في صحفهما ﴿أنه﴾ تعالى ﴿هُوَ﴾ وحده ﴿أَغْنَىٰ﴾ من شاء من عباده بالأموال. ﴿وَأَقْنَىٰ﴾؛ أي: أفقر من شاء منها. ومثله قوله تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾، وقوله: ﴿يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾؛ أي: وأنه تعالى يغني من يشاء من عباده، ويفقر من يشاء بحسب ما يرى من استعداد كل منهما ومقدرته على كسب المال بحسب السنن المعروفة في هذه الحياة.

---

(١) الشوكاني.

وفي هذا[1]: تنبيه إلى كمال القدرة. فإن النطفة جسم متناسب الأجزاء في الظاهر، ويخلق الله تعالى منها أعضاء مختلفة، وطباعاً متباينة من ذكر وأنثى. ومن ثم لم يدع أحد خلق ذلك كما لم يدع خلق السموات والأرض كما قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾. ونحو الآية قوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ وقيل: أنه هو أغنى؛ أي: أعطى الغنى للناس بالأموال، وأقنى؛ أي: أعطى القنية. وهي ما يتأثل من الأموال؛ أي: يتخذ أصلاً، ويدخر بأن يقصد حفظه استثماراً واستنماءً، وأن لا يخرج عن ملكه. وقال بعضهم: أغنى الناس بالكفاية والأموال، وأعطى القنية، وما يدخرونه بعد الكفاية. وقال الضحاك: أغنى بالذهب، والفضة، والمسكن، والثياب. وأقنى بالإبل، والبقر، والغنم، والدواب. قال أبو زيد: تقول العرب: من أعطي مئة من البقر.. فقد أعطي القنى، ومن أعطي مئة من الضأن.. فقد أعطي الغنى، ومن أعطي مئة من الإبل.. فقد أعطي المنى.

وأفرد القنية بالذكر بعد قوله: ﴿أَغْنَىٰ﴾؛ لأنها أشرف الأموال، وأفضلها. والأوفق لما قدمه من الآي المشتملة على مراعاة صنعة الطباق أن يحمل ﴿أقنى﴾ على معنى أفقر، على أن تكون الهمزة في ﴿أقنى﴾ للإزالة، كما قاله سعديٌّ المفتي.

﴿و﴾ منه ﴿أنه﴾ تعالى ﴿رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾؛ أي: رب معبودهم الشعرى. فاعبدوا الرب دون المربوب. والشعرى: كوكب نير خلف الجوزاء. يقال له: العبور بالمهملة بوزن الصبور. قال مجاهد، وابن زيد: هو مرزم الجوزاء. وهي المرادة هنا. وهي أشد ضياء من الغميصاء ـ بالغين المعجمة المضمومة ـ وفتح الميم والصاد المهملة». وهي إحدى الشعريين. يعني: أن الشعرى شعريان. أحدهما: الشعرى اليمانية، وتسمى أيضاً الشعرى العبور. وثانيتهما: الشعرى الشامية، وهي التي بالذراع. وتسمى أيضاً الشعرى الغميصاء، فصلت المجرة بينهما. تزعم العرب أن الشعريين أختا سهيل، وأن الثلاثة كانت مجتمعة فانحدر سهيل نحو اليمين،

---

(١) روح البيان.

وتبعته العبور، فعبرت المجرة، ولقيت سهيلاً، وأقامت الغميصاء فبكت لفقد سهيل، فغمصت عينها؛ أي: كانت أقل نوراً من العبور وأخفى. والغمص في العين ما سال من الرمص. يقال: غمصت عينه بالكسر غمصاً. وكانت خزاعة تعبد الشعرى. سن لهم ذلك أبو كبشة رجل من أشرافهم. فقال: لقومه: إن النجوم تقطع السماء عرضاً، وهذه تقطعها طولاً، فليس شيء مثلها. فعبدتها خزاعة، وخالف أبو كبشة قريشاً في عبادة الأوثان، ولذلك كانت قريش تقول لرسول الله ﷺ، ويسمونه: ابن أبي كبشة تشبيهاً له به، لا يريدون بذلك اتصال نسبه إليه، وإن كان الأمر كذلك؛ لأن أبا كبشة من أجداده ﷺ من قبل أمه. ومن ذلك قول أبي سفيان حين دخوله على هرقل: لقد أمِر أمر ابن أبي كبشة، بل يريدون بذلك موافقته ﷺ له في ترك عبادة الأوثان، وإحداث دين جديد. فالنبي ﷺ كما وافق أبا كبشة في مخالفة قريش بترك عبادة الأوثان خالفه أيضاً بترك عبادة الشعرى.

والمعنى[1]: أي وأنه تعالى رب هذا الكوكب الوهاج الذي يطلع خلف الجوزاء في شدة الحر. فاعبدوه، ولا تعبدوا الشعرى. وإنما خصها بالذكر من بين الأجرام السماوية، وفيها ما هو أكبر منها جرماً، وأكثر ضوءاً لأنها عبدت من دون الله في الجاهلية. فقد عبدتها حمير، وخزاعة، كما مر آنفاً. ومن العرب من كانوا يعظمونها، ويعتقدون أن لها تأثيراً في العالم، ويتكلمون على المغيبات حين طلوعها. وهي شعريان. إحداهما: شامية. وهي التي في الذراع. وثانيتهما: يمانية، وهي خلف الجوزاء. وهي المرادة في هذه الآية، وهي التي كانت تعبد من دون الله سبحانه وتعالى.

وفي هذا إشارة إلى فساد قول من قال من الناس: إن الفقر والغنى بكسب الإنسان واجتهاده. فمن كسب استغنى، ومن كسل افتقر. وبعضهم قال: إنّ ذلك بالبخت، وذلك بالنجوم. فردهم تعالى بقوله: هو تعالى محرك النجوم، ورب معبودهم الشعرى العبور.

﴿وَ﴾ منه ﴿أَنَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ هي[2] قوم هود عليه السلام، أهلكوا بريح صرصر. وعاد الأخرى إرم بن سام بن نوح، كما قال: ﴿أَلَمْ

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨﴾. وكانوا من أشدّ الأمم، وأقواهم، وأعتاهم على الله ورسوله. وقيل: الأولى القدماء؛ لأنهم أولى الأمم هلاكاً بعد قوم نوح؛ أي: فالمراد بعاد: جميع من انتسب إلى عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح. ووصفهم بالأولية ليس للاحتراز عن عاد الأخيرة، بل لتقدم هلاكهم بحسب الزمان على هلاك سائر الأمم بعد قوم نوح. قال في «التكملة»: وصف عاد بالأولى يدل على أن لها ثانية. فالأولى هي عاد بن إرم قوم هود. والثانية من ولدها، وهي التي قاتلها موسى عليه السلام بأريحاء. كانوا تناسلوا من الهزيلة بنت معاوية، وهي التي نجت من قوم عاد مع بنيها :لأربعة: عمر، وعمرو، وعامر، والعتيد. وكانت الهزيلة من العماليق، انتهى.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ بتنوين عاداً وكسره لالتقاءه ساكناً مع سكون لام الأولى، وتحقيق الهمزة بعد اللام. وقرأ قوم كذلك، غير أنهم نقلوا حركة الهمزة إلى اللام، وحذفوا الهمزة. وقرأ نافع، وابن كثير، وابن محيصن وأبو عمرو بإدغام التنوين في اللام المنقول إليها حركة الهمزة المحذوفة.

﴿وَثَمُودَا۟﴾ معطوف على ﴿عَادًا﴾. لأنَّ ما بعده لا يعمل فيه لمنع ما النافية عن العمل. وهم قوم صالح عليه السلام، أهلكهم الله سبحانه بالصيحة. ﴿فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ الله سبحانه وتعالى أحداً من الفريقين.

والمعنى: أي وأنه أهلك ثمود كما أهلك عاداً، فما أبقى منهم عيناً تطرف. ويجوز أن يكون المعنى: فما أبقى عليهما. فالإبقاء على هذا المعنى: الترحم عليهم. وإنما لم يترحم عليهم لكونهم من أهل الغضب، ورحمة الله لأهل اللطف دون القهر؛ أي: فما أبقى عليهم، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر. وقرأ الجمهور[2] ﴿وثموداً﴾ مصروفاً. وقرأه غير مصروف: الحسن، وعاصم، وعصمة.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ معطوف على ﴿عَادًا﴾ أيضاً؛ أي: وأنّه سبحانه أهلك قوم نوح عليه السلام ﴿مِّن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل إهلاك عاد، وثمود. ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: إن قوم نوح ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ﴾ لنبيهم ﴿وَأَطْغَىٰ﴾؛ أي: أعتى لربهم من الفريقين، حيث كانوا

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط.

يؤذونه، وينفرون الناس عنه. وكانوا يحذرون صبيانهم أن يسمعوا منه، وكانوا يضربونه عليه السلام، حتى لا يكون به حراك. وما أثرت فيهم دعوته قريباً من ألف سنة، وما آمن معه إلا قليل.

والمعنى: أي وأهلكنا قوم نوح من قبل عاد وثمود، وكانوا أظلم وأطغى من الفريقين، أو أظلم وأطغى من جميع الفرق الكفرية، أو أظلم وأطغى من مشركي العرب. وإنما كانوا أظلم لأنهم بدؤوا بالظلم. وفي الحديث: «من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها». لأنهم أول من كذب الرسل.

وقد كان الرجل منهم يأخذ بيد ابنه، ويمشي به إلى نوح، ويحذره منه، ويقول: يا بني إن أبي مشى بي إلى هذا الرجل، وأنا مثلك يومئذٍ، ويقول: فإياك أن تصدقه، فيموت الكبير على الكفر، وينشأ الصغير على وصية أبيه، لا يتأثر من دعوة نوح له. وكانوا أطغى؛ أي: أكثر طغياناً وتمرداً على الله، وأكثر تجاوزاً للحد؛ لأنهم سمعوا المواعظ، وطال عليهم الأمد، ولم يرتدعوا، حتى دعا عليهم نبيهم بقوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾.

وقوله: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾ منصوب عطفاً على ﴿عَادًا﴾؛ أي: وأنّه أهلك المؤتفكة؛ أي: قرى قوم لوط عليه السلام. سميت مؤتفكة لأنها ائتفكت بأهلها؛ أي: انقلبت بهم. وقيل: هو منصوب بقوله: ﴿أَهْوَىٰ﴾؛ أي: أسقطها الله إلى الأرض مقلوبة بعد أن رفعها على جناح جبريل إلى السماء. وقال الزجّاج: ألقاها في الهاوية.

﴿فَغَشَّىٰهَا﴾؛ أي: فغشى الله سبحانه المؤتفكة، وغطاها، وألبسها ﴿مَا غَشَّىٰ﴾؛ أي: ما غشاها؛ أي: ما ألبسها من فنون العذاب، والحجارة التي وقعت عليها. وفي هذه العبارة من التهويل والتفظيع ما لا غاية وراءه.

وقوله[1]: ﴿مَا غَشَّىٰ﴾ مفعول ثان إن قلنا: إن التضعيف للتعدية، أي: ألبس الله سبحانه المؤتفكة ما ألبسها إياه من العذاب كالحجارة المنضودة المسوّمة، فمفعولا الفعل الأول مذكوران، والثاني محذوفان. وإن قلنا: إنه للمبالغة والتكثير فهو فاعل كقوله: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾.

---

(١) روح البيان.

والمعنى: وأهلك الله سبحانه قوم لوط بانقلاب قريتهم عليهم، وجعل عاليها سافلها، ثم أمطر عليهم حجارة من سجيل منضود، كما قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾. وهذا ما عناه سبحانه بقوله: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾.

خلاصة ما هنا: وجملة ما ذكره سبحانه مما تضمنته صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام أربعة عشر:

١ ـ أن لا يؤاخذ امرؤ بذنب غيره.

٢ ـ أن لا يثاب امرؤ إلا بعمله.

٣ ـ أن العامل يرى عمله في ميزانه خيراً كان أو شرّاً.

٤ ـ أنه يجازى عليه الجزاء الأوفى، فتضاعف له حسناته إلى سبع مئة ضعف ويجازى بمثل سيئاته.

٥ ـ أن الخلائق كلهم راجعون يوم المعاد إلى ربهم، ومجازون بأعمالهم.

٦ ـ أنه تعالى خلق الضحك والبكاء والفرح والحزن.

٧ ـ أنه سبحانه خلق الذكر والأنثى من نطفة تصب في الأرحام.

٨ ـ أنه تعالى خلق الموت والحياة.

٩ ـ أنه هو الذي أعطى الغنى والفقر، وكلاهما بيده، وتحت قبضته.

١٠ ـ أنه هو رب الشعرى، وكانت خزاعة تعبدها.

١١ ـ أنه أهلك عاداً الأولى، وقد كانوا أول الأمم هلاكاً بعد قوم نوح.

١٢ ـ أنه أهلك ثمود فما أبقاهم، بل أخذهم بذنوبهم.

١٣ ـ أنه أهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود، وقد كانوا أظلم وأطغى من الفريقين.

١٤ ـ أنه أهلك المؤتفكة. وهي قرى قوم لوط، وقد انقلبت بأهلها، وغطّاها بحجارة من سجيل.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ﴾؛ أي: فبأيّ نعماء ربك، وخالقك التي أنعم بها عليك أيها المخاطب ﴿تَتَمَارَىٰ﴾؛ أي: تتجاحد، وتمتري، وتكذب. ونحو الآية قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا

ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾﴾، وقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾، وقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾.

والمراد بالنعم[1]: ما عدَّده من قبل، وجعلت كلها نعماً، وبعضها نقم لما في النقم من المواعظ والعبر للمعتبرين من الأنبياء والمؤمنين.

والخلاصة: أنها كلها دالة على وحدانية ربك وربوبيته، ففي أيها تتشكك على وضوحها للناظرين، ووجوه دلالتها للمعتبرين. وهذا خطاب للإنسان المكذب؛ أي: فبأي نعم ربك أيها الإنسان المكذب تشكك، وتمتري. وقيل: الخطاب لرسول الله ﷺ تعريضاً لغيره على حدّ قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾. أو لكل واحد، وإسناد فعل التماري إلى الواحد باعتبار تعدده بحسب تعدد متعلقه.

وعبارة «الروح»: وجعل الأمور المعدودة آلاء مع أن بعضها نقم لما أنها أيضاً نعم، من حيث إنها نصرة للأنبياء والمؤمنين، وانتقام لهم. وفيها عظات، وعبر للمعتبرين. قال في «بحر العلوم»: وهلاك أعداء الله تعالى، والنجاة من صحبتهم وشرهم، والعصمة من مكرهم من أعظم آلائه تعالى الواصلة إلى المؤمنين. قال المتنبي:

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَىٰ الْحُرِّ أَنْ يَرَىٰ عَـدُوّاً لَـهُ مَـا مِنْ صَـدَاقَـتِـهِ بُـدُّ

وقد أمر نوحاً بالحمد على ذلك في قوله: ﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وقد حمد هو بنفسه على ذلك في موضع آخر تعليماً لعباده حيث قال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾. وقد سجد ﷺ سجدة الشكر حين رأى رأس أبي جهل قد قطعت في غزوة بدر.

وقرأ الجمهور:[2] ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ بتائين من غير إدغام. وقرأ يعقوب، وابن محيصن ﴿تماری﴾ بتاء واحدة مشددة. والفاء في قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ للإفصاح؛ لأنّها وقعت في جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت يا محمد هذه المذكورات، وكنت شاكّاً فيها على سبيل الفرض.. فأقول لك: بأيّ نعمة من نعم ربك تتشكك بأنها ليست من عند الله تعالى، أو في كونها نعمة. فكما نصرت

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

إخوانك من الأنبياء الماضين، ونصرت أولياءهم، وأهلكت أعداءهم، فكذلك أفعل بك. فلا يكن قلبك في ضيق وحرج مما رأيت من إصرار هؤلاء القوم على شركهم وعنادهم واستكبارهم.

والإشارة في قوله: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾ إما للرسول. والنذير بمعنى المنذر؛ أي: هذا الرسول[1] محمد ﷺ منذر لكم من عذاب الله، ومبشر لمن آمن منكم؛ أي: نذير كائن من جنس النذر المتقدمين. ووصفهم بالأولى على تأويلهم بالجماعة لمراعاة الفواصل. وقد علمتم أحوال قومهم المنذرين فلكم أيها المشركون ما لهم، كذا قال ابن جريج، ومحمد بن كعب، وغيرهما.

والمعنى: أي إن محمداً ﷺ منذر من حاد عن طريق الهدى، وسلك طريق الضلال والهوى بسيء العواقب في العاجل والآجل. وهو كمن قبله من الرسل الذين أرسلهم ربهم لهداية خلقه، فكذبوهم، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر. وحل بهم البوار والنكال كفاء تكذيبهم وجحودهم آلاء ربهم ونعمه التي تترى عليهم. ونحو الآية: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾، وقوله ﷺ: «أنا النذير العريان»، أي: الذي أعجله شدة ما عاين من الشر عن أن يلبس شيئاً، وبادر إلى إنذار قومه، وجاءهم مسرعاً. وإما إشارة إلى القرآن، والنذير بمعنى الإنذار؛ أي: هذا القرآن الذي تشاهدونه إنذار كائن من قبيل الإنذارات المتقدمة التي سمعتم عاقبتها، كذا قال قتادة، أو إلى ما سبق في السورة؛ أي: هذا الذي أخبرنا به من أخبار الأمم تخويف لهذه الأمة من أن ينزل بهم ما نزل بأولئك، كذا قال أبو مالك الغفاري، وقال أبو صالح: إنّ الإشارة بقوله: ﴿هَٰذَا﴾ إلى ما في صحف موسى وإبراهيم. والأول أولى. لأنه لما افتتح به أول السورة اختتم به ﷺ.

ولما ذكر إهلاك من تقدم ذكره، وذكر قوله: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾: ذكر أن الذي أنذر به قريب الوقوع، فقال: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾؛ أي: قربت الساعة الموصوفة بالقرب في قوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾، وهي القيامة، ودنت. وسماها آزفة لقرب قيامها كما في قوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ أخبرهم بذلك ليستعدوا لها.

---

(١) المراغي.

وفي «الروح»: قوله: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۝﴾ في إيراده[1] عقيب المذكورات إشعار بأن تعذيبهم مؤخر إلى يوم القيامة، تعظيماً للنبي ﷺ، وإن كانوا معذبين في الدنيا في الجملة. واللام فيه للعهد، فلذا صح الإخبار بدنوها، ولو كانت للجنس لما صح؛ لأنه لا فائدة في الإخبار بقرب آزفة ما.

فإن قلت: الإخبار بقرب الآزفة المعهودة لا فائدة فيه أيضاً.

قلتُ: فيه فائدة، وهو التأكيد، وتقرير الإنذار.

والمعنى:[2] أي اقتربت الساعة، ونصب الميزان، وستجازى كل نفس بما عملت من خير أو شر، فاحذروا أن تكونوا من الهالكين يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون. ونحو الآية: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝﴾. وفي الحديث: «مثلي ومثل الساعة كهاتين» وفرّق بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام.

﴿لَيْسَ لَهَا﴾؛ أي: للساعة ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَاشِفَةٌ﴾؛ أي: نفس[3] قادرة على كشفها؛ أي: إزالتها، وردها عند وقوعها في وقتها المقدر لها إلا الله سبحانه، لكنه لا يكشفها، من كشف الضر إذا أزاله بالكلية. فالكاشفة: اسم فاعل، والتاء للتأنيث، والموصوف مقدر. أو المعنى: ليس لها الآن نفس كاشفة؛ أي: قادرة بتأخيرها إلا الله سبحانه. فإنه المؤخر لها. يعني: لو وقعت الآن لم يردها إلى وقتها أحد إلا الله. فالكشف بمعنى الإزالة لا بالكلية، بل بالتأخير إلى وقتها. أو المعنى: ليس لها كاشفة لوقتها إلا الله؛ أي: عالمة به من كشف الشيء إذا عرف حقيقته، أو مبينة له متى تقوم. وفي القرآن: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾. أو المعنى: ليس لها من غير الله كشف على أن كاشفة مصدر كالعافية والخائنة. وأما جعل التاء للمبالغة كتاء علامة فالمقام يأباه لإبهامه ثبوت أصل الكشف لغيره تعالى. والمعنى الأول أولى.

والمعنى[4]: أي ليس هناك من يعرف وقت حلول الآزفة إلا هو فاستعدوا

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

(٤) المراغي.

لهذا اليوم قبل أن تأخذكم الساعة بغتة وأنتم لا تشعرون، فتندموا ولات ساعة مندم، وجدوا بالعمل قبل حلول الأجل.

وقد أشار في هذه الآيات إلى أصول الدين الثلاثة:

١ ـ وحدانية الله بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥﴾.

٢ ـ إثبات نبوّة محمد ﷺ بقوله: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾.

٣ ـ إثبات الحشر والبعث بقوله: ﴿أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ۝٥٧﴾.

ثم أنكر على المشركين تعجبهم من القرآن، واستهزاءهم به، وإعراضهم عنه، فقال: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩﴾ والمراد بالحديث: القرآن؛ أي: كيف تعجبون منه أيها المشركون تكذيباً ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ منه استهزاء مع كونه غير محل للتكذيب. ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ خوفاً وانزجاراً لما فيه من الوعيد الشديد.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أتكذبون نبوة محمد ﷺ، فتعجبون من هذا القرآن الذي أنزل عليه، وتضحكون من تلاوته عليكم، ولا تبكون خوفاً من الوعيد الذي اشتمل عليه، وحزناً على ما فرطتم في شأنه، وخوفاً من أن يحيق بكم مثل ما حاق بالأمم المذكورة هنا.

وقرأ الحسن[1]: ﴿تُعجِبون﴾ ﴿تُضحِكون﴾ بغير واو، وبضم التاء، وكسر الجيم والحاء.

وجملة قوله: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١﴾ حال من فاعل ﴿لا تبكون﴾؛ أي: ولا تبكون والحال أنكم سامدون؛ أي: لاهون[2] عما في القرآن، أو مستكبرون من استماعه من سمد البعير في مسيره إذا رفع رأسه، أو مغنون لتشغلوا الناس عن استماعه من السمود بمعنى الغناء على لغة حمير. وكانوا إذا سمعوا القرآن عارضوه بالغناء واللهو ليشغلوا الناس عن الاستماع. أو خاشعون جامدون من السمود بمعنى الجمود والخشوع. ومضمون هذه الجملة الحالية على الوجه الأخير قيد للمنفي. والإنكار وارد على نفي البكاء والسمود معاً، وعلى الأوجه الأول قيد للنفي.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

والإنكار متوجه إلى نفي البكاء ووجود السمود. والوجه الأول أوفى بحق المقام، فتدبر كما في «الإرشاد».

والمعنى[1]: أفينبغي لكم بعد ذلك أن تعجبوا من هذا القرآن، وقد جاءكم بما فيه هدايتكم إلى سواء السبيل، وإرشادكم إلى الطريق المستقيم. وكيف تسخرون منه، وتستهزئون به، ولا تكونوا كالموقنين الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ (١٠٩)﴾. وكيف تلهون عن استماع عبره، وتغفلون عن مواعظه، وتتلقونها تلقي اللاهي الساهي المعرض عما يسمع غير المكترث بما يلقى إليه.

أخرج البيهقي في «شعب الإيمان» عن أبي هريرة قال: لما نزلت: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩)﴾ الآية، بكى أصحاب الصفة، حتى جرت دموعهم على خدودهم، فلما سمع رسول الله ﷺ حنينهم بكى معهم، فبكينا ببكائه، فقال ﷺ: «لا يلج النار من بكى من خشية الله تعالى، ولا يدخل الجنّة مصر على معصيته، ولو لم تذنبوا.. لجاء الله بقوم يذنبون فيستغفرون، فيغفر لهم». وروي: أنه ﷺ لم ير ضاحكاً بعد نزول هذه الآية. وفي قوله: ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ حث على البكاء عند سماع القرآن.

ثم بين ما يجب عند سماع القرآن من الإجلال والتعظيم، فقال: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ﴾؛ أي: صلّوا مخلصين لله. ﴿وَاعْبُدُوا﴾؛ أي: أفردوه بالعبادة، ولا تعبدوا اللات، والعزى، ومناة، والشعرى، وغيرها من الأصنام.

والفاء في قوله: ﴿فَاسْجُدُوا﴾ لترتيب الأمر، أو موجبه على ما تقرر من بطلان مقابلة القرآن بالإنكار، والاستهزاء، ووجوب تلقيه بالإيمان والإذعان مع كمال الخضوع والخشوع؛ أي: وإذا كان الأمر من الكفّار كذلك، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم: اسجدوا لله الذي أنزله، واعبدوه، ولا تعبدوا غيره من ملَك أو بشر، فضلاً عن جماد لا يضرّ ولا ينفع كالأصنام، والكواكب. قال في «عين المعاني»: فاسجدوا؛ أي: في الصلاة. والأصحّ: أنه على الانفراد. وهي

---

(١) المراغي.

سجدة التلاوة، انتهى.

والمعنى: أي فاخضعوا، وأخلصوا له العمل حنفاء غير مشركين به. فهو الذي أنزله على عبده ورسوله هادياً وبشيراً لكم لعلكم ترحمون. ودعوا ما أنتم عليه من عبادة الأوثان، والأصنام التي لا تغني عنكم شيئاً، لا تدفع عنكم ضرّاً، ولا تجديكم نفعاً، كما قال آمراً رسوله أن يقول لهم: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾.

وهذا محل السجود عند أبي حنيفة، والشافعي، وأحمد، وهو قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه. روى الشيخان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قرأ والنجم، فسجد فيها وسجد من كان معه غير أنّ شيخاً من قريش أخذ كفّاً من حصباء أو تراب فرفعه إلى جبهته، وقال: يكفيني هذا. قال عبد الله: فلقد رأيته بعد قتل كافراً. زاد البخاري في رواية له قال: أول سورة نزلت فيها السجدة النجم، وذكره، وقال في آخره: وهو أميّة بن خلف.

وروى البخاري عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ سجد بالنجم، وسجد معه المسلمون، والمشركون، والجن والإنس. ولم يرها مالك لما روى الشيخان عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: قرأت على رسول الله ﷺ النجم فلم يسجد فيها. ففي هذا الحديث دليل على أنّ سجود التلاوة غير واجب. وهو قول الشافعي، وأحمد.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنّ الله لم يكتبها علينا إلا أن نشاء. وذهب قوم إلى وجوبها على القارىء، والمستمع. وهو قول سفيان، وأصحاب الرأي. والله سبحانه وتعالى أعلم.

الإعراب

﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري، داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة

على ذلك المحذوف، والتقدير: أفكرت يا محمد في شأن هؤلاء المعاندين فرأيت الذي تولى. ﴿رأيت﴾ فعل، وفاعل، ﴿ٱلَّذِى﴾ اسم موصول في محمد النصب، مفعول أول لـ ﴿رأيت﴾، وجملة ﴿رأيت﴾ معطوفة على تلك المحذوفة، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿تَوَلَّىٰ﴾ فعل، وفاعل مستتر، يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول، ﴿وَأَعْطَىٰ﴾ معطوف على ﴿تَوَلَّىٰ﴾، ﴿قَلِيلًا﴾ صفة لمصدر محذوف؛ أي: عطاء قليلاً، ولك أن تجعله مفعولاً به لـ ﴿أعطى﴾، لأنه بمعنى وهب. ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾ معطوف على ﴿أعطى﴾. ﴿أَعِندَهُۥ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، ﴿عنده﴾ خبر مقدم، ﴿عِلْمُ ٱلْغَيْبِ﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة في موضع نصب على أنها مفعول ثان لـ ﴿رأيت﴾. ﴿فَهُوَ﴾ الفاء: عاطفة سببية، ﴿هو﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَرَىٰٓ﴾ خبره. والجملة معطوفة على جملة ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ﴾، فهي داخلة في حيّز الاستفهام. ﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى بل الإضرابية وهمزة الإنكار، ﴿لَمْ﴾ حرف نفي وجزم، ﴿يُنَبَّأْ﴾ فعل مضارع، مغير الصيغة، مجزوم بلم، ونائب فاعله ضمير مستتر يعود على ﴿ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾. ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور، متعلق بـ ﴿يُنَبَّأْ﴾، على أنه مفعول ثان له. والجملة الإضرابية مستأنفة. ﴿فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ جار ومجرور، صلة الموصول، ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ معطوف على ﴿مُوسَىٰ﴾، ﴿ٱلَّذِى﴾ صفة لـ ﴿إبراهيم﴾، و﴿وَفَّىٰٓ﴾ صلة الموصول، ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾ أن مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، وجملة ﴿لا تزر﴾ خبرها، ﴿وَازِرَةٌ﴾ فاعل ﴿تَزِرُ﴾، ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ مفعول ﴿تَزِرُ﴾. وجملة ﴿أن﴾ المخفّفة من اسمها وخبرها في محل الجرّ، بدل من ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾، أو في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو أن لا تزر وازرة. ﴿وَأَن﴾ الواو: عاطفة، ﴿أنْ﴾ مخفّفة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، ﴿لَّيْسَ﴾ فعل ماض ناقص، ﴿لِلْإِنسَٰنِ﴾ خبرها مقدم، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿مَا﴾ اسم موصول، في محل الرفع اسم ليس مؤخر، ﴿سَعَىٰ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر، يعود على ﴿الإنسان﴾. والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: إلا ما سعاه، ويصح أن تكون ﴿مَا﴾ مصدرية، وجملة ليس في محل الرفع خبر أن المخفّفة، وجملة أن المخفّفة معطوفة على جملة قوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾. ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿سَوْفَ﴾ حرف تنفيس واستقبال، وجملة ﴿يُرَىٰ﴾ في محل الرفع خبر أنّ، وجملة أنّ معطوفة على جملة ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب، ﴿يُجْزَىٰهُ﴾ فعل مضارع، مغير

الصيغة، ومفعول ثانٍ له، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿الإنسان﴾، ﴿ٱلْجَزَآءَ﴾ مفعول مطلق، ﴿ٱلْأَوْفَىٰ﴾ صفة له، أو هو بدل من الضمير الذي وقع مفعولاً ثانياً. والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: ﴿سَوْفَ يُرَىٰ﴾.

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَأَنَّ﴾ عاطف، وناصب، ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ خبره مقدم، ﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ اسمه مؤخر. والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾. ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، ﴿أَضْحَكَ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر، يعود على الله. والجملة في محل الرفع خبر هو، وجملة هو في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾، وجملة أنّ معطوفة على قوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾. ﴿وَأَبْكَىٰ﴾ معطوف على ﴿أَضْحَكَ﴾، ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿أَمَاتَ﴾ خبره، ﴿وَأَحْيَا﴾ معطوف على ﴿أَمَاتَ﴾. والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ﴿أنَّ﴾، وجملة ﴿أنَّ﴾ معطوفة على ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾. ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ فعل وفاعل مستتر، ومفعول به. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنّ﴾ معطوفة على ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾. ﴿ٱلذَّكَرَ﴾ بدل من الزوجين، ﴿وَٱلْأُنثَىٰ﴾ معطوف عليه، ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ متعلق بـ ﴿خَلَقَ﴾، ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، متعلق بخلق، ﴿تُمْنَىٰ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿نُّطْفَةٍ﴾. والجملة الفعلية في محل الجر، مضاف إليه لـ ﴿إِذَا﴾؛ أي: خلق من نطفة وقت إمنائها في الرحم. ﴿وَأَنَّ﴾ عاطف وناصب، ﴿عَلَيْهِ﴾ خبر مقدم لـ ﴿أنَّ﴾، ﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾ اسمها مؤخر، ﴿ٱلْأُخْرَىٰ﴾ صفة لـ ﴿نشأة﴾. وجملة ﴿أنَّ﴾ معطوفة على ما تقدم. ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿أَغْنَىٰ﴾ خبره. والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾، وجملة أنّ معطوفة على ما تقدم. وجملة ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ معطوفة على ﴿أَغْنَىٰ﴾. ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، ﴿رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ خبره. والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنّ﴾ معطوفة على ما تقدم. ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ ناصب

واسمه، ﴿أَهۡلَكَ عَادًا﴾ فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به، ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾ صفة لـ ﴿عَادًا﴾، وجملة ﴿أَهۡلَكَ﴾ خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنّ﴾ معطوفة على ما تقدم. ﴿وَثَمُودَاْ﴾ معطوف على ﴿عَادًا﴾ ﴿فَمَآ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿ما﴾ نافية، ﴿أَبۡقَىٰ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر، والجملة معطوفة على ﴿أَهۡلَكَ﴾. ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ﴾ معطوف على ﴿عَادًا﴾، ﴿مِّن قَبۡلُ﴾ جار ومجرور، حال من ﴿قوم نوح﴾. ﴿إِنَّهُمۡ﴾ ناصب واسمه، ﴿كَانُواْ﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿هُمۡ﴾ ضمير فصل، لا محل له، أو تأكيد للضمير في ﴿كَانُواْ﴾، ﴿أَظۡلَمَ﴾ خبر ﴿كَانُواْ﴾. ﴿وَأَطۡغَىٰ﴾ معطوف على ﴿أَظۡلَمَ﴾. وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ تعليلية، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ﴾ مفعول مقدم لـ ﴿أَهۡوَىٰ﴾، و﴿أَهۡوَىٰ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الله. والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿أَهۡلَكَ عَادًا﴾. ﴿فَغَشَّىٰهَا﴾ الفاء: عاطفة، ﴿غشاها﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر، ومفعول به أول. والجملة معطوفة على جملة ﴿أَهۡوَىٰ﴾. ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول ثان لـ ﴿غشاها﴾، وجملة ﴿غَشَّىٰ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ الموصولة فاعلاً لـ ﴿غشاها﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ وَٱعۡبُدُواْ۩ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿فَبِأَيِّ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت يا محمد هذه المذكورات، وكنت شاكًّا فيها على سبيل الفرض.. فأقول لك في أيّ نعمة من نعم ربّك تشكك بأنها ليست من عند الله تعالى، أو في كونها نعمة من عند الله تعالى. وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿بأي آلاء ربك﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تَتَمَارَىٰ﴾، و﴿تَتَمَارَىٰ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر. والجملة في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿هَٰذَا نَذِيرٞ﴾ مبتدأ وخبر. والجملة مستأنفة. ﴿مِّنَ ٱلنُّذُرِ﴾ نعت لـ ﴿نَذِيرٞ﴾، ﴿ٱلۡأُولَىٰٓ﴾ صفة لـ ﴿ٱلنُّذُرِ﴾، ﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ﴾ فعل، وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿لَيۡسَ﴾ فعل ماض ناقص، ﴿لَهَا﴾ خبرها مقدم ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حال من ﴿كَاشِفَةٌ﴾، و﴿كَاشِفَةٌ﴾ اسم ﴿لَيۡسَ﴾ مؤخر. وجملة ﴿لَيۡسَ﴾ في محل النصب، حال من ﴿ٱلۡأٓزِفَةُ﴾. ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على

ذلك المحذوف، ﴿من هذا الحديث﴾ متعلق بـ ﴿تَعْجَبُونَ﴾ وجملة ﴿تَعْجَبُونَ﴾ معطوفة على تلك المحذوفة، والتقدير: أتكذّبون نبوة محمد ﷺ فتعجبون من هذا الحديث. والجملة المحذوفة جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿تَعْجَبُونَ﴾، ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ معطوف على تضحكون، أو الجملة حال من فاعل ﴿تضحكون﴾. ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾ مبتدأ وخبر. والجملة في محل النصب، حال من فاعل ﴿تَبْكُونَ﴾. ﴿فَٱسْجُدُوا﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا كان شأن المشركين وحالهم ما ذكر، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم اسجدوا لله. ﴿اسجدوا﴾ فعل أمر، مبنيّ على حذف النون، والواو: فاعل، ﴿لِلَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿اسجدوا﴾. والجملة في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَٱعْبُدُوا﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿اسجدوا﴾ من عطف العام على الخاص.

التصريف ومفردات اللغة

﴿تَوَلَّىٰ﴾؛ أي: أعرض عن اتباع الحق، والثبات عليه. ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾؛ أي: قطع العطاء، وأمسك بخلاً، من أكدى الحافر؛ أي: حافر البئر إذا بلغ الكدية؛ أي: الصلابة كالصخرة، فلا يمكنه أن يحفر، ثم استعمل في كل من طلب شيئاً فلم يصل إليه، فلم يتممه، ولم يبلغ آخره. وفي «القاموس»: أكدى بخل، أو قل خيره، أو قلل عطاءه. وأصل ﴿تَوَلَّىٰ﴾ تولي بوزن تفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها. وكذلك أصل ﴿أعطى﴾ أعطي قلبت الياء التي أصلها واو ألفاً لتحركها بعد فتح، وإنما قلبت الواو ياء لوقوعها رابعة. وكذلك أصل ﴿أكدى﴾ أكدي بوزن أفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ جمع صحيفة. قال الراغب: الصحيفة: المبسوطة من كل شيء، كصحيفة الوجه، والصحيفة التي كان يكتب فيها. وجمعها صحائف، وصحف. والمصحف: ما جعل جامعاً للصحف المكتوبة. وقال القهستاني: المصحف مثلث الميم ما جمع فيه قرآن، والصحف.

﴿وَفَّىٰٓ﴾ يقال: أوفاه حقه، ووفاه بمعنى؛ أي: أعطاه تامّاً وافياً. ويجوز أن يكون التشديد فيه للتكثير والمبالغة في الوفاء بما عاهد الله.

﴿إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ والسعي: المشي السريع. وهو دون العدو، ويستعمل للجد في الأمر خيراً كان أو شراً. ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ أصله: يرأي بوزن يفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم نقلت حركة الهمزة إلى الراء ثم حذفت تخفيفاً، فوزنه يفل.

﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ أصله: يجزي بوزن يفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿ٱلْأَوْفَىٰ﴾ اسم تفضيل، وزنه أفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

والمعنى: يجزى سعيه. يقال: جزاه الله بعمله، وجزاه على عمله، وجزاه عمله.

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ المنتهى مصدر ميمي بمعنى الانتهاء؛ أي: إليه الانتهاء، والرجوع في المعاد. وأصله: المنتهي بوزن مفتعَل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ والضحك: انبساط الوجه، وتكشر الأسنان من سرور النفس. ولظهور الأسنان عنده سميت مقدمات الأسنان الضواحك. والبكاء بالمد: سيلان الدمع عن حزن وعويل. ويقال: البكاء بالمد إذا كان الصوت أغلب كالرغاء، وسائر هذه الأبنية الموضوعة للصوت. وبالقصر يقال: إذا كان الحزن أغلب. وأصل ﴿أبكى﴾ أبكي بوزن أفعل، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿أَمَاتَ﴾ فيه إعلال بالنقل والتسكين والقلب، أصله: أموت بوزن أفعل، نقلت حركة الواو إلى الميم فسكنت، لكنها قلبت ألفاً لتحركها في الأصل وفتح ما قبلها في الحال. ﴿وَأَحْيَا﴾ أصله: أحيي بوزن أفعل، قلبت الياء الأخيرة ألفا لتحركها بعد فتح.

﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ والنطفة: الماء الصافي. ويعبر بها عن ماء الرجل، كما في «المفردات». ﴿إِذَا تُمْنَىٰ﴾؛ أي: تصب في الرحم. وفي «القاموس»: منى وأمنى ومنَّى بمعنًى، يقال: أمنى الرجل ومنى: إذا صب المني، أو معنى ﴿تُمْنَىٰ﴾ يقدر منها الولد من مناه الله يَمْنِيه قدره. إذ ليس كل مني يصير ولداً. وأصل ﴿تُمْنَىٰ﴾ تمني بوزن تفعل، فأعل كنظائره السابقة. ﴿أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾؛ أي: أغنى من شاء، وأفقر من شاء.

وأصلهما: أغني وأقني بوزن أفعل، تحركت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً.

﴿ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ هي الشعرى العبور. وهي النجم الوضاء الذي يقال له: مرزم الجوزاء. وقد عبدته طائفة من العرب. وعاداً الأولى: هم قوم هود، وهم ولد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح. وعاد الأخرى: هم من ولد عاد الأولى، وهم قوم صالح.

﴿المؤتفكة﴾ وهي قرى قوم لوط. سميت بذلك لأنها ائتفكت بأهلها؛ أي: انقلبت بهم. ومنه: الإفك. لأنه قلب الحق. ﴿أَهۡوَىٰ﴾؛ أي: أسقطها على الأرض مقلوبة.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ الآلاء: النعم. واحدها إلى بوزن معى. وفيه إعلال بالإبدال. أصله: ألاى، أبدلت الياء همزة لتطرفها بعد ألف زائدة. والمدة فيه بدل من همزة، إذ أصله: أألاى، أبدلت الهمزة الثانية الساكنة حرف مد من جنس حركة الأولى. وقوله: ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ فيه إعلال بالقلب. أصله: تتماري بوزن تتفاعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. والتماري، والمماراة، والامتراء: المحاجة فيما فيه مرية، أي: شك وتردد.

﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾ يقال: أزف الترحل كفرح أزفاً وأزوفاً إذا دنا. والأزف محركاً: الضيق. وفي «المصباح»: أزف الرحيل أزوفاً من باب تعب، وأزفاً أيضاً دنا وقرب، وأزفت الآزفة دنت الدانية؛ أي: قربت القيامة. ﴿كَاشِفَةٌ﴾ من كشف الضر إذا أزاله.

﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ قال الراغب: العجب، والتعجب: حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشيء، ولهذا قال بعض الحكماء: العجب: ما لا يعرف سببه. ﴿وَلَا تَبۡكُونَ﴾ أصله: تبكيون، أستثقلت الضمة على الياء، فحذفت فسكنت فحذفت لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة، ثم ضمت الكاف لمناسبة الواو.

﴿وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾ السمود: اللهو. وقيل: الإعراض، وقيل: الاستكبار. وقال أبو عبيدة: السمود: الغناء بلغة حمير، يقولون: يا جارية اسمدي لنا؛ أي: غني لنا. وقال الراغب: والسامد: اللاهي الرافع رأسه من قولهم: بعير سامد في مسيره، وقيل: سمد رأسه وجسده؛ أي: استأصل شعره. وفي «المختار»:

والسامد: اللاهي، بابه دخل. وفسر الزمخشري السمود بالبرطمة. وهي عامية فصيحة. ففي «الصحاح»: البرطمة: الانتفاخ من الغضب.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة التصريحية التبعية؛ لأنه استعار التولي والإدبار والإعراض لعدم الدخول في الإيمان. فاشتق من التولي بمعنى عدم الإيمان تولى بمعنى أعرض عن الإيمان على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية. ويمكن أن يكون هذا ضابطاً لذكر التولي في القرآن، فحيث ورد في القرآن مطلقاً غير مقيد يكون معناه عدم الإيمان.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾ حيث شبه من يعطي قليلاً ثم يمسك عن العطاء بمن يكدي أي: يمسك عن الحفر بعد أن حيل دونه بصلابة كالصخرة على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الطباق بين: ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ وبين: ﴿أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ وبين: ﴿أعطى وأكدى﴾ وبين: ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾. وهو في السورة جميعها متعدد، ولهذا يدخل في باب المقابلة. وقد زاد هذا الطباق حسناً أنه أتى في معرض التسجيع الفصيح لمجيء المناسبة التامة في فواصل الآي.

ومنها: التضعيف في قوله: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ لإفادة التكثير والمبالغة في الوفاء بما عاهد الله.

ومنها: الجناس المغاير، وجناس الاشتقاق في قوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

وجناس الاشتقاق بين: ﴿سَعَىٰ﴾، و﴿سَعْيَهُۥ﴾ في قوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ لأنّهما كنايتان عن الفرح والسرور، كأنّه قيل: وأنه هو أفرح وأحزن، لأنَّ الفرح يجلب الضحك،

والحزن يجلب البكاء.

ومنها: تقديم الذكر على الأنثى في قوله: ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ رعاية للفاصلة، ولشرفه الرتبي.

ومنها: فن التنكيت في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ وهو أن يقصد المتكلم إلى شيء بالذكر دون غيره مما يسد مسده لأجل نكتةٍ في المذكور ترجح مجيئه على غيره. وقد خص الله سبحانه هنا الشعرى بالذكر دون غيرها من النجوم. وهو رب كل شيء وخالقه لما تقدم في مبحث التفسير من أن العرب كان قد ظهر فيهم رجل يعرف بأبي كبشة عبد الشعرى، ودعا الناس إلى عبادتها، فأنزل الله سبحانه هذه الآية.

ومنها: الإبهام في قوله: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ إفادة للتهويل الشديد، والتفظيع البليغ.

ومنها: إسناد فعل التماري إلى الواحد مع إفادته المشاركة نظراً لتعدده بحسب تعدد متعلقه.

ومنها: الخطاب للرسول ﷺ بقوله: ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ على طريق الإلهاب والتعريض للغير.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾؛ لأنّه شبه إنذار القرآن أو الرسول بإنذار الكتب الماضية، أو الرسل المتقدمة.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾.

ومنها: وصف القيامة بالآزفة للتأكيد، وتقرير الإنذار.

ومنها: فن التمثيل في قوله: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾ فقد أخرج الكلام مخرج المثل السائر يتمثل به في الوقائع.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة الكريمة من الأسرار والأحكام

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

١ ـ إنزال الوحي على رسوله.

٢ ـ أنَّ الذي علمه إياه هو جبرئيل شديد القوى.

٣ ـ قرب رسوله من ربه.

٤ ـ أن النبي ﷺ رأى جبرئيل على صورته الملكية مرتين.

٥ ـ تقريع المشركين على عبادتهم للأصنام.

٦ ـ توبيخهم على جعل الملائكة إناثاً، وتسميتهم إياهم بنات الله.

٧ ـ مجازاة كل من المحسن والمسيء بعمله.

٨ ـ أوصاف المحسنين.

٩ ـ إحاطة علمه تعالى بما في السموات والأرض.

١٠ ـ النهي عن تزكية المرء نفسه.

١١ ـ الوصايا التي جاءت في صحف إبراهيم وموسى.

١٢ ـ النعي على المشركين في إنكارهم الوحدانية، والرسالة، والبعث، والنشور.

١٣ ـ التعجب من استهزاء المشركين بالقرآن حين سماعه، وغفلتهم عن مواعظه.

١٤ ـ أمر المؤمنين بالخضوع لله، والإخلاص له في العمل.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

سورة القمر

سورة القمر مكية كلّها عند الجمهور، نزلت بعد الطارق. وقال مقاتل: هي مكيّة إلا ثلاث آيات من قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ فمدنية.

وآيها خمس وخمسون، وكلماتها ثلاثمائة واثنتان وأربعون كلمة، وحروفها ألف وأربعمائة وثلاثة وعشرون حرفاً.

مناسبتها لما قبلها من وجوه[1]:

١ - حسن التناسق بين النجم والقمر.

٢ - مشاكلة آخر السورة السابقة لأوّل هذه. فقد قال هناك: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾، وقال هنا: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾.

٣ - أنَّ هذه قد فصلت ما جاء في سابقتها. ففيها إيضاح أحوال الأمم التي كذبت رسلها، وتفصيل هلاكهم الذي أشار إليه في السابقة بقوله: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾، فما أشبهها مع سابقتها بالأعراف بعد الأنعام، والشعراء بعد الفرقان.

وقال أبو حيان: مناسبة أوّل السورة لآخر ما قبلها ظاهرة، قال أوّلاً: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾، وقال هنا: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾.

تسميتها: سمّيت سورة القمر لذكر انشقاق القمر فيها، وتسمي أيضاً: سورة اقتربت. وكلها محكم، ليس فيها منسوخ إلا قوله: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾﴾.

---

(١) المراغي.

فضلها: ومن فضائلها: ما أخرجه البيهقي في «الشعب» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: اقتربت تدعى في التوراة المبيضة تبيض وجه صاحبها يوم تبيض الوجوه. قال البيهقي: منكر.

وأخرج ابن الضريس عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة رفعه: «من قرأ اقتربت الساعة في كل ليلتين بعثه الله يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر».

وأخرج ابن الضريس نحوه عن ليث بن معن عن شيخ من همدان رفعه. وقد تقدم أنّ النبي ﷺ كان يقرأ بقاف واقتربت الساعة في الأضحى والفطر.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ (٦) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧) مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧) كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٢٢) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٣٢) كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ (٣٤) نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٤٠)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ...﴾ الآيات، يخبر[١] سبحانه في هذه الآيات باقتراب الساعة، وفراغ الدنيا، وانقضائها، وأنَّ الأجرام العلوية يختل نظامها على

---

(١) المراغي.

نحو ما جاء في قوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾. روى أنس: أنّ النبي ﷺ خطب أصحابه ذات يوم، وقد كادت الشمس تغرب، ولم يبق منها إلا سف يسير، فقال: «والذي نفسي بيده ما بقي من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه».

وروى أحمد عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بعثت أنا والساعة هكذا وأشار بأصبعيه السبّابة والوسطى». ثمّ ذكر أنّ الكافرين كلّما رأوا علامة من علامات نبوتك أعرضوا، وكذّبوا بها، وقالوا: إن هذا إلا سحر منك يتلو بعضه بعضاً. ثم أخبر أنّ أمرهم سينتهي بعد حين، ويستقر أمرك، وسينصرك الله عليهم نصراً مؤزراً. ثم أعقب هذا بأن عبر الماضين، وإهلاك الله لهم بعد تكذيبهم أنبياءهم كانت جد كافية لهم لو أن لهم عقولاً يفكرون بها فيما هم قادمون عليه، ولكن أنى تغني الآيات والنذر عن قوم قد أضلهم الله على علم، وختم على قلوبهم، وجعل على سمعهم وبصرهم غشاوة. ثم أمر رسوله بالإعراض عنهم، وسيخرجون عن قبورهم أذلاء ناكسي الرؤوس مسرعين إلى إجابة الداعي، يقول الكافرون منهم: هذا يوم شديد حسابه، عسر عقابه.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] فيما سلف أنه جاءهم من الأخبار ما فيه زاجر لهم لو تذكروا، لكن لم تغنهم تلك الزواجر شيئاً.. أردف هذا بذكر قصص من قبلهم من الأمم: كقوم نوح، وعاد، وثمود ليبين لرسوله أنهم ليسوا ببدع في الأمم، بل كثير منهم فعلوا فعلهم، بل كانوا أشد منهم عتواً واستكباراً، وأن الأنبياء قبله قد لاقوا منهم من البلاء ما لاقيت، فلا تأس على ما فرط منهم، ولا تبتئس بما كانوا يفعلون، كما جاء في قوله سبحانه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾.

وفي هذا وعيد للمشركين من أهل مكة وغيرهم على تكذيبهم رسولهم، وأنهم إن لم ينيبوا إلى ربهم فسيحل بهم من العذاب مثل ما حل بمن قبلهم، وينجي نبيه والمؤمنين، كما نجى من قبله من الرسل، وأتباعهم من نقمه التي أحلها بأممهم.

---

(١) المراغي.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ . . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمّا ذكر قصص قوم نوح، وما فيه من العبرة لمن تدبر وفكر. . أعقبه بقصص عاد قوم هود ليبين للمكذّبين أنَّ عاقبة كلّ مكذّب الهلاك والبوار، وإن تعددت أسبابه.

وَمَنْ لَمْ يَمُتْ بِٱلسَّيْفِ مَاتَ بِغَيْرِهِ   تَعَدَّدَتِ الأَسْبَابُ وَٱلْمَوْتُ وَاحِدُ

فقد أرسل الله عليهم ريحاً عاصفاً لصوتها صرير، حين هبوطها في يوم شؤم عليهم، واستمر بهم البلاء حتى حل بهم الدمار، وكانت الريح لشدتها تقتلع الناس من الأرض، وترفعهم إلى السماء، ثم ترمي بهم على رؤوسهم، فتندق رقابهم، وتبين من أجسامهم. فانظروا أيها المكذبون إلى ما حل بهم من العذاب جزاء تكذيبهم لرسولهم كما هي سنة الله في أمثالهم من المكذبين.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ. . .﴾ الآيات، لما فرغ الله سبحانه من ذكر قصة عاد. . قص علينا قصص ثمود مع نبيها صالح إذ قالوا: أنحن العدد الجم والكثرة الساحقة، نتبع واحداً منا لا امتياز له عنا، إنا إذا فعلنا ذلك لفي ضلال وبعد عن محجة الصواب، وإنه لكاذب فيما يدعيه من الوحي عن ربه، وما هو إلا بشر، وليس بملك. فقال لهم ربهم: ستعلمون بعد حين قريب من الكذاب البطر. وقد جعلنا ناقته فتنة واختباراً لهم، فأمرناه أن يخبرهم بأنَّ ماء البئر يقسم بينها وبينهم، فلها يوم ولهم يوم آخر. فما ارتضوا هذا، وقام فاسقهم قدار، وعقر الناقة، فخرت صريعة، فجازاهم الله تعالى، فأرسل عليهم العذاب فصاروا كالهشيم الذي يتفتت حين بناء حظيرة الماشية.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ. . .﴾ الآيات، لمَّا فرغ الله سبحانه من قصة ثمود. . ذكر هنا تكذيب قوم لوط لنبيهم، ومخالفتهم إيّاه، واجتراحهم من السيئات ما لم يسبقهم به أحد من العالمين بإتيانهم الذكران دون النساء، ثم أردفه ذكر عذابهم بإرسال حجارة من سجيل عليهم إلا من آمن منهم، فقد نجاهم بسحر، وما أهلكهم إلا بعد أن أنذرهم عذابه على لسان رسوله، فكذبوه.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١﴾ سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه الشيخان، والحاكم، واللفظ له عن ابن مسعود قال: رأيت القمر منشقاً شقين بمكة قبل مخرج النبيّ ﷺ فقالوا: سحر القمر، فنزلت ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١﴾.

وأخرج الترمذي عن أنس قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ آيةً، فانشق القمر بمكة مرتين. فنزلت: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾؛ أي:[2] دنت القيامة، وقرب قيامها ووقوعها؛ لأنه ما بقي من الدنيا إلا قليل، كما قال ﷺ: «إنَّ الله جعل الدنيا كلها قليلاً، فما بقي منها قليل من قليل، ومثل ما بقي مثل الثغب ـ أي: الغدير ـ شرب صفوه، وبقي كدره». فالاقتراب يدل على مضي الأكثر، ويمضي الأقل كما مضى الأكثر.

والساعة جزء من أجزاء الزمان، عبر بها عن القيامة تشبيهاً لها بذلك لسرعة حسابها، أو لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا، أو لأنَّها ساعة خفيفة يحدث فيها أمر عظيم، أو لغير ذلك. والحكمة في ذكر اقتراب الساعة تحذير المكلف، وحثه على الطاعة تنبيهاً لعباده على أن الساعة من أعظم الأمور الكونية على خلقه من أهل السموات والأرض. وأما تعيين وقت الساعة: فقد انفرد الحق سبحانه بعلمه، وأخفاه عن عباده؛ لأنه أصلح لهم، ولذا كان كل نبي قد أنذر أمته الدجال.

يقول الفقير: فإن قلت: فكم عمر الدنيا بأسرها، وما قول العلماء فيه؟

قلت: اتفقوا على حدوث الدنيا، وما قطعوا بشيء في مدتها.

﴿و﴾ قد ﴿انشق القمر﴾؛ أي: انفصل بعضه من بعض معجزة له ﷺ. ودلت

---

(١) لباب النقول. (٢) روح البيان.

صيغة الماضي على تحقق الانشقاق في زمن النبي ﷺ. ويدل عليه قراءة حذيفة رضي الله عنه ﴿وقد انشق القمر﴾؛ أي: اقتربت الساعة، وقد حصل من آيات اقترابها أن القمر قد انشق، وقد خطب حذيفة بالمدائن، ثم قال: ألا إن الساعة قد اقتربت، وإن القمر قد انشق على عهد نبيكم ﷺ. وحذيفة بن اليمان صاحب سرّ رسول الله ﷺ كابن مسعود رضي الله عنهما. وعلى هذا القول عامّة الصحابة ومن بعدهم، وبه أخذ أكثر المفسّرين. فلا عبرة بقول من قال: إنه سينشق يوم القيامة. كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾. والتعبير بالماضي للدلالة على تحققه، على أنا نقول: يجوز أن يكون انشقاقه مرتين: مرة في زمانه ﷺ إشارة إلى قرب الساعة، ومرة يوم القيامة، حين انشقاق السماء. قال الواحديّ: وإنما ذكر اقتراب الساعة مع انشقاق القمر؛ لأن انشقاقه من علامات نبوة محمد ﷺ ونبوته وزمانه من أشراط اقتراب الساعة.

قال ابن كيسان: في الكلام تقديم وتأخير، أي: انشق القمر، واقتربت الساعة. وقال جمع من المفسرين: إن هذا الانشقاق حدثٌ قد حصل، وأن القمر صار فرقتين على عهد رسول الله ﷺ قبل الهجرة بخمس سنين. فقد صح من رواية الشيخين، وابن جرير عن أنس: أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين، حتى رأوا حراء ـ جبل بمكة ـ بينهما.

وفي «الصحيحين»، وغيرهما من حديث ابن مسعود: «وانشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين، فرقة على الجبل، وفرقة دونه. فقال رسول الله ﷺ: اشهدوا». وجاء عنه أيضاً: «انشقّ القمر على عهد رسول الله ﷺ، فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة، فقال رجل: انتظروا ما يأتيكم به السفار، فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس، فجاء السفار، فأخبروهم بذلك» رواه أبو داود، والطيالسي. وفي رواية البيهقي: فسألوا السفار، وقد قدموا من كل وجه، فقالوا: رأيناه، فأنزل الله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١﴾.

والحاصل[1]: أنّا إذا نظرنا إلى كتاب الله فقد أخبرنا بأنه قد انشق، ولم يخبرنا بأنه سينشق، وإن نظرنا إلى سنة رسول الله ﷺ فقد ثبت في الصحيح وغيره

(١) الشوكاني.

من طريق متواترة: أنه قد كان ذلك في أيام النبوة، وإن نظرنا إلى أقوال أهل العلم.. فقد اتفقوا على هذا، ولا يلتفت إلى شذوذ من شذ، واستبعاد من استبعد.

وقال قوم ـ منهم عثمان بن عطاء ـ: المراد: انشقاقه يوم القيامة، والمعنى عليه[1]: اقتربت الساعة، وسينشق القمر، وينفصل بعضه عن بعض، حين يختل نظام هذا العالم، وتبدل الأرض غير الأرض. ونحو هذا قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾، وقوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢﴾، وكثير غيرهما من الآيات الدالة على الأحداث الكبرى التي تكون حين خراب هذا العالم، وقرب قيام الساعة، والذي يدل على أن هذا إخبار عن حدث مستقبل لا عن انشقاق ماض أمورٌ:

١ ـ أن الإخبار[2] بالانشقاق أتى إثر الكلام على قرب مجيء الساعة. والظاهر: تجانس الخبرين، وأنهما خبران عن مستقبل لا عن ماض.

٢ ـ أن انشقاق القمر من الأحداث الكونية الهامة التي لو حصلت.. لرآها من الناس من لا يحصى كثرة من العرب وغيرهم، ولبلغ حدّاً لا يمكن أحداً أن ينكره، وصار من المحسوسات التي لا تدفع، ولصار من المعجزات التي لا يسع مسلماً ولا غيره إنكارها.

٣ ـ ما ادّعى أحدٌ من المسلمين إلا من شذ أن هذه معجزة بلغت حد التواتر، ولو كان قد حصل ذلك.. ما كان رواته آحاداً، بل كانوا لا يعدّون كثرة.

٤ ـ أنَّ حذيفة بن اليمان، وهو الصحابي الجليل خطب الناس يوم الجمعة في المدائن حين فتح الله فارس. فقال: ألا إنّ الله تبارك وتعالى يقول:

﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١﴾، ألا وإن الساعة قد اقتربت، ألا وإنّ القمر قد انشقّ، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق، ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق، ألا وإن الغاية النار، والسابق من سبق إلى الجنة. فهذا الكلام من حذيفة في معرض قرب مجيء الساعة، وتوقع أحداثها لا في كلام عن أحداث قد حصلت تأييداً للرسول، وإثباتاً لنبوتّه، لأنَّ ذلك كان في معرض العظة والاعتبار.

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

وقيل[1]: معنى ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾: وضح الأمر، وظهر. وقيل: انشقاق القمر هو انشقاق الظلمة عنه، وطلوعه في أثنائها كما يسمى الصبح فلقاً لانفلاق الظلمة عنه.

وبعد أن ذكر قرب مجيء الساعة، وكان ذلك مما يستدعي انتباههم من غفلتهم والتفكير في مصيرهم، والنظر فيما جاءهم به الرسول من الأدلّة المثبتة لنبوته، والمؤيّدة لصدقه، لكنهم مع كل هذا ما التفتوا إلى الداعي لهم إلى الرشاد، والهادي لهم إلى سواء السبيل، بل أعرضوا، وتولوا مستكبرين كما قال: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً﴾؛ أي: وإن ير هؤلاء المشركون علامة تدلهم على حقيقة نبوتك، وترشدهم إلى صدق ما جئت به من عند ربك كانشقاق القمر، ونظائره. ووجه تسمية ما جاءت به الأنبياء معجزة هو أنَّ الخلق عجزوا عن الإتيان بمثلها. وقرىء[2] ﴿وَإِن يُرَوْا آيَةً﴾ مبنياً للمفعول؛ أي: من شأنهم ومن حالهم أنهم متى رأوا ما يدل على صدق الرسول ﷺ من الآيات الباهرة ﴿يُعْرِضُوا۟﴾ عن التأمل فيها ليقفوا على حقيقتها، وعلو طبقتها، فيؤمنوا، ويتولّوا مكذّبين بها منكرين أن يكون ذلك حقّاً.

﴿وَيَقُولُوا۟﴾ تكذيباً منهم بها هذا الذي ظهر على يد محمد ﷺ ﴿سِحْرٌ﴾ سحرنا به، وخيال غشّنا به. ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾؛ أي:[3] مطرد دائم يأتي به على ممرّ الزمان، لا يكاد يختلف بحال كسائر أنواع السحر. فالاستمرار بمعنى الاطراد، يقال: اطّرد الشيء تبع بعضه بعضاً، وجرى. وهو يدل على أنهم رأوا قبله آيات أخرى مترادفة، حتى قالوا ذلك. وفيه تأييد أن انشقاق القمر قد وقع، لا أنه سينشق يوم القيامة، كما قاله بعضهم. وذلك لأنه لو لم يكن الانشقاق من جنس الآيات.. لم يكن ذكر هذا القول مناسباً للمقام. أو مطّرداً بالنسبة إلى جميع الأشخاص والبلاد، حيث رأوه منشقًّا. وقال الكسائي والفراء، واختاره النحاس[4]: إنَّ المراد بالمستمر: الذاهب الزائل عن قرب. إذ هم قد عللوا أنفسهم، ومنوها بالأماني الفارغة. وكأنّهم قالوا: إنَّ حاله ﷺ، وما ظهر من معجزاته إن هي إلا سحابة صيف عن قريب تقشع، ولكن هيهات هيهات.. فقد غرتهم الأماني. ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ

---

(1) الشوكاني.
(2) البحر المحيط.
(3) روح البيان.
(4) المراغي.

نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

ثم أكد ما سبق بقوله: ﴿وَكَذَّبُوا﴾؛ أي: بالنبي ﷺ، وما عاينوه من المعجزات التي أظهرها الله على يده. ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾؛ أي: شهواتهم التي زيّنها الشيطان لهم من رد الحق بعد ظهوره. أو كذبوا الآية التي هي انشقاق القمر، واتبعوا أهواءهم، وقالوا: سحر القمر أو سحر أعيننا، والقمر بحاله، ولم يصبه شيء، أو إنه خسوف في القمر، وظهور شيء من جانب آخر من الجو يشبه نصف القمر. فهذه أهواؤهم الباطلة اتبعوها لجهلهم وسخف عقولهم.

والخلاصة: أنهم كذّبوا النبيّ ﷺ، وتركوا حججه، وقالوا: هو كاهن، يقول عن النجوم، ويختار الأوقات للأفعال، وساحر يسترهب الناس بسحره إلى أشباه هذا من مقالاتهم التي تدل على العناد، وعدم قبول الحق. وذكرهما[1] بلفظ الماضي؛ أي: بعد «يعرضوا، ويقولوا» بلفظ المستقبل للإشعار بأنهما من عادتهم القديمة.

ثم سلى رسوله، وهدد المشركين بقوله: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ﴾ من الأمور ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾؛ أي: منته إلى غاية يستقر عليها لا محالة. ومن جملتها: أمر النبي ﷺ، فسيصير إلى غاية يتبين عندها حقيقته، وعلو شأنه. وإبهام المستقر عليه للتنبيه على كمال ظهور الحال، وعدم الحاجة إلى التصريح به. أو كل أمر من أمرهم، وأمره ﷺ مستقر؛ أي: سيثبت، ويستقر على حالة خذلان، أو نصرة في الدنيا، وشقاوة أو سعادة في الآخرة. فإن الشيء إذا انتهى إلى غايته ثبت واستقر. يعني: أن الاستقرار كناية عن ملزومه. وهو الانتهاء إلى الغاية. فإن عنده يتبين حقيقة كل شيء من الخير والشر، والحق والباطل، والهوى، والحجة. وينكشف جلية الحال، ويضمحل الشبه والالتباس؛ فإنّ الحقائق إنما تظهر عند العواقب. فهذا وعيد للمشركين، ووعد وبشارة للرسول والمؤمنين. ونظيره قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾؛ أي: كل نبأ وإن طالت مدته فلا بد أن ينتهي إلى غايته، وتنكشف حقيقته من حق أو باطل. وفي عين المعاني: وكل أمر وعدهم الله تعالى كائن في وقته، لأنه مستقر لا يزول.

---

(١) روح البيان.

والخلاصة[1]: أي وكل شيء ينتهي إلى غاية تشاكله، فأمرهم سينتهي إلى الخذلان في الدنيا، والعذاب الدائم في الآخرة. وأمرك سينتهي إلى النصر في الدنيا، والجنة في الآخرة. وهذه قاعدة عامّة تنضوي تحتها حركات الكواكب، والأفلاك، ونظم العمران، وأعمال الأفراد والأمم.

وقصارى ذلك: أنَّ أمر محمد ﷺ سيصل إلى غاية يتبين عندها أنه الحق، وأنَّ ما سواه هو الباطل. فقد جرت سنة الله بأن الحق يثبت والباطل يزهق بحسب ما وضعه في نظم الخليقة: البقاء للأصلح.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ بكسر القاف. وهو مرتفع على أنه خبر المبتدأ. وهو كل. وقرأ أبو جعفر. وزيد بن علي بجر ﴿مُسْتَقِرٍ﴾ على أنه صفة للأمر. وقرأ شيبة بفتح القاف، ورويت هذه القراءة عن نافع. قال أبو حاتم: ولا وجه لها. وقيل: لها وجه بتقدير مضاف محذوف؛ أي: وكل أمر ذو استقرار أو ذو زمان استقرار، أو ذو مكان استقرار على أنه مصدر أو ظرف زمان، أو ظرف مكان.

ثمّ ذكر أنهم في ضلال بعيد. فإنَّ ما جاء في القرآن من أخبار الماضين قد كان فيه مزدجر لهم لو كانوا يعقلون، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم﴾؛ أي: وعزّتي وجلالي.. لقد جاء أهل مكة، أو الكفار على العموم في القرآن ﴿مِّنَ الْأَنۢبَآءِ﴾؛ أي: من أنباء القرون الخالية، أو أنباء الآخرة، وما وصف من عذاب الكفّار. فالألف واللام[3] عوض عن المضاف إليه، و﴿من﴾ للتبعيض. وهو حال مما بعده.

﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾؛ أي: ازدجار وارتداع من تعذيب إن أريد بالأنباء: أنباء القرون الخالية، أو وعيد إن أريد أنباء الآخرة على أنه مصدر ميمي. ويجوز أن يكون اسم مكان؛ أي: جاءهم ما فيه موضع ازدجارٌ على أنّ ﴿فِي﴾ تجريدية؛ أي: أنه في نفسه موضع ازدجار، ومظنّة له كقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾؛ أي: هو في نفسه أسوة حسنة. وقرىء[4] ﴿مزّجر﴾ بإبدال تاء الافتعال زاياً وإدغام الزاي فيها. وقرأ زيد بن عليّ ﴿مزجر﴾ اسم فاعل من أزجر؛

---

(1) المراغي.

(2) الشوكاني.

(3) روح البيان.

(4) البحر المحيط.

أي: صار ذا زجر، كأعشب؛ أي: صار ذا عشب.

والمعنى: أي ولقد جاء هؤلاء المشركين الذين كذبوا بك، واتبعوا أهواءهم من الأخبار عن الماضين الذين كذبوا الرسل، فأحلَّ الله بهم من العقوبات ما قصه في كتابه ما يردعهم، ويزجرهم عما هم فيه من القبائح؛ إذ أبادهم في الدنيا، وسيعذبهم يوم الدين جاء وفاقاً لما دنسوا به أنفسهم من الشرك بربهم، وعصيان رسله، واجتراحهم للسيئات.

ثم بين الذي جاءهم به، فقال: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾؛ أي: هذه الأنباء حكمة بالغة غايتها متناهية في كونها حكمة، لا خلل ولا نقص فيها. أو قد بلغت الغاية في الإنذار، والنهي، والموعظة، والإرشاد إلى طريق الحق، لمن اتبع عقله وعصى هواه. وهو بدل من ﴿ما﴾، أو خبر لمحذوف.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ برفعهما، وجوزوا أن تكون ﴿حِكْمَةٌ﴾ بدلاً من ﴿مُزْدَجَرٌ﴾، أو من ﴿مَا﴾، أو خبر مبتدأ محذوف. وقرأ اليماني ﴿حكمةً بالغةً﴾ بالنصب فيهما حالاً من ﴿مَا﴾، سواء كانت موصولةً أم موصوفة تخصصت بالصفة.

﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ نفي للإغناء[2]. فمفعول ﴿تُغْنِ﴾ محذوف؛ أي: لم تغن النذر شيئاً. أو استفهام إنكار فما منصوبة على أنها مفعول مقدم لتغني؛ أي: فأي إغناء تغني النذر إذ خالفوا أو كذبوا؛ أي: لا تنفع. كقوله: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾. والنذر: جمع نذير بمعنى المنذر أو مصدر بمعنى الإنذار. والفاء لترتيب عدم الإغناء على مجيء الحكمة البالغة.

أي: إنَّ النذر والرسل[3] لم يبعثوا ليلجئوا الناس إلى قبول الحق، وإنما أرسلوا مبلغين فحسب. فليس عليك، ولا على الأنبياء قبلك الإغناء والإلجاء إلى اتباع سبيل الهدى. فإذا بلغت.. فقد أتيت بما عليك من الحكمة البالغة التي أمرت بها في نحو قوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ وتول عنهم بعدئذٍ.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾.

ثم أمر رسوله أن لا يجادلهم، ولا يناظرهم. فإن ذلك لا يجدي نفعاً فقال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾؛ أي: فأعرض يا محمد عن هؤلاء المشركين المكذّبين بك، ولا تحاجهم فإنهم قد بلغوا حدّاً لا يقنعون معه بحجة ولا برهان، فأحرى بك أن لا تلتفت إلى نصحهم وإرشادهم. فقد عييت بأمرهم، وبرمت بعنادهم. وهذه الآية منسوخة بآية السيف.

والظرف في قوله[1]: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ متعلق بـ ﴿يَخْرُجُونَ﴾ أو باذكر محذوفاً أو بقوله: ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ ويكون ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ اعتراضاً أو بقوله: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ﴾ أو بقوله: ﴿خُشَّعًا﴾. وهو يوم القيامة. والداعي إسرافيل عليه السلام، ينفخ في الصور قائماً على صخرة بيت المقدس، ويدعو الأموات، وينادي قائلاً: أيتها العظام البالية، واللحوم المتمزقة، والشعور المتفرقة إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء، أو إنَّ إسرافيل وجبريل يدعو وينادي بذلك. وعلى كلا القولين فالدعاء على حقيقته. وقال بعضهم: هو مجاز كالأمر في قوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾. يعني: أنَّ الدعاء في البعث والإعادة مثل: «كن» في التكوين والابتداء بأن لا يكون ثمة داع إسرافيل أو غيره، بل يكون الدعاء عبارة عن نفاذ مشيئته، وعدم تخلف مراده عن إرادته كما لا يتخلف إجابة دعاء الداعي المطاع.

يقول الفقير: الأولى بقاؤه على حقيقته؛ لأنَّ إسرافيل مظهر الحياة، وبيده الصور، والله تعالى ربط الأشياء بعضها ببعض، وإن كان الكل بإرادته ومشيئته، انتهى. وأصل ﴿يَدْعُ الدَّاعِ﴾: يدعو الداعي بالواو والياء، ولما حذفت الواو من ﴿يدعو﴾ في التلفظ لاجتماع الساكنين حذفت في الخط أيضاً اتباعاً للفظ، وأسقطت الياء من الداعي للاكتفاء بالكسرة تخفيفاً. قال بعضهم: حذفت الياء من الداعي مبالغة في التخفيف إجراء لأل مجرى ما عاقبها. وهو التنوين. فكما يحذف الياء مع التنوين كذلك مع ما عاقبه.

﴿إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾ بضمّتين، صفة على فعل، وقرىء[2] بسكون الكاف

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

وكلاهما بمعنى المنكر؛ أي: إلى شيء منكر فظيع، تنكره النفوس لعدم العهد بمثله. وهو هول يوم القيامة. ومنه: منكر ونكير لفتاني القبر؛ لأنه لم يعهد عند الميت مثلهما.

وقد جرت العادة أن من ينصح شخصاً لا يؤثر فيه النصح أن يعرض عنه، ويقول لغيره ما فيه نصح للمعرض عنه، وهدايته، وإرشاده لو أراد. وقرأ الجمهور[1] ﴿نُكُرٍ﴾ بضم الكاف. وهو صفة على فعل. وهو قليل في الصفات. ومنه: رجل شلل أي: خفيف في الحاجة، وناقة أحد، ومشية سجح، وروضة أنف. وقرأ الحسن، وابن كثير، وشبل بإسكان الكاف، كما قالوا: شغل وشغل، وعسر وعسر. وقرأ مجاهد، وأبو قلابة، والجحدري، وزيد بن عليّ ﴿نُكِرَ﴾ فعلاً ماضياً مبنياً للمفعول؛ أي: جهل فنكر.

ثم ذكر حال الكافرين في ذلك اليوم، فقال: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ حال من فاعل ﴿يَخْرُجُونَ﴾ والتقديم؛ لأنَّ العامل فعل متصرف. وفيه دليل عى بطلان مذهب الجرمي؛ لأنه لا يجوز تقدم الحال على الفعل، وإن كان متصرفاً. ﴿مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ جمع جدث، محركاً. هو القبر، أي: يخرجون من قبورهم حال كونهم أذلة أبصارهم من شدة الهول، خاضعة عند رؤية العذاب. والخشوع[2]: الضراعة، وأكثر ما يستعمل فيما يوجد في الجوارح. والضراعة أكثر ما تستعمل فيما يوجد في القلب. كما روي: إذا ضرع القلب.. خشعت الجوارح. وخصَّ الأبصار بالخشوع؛ لأنّه فيها أظهر منه في سائر الجوارح وكذلك سائر ما في نفس الإنسان من حياء أو خوف ونحوه إنما يظهر في البصر.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿خُشَّعًا﴾ جمع تكسير. وابن عباس، وابن جبير، ومجاهد والجحدري، وأبو عمرو، وحمزة والكسائي ﴿خاشعاً﴾ بالإفراد. وقرأ أبي، وابن مسعود «خاشعة». وجمع التكسير أكثر في كلام العرب. وقال الفراء، وأبو عبيدة: كله جائز، انتهى. وقرىء «خُشَّعٌ أبصارُهم» وهي جملة في موضع الحال و«خشع» خبر مقدم.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.

﴿كَأَنَّهُمْ﴾ لكثرتهم، واختلاط بعضهم ببعض ﴿جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾؛ أي: منبث في الأقطار، متفرق فيها، مختلط بعضه ببعض؛ أي: يخرجون من قبورهم ذليلة أبصارهم من هول ما يرون كأنهم في انتشارهم، وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعي جراد قد انتشر في الآفاق.

وجاء[1] تشبيههم في الآية الأخرى بالفراش في قوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝﴾. وهم يكونون أوّلاً كالفراش، حين يخرجون فزعين، لا يهتدون أين يتوجهون؛ لأن الفراش لا جهة لها تقصدها، ثم يكونون كالجراد المنتشر إذا توجهوا للحشر. فهما تشبيهان باعتبار وقتين. حكي ذلك عن مكي بن أبي طالب.

وقوله: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ حال أيضاً من فاعل ﴿يَخْرُجُونَ﴾؛ أي: يخرجون من الأجداث حال كونهم مسرعين إلى جهة الداعي والمنادي. وهو إسرافيل، مادي أعناقهم أو ناظرين إليه، لا يقلعون أبصارهم عنه.

وجملة قوله: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ منهم إما حال من ضمير ﴿مُّهْطِعِينَ﴾ أو من فاعل ﴿يَخْرُجُونَ﴾، والرابط مقدر كما قدرناه آنفاً، أو مستأنفة استئنافاً بيانيّاً واقعاً في جواب سؤال مقدر نشأ من وصف اليوم بالأهوال، وأهله بسوء الحال. كأنه قيل: فماذا يكون حينئذٍ؟ فقيل: يقول الكافرون ﴿هَٰذَا﴾ اليوم ﴿يَوْمٌ عَسِرٌ﴾؛ أي: صعب شديد علينا. فيمكثون بعد الخروج من القبور واقفين أربعين سنة كما روي، يقولون: أرحنا من هذا ولو إلى النار. ثم يؤمرون بالحساب. وفي إسناد القول المذكور إلى الكفار تلويح بأن المؤمنين ليسوا في تلك المرتبة من الشدة، بل ذلك اليوم يوم يسير لهم ببركة إيمانهم، وأعمالهم الصالحة؛ أي: مسرعين إلى الداعي، لا يخالفون، ولا يتأخّرون، ويقولون: هذا يوم شديد الهول سيء المنقلب. ونحو الآية قوله: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝﴾ وفي هذا إيماء إلى أنّه هين على المؤمن، لا عسر فيه، ولا مشقة.

(١) المراغي.

قصص قوم نوح عليه السلام

ثم ذكر سبحانه تفصيل بعض ما تقدم من الأنباء المجملة، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾؛ أي: قبل قومك يا محمد ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ نوحاً. فالمفعول محذوف. وهذا شروع في تعداد بعض الأنباء الموجبة للازدجار، وتسلية لرسول الله ﷺ ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ نوحاً عليه السلام. وهذا تفسير لذلك التكذيب المبهم أوّلاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ...﴾ إلخ. فالمكذب في المقامين واحد. والفاء تفسيرية، تفصيلية، تعقيبية في الذكر. فإن التفصيل يعقب الإجمال. وفيه مزيد تقرير وتأكيد. وقيل: المعنى: كذبت قوم نوح الرسل، فكذبوا عبدنا نوحاً بتكذيبهم للرسل. فإنه منهم.

وفي «فتح الرحمن»: إن قلت: ما فائدة إعادة التكذيب فيه؟

قلت: فائدته حكاية الواقع، وهو أنهم كذبوا تكذيباً بعد تكذيب، أو الأوّل تكذيبهم بالتوحيد، والثاني: بالرسالة، أو الأول تكذيبهم بالله، والثاني: برسول الله.

وفي ذكره بعنوان العبودية مع الإضافة إلى نون العظمة تفخيم له عليه الصلاة والسلام، ورفع لمحله، وزيادة تشنيع لمكذبيه. فإن تكذيب عبد السلطان أشنع من تكذيب عبد غيره. وفيه إشارة إلى أنه لا شيء أشرف من العبودية. فإن الذلة الحقيقية التي يقابلها مقام الربوبية مختصة بالله تعالى، فكذا العبودية مختصة بالعبد. وهي المرادة بالتواضع. وهي غير التملق. فإن التملق لا عبرة به.

﴿وَقَالُوا﴾ في حقه هو ﴿مَجْنُونٌ﴾ أو قالوا له: إنك مجنون. أي: لم يقتصروا على مجرد التكذيب، بل نسبوه إلى الجنون، واختلال العقل. وهو مبالغة في التكذيب. لأنَّ من الكاذبين من يخبر بما يوافق العقل، ويقبله. والمجنون لا يقول إلا ما لا يقبله العقل، ويأباه.

﴿وَازْدُجِرَ﴾ عطف[1] على ﴿قالوا﴾. فهو من كلام الله تعالى. أي: وزجر عن التبليغ بأنواع الأذية. مثل الشتم، والضرب، والخنق، والوعيد بالرجم. قال الراغب: ﴿وَازْدُجِرَ﴾؛ أي: طرد. واستعمال الزجر فيه لصياحهم بالمطرود، نحو أن

---

(١) روح البيان.

يقال: أغرب عنّي، وتنح، ووراءك.

وقيل: هو من جملة ما قالوه؛ أي؛ هو مجنون، وقد ازدجرته الجن، وتخبطته؛ أي: أفسدته، وتصرفت فيه، وذهبت بلبه، وطارت بقلبه. والأول أولى. وفيه إشارة إلى أن كل داعي حق لا بد وأن يكذب لكثرة أهل البطلان، وغلبة أهل البدع والأهواء والطغيان. وذلك في كل عصر وزمان؛ أي: فكذبوا عبدنا نوحاً، ونسبوه إلى الجنون، وزجروه، وتوعدوه لئن لم ينته.. ليكونن من المرجومين.

ثم بين أنه عيل بهم صبراً، وضاق بهم ذرعاً، فقال: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾؛ أي: لما زجروا نوحاً عند الدعوة، وبلغ مدة التبليغ تسع مئة وخمسين سنة دعا ربه ﴿أَنِّي﴾؛ أي: بأنّي ﴿مَغْلُوبٌ﴾ من جهة قومي، ما لي قدرة على الانتقام منهم ﴿فَٱنتَصِرْ﴾؛ أي: فانتقم لي منهم. وذلك بعد تقرّر يأسه منهم.

فقد روي: أنَّ الواحد منهم كان يلقاه فيخنقه، حتى يخر مغشياً، فيفيق، ويقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». فلما أذن الله له في الدعاء للإهلاك دعا. فأجيب كما قال في الصافات: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ۝٧٥﴾.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿أَنِّي﴾ بفتح الهمزة؛ أي: بأنّي. وقرأ ابن أبي إسحاق، والأعمش بكسرة الهمزة، ورويت هذه القراءة عن عاصم بتقدير إضمار القول؛ أي: فقال إنيّ.

والمعنى[2]: أي فدعا نوح ربه قائلاً: إن قومي قد غلبوني لتمردهم وعتوهم، ولا طاقة لي بهم، فانتصر منهم بعقاب من عندك على كفرهم بك.

وقصارى ذلك: انتصر لك ولدينك، فإني قد غلبت، وعجزت عن الانتصار لهما.

ثم أخبر سبحانه أنه أجاب دعاءه، وعاقبهم بقوله: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: طرق السماء ﴿بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾؛ أي: بماء كثير منصب انصباباً شديداً يقال: انهمر الماء إذا انسكب، وسال؛ أي: منصب انصباباً شديداً كما ينصب من أفواه القرب لم ينقطع أربعين يوماً. وكان مثل الثلج بياضاً وبرداً. وهو تمثيل لكثرة الأمطار،

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

وشدة انصبابها سواء جعلت الباء في قوله: ﴿بِمَآءٍ﴾ للاستعانة وجعل الماء كالآلة لفتح أبواب السماء، وهو ظاهر، أو للملابسة، قرأ الجمهور[1] ﴿فتحنا﴾ مخففاً. وقرأ ابن عامر، ويعقوب بالتشديد.

﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾؛ أي: جعلنا الأرض كلها كأنها عيون منفجرة؛ أي: جارية. وكان ماء الأرض مثل الحميم حرارة. وأصل الكلام: وفجرنا عيون الأرض. فغير عن المفعولية إلى التمييز قضاء لحقّ المقام من المبالغة؛ لأنّ قولنا: فجرنا عيون الأرض يكفي في صحة تفجر ما فيها من العيون، ولا مبالغة فيه، بخلاف فجرنا الأرض عيوناً فإنّ معناه: فجرنا أجزاء الأرض كلها بجعلها عيون الماء. ولا شك في أنه أبلغ. وقرأ الجمهور[2] ﴿وَفَجَّرْنَا﴾ بتشديد الجيم. وعبد الله، وأصحابه، وأبو حيوة، والمفضل عن عاصم بالتخفيف. قال عبيد بن عمير: أوحى الله إلى الأرض أن تخرج ماءها، فتفجرت بالعيون.

﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾؛ أي: ماء السماء، وماء الأرض، وارتفع على أعلى جبل في الأرض ثمانين ذراعاً. والإفراد حيث لم يقل: الماءان لتحقيق أنَّ التقاء الماءين.. لم يكن بطريق المجاورة والتقارب، بل بطريق الالتقاء والاتحاد.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾. وهو اسم جنس. وقرأ عليّ بن أبي طالب، والحسن، ومحمد بن كعب، والجحدري ﴿الماءان﴾. وقرأ الحسن أيضاً ﴿الماءان﴾. وقال الزمخشري: وقرأ الحسن ﴿ماوان﴾ بقلب الهمزة واواً، كقوله: علباوان، انتهى. شبه الهمزة التي هي بدل من هاء في الماء بهمزة الإلحاق في علباء. وعن الحسن أيضاً ﴿المايان﴾ بقلب الهمزة ياء. وفي كلتا القراءتين شذوذ.

حالة كون الماء كائناً ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾؛ أي: على حالة ورتبة قد فصلت في الأزل. وقيل: على مقادير قد رتبت وقت التقائه. فروي: أن ماء الأرض كان على سبعة عشر ذراعاً، ونزل ماء السماء على تكملة أربعين ذراعاً. وقيل: كان ماء الأرض أكثر. وقيل: كانا متساويين نزل من السماء قدر ما خرج من الأرض.

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

(٣) البحر المحيط.

وقيل: على أمرٍ قد قدر في اللوح المحفوظ أنه يكون. وهو هلاك قوم نوح عليه السلام بالطوفان. وهذا هو الراجح؛ لأن كل قصة ذكرت بعد هذه القصة ذكر الله هلاك مكذبي الرسل فيها. فيكون هذا كناية عن هلاك قوم نوح، ولذلك ذكر نجاة نوح بعدها في قوله: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾ فكلمة ﴿عَلَىٰٓ﴾ هذا للتعليل؛ أي: التقى الماء لأجل أمر قد قدره الله في الأزل. وهو هلاكهم بالطوفان.

يقول الفقير: إنما وقع[1] العذاب بالطوفان العام؛ لأنَّ الماء إشارة إلى العلم، فلما لم ينتفعوا بعلم نوح عليه السلام في المدة الطويلة، ولم تغرق أرواحهم فيه أخذوا بالماء، حتى غرقت أجسادهم. وتأثير الطوفان يظهر في كل ثلاثين سنة مرة واحدة، لكن على الخفة. فيقع مطر كثير، ويغرق بعض القرى، والبيوت من السيل. وقرأ أبو حيوة ﴿قُدِّر﴾ بتشديد الدال، والجمهور بتخفيفها.

والخلاصة[2]: أنّ الله أرسل ماء السحاب مدراراً، وأخرج من الأرض ماء ثجاجاً، فالتقى الماءان، فأحدثا طوفاناً على وجه الأرض، فأغرق به قوم نوح، ونجا نوحاً بركوب سفينته التي بناها، كما أشار إلى ذلك في هود بالتفصيل.

وأشار إليه هنا بقوله: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ﴾؛ أي: نوحاً ومن آمن معه ﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ﴾؛ أي: على سفينة صاحبة أخشاب عريضة. فإن الألواح جمع لوح. وهو كل صحيفة عريضة خشباً أو عظماً. وكانت سفينة نوح من ساج. وهو شجر عظيم ينبت في أرض الهند.

﴿وَدُسُرٍ﴾؛ أي: ومسامير. جمع دسار[3]، من الدسر. وهو الدفع الشديد، سمي به المسمار؛ لأنه يدسر به منفذها؛ أي: يدفع. قال في «عين المعاني»: دسرت بها السفينة؛ أي: شدت، أو لأنّها تدسر أي: تدفع بالدقّ. فقوله: ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ صفة للسفينة، أقيمت مقامها بأن يكنى بها عنها كما يكنى عن الإنسان بقولهم: هو مستوي القامة عريض الأظفار.

أي: وأنقذناه من الطوفان، فحملناه على سفينة ذات خشب ومسامير. وفي

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

سورة العنكبوت: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾. وفي هذا إيماء إلى أنه تعالى يوجد الأسباب لتحقيق ما يريد من المسببات بحسب السنن التي وضعها في الخليقة، وأنه يمهل الظالمين ولا يهملهم كما جاء في الحديث: «إنّ ربك لا يهمل، ولكن يمهل».

ثم أشار إلى أنه كان محروساً بعناية الله، وكلاءته فقال: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾؛ أي: تجري السفينة، وتسير بمرأى منا؛ أي: محفوظة بحفظنا. وقيل: محفوظة بأعين أوليائنا من الملائكة الموكلين بحفظها. وقيل: تجري بأعيننا؛ أي: بأمرنا، وقدرتنا. وقيل: تجري بأعيننا النابعة من الأرض. وقرأ الجمهور[1] ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ بالفكّ. وقرأ زيد بن علي، وأبو السمّال ﴿بِأَعْيُنَّا﴾ بالإدغام.

وقوله: ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ مفعول له لما ذكر من فتح أبواب السماء وما بعده؛ أي:[2] فعلنا ذلك المذكور أجراً وثواباً لنوح؛ لأنه كان نعمة كفروها. فإن كل نبي نعمة من الله على أمته أي نعمة، ورحمة أي رحمة. وكان نوح نعمة مكفورة.

ومن هذا المعنى ما حكي: أنَّ رجلاً قال لهارون الرشيد: الحمد لله عليك، فقال: ما معنى هذا الكلام؟ فقال: أنت نِعَمٌ حمدت الله عليها. وقال الفراء: فعلنا به وبهم ما فعلنا من إنجائه، وإغراقهم ثواباً لمن كان كفر به، وجحد أمره، وهو نوح عليه السلام، فإنه كان لهم نعمة كفروها، فانتصاب ﴿جَزَآءً﴾ على العلة. وقيل: على المصدرية بفعل مقدر؛ أي: جازيناهم جزاء.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿كُفِرَ﴾ مبنياً للمفعول. والمراد به: نوح، وقيل: هو الله سبحانه، وقرأ مسلمة بن محارب بإسكان ﴿الفاء﴾ خفف فعل، كما قال الشاعر:

لَــوْ عُــصْــرَ مِــنْــهُ ٱلْــبَــا نُ وَٱلْــمِــسْــكُ ٱنْــعَــصَــرْ

يريد لو عصر. وقرأ زيد بن رومان، وقتادة، وعيسى، ومجاهد، وحميد ﴿كَفَرَ﴾ بفتح الكاف والفاء مبنياً للفاعل. فـ﴿من﴾ يراد به: قوم نوح؛ أي: إنّ ما

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

نشأ من تفتيح أبواب السماء بالماء، وتفجير عيون الأرض، والتقاء الماءين من غرق قوم نوح عليه السلام كان جزاء لهم على كفرهم.

والمعنى: أي تجري محفوظة بحراستنا، فقد كانت بمرأى منّا، فنحن نكلؤها ونرعاها كما يرعى المرء ما يراه بعينه، ويقع تحت سمعه وبصره. ويقول القائل إذا وصى آخر بأمر، وشدد عليه: اجعله نصب عينيك؛ أي: اهتم به، ولا تهمله. ثم بين أن هذا هو الجزاء العادل على سوء صنيعهم، وكفرهم بربهم، فقال: ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾؛ أي: فعلنا ذلك بهم جزاء كفرهم بآياتنا، وجحودهم بنعمائنا، وتكذيبهم برسولنا.

ثم ذكر أنه أبقى السفينة عبرة لمن بعدهم على كر الدهور والأعوام، فقال: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي.. لقد تركنا، وصيرنا هذه السفينة ﴿ءَايَةً﴾ وعبرة لمن يعتبر بها ممن يقف على خبرها. وقال قتادة: أبقيناها دهراً طويلاً حالة كونها آية، وعبرة لمن يعتبر بها. أبقاها بباقردى من بلاد الجزيرة. وقيل: على الجودي دهراً طويلاً، حتى نظر إليها أوائل هذه الأمّة. وكم من سفينة كانت بعدها قد صارت رماداً.

وفي «تفسير أبي الليث»: قال بعضهم: يعني: أنَّ تلك السفينة كانت باقية على الجبل قريباً من خروج النبيّ ﷺ. وقيل: بقيت خشبة من سفينة نوح هي في الكعبة الآن. وهي ساجة غرست، حتى ترعرت أربعين سنة، ثم قطعت، فتركت حتى يبست أربعين سنة. وقيل: بقي بعض خشبها على الجودي إلى هذه الأوقات.

يقول الفقير: لعل بقاء بعض خشبها لكونها آية وعبرة، وإلا فهو ليس بأفضل من أخشاب منبر نبيّنا محمد ﷺ في المدينة. وقد احترقت، أو أكلتها الأرضة، فاتخذت مشطاً، ونحوه مما يتبرك به، ألا ترى أن مقام إبراهيم عليه السلام مع كونه حجراً صلداً لم يبق أثره بكثرة مسح الأيدي، ثم لم يبق نفسه أيضاً على ما هو الأصح والمعروف بالمقام الآن هو مقام ذلك المقام، فاعرف.

وقال بعضهم: جنس السفينة صارت عبرة؛ لأنَّ الناس لم يعرفوا قبل ذلك سفينة واتخذوا السفن بعد ذلك في البحر، فلذلك كانت آيةً للناس. يقول الفقير: كيف يعرفونها؟ ولم يكن في الدنيا قبل الطوفان إلا البحر المحيط. وذلك أن الله

تعالى أمر الأرض بعد الطوفان فابتلعت ماءها، وبقي ماء السماء لم تبتلعه الأرض. فهذه البحور على وجه الأرض منها، وأما البحر المحيط، فغير ذلك، بل هو جرز عن الأرض، حين خلق الله الأرض من زبده. وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «وكان عرشه على الماء»؛ أي؛ العذب. والبحور سبعة. منها: البحر المحيط. وبعضهم لم يعد منها البحر المحيط، بل هو غير السبعة. وكان نوح عليه السلام نجاراً، فجاء جبريل، وعلمه صنعة السفينة.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؛ أي: من معتبر بتلك الآية الحقيقة بالاعتبار، فيخاف من الله، ويترك المعصية. وأصله: مذتكر بوزن مفتعل، كما سيأتي في مبحث التصريف؛ أي: فهل من متعظ ومعتبر يتعظ بهذه الآية ويعتبر بها.

والمعنى[1]: أي ولقد جعلنا السَّفينة التي حملنا فيها نوحاً ومن معه عبرة لمن بعده من الأمم ليدبروا، ويتعظوا، ويرعووا أن يسلكوا مسلكهم، وينهجوا منهجهم في الكفر بالله، وتكذيب رسله. فيصيبهم مثل ما أصابهم من العقوبة. وقد رووا أنَّ الله حفظها آماداً طويلة بأرض الجزيرة على جبل الجودي، كما مر. فهل من معتبر بتلك الآية الحرية بالاعتبار، الجديرة بطويل التفكير والتأمل في عواقب المكذبين برسل الله، الجاحدين بوحدانيته المتخذين له الأنداد والأوثان.

ثم بين سبحانه شديد نكاله، وعقابه فقال: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى﴾ الذي عذبتهم به. ﴿وَنُذُرِ﴾؛ أي: وكيف كان عاقبة إنذاري إياهم على لسان رسولي نوح عليه السلام؟ أي: كانا على كيفية هائلة، وحكمة بالغة، لا يحيط بها الوصف. والاستفهام فيه للتعظيم، والتهويل، والتعجيب. والنذر: جمع نذير بمعنى إنذار، كالنكر جمع نكير بمعنى إنكار. وأصله: نذري بالياء، حذفت اكتفاء عنها بالكسرة رعاية للفاصلة، ووحَّد[2] العذاب وجمع الإنذارات إشارة إلى غلبة الرحمة على العذاب، لأنَّ الإنذار إشفاق ورحمة، فقال: فكيف إنذارتي التي هي نعم ورحمة تواترت عليهم. فلما لم تنفع تلك الإنذارات وقع العذاب عليهم وقعة واحدة، فكانت كثيرة، والنقمة واحدة.

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

وقيل المعنى[1]: فانظر يا محمد كيف كان عذابي عليهم؟ وكيف كان حال منذري لمن أنذرهم نوح فلم يؤمنوا. ثم إنه تعالى لما أجاب دعوة نوح بأن أغرقهم أجمعين قال استعظاماً لذلك العقاب، وإيعاداً لمشركي مكة: فكيف كان عذابي الذي عذبتهم به، وكيف كان عاقبة إنذاري، اهـ زاده.

والمعنى: أي ما أشد ما أنزلته بهم من البوار والهلاك، وما أفظع إنذاري لهم بما أحللته بهم من النقمة بعد النعمة، وهكذا عاقبة كل مكذب جبار. ولا يخفى ما في هذا من شديد الوعيد، وعظيم التهديد لكل باغ عنيد ساخط على الرسل، مكذب بربه.

والخلاصة: انظر كيف كان عذابي لمن كفر بي، وكذب رسلي؟ وكيف انتصرت منهم لهم، وأخذت أعدائهم بما يستحقون.

ثم ذكر أن هذا القصص، وأمثاله إنما ذكر للعبرة، لا ليكون قصصاً تاريخياً يتلى، فقال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ﴾ إلخ، جملة قسمية، وردت في أواخر القصص الأربع تنبيهاً على أن كل قصة منها مستقبلة بإيجاب الإدّكار، كافية في الازدجار، ومع ذلك لم تقع واحدة في حيز الاعتبار؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد سهلنا القرآن لقومك بأن أنزلناه على لغتهم، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ ووشحنا فيه بأنواع المواعظ والعبر، وصرفنا فيه من الوعد والوعيد. ﴿لِلذِّكْرِ﴾؛ أي: للتذكير والاتعاظ. وعن الحسن عن النبي ﷺ: «لولا قول الله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ لما أطاقت الألسن أن تتكلم به». وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله عز وجل.

أي: ولقد سهلنا لفظه، ويسرنا معناه، وملأناه بأنواع العبر والمواعظ ليتعظ به من شاء، ويتدبر من أراد. ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (55)﴾.

﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾؛ أي: فهل من متعظ به مزدجر عن معاصيه، أي: ما أقل من تذكر به، واتعظ بأمره ونهيه. فهو استفهام إنكار، ونفي للمتعظ على أبلغ وجه

---

(1) تنوير المقباس.

وآكده. قال أبو بكر الوراق: فهل من طالب خير وعلم فيعان عليه. وفيه[1] الحث على تعليم القرآن، والاشتغال به، لأنَّه قد يسره الله، وسهله على من شاء من عباده بحيث يسهل حفظه للصغير والكبير، والعربي والعجمي، وغيرهم.

قال في «برهان القرآن»: قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ إلخ، ختم به قصة نوح، وعاد، وثمود، ولوط لما في كل واحدة منها من التخويف، والتحذير، وما حل بهم ليتعظ به حافظ القرآن وتاليه، ويعظ غيره، انتهى.

وفي «الفتوحات»: وفائدة تكرير هاتين الآيتين مع كل قصة أن يجددوا عند سماع كل نبأ اتعاظهم. وهذا حكم التكرير في ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ عند كل نعمة عدها، و﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ عند كل آية أوردها. وكذا تكرير القصص لتكون العبرة حاضرة مصورة للأذهان غير منسية في كل أوان، اهـ عمادي.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿مُّدَّكِرٍ﴾ بإدغام الذال المعجمة في الدال المهملة المبدلة من تاء الافتعال. وقرأ قتادة فيما نقل ابن عطية بالذال، أدغمه بعد قلب الثاني إلى الأول. وقال صاحب كتاب «اللوامح»: قرأ قتادة ﴿فهل من مذّكر﴾ اسم فاعل من التذكير؛ أي: من يذكر نفسه أو غيره بما مضى من القصص، انتهى. وقرىء ﴿مذتكر﴾ على الأصل.

قصة عاد قوم هود عليه السلام

تقدمت قصة عاد مطولة ومتوسطة، وهنا ذكرها الله تعالى موجزة كما ذكر قصة نوح موجزة. ولما لم يكن لقوم نوح علم.. ذكر قوم مضافاً إلى نوح. ولما كانت عاد علماً لقوم هود ذكر العلم؛ لأنه أبلغ في الذكر من التعريف بالإضافة، ذكره أبو حيان.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾؛ أي: هوداً عليه السلام، ولم يتعرض إلى كيفية تكذيبهم له روماً للاختصار، ومسارعة إلى بيان ما فيه الازدجار من العذاب. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾ لهم ﴿و﴾ كيف كان ﴿نذر﴾؛ أي: إنذاري لهم. فالنذر جمع نذير بمعنى الإنذار. والغرض من هذا توجيه قلوب السامعين، نحو الإصغاء إلى ما يلقى إليهم قبل ذكره، وتهويله، وتعظيمه، وتعجيبهم من حاله بعد بيانه كما فيما قبله وما بعده.

---

(١) الخازن.

(٢) البحر المحيط.

كأنه قيل: كذّبت عاد فهل سمعتموهم، أو فاسمعوا كيف كان عذابي لهم، وإنذاري إيّاهم.

فإن قيل: لِمَ لَمْ يقل هنا: فكذبوا هوداً كما قال في قصة نوح: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾؟

أجيب: بأن تكذيب قوم نوح أبلغ لطول مقامه فيهم وكثرة عنادهم. وإما لأن قصة عاد ذكرت مختصرة، اهـ خطيب.

والمعنى: أي كذبت عاد نبيهم هوداً عليه السلام، فيما أتاهم به عن الله كما كذبت قوم نوح من قبلهم نبيهم. فانظروا يا معشر قريش كيف كان عذابي إياهم، وعقابي لهم على كفرهم بالله، وتكذيبهم رسوله هوداً، وإنذاري من سلك سبيلهم، وتمادى في الغيّ والضلال بحلول مثل ذلك العقاب به.

ثم فصل ما أجمله أولاً بقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا﴾ وسلطنا ﴿عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾؛ أي: ريحاً باردة أو شديدة الصوت والهبوب. وهي ريح الدبور. والصرصر من الصر. وهو البرد، أو من صر الباب إذا صوت. ﴿فِي يَوْمِ﴾ ذي ﴿نَحْسٍ﴾ وشؤم عليهم ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ صفة ليوم أو نحس، أي: مستمر شؤمه عليهم أوابد الدهر. فإن الناس يتشاءمون بأربعاء آخر الشهر.

قال ابن الشيخ[1]: واشتهر بين بعض الناس التشاؤم بالأربعاء الذي يكون في آخر الشهر بناءً على قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾. ومعلوم: أنه ليس المراد أنه نحس على المصلحين بل على المفسدين، حيث لم تظهر نحوسته في حق الأنبياء والمؤمنين. وفي «الروضة»: الأربعاء مشؤوم عندهم، والذي لا يدور وهو آخر أربعاء في الشهر أشأم. وعن ابن عباس يرفعه «آخر أربعاء في الشهر يوم نحس مستمر». قال الشاعر:

لِقَاؤكَ لِلْمُبَكِّرِ فَالُ سُوْءٍ ... وَوَجْهُكَ أَرْبِعَاءٌ لاَ يَدُورُ

والمعنى: مستمر عليهم شؤمه ونحوسته أزمنة ممتدة إلى أن أهلكهم. فاليوم بمعنى الحين، وإلا فاليوم الواحد لا يمكن أن يستمر سبع ليال وثمانية أيام. والاستمرار على هذا الوجه بحسب الزمان. أو المعنى شامل لجميعهم، كبيرهم،

---

(١) روح البيان.

وصغيرهم. فالمستمر بمعنى المطرد بالنسبة إلى الأشخاص، أو مشتد مرارته؛ أي: بشاعته. وقيل: هو من المرة بمعنى القوة؛ أي: في يوم قويّ الشؤم مستحكمه كالشيء المحكم الفتل الذي لا يطاق نقضه. والظاهر[1]: أنه من الاستمرار، لا من المرارة، ولا من المرة؛ أي: دام عليهم عذابه حتى أهلكهم وشمل بهلاكه كبيرهم وصغيرهم. وكان ابتداؤه يوم الأربعاء آخر الشهر إلى غروب الأربعاء الآخر. وروي: أنه كان آخر أيامهم الثمانية في العذاب يوم الأربعاء، وكان سلخ صفر. وهي الحسوم في سورة الحاقّة؛ أي: المتتابعة.

والمعنى[2]: إنّا بعثنا إلى عاد إذ تمادوا في طغيانهم وكفرهم بربهم ريحاً شديدة العصوف في برد، لصوتها صرير في زمن شؤم ونحس عليهم. إذ ما زالت مستمرة حتى أهلكتهم. ونحو الآية قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾، وقوله: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾؛ أي: متتابعة.

تنبيه: وما روي عن شؤم بعض الأيام فلا يصح شيء منه. فالأيام كلها لله، لا ضرر فيها لذاتها، ولا محذور منها، ولا سعد فيها، ولا نحس. فما من يوم يمر إلا وهو سعد على قوم ونحس على آخرين باعتبار ما يحدثه الله فيه من الخير والشرّ لهم. فكل منها يتصف بالأمرين.

أَلا إِنَّــمَــا الأَيَّــامُ أَبْــنَــاءُ وَاحِــدِ   وَهَــذِيْ الــلَّــيَــالِـيْ كُــلُّــهَــا أَخَــوَاتُ

وتخصيص كل يوم بعمل كما يزعم بعض الناس، وينسبون في ذلك أبياتاً إلى علي كرم الله وجهه لا يصح منه شيء.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ بإضافة يوم إلى نحس. وقرأ الحسن بتنوين ﴿يوم﴾ وكسر الحاء على أن ﴿نَحِسٍ﴾ صفة له. وقرأ هارون بكسر الحاء. وقال أبو حيان: والذي يظهر أنه ليس يوماً معيناً، بل أريد به الزمان والوقت كأنه قيل: في وقت نحس. ويدل على ذلك أنّه قال في سورة فصلت: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾، وقال في الحاقة: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾. إلا أن يكون ابتداء الريح في يوم الأربعاء، فعبر بوقت الابتداء. وهو يوم الأربعاء. فيمكن الجمع بينها.

وجملة قوله: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ في محل نصب على أنّها صفة لـ ﴿رِيحًا﴾ أي: ريحاً تقلعهم، أو حال منها. ويجوز أن يكون استئنافاً؛ أي: تقلع الناس من الأرض من تحت أقدامهم اقتلاع النخلة من أصلها. روي: أنهم دخلوا الشعاب والحفر، وتمسك بعضهم ببعض، فنزعتهم الريح، وصرعتهم موتى. وقال مقاتل: تنزع أرواحهم من أجسادهم، وقال السهيلي: دامت عليهم سبع ليال وثمانية أيّام، كيلا ينجو منهم أحد ممن هو في كهف أو سرب. فأهلكت من كان ظاهراً بارزاً، وانتزعت من البيوت من كان في البيوت، أو هدمتها عليهم، وأهلكت من كان في الكهوف والأسراب بالجوع والعطش. ولذلك قال: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾؛ أي: فهل يمكن أن يبقى بعد هذه الثمانية الأيّام باقية منهم.

وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ﴾ وأصول ﴿نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾؛ أي: منقلع من الأرض. حال[1] من الناس؛ أي: تنزع الناس حال كونهم شبيهين بأصول نخل منقلع من مغارسه. قيل: شبهوا بأعجاز النخل، وهو أصولها بلا فروع؛ لأنَّ الريح كانت تقلع رؤوسهم، فتبقى أجساداً وجثثاً بلا رؤوس. وقال بعضهم: كانت الريح تقلعهم، وتصرعهم على رؤوسهم. فتدق رقابهم، فيبين الرأس من الجسد. وفيه إشارة إلى قوتهم وثباتهم في الأرض. فكأنهم بحسب قوتهم وجسامتهم يجعلون أرجلهم غائرة نافذة في الأرض، ويقصدون به المقاومة على الريح، ثم إن الريح لما صرعتهم فكأنها قلعت أعجاز نخل منقعر. وقال أبو الليث: صرعتهم، وكبتهم على وجوههم كأنهم أصول نخل منقلعة من الأرض. فشبههم لطولهم بالنخل الساقطة، وقرأ أبو نهيك ﴿أَعْجُزُ﴾ على وزن أفعل، نحو: ضبع وأضبع، ذكره أبو حيان. قال مقاتل[2]: كان طول كل واحد منهم اثني عشر ذراعاً، وقال في رواية الكلبيّ: كان طول كل واحد منهم سبعين ذراعاً. فاستهزؤوا حين ذكر لهم الريح، فخرجوا إلى الفضاء، وضربوا بأرجلهم الأرض، وغيبوها فيها إلى قريب من الركبة، فقالوا قالاً

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

للريح حتى ترفعنا فجاءت الريح، فدخلت تحت الأرض، وجعلت ترفع كل اثنين، وتضرب أحدهما بالآخر بعد ما رفعتهما في الهواء، ثم تلقيهما في الأرض، والباقون ينظرون إليهما، حتى رفعتهم كلهم، ثم رمت بالرمل والتراب عليهم. وكان يسمع أنينهم من تحت التراب كذا وكذا يوماً.

فائدة: ذكّر[1] وصف النخل هنا، حيث قال ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾، وأنثه في الحاقة، حيث قال: ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ رعاية للفواصل في الموضعين. وجاز فيه الأمران؛ لأنّه نظر إلى لفظ النخل تارةً، فذكره، وإلى معناه أخرى فأنثه. نظير قوله تعالى: ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾، ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ﴾.

وفي الآية إيماء[2] إلى أن الريح كانت تقتلع رؤوسهم، فتبقي الأجسام، ولا رؤوس لها، وإلى أنهم كانوا ذوي جثث عظام طوال كالنخل، وإلى أنهم أعملوا أرجلهم في الأرض، وقصدوا بذلك مقاومة الريح، وإلى أن الريح جعلتهم كأنهم خشب يابسة لشدة بردها.

ثم هول من أمر العذاب والإنذار بعد بيانهما، فقال: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٦﴾؛ أي: فانظروا كيف كان عذابي لهم، وإنذاري إياهم. وقد كرره تعظيماً لشأنهما، وتعجيباً من أمرهما.

وهذا سنة في بليغ الكلام في باب النصح والإرشاد، وباب الوعد والوعيد. وقال في «برهان القرآن»: أعاد في قصة عاد ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٦﴾ مرتين؛ لأنَّ الأول في عذاب الدنيا، والثاني في عذاب الآخرة، كما قال في قصتهم في آية أخرى: ﴿لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ﴾. وقيل: الأول لتحذيرهم قبل هلاكهم، والثاني لتحذير غيرهم بعد هلاكهم، انتهى.

﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾؛ أي: سهلنا لفظه، ويسرنا معناه ﴿لِلذِّكۡرِ﴾؛ أي: ليتذكر به من شاء، ويتدبر فيه من أراد. ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾؛ أي: فهل من متعظ به، مزدجرٍ عن معاصي الله سبحانه.

---

(١) فتح الرحمن.
(٢) المراغي.

وإنما كرر هذه الآية في هذه السورة للتنبيه والإفهام[1].

وقيل: إن الله سبحانه اقتص في هذه السورة على هذه الأمة أنباء الأمم، وقصص المرسلين، وما عاملهم به الأمم، وما كان من عقبى أمورهم وأمور المرسلين، فكان في كل قصة ونبأ ذكر للمستمع؛ أي: لو تذكر. وقيل: إنما كرر هذه الآية عند كل قصة بقوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؛ لأنّ كل كلمة استفهام تستدعي أفهامهم التي ركبت في أجوافهم، وجعلها حجة عليهم. فاللام من ﴿هل﴾ للاستعراض، والهاء للاستخراج، قاله أبو بكر الوراق.

فائدة: ثم اعلم[2]: أن حكمة هلاك عاد بالريح اعتمادهم على قوتهم، والريح أشد الأشياء قوة. فاستأصلهم الله تعالى بها، حتى يحصل الاعتبار لمن بعدهم من القرون، فلا يعتمدوا على قواهم. وفيه إشارة إلى أن الريح هو الهواء المتحرك، فالخلاص من ذلك الهواء إنما هو بترك الهوى، ومتابعة الهدى، نسأل الله سبحانه من فضله ذلك.

قصة ثمود قوم صالح عليه السلام

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾؛ أي: بالإنذارات والمواعظ التي سمعوها من صالح عليه السلام، أو كذبوا بالرسل الذين بعثهم الله لخلقه، وهم وإن كذبوا صالحاً فحسب، لكن تكذيبه تكذيب لهم جميعاً لاتفاقهم على الأصول العامة للتشريع، وهي التوحيد، ومجيء الرسل، واليوم الآخر.

ثم فصل تكذيبهم، وحكى عنهم مقالهم فقال: ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ في تكذيبه ﴿أ﴾ نتبع ﴿بشراً﴾؛ أي: آدميًا لا ملكاً ﴿مِّنَّا﴾؛ أي: كائناً من جنسنا. وانتصابه بفعل يفسّره ما بعده. فأداة الاستفهام داخلة على الفعل، وإن كان تقديراً كما هو الأصل. ﴿وَٰحِدًا﴾؛ أي: منفرداً لا تبع له، أو واحداً من آحادهم، لا من أشرافهم. وتأخير[3] هذه الصفة عن ﴿مِّنَّا﴾ للتنبيه على أن كلا من الجنسية والوحدة مما يمنع الاتباع، ولو قدمت عليه.. لفاتت هذه النكتة. ﴿نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ في أمره ﴿إِنَّآ إِذًا﴾؛ أي:

---

(١) الفتوحات.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

على تقدير اتباعنا له. وهو منفرد ونحن أمة، وأيضاً ليس بملك لما كان في اعتقاد الكفرة من التنافي بين الرسالة والبشرية ﴿لَّفِى ضَلَٰلٍ﴾ وخطأ عن الصواب والحق ﴿وَسُعُرٍ﴾؛ أي: جنون. فإن ذلك بمعزل عن مقتضى العقل.

والاستفهام في قوله: ﴿أَبَشَرًا﴾ للإنكار؛ أي: كيف نتبع بشراً كائناً من جنسنا منفرداً وحده، لا متابع له على ما يدعو إليه. وقيل: كان يقول لهم: إن لم تتبعوني.. كنتم في ضلال عن الحق وسعر؛ أي: نيران، جمع سعير. فعكسوا عليه لغلبة عتوّهم، فقالوا: إن اتبعناك كنا إذن كما تقول، وقال الزمخشري: فإن قلت: كيف أنكروا أن يتبعوا بشراً منهم واحداً؟

قلت: قالوا: ﴿أَبَشَرًا﴾ إنكاراً لأن يتبعوا مثلهم في الجنسية، وطلبوا أن يكون من جنس أعلى من جنس البشر، وهم الملائكة. وقالوا: ﴿مِّنَّا﴾ لأنه إذا كان منهم كانت المماثلة أقوى. وقالوا: ﴿وَٰحِدًا﴾ إنكاراً لأن تتبع الأمة رجلاً واحداً. وأرادوا من أبنائهم ليس بأشرفهم، ولا أفضلهم. ويدل عليه قوله: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ انتهى.

وقرأ الجمهور[1]: بنصب ﴿أَبَشَرًا﴾ على الاشتغال. وقرأ أبو السمال، والداني، وأبو الأشهب، وابن السميقع بالرفع على الابتداء. و﴿واحدٌ﴾ صفته، و﴿نتبعه﴾ خبره. وروي عن أبي السمال: أنه قرأ برفع ﴿بشرا﴾، ونصب ﴿واحداً﴾ على الحال.

والمعنى: أي[2] أنتبع واحداً من الدهماء، لا من علية القوم، ولا من أشرافهم، وليس له ميزة عن امرىء منا بعلم ظاهر، ولا ثروة وغنى تجعله يدعي أن يكون الزعيم لنا إنا لو اتبعناه نكون قد ضللنا الصراط السوي، وجانبنا الصواب، وصرنا لا محالة إلى الجنون الذي لا يرضى به عاقل لنفسه.

ثم بالغوا في العتو والإنكار، وتعجبوا من أمره، ونسبوه إلى الاختلاق والكذب، فقالوا: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ﴾؛ أي: أأنزل الكتاب، والوحي ﴿عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ وفينا من هو أحق منه بالاختيار للنبوة، والاستفهام فيه للإنكار و﴿مِنۢ بَيْنِنَا﴾ حال من ضمير ﴿عَلَيْهِ﴾؛ أي: أخص بالرسالة منفرداً من بين آل ثمود، والحال أنَّ فيهم من

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

هو أكثر مالاً، وأحسن حالاً منه. ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾؛ أي: بطر بوزن فرح، اسم فاعل؛ أي: ليس الأمر كذلك، بل هو كذا، وكذا حمله بطره على الترفع علينا بما ادعاه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿أَشِرٌ﴾ بوزن فرح بكسر العين، اسم فاعل. وقرأ أبو قلابة وأبو جعفر، وقتادة ﴿بل هُوَ الكَذَّابُ الأَشَرُّ﴾ بلام التعريف فيهما، وبفتح الشين وتشديد الراء، على أنه أفعل تفضيل، وإتمام خير وشر في أفعل التفضيل قليل. ونقل الكسائي عن مجاهد: أنه قرأ بضم الشين مع فتح الهمزة.

والمعنى: أي أأنزل عليه الوحي من بيننا، وأوتي النبوة، وهو واحد منّا، ولم اختصه الله سبحانه بإنزال الشرائع عليه. وهو ليس بملك مكرم، والحق إنه لكذاب متجبر، يريد أن تكون له السيطرة والسلطان علينا، ويود أن يكون الرئيس المطاع، وما ذاك إلا بما زينته له نفسه، وأغواه به الشيطان، ولا يستند إلى وحي سماويٍّ ولا أمر إلهيّ.

ثم حكى سبحانه ما قاله لصالح وعداً له، ووعيداً لقومه فقال: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾؛ أي: عن قريب حين يحل بهم الهلاك الدنيوي ﴿مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾؛ أي: البَطِرُ الذي حَملَه بطره على ما فَعَل، أصالحٌ في دعواه الرسالةَ من ربه، وأنه أمره بالتبليغِ لهدايةِ قومِهِ إلى الحق، وإلى طريق مستقيم، أم هم في تكذيبهم إياه، ودعواهم عليه الاختلاقَ والكذبَ.

وقصارى ذلك: سيتبين لهم أنهم هم الكذّابون الأشرون. والسين[2] لتقريب مضمون الجملة، وتأكيده. والغد اليوم الذي يلي يومك الذي أنت فيه. والمراد به: وقت نزول العذاب في الزمان المستقبل، لا يوم بعينه، ولا يوم القيامة؛ لأن قوله: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ﴾ استئناف لبيان مبادي الموعود حتماً.

والمعنى: سيعلمون ألبتة عن قريب من الكذاب الأشر الذي حمله أشره وبطره على الترفع والتجبر أصالح أم من كذبه. وفيه تشريف لصالح، حيث إن الله تعالى سلب عنه بنفسه الوصف الذي أسندوه إليه من الكذب والأشر. فإنَّ معناه: لست أنت بكذاب أشر، بل هم.

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

وأورد الكلام على طريق الإبهام للإشارة إلى أنه مما لا يخفى جرياً على أساليبهم كقوله تعالى آمراً لرسوله أن يقول للمشركين: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. وقرأ عليّ، والجمهور[1] ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ بالتحتية إخباراً من الله سبحانه لصالح عن وقوع العذاب عليهم بعد مدّة. وقرأ أبو عمرو، وابن عامر، وحمزة بالفوقية على أنه خطاب من صالح لقومه؛ أي: قل لهم: يا صالح.

وجملة ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ﴾ مستأنفة لبيان ما تقدم إجماله من الوعيد؛ أي: إنا نحن مخرجو الناقة من الهضبة التي سألوا الإخراج عنها. والهضبة: الجبل المنبسط على الأرض أو جبل خلق من صخرة واحدة أو الجبل الطويل الممتنع المنفرد. ولا يكون إلا في حمر الجبال، كما في «القاموس». روي[2]: أنّهم سألوه متعنتين أن يخرج من صخرة منفردة في ناحية الجبل، يقال لها: الكاثبة، ناقة حمراء جوفاء وبراء عشراء. وهي التي أتت عليها عشرة أشهر من يوم أرسل عليها الفحل. فأوحى الله إليه: إنا مخرجو الناقة على ما وصفوا ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾؛ أي: امتحاناً لهم. فإنَّ المعجزة محنة واختبار؛ إذ بها يتميز المثاب من المعذب ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾؛ أي: فانتظرهم، وتبصر ما يصنعون ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ على أذيتهم صبراً بليغاً. ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾؛ أي: أخبرهم ﴿أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: مقسوم بين ثمود، وبين الناقة. لها يوم، ولهم يوم. فالقسمة: مصدر بمعنى اسم المفعول كضرب الأمير. وقرأ الجمهور ﴿قِسْمَةٌۢ﴾ بكسر القاف، ومعاذ بن أبي عمرو بفتحها. وقال: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بضمير العقلاء تغليباً. ﴿كُلُّ شِرْبٍ﴾؛ أي: كل نصيب من الماء، ونوبة، الانتفاع منه ﴿مُّحْتَضَرٌ﴾ يحضره صاحبه في نوبته. فليس معنى كون الماء مقسوماً بين القوم، والناقة أنه جعل قسمين: قسم لها، وقسم لهم. بل معناه: جعل الشرب بينهم على طريق المناوبة يحضره القوم يوماً، وتحضره الناقة يوماً، وقسمة الماء إما لأن الناقة عظيمة الخلق ينفر منها حيواناتهم، أو لقلة الماء. والشرب بكسر السين: الحظ من الماء. قال مجاهد: إن ثمود يحضرون الماء يوم نوبتهم، فيشربون، ويحضرون يوم نوبتها فيحتلبون لبنها.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

والمعنى: أي إنا مخرجو[1] الناقة من الهضبة التي طلبوا من نبيّهم بعثها منها لتكون آية لهم، وحجة على صدقه في ادعائه النبوة، وتكون فتنة واختباراً لهم أيؤمنون بالله، ويتبعونه فيما أمرهم به من توحيد؟ أم يكذّبونه ويكفرون به، فانتظر ماذا يفعلون، وأبصر ماذا يصنعون، واصبر على أذاهم، ولا تعجل حتى يأتي أمر الله؛ فإن الله ناصرك، ومهلك عدوك، وأخبرهم أن ماء بئرهم مقسوم بينهم وبين الناقة لها يوم، ولهم يوم. كل حصة منه يحضر صاحبها ليأخذها في نوبته، فتحضر الناقة تارةً، ويحضرون هم أخرى. وقد جعلت القسمة على هذا الوجه لمنع الضرر؛ لأنَّ حيوان القوم كانت تنفر منها، ولا ترد الماء وهي عليه، فصعب ذلك عليهم فملوا من هذه القسمة، وأرادوا الخلاص منها.

﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾؛ أي: نادى ثمود صاحبهم. وهو قدار بن سالف عاقر الناقة، ودعوه ليعقر الناقة. وكان أشدّهم، وحضوه على عقرها، فلبى طلبهم. ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾؛ أي: تناول الناقة بالعقر ﴿فَعَقَرَ﴾ ها، أو اجترأ على تعاطي أسباب العقر، فعقر. قال محمد بن إسحاق: كمن لها في أصل شجرة على طريقها، فرماها بسهم، انتظم به عضلة ساقها، ثم شد عليها بالسيف، فكسر عرقوبها ثم نحرها. والتعاطي[2]: تناول الشيء بتكلف، وما يتكلف فيه لا بُدَّ أن يكون أمراً هائلاً، لا يباشره أحد إلا بالجراءة عليه. فالتعاطي مجاز عن الاجتراء.

وبهذا المجاز يظهر وجه التعقيب بالفاء في ﴿فَعَقَرَ﴾، وإلا فالعقر لا يتفرع على نفس مباشرة القتل، والخوض فيه. يقال: عقر البعير والفرس بالسيف فانعقر؛ أي: ضرب به قوائمه، وبابه ضرب كما سيأتي.

والمعنى: فاجترأ صاحبهم قدار بن سالف على تعاطي الأمر العظيم غير مكترث له، فأحدث العقر بالناقة. وقدار بن سالف ـ بضم القاف وبالدال المهملة ـ وهو مشؤوم آل ثمود، ولذا كانت العرب تسمى الجزّار قداراً تشبيهاً له بقدار بن سالف. لأنّه كان عاقر الناقة، وكان قصيراً شرّيراً، أزرق، أشقر، أحمر. وكان يلقب بأحيمر ثمود، تصغير أحمر.

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

ثم ذكر عقابهم الفظيع، فقال: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾ لهم ﴿وَنُذُرِ﴾؛ أي: إنذاري إيّاهم على لسان رسولي صالح عليه السلام، وقد سبق تفسير هذا فلا عود ولا إعادة.

ثم فصل هذا العذاب بقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا﴾ وسلطنا ﴿عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾؛ أي: صيحة جبريل عليه السلام. وذلك لأنّها هي الجزاء الوفاق لفعلهم. فإنّهم صاروا سبباً لصيحة ولد الناقة بقتل أمه. ﴿فَكَانُوا﴾؛ أي: فصاروا لأجل تلك الصيحة بعد أن كانوا في نضارة وطيب عيش ﴿كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ الهشم[1]: كسر الشيء الرخو، كالنبات. والهشيم بمعنى المهشوم؛ أي: المكسور، وهو اليابس المتكسر من الشجر وغيره. والحظر: جمع الشيء في حظيرة، والمحظور الممنوع، والمحتظر بكسر الظاء الذي يعمل الحظيرة ويتخذها. قال الجوهري: الحظيرة التي تعمل للإبل من الشجر لتقيها البرد والريح. والحظيرة في الأرميا «دلي».

والمعنى: إنا نحن أرسلنا جبريل ليصيح بهم، فصاح عليهم صيحة واحدة، فصاروا كالشجر اليابس الذي يتخذه من يعمل الحظيرة وقاية لإبله من الريح والبرد، فتساقط على الأرض، فتكسر، وتفتت. أو كالحشيش اليابس الذي يجمعه صاحب الحظيرة لأكل ماشيته، فداست عليه، فتفتت، فصار كالغبار.

روي: أن جبريل صاح في طرف منازلهم في اليوم الرابع من عقر الناقة؛ لأنه كان في يوم الثلاثاء، ونزول العذاب بهم كان في يوم السبت، فصاروا كالحشيش البالي الذي يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته، كأنهم هلكوا من أمد بعيد.

وقصارى ذلك: أنهم بادوا عن آخرهم، ولم تبق منهم باقية، وهمدوا كما يهمد يبيس الزرع والنبات.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ بكسر الظاء، اسم فاعل، وهو الذي يعمل الحظيرة، وهشيمه ما سقط منه من دقاق الشجر، وأغصانه حالة العمل، وتكسر، وتفتت، وصار كالغبار. وقرأ أبو حيوة، وأبو السمال، وأبو رجاء، وأبو عمرو بن عبيد بفتحها. وهو موضع الاحتظار. وقيل: هو مصدر؛ أي: كهشيم

---

(١) البحر المحيط.　　(٢) روح البيان.

الاحتظار. وهو ما تفتت حالة الاحتظار والبناء للحظيرة، والحظيرة تصنعها العرب، وأهل البوادي للمواشي، والسكنى من الأغصان، والشجر المورق، والقصب، والحظر: المنع. وعن ابن عباس، وقتادة: أنَّ المحتظر هو المحترق. قال قتادة: كهشيمٍ محترقٍ. وعن ابن جبير: هو التراب الذي يسقط من الحائط البالي. وقيل: المحتظَر بفتح الظاء: هو الهشيم نفسه. فيكون من إضافة الموصوف إلى صفته كمسجد الجامع عند من تأوله كذلك.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ وسهلناه لفظاً ومعنى ﴿لِلذِّكْرِ﴾ أي: لتذكير من تذكر به ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؛ أي: متعظ يتعظ به. وقد سبق تفسير هذا في هذه السورة غير مرة، فلتراجعه.

قصص قوم لوط

ثم أخبر سبحانه عن قوم لوط بأنهم كذبوا رسل الله، كما كذبهم غيرهم فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾﴾؛ أي: بالإنذارات أو بالمنذرين، كما سبق. ثم أعقبه بذكر جزائهم على هذا التكذيب، ونجاة من آمن منهم فقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾؛ أي: ريحاً تحصبهم؛ أي: ترميهم بالحصباء. وهي حجارة دون ملء الكف. فالحصب: الرمي بالحصى الصغار، ومنه: المحصب موضع بمكة، والحاصب: اسم فاعل بمعنى رامي الحصباء. وتذكيره مع إسناده إلى ضمير الريح وهي مؤنث مجازي لتأويلها بالعذاب.

يقول الفقير[1]: لعل حكمة تعذيبهم بالحجارة؛ لأنهم حجروا ومنعوا من اللواطة، فلم يمتنعوا، بل رموا نطفهم إلى غير محل الحرث، فرماهم الله تعالى بالحجر، ومن ثم ذهب أحمد ابن حنبل رحمه الله تعالى إلى أنَّ حكم اللوطي أن يرجم، وإن كان غير محصن. وأيضاً أنهم يجلسون في مجالسهم، وعند كل رجل منهم قصعة فيها حصًى، فإذا مرَّ بهم عابر سبيل حذفوه، فأيهم أصابه كان أولى به، وأمَّا الريح؛ فلأنهم كانوا يضرطون في مجالسهم علانية، ولا يتحاشون، وأما انقلاب قراهم؛ فلأنهم كانوا يقلبون المرد عند اللواطة، فجازاهم الله بحسب

---

(١) المراغي.

أعمالهم، وأيضاً قلبوا الحقيقة وعكسوها بأن تركوا محل الحرث، وأتوا الأدبار.

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ وهم أهل بيته الذين نجوا من العذاب، وكانوا ثلاثة عشر. وقيل: يعني: لوطاً وابنتيه. وفي «كشف الأسرار»: يعني: بناته، ومن آمن به من أزواجهن. ﴿نَّجَّيْنَٰهُم﴾؛ أي: نجينا آل لوط ﴿بِسَحَرٍ﴾؛ أي: في سحر[1] من الأسحار. وهو آخر الليل، أو السدس الأخير منه. وانصرف «سحر»؛ لأنّه نكرة لم يقصد به سحر ليلة معينة، ولو قصد معيناً لامتنع. ويجوز أن يكون حالاً؛ أي: متلبسين بسحر. روي: أنَّ الله أمره، حتى خرج بهم بقطع من الليل، فجاء العذابُ قومَه وقت السحر. والاستثناء منقطع؛ لأنّه مستثنى من الضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾. وهو للمكذّبين من قوم لوط. ولا يدخل فيهم آل لوط؛ لأنّ المراد به: من تبعه على دينه. وانتصاب ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ على العلة لـ ﴿نَّجَّيْنَٰهُم﴾، أي: نجيناهم إنعاما منا على لوط ومن تبعه، أو على المصدرية من فعله، أي: أنعمناهم إنعاماً من عندنا، أو من مَعِيَ نجيناهم؛ أي: نجيناهم تنجية من عندنا لأن تنجيتهم إنعام.

والمعنى[2]: أي إنا عاقبناهم بإرسال ريح تحمل الحصباء، وما زالت بهم حتى دمرتهم إلا من آمن منهم، فإنا أمرناهم بالخروج آخر الليل؛ لينجوا من الهلاك. ثم بين أن سبب إنجاء المؤمنين هو شكرانهم للنعمة، فقال: ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾؛ أي: أنعمنا عليهم بالنجاة كرامة لهم منّا.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك الجزاء العجيب ﴿نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ نعمتنا بالإيمان والطاعة. يعني: كذلك ننجي المؤمنين. والمعنى: هكذا نجزي من شكرنا على نعمتنا، وأطاعنا، وائتمر بأمرنا وانتهى عمّا نهينا عنه.

ثم ذكر أنه ما أهلك من أهلك إلا بعد أن أنذرهم عذابه، وخوفهم بأسه فقال: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم﴾؛ أي: وعزتي وجلالي.. لقد أنذرهم، وخوفهم نبيهم لوط عليه السلام ﴿بَطْشَتَنَا﴾؛ أي: أخذتنا الشديدة بالعذاب. ﴿فَتَمَارَوْا﴾؛ أي: فكذّبوا ﴿بِٱلنُّذُرِ﴾ متشاكين. ضمن[3] ﴿فَتَمَارَوْا﴾ معنى التكذيب، فعدي تعديته، من المرية.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

وأصله: تماريوا على وزن تفاعلوا، كما سيأتي.

والمعنى: أي ولقد أنذرهم نبيهم بأس الله وعذابه قبل حلوله بهم، فما التفتوا إلى ذلك، ولا أصغوا إليه، بل شكوا فيه، وتماروا به.

ثم بين جرمهم الذي استحقوا به العذاب، فقال: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ﴾؛ أي: وعزّتي وجلالي، لقد طالب قوم لوط نبيهم لوطاً عليه السلام بالتمكين لهم ﴿عَن ضَيْفِهِۦ﴾؛ أي: طلبوا منه ضيوفه. وهم الملائكة الذين جاؤوا في صورة شباب مرد حسان محنة من الله لهم. إذ قد بعثت إليهم امرأته عجوزة السوء، فأعلمتهم بأضيافه، فأقبلوا إليه يهرعون من كل مكان، فأغلق لوط عليهم الباب، فجعلوا يعالجونه ليكسروه، وهو يدافعهم، ويمانعهم دون أضيافه، ويقول لهم: هؤلاء بناتي هن أطهر لكم، فقالوا له: لقد علمت ما لنا في بناتك أرب، وإنك لتعلم ما نريد؛ فلما اشتد بينهم الصراع، وأبوا إلا الدخول طمس الله أبصارهم، فلم يروا شيئاً. وهذا ما عناه سبحانه بقوله: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾؛ أي: فمسحناها، وسويناها كسائر الوجه، بحيث لم ير لها شق. روي: أنهم لما دخلوا داره عنوة صفقهم جبريل بجناحه صفقة، فتركتهم يترددون لا يهتدون إلى الباب، حتى أخرجهم لوط. والصفق: الضرب الذي ليس له صوت.

والخلاصة: ولقد أرادوا من لوط تمكينهم ممن أتاه من أضيافه. وهم الملائكة في صورة الشبان، ومعهم جبريل. وقصدوا الفجور بهم ظنًّا منهم أنهم بشر، فطمسنا أعينهم، فجعل بعضهم يجول في بعض، ولا يرون شيئاً، ويقولون: أين ضيوفك؟. وقد تقدم تفصيل ذلك في سورة هود.

والمعنى: صيّرنا أعينهم ممسوحة لا يرى لها شق، كما تطمس الريح الأعلام بما تسف عليها من التراب. وقيل: أذهب الله نور أبصارهم مع بقاء الأعين على صورتها. قال الضحاك: طمس الله على أبصارهم، فلم يروا الرسل، فرجعوا. وقرأ الجمهور ﴿فَطَمَسْنَآ﴾ بتخفيف الميم، وابن مقسم بتشديدها.

﴿فَذُوقُوا۟﴾؛ أي: فقلنا لهم على ألسنة ملائكتنا: ﴿ذوقوا عذابي﴾؛ أي: عذاب طمس الأعين، وما بعده مما سيأتي. ﴿وَنُذُرِ﴾؛ أي: وجزاء إبائكم وامتناعكم من قبول إنذارتي بعد أن أنذرتكم على سوء أفعالكم، وقبيح خلالكم.

ثم بين وقت مجيء العذاب، فقال: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً﴾؛ أي: أول النهار وباكره؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد جاءهم وقت الصبح ﴿عَذَابٌ﴾؛ أي: الخسف والحجارة ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾؛ أي: يستقر بهم، ويثبت لا يفارقهم، حتى يفضي بهم إلى النار. يعني: جاءهم عذاب دائم متصل بعذاب الآخرة. وفي وصفه بالاستقرار إيماء إلى أن ما قبله من عذاب الطمس ينتهي به؛ أي: مستقر لم يكشفه عنهم كاشف، بل اتصل بموتهم، ثم بما بعد ذلك من عذاب القبر، ثم عذاب جهنم.

وقرأ الجمهور: ﴿بُكْرَةً﴾ بالتنوين. أراد بكرة من البكر، فصرف. وقرأ زيد بن عليّ بغير تنوين.

والحاصل: أن العذاب الذي هو قلب قريتهم عليهم، وجعل أعلاها أسفلها، ورميهم بالحجارة غير العذاب الذي نزل بهم من طمس الأعين، فإنه عذاب دنيوي غير موصول بعذاب الآخرة، وأما عذاب الخسف والحجارة فموصول به؛ لأنّهم بهذا العذاب ينتقلون إلى البرزخ الموصول بالآخرة، كما أشار إليه قوله ﷺ: «من مات فقد قامت قيامته» من حيث اتصال زمان الموت بزمان القيامة. كما أنَّ أزمنة الدنيا يتصل بعضها ببعض.

والمعنى: ولقد نزل بهم العذاب وقت البكور، وما زال ملحاً عليهم حتى أخمدهم، وبلغ غايته في دمارهم وهلاكهم.

ثم حكى ما قيل لهم بعد التصبيح من جهته تعالى تشديداً للعذاب فقال: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾؛ أي: فذوقوا جزاء أفعالكم من عذاب عاجل، وما لزم من إنذاركم من عذاب آجل.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ هذه الجملة القسمية وردت في آخر كل قصة من القصص الأربع تقريراً لمضمون ما سبق من قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾﴾، وتنبيهاً إلى أن كل قصة منها مستقلة بإيجاب الإدكار، كافية في الازدجار، ولم يحصل بها مع هذا عظة واعتبار. وقد مر ما في هذه الآية من الكلام، وفيه استئناف للتنبيه والإيقاظ، لئلا يغلبهم السهو، والغفلة، وكذا تكرير قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ في سورة الرحمن، وقوله في سورة المرسلات: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، ونحوهما من الأنباء، والقصص،

والمواعيد، والزواجر، والقواطع كما مر، فإن في التكرير تقريراً للمعاني في الأسماع والقلوب، وتثبيتاً لها في الصدور، وكلما زاد تكرير الشيء، وترديده كان أقر له في القلب، وأمكن في الصدور، وأرسخ في الفهم، وأثبت للذكر، وأبعد من النسيان.

الإعراب

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾.

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ فعل، وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ما قبله. ﴿وَإِن﴾ الواو: استئنافية، ﴿إِنْ﴾ حرف شرط جازم، ﴿يَرَوْا۟﴾ فعل، وفاعل، مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿ءَايَةً﴾ مفعول به، لأنَّ رأى بصرية، ﴿يُعْرِضُوا۟﴾ فعل، وفاعل، مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواب الشرط. والجملة الشرطية مستأنفة. ﴿وَيَقُولُوا۟﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿يُعْرِضُوا۟﴾. ﴿سِحْرٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هذا سحر، ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ صفة لسحر. والجملة في محل النصب، مقول لـ ﴿يقولوا﴾. ﴿وَكَذَّبُوا۟﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿كَذَّبُوا۟﴾ فعل، وفاعل، معطوف على جملة ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ فعل وفاعل، ومفعول به، معطوف على ﴿كَذَّبُوا۟﴾. ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿كل أمر﴾ مبتدأ، ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ خبره. والجملة مستأنفة. ﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، واللام موطئة للقسم، ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿جَآءَهُم﴾ فعل، ومفعول به، ﴿مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ حال من ﴿مَا﴾ ﴿ما﴾ اسم موصول في محل الرفع، فاعل، ﴿فِيهِ﴾ خبر مقدم، ﴿مُزْدَجَرٌ﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة صلة الموصول، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة. ﴿حِكْمَةٌۢ﴾ خبر لمبتدأ، أو بدل من ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿بَٰلِغَةٌ﴾ صفة لـ ﴿حِكْمَةٌۢ﴾. ﴿فَمَا﴾ الفاء: عاطفة، ﴿ما﴾. نافية أو استفهامية للإنكار، في محل النصب مفعول مطلق لتغني؛ أي: فأيُّ إغناء تغني النذر. ﴿تُغْنِ﴾ فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء المحذوفة لفظاً لالتقاء الساكنين المحذوفة خطاً تبعا للفظ، منع من

ظهورها الثقل؛ لأنّه فعل معتل بالياء. ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ فاعل. والجملة الفعلية معطوفة على جواب القسم.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾.

﴿فَتَوَلَّ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة، ﴿تول﴾ فعل أمر، مبني على حذف حرف العلّة، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿عَنْهُمْ﴾ متعلق بـ ﴿تولّ﴾. والجملة معطوفة على جملة ﴿تُغْنِ﴾. ﴿يَوْمَ﴾ منصوب على الظرفية الزمانية، متعلق بمحذوف، تقديره: اذكر أو بـ ﴿يَخْرُجُونَ﴾، ﴿يَدْعُ﴾ فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ضمّة مقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين لفظاً المحذوفة خطًّا تبعاً للفظ، ﴿ٱلدَّاعِ﴾ فاعل مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء المحذوفة لفظاً تبعاً لخط المصحف العثماني. والجملة الفعلية في محل الجر، مضاف إليه لـ ﴿يَوْمَ﴾. ﴿إِلَىٰ شَيْءٍ﴾ متعلق بـ﴿يَدْعُ﴾، ﴿نُّكُرٍ﴾ صفة لـ ﴿شَيْءٍ﴾. ﴿خُشَّعًا﴾ حال من فاعل ﴿يَخْرُجُونَ﴾، ﴿أَبْصَٰرُهُمْ﴾ فاعل ﴿خُشَّعًا﴾، ﴿يَخْرُجُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ متعلق بـ ﴿يَخْرُجُونَ﴾، ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿جَرَادٌ﴾ خبره، ﴿مُّنتَشِرٌ﴾ صفة ﴿جَرَادٌ﴾. وجملة ﴿كأنّ﴾ في محل النصب حال ثانية من فاعل ﴿يَخْرُجُونَ﴾. ﴿مُّهْطِعِينَ﴾ حال ثالثة من فاعل ﴿يَخْرُجُونَ﴾. ﴿إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ متعلق بـ ﴿مُّهْطِعِينَ﴾، ﴿ٱلدَّاعِ﴾ مجرور بـ ﴿إِلَىٰ﴾، وعلامة جره كسرة مقدرة على الياء المحذوفة لفظاً تبعاً للرسم العثماني. ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فعل، وفاعل. والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً وقع في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فما يكون حينئذٍ؟ فقيل: يقول الكافرون الخ. وجوز بعضهم أن تكون الجملة حالاً من فاعل ﴿يَخْرُجُونَ﴾. فالأحوال من ﴿الواو﴾ حينئذٍ أربعة. واحد مقدم، وثلاثة مؤخرة. ﴿هَٰذَا يَوْمٌ﴾ مبتدأ وخبر، ﴿عَسِرٌ﴾ صفة ﴿يَوْمٌ﴾. والجملة في محل النصب مقول يقولون.

﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣﴾.

﴿كَذَّبَتْ﴾ فعل ماض، ﴿قَبْلَهُمْ﴾ ظرف مضاف، متعلق بـ ﴿كَذَّبَتْ﴾، ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾

فاعل، والجملة مستأنفة. ﴿فَكَذَّبُوا﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة، ﴿كذبوا﴾ فعل، وفاعل، ﴿عَبْدَنَا﴾ مفعول به. والجملة معطوفة على جملة ﴿كَذَّبَتْ﴾. ﴿وَقَالُوا﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿كذبوا﴾، ﴿مَجْنُونٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هو مجنون. والجملة في محل النصب مقول قالوا. ﴿وَازْدُجِرَ﴾ الواو: عاطفة، ﴿ازدجر﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على نوح. والجملة الفعلية في محل النصب، معطوفة على جملة هو مجنون على كونها مقولاً لـ ﴿قالوا﴾؛ أي: قالوا: هو مجنون، وازدجرته الجنّ؛ أي: تخبطته، وذهبت بلبّه. ﴿فَدَعَا﴾ الفاء: عاطفة، ﴿دعا ربه﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على نوح، ومفعول به. والجملة معطوفة على جملة ﴿كذّبوا﴾. ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾ ناصب واسمه وخبره، وجملة ﴿أنّ﴾ وما في حيّزها في محل نصب بنزع الخافض؛ أي: بأنّي مغلوب على حكاية المعنى، ولو جاء على حكاية اللفظ لقال: أنّه مغلوب. ﴿فَانْتَصِرْ﴾ الفاء: حرف عطف وتفريع، ﴿انتصر﴾ فعل دعاء، وفاعله ضمير يعود على الله. والجملة معطوفة على جملة ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾ على تضمين دعا بمعنى قال. ﴿فَفَتَحْنَا﴾ الفاء: عاطفة، ﴿فتحنا﴾ فعل، وفاعل، ﴿أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾ مفعول به. والجملة معطوفة على جملة ﴿دعا﴾. ﴿بِمَاءٍ﴾ متعلق بفتحنا، والباء: للتعدية على المبالغة، حيث جعل الماء كالآلة التي يفتح بها، كما تقول: فتحت بالمفتاح. ويجوز أن تكون الباء للملابسة، متعلقة بمحذوف حال من ﴿أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾؛ أي: متلبسة بماء منهمر. ﴿مُنْهَمِرٍ﴾ صفة ﴿ماء﴾، ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به، معطوف على ﴿فتحنا﴾، ﴿عُيُونًا﴾ تمييز محول عن المفعول، ﴿فَالْتَقَى﴾ الفاء: عاطفة، ﴿التقى الماء﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿فجرنا﴾، ﴿عَلَى أَمْرٍ﴾ متعلق بـ ﴿التقى﴾، و﴿عَلَى﴾ للتعليل؛ أي: اجتمع الماء لأجل إغراقهم المقضي أزلاً. وجملة ﴿قَدْ قُدِرَ﴾ صفة لأمر. ﴿وَحَمَلْنَاهُ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به، معطوف على جملة قوله: ﴿فَالْتَقَى﴾. ﴿عَلَى ذَاتِ﴾ متعلق بـ ﴿حملنا﴾، ﴿أَلْوَاحٍ﴾ مضاف إليه، ﴿وَدُسُرٍ﴾ معطوف على ﴿أَلْوَاحٍ﴾.

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٧)﴾.

﴿تَجْرِي﴾ فعل مضارع، مرفوع، وفعله ضمير يعود على سفينة ذات ألواح. والجملة الفعلية في محل الجر، صفة ﴿ذَاتِ أَلْوَاحٍ﴾. ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ حال من فاعل

﴿تَجۡرِي﴾؛ أي: حالة كونها محفوظة ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾، ﴿جَزَآءٗ﴾ مفعول لأجله لمحذوف، تقديره: فعلنا ذلك جزاء، ويجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال. ﴿لِّمَن﴾ متعلق بـ ﴿جَزَآءٗ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة ﴿لِّمَن﴾، وجملة ﴿كُفِرَ﴾، خبر ﴿كَانَ﴾، ﴿وَلَقَد﴾ الواو: استئنافية، واللام موطئة للقسم، ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿تَّرَكۡنَٰهَآ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة. والضمير يعود على الفعلة. وهي إغراقهم على الشكل المذكور. وأجاز الزمخشري أن يعود على السفينة. و﴿ءَايَةٗ﴾ حال من ضمير المفعول أو مفعول ثان لـ ﴿تركنا﴾، إذا كان تركنا بمعنى جعلناها. ﴿فَهَلۡ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿هل﴾ حرف استفهام للإنكار، ﴿مِن﴾ زائدة، ﴿مُّدَّكِرٖ﴾ مبتدأ خبره محذوف، تقديره: موجود. والجملة معطوفة على جملة ﴿تَّرَكۡنَٰهَآ﴾. ﴿فَكَيۡفَ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا علمتم ما حل بهم جميعاً جزاء وفاقاً لعملهم، وأردتم التعجب من ذلك فأقول لكم كيف كان عذابي. ﴿كيف﴾ اسم استفهام، في محل النصب، خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم، ﴿كَانَ عَذَابِي﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿وَنُذُرِ﴾ معطوف على ﴿عَذَابِي﴾ تبعه بالرفع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على ما قبل ياء التمكلم المحذوفة؛ اجتزاء عنها بكسرة المناسبة لضرورة الفاصلة، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿وَلَقَدۡ﴾ الواو: عاطفة، واللام موطئة للقسم، ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿يَسَّرۡنَا﴾ فعل، وفاعل، ﴿ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ مفعول به، ﴿لِلذِّكۡرِ﴾ متعلق بـ ﴿يَسَّرۡنَا﴾. والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم معطوفة على جملة القسم السابق. ﴿فَهَلۡ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿هل﴾ حرف استفهام، ﴿مِن﴾ زائدة، ﴿مُّدَّكِرٖ﴾ مبتدأ، خبره محذوف، تقديره: موجود. والجملة معطوفة على جملة القسم.

﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٨ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ۝١٩﴾.

﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ﴾ فعل، وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿فَكَيۡفَ﴾ الفاء: فاء الفصيحة لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت تكذيبهم وعقوبتهم على ذلك التكذيب، وأردت التعجّب من ذلك فأقول لك كيف كان. ﴿كيف﴾ اسم استفهام في محل النصب، خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم، ﴿عَذَابِي﴾ اسمها، ﴿وَنُذُرِ﴾ معطوف

على ﴿عَذَابِي﴾، وجملة كان في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿إِنَّآ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿أَرْسَلْنَا﴾ خبره، وجملة ﴿إِنّ﴾ مستأنفة، مسوقة لبيان تعذيبهم. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿رِيحًا﴾ مفعول به، ﴿صَرْصَرًا﴾ صفة ﴿رِيحًا﴾، ﴿فِي يَوْمِ﴾ متعلق بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ أيضاً، ﴿نَحْسٍ﴾ مضاف إليه، أو صفة لـ ﴿يَوْمِ﴾، ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ صفة لـ ﴿نَحْسٍ﴾ أو لـ ﴿يَوْمِ﴾.

﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿الريح﴾، ومفعول به. والجملة صفة ثانية لـ ﴿رِيحًا﴾. ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ خبره، ﴿مُّنقَعِرٍ﴾ صفة لـ ﴿نَخْلٍ﴾. وجملة التشبيه في محل النصب، حال من ﴿ٱلنَّاسَ﴾. وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ تقدم إعرابه قريباً فجدد به عهداً. ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ فعل، وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿بِٱلنُّذُرِ﴾ متعلق بـ ﴿كَذَّبَتْ﴾، ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿قالوا﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿كَذَّبَتْ﴾. ﴿أَبَشَرًا﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، ﴿بشرا﴾ منصوب على الاشتغال بفعل محذوف وجوباً يفسره ما بعده، تقديره: أنتبع بشراً. والجملة المحذوفة في محل النصب، مقول قالوا. ﴿مِّنَّا﴾ صفة لـ ﴿بشرا﴾، ﴿وَٰحِدًا﴾ صفة ثانية لـ ﴿بشرا﴾، إلا أنّه يشكل عليه تقديم الصفة المؤولة على الصفة الصريحة، ويجاب بأن ﴿مِّنَّا﴾ حينئذٍ ليس وصفاً، بل حال من ﴿وَٰحِدًا﴾ قدم عليه، أو حال من الهاء في ﴿نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾. وجملة ﴿نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب. ﴿إِنَّآ﴾ ناصب واسمه، ﴿إِذًا﴾ حرف جواب وجزاء، مهمل لعدم الفعل بعدها، ﴿لَّفِى ضَلَٰلٍ﴾ اللام حرف ابتداء، ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ جار ومجرور، خبر ﴿إنّ﴾، ﴿وَسُعُرٍ﴾ معطوف على ضلال. وجملة ﴿إنّ﴾ تعليلية مسوقة لتعليل النفي المفهوم من الاستفهام، لا محل لها من الإعراب.

﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿أَءُلْقِىَ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، ﴿ألقي﴾ فعل ماض، مغيّر الصيغة، ﴿عَلَيْهِ﴾

متعلق به، ﴿ٱلذِّكۡرُ﴾ نائب فاعل، ﴿مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ جار ومجرور، حال من ضمير ﴿عَلَيۡهِ﴾؛ أي: منفرداً. وجملة الاستفهام في محل النصب، مقول ﴿قالوا﴾ ﴿بَلۡ﴾ حرف عطف وإضراب، ﴿هُوَ كَذَّابٌ﴾ مبتدأ وخبر، ﴿أَشِرٞ﴾ صفة ﴿كَذَّابٌ﴾. والجملة الاسمية معطوفة على جملة الاستفهام على كونها مقولاً لـ ﴿قالوا﴾. ﴿سَيَعۡلَمُونَ﴾ السين حرف استقبال، ﴿يعلمون﴾ فعل، وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿غَدٗا﴾ ظرف زمان، منصوب، متعلق بـ ﴿يعلمون﴾، ﴿من﴾ اسم استفهام، في محل الرفع، مبتدأ، ﴿ٱلۡكَذَّابُ﴾ خبره، ﴿ٱلۡأَشِرُ﴾ صفة ﴿ٱلۡكَذَّابُ﴾. والجملة الاسمية في محل النصب سدّت مسدّ مفعولي ﴿يعلمون﴾؛ لأنّه علق عنه باسم الاستفهام. ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ﴾ خبره، ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿فِتۡنَةٗ﴾ مفعول لأجله، منصوب بـ ﴿مُرۡسِلُواْ﴾ ﴿لَّهُمۡ﴾ متعلق بـ ﴿فِتۡنَةٗ﴾، ﴿فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ﴾ الفاء: فاء الفصيحة، لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أنا مرسلوا الناقة فتنة واختباراً لهم، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك ارتقبهم. ﴿ارتقب﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر، يعود على صالح عليه السلام، والهاء: مفعول به. والجملة في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدّرة مستأنفة. ﴿وَٱصۡطَبِرۡ﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر، معطوف على ﴿ارتقبهم﴾.

﴿وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَنَبِّئۡهُمۡ﴾ الواو: عاطفة، ﴿نبئهم﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر، ومفعول به أول. والجملة معطوفة على جملة ﴿ارتقبهم﴾. ﴿أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ﴾ ناصب واسمه وخبره. ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ متعلق بـ ﴿قِسۡمَةُۢ﴾؛ لأنّه بمعنى مقسوم بينهم. وجملة ﴿أَنَّ﴾ وما في حيّزها في تأويل مصدر ساد مسد المفعول الثاني والثالث لـ ﴿نبّأ﴾. ﴿كُلُّ شِرۡبٖ﴾ مبتدأ، ﴿مُّحۡتَضَرٞ﴾ خبره. والجملة الاسمية في محل النصب، بدل من جملة ﴿أَنَّ﴾. ﴿فَنَادَوۡاْ﴾ الفاء: عاطفة على محذوف، تقديره: فبقوا على ذلك مدّة، ثم ملوا من نضوب الماء، وتشاوروا في شأنها، واتفقوا على عقرها. ﴿نادوا﴾ فعل ماض، وفاعل، ﴿صَاحِبَهُمۡ﴾ مفعول به. والجملة معطوفة على تلك المحذوفة، ويصحّ كونها فصيحة. ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿تعاطى﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر، يعود على

﴿صَاحِبَهُمْ﴾. والجملة معطوفة على جملة ﴿نادوا﴾. ﴿فَعَقَرَ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿عقر﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر، يعود على صاحبهم، معطوف على ﴿تعاطى﴾. وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾﴾ تقدم إعرابه قريباً. ﴿إِنَّآ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿أَرْسَلْنَا﴾ خبره. والجملة مستأنفة. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿صَيْحَةً﴾ مفعول ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿وَاحِدَةً﴾ صفة ﴿صَيْحَةً﴾، ﴿فَكَانُوا۟﴾ الفاء: عاطفة، ﴿كانوا﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بمحذوف، خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على جملة ﴿أَرْسَلْنَا﴾. وقوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾ تقدم إعرابه، فجدد به عهداً.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ﴾ فعل وفاعل، ﴿بِٱلنُّذُرِ﴾ متعلق بـ ﴿كَذَّبَتْ﴾. والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿إِنَّآ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿أَرْسَلْنَا﴾ خبره. والجملة مستأنفة، مسوقة لبيان العذاب اللازم للتكذيب. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿حَاصِبًا﴾ مفعول به، ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء منقطع أو متصل، ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ مستثنى من ضمير ﴿عَلَيْهِمْ﴾، ﴿نَّجَّيْنَٰهُم﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به. والجملة مستأنفة، مسوقة لتعليل الاستثناء، ﴿بِسَحَرٍ﴾ متعلق بـ ﴿نَّجَّيْنَٰهُم﴾، ﴿نِّعْمَةً﴾ مفعول مطلق معنوي ملاق لعامله في المعنى. وهو ﴿نَّجَّيْنَٰهُم﴾. إذ التنجية نعمة، أو مفعول لأجله لـ﴿نَّجَّيْنَٰهُم﴾. ﴿مِّنْ عِندِنَا﴾ صفة لـ ﴿نِّعْمَةً﴾، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ صفة لمصدر محذوف، ﴿نَجْزِى﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل النصب، مفعول به لـ ﴿نَجْزِى﴾، وجملة ﴿شَكَرَ﴾ صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، والتقدير: نجزي من شكر جزاء مثل الجزاء المذكور. والجملة الفعلية مستأنفة.

﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، واللام: موطئة للقسم، ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿أَنذَرَهُم﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر، ومفعول أول، ﴿بَطْشَتَنَا﴾ مفعول ثان.

والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿فَتَمَارَوۡاْ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿تماروا﴾ فعل ماض، وفاعل، ﴿بِٱلنُّذُرِ﴾ متعلق بـ ﴿تماروا﴾. والجملة معطوفة على جملة ﴿أَنذَرَهُم﴾. ﴿وَلَقَدۡ﴾ الواو: استئنافية، واللام موطئة للقسم، ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿رَٰوَدُوهُ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول، ﴿عَن ضَيۡفِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿رَٰوَدُوهُ﴾ والجملة جواب القسم، لا محل لها من الإعراب. ﴿فَطَمَسۡنَآ﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿رَٰوَدُوهُ﴾، ﴿أَعۡيُنَهُمۡ﴾ مفعول به. ﴿فَذُوقُواْ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿ذوقوا﴾ فعل أمر، وفاعل، ﴿عَذَابِي﴾ مفعول به، ﴿وَنُذُرِ﴾ معطوف على ﴿عَذَابِي﴾. والجملة في محل النصب مقول للقول المحذوف المعطوف على ﴿طمسنا﴾؛ أي: فطمسنا أعينهم فقلنا لهم: ذوقوا عذابي ونذري. ﴿وَلَقَدۡ﴾ الواو: عاطفة، واللام: موطئة للقسم ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿صَبَّحَهُم﴾ فعل ماض، ومفعول به ﴿بُكۡرَةً﴾ ظرف، متعلق بصبحهم ﴿عَذَابٞ﴾ فاعل، ﴿مُّسۡتَقِرّٞ﴾ صفة لـ ﴿عَذَابٞ﴾. والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم معطوفة على القسم السابق. وقوله: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٤٠﴾﴾ تقدم إعرابه قريباً فجدد به عهداً.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱقۡتَرَبَتِ﴾؛ أي: دنت، وقربت. ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾؛ أي: القيامة. والساعة: جزء من أجزاء الزمان، عبَّر بها عن القيامة تشبيهاً لها بذلك لسرعة حسابها، أو لأنّها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا، أو لأنّها ساعة خفيفة يحدث فيها أمر عظيم، أو لغير ذلك. كما بين فيما سبق.

﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾؛ أي: انفصل بعضه من بعض، وصار فرقتين. ﴿وَإِن يَرَوۡاْ﴾ أصله: يرئيوا بوزن يفعلوا، نقلت حركة الهمزة إلى الراء، ثم حذفت تخفيفاً، ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، فاجتمع ساكنان فحذفت الألف لذلك. ﴿ءَايَةٗ﴾؛ أي: علامة دالة على نبوتك. ﴿سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾؛ أي: مطرد دائم، اسم فاعل من استمر السداسي. وأصله: مستَمْرِر بوزن مستفعل، نقلت حركة الراء الأولى إلى الميم فسكنت فأدغمت في الراء الثانية.

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾ فيه إدغام فاء الكلمة في تاء الافتعال. ﴿أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾ الهمزة فيه مبدلة من ياء لوقوعها متطرفة إثر ألف زائدة. ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ﴾ جمع

نبأ. وهو خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظنّ.

﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ مصدر ميمي من الزجر، إلا أنّ التاء أبدلت دالاً ليوافق الزاي بالجهر، ولك أن تعتبره اسم مكان؛ أي: مكان اتعاظ. واعلم: أن تاء الافتعال تقلب دالاً مع الدال، والذال، والزاي للتناسب في المخرج أو لتحصيل التناسب. فإنَّ التاء مهموسة، وهذه الحروف مجهورة. يعني: أصله مزتجر، لأنّه مفتعل من الزجر، قلبت التاء دالاً. لأنّ الزاي حرف مجهور، والتاء حرف مهموس، والذال تناسب الزاي في الجهر، وتناسب التاء في المخرج. يقال: زجره، وازدجره؛ أي: نهاه عن السوء، ووعظه غير أنّ افتعل أبلغ في المعنى من فعل. قال الراغب: الزجر: طرد بصوت، يقال: زجرته فانزجر. ثم يستعمل في الطرد تارةً، وفي الصوت تارةً. وقوله تعالى: ﴿مُزْدَجَرٌ﴾؛ أي: طرد، ومنع عن ارتكاب المأثم.

﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ وفي «القاموس»: الحكمة بالكسر: العدل، والعلم، والحلم. والنبوة، والقرآن، وفي «المفردات»: الحكمة: إصابة الحق بالعلم، والفعل. والحكمة من الله معرفة الأشياء أو إيجادها على غاية الإحكام، ومن الإنسان معرفة الموجودات، وفعل الخيرات.

﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ جمع نذير بمعنى المنذر، أو مصدر بمعنى الإنذار. ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾؛ أي: لا تجادلهم، ولا تحاجّهم. ﴿يَوْمَ يَدْعُ﴾ تقدم في سورة الشورى أنَّ ﴿الواو﴾ حذفت منه بغير داع، وفي نظائره: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾.

﴿شَيْءٍ نُكُرٍ﴾ بضمتين وبسكون ثانيه، وكلاهما بمعنى المنكر؛ أي: منكر فظيع تنكره النفوس لعدم العهد بمثله. ﴿مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ جمع جدث محركة. وهو القبر. ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ﴾ سمي جراداً لجرده الأرض من النبات، يقال: أرض مجرودة؛ أي: أكل ما عليها، حتى تجردت، كما في «المفردات».

﴿مُهْطِعِينَ﴾ فيه إعلال بحذف همزة أفعل من الوصف؛ لأنّ أصله: مؤهطعين، يقال: هطع الرجل إذا أقبل ببصره على الشيء لا يقلع عنه، وأهطع إذا مد عنقه، وصوب رأسه، وأهطع في عدوه إذا أسرع، كما في «الجوهري». والإهطاع: هو

الإسراع مع مد الأعناق، والتشوف بالأنظار بصورة دائمة لا تقلع عن التحديق. وهي صورة حية مجسدة للفزع المرتاع الذي يتطلع إلى ما يرتقبه من أهوال.

﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ فيه إعلال بإبدال تاء الافتعال دالاً لوقوعها بعد الزاي كما تقدم في ﴿مُزْدَجَرٌ﴾. ﴿بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ المنهمر: المنصب بشدة وغزارة. وفي «المختار»: وهمر الدمع، والماء صبه، وبابه نصر، وانهمر الماء إذا سال.

﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ﴾ والتفجير: تشقيق الأرض عن الماء. ﴿عُيُونًا﴾ جمع عين الماء. وهي ما يفور من الأرض مستديراً كاستدارة عين الحيوان. فالعين مشتركة بين عين الحيوان، وعين الماء، وعين الذهب، وعين السحاب، وعين الركية. ويقال للعين: ينبوع، والجمع ينابيع، والمنبع بفتح الميم والباء: مخرج الماء، والجمع منابع.

﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ﴾ جمع لوح. وهو كل صحيفة عريضة خشباً أو عظماً. وكانت سفينة نوح من شجر الساج. والساج في الأرميا «ودَّيْسُ». ﴿وَدُسُرٍ﴾ والدسر: المسامير التي تشدّ بها ألواح السفينة. واحدها دسار، ككتب وكتاب. ودسير، ودسرت السفينة أدسرها دسراً إذا شددتها. وفي «المختار»: الدسر: الدفع، وبابه نصر. ويمكن التوفيق بين القولين؛ لأنَّ المسمار يدفع في منفذه.

﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾؛ أي: بحراستنا وحفظنا. ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؛ أي: متذكر متعظ. فيه إبدال تاء الافتعال دالاً، وإدغامها في الدال فاء الكلمة، فأصله: مذتكر بوزن مفتعل، أبدلت التاء دالاً، وأبدلت الذال دالاً، وأدغمت في الدال كما قال في «الخلاصة»:

طَا تَا ٱفْتِعَالٍ رُدَّ إِثْرَ مُطْبَقِ ... فِيْ ٱدَّانَ وَٱزْدَدْ وَٱدَّكِرْ دَالاً بَقِيْ

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ ونذر اسم مفرد، وهو مصدر؛ لأنه أجاز بعضهم مجيء المصدر على فعل بضمتين. وبعضهم قال: هو جمع نذير بمعنى إنذار. فهو مصدر مجموع، لا مفرد، ذكره في «الفتوحات».

﴿صَرْصَرًا﴾ الصرصر: الريح الشديدة الهبوب حتى يسمع صوتها، وهو مضاعف صر، يقال: صر الباب، والقلم إذا صوت. وتكرير الأحرف إشعار بتكرير العمل. مثله: كب وكبكب.

﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٍ﴾ جمع عجز، وعجز الإنسان مؤخره، وبه شبه مؤخر غيره. ومنه: العجز؛ لأنّه يؤدي إلى تأخر الأمور. والنخل يذكر ويؤنث، وهو من أسماء الجنس الذي يفرق بينه وبين واحده بالتاء. واللفظ مفرد لكنه كثيراً ما يسمى جمعاً نظراً إلى المعنى الجنسي.

﴿مُّنقَعِرٍ﴾؛ أي: منقلع عن أصله؛ لأن قعر الشيء قراره. ومنه: تقعر فلان في كلامه إذا تعمق فيه. يقال: قعرت النخلة إذا قلعتها من أصلها، وانقعرت؛ أي: انقلعت. وفي «المفردت»: ﴿مُّنقَعِرٍ﴾؛ أي: ذاهب في قعر الأرض. وإنما أراد تعالى أن هؤلاء اجتثوا كما اجتثت النخل الذاهب في قعر الأرض، فلم يبق لهم رسم، ولا أثر. انتهى.

﴿وَسُعُرٍ﴾ يجوز أن يكون مفرداً؛ أي: جنون. يقال: ناقة مسعورة كالمجنونة في سيرها قال:

كَـأَنَّ بِـهَـا سُـعُـرَاً إِذَا ٱلْـعِـيْـسُ هَـزَّهَـا ذَمِـيْـلٌ وَإِرْخَـاءٌ مِـنَ الـسَّـيْـرِ مُـتْـعِـبُ

يقول: كأنَّ بناقتي جنوناً لقوة سيرها. فالعيس: جمع عيساء، كبيض جمع بيضاء. وهي النوق البيض، حركها ذميل وإرخاء. وهو ضربان من السير، متعب كل منهما. وإسناد الهز إليهما مجاز عقلي من باب الإسناد إلى السبب. ويجوز أن يكون جمع سعير بمعنى نار.

﴿ٱلۡأَشِرُ﴾ هو الشديد البطر والتكبّر. فهي صيغة مبالغة. وقيل: إنه صفة مشبهة، كحذر، ويقظ، ووطف، وعجز. وفي «المختار»: وأشر وبطر من باب طرب أو فرح.

﴿وَٱصۡطَبِرۡ﴾ أصله: اصتبر بوزن افتعل، أبدلت تاء الافتعال طاء لوقوعها بعد حرف إطباق، وهو الصاد، كما دل عليه بيت ابن مالك الذي قدمنا قريباً.

﴿مُّحۡتَضَرٞ﴾؛ أي: يحضره صاحبه في نوبته. وهو اسم مفعول من احتضر بمعنى حضر. لأن الماء كان مقسوماً بينهم. واحتضر، وحضر بمعنى واحد. ﴿قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡ﴾؛ أي: مقسوم بينهم، لها يوم، ولهم يوم. فالماء قسم من قبيل تسمية المفعول بالمصدر، كضرب الأمير. و﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ لتغليب العقلاء.

﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ﴾ أصله: ناديوا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت

الألف لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة. ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ فيه إعلال بالقلب. أصله: تعاطي بوزن تفاعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح؛ أي: فتناول السيف، وعقرها. ﴿فَعَقَرَ﴾ يقال: عقر البعير والفرس بالسيف فانعقر؛ أي: ضرب به قوائمه، وبابه ضرب.

﴿كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ الهشم: كسر الشيء الرخو، كالنبات. والهشيم بمعنى المهشوم؛ أي: المكسور. وهو اليابس المتكسر من الشجر وغيره. والحظر: جمع الشيء في حظيرة. والمحظور: الممنوع. والمحتظر بكسر الظاء: اسم فاعل، وهو الذي يتخذ حظيرة من الحطب وغيره، والحظيرة: الزريبة، وفي «المختار»: الحظيرة التي تعمل للإبل من شجر لتقيها البرد والريح. والمحتظر بكسر الظاء الذي يعملها. والمعنى: صاروا كيبيس الشجر المتفتت إذ تفتت.

﴿حَاصِبًا﴾؛ أي: ريحاً حصبتهم؛ أي: رمتهم بالحجارة، والحصباء. قال الفرزدق:

مُسْتَقْبِلِيْنَ شِمَالَ ٱلشَّامِ تَضْرِبُنَا ... بِحَاصِبٍ كَنَدِيْفِ ٱلْقُطْنِ مَنْثُوْرِ

وفي «المختار»: الحصباء بالمد: الحصى. ومنه: المحصب. وهو موضع بالحجاز. والحاصب: الريح الشديدة تثير الحصى. والحصب بفتحتين: ما تحصب به النار؛ أي: ترمي. وكل ما ألقيته في النار فقد حصبتها به، وبابه ضرب.

﴿نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ سحر إذا كان نكرة يراد به سحر من الأسحار. يقال: رأيت زيداً سحراً من الأسحار. ولو أريد من يوم معين لمنع من الصرف. لأنّه معرفة معدول عن السحر، فمنع منه للتعريف والعدل. لأن حقه أن يستعمل في المعرفة بأل. وفي «المفردات»: السحر: اختلاط ظلام آخر الليل بصفاء النهار، وجعل اسماً لذلك الوقت، وهو آخر الليل، أو السدس الأخير.

فائدة: وقد اختلف في تعريف سحر الممنوع من الصرف، فقيل: إنه ممنوع من الصرف للتعريف والعدل، أما التعريف ففيه خلاف، فقيل: هو معرفة بالعلمية. لأنه جعل علما لهذا الوقت. وقيل: يشبه العلميّة؛ لأنه تعريف بغير أداة ظاهرة، كالعلم، وأما العدل فإن صيغته معدولة عن السحر المقرون بأل، لأنه لما أريد به معين كان الأصل فيه أن يذكر معرفاً بأل، فعدل عن اللفظ بأل، وقصد به التعريف، فمنع من الصرف. وقال السهيلي والشلوبين: الصغير معرف معروف. واختلف في

منع تنوينه. فقال السهيلي: هو على نية الإضافة. وقال الشلوبين: على نية أل.

﴿فَتَمَارَوْا﴾ أصله: تماريوا بوزن تفاعلوا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ﴾ المراودة: أن تنازع غيرك في الإرادة، فترود غير ما يروده. ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ الطمس: المحو، واستئصال أثر الشيء.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المبالغة في قوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ لأنَّ فيه زيادة مبالغة على قرب، كما أن في اقتدر زيادة مبالغة على قدر؛ لأن أصل افتعل إعداد المعنى بالمبالغة، نحو اشتوى إذا اتخذ شواء بالمبالغة في إعداده.

ومنها: الإتيان بصيغة الماضي للدلالة على تحقق الانشقاق في زمن النبي ﷺ. ويدل عليه قراءة حذيفة رضي الله عنه ﴿وقد انشق القمر﴾، كما مرّ.

ومنها: العدول عن المضارع إلى الماضي في قوله: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ بعد قوله: ﴿يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا﴾ بلفظ المستقبل مع أنَّ السياق يقتضي الإتيان بهما بلفظ المضارع لكونهما معطوفين على ﴿يُعْرِضُوا﴾ للإشعار بأنهما من عاداتهم القديمة.

ومنها: التشبيه المرسل المفصل في قوله: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ لأنَّ الأركان الأربعة موجودة فيه، فقد شبههم بالجراد في الكثرة، والتموج.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾.

ومنها: التلويح بقوله: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ بأنّ المؤمنين ليسوا في تلك المرتبة من الشدّة، بل ذلك اليوم يوم يسير لهم، حيث أسند القول إلى الكفار فقط.

ومنها: التفصيل بقوله: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ بعد الإجمال في قوله ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾.

ومنها: الإضافة إلى العظمة في قوله: ﴿عَبْدَنَا﴾ تفخيماً لشأن نوح عليه السلام، وإشعاراً لرفعة منزلته، وزيادة تشنيع لمكذّبيه؛ فإن تكذيب عبد السلطان أشنع من تكذيب عبد غيره، وإشارة إلى أنه لا شيء أشرف من العبودية.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ شبه تدفق المطر من السحاب بانصباب أنهار انفتحت بها أبواب السماء، وانشق بها أديم الخضراء بطريق الاستعارة التمثيلية.

ومنها: إنابة الصفة مناب الموصوف في قوله: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾ فإنه كناية عن موصوف محذوف، تقديره وحملناه على سفينة ذات ألواح ومسامير.

ومنها: تكرير قوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ حثًّا على تجديد الاتعاظ عند سماع كل نبأ.

ومنها: الاستفهام عن الحال في قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ تعظيماً للعذاب والإنذارات، أي: كانا على كيفية هائلة، بحيث لا يحيط بها الوصف.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾. ومثله قوله: ﴿فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾؛ أي: في إفنائهم، وإهلاكهم.

ومنها: المبالغة في قوله: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾؛ أي: كثير الكذب، عظيم البطر؛ لأنَّ فعالاً وفعلاً للمبالغة.

ومنها: إطلاق المصدر، وإرادة اسم المفعول في قوله: ﴿أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: مقسوم بينهم.

ومنها: تغليب العقلاء على غيرهم في قوله: ﴿بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: بينها، وبينهم.

ومنها: الإبهام في قوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ ليكون الوعيد أحفل بالانتقام، والتهديد أشد أثراً في النفوس. وأورده مورد الإبهام، وإن كانوا هم المعنيين؛ لأنه أراد وقت الموت، ولم يرد غداً بعينه. وهو شائع في كلام العرب نثراً ونظماً.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله[1] سبحانه وتعالى لمّا ذكر قصص قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وقوم فرعون، وفصّل ما أصيبوا به من عذاب الله الذي لا مرد له بسبب كفرهم بآياته، وتكذيبهم لرسله.. أعقب هذا بتنبيه كفار قريش إلى أنهم إن لم يتوبوا إلى رشدهم، ويرجعوا عن غيهم، فستحل بهم سنتنا، ويحيق بهم من البلاء مثل ما حل بأضرابهم من المكذبين من قبلهم، ولا يجدون عنه محيصاً ولا مهرباً. ثم خاطبهم خطاب إنكار وتوبيخ، فقال لهم: علام تتكلون؟ وماذا تظنون أأنتم خير ممن سبقكم عدداً وكثرة مال وبطشاً وقوة؛ أم لديكم صك من ربكم بأنه لن يعذبكم مهما أشركتم واجترحتم من السيئات أم تظنون أنكم جمع كثير لا يمكن أن ينال بسوء، ولا تصل إلى أذاكم يد مهما أوتيت من القوة. كلا إن شيئاً من هذا ليس بكائن، وإنكم ستنهزمون، وتولون الأدبار في الدنيا، وسيحل بكم قضاء الله الذي لا مفر منه، وما سترونه في الآخرة أشد نكالاً، وأعظم وبالاً، فأفيقوا من غفلتكم، وأنيبوا إلى ربكم عسى أن يرحمكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾...﴾ إلى آخر السورة، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر تكذيب الأمم الماضية

---

(١) المراغي.

لرسلها، كما كذبت قريش نبيها وأعقبه بذكر ما أصابهم في الدنيا من العذاب والهوان.. أردف ذلك بذكر ما سينالهم من النكال والوبال في الآخرة، فبين أنهم سيساقون على وجوههم إلى جهنم سوقاً إهانة، وتحقيراً لهم، ويقال لهم حينئذٍ توبيخاً وتعنيفاً: ذوقوا عذاب النار، وشديد حرها، ثم أعقبه ببيان أن كل شيء فهو بقضاء الله وقدره، وإذا أراد الله أمراً فإنما يقول له: كن، فيكون. ثم نبههم إلى ما كان يجب عليهم أن يتنبهوا له من هلاك أمثالهم من الأمم التي كذبت رسلها من قبله، وفعلت فعلها، فأخذها أخذ عزيز مقتدر.

ثم ختم السورة بذكر ما يتمتع به المتقون في جنات النعيم من إجلال وتعظيم، ويرون ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ سبب نزول هذه الآية[١]: ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالوا يوم بدر: نحن جميع منتصر، فنزلت: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾ سبب نزولها: ما أخرجه مسلم، والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر فنزلت: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾﴾ اكتفى بذكرهم عن ذكره، للعلم بأنّه أولى بالنذر، أي: وعزّتي وجلالي، لقد جاءهم الإنذارات التي أنذرهم بها موسى وهارون عليهما السلام. والمراد بها: الآيات التسع التي تقدم ذكرها. كأنه قيل: فماذا فعلوا حينئذٍ؟ فقال: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ يعني: الآيات التسع. وهي اليد، والعصا، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وحلّ عقدة من لسانه،

---

(١) لباب النقول.

وانفلاق البحر، وانفجار الماء من الحجر.

﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ﴾ بالعذاب عند التكذيب ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ لا يغالب ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ لا يعجزه شيء. والمراد: أنَّ الله سبحانه هو العزيز المقتدر، ولذا أخذهم بتكذيبهم، ولم يمنعه من ذلك مانع. والمراد بالعذاب: هو الإغراق في بحر القلزم أو النيل.

يقول الفقير: لعلّ[1] سر الغرق أن فرعون وصل إلى موسى بسبب الماء الذي ساقه إليه في تابوته، فلم يشكر لا نعمة الماء ولا نعمة موسى، فانقلب الحال عليه بضد ذلك، حيث أهلكه الله وقومَه بالماء الذي هو سبب الحياة لغيرهم.

والاستفهام في قوله: ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ للإنكار، أي: هل كفاركم يا معشر العرب خير عند الله تعالى قوة، وشدة، وعُدَّة، وعِدَّة ﴿مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ الكفار المعدودين قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وآل فرعون.

والمعنى: أنه أصابهم ما أصابهم مع ظهور خيريتهم منكم فيما ذكر من الأمور، فهل تطمعون أن لا يصيبكم مثل ذلك، وأنتم شر منهم مكاناً، وأسوأ حالاً.

أي[2]: أكفّاركم يا معشر قريش خير من أولئكم الذين أحللت بهم نقمتي من قوم نوح، وعاد، وثمود، فيأملوا أن ينجوا من عذابي، ونقمتي على كفرهم بي، وتكذيبهم رسولي.

وتلخيص المعنى: ما كفاركم خير ممن سبقهم. فهم ليسوا بأكثر منهم قوّةً، ولا أوفر عدداً، ولا ألين شكيمة في الكفر، والعصيان، والضلال، والطغيان.

وقد أصاب من هم خير منهم ما أصابهم، فكيف يطمعون في المهرب من مثل ذلك. فليتوبوا إلى رشدهم، وليرجعوا عن غيهم قبل أن يندموا ولات ساعة مندم.

ثم انتقل من توبيخهم الأوّل إلى توبيخ أشد منه، فقال: ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ و﴿أم﴾ منقطعة بمعنى همزة الإنكار، وبل الإضرابية، فهو[3] إضراب وانتقال

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

من التبكيت بما ذكر إلى التبكيت بوجه آخر، أي: بل ألكم براءة، وأمن من عذاب الله بمقابلة كفركم، ومعاصيكم، نازلة في الكتب السماوية، فلذلك تصرون على ما أنتم عليه، وتأمنون بتلك البراءة.

والمعنى به: الإنكار. يعني: لم ينزل لكم في الكتب السماوية أن من كفر منكم فهو في أمن من عذاب الله.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ جهلاً منهم ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ تبكيت آخر. والالتفات فيه للإيذان باقتضاء حالهم للإعراض عنهم، وإسقاطهم عن رتبة الخطاب، وحكاية قبائحهم لغيرهم. يقال: نصره من عدوه فانتصر؛ أي: منعه فامتنع؛ أي: بل أيقولون واثقين بشوكتهم نحن أولو حزم ورأي، أمرنا مجتمع لا نرام ولا نضام، أو منتصر من الأعداء منتقم منهم لا نغلب، أو متناصر ينصر بعضنا بعضاً على أن يكون افتعل بمعنى تفعل، كاختصم. والإفراد في ﴿مُّنتَصِرٌ﴾ باعتبار لفظ الجميع. قال أبو جهل - وقد ركب يوم بدر فرساً كميتاً كان يعلفه كل يوم فرقاً من ذرةٍ، وقد حلف أنه يقتل محمداً ﷺ -: نحن ننتصر اليوم من محمد وأصحابه، فقتلوه يومئذٍ، وجر رأسه إلى رسول الله ابن مسعود رضي الله عنه.

والمعنى[1]: أي أم لكم صك بالبراءة من تبعات ما تجترحون من السيئات، وأن ربكم لن يعاقبكم على ما تدسون به أنفسكم من الشرور والآثام، فأنتم على هذا الصك تعتمدون، وبهذا الوعد آمنون، حقاً إنكم لتطمعون في غير مطمع، وليس بين أيديكم ولا قلامة ظفر من هذا، فعلام تتكلون، أو إلام تستندون؟.

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾؛ أي: بل هم يقولون نحن واثقون بشوكتنا. فنحن قوم أمرنا مجتمع لا نرام ولا نضام، وإنا منصورون على من قصدنا بسوء، أو أراد حربنا وتفريق جمعنا.

وجماع القول: إنه تعالى سد عليهم المسالك، ونقض جميع المعاذير التي ربما تعللوا بها في عدم تصديقهم بالرسول، وفي كفرهم بآيات ربهم، فقال لهم: لم لا تخافون أن يحل بكم مثل ما حل بمن قبلكم؟ أأنتم أقل كفراً وعناداً منهم،

---

(١) المراغي.

فيكون ذلك سبب الأمن من حلول مثل عذابهم بكم، أم أعطاكم الله براءة من عذابه أم أنتم أعز منهم جنداً، فأنتم تنتصرون على جند الله؟.

ثم رد عليهم مقالهم، وأبان لهم أنهم يعشيون في بحر من الأوهام، وأن قضاء الله سيحل بهم، وسيهزمون ويولون الأدبار متى جاء قضاؤه، فقال: ﴿سَيُهْزَمُ﴾ ويفرق، ويشتت ﴿الْجَمْعُ﴾؛ أي: جمع قريش. وهذا رد وإبطال لما سبق. والسين للتأكيد، أي: سيهزم جمع كفار مكة، أو جمع كفار العرب على العموم. ﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾؛ أي: الأدبار. والتوحيد لإرادة الجنس، يعني: ينصرفون عن الحرب منهزمين، وينصر الله رسوله والمؤمنين، وقد كان كذلك يوم بدر.

والمعنى[1]: أي سيفرق شملهم، ويغلبون حين يلتقي جيشهم وجيش المؤمنين. وقد صدق وعده، فانهزموا، وولوا الأدبار يوم بدر. وكان هذا علماً من أعلام النبوة؛ فإن الآية نزلت بمكة، ولم يكن له ﷺ يومئذٍ جيش، بل كان أتباعه مشردين في الآفاق، يلاقون العذاب من المشركين في كل صوب.

قال سعيد بن المسيب: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: لما نزلت ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ كنت لا أدري أي جمع، فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يلبس الدرع ويقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾، فعرفت تأويلها. وهذا من معجزاته ﷺ. لأنه أخبر عن غيب فكان كما أخبر، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان بين نزول هذه الآية وبين يوم بدر سبع سنين. فالآية على هذا مكيّة.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بياء الغيبة التفاتاً، وكذا ما بعده للغائب، وقرأ أبو حيوة، وموسى الأسواري، وأبو البرهشيم بتاء الخطاب للكفّار إتباعاً لما تقدم من خطابهم، وقرأوا ﴿ستَهزِم الجمعَ﴾ بفتح التاء وكسر الزاي، وفتح العين خطاباً لرسول الله ﷺ.

وقرأ أبو حيوة أيضاً، ويعقوب بالنون مفتوحةً، وكسر الزاي وفتح العين.

وقرأ الجمهور ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ﴾ بالياء مبنياً للمفعول، وضمّ العين، وعن أبي

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

حيوة، وابن أبي عبلة أيضاً بفتح الياء مبنياً للفاعل، ونصب العين؛ أي: سيهزم الله الجمع، وقرأ الجمهور ﴿وَيُوَلُّونَ﴾ بياء الغيبة، وأبو حيوة، وداود بن أبي سالم عن أبي عمرو بتاء الخطاب. والدبر هنا اسم جنس، وجاء في موضع آخر ﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾. وهو الأصل، وحسن اسم الجنس هنا كونه فاصلةً، قال الزمخشري: وقرىء ﴿ويولون الأدبار﴾ بالجمع.

ثم بين أن هذا عذاب الدنيا، وسيلاقون يوم القيامة ما هو أشد منه نكالاً، فقال: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾؛ أي[1]: ليس هذا تمام عقوبتهم، بل القيامة موعد أصل عذابهم، وهذا من طلائعه. ﴿وَٱلسَّاعَةُ﴾؛ أي: القيامة إظهارها في موضع إضمارها لتربية تهويلها. ﴿أَدْهَىٰ﴾؛ أي: أعظم داهية، وفي أقصى غاية من الفظاعة. والداهية: الأمر الفظيع الذي لا يهتدى إلى الخلاص منه. ﴿وَأَمَرُّ﴾؛ أي: أشد مرارة، وفي أقصى نهاية من المرارة.

وحاصله: إن موقف القيامة أهول من موقف بدر، وعذابها أشد وأعظم من عذابه؛ لأن عذاب الدنيا مثل الأسر، والقتل، والهزيمة، ونحوها أنموذج من عذاب الآخرة. كما أن نارها جزء من سبعين جزأ من نارها.

والمعنى[2]: أي إن ما سيلاقونه من العذاب في الدنيا من الهزيمة، والقتل، والأسر هين إذا ما قيس على ما سيلاقونه من العذاب في الآخرة، فإن ذا أشد وآلم. فهو عذاب خالد دائم، وسيأتي بعد وصف ما فيه من فظاعة ونكر.

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنّ النبي ﷺ قال وهو في قبَّة له يوم بدر: «أنشدك عهدك، ووعدك، اللهم إن شئت لن تعبد بعد اليوم في الأرض أبداً» فأخذ أبو بكر رضي الله عنه بيده، وقال: حسبك يا رسول الله، ألححت على ربك، فخرج وهو يثب في الدرع، ويقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: إنّ المشركين من الأولين والآخرين ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ وخطأ عن الحق في الدنيا ﴿و﴾ في ﴿سعر﴾؛ أي: نيران مسعرة في الآخرة، جمع سعير.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

أو في ضلال عن الحق، وجنون في الشرك.

والمعنى: أي إن المشركين بالله المكذبين لرسله في ضلال عن الصراط المستقيم، وعماية عن الهدى في الدنيا، وعذاب أليم في نار جهنم يوم القيامة.

ثم بين ما يلحقهم من الإهانة، والإذلال حينئذٍ، فقال: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ﴾ والظرف[1] منصوب إما بما يفهم من قوله ﴿في ضلال﴾؛ أي: كائنون في ضلال وسعر يوم يجرّون ﴿فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾. وإما بقول مقدر بعده؛ أي: يوم يسحبون يقال لهم: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾؛ أي: قاسوا حر سقر، وشدة ألمها، فإن مسها سبب للتألم بها، فمس سقر مجاز عن ألمها بعلاقة السببية، وفي «القاموس»: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾؛ أي: أوّل ما ينالكم منها، كقولك: وجد مسَّ الحمى؛ أي: ألمها، وحرارتها، انتهى. وسقر علم لجهنم، ولذلك لم يصرف. وقيل: اسم لطبقتها الخامسة. والمس كاللمس: إدراك الشيء بظاهر البشرة كما سيأتي.

وقرأ محبوب عن أبي عمرو[2]: ﴿مسقر﴾ بإدغام سين ﴿مس﴾ في سين ﴿سقر﴾. قال ابن مجاهد إدغامه خطأ. لأنه مشدد، انتهى. والظن بأبي عمرو أنه لم يدغم حتى حذف إحدى السينين لاجتماع الأمثال، ثم أدغم.

والمعنى[3]: أي يعذبون، ويهانون يوم يجرون على وجوههم في النار. ويقال لهم إيلاماً، وتضيفاً: ذوقوا حر النار، وآلامها جزاء وفاقاً لتكذيبكم رسل ربكم في كل ما جاؤوا به من الإنذار بهذا اليوم، والتحذير مما يقع فيه للكافرين من العذاب، والتبشير بما للمتقين فيه من ثواب.

ثم بين أن كل ما يوجد في هذه الحياة.. فهو لا يحدث اتفاقاً، وإنما يحصل بقضاء الله سبحانه وقدره. فقال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء. وهو منصوب بفعل مقدر يفسره ما بعده. ﴿خَلَقْنَٰهُ﴾ حال كون ذلك الشيء متلبساً ﴿بِقَدَرٍ﴾ متعين، اقتضته الحكمة التي عليها يدور أمر التكوين. فقدر بمعنى التقدير[4].

وهو تسوية صورته، وشكله، وصفاته الظاهرة والباطنة على مقدار مخصوص

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

(٤) روح البيان.

اقتضته الحكمة، وترتبت عليه المنفعة المنوطة بخلقه. أو خلقناه مقدرا مكتوباً في اللوح قبل وقوعه، لا يغير ولا يبدل.

والمعنى: أنَّ كل شيء من الأشياء خلقه الله سبحانه متلبساً بقدر قدره أزلاً، وقضاءٍ قضاه سبق في علمه، مكتوب في اللوح المحفوظ قبل وقوعه فيما لا يزال. والقدر: التقدير الأزلي. والقضاء إيجاده فيما لا يزال على وقف القدر السابق أزلاً. فالمراد بالقدر: تقديره في علمه الأزليّ، وكتبه في اللوح المحفوظ، وهو القدر المستعمل في جنب القضاء. وقيل: القضاء: وجود جميع المخلوقات في اللوح المحفوظ مجتمعة. والقدر: وجودها متفرقة في الأعيان بعد وجود شرائطها، ولذا عبّر بالخلق؛ فإنه إنما يتعلق بالوجود الظاهري في الوقت المعيّن. وقيل: هما مترادفان.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ بالنصب على الاشتغال. وقرأ أبو السمال، وقال ابن عطية، وقوم من أهل السنة بالرفع.

قال النواويّ رحمه الله تعالى: اعلم أنَّ مذهب أهل الحق إثبات القدر. ومعناه: أن الله تعالى قدر الأشياء في القدم، وعلم سبحانه وتعالى أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه، وعلى صفات مخصوصة. فهي تقع على حسب ما قدرها تعالى أزلاً. وأنكرت القدرية هذا، وزعمت أنه سبحانه وتعالى لم يقدرها، ولم يتقدم علمه بها، وأنها مستأنفة العلم؛ أي: إنما يعلمها سبحانه وتعالى بعد وقوعها. وكذبوا على الله سبحانه وتعالى عن أقوالهم الباطلة علواً كبيراً، انتهى.

﴿وَمَآ أَمْرُنَآ﴾ لشيء نريد تكوينه. والمراد بالأمر هنا: ضد النهي بدليل ذكر متعلقه بقولنا: ﴿شَىْءٍ﴾. والشيء هو المأمور به بأن يوجد أو يعدم. ﴿إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾؛ أي:[2] كلمة واحدة لا تثنى سريعة التكوين. وهو قوله تعالى: ﴿كُن﴾، أو إلا فعلة واحدة. وهو الإيجاد بلا معالجة ومعاناة ﴿كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ﴾ في اليسر، والسرعة. فإن اللمح: النظر بالعجلة، فمعنى ﴿كَلَمْحٍ﴾: كنظر سريع. قال في «القاموس»: لمح إليه كمنع اختلس النظر كألمح. وفي «المفردات»: اللمح: لمعان البرق، ورأيته لمحة برق.

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

قال ابن الشيخ: لما اشتملت الآيات السابقة على وعيد كفار أهل مكة بالإهلاك عاجلاً وآجلاً، والوعد للمؤمنين بالانتصار منهم جيء بقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ تأكيداً للوعيد والوعد. يعني: أنّ هذا الوعيد والوعد حق وصدق، والموعود مثبت في اللوح المحفوظ مقدر عند الله تعالى، لا يزيد، ولا ينقص، وذلك على الله يسير؛ لأن قضاءه في خلقه أسرع من لمح البصر.

وقيل معنى الآية: أي معنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾؛ أي: وما أمر الساعة إلا كلمح البصر.

والمعنى: أي إنا إذا أردنا أمراً قلنا له: كن، فإذا هو كائن. ولا يحتاج إلى تأكيد الأمر بثانية، ولا ثالثة. ولله در القائل:

إِذَا أَرَادَ ٱللهُ أَمْــــراً فَــــإِنَّــــمَـــــا يَــقُــوْلُ لَــهُ قَــوْلَ «كُــنْ» فَــيَــكُــوْنُ

وهذا[1]: تمثيل لسرعة نفاذ المشيئة في إيجاد الخلق. فهي في السرعة كلمح البصر، لا إبطاء ولا تأخير.

ثم أنبهم على ما هم فيه من غفلة وعماية عن الحق بعد وضوحه، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ﴾ وأفنينا، واستأصلنا ﴿أَشْيَاعَكُمْ﴾ وأشباهكم، ونظراءكم في الكفر بي، والتكذيب لرسلي ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ ومتعظ يتعظ بذلك، فيخاف العقوبة، وأن يحل به مثل ما حل بهم. والأشياع: جمع شيعة، وشيعة الرجل أتباعه وأنصاره، كما سيأتي.

والمعنى: أي وعزتي وجلالي.. لقد أهلكنا، وأفنينا، واستأصلنا أشباهكم ونظراءكم يا معشر قريش من المكذبين لأنبيائهم من الأمم الخالية، المتتابعة في مذهب ودين، واستأصلنا شأفتهم بحسب سنتنا في أمثالهم بشتى العقوبات، ومختلف الوسائل ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾. أفما كان لكم في ذلك مزدجر تعتبرون به، فتنيبوا إلى ربكم وتسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون، ونحو الآية: قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾.

---

(١) روح البيان.

ثم بين لهم أن كل أعمالهم محصاة عليهم، وسيحاسبون على النقير والقطمير فقال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ﴾ من الكفر، والمعاصي، مكتوب على التفصيل ﴿فِي الزُّبُرِ﴾؛ أي: في ديوان الحفظة. جمع زبور بمعنى الكتاب. فهو بمعنى مزبور، كالكتاب بمعنى المكتوب. أو في اللوح المحفوظ عبر عنه بالجمع تفخيماً لشأنه؛ أي: جميع ما فعلته الأمم من خير أو شر مكتوب في اللوح المحفوظ، أو في كتب الحفظة.

وقال الغزالي رحمه الله تعالى: كل شيء فعلته الأمم في كتب أنبيائهم المنزلة عليهم، كأفعال كفار زماننا في كتابنا، انتهى.

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ وحقير، وجليل من الأعمال ﴿مُسْتَطَرٌ﴾؛ أي: مسطور في اللوح المحفوظ بتفاصيله؛ أي: وكل شيء من أعمال الخلق أقوالهم وأفعالهم مكتوب في اللوح المحفوظ صغيره، وكبيره، جليله، وحقيره.

والمعنى: أي وكل شيء يفعلونه، فيدسون به أنفسهم من الكفر والمعاصي ويدنسونها به من الأرجاس والآثام، فهو مقيد لدى الكرام الكاتبين، كما قال: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾. فما من صغيرة ولا كبيرة إلا وهي مسطورة في دواوينهم، وصحائف أعمالهم. فليحذروا ما هم عليه قادمون من الحساب العسير على الجليل والحقير ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

روى الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب، فإن لها من الله طالباً». وقد قيل:

لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ ٱلذُّنُوبِ صَغِيْرَا ... إِنَّ ٱلصَّغِيْرَ غَدَاً يَعُوْدُ كَبِيْرَا

إِنَّ ٱلصَّغِيْرَ وَإِنْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ ... عِنْدَ ٱلإِلَـٰهِ مُسَطَّرٌ تَسْطِيْرَا

فَٱسْأَلْ هِدَايَتَكَ ٱلإِلَـٰهَ فَتَتَّئِدْ ... فَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيَاً وَنَصِيْرَا

ولقد أحسن من قال:

خَلِّ ٱلذُّنُوبَ صَغِيْرَهَا ... وَكَبِيْرَهَا ذَاكَ ٱلتُّقَىٰ

وَٱصْنَعْ كَمَاشٍ فَوْقَ أَرْ ... ضِ ٱلشَّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرَىٰ

لاَ تَحْقِرَنَّ صَغِيْرَةً إِنَّ الْجِبَالَ مِنَ الْحَصَى

وقرأ الأعمش[1]، وعمران بن حدير، وعصمة عن أبي بكر بشد راء ﴿مستطرٌّ﴾.

قال صاحب «اللوامح»: يجوز أن يكون من طر النبات والشارب إذا ظهر ونبت بمعنى كل شيء ظاهر في اللوح المحفوظ، مثبت فيه. ويجوز أن يكون من الاستطار، لكن شدد الراء للوقف على لغة من يقول: جعفر، وتفعل بالتشيد وقفاً، انتهى. ووزنه على التوجيه الأول استفعل، وعلى الثاني افتعل.

وبعد أن ألمع إلى ما يصيب الكافرين من الإهانة في ذلك اليوم، أردفه بما يناله المتقون من الكرامة عند ربهم، وما يحفظون به من الشرف والزلفى بحسب سنة القرآن من ذكر الثواب إثر العقاب، والعكس بالعكس. فقال:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: من الكفر، والمعاصي ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾؛ أي: بساتين عظيمة الشأن بحيث لا يوصف نعيمها، وما أعد فيها لأهلها. ﴿وَنَهَرٍ﴾؛ أي: أنهار كذلك. يعني: أنهار الماء، واللبن، والخمر، والعسل. والإفراد للأفراد للاكتفاء باسم الجنس مراعاة للفواصل.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿وَنَهَرٍ﴾ على الإفراد، والهاء مفتوحة. والأعرج، ومجاهد، وحميد، وأبو السمال، والفياض بن غزوان بسكونها. والمراد به: الجنس إن أريد الأنهار، أو يكون معنى ﴿وَنَهَرٍ﴾، أي: وسعة في الأرزاق والمنازل. وقرأ[3] زهير العرقبي، والأعمش، وأبو نهيك، وأبو مجلز، واليماني بضم النون والهاء، جمع نهر، كرهن ورهن، أو نهر كأسد وأسد. وهو المناسب لجمع جنات. وقيل: نهر جمع نهار. ولا ليل في الجنة وهو بعيد.

﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ خبر بعد خبر. وهو[4] من إضافة الموصوف إلى الصفة، كمسجد الجامع. والصدق بمعنى الجودة؛ أي: في مكان مرضي، ومجلس حقٍّ سالم من اللغو والتأثيم. بخلاف مجالس الدنيا، فقل أن تسلم من ذلك. حال

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.
(٣) البحر المحيط.
(٤) روح البيان.

كونهم ﴿عِندَ مَلِيكٍ﴾ والمراد من العندية: قرب المنزلة والمكان، لا قرب المكان والمسافة. والمليك أبلغ من المالك. والتنكير فيه للتعظيم.

والمعنى: حال كونهم مقربين عند عزيز الملك واسعه لا يقادر قدر ملكه، فلا شيء إلا وهو تحت ملكوته، فأي منزلة أكرم من تلك، وأجمع للغبطة كلها، والسعادة بأسرها، وقرأ الجمهور ﴿فِي مَقْعَدِ﴾ بالإفراد، يراد به: اسم الجنس، وقرأ عثمان البتي ﴿في مقاعد﴾ على الجمع. ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾؛ أي: قادر لا يعجزه شيء، عال أمره في الاقتدار.

والمعنى[1]: أي إن الذين اتقوا عقاب ربهم، فأطاعوه، وأدوا فرائضه، واجتنبوا معاصيه، وأخلصوا له العمل في السر والعلن، يثبهم بما عملوا جنات تجري من تحتها الأنهار، يحلون فيها من أساور من ذهب، ويجلسون على فرش بطائنها من إستبرق، ويجدون فيها من النعيم ما لا يخطر على قلب بشر كفاء ما بذلوا من الصبر على شاق الطاعات، وحرموا منه أنفسهم من اللذات. كما قيل للربيع بن خيثم، وقد صلى حتى ورمت قدماه، وتهجد حتى غارت عيناه: أتعبت نفسك، فقال: راحتها أطلب. كما ينالون الزلفى عند ربهم القادر على جزائهم بإحسانه وجوده ومنته، فكل شيء تحت قبضته وسلطانه، لا يمانع، ولا يغالب. وهو العزيز الحكيم.

اللهم احشرنا في زمرتهم، واجعلنا ممن يسمعون القول، فيتبعون أحسنه. إنّك أنت السميع المجيب ذو الطول العظيم.

الإعراب

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، واللام موطئة للقسم، ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿جَآءَ﴾ فعل ماض، ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ مفعول به، ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ فاعل. والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب. وجملة القسم مستأنفة. ﴿كَذَّبُوا۟﴾ فعل، وفاعل، ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿كَذَّبُوا۟﴾، ﴿كُلِّهَا﴾ توكيد لـ

(١) المراغي.

﴿أياتنا﴾، مجرور، والجملة الفعلية مستأنفة استئنافاً بيانياً واقعاً في جواب سؤال مقدر نشأ من حكاية مجيء النذر، كأنّه قيل: فماذا فعلوا حينئذٍ؟ فقيل: كذّبوا بآياتنا. ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ﴾. ﴿الفاء﴾ عاطفة ﴿أخذناهم﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به، معطوف على ﴿كَذَّبُوا۟﴾. ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ مفعول مطلق، ﴿عَزِيزٍ﴾ مضاف إليه. وهو من إضافة مصدر إلى فاعله. ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ صفة ﴿عَزِيزٍ﴾.

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري بمعنى النفي، ﴿كفاركم﴾ مبتدأ، ﴿خَيْرٌ﴾ خبره. والجملة مستأنفة. ﴿مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿خَيْرٌ﴾، ﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى همزة الإنكار، وبل الإضرابية، ﴿لَكُم﴾ خبر مقدم، ﴿بَرَآءَةٌ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿فِى ٱلزُّبُرِ﴾ صفة لـ ﴿بَرَآءَةٌ﴾. والجملة جملة إضرابية، لا محل لها من الإعراب. ﴿أَمْ﴾ منقطعة أيضاً بمعنى همزة الإنكار، وبل الإضرابية، ﴿يَقُولُونَ﴾ فعل، وفاعل. والجملة إضرابية. ﴿نَحْنُ﴾ مبتدأ ﴿جَمِيعٌ﴾ خبره، ﴿مُّنتَصِرٌ﴾ صفة ﴿جَمِيعٌ﴾. لأنّه بمعنى جميع. والجملة الاسمية في محل النصب، مقول ليقولون. ﴿سَيُهْزَمُ﴾ السين حرف استقبال، ﴿يهزم﴾ فعل مضارع، مغير الصيغة، ﴿ٱلْجَمْعُ﴾ نائب فاعل. والجملة الفعلية مستأنفة، ﴿وَيُوَلُّونَ﴾ فعل، ونائب فاعل، معطوف على ﴿يهزم﴾، ﴿ٱلدُّبُرَ﴾ مفعول به. ولم يقل: الأدبار، لموافقة رؤوس الآي، ولأنّه اسم جنس، كما مر. ﴿بَلِ﴾ حرف ابتداء وإضراب، ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ مبتدأ، ﴿مَوْعِدُهُمْ﴾ خبره. والجملة إضرابية. ﴿وَٱلسَّاعَةُ﴾ الواو: عاطفة، ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ مبتدأ، ﴿أَدْهَىٰ﴾ خبر، ﴿وَأَمَرُّ﴾ معطوف على أدهى. والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، ولك أن تجعل ﴿الواو﴾ للحال. ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ناصب واسمه، ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ خبره، ﴿وَسُعُرٍ﴾ معطوف على ﴿ضَلَٰلٍ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿يَوْمَ﴾ منصوب على الظرفية، متعلق بقول محذوف، تقديره: يقال لهم: يوم يسحبون. ﴿يُسْحَبُونَ﴾ فعل مضارع، ونائب فاعل ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾، متعلق بـ﴿يُسْحَبُونَ﴾،

وجملة ﴿يُسْحَبُونَ﴾ في محل الجر، مضاف إليه لـ ﴿يَوْمَ﴾، ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ جار ومجرور، حال من واو ﴿يُسْحَبُونَ﴾. ﴿ذُوقُوا۟﴾ فعل أمر، مبنيّ على حذف النون، والواو: فاعل، ﴿مَسَّ سَقَرَ﴾ مفعول به، ﴿سَقَرَ﴾ مضاف إليه، مجرور بالفتحة للعلمية والتأنيث المعنوي. والجملة الفعلية في محل النصب، مقول للقول المقدر. ﴿إِنَّآ﴾ ناصب واسمه، ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ منصوب على الاشغال بفعل محذوف وجوباً، يفسّره المذكور، تقديره: إنّا أوجدنا كل شيء، وجملة الفعل المحذوف في محل الرفع خبر ﴿إِنَّا﴾. وجملة ﴿خَلَقْنَٰهُ﴾ مفسرة، لا محل لها من الإعراب. وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة. ﴿بِقَدَرٍ﴾ متعلق بمحذوف حال من ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾؛ أي: حالة كونه مقدّراً محكماً مرتباً. ﴿وَمَآ﴾ الواو: عاطفة، ﴿ما﴾ نافية، ﴿أَمْرُنَآ﴾ مبتدأ، ﴿إلا﴾ أداة حصر ﴿وَٰحِدَةٌ﴾ خبر أمرنا. والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿إِنَّا﴾. ﴿كَلَمْحٍ﴾ حال من متعلق الأمر. وهو الشيء المأمور بالوجود، أي: حال كونه يوجد سريعاً، و﴿بِٱلْبَصَرِ﴾ متعلق بـ ﴿لمح﴾.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، واللام موطئة للقسم، ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به. والجملة جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة. ﴿فَهَلْ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿هل﴾ حرف استفهام، ﴿مِن﴾ زائدة، ﴿مُّدَّكِرٍ﴾ مبتدأ، خبره محذوف، تقديره: موجود. والجملة معطوفة على جواب القسم قبلها. ﴿وَكُلُّ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿كلُّ شيءٍ﴾ مبتدأ ومضاف إليه، وجملة ﴿فَعَلُوهُ﴾ صفة لـ ﴿شَىْءٍ﴾، ﴿فِى ٱلزُّبُرِ﴾ خبر. والجملة الاسمية معطوفة على جملة جواب القسم. ﴿وَكُلُّ﴾ الواو: عاطفة، ﴿كُلُّ﴾ مبتدأ، ﴿صَغِيرٍ﴾ مضاف إليه، ﴿وَكَبِيرٍ﴾ معطوف على ﴿صَغِيرٍ﴾، ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ خبر المبتدأ. والجملة معطوفة على جواب القسم. ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ناصب واسمه، ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، ﴿وَنَهَرٍ﴾ معطوف على ﴿جَنَّٰتٍ﴾. وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، بدل من قوله: ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ بدل بعض من كل، لأنّ المقعد بعض الجنات. ولك أن تجعله خبراً ثانياً لـ ﴿إِنَّ﴾. ﴿عِندَ مَلِيكٍ﴾ ظرف متعلق بمحذوف،

صفة لـ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ أو لـ ﴿مَقْعَدِ﴾، وقيل: هو خبر ثان أو ثالث لـ ﴿إِنَّ﴾، ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ صفة لـ ﴿مَلِيكٍ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾﴾ النذر بمعنى الإنذار، أو جمع نذير باعتبار الآيات التسع، فإنَّ كل واحدة منها نذير؛ أي: إنذار على حدة، اهـ كرخي.

﴿أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ مصدر مضاف إلى فاعله؛ أي: أخذ غالب لا يغالب، ولا يغلب. ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾؛ أي: لا يعجزه شيء. ﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ أصله: يوليون، استثقلت الضمة على الياء فحذفت للتخفيف، فالتقى ساكنان فحذفت الياء وضمت اللام لمناسبة الواو. ﴿بَرَآءَةٌ﴾؛ أي: صك مكتوب بالنجاة من العذاب. ﴿في الزبر﴾ أي: في الكتب السماوية. جمع زبور بمعنى مزبور؛ أي: مكتوب. ﴿جميع منتصر﴾ اسم فاعل من انتصر الخماسي، يقال: نصره من عدوه فانتصر؛ أي: منعه فامتنع.

﴿ٱلدُّبُرَ﴾؛ أي: الأدبار. والدبر هنا اسم جنس. لأن كل واحد يولي دبره. وحسن إفراده كونه فاصلة. ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ﴾ أفعل التفضيل من الداهية. وفيه إعلال بالقلب، أصله: أدهى بوزن أفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿وَأَمَرُّ﴾؛ أي: أشد مرارة، أصله: أَمْرَر بوزن أفعل، نقلت حركة الراء الأولى إلى الميم فسكنت فأدغمت في الراء الثانية. وهو أفعل التفضيل أيضاً من المرارة، أي: أشد مرارة في الذوق. والمراد: الشدة والهول.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ المراد بهم: المشركون، كما جاء في قوله: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾. من الإجرام بمعنى القطع. ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ في الدنيا عن الحق. ﴿وَسُعُرٍ﴾؛ أي: نيران في الآخرة، جمع سعير بمعنى نار مسعرة؛ أي: موقدة. ﴿يُسْحَبُونَ﴾ يجرون. ﴿مَسَّ﴾ مسها حرها. ﴿سَقَرَ﴾ علم لجهنم، مشتق من سقرته الشمس أو النار، أي: لوحته أي: غيرته، ويقال: صقرته بالصاد، وهي مبدلة من السين. وهي غير منصرف للعلمية والتأنيث. والمس كاللمس. وهو إدراك الشيء بظاهر البشرة، كما مر.

﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ واللمح: النظر بالعجلة. وفي «المصباح»: لمحه إذا أبصره بنظر خفيف، أي: فكما أن لمح أحدكم ببصره لا كلفة عليه فيه، فكذلك الأفعال

كلها عندنا، بل أيسر، اهـ خطيب. وفي «القاموس»: لمح إليه كمنع اختلس النظر كألمح. وفي «المفردات»: اللمح: لمعان البرق، ورأيته لمحة برق، اهـ.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ جمع شيعة. وهم من يتقوى بهم الإنسان من الأتباع. وفي «القاموس»: شيعة الرجل بالكسر أتباعه، وأنصاره، والفرقة على حدة، ويقع على الواحد، والاثنين، والجمع، والمذكر، والمؤنث. ﴿مُسْتَطَرٌ﴾ اسم مفعول من استطره إذا كتبه، كما في «القاموس». ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ هو من إضافة الموصوف إلى صفته، كمسجد الجامع، وصلاة الوسطى؛ أي: مكان مرضيٍّ.

﴿عِندَ مَلِيكٍ﴾ صيغة مبالغة من ملك الثلاثي؛ أي: عزيز الملك واسعه.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

ومنها: الالتفات من الخطاب في قوله: ﴿أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ إلى الغيبة في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ للإيذان باقتضاء حالهم للإعراض عنهم، وإسقاطهم عن رتبة الخطاب، وحكاية قبائحهم لغيرهم.

ومنها: الإفراد في قوله: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ حيث لم يقل: منصورون لرعاية الفاصلة.

ومنها: الإفراد في قوله: ﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ حيث لم يقل: الأدبار لإرادة الجنس. لأنَّ كل واحد يولي دبره. وحسن إفراده كونه فاصلةً، وقد جاء مجموعاً في قوله: ﴿لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ﴾.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ﴾ لتربية تهويلها، وزيادة تخويفها.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿وَأَمَرُّ﴾ لأنه استعارة لصعوبة الشيء على النفس.

ومنها: المقابلة بين المجرمين والمتقين في قوله: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾ وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾.

ومنها: الأسلوب التهكمي في قوله: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿مَسَّ سَقَرَ﴾ لأنه مجاز عن حرارتها وألمها بعلاقة السببية، والظاهر من تقرير الكشاف: أنه من الاستعارة بالكناية، اهـ كرخي.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ حذف منه وجه الشبه. فهو مجمل.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾.

ومنها: الإفراد في قوله: ﴿وَنَهَرٍ﴾ للاكتفاء باسم الجنس مراعاة للفواصل، وكان مقتضى السياق أن يقال وأنهار لمناسبة جنات.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿عِندَ مَلِيكٍ﴾ لأنه كناية عن تقريب المكانة والرتبة؛ أي: مقربين عند من تعالى أمره في الملك والاقتدار.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿مَلِيكٍ﴾ للتعظيم.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة موضوعات هذه السورة الكريمة

اشتملت هذه السورة على الموضوعات التالية:

١ - الإخبار بقرب مجيء الساعة.

٢ - تكذيب المشركين للرسول، وقولهم في معجزاته: إنها سحر مفترى.

٣ - غفلتهم عمّا في القرآن من الزواجر.

٤ - أمر الرسول ﷺ بالإعراض عنهم، حتى يأتي قضاء الله فيهم.

٥ - إنذارهم بأنهم سيحشرون أذلاء ناكسي الرؤوس مسرعين كأنهم جراد منتشر.

٦ - قصص المكذّبين من سالفي الأمم: كقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم فرعون، وما لا قوه من الجزاء على تكذيبهم.

٧ - توبيخ المشركين على ما هم فيه من الغفلة عن الاعتبار بهذه النذر.

٨ - ما يلاقونه من الجزاء في الآخرة إهانة وتحقيراً لهم.

٩ - بيان أن كل ما في الوجود فهو بقضاء الله، وقدره.

١٠ - نفاذ مشيئة الله، وسلطانه في الكون.

١١ - بيان أن كل أعمال المرء في كتاب الله، قد خطّه الكرام الكاتبون.

١٢ - ما أوتيه المتقون من الكرامة عند ربهم، وما لهم من الزلفى لديه(١).

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) قد فرغت من تسويد هذه السورة في الليلة الثالثة من رجب الفرد في أواخر الساعة الرابعة ليلة الإثنين من شهور سنة ألف وأربع مئة وخمس عشرة سنة ١٤١٥/٧/٣ هـ في مكة المكرمة في المسفلة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحيّات.

سورة الرحمن

سورة الرحمن، وتسمى عروس القرآن، مكية، نزلت بعد سورة الرعد. قال القرطبيّ: كلها مكية في قول الحسن، وعروة بن الزبير، وعكرمة، وعطاء، وجابر. قال: قال ابن عباس: مكية إلا آيةً منها، وهي قوله: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية. وقال ابن مسعود، ومقاتل: هي مدنية كلها. والأول[1] أصح. ويدل عليه ما أخرجه النحاس عن ابن عباس قال: نزلت سورة الرحمن بمكة.

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال: أنزل بمكة سورة الرحمن، ويؤيّد القول الثاني ما أخرجه ابن الضريس، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس قال: نزلت سورة الرحمن بالمدينة. ويمكن الجمع بين القولين بأنّه نزل بعضها بمكة، وبعضها بالمدينة.

وآيها ست أو سبع أو ثمان وسبعون آية، **وكلماتها** ثلاث مئة وإحدى وخمسون كلمة، **وحروفها** ألف وست مئة وستة وثلاثون حرفاً. وسميت سورة الرحمن لابتدائها بلفظ الرحمن.

مناسبة هذه السورة لما قبلها من أوجه[2]:

١ ـ أن فيها تفصيل أحوال المجرمين، والمتقين التي أشير إليها في السورة السابقة إجمالاً في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾.

٢ ـ أنّه عدد في السورة ما نزل بالأمم التي قد خلت من ضروب النقم، وبين عقب كل ضرب منها أن القرآن قد يسر لتذكر الناس، وإيقاظهم، ثم نعى عليهم إعراضهم. وهنا عدد ما أفاض الله على عباده من ضروب النعم الدينية والدنيوية في

---

(١) الشوكاني.　　(٢) المراغي.

الأنفس والآفاق، وأنكر عليهم إثر كل منها إخلالهم بموجب شكرها.

٣ ـ أن قوله: ﴿الرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝﴾ كأنه جواب سائل يقول: ماذا صنع المليك المقتدر؟ وما أفاد برحمته أهل الأرض؟.

وعبارة أبي حيّان: مناسبة هذه لما قبلها[1]: أنه تعالى لما ذكر مقر المتقين في جنات ونهر عند مليك مقتدر ذكر شيئاً من آيات الملك، وآثار القدرة. ثم ذكر مقر الفريقين على جهة الإسهاب. إذ كان في آخر السورة ذكره على جهة الاختصار والإيجاز.

ولما ذكر قوله: ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ فأبرز هاتين الصفتين بصورة التنكير، فكأنه قيل: من المتصف بذلك فقال: ﴿الرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝﴾ فذكر ما نشأ من صفة الرحمة. وهو تعليم القرآن الذي هو شفاء للقلوب، انتهى. قال محمد بن حزم رحمه الله تعالى: جميع هذه السورة محكم، لا ناسخ ولا منسوخ فيها.

فضلها: ومن فضائلها: ما أخرجه البيهقي في «الشعب» عن عليّ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لكل شيء عروس، وعروس القرآن الرحمن».

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) البحر المحيط.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥) كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠) سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (٤٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥)﴾.

المناسبة

مناسبة أوّل هذه السورة لأوّل ما تقدم كما مرّ: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمّا ذكر في آخر السابقة المليك المقتدر بيّن[1] هنا ما صنعه المليك المقتدر من النعم لعباده رحمةً بهم، فأفاد:

١ ـ أنه علم القرآن، وأحكام الشرائع لهداية الخلق، وإتمام سعادتهم في

(١) المراغي.

معاشهم ومعادهم.

٢ ـ أنه خلق الإنسان على أحسن تقويم، وكمله بالعقل والمعرفة.

٣ ـ أنه علم النطق، وإفهام غيره، ولا يتم هذا إلا بنفس وعقل.

٤ ـ أنه سخَّر له الشمس والقمر والنجوم على نظام بديع، ووضع أنيق لحاجته إليها في دنياه ودينه.

٥ ـ أنه سخر النجم والشجر ليقتات منهما.

٦ ـ أنه رفع السماء، وأقامها بالحكمة والنظام.

٧ ـ أنه أوجد الأرض وما فيها من نخل، وفاكهة، وحبّ ذي عصف وريحان.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾. . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لمَّا عدد كثيراً من النعم، وكان بعضها يحتاج إلى زيادة إيضاح وبيان كخلق الإنسان، وحساب الشمس والقمر، وأسباب نمو الزرع والشجر. . فصل أحوالها على الترتيب السابق.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لما[1] ذكر النعم التي أنعم بها على عباده في البر والبحر، وفي السماء والأرض. . أردف ذلك ببيان أنَّ هذه النعم تفنى، ولا تبقى، فكل شيء يفنى إلا ذاته تعالى، وكل من في الوجود مفتقر إليه. فهو المدبر أمره والمتصرف فيه. فهو يحيي قوماً ويميت آخرين، ويرفع قوماً، ويخفض آخرين.

قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ. . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما عدد نعماءه على عباده في البر والبحر، وفي الأرض والسماء ليشكروه على ما أنعم، ويعبدوه وحده على ما أعطى وتمم، وذكر أنهم مفتقرون إليه تعالى آناء الليل وأطراف النهار، ثم أرشد إلى أن هذه النعم لا تدوم، بل هي إلى زوال، فكل ما على وجه الأرض سيفنى، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات. . نبههم إلى أنه في يوم القيامة سيلقى كل عامل جزاء ما عمل، وثواب ما اكتسب، ولا مهرب حينئذٍ من العقاب، ولا سبيل إلى الامتناع منه، وسيكون جزاء المشركين به العاصين لأوامره ناراً تلظى، لا يصلاها إلا الأشقى الذي كفر بربه، وكذب

---

(١) المراغي.

برسله. فاستعدوا لهذا اليوم قبل أن تندموا ولات ساعة مندم.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما عدد نعماءه على عباده[1]، وما يجب من شكرهم عليها، ثم أرشدهم إلى أن هذه النعم لا بقاء لها، ولا ثبات، ثم ذكر أن الناس محاسبون على الصغير والكبير من أعمالهم، وسيلقون الجزاء عليها، ولا مهرب حينئذٍ منها، ولا نصير لهم ينقذهم مما سيحل بهم من العذاب.. ذكر هنا أنه إذا جاء ذلك اليوم اختل نظام العالم، فتتصدع السموات، ويحمر لونها، وتصير مذابة غير متماسكة، كالزيت ونحوه مما يدهن به، ويكون للمجرمين حينئذٍ علامات يمتازون بها عن سواهم، فيتعرفهم الرائي لهم دون حاجة إلى سؤال نكالاً وخزياً لهم، ثم يجرون إلى جهنم من نواصيهم وأرجلهم، ويقال لهم توبيخاً وتقريعاً: هذه جهنم التي كنتم تكذبون بها، وينتقل بهم من جهنم إلى ماء حار كالمهل يشوي الوجوه، ومن عذاب إلى ما هو أشد منه.

أسباب النزول

سبب نزول هذه السورة فيما قال مقاتل[2]: أنه لما نزل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ﴾ الآية، قالوا: ما نعرف الرحمن. فنزلت: ﴿الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢﴾.

وقيل: لما قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ أكذبهم الله تعالى، وقال: ﴿الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢﴾.

التفسير وأوجه القراءة

ولمّا[3] كانت هذه السورة الكاملة شاملة لتعداد النعم الدنيوية والأخروية، والجسمانية والروحانية.. طرزها بطراز اسم الرحمن الذي هو اسم الذات المشتمل على جميع الأسماء والصفات ليسند إليه النعم المختلفة بعده، فقال: ﴿الرَّحْمَٰنُ ۝١﴾ مرفوع على أنه مبتدأ، وما بعده من الأفعال مع ضمائرها أخبار له. وإخلاؤها عن العاطف لمجيئها على نمط التعداد، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف، أي:

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

المليك المقتدر هو الرحمن سبحانه وتعالى. قال الغزالي رحمه الله تعالى: الرحمن هو العطوف على العباد بالإيجاد أوّلاً، وبالهداية إلى الإيمان وأسباب السعادة ثانياً، وبالإسعاد في الآخرة ثالثاً، والإنعام بالنظر إلى وجهه الكريم رابعاً، انتهى.

ولمّا[1] كان القرآن أعظم النعم شأناً لأنه مدار جميع السعادات، ولذا قال ﷺ: «أشراف أمتي حملة القرآن»؛ أي: ملازمو قراءته، وأصحاب الليل، وقال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه». وفيه جميع حقائق الكتب السماوية. وكان تعليمه من آثار الرحمة الواسعة، وأحكامها بدأ به. فقال: ﴿عَلَّمَ﴾ محمداً ﷺ ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ بواسطة جبريل عليه السلام، وبواسطة محمد ﷺ علم غيره من الأمة. وقيل: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾؛ أي[2]: يسره للذكر ليحفظ ويتلى. وذلك أن الله سبحانه عدد نعمه على عباده، فقدم أعظمها نعمة، وأعلاها رتبة. وهو القرآن العزيز؛ لأنه أعظم وحي الله تعالى إلى أنبيائه، وأشرفه منزلة عند أوليائه وأصفيائه، وأكثره ذكراً، وأحسنه في أبواب الدين. وهو سنام الكتب المنزلة على أفضل البرية.

قال ابن عطاء رحمه الله تعالى: لما قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ أراد أن يخص أمة محمد ﷺ بخاصية مثله، فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾؛ أي: الذي علم آدم الأسماء وفضله بها على الملائكة هو الذي علمكم القرآن، وفضلكم به على سائر الأمم.

وفي الآية: إشارة إلى أن التعليم والتسهيل إنما هو من الله تعالى، لا من المعلمين والحافظين. وقد علم آدم الأسماء، ووفقه لتعلمها، وسهله بإذنه، وعلم داود صنعة الدرع كما قال: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾، وعلم عيسى علم الطب كما قال: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، وعلم الخضر العلم اللدني كما قال: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾، وعلم نبينا محمداً ﷺ القرآن، وأسرار الألوهية كما قال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾، وعلم الإنسان البيان.

قال في «فتح الرحمن»: ومن الدليل على أن القرآن غير مخلوق: أن الله تعالى ذكره في كتابه العزيز في أربعة وخمسين موضعاً ما فيها موضع صرح فيه بلفظ

---

(١) روح البيان.
(٢) الخازن.

الخلق، ولا أشار إليه. وذكر الإنسان في ثمانية عشر موضعاً كلها يدل على خلقه، وقد اقترنا في هذه السورة على هذا النحو، قاله المولى أبو السعود رحمه الله تعالى.

ثم امتن بعد هذه النعمة بنعمة الخلق التي هي مناط كل الأمور، ومرجع جميع الأشياء، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾؛ أي: آدم من أديم الأرض، قاله ابن عباس. ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾؛ أي: ألهمه الله سبحانه وتعالى بيان كل شيء، وأسماء كل دابة تكون على وجه الأرض. وفي «بحر العلوم»: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾؛ أي: آدم، وعلمه الأسماء واللغات كلها، وكان آدم يتكلم بسبع مئة لغة، أفضلها العربية، انتهى.

يقول الفقير: وفيه إشارة إلى أن الله تعالى قد تكلم بجميع اللغات سواء كان التعليم بواسطة أم لا، فإن قلت[1]: كيف يتكلم الله باللغات المختلفة، والكلام النفسي عار عن جميع الأكسية؟

قلت: نعم، ولكنه في مراتب التنزلات والاسترسالات لا بد له من الكسوة. فالعربية مثلاً كسوة عارضة بالنسبة إلى الكلام في نفسه، وقد ذقنا في أنفسنا أنه يجيء الإلهام والخطاب تارة باللفظ العربي، وأخرى بالفارسيّ، وبالتركي مع كونه بلا واسطة ملك؛ لأنَّ الأخذ عن الله لا ينقطع إلى يوم القيامة. وذلك بلا واسطة، وإن كان الغالب وساطة الملك من حيث لا يرى، فاعرف ذلك.

وقيل[2]: المراد بالإنسان: الجنس، وأراد به جميع الناس. فعلى هذا يكون معنى ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾؛ أي: علمه النطق الذي يتميز به عن سائر الحيوانات، وقيل: علمه الكتابة، والفهم، والإفهام، حتى عرف ما يقول، وما يقال له. وقيل: علم كل قوم لسانهم الذي يتكلمون به. وقيل: أراد بالإنسان: محمداً ﷺ ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ يعني: بيان ما يكون وما كان. لأنّه ﷺ ينبيء عن خبر الأولين والآخرين، وعن يوم الدين. وقيل: علمه بيان الأحكام من الحلال والحرام، والحدود والأحكام. والأولى حمل الإنسان على الجنس، وحمل البيان على تعليم كل قوم لسانهم الذي يتكلمون به.

---

(١) روح البيان. (٢) الخازن.

والمعنى[1]: أي إنَّ الله سبحانه وتعالى علم محمداً ﷺ القرآن بواسطة جبريل، وعلم أمته بواسطته، وخلق هذا الجنس الإنساني، وعلمه التعبير عما يختلج بخاطره ويدور بخلده، ولولا ذلك ما علم محمد القرآن لأمته.

ولما كان الإنسان مدنياً بطبعه لا يعيش إلا مجتمعاً بسواه كان لا بد له من لغة يتفاهم بها مع سواه من أبناء جنسه، ويكتب إليه في الأقطار النائية، والبلاد النازحة، ويحفظ علوم السلف لينتفع بها الخلف، ويزيد فيها اللاحق على ما فعل السابق. وهذه منة روحية كبرى، لا تعدلها منة أخرى في هذه الحياة. ومن ثم قدمها على النعم الأخرى الآتية.

وقد بدأ أوّلاً بما يتعلم، وهو القرآن الذي به السعادة، ثم ثنى بالتعلم، ثم ثلث بطريق التعلم وكيفيته، ثم انتقل إلى ذكر الأجرام العلوية التي ينتفع بها الناس في معاشهم. فقال: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ يجريان ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ مبتدأ وخبر، أي: يجريان بحسبان مقدر معلوم في بروجهما ومنازلهما، بحيث ينتظم بذلك أمور الكائنات السفلية، ويختلف الفصول والأوقات، ويعلم السنون والحساب، فالسنة القمرية ثلاث مئة وأربعة وخمسون يوماً، والشمسية ثلاث مئة وخمسة وستون يوماً وربع يوم أو أقل. وبهذا[2] الحسبان انتفع بهما الناس في شؤون الزراعات كمواعيد البذر والحصاد، وما ينفع منها في كل فصل من الفصول الأربعة، وفي الأمور المالية من بيع وشراء لآجال محدودة من شهور وسنين، وفي تقدير الأعمار والآجال التي تقدمت، وجاءت في أخبار الماضين، والتي ستكون للحاضرين. ولولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدر أحد كيف يحسب. لأن الدهر يكون كله ليلاً أو نهاراً.

وبعد أن ذكر أن الشمس والقمر طوع قدرته، وقد جعل لهما النظم الدقيقة في الحسبان.. أردفه بانقياد العوالم الأرضية له، فقال: ﴿وَٱلنَّجْمُ﴾؛ أي: النبات الذي ينجم؛ أي: يطلع من الأرض ولا ساق له. مثل القمح والشعير، والقرع، والبطيخ، ونحو ذلك. وقيل[3]: النجم: هو الكوكب، وسجوده طلوعه. والقول الأول أظهر؛

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) الخازن.

لأنه ذكره مع الشجر في مقابلة الشمس والقمر، ولأنهما أرضيان في مقابلة سمائيين.

﴿وَٱلشَّجَرُ﴾ الذي له ساق يبقى في الشتاء. وفي «المنتقى»: كل نابت إذا ترك حتى يبرز انقطع.. فليس بشجر، وكل شيء يبرز ولا ينقطع من سنته فهو شجر. ﴿يَسْجُدَانِ﴾؛ أي: ينقادان له تعالى فيما يريد بهما طبعاً انقياد الساجد من المكلفين طوعاً أو يسجد ظلهما على ما بين في قوله تعالى: ﴿يَتَفَيَّؤُا ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾.

وذكر سبحانه هنا في مقابلة النعمتين السماويتين اللتين هما الشمس والقمر نعمتين أرضيتين[1]، وهما: النجم والشجر، وكلاهما من قبيل النبات الذي هو أصل الرزق من الحبوب، والثمار، والحشيش للدوابّ. وإخلاء الجمل الأولى عن العطف لورودها على منهاج التعداد تنبيهاً على تقاعده في الشكر، كما في قولك: زيد أغناك بعد فقر، أعزك بعد ذل، كثرك بعد قلة، فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد. وأما عطف جملة ﴿وَٱلنَّجْمُ﴾ على ما قبلها فلتناسبها من حيث التقابل لما أن الشمس والقمر علويان، والنجم والشجر سفليان، ومن حيث إن كلا من حال العُلويين وحال السفليين من باب الانقياد لأمر الله تعالى. ولما كانت هذه الأربعة مغايرة لجنس الإنسان في ذاته وصفاته غير النظم بإيرادها في صورة الاسمية تحقيقاً للتغاير بينهما وضعاً، وطبعاً، وصورة، ومعنى.

والمعنى[2]: أي والزرع والشجر ينقادان لله سبحانه فيما أراد بهما طبعاً كما ينقاد المكلف اختياراً. فما اختلاف ثمرهما في الشكل، والهيئة، واللون، والمقدار، والطعم، والرائحة إلا انقياد للقدرة التي أرادت ذلك. وقال الفرّاء[3]: المراد بسجودهما: أنهما يستقبلان الشمس إذا طلعت، ثم يميلان معها حين ينكسر الفيء. وقال الزجاج: سجودهما دوران الظل معهما، كما في قوله: ﴿يَتَفَيَّؤُا ظِلَٰلُهُۥ﴾. وقال الحسن، ومجاهد: المراد بالنجم: نجم السماء، وسجوده طلوعه.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) الشوكاني.

ورجح ابن جرير هذا، ومر ما فيه آنفاً.

وقيل: سجوده أفوله، وسجود الشجر تمكينها من الاجتناء لثمارها، وهذه الجملة والتي قبلها خبران آخران لـ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١﴾، وترك الرابط فيهما لظهوره، كأنّه قيل: الشمس والقمر بحسبانه، والنجم والشجر يسجدان له.

ولما ذكر ما به حياة الأرواح من تعليم القرآن.. ذكر ما به حياة الأشباح من النبات الذي له ساق. وكان تقديم النجم، وهو ما لا ساق له؛ لأنّه أصل القوت، والذي له ساق ثمره يتفكه به غالباً.

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾؛ أي: خلقها مرفوعة فوق الأرض، حيث جعلها مصدر قضاياه، ومسكن ملائكته الذين ينزلون بالوحي على أنبيائه. ونبه بذلك على عظم شأنه، وملكه. وقرأ الجمهور[1] ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ بالنصب على الاشتغال روعي مشاكلة الجملة التي تليه، وهي ﴿يَسْجُدَانِ﴾. وقرأ أبو السمال ﴿وٱلسَّمَاءُ﴾ بالرفع، راعى مشاكلة الجملة الابتدائية.

أي: خلقها مرفوعة محلًّا، كما هو محسوس مشاهد، وكذا رتبه، حيث جعلها منشأ أحكامه، وقضاياه، وتنزل أوامره، ومحل ملائكته. وقال بعضهم: رفعها من السفل إلى العلو سقفاً لمصالح العباد، وجعل ما بينهما مسيرة خمس مئة عام. وذلك لأنّ السماء دخان فار به موج الماء الذي كان تحت الأرض.

﴿وَوَضَعَ﴾ الله سبحانه في الأرض ﴿ٱلْمِيزَانَ﴾؛ أي[2]: شرع العدل وأمر به بأن وفر كل مستحق لما استحقه، ووفى كل ذي حق حقه حتى انتظم به أمر العالم، واستقام. كما قال عليه السلام: «بالعدل قامت السموات والأرض». قيل: فعلى هذا الميزان هو القرآن. وقيل: هو ما يعرف به مقادير الأشياء من ميزان، ومكيال، ونحوهما. فالمعنى: خلق كل ما توزن به الأشياء، ويعرف به مقاديرها موضوعاً مخفوضاً على الأرض، حيث علق به أحكام عباده، وقضاياهم، وما تعبدهم به من التسوية والتعديل في أخذهم وإعطائهم. قال سعدي المفتي: وأنت خبير بأن قوله: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾ أشد ملاءمة

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

لهذا المعنى، ولهذا اقتصر عليه الزمخشري.

و﴿أن﴾ في قوله: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨﴾ ناصبة، و«لا» نافية، ولام العلة مقدرة متعلقة بوضع الميزان، أي: وضع الله سبحانه الميزان في الأرض لئلا تطغوا وتعتدوا، ولا تجاوزوا الإنصاف.

قال ابن الشيخ[1]: الطغيان: مجاوزة الحد. فمن قال: الميزان العدل.. قال: طغيانه الجور، ومن قال: إنه الميزان الذي هو آلة التسوية قال: طغيانه البخس؛ أي: النقص، وقيل: ﴿أن﴾ مفسرة لأنّ في الوضع معنى القول. وقرأ الجمهور ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ فعلاً ماضياً ناصباً الميزان؛ أي: أقره وأثبته. وقرأ إبراهيم ﴿وَوَضْعِ المِيزَانِ﴾ بالخفض وإسكان الضاد، انتهى من «البحر».

ومعنى الآية[2]: أي وجعل العالم العلوي رفيع القدر. إذ هو مبتدأ أحكامه، ومتنزل أوامره ونواهيه لعباده، وسكن ملائكته الذين يهبطون بالوحي على أنبيائه. وجعل نظم العالم الأرضيّ تسير على نهج العدل فعدل في الاعتقاد كالتوحيد إذ هو وسط بين إنكار الإله والشرك به، وعدل في العبادات والفضائل والآداب، وعدل بين القوى الروحية والبدنية، فأمر عباده بتزكية نفوسهم، وأباح لهم كثيراً من الطيبات لحفظ البدن، ونهى عن الغلو في الدين، والإسراف في حب الدنيا. وهكذا ترى أن عدله شامل لكل ما في هذا العالم، لا يغادر الصغير منه، ولا الكبير. وقوله: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨﴾؛ أي: فعل ذلك لئلا تعتدوا، وتتجاوزوا ما ينبغي من العدل والنصفة، وجري الأمور وفق ما وضع لكم من سنن الميزان في كل أمر، فترقى شؤونكم، وتنتظم أعمالكم وأخلاقكم.

قال قتادة في هذه الآية: اعدل يا ابن آدم كما تحب أن يعدل عليك، وأوف كما تحب أن يوفى لك. فإنَّ في العدل صلاح الناس.

ثم أكد هذا بقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ﴾؛ أي: قوموا وزنكم ﴿بِالْقِسْطِ﴾؛ أي: بالعدل؛ أي: اجعلوه مستقيماً له. وفي «المفردات»: الوزن: معرفة قدر الشيء، والمتعارف في الوزن عند العامة ما يقدر بالقسطاس والقبان. وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾ إشارة إلى مراعاة العدل في جميع ما يتحراه الإنسان من الأفعال والأقوال، وقيل: المعنى: أقيموا لسان الميزان بالعدل. وقيل: المعنى: إنه وضع الميزان في الآخرة لوزن الأعمال.

﴿وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾؛ أي: لا تنقصوه؛ لأنَّ من حقه أن يسوى؛ لأنه المقصود من وضعه. قال سعدي المفتي: المراد: لا تنقصوا الموزون في الميزان لا الميزان نفسه، أمر أوّلاً بالتسوية، ثم نهى عن الطغيان الذي هو اعتداء وزيادة، ثم عن الخسران الذي هو تطفيف ونقصان، وكرر لفظ الميزان تشديداً للتوصية به، وتأكيداً للأمر باستعماله، والحث عليه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿تُخۡسِرُواْ﴾ بضم التاء وكسر السين، من أخسر إذا أفسد ونقص، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣﴾؛ أي: ينقصون. وقرأ بلال بن أبي برزة، وأبان بن عثمان، وزيد بن عليّ ﴿تَخۡسَرُوا﴾ بفتح التاء والسين من خسر من باب سمع. وهما لغتان، يقال: أخسرت الميزان، وخسرته، وقرىء أيضاً ﴿تَخْسُرُوْا﴾ بفتح التاء وضم السين لما منع من الزيادة. وهو الطغيان.

وفي «فتح الرحمن»: قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧﴾ قرنه برفع السماء؛ لأنّه تعالى عدد نعمه على عباده، ومن أجلها الميزان الذي هو العدل الذي به نظام العالم وقوامه، وقيل: هو القرآن، وقيل: هو العقل، وقيل: ما يعرف به المقادير كالميزان المعروف، والمكيال والذراع.

إن قلت: ما فائدة تكرار لفظ ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧﴾ ثلاث مرات مع أن القياس بعد الأولى الإضمار؟

قلت: فائدته بيان أنَّ كلًّا من الآيات مستقلة بنفسها، أو أن كلًّا من الألفاظ الثلاثة مغاير لكل من الآخرين، إذ الأول ميزان الدنيا، والثاني ميزان الآخرة، والثالث ميزان العقل؛ أي: العدل.

فإن قلت: قوله: ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨﴾؛ أي: لا تجاوزوا فيه العدل، مغن عن الجملتين المذكورتين بعده؟

(١) البحر المحيط.

قلت: الطغيان فيه أخذ الزائد، والإخسار: إعطاء الناقص، والقسط: التوسط بين الطرفين المذمومين، انتهى.

وبعد أن ذكر نعمه الدالة على قدرته برفع السماء ذكر مقابلها، وهو الأرض. فقال: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠﴾؛ أي: والأرض بسطها على وجه الماء لسكنى الحيوان من كل ما له روح، وفيه حياة لينتفع بما في ظاهرها ومافي باطنها في معايشه على ضروب مختلفة وأشكال لا حصر لها. ولا وجه لتخصيص الأنام بالإنس والجن كما قيل. وهو جمع لا واحد له من لفظه بمعنى الخلق، والجن، والإنس مما على الأرض كما في «القاموس». فهي كالفراش والمهاد لهم، يتقلبون عليها، ويتصرفون فوقها. وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ بالنصب على الاشتغال. وقرأ أبو السمال بالرفع على الابتداء.

وجملة قوله: ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الأرض ﴿فَٰكِهَةٌ﴾؛ أي: ضروب كثيرة مما يتفكه به، ويتلذذ من أنواع الثمار، فلفظ فاكهة يشعر باختلاف الأنواع، في محل نصب على أنها حال مقدرة من الأرض، وقيل: مستأنفة لتقرير مضمون الجملة التي قبلها.

ثم أفرد سبحانه النخل بالذكر لشرفه، ومزيد فائدته على سائر الفواكه، فقال: ﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾؛ أي: وفيها النخل صاحبة الغلاف الذي يكون فيه الثمر أول ظهوره. والأكمام: جمع كم بالكسر. وهو وعاء الثمر. قال الحسن: ذات الأكمام؛ أي: ذات الليف. فإن النخلة تكتم بالليف، وكمامها ليفها، وقال ابن زيد: ذات الطلع قبل أن يتفتق، وقال عكرمة: ذات الأحمال؛ أي: وفيها النخل ذات الأوعية لثمرها حين ظهوره، وأفردها بالذكر لكثرتها بالبلاد العربية، وكثرة فوائدها؛ لأنّه ينتفع بثمارها رطبة ويابسة، وينتفع بجميع أجزائها، فيتخذ من خوصها السلال والزنابيل، ومن ليفها الحبال، ومن جريدها سقف البيوت، ويؤكل جمارها. ومن ثم ذكرها باسمها، وذكر الفاكهة دون أشجارها.

﴿و﴾ فيها ﴿الحب﴾؛ أي: جميع الحبوب التي يقتات بها: كالحنطة،

---

(١) البحر المحيط.

والشعير، والذرة. ﴿ذُو ٱلْعَصْفِ﴾؛ أي: صاحب الورق على سنابلها، وسوقها لعلف الدواب. ﴿وَ﴾ فيها ﴿الريحان﴾؛ أي: كل نبت مشموم تطيب رائحته. وقال الحسن: الريحان: هو ريحانكم هذا الذي يشم. وهو كل ما طابت رائحته من النبات، وعند الفقهاء: الريحان: ما لساقه رائحة طيبة كما لورقه، والورد ما لورقه رائحة طيبة فقط، كالياسمين، كذا في المغرب. وقال ابن الشيخ: الريحان: كل بقلة طيبة الرائحة، سميت ريحاناً، لأن الإنسان يراح لها رائحة طيبة أي: يشم.

وذكر أولاً الفاكهة[1]؛ لأنها للتفكه فحسب، ثم النخل لأن ثمرها فاكهة وغذاء، ثم الحب الذي عليه المعول في الغذاء في جميع البلاد. فهو أتم نعمة لموافقته لمزاج الإنسان. ومن ثم خلقه الله تعالى في سائر البلاد، وجعل النخل في البلاد الحارة دون غيرها.

قال أبو حيان: وبدأ بقوله[2]: ﴿فَٰكِهَةٌ﴾ إذ هو من باب الابتداء بالأدنى، والترقي إلى الأعلى. ونكر لفظها؛ لأن الانتفاع بها دون الانتفاع بما يذكر بعدها. ثم ثنى بالنخل، فذكر الأصل، ولم يذكر ثمرتها، وهو التمر لكثرة الانتفاع بها من ليف، وسعف، وجريد، وجذوع، وجمار، وثمر. ثم أتى ثالثاً بالحب الذي هو قوام عيش الإنسان في أكثر الأقاليم. وهو البر، والشعير وكل ما له سنبل وأوراق متشعبة على ساقه. ووصفه بقوله: ﴿ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ تنبيهاً على إنعامه عليهم بما يقوتهم من الحب، ويوقت بهائمهم من ورقه الذي هو التبن. وبدأ بالفاكهة، وختم بالمشموم، وبينهما النخل والحب ليحصل ما به يتفكه، وما به يتقوت، وما به تقع اللذاذة من الرائحة الطيبة. وذكر النخل باسمها، والفاكهة دون شجرها لعظم المنفعة بالنخل من جهات متعددة، وشجرة الفاكهة بالنسبة إلى ثمرتها حقيرة، فنص على ما يعظم به الانتفاع من شجرة النخل، ومن الفاكهة دون شجرتها، انتهى.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾﴾ برفع الثلاثة عطفاً على المرفوع قبله. وقرأ ابن عامر، وأبو حيوة، وابن أبي عبلة بنصب الثلاثة؛ أي:

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) البحر المحيط.

وخلق الحب. وجوزوا أن يكون ﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ حالة الرفع، وحالة النصب على حذف مضاف؛ أي: وذو الريحان، حذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه. وقرأ حمزة، والكسائي، والأصمعيُّ عن أبي عمرو ﴿والرَّيحَانِ﴾ بالجر.

والمعنى: والحبّ ذو العصف الذي هو علف البهائم، والريحان الذي هو مطعم الناس. ويبعد دخول المشموم في قراءة الجر.

ولما عدد تعالى نعمه خاطب الثقلين بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: إن نعمه كثيرة لا تحصى، فبأيها تكذبان أيها الثقلان. وكان هذا الخطاب للثقلين؛ لأنهما داخلان في الأنام على أصح الأقوال، ثم خصص بهذا الخطاب من يعقل. ولقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾، ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾. ويدل عليه قوله فيما سيأتي. ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ وهذا ما عليه جمهور المفسرين. وقيل: الخطاب للإنس، وثناه على قاعدة العرب في خطاب الواحد بلفظ التثنية، كما في قوله: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾ كما مر.

والآلاء: جمع إلى، وألى مثل معى وعصى. قال في «بحر العلوم»: الآلاء: النعم الظاهرة والباطنة الواصلة إلى الفريقين. وبهذا يظهر فساد ما قيل: من أن الآلاء هي النعم الظاهرة، والنعماء هي النعم الباطنة. والصواب أنهما من الألفاظ المترادفة، كالأسود والليوث، والفلك والسفن. ومعنى تكذيبهم بالآلاء كفرهم بها. والتعبير عن الكفر بالتكذيب لما أن دلالة الآلاء المذكورة على وجوب الإيمان والشكر شهادة منها بذلك، فكفرهم بها تكذيب بها لا محالة. والفاء فيه للإفصاح؛ أي: فإذا كان الأمر كما فصل فبأي فرد من أفراد نعم ربكما، ومالككما، ومربيكما بتلك الآلاء أيها الجن، والإنس تنكران أنها ليست من الله، مع أن كلًّا منها ناطق بالحق، شاهد بالصدق، أفبتلك النعم المذكورة هنا أم بغيرها. والاستفهام للتقرير؛ أي: للحمل على الإقرار بتلك النعم، ووجوب الشكر عليها. وتكرار هذه الآية في هذه السورة لطرد الغفلة، وتأكيد الحجة، وتذكير النعمة، وتقرير الكرامة من قولهم: كم نعمة كانت لكم، كم وكم، وكقولك لرجل أحسنت إليه بأنواع الأيادي، وهو ينكرها، ألم تكن فقيراً فأغنيتك أفتنكر هذا، ألم تكن عرياناً فكسوتك أفتنكر هذا، ألم تكن خاملاً فعززتك، أفتنكر هذا؟ وهذا أسلوب كثير الاستعمال في كلام العرب. فكأنه تعالى قال: ألم أخلق الإنسان، وأعلمه البيان، وأجعل الشمس

والقمر بحسبان، وأنوع الشجر، وأبدع الثمر، وأعممها في البدو والحضر لمن آمن بي وكفر، وأسقيها حيناً بالمطر، وآونة بالجداول والنهر أفتنكرون ذلك أيها الإنس والجن. وقد جاء مثل هذا في أشعارهم. انظر قول مهلهل يرثي أخاه كليباً:

عَلَيَّ أَنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيْبٍ إِذَا مَا ضِيْمَ جِيْرَانُ ٱلْمُجِيْرِ

عَلَيَّ أَنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيْبٍ إِذَا خَرَجَتْ مُخَبَّأَةُ ٱلْخُدُوْرِ

عَلَيَّ أَنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيْبٍ إِذَا خِيْفَ ٱلْمَخُوْفُ مِنَ ٱلثُّغُوْرِ

عَلَيَّ أَنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيْبٍ إِذَا مَا خَارَ جَأْشُ ٱلْمُسْتَجِيْرِ

وهي قصيدة طويلة على هذا النسق، ولها نظائر أيضاً في رثائه، ولولا خشية التطويل لأوردنا شيئاً منها. وعدلاً؛ أي: مثلاً ونظيراً.

والمعنى[1]: أي فبأي النعم المتقدمة يا معشر الثقلين من الجن والإنس تكذّبان، وتنكران. والمراد من تكذيب آلائه: كفرهم بربهم؛ لأنَّ إشراكهم آلهتهم به تعالى في العبادة دليل عى كفرانهم بها. إذ من حق النعم أن تشكر. والشكر إنما يكون بعبادة من أسداها إليهم، والتعبير بالرب للإشارة إلى أنها نعم صادرة من المالك المربي لهما الذي ينميهما أجساماً وعقولاً، فهو الحقيق بالحمد والشكر على ما أولى وأنعم، والعبادة له دون سواه. وقال في «برهان القرآن»: تكررت[2] هذه الآية إحدى وثلاثين مرة، ثمان منها ذكرها عقيب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله، وبدائع صنعه، ومبدأ الخلق، ومعادهم، ثم سبع منها عقيب آيات فيها ذكر النار، وشدائدها على عدد أبواب جهنم. وحسن ذكر الآلاء عقيبها؛ لأنَّ في خوفها ودفعها نعماً توازي النعم المذكورة؛ أو لأنها حلت بالأعداء، وذلك يعد من أكبر النعماء. وبعد هذه السبع ثمان في وصف الجنات وأهلها على عدد أبواب الجنة، وثمان أخرى بعدها للجنتين اللتين دونهما. فمن اعتقد الثماني الأولى، وعمل بموجبها استحق كلتا الثمانيتين من الله تعالى، ووقاه الله تعالى السبع السابقة.

يقول الفقير: من لطائف أسرار هذا المقام: أن لفظ أل في أول اسم الرحمن المعنون به هذه السورة الجليلة دل على تلك الإحدى والثلاثين، انتهى. قال

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

القتيبي: إنَّ الله عدد في هذه السورة نعماءه، وذكر خلقه آلاءه. ثم أتبع كل خلة وضعها بهذه الآية، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين لينبههم على النعم، ويقررهم بها، كما تقول لمن تتابع له إحسانك وهو يكفره: ألم تكن فقيراً فأغنيتك... إلخ.

ويسن لسامع القارىء لهذه السورة أن يجيبه كلما قرأ هذه الآية[1]. وهي مكررة في أحد وثلاثين موضعاً بأن يقول: ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد؛ لأن رسول الله ﷺ أقر الجن على ذلك الجواب فيما روي عن جابر رضي الله عنه: أنه قال: قرأ علينا رسول الله ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها، قال: «ما لي أراكم سكوتاً، لَلجن كانوا أحسن منكم ردّاً ما قرأت عليهم هذه الآية مرة ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ إلاَّ قالوا ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد». أخرجه الترمذي، وقال: حديث غريب.

ولما ذكر سبحانه خلق العالم الكبير وهو السماء والأرض وما فيهما ذكر العالم الصغير، فقال: ﴿خَلَقَ﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾؛ أي: آدم. فالمراد بالإنسان هنا: آدم. قال القرطبي باتفاق من أهل التأويل: ولا يبعد أن يراد[2] الجنس لأن بني آدم مخلوقون في ضمن خلق أبيهم آدم. ﴿مِن صَلْصَـٰلٍ﴾ أي: من طين يابس له صلصلة؛ أي: صوت إذا نقر لشدة يبسه. وقيل: هو طين خلط برمل. وقيل: هو الطين المنتن. ﴿كَٱلْفَخَّارِ﴾؛ أي: شبيه بالخزف الذي طبخ بالنار في صوته إذا نقر، كأنه[3] صور بصورة من يكثر التفاخر، أو لأنه أجوف. وقد خلق الله آدم عليه السلام من تراب جعله طيناً، ثم حمأً مسنوناً، ثم صلصالاً، ثم صب عليه ماء الأحزان، فلا ترى ابن آدم إلا ويكابد حزناً.

والمعنى: أنه خلق الإنسان من طين يشبه في يبسه الخزف.

فإن قلت[4]: كيف قال ذلك هنا، وقال في الحجر: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾؛ أي: من طين أسود متغير، وقال في الصافات: ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾؛ أي: لازم يلصق باليد، وقال في آل عمران: ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾؟

---

(١) المراح.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.
(٤) متشابه القرآن.

قلت: الآيات كلها متفقة المعنى؛ لأنه تعالى خلقه من تراب، ثم جعله طيناً ثم حمأً مسنوناً، ثم صلصالاً. فهذه مراحل وأطوار في خلق الإنسان، وفي كل سورة إشارة إلى بعض هذه الأطوار. فإنه تعالى أخذه من تراب الأرض، فعجنه بالماء، فصار طيناً لازباً؛ أي: متلاصقاً يلصق باليد، ثم تركه حتى صار حمأً مسنوناً أي: طيناً أسود متنناً، ثم يبس، فصار كالفخار، له صوت وصلصلة.

إيضاح هذا[1]: أن الطين المطبوخ مركب من الطين والحرارة التي أنضجته وسوته لتخفظ كيانه، وهكذا الإنسان، له شهوة الطعام والشراب والتزاوج، لتبقى بنيته، وتدوم حياته بالمادة الأرضية التي اجتذبها النبات من الأرض، وله قوة غضبية تورثه الشجاعة والقوة؛ ليحافظ على بقائه وحياته، ويمنع عن نفسه عاديات الكواسر، ومهاجمات الجيوش، والأعداء المحيطة به من كل جانب. وهذه القوة في الإنسان تقابل طبخ الطعام ليصير فخاراً، فتتماسك أجزاؤه، ولولاها لما استطاع المحافظة علي هيكله المنصوب، وجسمه المحجوب من الكواسر، وأهل القسوة من بني الإنسان. ولأصبح قتيلاً في الفلوات تأكله الطير، أو تهوي بأجزائه الريح في مكان سحيق. كما أن الطين إذا لم يطبخ يتفتت، وتذروه الرياح، أو يذوب في أجزاء الأرض.

﴿وَخَلَقَ﴾ سبحانه ﴿الْجَآنَّ﴾؛ أي: الجن أو أبا الجن أو إبليس، وبه قال الضحاك. وفي «الكشف»: الجان: أبو الجن، كما أن الإنسان أبو الإنس، وإبليس أبو الشياطين. ﴿مِن مَّارِجٍ﴾؛ أي: من لهب صاف من الدخان. وقال مجاهد: المارج: هو المختلط بعضه ببعض من اللهب الأحمر، والأصفر والأخضر الذي يعلو النار إذا وقدت من مرج أمر القوم إذا اختلط واضطرب. فمعنى ﴿مِن مَّارِجٍ﴾ من لهب مختلط. ﴿مِّن نَّارٍ﴾ بيان لـ﴿مَّارِجٍ﴾. كأنه قيل: من صاف من نار، أو مختلط من نار. وفي «كشف الأسرار»: خلق الجن من مارج من نار، والملائكة من نورها، والشياطين من دخانها.

أي[2]: وخلق الجن من النار الصافية المختلط بعضها ببعض، فمن لهب أصفر إلى أحمر إلى مشوب بالخضرة. فكما أن الإنسان من عناصر مختلفات

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

فالجان من أنواع من اللهب مختلطات. ولقد أظهر الكشف الحديث أنَّ الضوء مركب من ألوان سبعة، ولفظ ﴿المارج﴾ يشير إلى ذلك، وإلى أن اللهب مضطرب دائماً.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ أيها الثقلان أمِمَّا أفاض عليكما في تضاعيف خلقكما من سوابغ النعم حتى صيركما أفضل المركبات، وخلاصة الكائنات، أم من غيره تكذبان، فإنه أنعم عليكما في تضاعيف خلقكما من ذلك بنعم لا تحصى.

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ قرأ الجمهور[1] ﴿رَبُّ﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: الذي فعل ما ذكر من الأفاعيل البديعة رب مشرقي الصيف والشتاء، ومغربيهما، ومن قضيته أن يكون رب ما بينهما من الموجودات قاطبة. يعني: أن ذكر غاية ارتفاعهما، وغاية انحطاطهما إشارة إلى أن الطرفين يتناولان ما بينهما، كما إذا قلت في وصف ملك عظيم الملك: له المشرق والمغرب، فإنه يفهم منه أن له ما بينهما أيضاً. وقيل: مبتدأ، خبره ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾، وما بينهما اعتراض. والأول أولى. وقرأ أبو حيوة، وابن أبي عبلة بالخفض بدلاً من ﴿رَبِّكُمَا﴾. قال في «كشف الأسرار»: أحد المشرقين هو الذي تطلع منه الشمس في أطول يوم من السنة، والثاني الذي تطلع منه في أقصر يوم، وبينهما مئة وثمانون مشرقاً، وكذا الكلام في المغربين. وقيل: أحد المشرقين للشمس، والثاني للقمر.

فإن قلت[2]: لِمَ كرر ذكر الرب هنا دون سورتي المعارج والمزمل؟

قلت: كرره هنا تأكيداً. وخص ما هنا بالتأكيد لأنه موضع الامتنان، وتعديد النعم، ولأن الخطاب فيه من جنسين، هما الإنس والجن، بخلاف ذينك.

والمعنى[3]: أي هو سبحانه رب مشرقي الصيف والشتاء، ومغربيهما اللذين يترتب عليهما تقلب الفصول الأربعة، وتقلب الهواء، وتنوعه، وما يلي ذلك من الأمطار، والشجر، والنبات، والأنهار الجاريات، فبأي نعمة من هذه النعم تكذبان أيها الثقلان، أفتنكران الأمطار وفوائدها؟ أم تنكران ما لاختلاف الفصول من منافع

---

(١) البحر المحيط.
(٢) متشابه القرآن.
(٣) المراغي.

فيها تختلف صنوف المزروعات من صيفية إلى شتوية، أم تنكران ما لاختلاف الأجواء من مزايا في تنظيم مزاج الإنسان والحيوان.

ولما ذكر نعمه التي تترى على عباده في البر أعقبها بنعمه عليهم في البحر، فقال: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾؛ أي: أرسلهما من منبعهما، من مرجت الدابة إذا أرسلتها، وخليتها للرعي.

والمعنى: والله سبحانه أرسل البحر الملح، والبحر العذب ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ حال من البحرين، قريبة من الحال المقدرة؛ أي[1] حال كونهما يتجاوران، ويتماس سطوحهما، لا فصل بينهما في مرأى العين. وذلك كدجلة تدخل البحر، فتشقه، فتجري في خلاله فراسخ لا يتغير طعمها. وقيل: أرسل بحر فارس والروم يلتيقان في المحيط؛ لأنهما خليجان يتشعبان منه. قال سعدي المفتي: وعلى هذا فقوله: ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ إما حال مقدرة إن كان المراد: إرسالهما إلى المحيط، أو المعنى: اتحاد أصليهما إن كان المراد: إرسالهما منه. فلكل وجه. وقال ابن جريج: هما البحر المالح، والأنهار العذبة. وقيل: بحر المشرق والمغرب. وقيل: بحر اللؤلؤ والمرجان. وقيل: بحر الأرض، وبحر السماء. قال سعيد بن جبير: يلتقيان في كل عام. وقيل: يلتقي طرفاهما.

والمعنى[2]: أنه أرسل كل واحد منهما يلتقيان؛ أي: يتجاوران، لا فصل بينهما في رأي العين، ومع ذلك فلم يختلطا، ولهذا قال: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾؛ أي: حاجز من قدرة الله أو من الأرض يحجز بينهما. والجملة الاسمية يجوز أن تكون مستأنفة أو حالاً. ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾؛ أي: لا يبغي أحدهما على الآخر بالممازجة، وإبطال الخاصية مع أن شأنهما الاختلاط على الفور، بل يبقيان على حالهما زماناً يسيراً مع أن شأنهما الاختلاط، وانفعال كل واحد منهما عن الآخر على الفور، أو لا يتجاوزان حديهما بإغراق ما بينهما من الأرض لتكون الأرض بارزة يتخذها أهلها مسكناً ومهاداً. فقوله: ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ إما من الابتغاء، وهو الطلب؛ أي: لا يطلبان غير ما قدر لهما، أو من البغي، وهو مجاوزة كل واحد منهما ما حد له.

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

والمعنى[1]: أي أرسل سبحانه البحر الملح، والبحر العذب متجاورين متلاقيين، لا يبغي أحدهما على الآخر، فلا الملح يطغى على العذب فيجعله ملحاً، ولا العذب يجعل ألبحر الملح مثله. فقد حجر بينهما ربهما بحاجز من قدرته، أو بحاجز من الأجرام الأرضية، فترى نهر النيل بمصر يخرج من جبال الحبشة، ويجري شمالاً، حتى يصب في البحر الأبيض المتوسط، ولا يبغي أحدهما على الآخر.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: فبأيّ هذه المنافع تكذبان إذ لو بغى الملح على العذب لم نجد ماء للشرب، ولا لسقي الحيوان والنبات، ولم نجد ما نقتات به، فنهلك جوعاً. ولو بغى العذب على الملح.. لم نجد ما يصلح الهواء ويمنع عاديات الجراثيم التي فيه. وليس من البحرين شيء يقبل التكذيب لما فيه من الفوائد والعبر، هذا وهما جمادان لا نطق لهما، ولا إدراك، فكيف يبغي بعضكم على بعض أيها العقلاء!.

وقال الخطيب: ومعنى ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾؛ أي: لا يتجاوز كل واحد منهما ما حده له خالقه، لا في الظاهر ولا في الباطن، حتى إن العذب الداخل في الملح باق على حاله لم يمتزج بالملح. فمتى حفرت في جنب الملح في بعض الأماكن.. وجدت الماء العذب. قال البقاعي: بل كلما قربت الحفرة من الملح كان الماء الخارج منها أحلى. فخلطهما الله تعالى في رأي العين، وحجز بينهما في غيب القدرة، اهـ.

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾؛ أي: من البحرين ﴿ٱللُّؤْلُؤُ﴾؛ أي: الدر المخلوق في الأصداف. ﴿وَٱلْمَرْجَانُ﴾؛ أي: الخرز الأحمر المشهور. وقيل: اللؤلؤ كبار الدر، والمرجان صغاره.

واعلم[2]: أنه إن أريد بالبحرين هنا بحر فارس، وبحر الروم، فلا حاجة في قوله: ﴿مِنْهُمَا﴾ إلى التأويل. إذ اللؤلؤ والمرجان بمعنييه يخرجان منهما. لأن كلا منهما ملح، ولا عذب في البحار السبعة إلا على قول من قال في الآية: يخرج من

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

مالح بحري فارس والروم، ومن عذب بحر الصين. وفي «بحر العلوم»: أنَّ اللؤلؤ يخرج من بحر فارس، والمرجان يخرج من بحر الروم. يعني: لا من كليهما. وقال أبو علي الفارسي: الكلام على حذف مضاف؛ أي: يخرجان من أحدهما، وهو المالح. لأنه إذا خرج من أحدهما.. فقد خرج منهما. كما يقال: يخرج الولد من الذكر والأنثى، وإنما تلده الأنثى. وقيل: يخرج؛ أي: يحدث، ويتكون من التقائهما واجتماعهما اللؤلؤ والمرجان كما قال الرازي: يكون العذب كاللقاح للملح. ونقل عن ابن عباس، وعكرمة مولاهُ: تتكون هذه الأشياء في البحر بنزول المطر؛ لأن الصدف تفتح أفواهها للمطر، فيكون الأصداف كالأرحام للنطف، وماء البحر كالجسد الغادي. ويدل على أنه من المطر ما اشتهر من أن السنة إذا أجدبت.. هزلت الحيتان، وقلت الأصداف والجواهر. وعلى هذا فالبحران: بحر السماء وبحر الأرض، فإذا وقع ماء السماء في صدف البحر انعقد لؤلؤاً فصار خارجاً منهما.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَخْرُجُ﴾ مبنياً للفاعل. ونافع، وأبو عمرو، وأهل المدينة مبنياً للمفعول. والجعفي عن أبي عمرو بالياء مضمومة، وكسر الراء؛ أي: يخرج الله. وعنه، وعن أبي عمرو، وعن ابن مقسم ﴿نخرج﴾ بالنون واللؤلؤ والمرجان نصب في هاتين القراءتين. وقرأ طلحة ﴿اللُّؤْلِؤُ﴾ بكسر اللام الثالثة. وهي لغة. وعبد الولي بقلب الهمزة المتطرفة ياء ساكنة بعد كسرة ما قبلها. وهي لغة، قاله أبو الفضل الرازي.

وقد ثبت في الكشف[2]: أن اللؤلؤ كما يستخرج من البحر الملح يستخرج من البحر العذب، وكذلك المرجان، وإن كان الغالب أنه لا يستخرج إلا من الماء الملح. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: فبأيّ هذه النعم تكذبان. فإن في ذلك من الآيات ما لا يستطيع أحد تكذيبه، ولا يقدر على إنكاره؛ أي: أبكثرة النعم من خلق المنافع في البحر، وإخراج الحلي العجيبة أم بغيرها.

﴿وَلَهُ﴾ سبحانه السفن ﴿الْجَوَارِ﴾ في البحر. وهذه[3] اللام لها معنيان:

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

أحدهما: أنها لام الملك، والثاني: أنها لام الاستحسان والتعجب، كقولهم: لله أنت، لله درك كما في «كشف الأسرار». و﴿ٱلْجَوَارِ﴾[1] بكسر الراء. أصله: الجواري بالياء: جمع جارية. وهي السفن. وقرىء بحذف الياء ورفع الراء كقول الشاعر:

لَهَا ثَنَايَا أَرْبَعٌ حِسَانُ   وَأَرْبَعٌ فَكُلُّهَا ثَمَانُ

والمعنى: وله السفن الجاريات في البحر. فحذف[2] الموصوف وأقيمت الصفة مقامه. قال ابن الشيخ: واعلم: أنَّ الأركان أربعة: التراب، والماء، والهواء، والنار. فالله سبحانه وتعالى بين بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ﴾ أن التراب أصل لمخلوق شريف مكرم عجيب الشأن. وبين بقوله: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ أن النار أيضاً أصل لمخلوق آخر عجيب الشأن. وبين بقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ أن الماء أيضاً أصل لمخلوق آخر، له قدر وقيمة. ثم ذكر أن الهواء له تأثير عظيم في جري السفينة كالأعلام، فقال: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ﴾. وخصها بالذكر مع أن جميع ما في السموات والأرض له لا لغيره؛ لأنَّ جريانها في البحر لا صنع للبشر فيه، وهم معترفون بذلك فيقولون: «لك الفلك ولك الملك». وإذا خافوا الغرق دعوا الله خاصة. وسميت السفينة جارية؛ لأن شأنها الجري في البحر، وإن كانت واقفة في السواحل والمراسي. كما تُسَمَّى المملوكة أيضاً جارية؛ لأنَّ شأنها الجري والسعي في حوائج سيدها.

وقرأ الجمهور: ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ بكسر الراء، وحذف الياء لالتقاء الساكنين. وقرأ ابن مسعود، والحسن، وأبو عمر في رواية عنه برفع الراء تناسياً للحذف. وقرأ يعقوب بإثبات الياء.

﴿ٱلْمُنشَآتُ﴾ قرأ الجمهور[3] بفتح الشين اسم مفعول بمعنى المحدثات؛ أي: أنشأها الله تعالى، وأحدثها أو الناس أو المرفوعات الشرع؛ أي: القلع على أنه من أنشأه إذا رفعه. والشرع بضمتين: جمع شراع، نظير كتب وكتاب؛ أي: المرفوعات التي رفع بعض خشبها على بعض، وركب حتى ارتفعت وطالت، حتى صارت في

---

(١) البيضاوي.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.

البحر كالأعلام. وهي الجبال. ولا يبعد أن يكون معنى ﴿ٱلۡمُنشَـَٔاتُ﴾؛ أي: المرفوعات على الماء، فتكون جاريةً على ما هي له. وقرأ الأعمش، وحمزة، وزيد بن عليّ، وطلحة، وأبو بكر بخلاف عنه بكسر الشين؛ أي: الرافعات الشراع، أو اللاتي ينشئن الأمواج بجريهن، أو التي تنشىء السفر إقبالاً وإدباراً، وشدد الشين ابن أبي عبلة، وقرأ الحسن ﴿المنشاة﴾ وحَّد الصفة، ودل على الجمع الموصوف، كقوله: أزواج مطهرة، وقلب الهمزة ألفاً.

والمعنى: وله الجواري المنشئات؛ أي: المصنوعات ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ حالة كونها ﴿كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾ جمع علم. وهو الجبل الطويل؛ أي: كالجبال الشاهقة عظماً وارتفاعاً، وهو حال من ضمير ﴿ٱلۡمُنشَـَٔاتُ﴾. والسفن في البحر كالجبال في البر، كما أن الإبل في البر كالسفن في البحر.

والمعنى: أي وله تعالى السفن الكبار التي رفعت شرعها في الهواء كالجبال الشاهقة تجري في البحر بما ينفع الناس، فتنقل المتاجر من بلد إلى آخر، والأقوات من إقليم هي كثيرة فيه إلى آخر هو محروم منها. وبذا يتم تبادل السلع، وسد حاجات الأمم في أقواتها ومشاربها.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾؛ أي:[1] فبأيّ هذه النعم تكذّبان أبخلق مواد السفن، أم بكيفية تركيبها، أم بإجرائها في البحر يابسات بأسباب لا يقدر عليها غيره سبحانه لقطع المسافات الكثيرة في الأوقات القليلة.

أي: عبادي هل ظننتم أن مجرد الإيمان كاف لكم في شكر هذه النعم؟ فهل خلقت الشمس والقمر، والنجم، والشجر، والزرع، والحب، والأنهار، والبحار، والدر، والمرجان لقوم لا يعقلون أم خلقتها لقوم يقبلون مني النعمة، وكيف يقبلونها دون أن يعرفوها.

﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا﴾؛ أي: على الأرض من الحيوانات والمركبات. فعبر[2] بمن تغليباً للعقلاء أو من الإنس والجن. والضمير عائد على الأرض في قوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ﴿١٠﴾﴾ وإن بعد. ﴿فَانٖ﴾؛ أي: هالك لا محالة. والفناء عبارة عن

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

إعدام جميع الموجودات من حيوان وغيره.

ولما نزلت هذه الآية قالت الملائكة: هلك بنو آدم، فلما نزلت: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أيقنوا بهلاك أنفسهم. فإن لهم أجساماً لطيفة، وأرواحاً متعلقة بتلك الأجسام كأرواح الإنسان. وأما الأرواح المجردة المهيمنة العالية فلا تفنى.

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾؛ أي: ذات ربك يا محمد أو أيها المخاطب. والوجه هنا بمعنى الذات، نظير قولهم: كرم الله وجهه؛ أي: ذاته. فالوجه عبارة عن العضو المعروف، استعير للذات؛ لأنه أشرف الأعضاء، ومجمع المشاعر، وموضع السجود، ومظهر آثار الخشوع.

قال القاضي: ولو استقريت جهات الموجودات، وتفحصت وجوهها وجدتها بأسرها فانية في حد ذاتها، إلا وجه الله الذي يلي جهته، انتهى، أي: يلي مقصده، ويحتمل[1] أن يكون الوجه بمعنى القصد؛ أي: ويبقى كل ما يقصد، وينوى به الله سبحانه، وأن يكون بمعنى الجهة؛ أي: كل من عليها من الثقلين، وما اكتسبوه من الأعمال هالك منعدم إلا ما توجهوا به جهة الله، وعملوه ابتغاء لمرضاته.

وقوله: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾؛ أي: ذو الاستغناء المطلق أو ذو العظمة في ذاته وصفاته. ومعناه: الذي يجله الموحدون عن التشبيه بخلقه. ﴿و﴾ ذو ﴿الإكرام﴾؛ أي: ذو الفضل التام، والطول العام، ومعناه: المكرم لأنبيائه وأوليائه وجميع خلقه بلطفه وإحسانه إليهم مع جلاله وعظمته، اهـ من «الخازن». صفة لوجه. وقرأ الجمهور ﴿ذُو﴾ بالواو صفة للوجه. وقرأ أبي، وعبد الله ﴿ذي﴾ بالياء صفة للرب. والظاهر: أن الخطاب في قوله: ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾ للرسول ﷺ. وفيه تشريف عظيم له ﷺ. وقيل: الخطاب لكل سامع. ومعنى ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾ الذي يجله الموحدون عن التشبيه بخلقه، وعن أفعالهم، أو الذي يتعجب من جلاله، أو الذي عنده الجلال والإكرام للمخلصين من عباده. قال الطيبي: كيف[2] أفرد الضمير في قوله: ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾، وثناه في ﴿رَبِّكُمَا﴾ والمخاطب واحد؟

قلت: اقتضى الأول تعميم الخطاب لكل من يصلح للخطاب لعظم الأمر وفخامته، فيندرج فيه الثقلان اندراجاً أولياً، ولا كذلك الثاني، فتركه على ظاهره.

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

والمعنى[1]: أي إنَّ جميع أهل الأرض يذهبون ويموتون، وكذلك أهل السموات. ولا يبقى سوى وجه ربك الجليل الكريم، فإنه الحي الذي لا يموت أبداً. قال قتادة: أنبأ بما خلق، ثم أنبأ أن ذلك كله فان. وقد ورد في الدعاء المأثور: «يا حي يا قيوم يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام لا إله إلا أنت برحمتك نستغيث أصلح لنا شأننا كله، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك».

ثم وصف سبحانه نفسه بالاستغناء المطلق، والفضل العام، وأنه ذو الجود والكبرياء، يعطي خلقه من النعم والإكرام ما يليق بحالهم، ولا يحجب فضله عن مخلوق خلقه، انظر إلى[2] هذه النجوم الثواقب في ظلمات الليل تراها مشرقة ساطعة تتلألأ نوراً تنشرح له الصدور، وتقر به العيون، فتتجلى لك عظمة الخالق وكبرياؤه، تموت الأحياء وتلك النجوم باقية، والأرض لم تتغير على ما نشاهد، وهذا مظهر الجلال والعظمة، جمال في النجوم، بهجة في الإشراق، مناظر باهرة، أنوار ساطعة، أجسام عظيمة، أحوال تتقلب، وأهوال تتعاقب، والناس من بينها يخرون صعقين. فهذا لعمرك هو الجلال والعظمة، فسبحان الخلاق العظيم!.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: فبأيّ هذه النعم تكذّبان، فالفناء باب للبقاء، وللحياة الأبدية، والنعم السرمدية، ولولا تحليل أجسامنا بالموت لتعطلت الحياة؛ إذ المادة الأرضية إذا بقيت على حال واحدة كانت قواها محدودة، لكن انبعاث الصور الكثيرة، وتعاقبها جيلاً بعد جيل يلبس المادة جميع الصور والأشكال، ويجعل العالم في تجدد مستمر، وقال مقاتل: وجه النعمة في فناء الخلق التسوية بينهم في الموت، ومع الموت تستوي الأقدام. انظر إلى بني الإنسان مثلاً إذ توالدوا جيلاً بعد جيل، ولم يمت منهم أحد فلا تمضي إلا أجيال معدودة، حتى يكون على القدم ألف قدم، وتمتلىء الأرض بالآدميين، فلا يكفيهم حيوان أرضي ولا نبات مأكول، ولا يجدون وسيلة للعيش، إلا أن يأكل بعضهم بعضاً، وتمتلىء الأرض رمماً آدمية من السغب والمخمصة.

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

والخلاصة: أنّ في الفناء نعمتين: نعمة الرحمة بتعاقب الأجيال، ونعمة الخروج من سجن المادة إلى فسيح العالم الروحيّ، وإلى التمتع بنعيم آخر بعد الموت.

ولما كان ما ذكر يتضمن الافتقار المتجدد إليه تعالى أوضحه بقوله: ﴿يَسْأَلُهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قاطبة من ملك وإنس وجن ما يحتاجون إليه من ذواتهم ووجوداتهم حدوثاً وبقاءً، وسائر أحوالهم سؤالاً مستمراً بلسان المقال أو بلسان لحال، فلا يستغني أحد منهم عنه تعالى. فإنهم من حيث حقائقهم الممكنة بمعزل عن استحقاق الوجود، وما يتفرع عليه من الكمالات بالمرة، بحيث لو انقطع ما بينهم وبين العناية الإلهية من العلائق.. لم يشموا رائحة الوجود أصلاً، فهم في كل آنٍ مستمرون على الاستدعاء والسؤال.

قال ابن عباس رضي الله عنه: فأهل السماء يسألونه لأهل الأرض المغفرة، وأهل الأرض يسألونه الرزق والمغفرة، وقيل: كل أحد يسأله الرحمة، وما يحتاج إليه في دينه أو دنياه، وفيه إشارة إلى كمال قدرته تعالى، وأن كل مخلوق وإن جل وعظم، فهو عاجز عن تحصيل ما يحتاج إليه، مفتقر إلى الله تعالى.

والحاصل: أنه يسأله كل مخلوق من مخلوقاته بلسان المقال، أو بلسان الحال ما يطلبونه من خيري الدنيا والآخرة أو من خيري إحداهما.

﴿كُلَّ يَوْمٍ﴾؛ أي: كل وقت من الأوقات[1]. وهو اليوم الإلهي الذي هو الآن الغير المنقسم. ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿فِي شَأْنٍ﴾ من الشؤون، وأمر من الأمور التي من جملتها إعطاء ما سألوا. فإنه تعالى لا يزال ينشىء أشخاصاً، ويفني آخرين، ويأتي بأحوال، ويذهب بأحوال من الغنى، والفقر، والعزة، والذلة، والنصب، والعزل، والصحة، والمرض، ونحو ذلك حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح البالغة. وانتصاب ﴿كُلَّ﴾ بالاستقرار الذي تضمنه الخبر، والتقدير: استقر سبحانه في شأن كل وقت من الأوقات.

روى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن مما خلق

(١) روح البيان.

عز وجل لوحاً من درة بيضاء ودفتاه من ياقوتة حمراء، قلمه نور، وكتابه نور ينظر الله فيه كل يوم ثلاث مئة وستين نظرة، يخلق ويرزق، يحيي ويميت، ويعز ويذل، ويفعل ما يشاء. فذلك قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.

وقال سفيان بن عيينة: الدهر عند الله سبحانه يومان:

يوم الدنيا، وشأنه فيه الاختبار بالأمر والنهي، والإحياء والإماتة، والإعطاء والمنع.

وشأن يوم القيامة الجزاء والحساب، والثواب والعقاب.

وقال الحسين بن الفضل: هو سوق المقادير إلى المواقيت، ومعناه: أنه تعالى كتب ما يكون في كل يوم، وقدر ما هو كائن، فإذا جاء ذلك الوقت تعلقت إرادته بالفعل، فيوجده في ذلك الوقت.

وعن عبد الله بن منيب قال: تلا علينا رسول الله ﷺ هذه الآية، فقلنا: يا رسول الله وما ذلك الشأن؟ قال: «أن يغفر ذنباً، ويفرج كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين». أخرجه الحسن بن سفيان، والبزّار، وابن جرير، والطبراني، وأبو نعيم، وابن عساكر. وسأل عبد الله بن طاهر الحسين بن الفضل عن الجمع بين هذه الآية وما صح من قوله ﷺ: «جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة». فقال: شؤون يبديها، لا شؤون يبتديها.

والحاصل[1]: أنّ المادّة دائماً تلبس جديداً، وتخلع قديماً. فأجسامنا، وأجسام الحيوان على هذا المنوال فهما في حاجة إلى بقاء الأجسام، وتغذيتها. وإذا انحل جسم افتقر إلى شيء يعوض ما ذهب. فالتغيرات المستمرة افتقار، وهذا الافتقار مستمر في كل لحظة. وذلك يدعو إلى السؤال من الواهب المعطي، إما بالنطق، وإما بتوجه النفس، وطلبها العون والمدد والفيض من فضله.

وجماع القول: أنّ المادّة مفتقرة إلى بقاء ما يناسبها، فالنبات في كل لحظة مفتقر إلى ما يبقيه من ماء، وهواء، ومواد أخرى، والحيوان يطلب ما يحتاج إليه، والإنسان يسأل ما هو في حاجة إليه إما سؤال حال، وإما سؤال مقال في كل وقت

---

(١) المراغي.

وأوان.

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ فمن شؤونه أنه يحيي ويميت، يخلق ويرزق، يعز ويذل، يمرض ويشفي، يعطي ويمنع، يغفر ويعاقب، يرحم ويغضب إلى نحو أولئك. ومن شؤونه إعطاء أهل السموات والأرض ما يطلبون منه على اختلاف حاجاتهم، وتباين أغراضهم. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ مع مشاهدتكم لما ذكر من إحسانه، أي: فبأيّ هذه النعم تكذّبان. فكم من سؤال أجبته، وكم من جديد أحدثته، وكم من ضعيف في الحياة أرحته، إما بصحة تسعده، أو بموت من سجن المادة يخرجه.

ولما ذكر تعالى ما أنعم به من تعليم العلم، وخلق الإنسان والسماء والأرض، وما أودع فيهما، وفناء ما على الأرض ذكر ما يتعلق بأحوال الآخرة، والجزاء. فقال: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾؛ أي[1]: سنتجرد لحسابكم وجزائكم يوم القيامة عند انتهاء شؤون الخلق المشار إليها بقوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾. فلا يبقى حينئذٍ إلا شأن واحد. وهو الجزاء. فعبر عنه بالفراغ لهم على المجاز المرسل. فإن الفراغ يلزمه التجرد، وإلا فليس المراد الفراغ من الشغل؛ لأنه تعالى لا يشغله شأن عن شأن. وقيل: هو مستعار من قول المهدد لصاحبه سأفرغ لك؛ أي: سأتجرد للإيقاع بك من كل ما يشغلني عنه. والمراد: التهيؤ للنكاية فيه، والانتقام منه، وعلى هذا فالخطاب للمجرمين منهما، بخلافه على الأول.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿سَنَفْرُغُ﴾ بنون العظمة، وضمّ الراء، من فرغ بفتح الراء. وهي لغة الحجاز. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو حيوة، وزيد بن عليّ بالتحتية مفتوحة مع ضمّ الراء؛ أي: ﴿سيفرُغ﴾ الله تعالى لكم. وقرأ قتادة، والأعرج بالنون وفتح الراء، مضارع فرغ بكسرها. وهي لغة تميمية، وقرأ عيسى الثقفي، وأبو السمال بكسر النون وفتح الراء، قال أبو حاتم: وهي سفلى مضر. وقرأ الأعمش، وأبو حيوة بخلاف عنهما، وابن أبي عبلة، والزعفراني وإبراهيم بضم الياء وفتح الراء مبنياً للمفعول. وقرأ عيسى أيضاً بفتح النون وكسر الراء، والأعرج أيضاً بفتح الياء، وفتح الراء، وهي رواية يونس، والجعفي وعبد الوارث عن أبي عمرو.

---

(١) روح البيان.　　(٢) البحر المحيط.

﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾؛ أي: أيها الإنس والجن. سميا[1] بذلك لأنهما ثقلا الأرض. يعني: أنهما شبها بثقل الدابة. وفي حواشي ابن الشيخ: شبه الأرض بالحمولة التي تحمل الأثقال، والإنس والجن جعلا أثقالاً محمولة عليها، وجعل ما سواهما كالعلاوة، أو لرزانة آرائهما، أو لأنهما مثقلان بالتكليف أو لعظم قدرهما في الأرض. كما في الحديث: «إني خلفت فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي». وقال جعفر الصادق: سميا ثقلين؛ لأنهما يثقلان بالذنوب، أو لما فيهما من الثقل. وهو عين تأخرهما بالوجود؛ لأنَّ من عادة الثقيل الإبطاء، كما أن من عادة الخفيف الإسراع، والإنس أثقل من الجن، للركن الأغلب عليهم أو لثقل الإنس، وسمي الجن ثقلاً لمجاورة الأنس.

وجمع في قوله[2]: ﴿لَكُمْ﴾، ثم قال: ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾؛ لأنهما فريقان. وكل فريق جمع. وقرأ الجمهور ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ بفتح الهاء. وقرأ أهل الشام بضمها.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ التي من جملتها التنبيه على ما سيلقونه يوم القيامة للتحذير عما يؤدي إلى سوء الحساب ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ بأقوالكما، وأفعالكما. قال في «كشف الأسرار»: اعلم: أن بعض هذه السورة ذكر فيه الشدائد والعذاب والنار، والنعمة فيها من وجهين:

أحدهما: في صرفه عن المؤمنين إلى الكفار. وتلك نعمة عظيمة تقتضي شكراً عظيماً.

والثاني: أن في التخويف منها، والتنبيه عليها نعمة عظيمة. لأن اجتهاد الإنسان رهبة مما يؤلمه أكثر من اجتهاده رغبة فيما ينعمه.

والمعنى[3]: أي سنقصد لحسابكم، ومجازاتكم على أعمالكم، وهذا وعيد شديد، وتهديد من الله لعباده. كما يقول القائل لمن يهدده: إذاً أتفرغ لك؛ أي: أقصد قصدك، والفراغ هنا بمعنى القصد للشيء، لا بمعنى الفراغ منه؛ إذ معنى الفراغ من الشيء بذل المجهود فيه. وهذا لا يقال في حقه تعالى، هذا وإن شأن

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.

الآخرة ما هو إلا شأن من الشؤون، فلا يشغله شأن عن شأن، وهو القائل: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾، والقائل: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾. فبأيّ نعم ربكما تكذبان يا معشر الثقلين. ومن جملتها التنبيه إلى ما ستلقونه من الجزاء في هذا اليوم تحذيراً مما سيؤدي إلى سوء الحساب، وشديد العقاب. ثم ذكر أنه لا مهرب في هذا اليوم من جزاء كل عامل على عمله، فقال: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾؛ أي: يا جماعة الإنس والجنّ. وهذا[1] كالترجمة لقوله: ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ خوطبا باسم جنسهما لزيادة التقرير؛ ولأنّ الجن مشهورون بالقدرة على الأفاعيل الشاقة. فخوطبوا بما ينبىء عن ذلك؛ لبيان أن قدرتهم لا تفي لما كلفوه. والمعشر: الجماعة العظيمة، كما سيأتي في مبحث اللغة. وقدم الجن على الإنس في هذه الآية لتقدم خلقه. لأن أباهم الجان خلق قبل آدم. وقدم الإنس على الجن في قوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾ لفضله. فإن التقديم يقتضي الأفضلية.

قال ابن الشيخ: لما بين الله تعالى أنه سيجيء وقت يتجرد فيه لمحاسبتهم ومجازاتهم، وهددهم بما يدل على شدة اهتمامه بها، كان مظنة أن يقال: فلم ذلك مع ما له من كمال الاهتمام به؟ فأشار إلى جوابه بما محصوله: هم جميعاً في قبضة قدرته وتصرفه، لا يفوته منهم أحد، فلم يتحقق باعث يبعثه على الاستعجال؛ لأن ما يبعث المستعجل إنما هو خوف الفوات، وحيث لم يخف ذلك قسم الدهر كله إلى قسمين. أحدهما: مدة أيام الدنيا، والآخر: يوم القيامة. وجعل المدة الأولى أيام التكليف والابتلاء، والمدة الثانية للحساب والجزاء. وجعل كل واحدة من الدارين محل الرزايا، والمصائب، ومنبع البلايا، والنوائب. ولم يجعل لواحد من الثقلين سبيلاً للفرار منهما، والهرب مما قضاه فيهما. فقوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ متعلق بقوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾، فكانا بمنزلة كلام واحد.

﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ لم يقل[2]: إن استطعتما بلفظ التثنية؛ لأن كل واحد منهما فريق، كقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾؛ أي: كل فريق منهم يختصم فجمع الضمير هنا نظراً إلى معنى الثقلين، وثناه في قوله: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾ كما سيأتي نظراً

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

إلى اللفظ؛ أي: إن قدرتم على ﴿أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض، ونواحيهما هاربين من الله تعالى، فارين من قضائه ﴿فَٱنفُذُوا۟﴾؛ أي: فاخرجوا منها، وخلصوا أنفسكم من عقابي، وهو أمر تعجيز، والمراد: أنهم لا يفوتونه، ولا يعجزونه، حتى لا يقدر عليهم.

والمعنى[1]: إن استطعتم أن تهربوا من الموت بالخروج من أقطار السموات والأرض فاهربو، واخرجوا منها، فحيثما كنتم يدرككم الموت. وقيل: يقال لهم: هذا يوم القيامة.

والمعنى: إن استطعتم أن تخرجوا من أقطار السموات والأرض فتعجزوا ربكم حتى لا يقدر عليكم فاخرجوا. وقيل: معناه: إن استطعتم أن تهربوا من قضائي، وتخرجوا من ملكي، ومن سمائي وأرضي فافعلوا.

ثم قال تعالى: ﴿لَا تَنفُذُونَ﴾؛ أي: لا تقدرون على النفوذ والخروج ﴿إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾؛ أي: إلا بقوّة، وقهر، وغلبة. وأنى لكم ذلك؟ لأنكم حيثما توجهتم كنتم في ملكي وسلطاني، وأنتم من ذلك بمعزل بعيد.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: إن استطعتم أن تعلموا ما في السموات والأرض فاعلموا، ولن تعلموه إلا بسلطان؛ أي: إلا ببينة من الله تعالى نصبها، فتعرجون عليها أفكاركم، روي: أن الملائكة تنزل، فتحيط بجميع الخلائق، فيهرب الإنس والجن، فلا يأتون وجهاً إلا وجدوا الملائكة أحاطت به، فتقول لهم الملائكة ذلك، فكما لا يقدر أحد على الفرار يوم القيامة، كذلك لا يقدر في الدنيا، فيدركه الموت والقضاء لا محالة.

﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ التي من جملتها هذه النعمة الحاصلة بالتحذير والتهديد. فإنها تزيد المحسن إحساناً، وتكف المسيء عن إساءته. والمساهلة والعفو مع كمال القدرة على العقوبة. ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ وتنكران، وقرأ الجمهور ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ على خطاب الجماعة. لأنّ كلًّا من الفريقين تحته أفراد كثيرة، كقوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾. وقرأ زيد بن علي ﴿إن استطعتما﴾ على خطاب تثنية الثقلين، ومراعاة

(١) الخازن.

الجن والإنس.

والخلاصة[1]: أي إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض هاربين من عقاب الله، فارين من عذابه فافعلوا، والمراد أنكم لا تسطيعون ذلك. فهو محيط بكم لا تقدرون على الخلاص منه، فأينما ذهبتم أحيط بكم. ثم بين السبب في عدم إمكان الهرب، فقال: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾؛ أي: إنّ المهرب إنما يكون بالقوة والقهر، وأنى لكم بهما، وممن تستمدونهما، وأنتم لا تجدون إذ ذاك حولاً ولا طولاً. فبأيّ نعم ربكما التي من جملتها التحذير، والتهديد تكذّبان مع أن من حذركم، وأنذركم قادر على الإيقاع بكم دون مهلة، والعفو عن المذنب مع كمال القدرة عليه من أجل النعم التي يسديها الله تعالى إلى عباده.

ثم بين السبب في طلب المهرب فقال: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾ أيها الثقلان ﴿شُوَاظٌ﴾؛ أي: لهب خالص لا دخان فيه. وقيل: هو اللهب الأخضر المنقطع من النار ﴿مِّن نَّارٍ﴾ صفة لشواظ ﴿وَنُحَاسٌ﴾؛ أي: دخان لا لهب معه أو صفر مذاب يصب على رؤوسهم، يسوقانكما إلى المحشر. ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾؛ أي: لا تمتنعان من ذلك العذاب؛ أي: لا تقدران على الامتناع من عذاب الله تعالى.

والمعنى: أي يُصب عليكما ألوان من النيران، فمن لهب خالص يضيء كضوء السراج إلى نار مختلطة بالدخان، فلا تستطيعان المهرب منها، بل يسوقكم إلى المحشر سوقا.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿يُرْسَلُ﴾ بالتحتية، مبنياً للمفعول. وقرأ زيد بن عليّ ﴿نُرْسل﴾ بالنون مبنياً للفاعل، ﴿عَلَيْكُمَا شُواظاً﴾ بالنصب من نار، و﴿نحاسا﴾ بالنصب عطفاً على ﴿شواظاً﴾. وقرأ الجمهور ﴿شُوَاظٌ﴾ بضم الشين. وقرأ عيسى، وابن كثير وشبل بكسرها. وقرأ الجمهور ﴿وَنُحَاسٌ﴾ بالرفع عطفاً على شواظ، وقرأ ابن أبي إسحاق، والنخعيّ، وابن كثير، وأبو عمرو بالجر عطفاً على نار. وقرأ الكلبي، وطلحة، ومجاهد بكسر نون نحاس والسين. وقرأ ابن جبير ﴿ونحس﴾ كما تقول: يوم نحس. وقرأ عبد الرحمن بن أبي بكرة، وابن أبي إسحاق أيضاً

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

بالحركات الثلاث في الحاء على التخيير. وقرأ حنظلة بن نعمان، ﴿ونَحسٍ﴾ بفتح النون وكسر السين. وقرأ الحسن، وإسماعيل ﴿ونُحُسٌ﴾ بضمتين والكسر.

والنحاس[1]: الصفر المذاب، يصب على رؤوسهم، قاله مجاهد، وقتادة، وغيرهما، وقال سعيد بن جبير: هو الدخان الذي لا لهب له، وبه قال الخليل، وقال الضحاك: هو درديُّ الزيت المغلي، وقال الكسائي: هو النار التي لها ريح شديدة، وقيل: هو المهل.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾؛ أي: فبأيّ هذه النعم ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ فإن التهديد لطف. والتمييز بين المطيع والعاصي بالإنعام على الأول، والانتقام من الثاني من أجل نعم الإله القادر على جزاء عباده.

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾؛ أي: انصدعت يوم القيامة، وانفك بعضها من بعض لقيام الساعة أو انفرجت، فصارت أبواباً لنزول الملائكة، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾؛ أي: صارت كوردة حمراء في اللون، وهي الزهرة المعروفة التي تشم، والغالب على الوردة الحمرة، قال الماوردي: وزعم المتقدمون أن أصل لون السماء الحمرة، وأنها لكثرة الحوائل، وبعد المسافة ترى بهذا اللون الأزرق. ﴿كَٱلدِّهَانِ﴾ خبر ثان لكانت، أي[2]: كدهن الزيت، فكانت في حمرة الوردة، وفي جريان الدهن؛ أي: تذوب، وتجري كذوبان الدهن وجريه، فتصير حمراء من حرارة جهنم، وتصير مثل الدهن في رقته، وذوبانه. وهو إما جمع دهن أو اسم لما يدهن به كالإدام لما يؤتدم به. وجواب إذا محذوف؛ أي: يكون من الأحوال والأهوال ما لا يحيط به دائرة المقال. قال سعدي المفتي: ناصب إذا محذوف؛ أي: كان ما كان من الأمر الهائل الذي لا يحيط به نطاق العبارة، أو رأيت أمراً عظيماً هائلاً. وبهذا الاعتبار تتسبب هذه الجملة عما قبلها؛ لأن إرسال الشواظ يكون سبباً لحدوث الأمر الهائل أو رؤيته في ذلك الوقت.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾﴾ مع عظم شأنها؛ فإن من جملتها ما في هذا

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

التهديد والتخويف من حسن العاقبة بالإقبال على الخير، والإعراض عن الشر. وقرأ عبيد بن عمير ﴿وَرْدَةٌ﴾ بالرفع بمعنى: فحصلت سماء وردة. وهو من الكلام الذي يسمى بالتجريد.

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾؛ أي[1]: يوم إذا انشقت السماء حسب ما ذكر ﴿لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ لأنهم يعرفون بسيماهم، فلا يحتاج في تمييز المذنب عن غيره إلى أن يسأل عن ذنبه إن أراد أحد أن يطلع على أحوال أهل المحشر، وذلك أول ما يخرجون من القبور، ويحشرون إلى الموقف فوجاً فوجاً على اختلاف مراتبهم. وأما قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ ونحوه في موقف المناقشة والحساب. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لا يسألهم هل عملتم كذا، وكذا. فإنه أعلم بذلك منهم، ولكن يسألهم لم عملتم كذا، وكذا، وعنه أيضاً: لا يسألون سؤال شفاء وراحة، وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ. وضمير ﴿ذَنۢبِهِۦٓ﴾ للإنس لتقدمه رتبةً. وإفراده لما أن المراد فرد من الإنس. كأنه قيل: لا يسأل عن ذنبه إنسي ولا جني. وأراد بالجان: الجن، كما يقال: تميم، ويراد ولده.

والمعنى[2]: فيوم إذ انشقت السماء لا يسأل أحد من الإنس، ولا من الجن عن ذنبه. لأنهم يعرفون عند خروجهم من قبورهم. ونحو الآية قوله: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾. والجمع بين هذه الآية، وبين نحو قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ أنَّ ما هنا يكون في موقف، والسؤال يكون في موقف آخر. لأن مواقف القيامة مختلفة الأحوال والأهوال. وقرأ الحسن[3]، وعمرو بن عبيد ﴿ولا جأن﴾ بالهمز فراراً من التقاء الساكنين، وإن كان التقاؤهما على حده.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾؛ أي: فبأيّ هذه النعم تكذّبان؛ فإن تخويف المجرم نعمة عليه، حتى يرتدع عن ذنبه، ويثوب إلى رشده، ويثوب إلى ربه.

وجملة قوله: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل عدم السؤال. والسيماء: العلامة، كما سيأتي؛ أي: يعرف المشركون يومئذٍ بعلاقاتهم، وهي سواد

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) البحر المحيط.

الوجوه، وزرقة العيون، وقيل: بما يعلوهم من الكآبة والحزن، كما يعرف الصالحون بأضداد ذلك، وقرأ حماد بن أبي سليمان ﴿بسيمائهم﴾ بالمد، والجمهور ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾ بالقصر.

﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى﴾ جمع ناصية[1]. وهي مقدم الرأس، والمراد هنا: شعرها، والجار والمجرور هو القائم مقام الفاعل. ﴿وَٱلْأَقْدَامِ﴾ جمع قدم. يقال: أخذه إذا كان المأخوذ مقصوداً بالأخذ، ومنه: قوله تعالى: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾، ونحوه. وأخذ به إذا كان المأخوذ شيئاً من ملابسات المقصود بالأخذ. ومنه: قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾، وقول المستغيث: خذ بيدي أخذ الله بيدك.

والمعنى: تأخذ الملائكة بنواصيهم؛ أي: بشعور مقدم رؤوسهم، وأقدامهم، فيقذفونهم في النار، أو تسحبهم الملائكة إلى النار تارةً تأخذ بالنواصي، وتجرهم على وجوههم، أو يجمع بين نواصيهم وأقدامهم في سلسلة من وراء ظهورهم.

﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾ من المواعظ والزواجر، فإن من جملتها هذا الترهيب الشديد، والوعيد البالغ الذي ترجف له القلوب، وتضطرب لهوله الأحشاء.

والمعنى[2]: أي يعرف المجرمون حينئذٍ بعلامات يمتازون بها عن سواهم، فلا حاجة حينئذٍ إلى السؤال والجواب؛ لأنَّ السيما ميزت كل مجرم بنوع جرمه، ولقد اهتدى الإنسان بعقله إلى فوائد هذه العلامات في الدنيا، فأنشأت الحكومات إدرات خاصة لعلامات المشتبه في سلوكهم، ومعتادي الإجرام فتأخذ إبهاماتهم، وتحفظها في أضابير خاصة بهم. ولكل امرىء خطوط في إبهامه، لا تشابه خطوط غيره فيه، ولا يحصل فيها التباس، فمتى أحدث أحدهم حدثاً، وجاء بجرم روجع ملفه الخاص، واستخرجت صورة إبهامه من ملفه، وطبقت على الصورة الخارجية، ولاقى في المحاكم ما يستحقه من عقاب.

والخلاصة: أنّ لكل امرىء أحوالاً تخصه في جسمه، وعقله، وأخلاقه. يعرف الناس منها الآن قليلاً، وبقية علمها عند الله تعالى، يعلمها ملائكته يوم القيامة، فيعرفون المجرمين بها.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

ثم تسحبهم الملائكة تارة بأخذ النواصي، وأخرى بأخذ الأقدام. روي عن الضحاك: أن الملك يجمع بين ناصية أحدهم وقدميه في سلسلة من وراء ظهره، ثم يكسر ظهره، ويلقيه في النار، وقيل: تأخذ الملائكة عليهم السلام بعضهم سحباً بالناصية، وبعضهم سحباً بالقدم، ولا نجزم بشيء من ذلك إلا بالنص القاطع، وهذا الوضع معهم سبيل من سبل الإهانة، والإذلال، والنكال.

ويقال لهم على سبيل التأنيب والتوبيخ: ﴿هَٰذِهِۦ﴾ النار التي تلقون فيها الآن ﴿جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾؛ أي: جهنم التي كنتم تكذبون بها في الدنيا، فها أنتم الآن قد شاهدتموها، ورأيتموها رأي العين. فذوقوا عذابها، وهذه الجملة مستأنفة[1] واقعة في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا يقال لهم عند الأخذ بالنواصي والأقدام؟ فقيل: يقال لهم: هذه جهنم تقريعاً لهم، وتوبيخاً.

وجملة قوله: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا﴾؛ أي: بين جهنم، فتحرقهم ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ فتصب على وجوههم. حال من المجرمين أو مستأنفة؛ أي: يدورون بين النار، يحرقون بها، وبين حميم آن؛ أي: ماء بالغ من الحرراة أقصاها ونهايتها، يصب عليهم أو يسقون منه؛ أي: يطوفون من النار إلى الحميم، ومن الحميم إلى النار دهشاً وعطشاً أبداً. والحميم: الماء الحار. والآني الذي قد انتهى حره، وبلغ غايته، من أنى يأني فهو آنٍ. مثل: قضى يقضي فهو قاض. قال أبو الليث: يسلط عليهم الجوع، فيؤتى بهم إلى الزقوم التي طلعها كرؤوس الشياطين، فأكلوا منها، فأخذت في حلوقهم، فاستغاثوا بالماء، فأوتوا به من الحميم. فإذا قربوه إلى وجوههم تناثر لحم وجوههم، ويشربون، فتغلي أجوافهم، ويخرج جميع ما فيها. ثم يلقى عليهم الجوع، فمرة يذهب بهم إلى الحميم، ومرة إلى الزقوم، وقيل: هو واد من أودية جهنم، يجمع فيه صديد أهل النار، فيغمسون فيه، ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾ فإنَّ من جملتها النعمة الحاصلة بهذا التخويف، وما يحصل به من الترغيب في الخير، والترهيب من الشر.

فإن قلت[2]: هذه الأمور المذكورة في هذه الآيات من قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ إلى هنا ليست نعماً، فكيف عقبها بقوله: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾؟

---

(١) روح البيان. (٢) الخازن.

قلت: المذكور في هذه الآيات مواعظ، وزواجر، وتخويف. وكل ذلك نعمة من الله تعالى، لأنها تزجر العبد عن المعاصي، فصارت نعماً. فحسن ختم كل آية منها بقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾.

وقرأ عليٌّ، والسلميّ[1]: ﴿يطافون﴾. والأعمش، وطلحة، وابن مقسم ﴿يُطوِّفون﴾ بضم الياء، وفتح الطاء، وكسر ﴿الواو﴾ مشدّدة. وقرىء ﴿يطوفون﴾ أصله: يتطوفون. وقرأ الجمهور ﴿يَطُوفُونَ﴾ مضارع طاف الثلاثي.

الإعراب

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾﴾.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾﴾ مبتدأ، وجملة ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾﴾ خبره. وقد تعددت الأخبار في الأفعال التي وردت خالية من العاطف على نمط التعديد وإقامة الحجة على الكافرين. وهذا عند من لا يرى ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾﴾ آية. ومن عدّها آية أعرب ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: الله الرحمن أو مبتدأ خبره محذوف؛ أي: الرحمن ربّنا. و﴿عَلَّمَ﴾ يتعدّى إلى مفعولين، حذف أولهما لشموله؛ أي: علم من يتعلم. وهذا أولى من تخصيص المفعول الأول المحذوف بواحد معين. ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة معطوفة بعاطف مقدر على جملة ﴿عَلَّمَ﴾، على كونها خبر المبتدأ. ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ فعل، وفاعل مستتر، ومفعولان، معطوف على جملة ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾﴾. ﴿ٱلشَّمْسُ﴾ مبتدأ، ﴿وَٱلْقَمَرُ﴾ معطوف عليه، ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ خبر المبتدأ. والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾﴾. ﴿وَٱلنَّجْمُ﴾ الواو: عاطفة، ﴿النجم﴾ مبتدأ، ﴿وَٱلشَّجَرُ﴾ معطوف عليه، وجملة ﴿يَسْجُدَانِ﴾ خبر المبتدأ، وما عطف إليه. والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾﴾. ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ منصوب على الاشتغال بفعل محذوف وجوباً يفسّره المذكور بعد، أي: ورفع السماء.

---

(١) البحر المحيط.

والجملة معطوفة على جملة ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾. ﴿رَفَعَهَا﴾ فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به. والجملة مفسّرة، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به. والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾. ﴿أَلَّا﴾ ﴿أن﴾ مصدرية، ﴿لا﴾ نافية، ﴿تَطْغَوْا﴾ فعل مضارع منصوب بأن المصدرية، والواو: فاعل. والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل المقدّرة، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿وضع﴾، على كونه مفعولاً لأجله؛ أي: وضع لأجل عدم طغيانكم. ويجوز أن تكون ﴿أن﴾ مفسّرة، و﴿لا﴾ ناهية، و﴿تَطْغَوْا﴾ مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية. فإن قيل: إنَّ من شرط المفسرة أن تكون مسبوقة بجملة فيها معنى القول دون حروفه. قلنا: إنّ ﴿وضع الميزان﴾ يستدعي كلاماً من الأمر بالعدل فيه. ﴿فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ متعقان بـ ﴿تَطْغَوْا﴾.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾

﴿وَأَقِيمُوا۟﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿أقيموا﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والواو: فاعل، ﴿ٱلْوَزْنَ﴾ مفعول به، ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ حال من الوزن؛ أي: أقيموه حال كونه متلبساً بالقسط والعدل. والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا﴾. ﴿وَلَا﴾ الواو: عاطفة، ﴿لا﴾ ناهية، ﴿تُخْسِرُوا۟﴾ فعل، وفاعل، مجزوم بلا الناهية، ﴿ٱلْمِيزَانَ﴾ مفعول به. والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ الواو: عاطفة، ﴿الأرض﴾ منصوب على الاشتغال بفعل محذوف وجوباً، تقديره: ووضع الأرض. والجملة معطوفة على جملة ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾. ﴿وَضَعَهَا﴾ فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به، ﴿لِلْأَنَامِ﴾ متعلق به والجملة مفسرة، لا محل لها من الإعراب. ﴿فِيهَا﴾ خبر مقدم، ﴿فَٰكِهَةٌ﴾ مبتدأ مؤخّر. والجملة في محل النصب، حال من الأرض. ﴿وَٱلنَّخْلُ﴾ معطوف على فاكهة، ﴿ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ صفة لـ﴿النخل﴾، ﴿وَٱلْحَبُّ﴾ معطوف على ﴿فَٰكِهَةٌ﴾، ﴿ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ صفة لـ ﴿الحب﴾، ﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ معطوف على ﴿فَٰكِهَةٌ﴾ أيضاً. هذا على قراءة الرفع. وأما على قراءة النصب، فالثلاثة منصوبة بفعل محذوف، تقديره: خلق. ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم ما ذكرته لكم من النعم،

وأردتم تذكيركم وتنبيهكم فأقول لكم: بأيّ آلاء ربكما. ﴿بأي﴾ جار ومجرور، متعلق بـ ﴿تُكَذِّبَانِ﴾، ﴿أيّ﴾ مضاف ﴿ءَالَآءِ﴾ مضاف إليه، ﴿ءَالَآءِ﴾ مضاف، ﴿رَبِّكُمَا﴾ مضاف إليه، ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ فعل مضارع مرفوع بثبات النون، وألف التثنية فاعل، والخطاب للثقلين: الإنس والجن. والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. والاستفهام فيه للتقرير.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ (١٥) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣)﴾.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ (٣)﴾ فعل، وفاعل مستتر، يعود على الله، ومفعول به، ﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾ متعلق بـ ﴿خَلَقَ﴾، ﴿كَٱلْفَخَّارِ﴾ صفة لصلصال. والجملة الفعلية مستأنفة، مسوقة لتوبيخهم على إخلالهم بواجب شكر المنعم على إنعامه. ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾ فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف على ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ (٣)﴾. ﴿مِن مَّارِجٍ﴾ متعلق بـ ﴿خَلَقَ﴾، و﴿مِن﴾ لابتداء الغاية، ﴿مِّن نَّارٍ﴾ صفة لـ ﴿مَّارِجٍ﴾، و﴿مِن﴾ للبيان أو للتبعيض. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣)﴾ تقدم إعراب هذه الآية آنفاً. ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو رب المشرقين، ﴿وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ معطوف عليه، والجملة مستأنفة. وقيل: هو مبتدأ، خبره جملة ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾. والأوّل أولى. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣)﴾ تقدم إعرابها. ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر، ومفعول به. والجملة الفعلية مستأنفة. وجملة ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ في محل النصب حال من البحرين. وهي قريبة من الحال المقدرة. ويجوز أن تكون مقارنة. ﴿بَيْنَهُمَا﴾ ظرف، ومضاف، متعلق بمحذوف، خبر مقدم، ﴿بَرْزَخٌ﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة في محل النصب، حال من الضمير في ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾، أو مستأنفة. ﴿لَّا﴾ نافية، ﴿يَبْغِيَانِ﴾ فعل، وفاعل، والجملة في محل النصب حال ثانية من فاعل ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾. ومعنى ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ كل منهما لا يتعدى حدوده. فالعذب منفرد بعذوبته، والملح منفرد بملوحته. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١)﴾ تقدّم إعرابها. ﴿يَخْرُجُ﴾ فعل مضارع، ﴿مِنْهُمَا﴾ متعلق بـ ﴿يَخْرُجُ﴾، ﴿ٱللُّؤْلُؤُ﴾ فاعل، ﴿وَٱلْمَرْجَانُ﴾ معطوف عليه. والجملة مستأنفة. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١)﴾ تقدّم إعرابها.

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَلَهُ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿له﴾ خبر مقدم، ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ مبتدأ مؤخر، مرفوع، وعلامة رفعه ضمّة مقدرة على الياء المحذوفة للتخلص من التقاء الساكنين، منع من ظهورها الثقل؛ لأنّه اسم منقوص، وحذفت الياء خطّاً تبعاً لرسم المصحف العثماني. والجملة مستأنفة. ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ صفة لـ ﴿ٱلْجَوَارِ﴾، ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ متعلق بـ ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾. ﴿كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ حال من الجوار أو من الضمير في ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾. ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾ تقدّم إعرابها. ﴿كُلُّ﴾ مبتدأ، ﴿مَنْ﴾ اسم موصول، في محل الجر مضاف إليه، ﴿عَلَيْهَا﴾ جار ومجرور، صلة لمن الموصولة. ﴿فَانٍ﴾ خبر ﴿كُلُّ﴾ مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء المحذوفة للتخلّص من التقاء الساكنين، منع من ظهورها الثقل؛ لأنه اسم منقوص. والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَيَبْقَىٰ﴾ الواو: عاطفة، ﴿يبقى﴾ فعل مضارع، ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾ فاعل، ومضاف إليه. والجملة الفعلية معطوفة على الجملة الاسمية. ﴿ذُو﴾ صفة: لـ ﴿وَجْهُ﴾، ﴿ٱلْجَلَـٰلِ﴾ مضاف إليه، ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ معطوف على الجلال. ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾ تقدم إعرابها. ﴿يَسْـَٔلُهُۥ﴾ فعل مضارع، ومفعول أوّل، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: يسأله من في السموات المغفرة لأهل الأرض، ومن في الأرض المغفرة والرزق. ﴿مَن﴾ اسم موصول، فاعل، ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ صلته، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على السماوات. والجملة مستأنفة. ولك أن تجعله حالاً من ﴿وَجْهُ﴾، والعامل فيه ﴿يبقى﴾؛ أي: يبقى وجه ربّك حال كونه مسؤولاً لأهل السموات والأرض. ﴿كُلَّ يَوْمٍ﴾ ظرف، متعلق بالاستقرار الذي تعلق به خبر هو، و﴿هُوَ﴾ مبتدأ، ﴿فِى شَأْنٍ﴾ خبره. والجملة مستأنفة. ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾ تقدّم إعرابها.

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿سَنَفْرُغُ﴾ السين: حرف استقبال، ﴿نفرغ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، يعود

على الله، ﴿لَكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿نفرغ﴾. والجملة مستأنفة. مسوقة للتهديد والوعيد. ﴿أَيُّهَ﴾ ﴿أيّ﴾ منادى نكرة مقصودة، حذف منه حرف النداء، والهاء: حرف تنبيه، زائد تعويضاً عمّا فات أيّ من الإضافة، مبنيّ بسكون على الألف المحذوفة لفظاً لالتقاء الساكنين، وخطّاً تبعاً لرسم المصحف العثماني. ﴿الثَّقَلَانِ﴾ بدل من «أيّ». وجملة النداء جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾ تقدم إعرابها. ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء، ﴿معشر الجن﴾ منادى مضاف، ﴿وَٱلْإِنسِ﴾ معطوف على ﴿ٱلْجِنِّ﴾ وجملة النداء مستأنفة. ﴿إِنِ﴾ حرف شرط، ﴿ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ فعل، وفاعل، في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿تَنفُذُوا۟﴾ فعل مضارع، وفاعل، منصوب بـ ﴿أن﴾. والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: إن استطعتم نفوذكم من أقطار السموات والأرض. ﴿مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ متعلق بـ ﴿تَنفُذُوا۟﴾ ﴿فَٱنفُذُوا۟﴾ الفاء: رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية جواب النداء، لا محل لها من الإعراب. ﴿لا﴾ نافية، ﴿تَنفُذُونَ﴾ فعل مضارع مرفوع، والواو: فاعل، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ، ﴿بِسُلْطَٰنٍ﴾ متعلق بـ ﴿تَنفُذُونَ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾ تقدم إعرابها.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿يُرْسَلُ﴾ فعل مضارع، مغيّر الصيغة، ﴿عَلَيْكُمَا﴾ متعلق بـ ﴿يُرْسَلُ﴾، ﴿شُوَاظٌ﴾ نائب فاعل، ﴿مِّن نَّارٍ﴾ صفة لـ ﴿شُوَاظٌ﴾، ﴿وَنُحَاسٌ﴾ بالرفع معطوف على ﴿شُوَاظٌ﴾. وقرىء بالجرّ عطفاً على ﴿نَّارٍ﴾، ولكنه على حذف موصوف؛ أي: وشيء من نحاس، والجملة الفعلية مستأنفة، ﴿فَلَا﴾ الفاء: عاطفة، و﴿لا﴾ نافية، ﴿تَنتَصِرَانِ﴾ فعل مضارع، مرفوع بالنون، والألف فاعل. والجملة معطوفة على جملة ﴿يُرْسَلُ﴾. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾ تقدم إعرابها. ﴿فَإِذَا﴾ الفاء: استئنافية، ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ فعل، وفاعل، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها، ﴿فَكَانَتْ﴾ الفاء: عاطفة،

﴿كانت﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على السماء، ﴿وَرْدَةً﴾ خبرها، ﴿كَٱلدِّهَانِ﴾ صفة لـ ﴿وَرْدَةً﴾، أو خبر ثان لكان أو حال من اسم ﴿كانت﴾. وجملة ﴿كانت﴾ معطوفة على جملة ﴿ٱنشَقَّتِ﴾، وجواب إذا محذوف، تقديره: رأيت أمراً عظيماً، وأهوالاً هائلة، وجملة إذا مستأنفة، أو الجواب جملة قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾﴾ تقدم إعرابها. ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ الفاء: استئنافية، أو رابطة لجواب إذا الشرطية جوازاً، ﴿يومَ﴾ منصوب على الظرفية الزمانية، متعلق بـ ﴿يُسْـَٔلُ﴾ الآتي، ﴿ويوم﴾ مضاف، ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل الجر، مضاف إليه، بنيّ بسكون مقدّر، منع من ظهوره اشتغال المحل بحركة التخلّص من التقاء الساكنين، ﴿لَّا﴾ نافية، ﴿يُسْـَٔلُ﴾ فعل مضارع، مغير الصيغة، ﴿عَن ذَنۢبِهِۦٓ﴾ متعلق بـ ﴿يُسْـَٔلُ﴾، ﴿إِنسٌ﴾ نائب فاعل، ﴿وَلَا جَآنٌّ﴾ معطوف عليه. والجملة الفعلية مستأنفة. أو جواب إذا، لا محل لها من الإعراب. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾ تقدم إعرابها.

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ فعل، ونائب فاعل. والجملة مستأنفة. ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يُعْرَفُ﴾. والجملة مستأنفة، ﴿فَيُؤْخَذُ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿يؤخذ﴾ فعل مضارع، مغير الصيغة، ﴿بِٱلنَّوَٰصِى﴾ جار ومجرور، في محل الرفع، نائب فاعل، لـ ﴿يؤخذ﴾، ﴿وَٱلْأَقْدَامِ﴾ معطوف على النواصي. والجملة معطوفة على جملة ﴿يُعْرَفُ﴾. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾ تقدم إعرابها. ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ مبتدأ وخبر. والجملة مستأنفة. ﴿ٱلَّتِى﴾ صفة لجهنم، ﴿يُكَذِّبُ﴾ فعل مضارع، ﴿بِهَا﴾ متعلق بـ ﴿يُكَذِّبُ﴾، ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ فاعل لـ ﴿يُكَذِّبُ﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿يَطُوفُونَ﴾ فعل، وفاعل، والجملة في محل النصب، حال من المجرمين، أو مستأنفة. ﴿بَيْنَهَا﴾ ظرف متعلق بـ ﴿يَطُوفُونَ﴾، ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ﴾ ظرف، ومضاف إليه، معطوف على بينها، و﴿ءَانٍ﴾ صف لـ ﴿حَمِيمٍ﴾، مجرور، وعلامة جرّه كسرة مقدرة على الياء المحذوفة للتخلص من التقاء الساكنين، منع من ظهورها الثقل. لأنّه اسم منقوص نظير قاض. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾ تقدم إعرابها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١﴾ اسم من أسماء الله تعالى الحسنى. ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣﴾ والإنسان هو هذا النوع المعرّف بالحيوان الناطق. ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ والبيان في اللغة: هو المنطق الفصيح المعرب عمّا في الضمير. وفي الاصطلاح: أحد فنون البلاغة الثلاثة، وهو يبحث في التشبيه، والاستعارة، والمجاز، والكناية، وقد تقدمت أمثلتها من القرآن في هذا الكتاب غير ما مرّة، وقال الراغب: البيان: هو الكشف عن الشيء، وهو أعم من النطق؛ لأنّ النطق مختص بالإنسان، وسمي الكلام بياناً لكشفه عن المعنى المقصود، وإظهاره، انتهى. والمراد بالبيان هنا تعبير الإنسان عمّا في ضميره، وإفهامه لغيره.

﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥﴾؛ أي: يجريان بحساب دقيق منظم، والحساب يجوز فيه وجهان.

أحدهما: كونه مصدراً بمعنى الحساب كالغفران، والكفران، والشكران، والرجحان. يقال: حسبه إذا عده، وبابه نصر حساباً بالكسر، وحسباناً بالضم. وأما الحسبان بالكسر فمصدر بمعنى الظن، من حسب بالكسر بمعنى ظن.

والثاني: أنه جمع حساب كشهاب وشهبان، ورغيف ورغفان.

﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ﴾ والنجم: ما ليس له ساق قويّ، ولا يدوم فوق سنة أو سنتين كالزروع من الحنطة، والشعير، ونحوهما، وسائر العشب، والبقول، والأبازير. وأصل النجم الطلوع، يقال: نجم القرن والنبات إذاطلعا، وبه سمي نجم السماء. وقيل: المراد به: نجم السماء، وحده وأراد به جميع النجوم. والمراد بسجوده: أفوله من جانب الغرب. والشجر: ما له ساق قوي، ويدوم أكثر من سنتين فما فوق كالنخل، والمشمش، والتفاح، والتين، والزيتون.

﴿يَسۡجُدَانِ﴾؛ أي: ينقادان لله طبعاً كما ينقاد المكلفون اختياراً. ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾؛ أي: خلقها مرفوعة المحل والمرتبة. ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾؛ أي: أثبت العدل، وشرعه، وأوجبه. والميزان: العدل في النظام. وأصله: الموزان، لأنه من وزن فهو مفعال من الوزن، قلبت الواو ياء لسكونها إثر كسرة. ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ

﴿٨﴾ أصله: تطغيوا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت لالتقاء الساكنين.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ﴾ أصله: وأقوموا، نقلت حركة الواو إلى القاف فسكنت إثر كسرة، فقلبت ياء حرف مد، وفي «المفردات»: الوزن: معرفة قدر الشيء. والمتعارف في الوزن عند العامّة ما يقدر بالقسطاس والقبان. ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾؛ أي: اجعلوه مستقيماً بالعدل، وقال أبو عبيدة: الإقامة باليد، والقسط بالقلب. ﴿وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ يقال خسرت الشيء بالفتح، وأخسرته نقصته، وبابه ضرب. وأما خسر في البيع فبالكسر كما في «المختار». وقال في «القاموس»: خسر كفرح، وضرب ضل. والخسر والإخسار: النقص؛ أي: لا تنقصوه. لأن من حقه أن يسوى. لأنه المقصود من وضعه.

فائدة: والفرق بين الطغيان والإخسار والقسط أن الطغيان: أخذ الزائد، والإخسار: إعطاء الناقص، والقسط: التوسط بين الطرفين المذمومين، اهـ كرخي.

﴿لِلْأَنَامِ﴾؛ أي: لمنافع الأنام. وهو جمع لا واحد له من لفظه بمعنى الخلق والجن، والإنس مما على الأرض، كما في «القاموس». ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ والفاكهة: كل ما يتفكه به الإنسان من الثمار. ﴿ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ والأكمام: جمع كم بالكسر. وهو وعاء الزهرة قبل التفتق، وفي «الصحاح»: والكم بالكسر والكمامة: وعاء الطلع، وغطاء النور، والجمع كمام، وأكمة، وأكمام، وأكاميم أيضاً والكمام بالكسر والكمامة أيضاً: ما يكم به فم البعير لئلا يعض. يقال منه: بعير مكموم؛ أي: محجوم، وتكممت الشيء غطيته. والكم: ما ستر شيئاً، وغطاه، ومنه: كم القميص بالضم. والجمع كمام، وكممة. والكمة: القلنسوة المدورة لأنها تغطي الرأس.

﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ والحب: كل ما يتغذى به، ويقتات كالحنطة والشعير ونحوهما. والعصف: ورق الزرع أو ورق النبات اليابس. وقيل: ورق النبات على السنبلة كالتبن. وقيل: العصف: كل ما يعصف فيؤكل من الزرع. وقيل: ورق كل شيء يخرج منه الحب. ﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ والريحان: كل مشموم طيب الرائحة من النبات. وقال في «المفردات»: الريحان: كل ما له رائحة. وقيل: الرزق، ثم يقال

للحب المأكول ريحان كما في قوله: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ﴾. وقيل: للأعرابيّ: إلى أين؟ قال: أطلب ريحان الله؛ أي: رزقه. والأصل: ما ذكرنا، انتهى. والريحان عند الفقهاء: ما لساقه رائحة طيبة كما لورقه. كالآس. والورد: ما لورقه رائحة طيبة فقط، كالياسمين. كذا في المغرب. قال ابن الشيخ: الريحان: كل بقلة طيبة الرائحة، سميت ريحاناً لأن الإنسان يراح لها رائحة طيبة؛ أي: يشم، يقال: راح الشيء يراحه، ويرحيه، وأراح الشيء يريحه إذا وجد ريحه، والريحان في الأصل: ريوحان كفيعلان، من روح، فقلبت الواو ياء وأدغم، ثم خفف بحذف عين الكلمة كما في ميت، أو كفوعلان قلبت واوه ياء للتخفيف أو للفرق بينه وبين الروحان. وهو ما له روح.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ الآلاء جمع إلى بكسر الهمزة وسكون اللام، كحمل وأحمال وأجمع ألى بضم الهمزة وسكون اللام كقفل وأقفال أو جمع إلى كمعي وأمعاء، أو جمع ألى كعصي. أربع لغات. أصله: أألا أبدلت الياء همزة لتطرفها إثر ألف زائدة، وأبدلت الهمزة الساكنة الثانية حرف مد لوقوعها إثر فتح، فصار آلاء. وتكرار هذه الآية في هذه السورة لطرد الغفلة، وتأكيد الحجة، وتذكير النعمة، وتقريرها. كما في قوله:

لاَ تَقْطَعَنَّ الصَّدِيْقَ مَا طَرَفَتْ ... عَيْنَاكَ مِنْ قَوْلِ كَاشِحٍ أَشِرِ
وَلاَ تَمَلَّنَّ مِنْ زِيَارَتِهِ ... زُرْهُ وَزُرْهُ زُرْ ثُمَّ زُرْ وَزُرِ

﴿صَلْصَـٰلٍ﴾ والصلصال: الطين اليابس له صلصلة؛ أي: صوت ليبسه إذا نقر. ﴿كَٱلْفَخَّارِ﴾ الفخار: الخزف. وهو الطين المطبوخ بالنار كالآجر. ﴿ٱلْجَآنَّ﴾ أبو الجنّ. وأل فيه للجنس. ﴿مِن مَّارِجٍ﴾ المارج: اللهب الصافي الذي لا دخان فيه. وقيل: هو المختلط بسواد النار من مرج الشيء إذا اضطرب، واختلط. ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾؛ أي: مشرقي الشمس صيفاً وشتاءً. ﴿وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ أي: مغربيهما كذلك.

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾؛ أي: أرسلهما، وأجراهما من قولك: مرجت الدابة في المرعى؛ أي: أرسلتها فيه. وقيل: معنى ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾؛ أي: خلطهما العذب والملح في مرأى العين. ومع ذلك لا يتجاوز أحدهما على الآخر، وأصل المرج: الإهمال كما تمرج الدابة في المرعى. وفي «المصباح»: والمرج أرض ذات نبات

ومرعى، والجمع مروج. مثل: فلس وفلوس، ومرجت الدابة تمرج مرجاً من باب قتل رعت في المرج ومرجتها مرجاً أرسلتها ترعى في المرج يتعدى، ولا يتعدى. ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾؛ أي: يتجاوزان، وتتماس سطوحهما، لا فصل بينهما في رأي العين.

﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾؛ أي: حاجز. والبرزخ: الحائل بين الشيئين، وجمعه برازخ. ومنه: سمي القبر برزخاً؛ لأنه بين الدنيا والآخرة، وقيل للوسوسة: برزخ الإيمان. لأنها طائفة بين الشك واليقين. ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ واللؤلؤ: الدر المخلوق في الأصداف، والمرجان: الخرز الأحمر. وهو اسم أعجمي معرب. وقيل: عروق حمر تطلع من البحر كأصابع الكف. وقال في «خريدة العجائب»: اللؤلؤ يتكوَّن في بحر الهند وفارس. والمرجان ينبت في البحر كالشجر، وإذا كلس المرجان عقد الزئبق، فمنه: أبيض، ومنه: أحمر، ومنه: أسود، وهو يقوي البصر كحلاً، وينشف رطوبة العين. انتهى. وقيل: اللؤلؤ: كبار الدر، والمرجان: صغاره.

﴿ٱلْجَوَارِ﴾ السفن الكبار، جمع جارية. ﴿ٱلْمُنشَآتُ﴾؛ أي: المصنوعات. ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ الجبال، واحدها علم، وهو الجبل العالي كما في قول الخنساء:

وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمُّ ٱلْهُدَاةُ بِهِ ... كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ أصله: فاني، أستثقلت الضمة على الياء ثم حذفت فالتقى ساكنان، ثم حذفت الياء لبقاء دالها وهو كسرة النون، فصار فان. ﴿وَيَبْقَىٰ﴾ فيه إعلال بالقلب. أصله: يبقى بوزن يفعل، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾، أي: يطلبون منه ما يحتاجون إليه في ذواتهم حدوثاً وبقاءً، وفي سائر أحوالهم بلسان المقال أو بلسان الحال، ﴿هُوَ فِى شَأْنٍ﴾؛ أي: في أمر من الأمور، فيحدث أشخاصاً، ويجدد أحوالاً. ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾؛ أي: سنتجرد لحسابكم وجزائكم يوم القيامة. والمراد: التوفر على الجزاء والانتقام منهما. قال الزجاج: الفراغ في اللغة على ضربين. أحدهما: الفراغ من الشغل، والآخر: القصد إلى الشيء، والإقبال عليه كما هنا اهـ. ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ قال الراغب: الثقل والخفة متقابلان، وكل ما يترجح على ما يوزن به أو يقدر به. يقال: هو ثقيل. وأصله في الأجسام، ثم يقال في المعاني، أثقله الغرم،

الوزر، انتهى. والمراد هنا: الإنس والجن. سميا بذلك لأنهما ثقلا الأرض، يعني: أنهما شبهاً بثقل الدابة، وهو تثنية ثقل بفتحتين فعل بمعنى مفعل، لأنهما أثقلا الأرض أو بمعنى مفعول؛ لأنهما أثقلا بالتكاليف؛ أي: أتعبا، اهـ شيخنا.

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ والمعشر: الجماعة العظيمة، سميت به لبلوغه غاية الكثرة، فإن العشر هو العدد الكامل الكثير الذي لا عدد بعده إلا بتركيبه بما فيه من الآحاد، تقول: أحد عشر، واثنا عشر وعشرون وثلاثون؛ أي: اثنتا عشرات وثلاث عشرات. فإذا قيل: معشر فكأنه قيل: محل العشر الذي هو الكثرة الكاملة.

﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ أصله: استطوعتم، بوزن استفعلت، نقلت حركة الواو إلى الطاء فسكنت، لكنها حذفت لما التقت ساكنة بآخر الفعل المسكن، لمناسبة إسناد الفعل إلى ضمير الرفع المتحرك. ﴿أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال في «القاموس»: النفاذ: جواز الشيء عن الشيء، والخلوص منه كالنفوذ. ومخالطة السهم جوف الرمية، وخروج طرفه من الشق الآخر، وسائره فيه كالنفذ ونفذهم جازهم وتخلفهم، كأنفذهم، والنافذ الماضي في جميع أموره، انتهى. الأقطار: جمع قطر. وهو الناحية. يقال: طعنه فقطره، إذا ألقاه على أحد قطريه. وهما جانباه. ﴿بِسُلْطَٰنٍ﴾؛ أي: بقوة، وقهر، وغلبة. ﴿شُوَاظٌ﴾ الشواظ بضم الشين وكسرها. قال أبو عبيدة: هو اللهب الخالص الذي لا دخان فيه. ﴿وَنُحَاسٌ﴾ والنحاس: الدخان الذي لا لهب فيه قال النابغة الذبياني:

تُضِيءُ كَضَوْءِ ٱلسِّرَاجِ ٱلسَّلِيـ ـطِ لَمْ يَجْعَلِ ٱللهُ فِيْهِ نُحَاسَا

وقيل: النحاس: الصفر المذاب، يصب على رؤوسهم. ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾؛ أي: فلا تمتنعان من الله، ولا يكون لكما منه ناصر. ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾؛ أي: انصدعت، وانفك بعضها من بعض. ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾؛ أي: كوردة حمراء في اللون. وهي الزهرة المعروفة التي تشم. والغالب على الورد الحمرة، قال الشاعر:

وَلَوْ كُنْتُ وَرْدَاً لَوْنُهُ لَعَشِقْتَنِيْ وَلَكِنَّ رَبِّيْ شَانَنِيْ بِسَوَادِيَا

﴿كَٱلدِّهَانِ﴾ إما جمع دهن أو اسم لما يدهن به كالإدام لما يؤتدم به كما مر. وقيل: هو الأديم الأحمر.

﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾ السيما بالكسر والقصر، والسيماء بالكسر والمد: العلامة، وزنه عفلي بتقديم عين الكلمة على فائها. لأنه من الوسم، قلبت الواو ياء لسكونها إثر كسرة. فالأصل: وسمي، ثم صار سومي، ثم صار سيمي. ففيه قلب مكاني، وقلب حرفي، ﴿بِٱلنَّوَٰصِي﴾ جمع ناصية. وهو مقدم الرأس، والمراد هنا: شعرها. ﴿يَطُوفُونَ﴾ أصله: يطوفون بوزن يفعلون، نقلت حركة الواو إلى الطاء فسكنت إثر ضمة، فصارت حرف مد. ﴿ءَانٍ﴾ وزنه فاع لحذف لامه بسبب التقاء الساكنين. لأنه من أنى يأني، مثل: قضى يقضي فهو قاض إذا انتهى. في الحر والفيح.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الحذف إفادة للعموم في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾ فقد حذف المفعول الأول لدلالة المعنى عليه؛ لأنَّ النعمة في التعليم، لا في تعليم شخص دون شخص. كما يقال: فلان يطعم إشارة إلى كرمه، ولا يبين من أطعمه.

ومنها: الإيهام في قوله: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾ وهو عبارة عن إتيان المتكلم بكلام يوهم أنه أراد بالكلمة معنى يناسب ما قبلها، أو ما بعدها مع أنه ليس مراداً له؛ فإن ذكر الشمس والقمر يوهم السامع أن النجم أحد نجوم السماءمع أن المراد به: النبت الذي لا ساق له.

ومنها: الجناس بين النجم والشجر.

ومنها: المقابلة اللطيفة بين قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾، وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠﴾، وكذلك المقابلة بين ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ﴾، وبين ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥﴾.

ومنها: تكرير لفظ ﴿ٱلْمِيزَانَ﴾ في قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨﴾ تشديداً للتوصية به، وتأكيداً للأمر باستعماله، والحث عليه.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ لأنّ الوضع حقيقة في الترك، فاستعاره للتشريع. فاشتق من الوضع بمعنى التشريع وضع بمعنى شرع على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: ذكر الخاص في قوله: ﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ بعد العام في قوله: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ إظهاراً لمزيته لما فيه من كثير الفوائد، كما مرّ.

ومنها: التكرير في قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ تقريراً للنعم المعدودة، وتأكيداً في التذكير بها كلها.

ومنها: الجناس المماثل بين الوزن والميزان في قوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾﴾ لأنّه على تقدير لام العلة؛ أي: لئلا تطغوا.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾﴾؛ أي: كالجبال في العظم. فقد ذكر أداة الشبه، وحذف وجه الشبه.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾؛ أي: ذاته. فإنه من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل.

ومنها: المقابلة بين الفناء والبقاء اللذين هما ضدان في قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ ويسمى هذا فن الافتنان، وهو أن يأتي المتكلم في كلامه بفنين إما متضادين كما هنا أو مختلفين أو متفقين، وقد جمع سبحانه بين التعزية والفخر إذ عَزّى جميع المخلوقات، وتمدح بالانفراد بالبقاء بعد فناء الموجودات مع وصفه ذاته بعد انفراده بالبقاء بالجلال والإكرام.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ حيث شبه انتهاء الدنيا، وما فيها من تدبير شؤون الخلق بالأمر والنهي، والإماتة، والإحياء، والمنع، والإعطاء، ومجيء أمر الآخرة من الأخذ في الجزاء، وإيصال الثواب والعقاب إلى المكلفين، وبقاء شأن واحد. وهو محاسبة الإنس والجن بفراغ من

يشغله شأن عن شأن على سبيل التمثيل. لأنه تعالى لا يشغله شأن عن شأن.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ لأن الثقل الذي هو مفرد الثقلين حقيقة في حمل الدابة، قال ابن الشيخ: شبه الأرض بالحمولة التي تحمل الأثقال، وجعل الجن والإنس أثقالاً محمولة عليها.

ومنها: الأمر التعجيزي في قوله: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ﴾ ﴿فَٱنفُذُواْ﴾ فالأمر فيه أمر تعجيز.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾؛ أي: كالوردة في الحمرة حذف وجه الشبه وأداة التشبيه، فصار بليغاً.

ومنها: التشبيه التمثيلي في قوله: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ حيث شبه تلون السماء حال انشقاقها بالوردة، وشبهت الوردة في اختلاف ألوانها بالدهن، واختلاف ألوانه.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿وَنُحَاسٌ﴾ حيث استعاره للدخان مع أنه حقيقة في الصفر.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ (٦٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَآمَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ (٧٨)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه لمّا ذكر[1] ما يراه المشركون بربّهم والعاصون لأوامره ونواهيه من الأهوال من إرسال الشواظ من النار عليهم، ومن أخذهم بالنواصي والأقدام إهانة لهم واحتقاراً، ومن التنقل بهم بين النار والحميم الآني الذي يشوي الوجوه.. ذكر هنا ما أعده من النعيم الروحي والجسماني لمن خشي ربه، وراقبه في السر والعلن، من جنات متشابهة الثمار، والفواكه تجري من تحتها الأنهار جناها دان لمن طلبه وأحب نيله يجلس فيها على فرش بطائنها من الديباج، ومن نساء حسان لم يقرب منهن أحد لا من الإنس ولا من الجن، وهن كالياقوت صفاء، واللؤلؤ بياضاً. وذلك كفاء ما قدموا من صالح العمل، وما أسلفوا في الأيام الخالية، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

---

(١) المراغي.

قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ . . .﴾ الآيات إلى آخر السورة، مناسبتها لما قبلها: أنها تتميم لوصف الجنات بما يشوق الراغبين فيها ليعملوا ما يوصلهم إليها، ويرضي ربهم عنهم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ الآية، سبب نزولها[١]: ما روي عن ابن الزبير رضي الله عنه: أنه قال: نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حين شرب لبناً على ظمأ، فأعجبه، ثم أخبر أنه من غير حل فاستقاء، فقال ﷺ لما سمعه: «رحمك الله، لقد أنزلت فيك آية». يعني: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾. ودخل فيها كل من يهم بالمعصية، فيذكر الله، فيدعها من مخافة الله تعالى. ذكره في «عين المعاني».

التفسير وأوجه القراءة

ولما فرغ سبحانه من تعداد النعم الدنيوية على الثقلين ذكر نعمه الأخروية التي أنعم بها عليهم. فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾؛ أي: موقف ربه سبحانه. وهو الموقف الذي يقف فيه العباد للحساب، كما قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾. فالإضافة للاختصاص الملكي، إذ لا ملك يومئذٍ إلا لله تعالى. والمقام: اسم مكان كما فسرناه، أو مصدر ميمي؛ أي: خاف قيامه بين يدي ربه، وجزاءه على الأعمال خيراً أو شراً. وقيل: المعنى[٢]: خاف قيام ربه عليه. وهو إشرافه على أحواله، واطلاعه على أفعاله وأقواله، كما في قوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾. قال مجاهد، والنخعي: هو الرجل يهم بالمعصية، فيذكر الله فيدعها من خوفه.

والمعنى[٣]: أي ولمن خشي ربه، وراقبه في أعماله، وأيقن بأنه مجازيه عليها يوم العرض والحساب يوم تجزى كل نفس بما كسبت، فإذا هو هم بمعصية ذكر

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.

الله، وأنه عليم بسره ونجواه، فتركها مخافة عقابه وشديد حسابه، فعل الخير وأحب الخير للناس.

﴿جَنَّتَانِ﴾ جنة روحية تصل به إلى حظيرة القدس، وجمال الملكوت، ورضا الله عنه ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾. وجنة جسمانية بمقدار ما عمل في الدنيا من خير، وقدم من صالح عمل. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾؛ أي: بأي نعم ربكما أيها الثقلان تنكران، فإثابته المحسن منكم بما وصف، وعقابه العاصي بما عاقب من النعم العظمى والمنن الكبرى.

واختلف في الجنتين[1]، فقال مقاتل: يعني: جنّة عدن، وجنّة النعيم. وقيل: إحداهما التي خلقت له، والأخرى التي ورثها. وقيل: إحداهما: منزله، والأخرى: منزل أزواجه. وقيل: إحداهما: أسافل القصور، والأخرى: أعاليها. وقيل: جنة للخائف الإنسي، وجنة للخائف الجني على طريق التوزيع. فإن الخطاب للفريقين، والمعنى: لكل خائفين منكما جنة.

وفيه[2] نظر لقوله ﷺ: «إنَّ مؤمني الجن لهم ثواب، وعليهم عقاب، وليسوا من أهل الجنة مع أمة محمد، هم على الأعراف حائط الجنة، تجري فيه الأنهار، وتنبت فيه الأشجار والثمار». يقول الفقير: قد سبق في أواخر الأحقاف أن المذهب أن الجن في حكم بني آدم ثواباً وعقاباً؛ لأنهم مكلفون مثلهم، وإن لم نعلم كيفية ثوابهم. فارجع إلى التفصيل في تلك السورة. وقيل: جنة لعقيدته التي يعتقدها، وأخرى لعمله الذي يعمله. أو جنة لفعل الطاعات، وأخرى لترك المعاصي. أو جنة يثاب بها، وأخرى يتفضل بها عليه. وكذا ما جاء مثنى بعد. وقال الفراء: إنما هي جنة واحدة، والتثنية لأجل موافقة رؤوس الآي. قال النحاس: وهذا القول من أعظم الغلط على كتاب الله تعالى. فإن الله يقول: ﴿جَنَّتَانِ﴾ ويصفهما بقوله: ﴿فِيهِمَا﴾ إلخ.

﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾ صفة لجنتان[3]، وما بينهما اعتراض وسط تنبيهاً على أن

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

تكذيب كل من الموصوف والصفة موجب للإنكار والتوبيخ. و﴿ذَوَاتَآ﴾ تثنية ذات بمعنى صاحبة. والأفنان جمع فنّ. وهو النوع من كل شيء، أي: ذواتا أنواع من الأشجار والثمار. أو جمع فنن. وهو الغصن المستقيم طولاً أو الذي يتشعب من فروع الشجرة؛ أي: ذواتا أغصان متشعبة من فروع الشجرة، وتخصيصها بالذكر؛ لأنها التي تورق، وتثمر، وتمد الظل، وتجتنى منها الثمار. يعني: أن في الوصف تذكيراً لها على سبيل الكناية، كأنّه قيل: ذواتا أوراق وأثمار وأظلال. وقيل[1]: معنى ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾: ذواتا فضل وسعة على ما سواهما، قاله قتادة. وقيل: الأفنان: ظل الأغصان على الحيطان، روي هذا عن مجاهد، وعكرمة. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾﴾ فإن كل واحد منهما.. ليس بمحل لتكذيب، ولا بموضع للإنكار.

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾﴾ صفة أخرى لجنتان، فصل بينهما بقوله: ﴿فبأيّ...﴾ إلخ، مع أنه لم يفصل به بين الصفات الكائنة من قبيل العذاب، حيث قال: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾ مع أن إرسال النحاس غير إرسال الشواظ.

أي: في كل واحدة من الجنتين عين جارية من ماء غير آسن، وعين من خمر لذة للشاربين، قاله عطية. وقال الحسن: إحداهما السلسبيل، والأخرى التسنيم تجريان، وتسيلان، وتسقيان تلك الأشجار والأغصان. وقال[2] أبو بكر الوراق رحمه الله: فيهما عينان تجريان لمن كانت عيناه في الدنيا تجريان من مخافة الله عزّ وجل، فتجريان في كل مكان شاء صاحبها، وإن علا مكانه كما تصعد المياه في الأشجار في كل غصن منها، وإن زاد علوها. وقيل: كل واحدة منهما مثل الدنيا أضعافاً مضاعفة. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾﴾ فإنَّ من جملتها هذه النعمة الكائنة في الجنة لأهل السعادة.

﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾؛ أي: صنفان رطب ويابس، لا ينقص أحدهما عن الآخر لذّة وطيباً، بخلاف ثمار الدنيا؛ فإنّ الطازج فيها ألذ طعماً، وأشهى مأكلاً. وقيل: صنفان معهود وغريب، لم يره أحد، ولم يسمع به. وقيل: صنفان حلو وحامض. وقيل: لونان. وقيل: صنفان في المنظر دون المطعم.

---

(١) الشوكاني.　　(٢) المراغي.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ما في الدنيا حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنّة، حتى الحنظلة، إلا أنه حلو؛ لأن ما في الجنة خلق من حلاوة العبادة والطاعات، فلا يوجد فيها المر المخلوق من مرارة السيئات كزقوم جهنم، ونحوه. ولكون الجنة دار الجمال لا يوجد فيها اللون الأسود أيضاً، لأنه من آثار الجلال. وهذه الجملة صفة ثالثة لجنتان.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾﴾؛ أي: من هذه النعم اللذيذة. فإن في مجرد تعداد هذه النعم، ووصفها في هذا الكتاب العزيز من الترغيب إلى فعل الخير، والترهيب من فعل الشر، ما لا يخفى على من يفهم. وذلك نعمة عظمى، ومنة كبرى. فكيف بالتنعم به عند الوصول إليه.

وبعد أن ذكر طعامهم ذكر فراشهم، فقال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال من فاعل قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ﴾. وإنما جمع حملاً على معنى ﴿من﴾. وقيل: عاملها محذوف، والتقدير: يتنعمون متكئين جالسين جلوس المتمكن المستريح.

والمعنى: يحصل لهم جنتان متكئين؛ أي: جالسين جلسة الملوك، جلوس راحة ودعة معتمدين ﴿عَلَىٰ فُرُشٍۭ﴾ جمع فراش بالكسر. وهو ما يفرش، ويبسط، ويستمهد للجلوس والنوم. ﴿بَطَآئِنُهَا﴾ ما يلي الأرض منها. جمع بطانة. وهي بالكسر من الثوب خلاف ظهارته. قال الزجاج: هي هنا ما يلي الأرض من الفرش. ﴿مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ﴾ وهو ما غلظ من ثياب الحرير. وإذا كانت البطائن من إستبرق فكيف تكون الظهائر. قيل لسعيد بن جبير: البطائن من إستبرق فما الظهائر؟ قال: هذا مما قال الله فيه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾. قيل: إنما اقتصر على البطائن؛ لأنّه لم يكن أحد في الأرض يعرف ما في الظهائر. وقال الحسن: بطائنها من إستبرق، وظهائرها من نور جامد. وقيل: ظهائرها من سندس.

والمعنى: مضطجعين على فرش بطائنها من ديباج ثخين، وحيث كانت بطائنها كذلك فما ظنك بظهائرها؟ يعني: أنَّ الظهارة أشرف وأعلى. كما قال ﷺ: «لَمَناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذه الحلة». فذكر المنديل دون غيره تنبيهاً بالأدنى على الأعلى.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿على فُرُش﴾ بضمتين. وأبو حيوة بسكون الراء. وقرأ ورش عن نافع، ورويس عن يعقوب ﴿من استبرق﴾ بحذف الألف وكسر النون لإلقاء حركة الهمزة عليها. والباقون بإسكان النون وكسر الألف وقطعها.

وإنما ذكر الإتكاء[2]؛ لأنه هيئة تدل على صحة الجسم، وفراغ القلب. إذ العليل لا يستطيع أن يستلقي أو يستند إلى شيء وهو مشغول القلب يتحرك تحرك المحضر للعقاب.

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾؛ أي: وثمرهما قريب منهم متى شاؤوا. فهي لا تمتنع ممن أرادها، بل تنحط إليه من أغصانها. ومثل الآية قوله: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾، وقوله: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾. وجنى[3] بفتح الجيم اسم بمعنى المجني كالقبض بمعنى المقبوض. كما قال عليّ رضي الله عنه:

هَـٰذَا جَنَـايَ وَخِيَـارُهُ فِيـهِ ... وَكُـلُّ جَـانٍ يَـدُهُ إِلَـىٰ فِيـهِ

ودان من الدنو. وهو القرب. أصله: دانوا، مثل: غازوا، أي: ما يجتنى من أشجارها من الثمار، قريب يناله القائم والقاعد والمضطجع. قال ابن عباس رضي الله عنه: تدنو الشجرة حتى يجتنيها ولي الله إن شاء قائماً، وإن شاء قاعداً، وإن شاء مضطجعاً. وقال قتادة: لا يرد يده بُعْدٌ ولا شوك.

وقرأ الجمهور[4]: ﴿جَنى﴾ بفتح الجيم. وقرأ عيسى بن عمر بكسرها. وقرأ عيسى أيضاً بكسر النون مع فتح الجيم، كأنه أمال النون، وإن كانت الألف قد حذفت في اللفظ، كما أمال أبو عمرو ﴿حتى نرى الله﴾. يقول الفقير: إنَّ البعد إنما ينشأ من كثافة الجسم، ولا كثافة في الجنة، وأهلها أجسام لطيفة نورانية في صورة الأرواح. وأيضاً إن الطاعات في الدنيا كانت في مشيئة المطيع، فثمراتها أيضاً في الجنة تكون كذلك. فيتناولها بلا مشقة، بل لا تناول أصلاً فإن سهولة التناول تصوير لسهولة الأكل، فتلك الثمار تقع في الفم بلا أخذ على ما قاله البعض.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

(٤) البحر المحيط.

والمعنى[1]: أي وثمر الجنتين قريب، يناله القاعد والقائم في وقت واحد، ومكان واحد. فإن العجائب كلها من خواص الجنة، فكانت أشجارها دائرة عليهم سائرة إليهم، وهم ساكنون على خلاف ما كان في جنات الدنيا. فإن الإنسان فيها متحرك، ومطلوبه ساكن. والولي قد تصير الدنيا له أنموذجاً من الجنة، فإنه يكون ساكناً في بيته، ويأتيه الرزق متحركاً إليه، دائراً حواليه.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٠﴾ من هذه الآلاء اللذيذة الباقية، أبقدرة الله تعالى على ثني الأغصان، وتقريب الثمار تنكران أم بغيرها؟.

ثم ذكر أوصاف النساء اللواتي يمتعون بهن، فقال: ﴿فِيهِنَّ﴾؛ أي: في تلك الجنان المدلول عليها بقوله: ﴿جَنَّتَانِ﴾. لما عرفت أنهما لكل خائفين من الثقلين، أو لكل خائف حسب تعدد عمله. وقد اعتبر الجمعية في قوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ إذ كل[2] فرد فرد له جنتان. فصح أنها جنان كثيرة، وإن كانت الجنتان. أريد بهما حقيقة التثنية، وأن لكل جنس من الجن والإنس جنة واحدة، فالضمير يعود على ما اشتملت عليه الجنة من المجالس، والقصور، والمنازل، وقيل: على الفرش؛ أي: فيهن معدات للاستمتاع. وهو قول حسن، قريب المأخذ.

﴿قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ من[3] إضافة اسم الفاعل إلى منصوبه تخفيفاً، ومتعلق القصر محذوف للعلم به، تقديره: على أزواجهن.

والمعنى: فيهن نساء يقصرن أبصارهن على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم، وتقول كل منهن لزوجها: وعزة ربي ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك، فالحمد لله الذي جعلك زوجي، وجعلني زوجك. وقصر الطرف أيضاً من الحياء والغنج، وقد يقال: المعنى: قاصرات طرف غيرهن عليهن؛ أي: إذا رآهن أحد لم يتجاوز طرفه إلى غيرهن لكمال حسنهن.

والمعنى[4]: أي في الجنان نساء مانعات أعينهن من النظر إلى غير بعلهن. وللجنة اعتبارات ثلاثة، فلاتصال أشجارها، وعدم الأراضي الغامرة كأنها جنة

---

(١) المراح.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

(٤) المراح.

واحدة، ولاشتمالها على النوعين ما في الدنيا وما ليس فيها، وما يعرف وما لا يعرف، وما يقدر على وصفه وما لا يقدر، ولذات جسمانية ولذات روحانية كأنها جنتان، ولسعتها وكثرة أماكنها، وأشجارها، وأنهارها، كأنها جنات كثيرة، فالضمير هنا عائد إلى الجنتين، اهـ من «المراح».

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾؛ أي: لم يجامع تلك القاصرات ﴿إِنسٌ قَبْلَهُمْ﴾ أي: قبل أزواجهن ﴿وَلَا جَآنٌّ﴾ والجملة[1] صفة لقاصرات الطرف؛ لأن إضافتها لفظية.

والمعنى: أي في تلك الجنات نساء غضيضات الطرف عن غير أزواجهن. فلا يرين فيها شيئاً أحسن منهم. وهن أبكار لم يسمهن أحد قبل أزواجهن، لا من الجن ولا من الإنس؛ أي: لم يمس الإنسيات منهن أحد من الإنس، ولا الجنيات أحد من الجن. يقال: طمث المرأة من باب ضرب إذا افتضها بالتدمية لها؛ أي: أزال بكارتها. الطمث: الجماع المؤدي إلى خروج دم البكر، ثم أطلق على كل جماع طمث، وإن لم يكن معه دم، كما سيأتي.

فهن كالرياض الأنف[2]. وهي التي لم ترعها الدواب قط، وفيه ترغيب لتحصيلهن، إذ الرغبة للأبكار فوق الرغبة بالثيِّبات. ودليل على أن الجن من أهل الجنة، وأنهم يطمثون كما يطمث الإنس. فإن مقام الإمتنان يقتضي ذلك، إذ لو لم يطمثوا كمن قبلهم لم يحصل لهم الامتنان به. ولكن ليس له ماء كماء الإنسان، بل لهم هواء بدل الماء، وبه يحصل العلوق في أرحام إناثهن، كما في «الفتوحات المكية». وهذا يستدعي أنه لا تصح المناكحة بين الإنس والجن، وكذا العكس. وقد ذهب إلى صحتها جم غفير من العلماء. منهم: صاحب «آكام المرجان».

ثم إن هؤلاء؛ أي: قاصرات الطرف من حور الجنة المخلوقات ما يبتذلن، ولم يمسسن، وهذا قول الجمهور وهو المشهور[3]. وقال الشعبي والكلبيُّ: من نساء الدنيا؛ أي: لم يجامعهن بعد النشأة الثانية أحد، سواء كن في الدنيا ثيبات أو أبكاراً.

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ بكسر الميم في الموضعين، وطلحة، وعيسى، وأصحاب عبد الله، وعلي، والكسائي بضمها. وقرأ ناس بضم الأول وكسر الثاني، وناس بالعكس، وناس بالتخيير. وقرأ الجحدري بفتح الميم في الموضعين.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٠﴾؛ أي: فبأيّ نوع من أنواع هذه النعم تنكران، فإن في مجرد هذا الترغيب في هذه النعم نعمة جليلة، ومنة عظيمة؛ فإن به يحصل الحرص على الأعمال الصالحة، والفرار من الأعمال الطالحة، فكيف بالوصول إلى هذه النعم، والتنعم بها في جنات النعيم بلا انقطاع ولا زوال.

﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨﴾ والجملة صفة ثانية لقاصرات الطرف أو حال من ﴿هن﴾. شبههن سبحانه في صفاء اللون مع حمرته بالياقوت والمرجان. قد سبق بيان المرجان، وأما الياقوت، فهو حجر صلب شديد اليبس رزين صاف منه: أحمر، وأبيض، وأصفر، وأخضر، وأزرق، وهو حجر لا تعمل فيه النار لقلة دهنيته، ولا يثقب لغلظة رطومته، ولا تعمل فيه المبارد لصلابته، بل يزداد حسناً على مر الليالي والأيام، وهو عزيز، قليل الوجود، سيما الأحمر وبعده الأصفر أصبر على النار من سائر أصنافه. وأما الأخضر: فلا صبر له على النار.

ومعنى الآية[2]: مشبهات بالياقوت في حمرة الوجنة والمرجان؛ أي: صغار الدر في بياض البشرة، وصفائها؛ فإن صغار الدر أنصع بياضاً من كباره. وقال قتادة: في صفاء الياقوت، وبياض المرجان.

وأخرج أحمد، وابن حبان، والحاكم، وصححه، والبيهقي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨﴾ قال: «تنظر إلى وجهها في خدرها أصفى من المرآة، وإن أدنى لؤلؤة عليها تضيء ما بين المشرق والمغرب. وإنه يكون عليها سبعون ثوباً، وينفذها بصره، حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك».

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٠﴾ فإنَّ نعمه كلها لا يمكن تكذيب شيء منها

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

كانت ما كانت، فكيف بهذه النعم الجليلة، والمنن الجزيلة؟

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾؛ أي: ما جزاء الإحسان في العمل إلا الإحسان في الثواب، واعلم أن ﴿هَلْ﴾ يجيء[1] على أربعة أوجه. الأول: بمعنى قد، كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾. والثاني: بمعنى الأمر، كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾؛ أي: فانتهوا. والثالث: بمعنى الاستفهام، كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾. والرابع: بمعنى ما النافية، كما في هذه الآية. ونحو الآية قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

وعن أنس بن مالك قال: قرأ رسول الله ﷺ ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾، وقال: «هل تدرون ما قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنّة». أخرجه ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي، وروي عن ابن عباس: هل جزاء من قال: لا إله إلا الله في الدنيا إلا الجنة في الآخرة.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾ فإن من جملتها الإحسان إليكم في الدنيا والآخرة بالخلق، والرزق، والإرشاد إلى العمل الصالح، والزجر عن العمل الذي لا يرضاه.

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ مبتدأ وخبر[2]؛ أي: ومن دون تينك الجنتين الموعودتين للخائفين المقربين جنتان أخريان لمن دونهم في الدرجة من أصحاب اليمين، فالخائفون قسمان: المقربون، وأصحاب اليمين، وهم دون المقربين بحسب الفضائل العلمية والعملية، ودون بمعنى الأدنى مرتبة ومنزلة، لا بمعنى غير. فالجنتان الأوليان أفضل من الأخريين، كفضل المقربين على الأبرار. وقيل: ليس «دون» من الدناءة، بل من الدنو. وهو القرب؛ أي: ومن دون هاتين الجنتين إلى العرش؛ أي: أقرب إليه منهما، وأرفع منهما؛ أي[3]: من أمامهما ومن قبلهما. وحمل بعض المفسرين ﴿دون﴾ على معنى غير. وقيل الجنتان الأوليان جنة عدن،

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

وجنة النعيم. والأخريان جنة الفردوس وجنة المأوى. قال ابن جريج: هي أربع جنان جنتان منها للسابقين المقربين فيهما من كل فاكهة زوجان، وعينان تجريان. وجنتان لأصحاب اليمين، فيهما فاكهة، ونخل، ورمان، وفيهما عينان نضاختان. قال ابن زيد: إن الأوليين من ذهب للمقربين، والأخريين من ورق لأصحاب اليمين. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾﴾ فإنها كلها حق ونعم لا يمكن جحدها.

ثم وصف سبحانه هاتين الجنتين الأخريين، فقال: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾ صفة لجنتان، وما بينهما اعتراض؛ أي[1]: سوداوان يعني: علا لونها دهمة وسواد من شدة الخضرة والري. وإن شئت.. قلت: خضراوان، تضربان إلى السواد من شدة الخضرة.

فائدة: والنظر إلى الخضرة يجلو البصر، كما قال ﷺ: «ثلاث يجلون البصر: النظر إلى الخضرة، وإلى الماء الجاري، وإلى الوجه الحسن». قال ابن عباس رضي الله عنهما: والإثمد عند النوم. وهو الكحل الأسود. وأجوده الأصفهاني. وهو بارد يابس ينفع العين اكتحالاً، ويقوي أعصابها، ويمنع عنها كثيراً من الآفات والأوجاع سيما الشيوخ والعجائز، وإن جعل معه شيء من المسك.. كان غاية في النفع، وينفع من حرق النار طلاء مع الشحم، ويقطع النزف، ويمنع الرعاف إذا كان من أغشية الدماغ. وفي الحديث: «خير أكحالكم الإثمد، ينبت الشعر، ويجلو البصر». اهـ «خريدة العجائب».

وفي قوله: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾ إشعار[2] بأن الغالب على هاتين الجنتين النبات والرياحين المنبسطة على وجه الأرض، وعلى الأوليين الأشجار والفواكه. ودل هذا على فضل الأوليين على الأخريين.

والمعنى: أي ومن وراء هاتين الجنتين وأقل منهما فضلاً جنتان تنبتان النبات، والرياحين الخضراء التي تضرب إلى السواد من شدة خضرتها لكثرة الريّ. وأما الجنتان السابقتان ففيهما أشجار وفواكه. وفرق ما بين الجنتين. فبأيّ هذه النعم تكذّبان، وهي نعم واضحة لا تجحد، تتمتع أبصاركم بخضرة نباتات هاتين الجنتين،

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

وتنتفع أنوفكم بشم رياحينهما. وعن أبي أيوب الأنصاري قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿مُدْهَامَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾. قال: خضراوان، أخرجه الطبري، وابن مردويه.

قال الفقهاء: إذا قرأ في الصلاة آية واحدة هي كلمة واحدة، نحو قوله: ﴿مُدْهَامَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾ أو حرف واحد نحو ﴿قٓ﴾ و﴿صٓ﴾ و﴿نٓ﴾. فإن كل حرف منها آية عند البعض. فالأصح أنه لا يجزىء عن فرض القراءة. لأنه لا يسمى قارئاً؛ لأن القراءة ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل.

﴿فِيهِمَا﴾؛ أي: في هاتين الجنتين ﴿عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾؛ أي: فوارتان بالماء، لا تنقطعان. من نضحه كمنعه رشه، ونضح الماء اشتد فورانه من ينبوعه.

قال الحسن، ومجاهد: تنضخ على أولياء الله بالمسك، والعنبر، والكافور في دور أهل الجنة، كما ينضح رش المطر. وهذا يدل أيضاً على فضل الأوليين على الأخريين. لأنه تعالى قال في الأوليين: ﴿عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾، وفي الأخريين ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾. والنضخ دون الجري؛ لأن النضخ هو الفوران، وهو يتحقق بأن يكون الماء بحيث لو أخذ منه شيء فار آخر مكانه. ولا يكفي هذا القدر في جريانه. فلا شك أن الجري أبلغ منه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: نضَّاختان بالمسك والعنبر. وقال الكلبي: بالخير والبركة. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾﴾ فإنها ليست بموضع للتكذيب، ولا بمكان لجحد، حيث يحصل لكم الريُّ من شراب تينك العينين.

﴿فِيهِمَا﴾؛ أي: في هاتين الجنتين ﴿فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ عطف الأخيرين على الفاكهة، كعطف جبريل، وميكائيل على الملائكة بياناً لفضلهما. فإن ثمرة النخل فاكهة وغذاء، والرمان فاكهة ودواء، ولأنهما يوجدان في الخريف والشتاء، ولأنهما فاكهة وإدام. فيحنث بأكل أحدهما من حلف لا يأكل فاكهة، كما قاله الشافعي، وأكثر العلماء خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله. يعني: بحسب[1] حال الدنيا، وإلاّ فالكل في الجنة للتفكه. والرمان من الأشجار، هي التي لا تقوى إلا بالبلاد الحارة، وأجوده الكبار الحلو، وهو حار رطب يلين الصدر والحلق، ويجلو المعدة، وينفع من الخفقان، ويزيد في الباءة. وقشره تهرب منه الهوام.

---

(١) روح البيان.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير إلى ضعف استعداد أهل اليمين بالنسبة إلى المقربين؛ لأنَّ الرمان للدواء لا للتفكه، وتهيئة الدواء في البيت تدل على ضعف مزاج ساكن البيت.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾﴾ حيث هيَّأ لكم ما به تتلذذون من الفواكه. ومن جملتها هذه النعم التي في جنات النعيم، ومجرد الحكاية لها أثر في نفوس السامعين، وتجذبهم إلى طاعة رب العالمين.

﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ﴾ وهي صفة أخرى لجنتان كالجملة التي قبلها. والكلام في جمع الضمير كالذي مر فيما مرّ، و﴿خَيْرَٰتٌ﴾ مخففة من خيرات جمع خيّرة. لأنَّ خيراً الذي بمعنى أخير لا يجمع، فلا يقال فيه: خيرون، ولا خيرات.

أي: في تلك[1] الجنان نساء خيرات الأخلاق حسان الوجوه. روى الحسن عن أمه عن أم سلمة قالت: قلت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله أخبرني عن قوله تعالى: ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾. قال: خيرات الأخلاق، حسان الوجوه. وقال الرازي: في باطنهن الخير، وفي ظاهرهن الحسن. وروي: أن الحور يغنين نحن الخيرات الحسان خلقن لأزواج كرام. وقيل في تفسير الخيرات[2]؛ أي: لسن بدمرات، الدمر: النتن، ولا بخرات البخر بالتحريك: النتن في الفم، والإبط، وغيرهما. ولا متطلعات من التطلع على كلام من تكلم، ومنه قولهم: عافى الله من لم يتطلع في فمك؛ أي: لم يتعقب كلامك. ولا متشوفات من تشوف من السطح إذا تطاول، ونظر، وأشرف. ولا ذربات جمع ذربة بالكسر: السليطة اللسان من ذرب من باب فرح. ولا سليطات السلط والسليط: الشديد والطويل اللسان. ولا طماحات من طمح بصره كمنع، ارتفع. يقال: طمحت المرأة إذا نشزت. ولا طوافات في الطرق؛ أي: دوارات. حسان جمع حسنة وحسناء، أي: حسان الخلق والخلق. وهن من الحور، وقيل: من المؤمنات الخيرات. ويدل على الأول ما بعد الآية. وفي الحديث: «لو أن المرأة من نساء أهل الجنة.. اطلعت على السموات والأرض لأضاءت ما بينهما، ولملأت ما بينهما ريحاً، ولعصابتها على رأسها خير من الدنيا وما فيها».

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

وروي: «لو أن حوراء بزقت في بحر لعذب ذلك البحر من عذوبة ريقها». وروي: «أنهن يقلن: نحن الناعمات، فلا نبأس الراضيات فلا نسخط، نحن الخالدات فلا نبيد، طوبى لمن كنا له وكان لنا». وفي الأثر: «إذا قلن هذه المقالة أجابتهن المؤمنات من نساء الدنيا: نحن المصليات وما صليتن، ونحن الصائمات وما صمتن، ونحن المتصدقات وما تصدقتن، فغلبنهن والله غلبنهن».

وفي هذا بيان أن هاتين الجنتين دون الأوليين[1]؛ لأنه تعالى قال في الأوليين في صفة الحور العين: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾، وفي الآخريين: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾. وليس كل حسن كحسن الياقوت والمرجان.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿خَيْرَٰتٌ﴾ بالتخفيف. وقرأ قتادة، وابن السميقع، وأبو رجاء العطارديُّ، وبكر بن حبيب السهمي، وابن مقسم، وأبو عثمان النهديُّ بالتشديد. فعلى القراءة الأولى هي جمع خيرة بزنة فعلة بسكون العين، ويقال امرأة خيرة، وأخرى شرة أو جمع خيرة مخفف خيرة، وعلى القراءة الثانية جمع خيرة بالتشديد.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾﴾ وقد أنعم عليكم بما فيه تستمتعون من النساء. فإنَّ شيئاً منها كائناً ما كان لا يقبل التكذيب.

﴿حُورٌ﴾ بدل[3] من ﴿خَيْرَٰتٌ﴾، جمع حوراء. وهي البيضاء، ووصفت في غير هذه الآية بالعين. وهي جمع عيناء بمعنى واسعة العين. ﴿مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ قصرن في خدورهن، وحبسن فيها. يقال: امرأة مقصورة؛ أي: مخدرة مستورة لا تخرج، ومقصورات الطرف على أزواجهن لا يبغين بهم بدلاً. وفيه إشارة إلى أنهن لايظهرن لغير المحارم، وإن لم تكن الجنة دار التكليف؛ وذلك لأنهن من قبيل الأسرار، وهي تصان عن الأغيار غيرة عليها، والخيام جمع خيمة، وهي القبة المضروبة على الأعواد، هكذا جمع خيام الدنيا. وهي لا تشبه خيام الدنيا إلا بالاسم، فإنه قد قيل: إن الخيمة من خيامهن درة مجوفة عرضها ستون ميلاً في كل زاوية منها أهلون، ما يرون إلا حين يطوف عليهم المؤمنون. وقال ابن مسعود: لكل زوجة

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.

خيمة، طولها ستون ميلاً.

والمعنى: أي وهؤلاء الخيرات الحسان واسعات العيون، مع صفاء البياض حول السواد محبوسات في الحجال، فلسن بطوافات في الطرقات. والعرب يمدحون النساء اللازمات للبيوت للدلالة على شدة الصيانة.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝﴾ وقد خلق من النعم ما هن مقصورة ومحبوسة لكم. فإنها كلها نعم لا تكفر، ومنن لا تجحد.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ ولم يجامعهن ﴿إِنسٌ قَبْلَهُمْ﴾؛ أي: قبل أصحاب الجنتين دل عليهم ذكر الجنتين، أو قبل أزواجهن. ﴿وَلَا جَآنٌّ﴾ والكلام هنا كالذي مر في نظيره في جميع الوجوه. قال في «كشف الأسرار»[1]: كرر ذلك زيادة في التشويق، وتأكيداً للرغبة. وفيه إنه ليس بتكرير؛ لأنَّ الأول في أزواج المقربين وهذا في أزواج الأبرار. قال محمد بن كعب: إن المؤمن يزوج ألف ثيب، وألف بكر، وألف حوراء.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝﴾ مع أنها ليست كنعم الدنيا. إذ قد تطمث المرأة في الدنيا، ثم يتزوجها آخر ثيباً فهن نعم باكورة. فيا لها من طيب وصالها، وبالها، وبراعة جمالها، لا يقدر أحد على حكايتها، ولا يبلغ وصف إلى نهايتها، والعقول فيها حيارى، والقلوب سكارى.

﴿مُتَّكِئِينَ﴾ حال صاحبه محذوف، يدل عليه الضمير في ﴿قَبْلَهُمْ﴾، تقديره: لم يطمثهن أحد غير أزواجهن حال كونهم متكئين وجالسين ﴿عَلَىٰ رَفْرَفٍ﴾ وفرش ﴿خُضْرٍ﴾ والرفرف[2] إما اسم جنس أو اسم جمع، واحده رفرفة. قيل: هو ما تدلى من الأسرة من عالي الثياب، أو ضرب من البسط أو الوسائد، أو الرقيق من الديباج.

قال في «المفردات»: الرفرف ضرب من الثياب، مشبه بالرياض، انتهى. ومن معاني الرفرف: الرياض. وكان بساط أنو شروان ستين ذراعا في ستين ذراعاً، يبسط له في إيوانه منظوماً باللؤلؤ والجواهر الملونة على ألوان زهر الربيع، وينشر إذا

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

عدمت الزهور.

وقرأ الجمهور ﴿رَفْرَفٍ﴾ بالأفراد. وقرأ[1] عثمان بن عفان، والحسن، ونصر بن عاصم، والجحدري ومالك بن دينار، وابن محيصن، وزهير العرقي وغيرهم ﴿رفارف﴾ على صيغة منتهى الجموع. والخضر صفة لرفرف، وهو بسكون الضاد جمع أخضر، كحمر جمع أحمر، أي: صاحب خضرة. والخضرة: اللون بين البياض والسواد والحمرة. وهو إلى السواد أقرب، فلهذا سمي الأسود أخضر، والأخضر أسود. وقرأ ابن هرمز ﴿خضُر﴾ بضم الضاد. قال صاحب «اللوامح»: وهي لغة قليلة، انتهى.

﴿وَعَبْقَرِيٍّ﴾ معطوف على ﴿رَفْرَفٍ﴾، والمراد به: الجنس، ولذا وصف بالجمع وهو قوله: ﴿حِسَانٍ﴾ حملاً على المعنى. وهو جمع حسن. والعبقري منسوب إلى عبقر، تزعم العرب أنه اسم بلد كثير الجن، فينسبون إليه كل شيء نفيس عجيب. وقال قطرب: ليس هو من المنسوب، بل هو بمنزلة كرسي، وبختيٍّ. قال في «القاموس»: عبقر موضع كثير الجن، وقرية ثيابها في غاية الحسن. والعبقريُّ ضرب من البسط، كالعباقري. انتهى.

وفي «فتح الرحمن»: العبقريُّ: بسط حسان، فيهاصور، وغير ذلك. وقرأ الجمهور ﴿وعبقريٍّ﴾. وقرأ عثمان بن عفان، والحسن، والجحدريُّ ﴿عباقريُّ﴾. وقرىء ﴿عباقر﴾.

والمعنى: حال كونهم متكئين[2] على ثياب ناعمة، وفرش رقيقة النسج من الديباج، ووسائد عظيمة، وبسط لها أطراف فاخرة غاية في كمال الصنعة، وحسن المنظر. وخص[3] الأخضر بالذكر؛ لأن النفس أميل إليها في الدنيا، ولأنه يحصل فيه الألوان الثلاثة: الأبيض، والأسود، والأحمر. فالأبيض يفرق البصر، والأسود يجمع البصر، كالأحمر. فلما اجتمع في الأخضر الأمور الثلاثة دفع بعضها أذى بعض.

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

وقوله تعالى في الأوليين: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ مع ترك ذكر الظهارة لرفعة شأنها، وخروجها عن كونها مدركة بالعقول والأفهام. وفي الأخريين: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ﴾ يعلم به تفاوت ما بينهما.

قال أبو عبد الله الحكيم الترمذي: روي لنا في حديث المعراج: أن رسول الله ﷺ لما بلغ سدرة المنتهى.. جاءه الرفرف، فتناوله من جبريل، وطار به إلى مستقر العرش، وذكر أنه قال: «طار بي يخفضني ويرفعني حتى وقف بين يدي ربي، ثم لما حان الانصراف.. تناوله فطار به خفضاً ورفعاً يهوي به، حتى أداه إلى جبريل صلوات الله عليهما، وجبريل يبكي، ويرفع صوته بالتحميد». والرفرف خادم من الخدم بين يدي الله تعالى، له خواص الأمور في محل الدنو والقرب، كما أن البراق دابة يركبها الأنبياء مخصوصة بذلك في أرضه، فهذا الرفرف الذي سخره الله لأهل الجنتين وهو متكأهم وفرشهم، يرفرف بالولي، ويطير به على حافات تلك الأنهار، وحيث يشاء من خيامه، وأزواجه، وقصوره. انتهى من «نوادر الأصول» في الأصل التاسع والثمانين.

وقال الترمذي الحكيم أيضاً: وبلغنا في الرواية: أن سحابة مطرت من العرش، فخلقت الحور من قطرات الرحمة، ثم ضرب على كل واحدة منهن خيمة على شاطىء الأنهار، سعتها أربعون ميلاً، وليس لها باب حتى إذا دخل ولي الله الجنة، انصدعت الخيمة عن باب، ليعلم ولي الله أن أبصار المخلوقين من الملائكة والخدام لم تأخذها، فهي مقصورة قد قصرها بها عن أبصار المخلوقين. وهو معنى قوله: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾. والله أعلم. اهـ قرطبي.

﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾﴾؛ أي[1]: بأيِّ نعم ربكما المحسن الذي لا محسن غيره، ولا إحسان إلا منه تكذبان أبشيء من هذه النعم أم بغيرها، وقد هيأ لكم ما تتكئون عليه، فتستريحون، فإن كل واحد منها أجل أن يتطرق إليه التكذيب، وأعظم من أن يجحده جاحد أو ينكره منكر.

وقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾؛ أي: تقدس، وتنزه عن كل ما لا يليق به تقديسٌ

---

(١) الخطيب.

وتنزيهٌ له تعالى[1]. فيه تقرير لما ذكر في السورة الكريمة من آلائه الفائضة على الأنام، أي: تعالى اسمه الجليل الذي من جملته ما صدرت به السورة من اسم الرحمن المنبىء عن إفاضة الآلاء المفصلة، وارتفع عما لا يليق بشأنه من الأمور التي من جملتها: جحود نعمائه، وتكذيبها. وإذا كان حال اسمه بملابسة دلالته عليه، كذلك فما ظنك ذاته الأقدس الأعلى؟ وقيل: الاسم بمعنى الصفة؛ أي: تنزهت، وتقدست صفات ربك عن النقائص، كالعلم من الجهل، والقدرة من العجز. وقيل: لفظ ﴿اسم﴾ مقحم كقوله:

إلى الحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السلامِ عليكُما وَمَن يَبْكِ حَوْلاً كاملاً فقَدِ اعْتَذَرْ

أي: ثم السلام عليكما.

والمعنى: تقدس، وتنزه، وتعالى ربك عن كل ما لا يليق به من جميع النقائص. وقال في «فتح الرحمن»: وهذا الموضع مما أريد فيه بالاسم مسماه؛ أي: تبارك مسمى ربك، وذاته الأقدس عن النقائص. وفي «التأويلات النجمية»: وهذا يدل على أن الاسم هو المسمى؛ لأن المتعالي هو المسمى في ذاته لا الاسم، وكذا الموصوف بالقهر، واللطف، والجلال، والإكرام هو المسمى فحسب، انتهى.

وقوله: ﴿ذِى الْجَلَٰلِ﴾؛ أي: ذي العظمة والكبرياء ﴿وَالْإِكْرَامِ﴾؛ أي: ذي الإفضال التام والإحسان العام. وصف به الرب عز وجل تكميلاً لما ذكر من التنزيه والتقرير.

قال الزروقي: من عرف أنه تعالى ذو الجلال والإكرام هابه لمكان الجلال، وأنس به لمكان الإكرام، فكان بين الخوف والرجاء. وهو اسم الله الأعظم. وقال بعضهم: أسماء الله تعالى كلها أعظم لدلالتها على العظيم، فإنه إذا عظم الذات والمسمى عظم الأسماء والصفات، ويا ذا الجلال والإكرام من الأسماء التي جاء في الحديث أن يدعى الله بها، فقد قال ﷺ: «أَلِظُّوا بيا ذا الجلال والإكرام». وقرأ الجمهور ﴿ذِى الْجَلَٰلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ على أنه صفة لربك، وابن عامر، وأهل الشام ﴿ذو﴾

---

(1) روح البيان.

صفة للاسم. وفي حرف عبد الله، وأبي ﴿ذِي ٱلْجَلَٰلِ﴾ كقراءتهما في الموضع الأول.

والمعنى[1]: أي تعالى ربك ذو الجلال والعظمة والتكريم على ما أنعم به، وتفضل من نعم غوال، ومنن عظام. وهذا تعليم منه لعباده بأن كل هذا من رحمته، فهو قد خلق السماء، والأرض، والجنة، والنار. وعذب العاصين، وأثاب المطيعين، وآتاهم من فضله ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

الإعراب

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَلِمَنْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لمن﴾ جار ومجرور، خبر مقدم، ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة صلة الموصول. ﴿جَنَّتَانِ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ...﴾ إلخ تقدم إعرابه. ﴿ذَوَاتَآ﴾ صفة لـ ﴿جَنَّتَانِ﴾، مرفوع بالألف؛ لأنه مثنى ذات، ﴿أَفْنَانٍ﴾ مضاف إليه. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾﴾ تقدم إعرابه. ﴿فِيهِمَا﴾ خبر مقدم، ﴿عَيْنَانِ﴾ مبتدأ مؤخر، وجملة ﴿تَجْرِيَانِ﴾ صفة لـ ﴿عَيْنَانِ﴾. والجملة الاسمية صفة ثانية لـ ﴿جَنَّتَانِ﴾. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ...﴾ إلخ، تقدّم إعرابه. ﴿فِيهِمَا﴾ خبر مقدم، ﴿مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ حال من ﴿زَوْجَانِ﴾؛ لأنّه صفة قدمت على النكرة، ﴿زَوْجَانِ﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة الاسمية صفة لـ ﴿جَنَّتَانِ﴾. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ...﴾ إلخ تقدم إعرابه. ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال من ﴿مَن﴾ في قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ﴾؛ لأنَّ ﴿مَنْ﴾ فيها معنى الجمع، وقيل: عاملها محذوف، دل عليه قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ﴾؛ أي: يتنعمون فيهما حال كونهم متكئين؛ أي: مضطجعين

(١) المراغي.

أو متربعين. ﴿عَلَىٰ فُرُشٍ﴾ متعلق بـ ﴿مُتَّكِئِينَ﴾، ﴿بَطَآئِنُهَا﴾ مبتدأ، ﴿مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ خبر. والجملة الاسمية صفة لـ ﴿فُرُشٍ﴾. ﴿وَجَنَى﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة أو حالية، ﴿جنى الجنتين﴾ مبتدأ ومضاف إليه، ﴿دَانٍ﴾ خبر مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾، أو حال من الضمير المستكن في الخبر من الجملة المذكورة. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ...﴾ إلخ تقدم إعرابه. ﴿فِيهِنَّ﴾ خبر مقدم، والضمير إلى ﴿ٱلْجَنَّتَيْنِ﴾ لأنه بمعنى الجنان، كما مر. ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الرفع صفة لـ ﴿جَنَّتَانِ﴾. ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ جازم، وفعل مضارع، ومفعول به، ﴿إِنسٌ﴾ فاعل، ﴿قَبْلَهُمْ﴾ متعلق بـ ﴿يَطْمِثْهُنَّ﴾، ﴿وَلَا جَآنٌّ﴾ معطوف على ﴿إِنسٌ﴾. والجملة صفة لـ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾؛ لأنَّ إضافته لفظية أو حال منه، لأنه تخصص بالإضافة. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ...﴾ إلخ تقدم إعرابه. ﴿كَأَنَّهُنَّ﴾ ناصب واسمه، ﴿ٱلْيَاقُوتُ﴾ خبره، ﴿وَٱلْمَرْجَانُ﴾ معطوف على ﴿ٱلْيَاقُوتُ﴾. والجملة صفة ثانية لـ ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ...﴾ إلخ تقدم إعرابه. ﴿هَلْ﴾ حرف استفهام للاستفهام الإنكاري؛ لأنّه بمعنى النفي، ﴿جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ﴾ مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ خبره. والجملة مستأنفة. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ...﴾ إلخ، تقدم إعرابه.

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾ الواو: عاطفة، ﴿من دونهما﴾ خبر مقدم، ﴿جَنَّتَانِ﴾ مبتدأ مؤخّر. والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ...﴾ إلخ تقدم إعرابها. ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾ صفة لـ ﴿جَنَّتَانِ﴾، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ...﴾ إلخ تقدم إعرابها. ﴿فِيهِمَا﴾ خبر مقدم، ﴿عَيْنَانِ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ صفة ﴿عَيْنَانِ﴾. والجملة صفة ثانية لـ ﴿جَنَّتَانِ﴾، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ...﴾ إلخ تقدم إعرابها. ﴿فِيهِمَا﴾ خبر مقدم، ﴿فَٰكِهَةٌ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ معطوفان على ﴿فَٰكِهَةٌ﴾ عطف خاص

على عام، والجملة صفة أخرى لـ ﴿جَنَّتَانِ﴾. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ...﴾ إلخ تقدم إعرابه. ﴿فِيهِنَّ﴾ خبر مقدم ﴿خَيْرَٰتٌ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿حِسَانٌ﴾ صفة ﴿خَيْرَٰتٌ﴾. والجملة صفة أخرى لـ ﴿جَنَّتَانِ﴾ لأنَّ الجنتين بمعنى الجنان. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ...﴾ إلخ تقدم إعرابه. ﴿حُورٌ﴾ بدل من ﴿خَيْرَٰتٌ﴾، ويجوز لك أن تعرب حوراً خبراً لمبتدأ محذوف؛ أي: هن حور، ﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾ صفة ﴿حُورٌ﴾، ﴿فِى ٱلْخِيَامِ﴾ متعلق بـ ﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ...﴾ إلخ تقدم إعرابه. ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ فعل، ومفعول، ﴿إِنسٌ﴾ فاعل، ﴿قَبْلَهُمْ﴾ متعلق بـ ﴿يَطْمِثْهُنَّ﴾، ﴿وَلَا جَآنٌّ﴾ معطوف على ﴿إِنسٌ﴾. والجملة الفعلية في محل الرفع، صفة أخرى لـ ﴿حُورٌ﴾. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ...﴾ إلخ تقدم إعرابه. ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال، عامله محذوف يدلّ عليه قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾، تقديره: يتنعمون فيها حال كونهم ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾. ﴿عَلَىٰ رَفْرَفٍ﴾ متعلق بـ ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾، ﴿خُضْرٍ﴾ نعت لـ ﴿رَفْرَفٍ﴾. لأنه جمع رفرفة، ﴿وَعَبْقَرِيٍّ﴾ معطوف على ﴿رَفْرَفٍ﴾، ﴿حِسَانٍ﴾ صفة ﴿عبقري﴾. لأنّه جمع عبقرية. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ...﴾ إلخ تقدّم إعرابه. ﴿تَبَٰرَكَ﴾ فعل ماض، ﴿ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ فاعل. والجملة مستأنفة. ﴿ذِى﴾ صفة لـ ﴿رَبِّكَ﴾، ﴿ٱلْجَلَٰلِ﴾ مضاف إليه، ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ معطوف على الجلال. وقيل: اسم مقحم. والمعنى: تبارك ربّك؛ أي: تزايد خيره وإحسانه. والله أعلم بأسرار كتابه.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ الخوف في الأصل: توقع المكروه عند ظهور أمارة مظنونة أو محققة. وضده الأمن. ويراد به هنا: الكف عن المعاصي مع فعل الطاعات. و﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ قيامه عليه، وإطلاعه على أعماله.

وفي تفسير المقام ثلاث احتمالات:

الأوّل: أنه اسم مكان بمعنى موقفه الذي يقف فيه العباد للحساب، كما قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾.

والثاني: أنه مصدر بمعنى قيامه تعالى، وإطلاعه على أعمال عباده.

والثالث: أنه مصدر بمعنى قيام الخلائق بين يديه تعالى.

﴿جَنَّتَانِ﴾؛ أي: جنة روحية لقلبه، وجنة جسمانية على شاكلة ما عمل في

الدنيا. وقيل: إنهما منزلان، يتنقل بينهما لتتوفر دواعي لذته، وتظهر آثار كرامته.

﴿ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ﴿٤٨﴾﴾ وذوات مثنى ذات بمعنى صاحبة، وأصل ذات: ذوية، قلبت ﴿الواو﴾ ألفاً لتحركها بعد فتح. وفي تثنيتها لغتان. الرد على الأصل، فإن أصلها ذوية؛ لأنها مؤنثة ذوي. والتثنية على اللفظ بأن يقال: ذاتا. والأفنان: جمع فن بمعنى نوع؛ أي: ذواتا أنواع من الأشجار والثمار. يقال: افتن فلان في حديثه إذا أخذ في فنون منه، وضروب مختلفة، أو جمع فنن بمعنى غصن؛ أي: ذواتا أغصان دقيقة التي تتفرع من فروع الشجر، وخصت بالذكر؛ لأنها التي تورق، وتثمر، وتمد الظل.

﴿زَوۡجَانِ﴾؛ أي: صنفان، رطب ويابس. ولا يقصر يابسه عن رطبه في الفضل والطيب. ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ﴾ جمع فراش. وهو البساط ﴿بَطَآئِنُهَا﴾ جمع بطانة ضد الظهارة، ولكن المراد هنا: ما يلي الأرض، كما مرّ. والهمزة فيه مبدلة عن الألف الواقعة حرف مد ثالثاً زائداً في اسم مؤنث جمع على فعائل.

﴿مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ﴾ والإستبرق: ما غلظ من الحرير. قيل: استفعل من البريق. وهو الإضاءة. وقيل: من البرقة. وهو اجتماع ألوان، وجعل اسماً وأعرب إعرابه.

﴿وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ﴾ والجنى: الثمرة التي قد أدركت على الشجرة. وهو اسم بمعنى المجني، كالقبض بمعنى المقبوض. وفيه إعلال بالقلب، أصله: جني قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. وقوله: ﴿دَانٖ﴾ من الدنو بمعنى القرب، أصله: دانوا، مثل: غازو، فوزنه فاع لأعلاله إعلال غاز.

﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ وهو من إضافة اسم الفاعل إلى منصوبه تخفيفاً، ومتعلق القصر محذوف، كما مر؛ أي: نساء يقصرن أبصارهن على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم. والطرف: أصله مصدر، فلذلك وحد. وقيل: الطرف طرف غيرهن؛ أي: قصرن عيني من ينظر إليهن عن النظر إلى غيرهن.

﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ﴾؛ أي: لم يفتضهن. يقال: طمث المرأة من باب ضرب إذا افتضها بالتدمية؛ أي: أزال بكارتها. فالطمث: الجماع المؤدي إلى خروج دم البكر، ثم أطلق على كل جماع طمث، وإن لم يكن معه. وفي «المصباح»: طمث

الرجل امرأته طمثاً من بابي ضرب وقتل افتضها، وافترعها. ولا يكون الطمث نكاحاً إلا بالتدمية. وعليه قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾، اهـ. وفي «القاموس»: الطمث: المس. والمعنى: لم يمس الإنسيّات أحد من الإنس، ولا الجنيّات أحد من الجن.

﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ﴾ الياقوت: جوهر نفيس أحمر اللون. يقال: إن النار لا تؤثر فيه، من خواصه: أنه يقطع جميع الحجارة إلا الماس. فإنه يقطعه لصلابته، وقلة مائه، وشدة الشعاع، والثقل، والصبر على النار. قال بعضهم في مليح: اسمه ياقوتٌ:

يَاقُوتُ يَا قُوتَ قَلْبِ ٱلْمُسْتَهَامِ بِهِ ... مِنَ ٱلْمُرُوءَةِ أَنْ لاَ يُمْنَعَ ٱلْقُوتُ
سَكَنْتَ قَلْبِيْ وَمَا تَخْشَى تَلَهُّبَهُ ... وَكَيْفَ يَخْشَىٰ لَهِيْبَ ٱلنَّارِ يَاقُوْتُ

﴿وَٱلْمَرْجَانُ﴾ صغار اللؤلؤ. وهو أشد بياضاً، أي: كأنهن الياقوت في الصفاء، والمرجان في البياض.

﴿مُدْهَآمَّتَانِ ۝٦٤﴾ مثنى مدهامة. وهي مؤنث مدهام، وصف من ادهام السداسي اسم فاعل. والأصل: مدهاممتان، أدغمت الميم الأولى في الثانية. يقال: ادهام الشيء يدهام ادهياماً فهو مدهام، ذكره في «تاج المصادر» في باب الإفعيلال. وفي «المختار»: دهمهم الأمر غشيهم، وبابه فهم، وكذا دهمتهم الخيل، ودهمهم بفتح الهاء لغة. والدهمة: السواد يقال: فرس أدهم، وبعير أدهم، وناقة دهماء. وادهام ادهياماً؛ أي: اسود قال الله تعالى: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ۝٦٤﴾؛ أي: سوداوان من شدة الخضرة من الري. والعرب تقول لكل شيء أخضر: أسود. وسميت قرى العراق سواداً لكثرة خضرتها. والشاة الدهماء الحمراء الخالصة الحمرة. ويقال للقيد: أدهم. وفي «القاموس»: حديقه دهماء، ومدهامة خضراء تضرب إلى السواد نعمةً وريًّا. ومنه: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾.

﴿نَضَّاخَتَانِ﴾؛ أي: فوارتان بالماء لا تنقطعان. والنضخ أكثر من النضح؛ لأن النضح بالحاء المهملة: الرش، وبالخاء المعجمة كالبزل والنضاخة: الفوارة التي ترمي بالماء صعداً.

﴿حُورٌ﴾ واحدتهن حوراء؛ أي: بيضاء. قال ابن الأثير: الحوراء: هي

الشديدة بياض العين، والشديدة سوادها. ﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾ قصرن، وحبسن في خدورهن، يقال: امرأة قصيرة، وقصورة، ومقصورة؛ أي: مخدرة. ﴿فِى ٱلْخِيَامِ﴾ في «القاموس»: والخيمة: أكمة فوق أبانين، وكل بيت مستدير، أو ثلاثة أعواد، أو أربعة يلقى عليها الثمام، ويستظل بها في الحر أو كل بيت يبني من عيدان الشجر. والجمع خيمات، وخيام، وخيم، وخَيَم بالفتح، وكعنب. يقال: أخامها وأخيمها بناها، وخيموا دخلوا فيها، وبالمكان أقاموا. وخيم الشيء غطاه بشيء كي يعبق، وخام عنه يخيم خيماً وخيماناً وخيوماً وخيومة وخياماً نكص، وجبن. وكاد كيداً فرجع عليه. وفي «القرطبي»: قال عمر رضي الله عنه: الخيمة: درة مجوفة.

﴿عَلَىٰ رَفْرَفٍ﴾ والرفرف: اسم جمع أو اسم جنس جمعي، وكذا يقال: في ﴿عبقري﴾. وعبارة «السمين»: الرفرف اسم جنس. وقيل: اسم جمع نقلهما مكي. والواحدة رفرفة. وهي ما تدلى من الأسرة من غالي الثياب. واشتقاقه من رفرف الطائر؛ أي: ارتفع في الهواء، انتهت. وقال غيره: الرفرف: بسط أو وسائد «مخدات». ﴿وَعَبْقَرِيٍّ﴾ والعبقري: العجيب النادر الموشى من البسط، منسوب إلى عبقر. وتزعم العرب أنه اسم لبلد الجن، فينسبون إليه كل شيء عجيب.

﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾؛ أي: تقدس، وتنزه ربنا الذي أفاض على عباده نعمه الجليلة والحقيرة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإضافة في قوله: ﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ للدلالة على الاختصاص الملكي؛ إذ لا ملك يومئذٍ إلا لله تعالى.

ومنها: الجناس الناقص في قوله: ﴿وجنى الجنتين﴾ لتغير الشكل، والحروف.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ فإنَّ فيه حذف الموصوف، وإبقاء الصفة؛ أي: نساء قصرن أبصارهن على أزواجهن. وفيه أيضاً

إضافة اسم الفاعل إلى مفعوله طلباً للتخفيف اللفظي.

ومنها: الإرداف في قوله: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ وهو أن يريد المتكلم معنى فلا يعبر عنه بلفظه الموضوع له، بل بلفظ هو ردف المعنى الخاص، وتابعه قريب من لفظ المعنى الخاص قرب الرديف من الردف.

والمعنى في الآية: فيهن عفيفات قد قصرت عفتهن طرفهن على بعولتهن. وعدل عن المعنى الخاص إلى لفظ الإرداف؛ لأن كل من عف غض الطرف عن الطموح. فقد يمتد نظر الإنسان إلى شيء، وتشتهيه نفسه، ويعف عنه مع القدرة عليه لأمر آخر. وقصر طرف المرأة على بعلها أو قصر طرفها حياء وخفراً، أو قصر عيني من ينظر إليهن عن النظر إلى غيرهن أمر زائد على العفة؛ لأنَّ من لا يطمح طرفها لغير بعلها، أو لا يطمح حياء وخفراً: فإنها ضرورة تكون عفيفة. فكل قاصرة الطرف عفيفة، وليست كل عفيفة قاصرة الطرف. فلذلك عدل عن اللفظ الخاص إلى لفظ الإرداف.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾ لذكر الأداة، وحذف وجه الشبه. وهو الصفاء والبياض.

ومنها: عطف الخاص على العام في قوله: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ إظهاراً لفضله، وميزته. فإن في فصلهما بالواو عن الفاكهة بياناً لفضلها على سائر الفواكه، كما مرَّ. حتى كأنهما من المزيّة جنسان آخران، كقوله تعالى: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾. ولكن اختلف هل هو من عطف الخاص على العام أو عطف ما تضمنه الأول عليه. والظاهر: أن الآية ليست من عطف الخاص على العام؛ لأنَّ النكرة في سياق الإثبات لا تعم عموماً شموليًا.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة

١ ـ ذكر تعليم القرآن، وخلق الإنسان، وتعليمه البيان.

٢ ـ ذكر جريان الشمس والقمر بحسبان، وسجود النجم والشجر خضوعاً له تعالى.

٣ ـ وضع الميزان، والأمر بإقامته، وعدم الإخسار فيه.

٤ ـ بسط الأرض للأنام مع خلق ضروب الفواكه، وأنواع الزورع فيها لهم.

٥ ـ بيان مادة خلق الإنسان، ومادة خلق الجان.

٦ ـ ذكر ما يتعلق بالبحرين.

٧ ـ ذكر فناء المخلوق، وبقاء الخالق.

٨ ـ ذكر احتياج من في السموات والأرض إليه وكونه سبحانه في تدبير شؤونهم.

٩ ـ أمر الثقلين بخروجهم من أقطار السموات والأرض أمر تعجيز.

١٠ ـ ذكر أحوال يوم القيامة، وبيان أحوال المجرمين فيه.

١١ ـ ذكر ما أعده للمقربين والأبرار من الثقلين مطعماً، وملبساً، ومنكحاً إلى آخر السورة. اللهم يا ذا الجلال والإكرام صل وسلم على من أرسلته رحمة للأنام سيدنا محمد، وآله، وصحبه الكرام ما تعاقبت الليالي والأيام صلاة وسلاماً متلازمين دائماً بلا انصرام[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) وقع الفراغ من تفسير هذه السورة في اليوم السابع والعشرين من شهر الله الفرد رجب، منتصف الساعة التاسعة في تاريخ ١٤١٥/٧/٢٧ ألف وأربع مئة وخمس عشرة سنة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلوات، وأزكى التحيّات. آمين يا رب آمين.

سورة الواقعة

سورة الواقعة مكية، نزلت بعد طه في قول الحسن[1]، وعكرمة، وجابر، وعطاء، وقال ابن عباس، وقتادة: مكية إلا آية منها نزلت بالمدينة. وهي قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾. وقال الكلبيّ: إنها مكيّة، إلاّ أربع آيات منها: ﴿أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾، وقوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

وآيها: ست أو سبع وتسعون آية[2]. وكلماتها: ثلاث مئة وثمان وسبعون كلمة. وحروفها: ألف وسبع مئة وثلاثة أحرف.

مناسبتها لما قبلها من ثلاثة أوجه[3]:

١ ـ إنّ في كل منهما وصف القيامة، والجنة، والنار.

٢ ـ إنه ذكر في السورة السابقة عذاب المجرمين، ونعيم المتقين، وفاضل بين جنتي بعض المؤمنين، وجنتي بعض آخر منهم، وبيّن هنا انقسام المكلفين إذ ذاك إلى أصحاب ميمنة، وأصحاب مشئمة، وسابقين.

٣ ـ إنه ذكر في سورة الرحمن انشقاق السماء، وذكر هنا رج الأرض. فكأن السورتين لتلازمهما، واتحادهما موضوعاً سورة واحدة مع عكس في الترتيب. فقد ذكر في أول هذه ما في آخر تلك، وفي آخر هذه ما في أول تلك.

وعبارة أبي حيان: مناسبة هذه السورة لما قبلها[4]: أنَّ ما قبلها تتضمن العذاب للمجرمين، والنعيم للمؤمنين، وفاضل بين جنتي بعض المؤمنين، وجنتي

---

(١) الشوكاني.

(٢) الخازن.

(٣) المراغي.

(٤) البحر المحيط.

بعض بقوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۝٦٢﴾. فانقسم العالم بذلك إلى كافر ومؤمن مفضول ومؤمن فاضل. وهكذا جاء ابتداء هذا السورة من كونهم أصحاب ميمنة وأصحاب مشئمة وسباق. وهم المقربون وأصحاب اليمين، والمكذبون المختتم بهم آخر هذه السورة.

الناسخ والمنسوخ منها: أجمع[1] المفسّرون على أن لا ناسخ فيها، ولا منسوخ إلا قول مقاتل بن سليمان، فإنه قال نسخ منها قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝١٤﴾ الآية (١٤) من الواقعة، نسخ بقوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝٤٠﴾ الآية (٤٠) من الواقعة.

واسمها: سورة الواقعة، سميت بها لذكر الواقعة فيها. وهو اسم من أسماء القيامة.

ومن **فضائلها:** ما أخرجه أبو يعلى، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً». ومنها: ما أخرجه ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «سورة الواقعة سورة الغنى فاقرؤوها، وعلموها أولادكم». وأخرج الديلمي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «علموا نساؤكم سورة الواقعة، فإنها سورة الغنى».

ومنها: ما روى هلال بن يساف عن مسروق قال: من أراد أن يعلم نبأ الأولين والآخرين، ونبأ أهل الجنة، ونبأ أهل النار، ونبأ أهل الدنيا، ونبأ أهل الآخرة فليقرأ سورة الواقعة.

ومنها: ما ذكر أبو عمر ابن عبد البر في «التمهيد» و«التعليق»، والثعلبيُّ أيضاً: أن عثمان دخل على ابن مسعود يعوده في مرضه الذي مات منه، فقال: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي، قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي، قال: أفلا ندعو لك طبيباً؟ قال: الطبيب أمرضني، قال: أفلا نأمر لك بعطائك؟ قال: لا حاجة لي فيه، حبسته عني في حياتي، وتدفعه عند مماتي. قال: يكون لبناتك من بعدك، قال: أتخشى على

(١) ابن حزم.

بناتي الفاقة من بعدي، إني أمرتهن أن يقرأن سورة الواقعة كل ليلة. فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً»، اهـ قرطبيّ. وقد روى هذا الحديث البيهقيُّ، وغيره كما مرّ آنفاً، وإنما أعدناه لهذه القصة. قال سعدي المفتي: هذا حديث صحيح.

وفي رواية أخرى: من داوم على قراءة سورة الواقعة لم يفتقر أبداً. قال ابن عطية: فيها ذكر القيامة، وحظوظ الناس في الآخرة، وفهم ذلك غنى لا فقر معه، ومن فهمه يشتغل بالاستعداد للآخرة.

قال الغزالي رحمه الله تعالى في «منهاج العابدين»: قراءة هذه السورة عند الشدّة في أمر الرزق والخصاصة شيء وردت به الأخبار المأثورة عن النبيّ ﷺ، وعن الصحابة رضي الله تعالى عنهم، حتى ابن مسعود رضي الله عنه حين عوتب في أمر أولاده؛ إذ لم يترك لهم في الدنيا، قال: لقد خلفت لهم سورة الواقعة.

فإن قلت: إرادة متاع الدنيا بعمل الآخرة لا تصح.

قلت: مراده أن يرزقهم الله تعالى قناعة أو قوة يكون لهم عدة على عبادة الله تعالى، وقوّة على درس العلم. وهذا من جملة إرادة الخير دون الدنيا فلا رياء، انتهى كلامه.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنۢبَثًّا (٦) وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَٰثَةً (٧) فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ (٩) وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ (١٠) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا (٢٦) وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً (٣٥) فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ (٤٠) وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ (٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ (٥٣) فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ (٥٤) فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ (٥٥) هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ (٥٦)﴾.

المناسبة

بدأ سبحانه هذه السورة بأنه حين تقع الواقعة، ويجيء يوم القيامة لا تكذب نفس على الله، فتنكره. إذ تحقق بالمعاينة، وشهده كل أحد. أمّا في الدنيا فما أكثر النفوس المكذّبة المنكرة له؛ لأنهم لم يذوقوا العذاب كما عاينه المعذبون في الآخرة.

ثم وصف هذه الواقعة بأنها تخفض أقواماً، وترفع آخرين، وأن الأرض حينئذٍ

تزلزل، فيندك ما عليها من جبال وأبنية، وأنَّ الجبال تتفتت، وتصير كالغبار المنتشر في الجو، وأن الناس إذ ذاك ينقسمون أفواجاً ثلاثة: أصحاب الميمنة، وأصحاب المشئمة، والسابقون.

قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝١٤ . . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه لما ذكر[1] أنَّ الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: سابقون، وأصحاب ميمنة، وأصحاب مشأمة. . أعقب ذلك بذكر ما يتمتع به السابقون من النعيم في فرشهم، وطعامهم، وشرابهم، ونسائهم، وأحاديثهم التي تدل على صفاء النفس، وأدب الخلق، وسمو العقل.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ۝٢٧ . . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه لما ذكر حال السابقين، وبين ما لهم من نعيم مقيم في جنّات النعيم. . أردف ذلك بذكر حال أصحاب اليمين، فبين أنهم في جنات يتخللها السدر المخضود، والموز المنضد بعضه فوق بعض، والفاكهة الكثيرة التي لا تنقطع أبداً، ولا تمتنع عنهم متى شاؤوا، وفيها فرش وثيرة مرتفعة عالية، ونساء حسان أبكار في سن واحدة.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ . . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه لما ذكر زوجين من الأزواج الثلاثة، وبين ما يلقاه كل منهم من عز مقيم وشرف عظيم في جنات ونعيم، في جملة شؤونهم في مآكلهم، ومشاربهم، وفرشهم، وأزواجهم. . أردف ذلك بذكر الزوج الثالث، وبين ما يلقاه من النكال، والوبال، وسوء الحال. فهو يتلظى في السموم، ويشرب ماء كالمهل يشوي الوجوه، ثم أعقبه بذكر السبب في هذا بأنهم كانوا في دنياهم مترفين غارقين في ذنوبهم، منكرين هذا اليوم يوم الجزاء. ثم أمره أن يخبرهم بأن هذا اليوم واقع حتماً، وأن مأكلهم سيكون من شجر الزقوم، يملؤون منه البطون، ثم يشربون، ولا يرتوون كالإبل الهيم. وهذا ما أعد لهم من كرم وحسن وفادة في هذا اليوم.

---

(١) المراغي.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه أحمد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم بسند فيه من لا يعرف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ شق ذلك على المسلمين، فنزلت: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

وأخرج ابن عساكر في «تاريخ دمشق» بسند فيه نظر من طريق عروة بن رويم عن جابر بن عبد الله قال: لما نزلت: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ وذكر فيها ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ قال عمر: يا رسول الله ثلة من الأوّلين وقليل منّا. فأمسك آخر السورة سنة، ثم نزلت: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾. فقال رسول الله ﷺ: «يا عمر تعال، فاسمع ما أنزل الله تعالى، أنزل: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾». وأخرجه ابن أبي حاتم عن عروة بن رويم مرسلاً.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه سعيد بن منصور في سننه، والبيهقي في «البعث» عن عطاء ومجاهد قالا: لمّا سأل أهل الطائف الوادي يحمى لهم، وفيه عسل ففعل، وهو واد معجب، فسمعوا الناس يقولون: إن في الجنة كذا وكذا. قالوا: يا ليت لنا في الجنّة مثل هذا الوادي، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ . . .﴾ الآيات.

وأخرج البيهقي من وجه آخر عن مجاهد قال: كانوا يعجبون بوج «واد بالطائف»، وظلاله، وطلحه، وسدره. فأنزل الله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾﴾ وانتصاب ﴿إِذَا﴾ بجوابها المحذوفة، تقديره: إذا

(١) لباب النقول.

قامت القيامة، وحدثت، وحصلت وذلك عند النفخة الثانية يكون من الأهوال ما لا يفي به المقال.

سمّاها[1] واقعة مع أنَّ دلالة اسم الفاعل على الحال، والقيامة مما سيقع في الاستقبال لتحقق وقوعها. ولذا اختار ﴿إِذَا﴾، وصيغة الماضي. فالواقعة من أسماء القيامة، كالصاخة، والطامة، والآزفة. سميت واقعة؛ لأنها كائنة لا محالة، أو لقرب وقوعها، أو لكثرة ما يقع فيها من الشدائد. وقال أبو الليث: سميت القيامة واقعة لصوتها. وقيل: منصوب باذكر محذوف، أي: اذكر وقت وقوع الواقعة، أو بالنفي المفهوم من قوله: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾؛ أي: لا يكون عند وقوعها تكذيب. والكاذبة مصدر كالعاقبة، أي: ليس لمجيئها وظهورها كذب أصلاً. وقيل: إنها شرطية، والعامل فيها الفعل الذي بعدها على تقدير فاء الربط لكون الجواب فعلاً جامداً؛ أي: إذا وقعت الواقعة.. فليس هناك تكذيب لوقوعها لمشاهدتها كما وقع تكذيبها في الدنيا من المشركين. ويحتمل أن يكون الكاذبة اسم فاعل، واللام للتوقيت، والمعنى؛ أي: لا يكون عند وقوعها نفس تكذب على الله، وتفتري بالشريك، والولد، والصاحبة، وبأنه لا يبعث الموتى. لأن كل نفس حينئذٍ مؤمنة صادقة مصدقة، وأكثر النفوس اليوم كاذبة مكذبة.

ومعنى الآية[2]: أنها إذا وقت النفخة الآخرة عند البعث لم يكن هناك تكذيب بها أصلاً، أو لا يكون هناك نفس تكذب على الله، وتكذب بما أخبر عنه من أمور الآخرة. وقال الزجاج ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾؛ أي: لا يردها شيء، وبه قال الحسن، وقتادة. وقال الثوري: ليس لوقعتها أحد يكذب بها. وقال الكسائي: ليس لها تكذيب؛ أي: لا ينبغي أن يكذب بها أحد.

وعبارة «المراغي»: أي إذا قامت القيامة ليس لوقعتها ارتداد، ولا رجعة كالحملة الصادرة من ذي سطوة قاهر. قاله الحسن، وقتادة. وقد يكون المعنى: ليس في وقت وقوعها كذب. لأنّه حق لا شبهة فيه.

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

ثم هول شأنها، وعظم أمرها. فقال: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾؛ أي: هي خافضة لأقوام. رافعة لآخرين. وهو[1] تقرير لعظمتها على سبيل المجاز؛ فإن الوقائع العظام يرتفع فيها أناس إلى مراتب، ويتضع أناس. وتقديم الخفض على الرفع للتشديد في التهويل. قال بعضهم: خافضة لأعداء الله إلى النار، رافعة لأولياء الله إلى الجنة، أو تخفض أقواماً بالعدل، وترفع أقواماً بالفضل. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: تخفض أقواماً كانوا مرتفعين في الدنيا، وترفع أقوماً كانوا متضعين فيها، اهـ. كما يشاهد ذلك في تبدل الدول من ذل الأعزة وعز الأذلة. وفي هذا إيماء إلى ما يكون يومئذٍ من حط الأشقياء إلى الدركات ورفع السعداء إلى درجات الجنات. ومن ثم قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: خفضت أعداء الله إلى النار، ورفعت أولياءه إلى الجنة.

وقرأ الجمهور: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ برفعهما[2] على إضمار مبتدأ، أي: هي خافضة رافعة. وقرأ زيد بن عليّ، والحسن، وعيسى الثقفي، وأبو حيوة، وابن أبي عبلة، وابن مقسم، والزعفراني، واليزيدي في اختياره بنصبهما على الحال، وصاحب الحال الواقعة، والعامل فيها ﴿وَقَعَتِ﴾. وتستعمل العرب الخفض والرفع في المكان والمكانة، والعز، والإهانة. ونسبة الخفض والرفع إليها على سبيل المجاز، كما مرّ؛ لأن الخافض والرافع في الحقيقة هو الله سبحانه وتعالى.

والظرف في قوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤﴾؛ أي: زلزلت الأرض زلزالاً، متعلق[3] بـ ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾، مجردة عن معنى الشرط؛ أي: خافضة رافعة إذا حركت الأرض تحريكاً شديداً، بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبل، ولا تسكن زلزلتها حتى تلقي جميع ما في بطنها على ظهرها. والرج: تحريك الشيء، وازعاجه؛ أي: تخفض، وترفع وقت رج الأرض، وبس الجبال؛ لأنه عند ذلك يرتفع ما هو منخفض، وينخفض ما هو مرتفع. وقيل: إن الظرف بدل من الظرف الأول، ذكره الزجاج. فيكون معنى وقوع الواقعة: هو رج الأرض، وبس الجبال.

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

وقوله: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝﴾؛ أي: فتت الجبال فتا، معطوف على ﴿رُجَّتِ﴾؛ أي: فتتت حتى صارت كالدقيق المبسوس؛ أي: المبلول؛ أي: مثل السويق الملتوت من بس السويق إذا لته، والبسيسة: سويق يلت، فيتخذ زاداً، وقيل: صارت كثيباً مهيلاً بعد أن كانت شامخة. وقيل: معناه: قلعت من أصلها، وسيّرت على وجه الأرض حتى ذهب بها. ﴿فَكَانَتْ﴾؛ أي: صارت الجبال بسبب ذلك ﴿هباءً﴾؛ أي: غباراً. وهو ما يسطع من حوافر الخيل، أو الذي يرى في شعاع الكوّة، أو الهباء: ما يتطاير من شرر النار، أو ما ذرته الريح من الأوراق. ﴿مُّنۢبَثًّا﴾؛ أي: منتشراً متفرّقاً. وروي: أن الله تعالى يبعث ريحاً من تحت الجنة، فتحمل الأرض والجبال، وتضرب بعضها ببعض، ولا تزال كذلك حتى تصير غباراً، ويسقط ذلك الغبار على وجوه الكفار. كقوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝﴾. وقال بعضهم: إنّ هذه الغبرة هي التراب الذي أشار إليه تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾. وسيجيء تحقيقه في محله. والكلام على التشبيه؛ أي: فصارت كالهباء المنبث الذي ذرته الريح، وفرقته.

وقرأ زيد بن علي[1]: ﴿رَجَّت﴾ و﴿بسَّتْ﴾ مبنياً للفاعل. و﴿إذا رجَّت﴾ بدل من ﴿إِذَا وَقَعَتِ﴾، وجواب الشرط عندي ملفوظ به. وهو قوله: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾.

والمعنى: إذا كان كذا وكذا، فأصحاب الميمنة ما أسعدهم، وما أعظم ما يجازون به، أي: إن سعادتهم، وعظم رتبتهم عند الله تعالى تظهر في ذلك الوقت الشديد الصعب على العالم. وقرأ الجمهور ﴿مُّنۢبَثًّا﴾ بالثاء المثلثة. وقرأ مسروق، والنخعيُّ، وأبو حيوة ﴿منبتاً﴾ بالتاء المثناة من فوق؛ أي: منقطعاً من قولهم: بتَّه الله؛ أي: قطعه.

ثم ذكر سبحانه أحوال الناس، واختلافهم. فقال: ﴿وَكُنتُمْ﴾ إمَّا خطاب للأمة الحاضرة، والأمم السالفة تغليباً أو للحاضرة فقط ﴿أَزْوَٰجًا﴾؛ أي: أصنافاً ﴿ثَلَٰثَةً﴾ اثنان في الجنة، وواحد في النار. وكل صنف يكون مع صنف آخر في الوجود، أو في الذكر يسمى زوجاً فرداً كان كالعينين والرجلين. فكل منهما يسمى زوجاً، وهما

(١) البحر المحيط.

معاً زوجانَ أو شفعاً كما هنا. فههنا أزواج ثلاثة.

ثم فصل سبحانه هذه الأصناف الثلاثة، فقال: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾﴾؛ أي: أصحاب اليمين ما أصحاب اليمين. ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ مبتدأ، خبره ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ على أنَّ ﴿مَآ﴾ الاستفهامية مبتدأ ثان، وما بعده خبره. وتكرير المبتدأ هنا بلفظه مغن عن الضمير الرابط، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾﴾، و﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾﴾. والاستفهام للتعظيم والتفخيم. والأصل: ما هم؛ أي: أيُّ شيء هم في حالهم وصفتهم. ولا يجوز مثل هذا إلا في مواضع التفخيم والتعظيم أو التهويل والتفظيع. والكلام في قوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾﴾ كالكلام في قوله: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾﴾.

وأصحاب الميمنة: هم الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم. وأصحاب المشأمة: هم الذين يأخذون بشمائلهم. أو الذين يكونون على يمين العرش، فيأخذون طريق الجنة، والذين يكونون على شمال العرش فيفضى بهم إلى النار. أو أصحاب الميمنة: أصحاب المنزلة السنيّة، وأصحاب المشأمة: أصحاب المنزلة الدنيّة أخذاً من تيّمنهم بالميامن؛ أي: بطرف اليمين، وتشؤمهم بالشمائل؛ أي: بجانب الشمال. كما تقول: فلان منّي باليمين، أو بالشمال. إذا وصفته عندك بالرفعة أو الضعة. تريد ما يلزم من جهتي اليمين والشمال من رفعة القدر وانحطاطه. أو أصحاب اليمن، وأصحاب الشؤم. فإن السعداء ميامين على أنفسهم بطاعتهم، والأشقياء مشائيم عليها بمعاصيهم، أو أصحاب الميمنة الذين كانوا على يمين آدم يوم الميثاق، حين أخرجت ذريته من صلبه، قال تعالى في حقهم: «هؤلاء من أهل الجنة ولا أبالي». وأصحاب المشأمة: هم الذين كانوا على شماله، وقال تعالى فيهم: «هؤلاء من أهل النار ولا أُبالي».

والمراد من هذا الكلام: تعجيب السامع من حال الفريقين في الفخامة، والفظاعة. كأنَّه قيل: فأصحاب الميمنة في نهاية السعادة، وحسن الحال. وأصحاب المشأمة في نهاية الشقاوة، وسوء الحال. فكأنه قيل: ما عرفت حاله، أي شيء هي، فاعرفها وتعجب منها.

ثم ذكر سبحانه الصنف الثالث، فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾ والتكرير فيه

للتفخيم والتعظيم، كما مر في القسمين الأولين. كما تقول: أنت أنت، وزيد زيد. وهم القسم الثالث من الأزواج الثلاثة. أخر ذكرهم ليقترن ببين محاسن أحوالهم.

وأصل السبق: التقدم في السير، ثم تجوز به في غيره من التقدم. والجملة مبتدأ وخبر.

والمعنى: والسابقون هم الذين اشتهرت أحوالهم، وعرفت محاسنهم. كقوله: أنا أبو النجم وشعري شعري. أو السابقون الأول مبتدأ، والثاني تأكيد له، كرر تعظيماً لهم، والخبر جملة قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلخ. وفي البرهان: التقدير عند بعضهم: السابقون ما السابقون، فحذف ﴿ما﴾ لدلالة ما قبله عليه.

ومعنى الآيات: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧﴾؛ أي[1]: وصرتم أيها الخلائق في ذلك اليوم ثلاثة أصناف: اثنان في الجنة، وواحد في النار. ثم بينهم بقوله: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ . . .﴾ إلخ؛ أي: فأهل الجنة الذين يعطون كتابهم بيمينهم، أيُّ شيء هم في حالهم. فهم في غاية حسن الحال في الكرامة، والسرور، وأهل النار الذين يعطون كتابهم بشمالهم أيُّ شيء هم في حالهم فهم في غاية سوء الحال، وهم في الهوان والعذاب. والسابقون الذين لا حساب عليهم هم الذين اشتهرت أحوالهم، وعرفت محاسنهم. فهم يسبقون الخلق إلى الجنّة من غير حساب. فالسابقون إلى الخيرات في الدنيا هم السابقون إلى الجنّة في العقبى.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم السابقون إلى الهجرة، السابقون في الآخرة إلى الجنّة. وقيل: هم السابقون إلى الإسلام. وقيل: هم الذين صلُّوا إلى القبلتين من المهاجرين والأنصار. وقيل: هم السابقون إلى الصلوات الخمس. وقيل: إلى الجهاد. وقيل: هم المسارعون إلى التوبة، وإلى ما دعا الله إليه من أعمال البرّ والخير. وقيل: هم أهل القرآن المتوجون يوم القيامة.

فإن قلت[2]: لم أخر ذكر السابقين، وكانوا أولى بالتقديم على أصحاب اليمين؟

قلت: فيه لطيفة، وذلك أنَّ الله تعالى ذكر في أوّل السورة من الأمور الهائلة

---

(١) المراح. (٢) الخازن.

عند قيام الساعة تخويفاً لعباده. فأما المحسن فيزداد رغبة في الثواب، وأما المسيء فيرجع عن إساءته خوفاً من العقاب. فلذلك قدم ﴿أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ ليسمعوا، ويرغبوا. ثم ذكر أصحاب الشمال ليرهبوا. ثم ذكر السابقين وهم الذين لا يحزنهم الفزع الأكبر ليجتهد أصحاب اليمين في القرب من درجتهم.

وقيل[1]: وجه تأخير هذا الصنف الثالث مع كونه أشرف من الصنفين الأوليين ليقرنه بما هو لهم المذكور بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفة الجليلة. وهو مبتدأ، خبره ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾؛ أي: الذين قربت إلى العرش العظيم درجاتهم، وأعليت مراتبهم، ورقيت إلى حظائر القدس نفوسهم الزكية. يقول الفقير: عرف هذا المعنى من قوله ﷺ: «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس»: فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن. فإنه يظهر منه أن الفردوس مقام المقربين لقربه من العرش الذي هو سقف الجنة. ولم يقل: أولئك المتقرّبون؛ لأنهم بتقريب ربهم سبقوا لا بتقرب أنفسهم. ففيه إشارة إلى الفضل العظيم في حقّ هؤلاء، يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وقوله: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾ إما[2] متعلق بـ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾؛ أي: مقرّبون عند الله في جنات النعيم، أو خبر ثان لأولئك، أو حال من الضمير في ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: كائنين في جنّات النعيم.

والمعنى[3]: أي والسابقون الذين يتقدّمون غيرهم إلى الطاعات هم الذين اشتهرت أحوالهم، وعرفت فخامة أمورهم. وقد يكون المعنى: والسابقون إلى طاعة الله تعالى هم السابقون إلى رحمته سبحانه. فمن سبق في هذه الدنيا إلى فعل الخير كان في الآخرة من السابقين إلى دار الكرامة. فالجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان.

وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من السابقون إلى ظل الله يوم القيامة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «الذين إذا أعطوا الحق

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

قبلوه، وإذا سئلوه بذلوه، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم». أخرجه أحمد. أولئك المتصفون بذلك الوصف الجليل «السَّبْق» هم الذي نالوا حظوةً عند ربهم، وهم في جنات النعيم يتمتعون فيها بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فِي جَنَّٰتِ﴾ بالجمع. وقرأ طلحة بن مصرف ﴿في جنّة﴾ بالإفراد. وإضافة الجنات إلى النعيم من إضافة المكان إلى ما يكون فيه كما يقال: دار الضيافة، ودار الدعوة، ودار العدل.

وارتفاع: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هم أمم كثيرة، وجماعة من الأولين غير محصورة العدد، أي: أولئك السابقون جماعة من الأولين، وهم الأمم السالفة من لدن آدم إلى نبيّنا عليهما السلام، وعلى من بينهما من الأنبياء العظام، وهذا التفسير مبنيّ على أن يراد بالسابقين: غير الأنبياء. و[2] اشتقاق الثلة من الثل. وهو الكسر. وجماعة السابقين مع كثرتهم مقطوعة مكسورة من جملة بني آدم. وقال الراغب: الثلة: قطعة مجتمعة من الصوف، ولذلك قيل للغنم: ثلة، ولاعتبار الاجتماع قيل: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾؛ أي: جماعة منهم ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾؛ أي: من هذه الأمّة. ولا يعارضه قوله ﷺ: «إن أمتي يكثرون سائر الأمم» أي: يغلبونهم بالكثرة. فإن أكثرية سابقي الأمم السالفة من سابقي هذه الأمّة لا تمنع أكثرية تابعي هؤلاء من تابعي أولئك مثل أن يكون سابقوهم ألفين، وتابعوهم ألفاً. فالمجموع ثلاثة آلاف. ويكون سابقوا هذه الأمّة ألفاً وتابعوهم ثلاثة آلاف. فالمجموع أربعة آلاف فرضاً. وهذا المجوع أكثر من المجموع الأوّل. وفي الحديث: «أنا أكثر الناس تبعاً يوم القيامة».

والحاصل: أن المراد بالأولين في قوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾ هم[3] الأمم السابقة من لدن آدم إلى نبيّنا محمد ﷺ، وبالآخرين في قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝١٤﴾؛ أي: من هذه الأمة المحمدية. وسموا قليلاً بالنسبة إلى من كان قبلهم.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

وهم كثيرون لكثرة الأنبياء فيهم، وكثرة من أجابهم. قال الحسن: سابقوا مَنْ مضى أكثر من سابقينا.

قال الزجاج: الذين عاينوا جميع الأنبياء، وصدقوا بهم أكثر ممن عاين النبي ﷺ. ولا يخالف هذا ما ثبت في «الصحيح» من قوله ﷺ: «إنّي لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، ثم قال: ثلث أهل الجنة، ثم قال: نصف أهل الجنة»؛ لأنّ قوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلۡآخِرِينَ ۝١٤﴾ إنما هو تفصيل للسابقين فقط، كما سيأتي في ذكر أصحاب اليمين أنهم ثلّة من الأوّلين، وثلة من الآخرين، فلا يمتنع أن يكون في أصحاب اليمين من هذه الأمة من هو أكثر من أصحاب اليمين من غيرهم، فيجتمع من قليل سابقي هذه الأمّة، ومن ثلّة أصحاب اليمين منها من يكون نصف أهل الجنة. والمقابلة بين الثُّلّتين في أصحاب اليمين لا تستلزم استواءهما لجواز أن يقال: هذه الثلة أكثر من هذه الثلة، كما يقال: هذه الجماعة أكثر من هذه الجماعة، وهذه الفرقة أكثر من هذه الفرقة، وهذه القطعة أكثر من هذه القطعة. وبهذا تعرف أنه لم يصب من قال: إن هذه الآية منسوخة بالحديث المذكور.

والمعنى: أي هم جماعة كثيرة من سالفي الأمم، وقليل من أمّة محمد ﷺ. ويستأنس لهذا بقوله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة».

ثم ذكر سبحانه حالة أخرى للسابقين المقربين، فقال: ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ۝١٥﴾ حال أخرى من المقربين، أو خبر آخر للضمير المحذوف، كما في «البيضاوي». والسرر: جمع سرير، مثل: كثب جمع كثيب، أي: حال كونهم على سرر منسوجة بالذهب، مشبكة بالدر والياقوت من الوضن. وهو نسج الدرع، أو[1] موصولة بالذهب والفضة، منسوجة بالدر والياقوت. ويقال: أرضها من الذهب الممدود، وقوائمها من الجواهر النفيسة.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿سُرُرٖ﴾ بضم السين، والراء الأولى. وقرأ زيد بن علي وأبو السمال بفتح السين، وهي لغة لبعض بني تميم، وكلب، يفتحون عين فعل

(١) المراح. (٢) البحر المحيط.

جمع فعيل المضعف. نحو: سرير.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦﴾ حالان[1] من الضمير المستكن فيما تعلق به ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ﴾. والتقابل أن يقبل بعضهم على بعض إما بالذات، وإما بالعناية والمودة؛ أي: مستقرين على سرر حال كونهم متكئين عليها؛ أي: قاعدين على تلك السرر قعود الملوك للاستراحة متقابلين لا ينظر بعضهم من أقفاء بعض. وهو وصف لهم بحسن العشرة، وتهذيب الأخلاق والآداب. وقال أبو الليث: متقابلين في الزيارة.

وجملة قوله: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ أي: يدور حولهم للخدمة حال الشرب وغيره ﴿وِلۡدَٰنٞ﴾ جمع وليد. وخدمة الوليد أمتع من خدمة الكبير ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾؛ أي: مبقون أبداً على شكل الولدان، وطراوتهم، لا يتحولون عنها. لأنهم خلقوا للبقاء، ومن خلق للبقاء لا يتغير، وهم خلقوا للخدمة قط، والحور العين للخدمة والمتعة، في محل النصب على الحال من المقربين أو مستأنفة لبيان بعض ما أعد الله لهم من النعيم.

والمعنى[2]: مستقرون عل سرر موضونة حال كونهم متكئين عليها، ينظر بعضهم إلى وجوه بعض، فهم في صفاء، وعيش، ورغد، وحسن معاشرة، لا يوجد في نفوسهم من الشحناء، والبغضاء ما يوجب الافتراق، يدور عليهم غلمان وخدم على صفة واحدة لا يكبرون، ولا يتغيرون. فهم دائماً على الصفة التي تسر المخدوم إذا رأى الخادم، يعني: أنهم مخدومون في شرابهم وطعامهم، مكفيون مؤنة ما يريدون. فهم في غاية ترف ونعيم. قيل: هم ولدان المسلمين يموتون صغاراً، لا حسنة لهم ولا سيئة. وقيل: هم أطفال المشركين. ولا يبعد أن يكونوا مخلوقين في الجنة للقيام بهذه الخدمة.

وقوله: ﴿بِأَكۡوَابٖ...﴾ إلخ، متعلق بيطوف، أي: يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب من الذهب والجواهر؛ أي[3]: بآنية لا عرى لها، ولا خراطيم. وهي الأباريق الواسعة الرأس، لا خرطوم لها، ولا يعوق الشارب منها عائق عن شرب من أي موضع أراد منها، فلا يحتاج أن يحول الإناء من الحالة التي تناوله بها

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

ليشرب. ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ جمع إبريق. وهو الإناء الذي له عروة، وخرطوم يبرق لونه من صفائه. وقيل: إنها أعجمية معربة آبْ ري؛ أي: بآنية ذات عرى وخراطيم. ويقال: الكوب للماء وغيره. والإبريق لغسل الأيدي، والكأس لشرب الخمر. كما قال: ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾؛ أي: وبكأس من خمر جارية من العيون. أخبر أن خمر الآخرة ليست كخمر الدنيا، تستخرج بتكلف وعلاج وتكون في أوعية، بل هي كثيرة جارية. كما قال: ﴿وَأَنْهَرٌ مِّنْ خَمْرٍ﴾. والكأس: القدح إذا كان فيها شراب، وإلا فهو قدح. يقال: معن الماء إذا جرى، فهو فعيل بمعنى الفاعل؛ أي: ظاهرة تراها العيون في الأنهار كالماء المعين.

فإن قلت: كيف جمع الأكواب والأباريق، وأفرد الكأس؟

فالجواب: أن ذلك على عادة أهل الشراب. فإنهم يعدون الخمر في الأواني المتعددة، ويشربون بكأس واحدة.

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾؛ أي:[1] لا تتصدع رؤوسهم، ولا تتوجع من شربها؛ أي: لا ينالهم بسبب شربها صداع كما ينالهم ذلك من خمر الدنيا. والصداع: هو الداء المعروف الذي يلحق الإنسان في رأسه. وحقيقته لا يصدر صداعهم عنها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: في الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقيء، والبول. وليست هذه الخصال في خمر الجنة، بل هي لذّة بلا أذى.

وقرأ مجاهد ﴿لا يَصَّدعون﴾ بفتح الياء، وشدِّ الصاد. وأصله: يتصدَّعون، أدغم التاء في الصاد؛ أي: لا يتفرقون عنها كما يتفرق الشراب، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾. وقرأ الجمهور[2] بضم الياء، وتخفيف الصاد. والجملة مستأنفة لبيان ما أعد الله لهم من النعيم، أو في محل النصب على الحال.

وجملة ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ معطوفة على الجملة التي قبلها، أي: لا يسكرون بشربها، فتذهب عقولهم، أو لا ينفد شرابهم، من أنزف الشارب، إذا نفد عقله، أو شرابه. فالنفاد إما للعقل، وهو من عيوب خمر الدنيا، أو للشراب فإن بنفادها تختل الصحبة. وقرأ الجمهور: ﴿ولا يُنْزَفُون﴾ مبنياً للمفعول، من أنزف الشارب إذا نفد

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

عقله. وقرأ ابن أبي إسحاق بفتح الياء، وكسر الزاي من نزف البئر استفرغ ماءها. فالمعنى: لا تفرغ خمرهم. وقرأ ابن أبي إسحاق أيضاً، وعبد الله، والسلمي، والجحدري، والأعمش، وطلحة، وعيسى بضم الياء، وكسر الزاي؛ أي: لا يفنى لهم شراب.

والمعنى[1]: يطوفون عليهم بأداة الشراب كاملة من أكواب وأباريق، وخمر تجري من العيون، ولا تعصر عصراً. فهي صافية نقية، لا تنقطع أبداً. وهم يطلبون منها ما يريدون، ولا صداع في شرابها، ولا ذهاب منها للعقل، كما في خمور الدنيا.

وبعد أن وصف الشراب وصف الطعام، فقال: ﴿وَفَٰكِهَةٍ﴾ معطوف على ﴿بِأَكْوَابٍ﴾؛ أي: يطوف عليهم ولدان بفاكهة كائنة ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾؛ أي: مما يختارونه، ويأخذون خيره، وأفضله من ألوانها. وكلها خيار. والفاكهة: ما يؤكل من الثمار تلذذاً، لا لحفظ الصحة لاستغنائهم عن حفظ الصحة بالغذاء في الجنة، وليس ذلك كقوت الدنيا الذي يتناوله من يضطر إليه. وهو إشارة إلى أنه يتناول المأكولات التي يتنعم بها.

ثم ذكر اللحم الذي هو سيد الإدام، وكانت العرب يتوسعون بلحوم الإبل، ويعز عندهم لحم الطير الذي هو أطيب اللحوم، ويسمعون بها عند الملوك فوعدوها، فقيل: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ﴾؛ أي: ويطوفون عليهم بلحم طير كائن ﴿مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾؛ أي: مما يتمنونه، وتشتهيه أنفسهم مشويًّا أو مطبوخاً. يتناولونها مشتهين لها، لا مضطرين ولا كارهين.

وقرأ الجمهور[2] بجر ﴿وَفَٰكِهَةٍ﴾ ﴿وَلَحْمِ﴾ عطفاً على أكواب. وقرأ زيد بن عليّ، وأبو عبد الرحمن برفعهما على الابتداء، والخبر مقدّر؛ أي: ولهم فاكهة، ولحم طير.

والمعنى: ويطوفون عليهم بألوان من الفاكهة المختلفة المطاعم، يختارون منها ما تميل إليه نفوسهم، وبأنواع من لحوم الطير مما لذ وطاب. فيأخذون منها ما

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

يشتهون، وفيه يرغبون، وفي «الأسئلة المقحمة»: إنما قال: ﴿أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝﴾ فغاير بين اللفظين. فالجواب: لأنَّ الفواكه كما تكون للأكل تكون أيضاً للنظر والشم، وأما لحم الطير فمختلف الشهوات في أكل بعض أجزائه دون بعض.

وبعد أن ذكر طعامهم، وشرابهم أعقبه بذكر نسائهم. لأنَّ الجماع كان أشهى شيء بعدهما. فقال: ﴿و﴾ لهم فيها ﴿حور عين﴾ معطوف[1] على ﴿وِلْدَانٌ﴾، أو مبتدأ محذوف الخبر؛ أي: وفيها أو لهم حور. وهي جمع حوراء، وهي البيضاء أو الشديدة بياض العين، والشديدة سوادها. وعين جمع عيناء. وهي الواسعة الحسنة العين، وهن خلقن من تسبيح الملائكة، كما في «عين المعاني».

والمعنى: أي ولهم فيها نساء بيض، واسعات الأعين، مشرقات الوجوه، تبدو علهين نضرة النعيم. وكأنهن اللالىء صفاء وبهجة. وقرأ الجمهور ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝﴾ برفعهما، وخرج على أن يكون معطوفاً على ﴿وِلْدَانٌ﴾ أو على الضمير المستكن في ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ أو على مبتدأ محذوف هو وخبره، تقديره: لهم هذا كله، وحور عين أو على حذف خبر فقط؛ أي: ولهم حور أو فيها حور. وقرأ السلميّ، والحسن، وعمرو بن عبيد، وأبو جعفر، وشيبة، والأعمش، وطلحة، والمفضل وأبان، وعصمة، والكسائي بجرهما. والنخعيّ ﴿وحير عين﴾ بقلب الواو ياء، وجرهما. والجر عطف على المجرور، أي: يطوف عليهم ولدان بكذا، وكذا، وحور عين. وقيل: هو على معنى: وينعمون بهذا كله، وبحور عين. وقال: الزمخشري: عطفاً على ﴿جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾. كأنه قال: هم في جنات، وفاكهة، ولحم، وحور. انتهى. وهذا فيه بعد وتفكيك كلام مرتبط بعضه ببعض. وهو فهم أعجمي. وقرأ أبي، وعبد الله ﴿وحوراً عيناً﴾ بنصبهما. قالوا: على معنى: ويعطون هذا كله، وحورا عيناً. وقرأ قتادة ﴿وحور عينٍ﴾ بالرفع مضافاً إلى ﴿عين﴾. وابن مقسم بالنصب مضافاً إلى ﴿عين﴾. وعكرمة ﴿وحوراء عيناء﴾ على التوحيد، اسم جنس، وبفتح الهمزة فيهما. فاحتمل أن يكون مجروراً عطفاً على المجرور السابق، واحتمل أن يكون منصوباً كقراءة أبي، وعبد الله ﴿وحوراً عيناً﴾. ورجح أبو عبيد، وأبو حاتم

---

(١) روح البيان.

قراءة الجمهور.

ثم شبههن سبحانه باللؤلؤ المكنون، فقال: ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾ صفة لحور أو حال؛ أي: كائنات كأمثال الدر المخزون في الصدف الذي لم تمسه الأيدي، ولا وقع عليه الغبار، ولم تره الأعين. أو المصون عما يضرُّ به، ويدنسه في الصفاء والنقاء. ولما بالغ في وصف جزائهم بالحسن والصفاء دل على أن أعمالهم كانت كذلك، لأن الجزاء من جنس العمل. فقال: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ مفعول لأجله[1] أي: يفعل بهم ذلك كله جزاء بأعمالهم الصالحة في الدنيا، فما جزاء الإحسان إلا الإحسان. فالمنازل منقسمة على قدر الأعمال. وأما نفس دخول الجنة فبفضل الله ورحمته، لا بعمل عامل. ويجوز أن يكون مصدراً مؤكداً لفعل محذوف؛ أي: يجزون جزاء... إلخ؛ أي:[2] جازاهم ربهم على ما عملوا، وأثابهم بما كسبوا في الدنيا، وزكوا به أنفسهم من صالح الأعمال، ونصبوا له بأداء الفرائض على أتم الوجوه وأكملها، فهم كانوا قوامين في الليل، صوامين في النهار ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾.

وبعد أن وصف النساء وصف حينئذٍ حديثهم، فقال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة ﴿لَغْوًا﴾؛ أي: كلاماً لا ينفع، قاله في «المفردات». واللغو من الكلام: ما لا يعتد به وهو الذي يورد لا عن روية وفكر، فيجري مجرى اللغا. وهو صوت العصافير، ونحوها من الطيور. ﴿وَلَا﴾ يسمعون ﴿تَأْثِيمًا﴾؛ أي: شيئاً منسوباً إلى الإثم، كالشتم أو نسبتهم إلى الإثم بمعنى: لا يقال لهم: أثمتم؛ لأنهم لا يتكلمون بما فيه إثم، كما يتكلم به أهل الدنيا. أو المعنى: لا يأتون تأثيماً؛ أي: ما هو سبب التأثيم من قول أو فعل قبيح. والإثم: اسم للأفعال المبطئة عن الثواب، والجمع آثام.

والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا قِيلًا﴾؛ أي: قولاً ﴿سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ بدل من ﴿قِيلًا﴾ منقطع؛ أي: لكنهم يسمعون فيها قولاً سلاماً سلاماً. ومعنى سماعهم السلام: أنهم يفشون السلام، فيسلمون سلاماً بعد سلام، أو لا يسمع كل من المسلِّم والمسلَّم

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

عليه إلا سلام الآخر بدأ ورداً. وقيل: تسلم عليهم الملائكة، أو يرسل الرب سبحانه بالسلام إليهم.

والمعنى: لا يسمعون فيها من غيرهم كلاماً لغواً ساقطاً، ولا كلاماً يأثم به صاحبه، ولا يقولون كلاماً لغواً ساقطاً، ولا كلاماً يأثمون به لو كانوا في الدنيا. ولكن يقولون كلاماً هو سلام بعضهم على بعض، أو لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قولاً هو سلام الملائكة عليهم أو سلام الرب سبحانه عليهم؛ أي: لا يسمعون اللغو الهراء من الحديث، ولا هجر القول، وما تتقزز منه النفوس الراقية ذات الأخلاق العالية، ولكن يسمعون أطيب السلام، وسامي الكلام مما يستساغ، كما قال سبحانه: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾. وقرىء ﴿سلام سلام﴾ بالرفع. قال مكي: ويجوز الرفع على معنى سلام عليكم مبتدأ وخبر.

وفي الآية[1]: إشارة إلى أن جنات السابقين المقربين صافية عن الكدورات المنغصة لساكنيها، فارغة عن العاملات المعبسة لقاطنيها، لا يقول أهلها إلا مع الحق، ولا يسمعون إلا من الحق، تجلى الحق لهم عن اسمه السلام المشتمل على السلامة من النقائص، والآفات المتضمن للقربات والكرامات.

ولما فرغ سبحانه من ذكر أحوال السابقين، وما أعده لهم من النعيم المقيم ذكر أحوال أصحاب اليمين. فقال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ وهذا شروع في تفصيل ما أجمل عند التقسيم من شؤونهم الفاضلة إثر تفصيل شؤون السابقين. وهو مبتدأ، خبره جملة قوله: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾؛ أي: لا تدري ما لهم من الخير والبركة بسبب فواضل صفاتهم، وكوامل محاسنهم. وقوله: ﴿فِى سِدْرٍ﴾ خبر ثان، أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هم في سدر ﴿مَّخْضُودٍ﴾؛ أي: غير ذي شوك، خال منه، لا كسدر الدنيا. فإن سدر الدنيا مخلوق بشوك، وسدر الجنة بلا شوك، كأنه خضد شوكه؛ أي: قطع، ونزع عنه. فقوله[2]: ﴿سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ إما من باب المبالغة في التشبيه، أو مجاز بعلاقة السببية؛ فإن الخضد سبب لانقطاع الشوك. وقيل: «مخضود»؛ أي: مثنى أغصانه لكثرة حمله، من خضد الغصن إذا ثناه. وهو رطب. فمخضود على هذا الوجه من حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه. وقال الضحاك،

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

ومجاهد، ومقاتل بن حيان: إن السدر المخضود الموقر حملاً. والسدر: شجر النبق. وهو ثمر معروف، محبوب عند العرب، يتخذون من ورقه الحرض. وفي «المفردات»: السدر: شجر قليل الغذاء عند الأكل، وقد يخضد، ويستظل به. فجعل ذلك مثلاً لظل الجنة ونعيمها. قال بعضهم: ليس شيء من ثمر الجنة في غلف كما يكون في الدنيا من الباقلاء وغيره، بل كلها مأكول، ومشروب، ومشموم، ومنظور إليه.

﴿و﴾ في ﴿طلح﴾؛ أي: موز ﴿مَّنضُودٍ﴾؛ أي: مملوء بحمله، وثماره من أسفله إلى أعلاه؛ أي: نضد حمله، وتراكب بعضه على بعض من أسفله إلى أعلاه، ليست له سوق بارزة. وهو شجر الموز. وهو شجر له أوراق كبار، وظل بارد. كما أن أوراق السدر صغار، أو هو أم غيلان. وله أنوار كثيرة منتظمة طيبة الرائحة، تقصد العرب منه النزهة والزينة، وإن كان لا يؤكل منه شيء.

وعن السدي: هو شجر يشبه طلح الدنيا، ولكن له ثمر أحلى من العسل. وعن مجاهد: كان لأهل الطائف واد معجب فيه الطلح والسدر، فقالوا: يا ليت لنا في الجنة مثل هذا الوادي، فنزلت هذه الآية، وقد قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾. وذكر لكل قوم ما يعجبهم، ويحبون مثله. وفضل طلح الجنة وسدرها على ما في الدنيا كفضل سائر ما في الجنة على ما في الدنيا.

﴿و﴾ في ﴿ظل ممدود﴾؛ أي: دائم باق، لا يزول، ولا تنسخه الشمس، لا ينقص، ولا يتفاوت كظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس. والعرب تقول للشيء الذي لا ينقطع: ممدود، كقول لبيد:

غَلَبَ العَزَاءَ وَكَانَ غَيْرَ مُغَلَّبِ ... دَهْرٌ طَوِيلٌ دَائِمٌ مَمْدُودُ

وفي الحديث: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها». وعن ابن عباس رضي الله عنهما: شجرة في الجنة على ساق يخرج إليها أهل الجنة، فيتحدثون في أصلها، ويتذكر بعضهم، ويشتهي لهو الدنيا، فيرسل الله تعالى ريحاً من الجنة، فتحرك تلك الشجرة بكل لهو كان في الدنيا.

وقال في «كشف الأسرار»: ويحتمل أن الظل عبارة عن الحفظ. تقول: فلان

في ظل فلان أي: في كنفه وحفظه ورعايته. لأنه لا شمس في الجنة. انتهى. يقول الفقير[1]: بل المراد من الظل: الراحة. كما في قوله تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾. لأنّه إنما يجلس المرؤ في الظل للاستراحة، وكانت العرب يرغبون فيه لقلّته في بلادهم، وغلبة حرارة الشمس. ومنه قوله ﷺ: «السلطان ظل الله في أرضه، يأوي إليه كل مظلوم» أي: يستريح عند عدله. ومنه: قولهم: مدَّ الله ظلاله؛ أي: ظلال عدله ورأفته، حتى يصل أثر الاستراحة إلى الناس كلهم.

﴿و﴾ في ﴿ماء مسكوب﴾؛ أي: منصب، يسكب لهم، ويصب عليهم، يجري أينما شاؤوا، وكيفما أرادوا بلا تعب، لا ينقطع عنهم أبداً. فهو مسكوب يسكبه الله سبحانه في مجاريه، أو مصبوب سائل، يجري على وجه الأرض في غير أخدود. يعني: كون الماء مسكوباً كثيراً إما عبارة عن كونه ظاهراً مكشوفاً غير مختص ببعض الأماكن والكيفيات أو عن كونه جارياً. وأكثر ماء العرب من الآبار والبرك، فلا يسكب. فلا يصلون إلى الماء إلا بالدلو والرشاء، فوعدوا بالماء الكثير الجاري، حتى يجري في الهواء على حسب الاشتهاء. كأنه مثل حال السابقين بأقصى ما يتصور لأهل المدن، وحال أصحاب اليمين بأكمل ما يتصور لأهل البواد إيذاناً بالتفاوت بين الحالين. فكما أنَّ بينهما تفاوتاً فكذا بين حاليهما.

﴿و﴾ في ﴿فاكهة كثيرة﴾ بحسب الأنواع، والأجناس، والألوان، والطعوم والروائح. دائمة في جميع الأوقات ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ﴾ في وقت من الأوقات كما تنقطع فواكه الدنيا في بعض الأوقات. ﴿و﴾ مباحة لهم ﴿لا ممنوعة﴾ عمن أراد تناولها بوجه من الوجوه، كبعد المتناول، وانعدام ما يشتري به، وشوك في الشجر يؤذي من يقصد تناولها، وحائط يمنع الدخول إليها، ونحوها من المحظورات. بل هي معدة لمن أرادها، لا يحول بينه وبينها حائل. وفي الحديث: «ما قطعت ثمرة من ثمار الجنة إلا أبدل الله مكانها ضعفين». وقرىء ﴿فاكهة كثيرة﴾ برفعهما؛ أي: وهناك فاكهة كثيرة.

﴿و﴾ في ﴿فرش﴾ جمع فراش. وهو ما يبسط، ويفرش. وقرأ الجمهور[2] بضم الراء، وأبو حيوة بسكونها؛ أي: هم في بسط ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾؛ أي: مرفوع بعضها

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

فوق بعض أو مرفوعة على الأسرة أو رفيعة القدر أو مرتفعة وارتفاعها كما بين السماء والأرض. وهو مسيرة خمس مئة عام. والظاهر: أنَّ الفراش هو ما يفترش للجلوس عليه، والنوم. وقال أبو عبيدة، وغيره: إنَّ الفرش هنا كناية عن النساء اللواتي في الجنة؛ لأن المرأة يكنى عنها بالفراش، وباللباس وبالإزار. وفي الحديث: «الولد للفراش». فسمى المرأة فراشاً. وارتفاعهن كونهن على الأرائك، أو كونهن مرتفعات القدر في الحسن، والكمال. دل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ٣٥﴾؛ لأن الضمير عائد على الفرش في قول أبي عبيدة، إذ هن النساء عنده. وعلى مادل عليه الفرش إذا كان المراد بالفرش ظاهر ما يدل عليه لفظ الفرش من الملابس التي تفرش، ويضطجع عليها. وهو النساء؛ أي: ابتدأنا خلقهن ابتداء جديداً من غير ولادة إبداء وإعادة. أما الإبداء فكما في الحور العين؛ لأنهن أنشأهن الله في الجنة من غير ولادة. وأمّا الإعادة فكما في نساء الدنيا المقبوضة عجائز. وفي الحديث: «هنّ اللواتي قبضن في دار الدنيا عجائز شمطاً» جمع شمطاء. والشمط: بياض شعر الرّأس يخالطه سواد. «رُمْصاً» جمع رمصاء. والرمص بالتحريك: وسخ يجتمع في الموق. جعلهن الله تعالى بعد الكبر أتراباً على ميلاد واحد في الاستواء، كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً. فلما سمعت عائشة رضي الله عنها ذلك قالت: وَا وجعاه. فقال النبي ﷺ: «ليس هناك وجعٌ». وقد فعل الله في الدنيا بزكريا عليه السلام، فقال تعالى: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾. سئل الحسن عن ذلك الصلاح، فقال: جعلها شابة بعد أن كانت عجوزاً، وولوداً بعد أن كانت عقيماً.

وذلك قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ﴾ بعد أن كن عجائز ثيبات ﴿أَبْكَارًا﴾؛ أي: شواب أبكاراً؛ أي: عذارى، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان. جمع بكر. والمصدر البكارة بالفتح. وسميت التي لم تفتض بكراً اعتباراً بالثيب لتقدمها عليها فيما يراد له النساء. قال سعدي المفتي: إن أريد بالإنشاء معنى الإبداء، فالجعل بمعنى الخلق، وقوله: ﴿أَبْكَارًا﴾ حال. وإن أريد به: الإعادة فهو بمعنى التصيير، و﴿أَبْكَارًا﴾ مفعوله الثاني. قال بعضهم: دل قوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ٣٦﴾ على أن المراد بهن: نساء الدنيا؛ لأن المخلوقة ابتداء معلوم أنها بكر. وهن أفضل، وأحسن من حور الجنة؛ لأنهن عملن الصالحات في الدنيا، بخلاف الحور. وعن الحسن رحمه الله تعالى عنه: قالت عجوز عند عائشة رضي الله عنها من بني عامر: يا رسول الله أدع الله أن

يدخلني الجنة، فقال: «يا أم فلان، إن الجنة لا يدخلها عجوز، فولت وهي تبكي، فقال: النبي ﷺ: أخبروها أنها ليست يومئذٍ بعجوز»، وقرأ الآية: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦﴾. وهو حديث مرسل، رواه البغوي بسنده.

﴿عُرُبًا﴾ جمع عروب، كرسل جمع رسول. وهي المتحببة إلى زوجها، الحسنة التنقل. وفي «المفردات»: امرأة عروبة؛ أي: معربة بحالها عن عفتها، ومحبة زوجها، من أعرب إذا بين. وفي بعض التفاسير: ﴿عُرُبًا﴾ كلامهن عربي. وقال زيد بن أسلم: هي الحسنة الكلام.

وقرأ حمزة[1]، وناس منهم: شجاع، وعباس، والأصمعي عن أبي عمرو، وناس منهم: خارجة، وكردم، وأبو خليد عن نافع، وناس منهم: أبو بكر، وحمّاد وأبان عن عاصم بسكون الراء. وهي لغة تميم، وقرأ باقي السبعة بضمها. وهما لغتان في جمع فعول.

﴿أَتْرَابًا﴾؛ أي: أقراناً وأمثالاً في الشكل، والقد. والأتراب[2]: هن اللواتي على ميلاد واحد، وسن واحد. وقال مجاهد: ﴿أَتْرَابًا﴾ أمثالاً وأشكالاً. وقال السدي: أتراباً في الأخلاق، لا تباغض بينهن، ولا تحاسد. جمع ترب. وهي اللدة، والسن، ومن ولد معك. والمعنى؛ أي: مستويات في سن بنت ثلاث وثلاثين سنة، وكذا أزواجهن. والقامة ستون ذراعاً في سبعة أذرع عل قامة أبيهم آدم، شباب جرد مكحولون أحسنهم كالقمر ليلة البدر، وآخرهم كالكوكب الدري في السماء، يبصر وجهه في وجهها، وتبصر وجهها في وجهه. لا يبزقون، ولا يتمخطون، وما كان فوق ذلك من الأذى فهو أبعد. وفي الحديث: «إنَّ الرجل ليفتض في الغداة سبعين عذراء ثم ينشئهن الله أبكاراً». وفي الحديث: «أدنى أهل الجنة الذي له ثمانون ألف خادم، واثنتان وسبعون زوجة، وينصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية إلى صنعاء». والجابية بالجيم: بلد بالشام. وصنعاء: بلد باليمن، كثيرة الأشجار والمياه، تشبه دمشق.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

وقوله: ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾ أعاد ذكره للتأكيد والتحقيق. وهو متعلق[1] بـ ﴿أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾ أو بـ ﴿جعلنا﴾ أو بـ ﴿أَتْرَابًا﴾.

والمعنى: أنَّ الله سبحانه أنشأهنّ لأجلهم أو خلقهن لأجلهم أو هن مساويات لأصحاب اليمين في السن، أو هو خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هن لأصحاب اليمين.

وقوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ راجع إلى قوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾. وهو خبر مبتدأ محذوف.

والمعنى: هم ـ أي: أصحاب اليمين ـ جماعة، أو أمة أو فرقة، أو قطعة من الأوّلين؛ أي: من الأمم السالفة من لدن آدم إلى نبيّنا محمد ﷺ، وجماعة أو أمّة أو فرقة أو قطعة من الآخرين؛ أي: من أمة محمد ﷺ.

وقال أبو العالية، ومجاهد، وعطاء بن أبي رباح، والضحاك: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: من سابقي هذه الأمّة، ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾؛ أي: من أخرى هذه الأمة. وفي الحديث[2]: «هم جميعاً من أمتي»؛ أي: الثلتان من أمتي. فعلى هذا التابعون بإحسان، ومن جرى مجراهم ثلة أولى. وسائر الأمة ثلة أخرى إلى آخر الزمان. وإنما لم يقل في حق هؤلاء: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ كما قال ذلك في حقّ السابقين إشارة إلى أن عملهم لقصوره عن عمل السابقين لم يعتبر اعتباره.

وحاصل معنى الآيات[3]: هم ـ أي: أصحاب اليمين ـ يتمتعون بجنات فيها السدر الذين قطع شوكه، لا كسدر البرية في الدنيا، وفيها الموز الذي مليء ثمراً، فلا تظهر له سيقان، وفيها ظل ظليل يقيهم شديد الحر، ووهج الشمس، وفيها ماء مصبوب لا يحتاج أهلها إلى نصب وتعب للحصول عليه، وفيها ضروب من الفاكهة التي لا تنقطع أبداً، ولا تمتنع عنهم في وقت، فهم يجدونها متى شاؤوا، وهم يجلسون على فرش وثيرة عالية وطيئة، لا تتعب الجالس عليها.

ثم ذكر ما يتمتعون به من النساء، فقال: إنا أعددناهن نساء أبكاراً متحببات

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

إلى أزواجهن، إذ هن يحسن التبعل كلهن في سن واحدة، لا تمتاز واحدة عن أخرى، وأعطيناهن لأصحاب اليمين جماعة من مؤمني الأمم السالفة، وجماعة من مؤمني أمة محمد ﷺ.

ولما فرغ الله سبحانه مما أعده لأصحاب اليمين.. شرع في ذكر أصحاب الشمال، وما أعده لهم. فقال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ وهم الكفار لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾. وهو مبتدأ، خبره جملة قوله: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ والاستفهام فيه للإنكار؛ أي: لا تدري ما لهم من الشر، وشدة الحال يوم القيامة. هم ﴿فِى سَمُومٍ﴾؛ أي: في حر نار تنفذ في المسام. وهي ثقب البدن، وتحرق الأجساد والأكباد. وهو إما خبر ثان لأصحاب الشمال أو خبر مبتدأ محذوف. وفي «القاموس»: السموم: الريح الحارة التي تدخل في مسام البدن، وتكون غالباً في النهار. والحرور: الريح الحارة بالليل، وقد تكون بالنهار. انتهى ﴿و﴾ في ﴿حميم﴾؛ أي: في ماء حار بالغ نهاية الحرارة. ﴿و﴾ في ﴿ظل من يحموم﴾؛ أي: من دخان أسود بهيم. فإن اليحموم: الدخان، والأسود من كل شيء كما في «القاموس». وهو يفعول من الحمة بالضم. وهو الفحم أو من الأحم وهو الأسود، كما سيأتي. تقول العرب: أسود يحموم إذا كان شديد السواد. قال الضحاك: النار سوداء، وأهلها سود، وكل شيء فيها أسود. ولذا لا يكون في الجنة الأسود إلا الخال، وأشفار العين، والحاجب.

والمعنى: أنهم يفزعون إلى الظل، فيجدونه ظلًّا من دخان جهنم شديد السواد.

يقول الفقير[1]: ففيه تحذير من شرب الدخان الشائع في هذه الأعصار. فإنه يرتفع حين شربه، ويكون كالظل فوق شاربه مع ما لشربه من الغوائل الكثيرة ليس هذا موضع ذكرها، فنسأل الله العافية لمن ابتلي به. إذ هو مما تستخبثه الطباع السليمة، وهو حرام كما عليه أكثر العلماء، إلا من شذَّ وعاند.

ثم وصف هذا الظل بقوله: ﴿لَّا بَارِدٍ﴾ كسائر الظلال التي تكون باردة، بل هو

---

(١) روح البيان.

حارّ؛ لأنه من دخان نار جهنم. ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾؛ أي[1]: ولا نافع من أذى الحر لمن يأوي إليه نفى بذلك ما أوهم الظل من الاسترواح. يعني: أنه سماه ظلًّا، ثم نفى عنه. وصيغة البرد والكرم الذي عبر به عن دفع أذى الحر لتحقيق أنه ليس بظل. والكرم صفة لكل ما يرضي، ويجري في بابه. والظل يقصد لفائدتين: لبرودته، ودفع أذى الحر، وإن لم تحصل الاستراحة بالبرد لعدمه. كما في البيوت المسدودة الأطراف، بحيث لا يتحرك فيها الهواء؛ فإن من يأوي إليها يتخلص بها من أذى حر الشمس، وإن لم يستروح ببردها. وفيه تهكم بأصحاب المشأمة، وأنهم لا يستأهلون للظل البارد والكريم الذي هو لأضدادهم في الجنة. قال سعيد بن المسيب: ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾؛ أي: ليس فيه حسن منظر، وكل ما لا خير فيه فليس بكريم. وقال الضحاك: ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾؛ أي: ولا عذب. وقرأ الجمهور[2] ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ بجرهما، وابن أبي عبلة برفعهما، أي: لا هو بارد ولا كريم.

ومعنى الآيات[3]: أي أصحاب الشمال في حال لا يستطاع وصفها، ولا يقادر قدرها من نكال ووبال وسوء منقلب. ثم فسر هذا المبهم بقوله: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ...﴾ إلخ؛ أي: هم في حرٍّ ينفذ في المسامّ، وماء متناه في الحرارة، وظل من دخان أسود ليس بطيب الهبوب ولا حسن المنظر؛ لأنه دخان من سعير جهنم، يؤلم من يستظل به.

قال ابن جرير: العرب تتبع هذه اللفظة ﴿الكريم﴾ في النفي، فيقولون: هذا الطعام ليس بطيب ولا كريم، وهذا اللحم ليس بسمين ولا كريم، وهذه الدار ليست بواسعة ولا كريمة، اهـ. وذكر السموم الذي هو الريح المتعفن يتحرك من جانب إلى جانب، فإذا شم الإنسان منه يفسد قلبه بسبب العفونة، ويقتل الإنسان. والحميم: الذي هو الماء الحار، ولم يذكر النار إشارة بالأدنى إلى الأعلى؛ فإن هواءهم إذا كان سموماً، وماءهم الذي يستغيثون به حميماً، مع أن الهواء والماء من أبرد الأشياء وأنفعها، فما ظنك بنارهم؟. فكأنه قال: إن أبرد الأشياء لديهم أحرها، فما بالك بحالهم مع أحرها؟. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿انطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

﴿٢٩ انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب ٣٠ لا ظليل ولا يغني من اللهب ٣١ إنها ترمي بشرر كالقصر ٣٢ كأنه جمالت صفر ٣٣ ويل يومئذ للمكذبين ٣٤﴾.

والخلاصة[١]: أنَّ السموم تضربهم فيعطشون، وتلتهب تارةً أحشاؤهم فيشربون الماء فيقطع أمعاءهم، ويريدون الاستظلال بظل فيكون ظل اليحموم.

ثم ذكر سبحانه أعمالهم التي استحقوا بها هذا العذاب. فقال: ﴿إنهم﴾؛ أي: إن أصحاب الشمال ﴿كانوا﴾ في الدنيا ﴿قبل ذلك﴾؛ أي: قبل ما ذكر من سوء العذاب النازل بهم ﴿مترفين﴾ أي[٢]: منعمين بأنواع النعم من المآكل، والمشارب، والمساكن الطيبة، والمقامات الكريمة، منهمكين في الشهوات. فلا جرم عذبوا بنقائضها. يقال: ترف كفرح، تنعم وأترفته النعمة أطغته وأنعمته، والمترف كمكرم المتروك يصنع ما يشاء فلا يمنع، كما في «القاموس». وهذه الجملة تعليل لما قبلها ﴿وكانوا يصرون﴾ ويداومون ويواظبون ﴿على الحنث العظيم﴾؛ أي: على الذنب العظيم الذي هو الشرك. ومنه: قولهم: بلغ الغلام الحنث؛ أي: الحلم، ووقت المؤاخذة بالذنب. وحنث في يمينه خلاف برَّ فيها. وقال بعضهم: الحنث هنا: الكذب؛ لأنهم كانوا يحلفون بالله مع شركهم لا يبعث الله من يموت. يقول الفقير: يدل على هذا ما يأتي من قوله: ﴿ثم إنكم أيها الضالون المكذبون ٥١﴾.

والحكمة في ذكر سبب عذابهم ـ مع أنه لم يذكر في أصحاب اليمين سبب ثوابهم، فلم يقل: إنهم كانوا قبل ذلك شاكرين مذعنين ـ: التنبيه على أن ذلك الثواب منه تعالى فضل، لا تستوجبه طاعة مطيع، وشكر شاكر، وإن العقاب منه تعالى عدل. فإذا لم يعلم سبب العقاب يظن أن هناك ظلماً.

﴿وكانوا﴾ مع شركهم ﴿يقولون﴾ لغاية عتوّهم وعنادهم ﴿أإذا متنا﴾ والهمزة للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف هو متعلق ﴿إذا﴾، دل عليه قوله: ﴿أإنا لمبعوثون﴾؛ أي: أنبعث إذا متنا. ﴿وكنا ترابا وعظاما﴾؛ أي: أنبعث إذا كان بعض أجزائنا من اللحم والجلد تراباً، وبعضها عظاماً نخرة بالية. وتقديم[٣] التراب

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

لعراقته في الاستبعاد، وانقلابه من الأجزاء البادية. و﴿إذا﴾ ممحضة للظرفية، والعامل فيها ما دل عليه قوله سبحانه: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، لا نفسه. لأن ما بعد «إنَّ، واللام، والهمزة» لا يعمل فيما قبلها. وهو البعث، كما مرَّ تقديره آنفاً. وهو المرجع للإنكار والاستبعاد، وتقييده بالوقت المذكور ليس لتخصيص إنكاره به فإنهم منكرون للإحياء بعد الموت، وإن كان البدن على حاله، بل لتقوية الإنكار للبعث بتوجيهه إليه في حالة منافية بالكلية. وليس مدار إنكارهم كونهم ثابتين في المبعوثية بالفعل في حال كونهم تراباً وعظاماً، بل كونهم بعرضية ذلك واستعدادهم له، ومرجعه إلى إنكار البعث بعد تلك الحالة.

والهمزة في قوله: ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾ للإنكار والاستبعاد أيضاً، داخلة على محذوف، والواو: للعطف على المستكن في ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾ لوقوع الفصل بينهما بالهمزة، والتقدير: ألمبعوثون نحن وآباؤنا الأولون؟.

والمعنى: أن بعث آبائهم الأولين أبعد لتقدم موتهم. وقرىء[1] ﴿وآبائنا﴾ بلا همزة. وقرأ نافع، وابن عامر «أو» بالسكون. وقد سبق مثله، ذكره البيضاوي.

ومعنى الآيات[2]: أي إنهم كانوا في الدنيا منعمين بألوان من المآكل، والمشارب، والمساكن الطيبة، والمقامات الكريمة، منهمكين في الشهوات، فلا جرم عذبوا بنقائضها، إلى أنهم كانوا ينكرون هذا اليوم، ويقولون: أنبعث نحن وآباؤنا الأولون، ونعود كرة أخرى، وقد صرنا أجساداً بالية، وعظاماً نخرة.

والخلاصة: أنهم كانوا يمتعون بوافر النعم، وجزيل المنن. وهم مع ذلك أصروا على كفرانهم، ولم يشكروا أنعم الله عليهم، فاستحقوا عذاب ربهم، وكانوا مكذبين بهذا اليوم، مستبعدين وقوعه، وركبوا رؤوسهم فلم يلووا على شيء، وهاموا في أودية الضلالة، وساروا في سبيل الغواية، ولا رقيب ولا حسيب.

وقد جرت سنّة القرآن أن يذكر أسباب العقاب[3]، ولا يذكر أسباب الثواب؛ لأنَّ الثواب فضل، والعقاب عدل، والفضل ذكر سببه أو لم يذكر لا يتوهم في

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) المراغي.

المتفضل به نقص ولا ظلم، أما العدل إن لم يعلم سببه فربما يظن أنه ضرب من الظلم، كما مر آنفاً في بيان الحكمة، وقد ذكروا لاستبعاد هذا البعث أسباباً:

١ ـ الحياة بعد الموت.

٢ ـ طول العهد بعد الموت، حتى صارت اللحوم تراباً، والعظام رفاتاً.

٣ ـ بلغ الأمر منهم أن قالوا متعجبين: أو يبعث آباءنا الأولون؟.

فرد الله سبحانه عليهم كل هذا، وأمر رسوله أن يجيبهم ويرد عليهم استبعادهم، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ردّا لإنكارهم، وتحقيقاً للحق. ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ في الزمن من الأمم الماضية ﴿وَٱلْآخِرِينَ﴾ فيه الذين أنتم من جملتهم، وفي تقديم[1] ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مبالغة في الرد، حيث كان إنكارهم لبعث آباءهم أشد من إنكارهم لبعثهم مع مراعاة الترتيب الوجودي. ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ بعد الموت، وكأنه ضمن الجمع معنى السوق، فعدى تعديته بإلى. وقرىء ﴿لمجمعون﴾، ولذا قال: ﴿إلى ميقات يوم معلوم﴾؛ أي: إلى ما وقتت به الدنيا، وحدت من يوم معلوم لله، معين عنده. وهو يوم القيامة. والإضافة بمعنى من، كخاتم فضة. والميقات هو الوقت المضروب للشي ينتهي عنده أو يبتدأ فيه، ويوم القيامة ميقات تنتهي الدنيا عنده، وأول جزء منه. فالميقات الوقت المحدود، وقد يستعار للمكان. ومنه: مواقيت الإحرام للحدود التي لا يتجاوزها من يريد دخول مكة إلا محرماً.

والمعنى[2]: أي أجبهم أيها الرسول الكريم قائلاً لهم: إن الأولين الذين تستبعدون بعثهم أشد الاستبعاد، والآخرين الذين تظنون أن لن يبعثوا ليجمعون في صعيد واحد في ذلك اليوم المعلوم، ولا شك أن اجتماع عدد لا يحصي كثرة أعجب من البعث نفسه. ونحو الآية قوله تعالى في سورة النازعات: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾.

ثم بين ما يلقاه أولئك المكذبون من الجزاء في مآكلهم، ومشاربهم فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ الخطاب[3] لأهل مكة، وأضرابهم، وهو معطوف على ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، داخل

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

تحت القول. و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي زماناً أو رتبة. ﴿أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ﴾ عن الحق والهدى ﴿ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾؛ أي: البعث. ووصفهم بوصفين قبيحين. وهما الضلال عن الحق، والتكذيب له. ﴿لَآكِلُونَ﴾ بعد البعث، والجمع، ودخول جهنم ﴿مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ من الأولى لابتداء الغاية، والثانية لبيان الشجر. وتفسيره؛ أي: مبتدئون الأكل من شجر هو الزقوم. وهو شجر كريه المنظر والطعم، حار في اللمس، منتن في الرائحة، وهي الشجرة الملعونة في القرآن، ويقال: سدرة المنتهى، أغصانها نعيم لأهل الجنة، وأصولها زقوم لأهل النار. فهي مبدأ اللطف، والقهر، والجمال، والجلال، ولا أصل لهذا الكلام، ويجوز[1] أن تكون «من» الأولى مزيدة، والثانية بيانية، وأن تكون الثانية مزيدة والأولى للابتداء.

﴿فَمَالِـُٔونَ﴾ يقال: ملأ الإناء فهو مملوء، من باب قطع، والملاء بالكسر: مقدار ما يأخذ الإناء إذا امتلأ. ﴿مِنْهَا﴾؛ أي: من تلك الشجرة. والتأنيث باعتبار المعنى. ﴿ٱلْبُطُونَ﴾؛ أي: بطونكم لما يلحقكم من شدة الجوع أو بالقسر. وفيه[2] بيان لزيادة العذاب، وكماله؛ أي: لا يكتفى منكم بنفس الأكل كما يكتفي من يأكل الشيء تحلة القسم بمسمى الأكل، بل تلزمون بأن تملؤوا منها البطون؛ أي: يملأ كل واحد منكم بطنه أو بطون الأمعاء، والأول أظهر، والثاني أدخل في التعذيب.

﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على شجر الزقوم؛ أي: عقب ذلك بلا ريث لعطشكم الغالب. وتذكير الضمير هنا باعتبار لفظ الشجر؛ لأنه يذكر ويؤنث أو عائد إلى الزقوم. ويجوز[3] أن يعود إلى الأكل المدلول عليه بقوله: ﴿لَآكِلُونَ﴾؛ أي: فشاربون على الزقوم عقب أكله ﴿مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾؛ أي: من الماء الحار البالغ الغاية في الحرارة. وقرىء ﴿من شجرة﴾ بالإفراد. ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾؛ أي: شرباً كشرب الإبل العطاش التي لا تروى لداء أصابها. وهذه الجملة كالتفسير والبيان لما قبلها؛ أي: لا يكون شربكم شرباً معتاداً، بل يكون مثل شرب الهيم. وهي الإبل التي بها الهيام، وهو داء[4] يصيبها، يشبه الاستسقاء فتشرب ولا تروي إلى أن تموت أو تسقم سقماً شديداً، والهيم: جمع أهيم وهيماء، كحمر وأحمر وحمراء. فأصله:

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.
(٤) روح البيان.

هيم بضم الهاء بوزن حمر، فقلبت الضمة كسرة لتصح الياء، فصار نظير بيض. قال قيس بن الملوح:

يُقَالُ بِهِ دَاءُ ٱلْهُيَامِ أَصَابَهُ   وَقَدْ عَلِمَتْ نَفْسِيْ مَكَانَ شِفَائِيَا

وقيل: جمع هائم وهائمة، وجمع فاعل على فعل كباذل وبذل، عائذ وعوذ شاذ. وقال الضحاك[1]، وابن عيينة، والأخفش، وابن كيسان: الهيم: الأرض السهلة ذات الرمل.

والمعنى عليه: أنهم يشربون كما تشرب هذه الأرض الماء، ولا يظهر له فيها أثر.

ومعنى هذا الكلام[2]: أنه يسلط عليهم من الجوع والتهاب النار في أحشائهم ما يضطرهم إلى أكل الزقوم الذي هو كالمهل. فإذا ملؤوا منه بطونهم، وهو في غاية الحرارة، والمرارة سلط عليهم من العطش ما يضطرهم إلى شرب الحميم الذي يقطع أمعاءهم، فيشربونه شرب الإبل العطاش. وفيه بيان لزيادة العذاب أيضاً؛ أي: لا يكون شربكم أيها الضالون كشرب من يشرب ماء حاراً منتناً، فإنه يمسك عنه إذا وجده مؤلماً معذباً بخلاف شربكم، فإنكم تلزمون بأن تشربوا منه مثل ما يشرب الجمل الأهيم، فإنه يشرب ولا يروى.

﴿هَٰذَا﴾ الذي ذكر من الزقوم والحميم أوّل ما يلقونه من العذاب ﴿نُزُلُهُمْ﴾؛ أي: رزقهم المعدّ لهم؛ أي: كالنزل الذي يعد للنازل مما حضر مكرمة له. ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي: يوم الجزاء. فإذا كان ذلك نزلهم فما ظنك بحالهم بعد ما استقر لهم القرار، واطمأنت بهم الدار في النار؟. وفيه من التهكم بهم، والتوبيخ لهم ما لا يخفى، كما في قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأن ما يعد لهم في جهنم ليس مكرمة لهم، كما قال:

وَكُنَّا إِذَا ٱلْجَبَّارُ بِٱلْجَيْشِ ضَافَنَا   جَعَلْنَا ٱلْقَنَا وَٱلْمُرْهَفَاتِ لَهُ نُزُلاَ

والجملة مسوقة من جهته تعالى بطريق الفذلكة، مقررة لمضمون الكلام الملقن غير داخلة تحت القول.

---

(١) الشوكاني.   (٢) روح البيان.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾. وقرأ عبد الله ﴿من شجرة﴾، كما مرت الإشارة إليه. والضمير في قوله: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا﴾ عائد على شجر. إذ هو اسم جنس يؤنث ويذكر. وعلى قراءة عبد الله فهو واضح. ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ﴾ قال الزمخشري: ذكر على لفظ الشجر كما أنَّث على المعنى في ﴿مِنْهَا﴾، قال: ومن قرأ ﴿من شجرة﴾ فقد جعل الضميرين للشجرة، وإنما ذكر الثاني على تأويل الزقوم؛ لأنه يفسرها، وهي في معناه. وقال ابن عطية: الضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ عائد على المأكول أو على الأكل، انتهى، فلم يجعله عائداً على شجر. قال الزمخشري: فإن قلت[2]: كيف يصح عطف الشاربين على الشاربين وهما لذوات متفقة، وصفتان متفقتان، فكان عطفاً للشي على نفَسه؟

قلت: ليستا بمتفقتين من حيث كونهم شاربين للحميم على ما هو عليه من تناهي الحرارة، وقطع الأمعاء أمر عجيب، وشربهم له على ذلك كما تشرب الهيم الماء أمر عجيب أيضاً، فكانتا صفتين مختلفتين، انتهى.

والفاء تقتضي التعقيب في الشربين، وأنهم أوّلاً لمَّا عطشوا شربوا من الحميم ظنًّا أنه يسكن عطشهم، فازداد العطش بحرارة الحميم، فشربوا بعده شرباً لا يقع به ري أبداً، وهو مثل شرب الهيم، فهما شربان من الحميم، لا شرب واحد، اختلفت صفتاه فعطف، والمقصود الصفة، والمشروب منه في ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ محذوف لفهم المعنى، تقديره: فشاربون منه شرب الهيم.

وقرأ نافع وعاصم وحمزة[3]: ﴿شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ بضم الشين. وهو مصدر سماعي، وقيل: اسم لما يشرب. وقرأ مجاهد، وأبو عثمان النهدي بكسرها. وهو بمعنى المشروب اسم لا مصدر، كالطحن والري، وقرأ الأعرج، وابن المسيب، وحبيب بن الحبحاب، ومالك بن دينار، وباقي السبعة بفتحها. وهو مصدر مقيس. وقرأ الجمهور:[4] ﴿نُزُلُهم﴾ بضمتين. وقرأ ابن محيصن، وخارجة عن نافع، ونعيم، ومحبوب، وأبو زيد، وهارون، وعصمة، وعباس كلهم عن أبي عمرو بضم النون وسكون الزاي.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الكشاف.

(٣) البحر المحيط.

(٤) البحر المحيط.

ومعنى الآيات: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ...﴾ إلخ؛ أي[1]: أيها الذين ضللتم فأصررتم على الذنب العظيم؛ إذ لم توحدوا الله سبحانه، ولم تفعلوا ما يوجب تعظيمه. ثم كذبتم رسله، فأنكرتم البعث والجزاء في هذا اليوم، إنكم لآكلون من شجر الزقوم فمالئون منها بطونكم، فشاربون بعد ذلك من ماء حار، لغلبة العطش عليكم، ولكنه شرب لا يشفي الغليل، ومن ثم تشربون، ولا ترتوون فكأنكم الإبل التي أصيبت بداء الهيام، فلا يروي لها الماء غليلاً، ثم بين أنه ليس هذا كل العذاب، بل هو أوله وقطعة منه. فقال: هذا الزقوم المأكول، والحميم المشروب أول الضيافة التي تقدم لهم، كما يقدم للنازل مما حضر. فما بالك بهم بعد ما يستقر بهم المقام في الدار؟.

وفي الآية: إشارة إلى إفراط النفس والهوى في شرب ماء حميم الجهل والضلال، وفي أكل زقوم المشتهيات المورثة للوبال، ولغاية حرصها لا تزيد إلا جوعاً وعطشاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب.

الإعراب

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا (٦)﴾.

﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ فعل، وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إِذَا﴾، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب المحذوف، تقديره: إذا وقعت الواقعة وقامت القيامة تكون يومئذٍ الأهوال الهائلة، والفظائع المختلفة، وجملة ﴿إِذَا﴾ الشرطية مستأنفة، وفي إعراب ﴿إِذَا﴾ هنا أوجه:

١ ـ إنها ظرف محض ليس فيها معنى الشرط، والعامل فيها ما في ليس من معنى النفي، كأنّه قيل: ينتفى التكذيب بوقوعها إذا وقعت، وعليه الزمخشري. وقد ردوا عليه بما لا يسعه كتابنا.

٢ ـ إن العامل فيها اذكر مقدراً.

---

(١) المراغي.

٣ ـ إنها شرطية والعامل فيها الفعل الذي بعدها ويليها وهو اختيار أبي حيان.

٤ ـ إنها شرطية وجوابها مقدر؛ أي: إذا وقعت الواقعة كان كيت وكيت. وهو العامل فيها، وعليه إعرابنا السابق.

٥ ـ إنها مبتدأ، و﴿إِذَا رُجَّتِ﴾ خبرها. وهذا على القول: بأنها تتصرف.

٦ ـ إنها ظرف لـ ﴿خَافِضَةٌ﴾، ﴿رَّافِعَةٌ﴾. قاله أبو البقاء.

٧ ـ إنها ظرف لـ ﴿رُجَّتِ﴾، و﴿إِذَا﴾ الثانية إما بدل من الأولى أو تكرير لها.

٨ ـ إن العامل فيها ما دل عليه قوله: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾؛ أي: إذا وقعت بانت أحوال الناس فيها.

٩ ـ إن جواب الشرط قوله: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾.

١٠ ـ إنها صلة؛ أي: وقعت الواقعة مثل: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾، و﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾. وهو كما يقال: قد جاء الصوم؛ أي: دنا واقترب، قاله الجرجاني. ﴿لَيْسَ﴾ فعل ماض ناقص، ﴿لِوَقْعَتِهَا﴾ خبرها مقدم، واللام بمعنى في على تقدير مضاف، و﴿كَاذِبَةٌ﴾ اسمها مؤخر، و﴿كَاذِبَةٌ﴾ صفة لموصوف محذوف؛ أي: ليس نفس كاذبة توجد في وقت وقوعها. وجملة ﴿لَيْسَ﴾ في محل النصب حال من الواقعة؛ أي: إذا وقعت الواقعة حالة كونها موصوفة بعدم وقوع كاذبة في وقت وقوعها تكون الأهوال الهائلة. ﴿خَافِضَةٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هي خافضة لأناس، ﴿رَّافِعَةٌ﴾ خبر ثان لذلك المحذوف. والجملة الاسمية في محل النصب، حال ثانية من الواقعة؛ أي: حالة كونها خافضة لأناس، رافعة لآخرين. ﴿إِذَا رُجَّتِ﴾ ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾ فعل مغير الصيغة، ونائب فاعل، ﴿رَجًّا﴾ مفعول مطلق. و﴿إِذَا﴾ يجوز أن تكون بدلاً من ﴿إِذَا﴾ الأولى، وجوابها محذوف كالأولى أو تأكيد لها. ويجوز أن تكون ظرفاً محضاً متعلقاً بـ ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾؛ أي: تخفض وترفع وقت رج الأرض، وبس الجبال. ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ﴾ فعل، ونائب فاعل، معطوف على ﴿رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾، ﴿بَسًّا﴾ مفعول مطلق، ﴿فَكَانَتْ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿كانت﴾ فعل ناقص، واسمها ضمير يعود على الجبال، ﴿هَبَآءً﴾ خبرها، ﴿مُّنۢبَثًّا﴾ صفة ﴿هَبَآءً﴾. وجملة كان معطوفة على جملة ﴿بست الجبال﴾.

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝٩ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝١٠ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾.

﴿وَكُنتُمْ﴾ الواو: عاطفة، ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿أَزْوَاجًا﴾ خبرها، ﴿ثَلَاثَةً﴾ صفة ﴿أَزْوَاجًا﴾. والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ۝٦﴾. ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أنكم تكونون أزواجاً ثلاثة، وأردتم بيان تلك الثلاثة فأقول لكم: أصحاب الميمنة. ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ مبتدأ أوّل، ومضاف إليه، ﴿مَا﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ ثان، ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ خبره. والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للمبتدأ الأوّل. وجملة الأوّل مع خبره في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً. والغرض من هذا الاستفهام: التعظيم، والتفخيم، وتكرير المبتدأ بلفظه أغنى عن الضمير الرابط. مثل قوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝٢﴾. ﴿الْقَارِعَةُ ۝١ مَا الْقَارِعَةُ ۝٢﴾. ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ مبتدأ أوّل، ﴿مَا﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ ثان، ﴿أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ خبر للمبتدأ الثاني، وجملة الأول مع خبره في محل النصب، معطوفة على جملة قوله: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾. ﴿وَالسَّابِقُونَ﴾ مبتدأ، ﴿السَّابِقُونَ﴾ خبره؛ أي: السابقون إلى الخير في الدنيا هم السابقون في الآخرة إلى الجنة. والجملة في محل النصب، معطوفة على جملة قوله: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾، وقيل: ﴿السَّابِقُونَ﴾ الأول: مبتدأ، والثاني: تأكيد له أو نعت، وجملة ﴿أُولَٰئِكَ﴾ خبره. ﴿أُولَٰئِكَ﴾ مبتدأ، ﴿الْمُقَرَّبُونَ﴾ خبره. والجملة في محل الرفع خبر ثان لـ ﴿السَّابِقُونَ﴾ الأوّل أو خبر له.

﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨﴾.

﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝١٢﴾ خبر ثان لـ ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أو حال من الضمير في ﴿الْمُقَرَّبِينَ﴾. ﴿ثُلَّةٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، ﴿مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ نعت لـ ﴿ثُلَّةٌ﴾؛ أي: هم ثلّة من الأوّلين. والجملة مستأنفة. ﴿وَقَلِيلٌ﴾ معطوف على ﴿ثُلَّةٌ﴾، ﴿مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ نعت لـ ﴿قليل﴾، ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ نعت ثان لـ ﴿ثُلَّةٌ﴾ أو خبر ثان للمبتدأ المحذوف،

﴿مَّوۡضُونَةٖ﴾ صفة لـ ﴿سُرُرٖ﴾، ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ حال من الضمير المستكن في متعلق الجار والمجرور في قوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ﴾. ﴿عَلَيۡهَا﴾ متعلق بـ ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾، ﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾ حال ثانية من ذلك المستكن، أو من الضمير المستكن في ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾. ﴿يَطُوفُ﴾ فعل مضارع، ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ متعلق به، ﴿وِلۡدَٰنٞ﴾ فاعل، ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ صفة لـ ﴿وِلۡدَٰنٞ﴾. والجملة الفعلية مستأنفة، أو حال من الضمير المستكن في ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾. ﴿بِأَكۡوَابٖ﴾ متعلق بـ ﴿يَطُوفُ﴾، ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ معطوف على ﴿أكواب﴾، مجرور بالفتحة. لأنه ممنوع من الصرف لصيغة منتهى الجموع. ﴿وَكَأۡسٖ﴾ معطوف على ﴿أكواب﴾ أيضاً، ﴿مِّن مَّعِينٖ﴾ صفة لـ ﴿كأس﴾.

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ١٩ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ٢٠ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ٢١ وَحُورٌ عِينٞ ٢٢ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ ٢٣ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ٢٥ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ٢٦﴾.

﴿لَّا﴾ نافية، ﴿يُصَدَّعُونَ﴾ فعل مضارع، مغيّر الصيغة، والواو: نائب فاعل، ﴿عَنۡهَا﴾ متعلق بـ ﴿يُصَدَّعُونَ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿يُصَدَّعُونَ﴾. ﴿وَفَٰكِهَةٖ﴾ معطوف على ﴿أكواب﴾، ﴿مِّمَّا﴾ جار ومجرور، صفة لـ ﴿فاكهة﴾، وجملة ﴿يَتَخَيَّرُونَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: يتخيّرونه. ﴿وَلَحۡمِ﴾ معطوف على ﴿أكواب﴾ أيضاً، ﴿طَيۡرٖ﴾ مضاف إليها، ﴿مِّمَّا﴾ صفة للحم، وجملة ﴿يَشۡتَهُونَ﴾ صلة لما الموصولة. ﴿وَحُورٌ﴾ مبتدأ، خبره محذوف تقديره: ولهم حور. ﴿عِينٞ﴾ صفة لـ ﴿حور﴾، أو معطوف على ﴿وِلۡدَٰنٞ﴾؛ أي: ويطوف عليهم حور عين للتنعيم لا للخدمة، أو ثم حور عين أو خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: ونساؤهم حور عين. وقرىء بالنصب على تقدير: ويجزون حوراً عيناً. والجملة على جميع التقادير مستأنفة. وقرىء بالجر عطفاً على ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ أي: وفي حور عين. ﴿كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِ﴾ جار ومجرور، ومضاف، صفة ثانية لـ ﴿حور﴾، ﴿ٱلۡمَكۡنُونِ﴾ صفة لـ ﴿ٱللُّؤۡلُوِ﴾، ﴿جَزَآءَۢ﴾ مفعول لأجله لفعل محذوف، تقديره: يفعل بهم ذلك كله لأجل جزائهم، أو مفعول مطلق لفعل محذوف؛ أي: يجزون ذلك جزاء. ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور، متعلق بـ ﴿جَزَآءَۢ﴾، ﴿كَانُواْ﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ خبره. وجملة ﴿كان﴾ صلة الموصول. ﴿لَا﴾ نافية، ﴿يَسۡمَعُونَ﴾ فعل، وفاعل، ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ ﴿يَسۡمَعُونَ﴾، ﴿لَغۡوٗا﴾ مفعول به، ﴿وَلَا تَأۡثِيمًا﴾

معطوف على ﴿لَغْوًا﴾. والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء منقطع، ﴿قِيلًا﴾ مستثنى منقطع واجب النصب، ﴿سَلَٰمًا﴾ إما بدل من ﴿قِيلًا﴾؛ أي: لا يسمعون فيها إلا سلاماً سلاماً أو نعت لـ ﴿قِيلًا﴾، منصوب بـ ﴿قيلا﴾ لأنّه مصدر؛ أي: إلاّ أن يقولوا: سلاماً سلاماً، أو مفعول مطلق لفعل محذوف؛ أي: يسلّمون تسليماً ﴿سَلَٰمًا﴾ مؤكدة للأولى.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ (٢٧) فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤)﴾.

﴿وَأَصْحَٰبُ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ مبتدأ أول، ﴿مَآ﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ ثان، ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ خبره. والجملة في محل الرفع خبر للمبتدأ الأول، وجملة الأول وخبره مستأنفة. ﴿فِى سِدْرٍ﴾ خبر ثان لـ ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾، ﴿مَّخْضُودٍ﴾ صفة لـ ﴿سِدْرٍ﴾، ﴿وَطَلْحٍ﴾ معطوف على ﴿سِدْرٍ﴾، ﴿مَّنضُودٍ﴾ صفة لـ ﴿طلح﴾، ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١)﴾ معطوفان أيضاً على ﴿سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾، ﴿وَفَٰكِهَةٍ﴾ معطوف عليه أيضاً، ﴿كَثِيرَةٍ﴾ صفة لـ ﴿فاكهة﴾، ﴿لَّا﴾ نافية، ﴿مَقْطُوعَةٍ﴾ صفة ثانية لـ ﴿فاكهة﴾، ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ معطوف على ﴿مَقْطُوعَةٍ﴾ على كونه صفة لـ ﴿فاكهة﴾، و﴿لا﴾ للنفي، ولذلك كررت. نظير قوله: مررت برجل لا طويل ولا قصير. ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤)﴾ معطوف على ﴿سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾.

﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً (٣٥) فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ (٤٠)﴾.

﴿إِنَّآ﴾ ناصب واسمه، ﴿أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به، ﴿إِنشَآءً﴾ مفعول مطلق والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة. ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول أول، ﴿أَبْكَارًا﴾ مفعول ثان. والجملة معطوفة على جملة ﴿أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾. ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧)﴾ نعتان لـ ﴿أَبْكَارًا﴾، ﴿لأصحاب اليمين﴾ متعلق بـ ﴿أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾، ﴿ثُلَّةٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هم ثلّة ﴿مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ صفة لـ ﴿ثُلَّةٌ﴾. والجملة مستأنفة. ﴿وَثُلَّةٌ﴾ معطوف على ﴿ثُلَّةٌ﴾، ﴿مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ صفة لـ ﴿ثُلَّةٌ﴾.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾﴾ تقدم إعراب نظيره قريباً، فجدّد به عهداً. والكلام مستأنف مسوق للشروع في تفصيل ما أجمله من أحوالهم بعد أن فصل حال أهل اليمين. ﴿فِى سَمُومٍ﴾ خبر ثان لـ ﴿أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾، أو خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هم في سموم، وقد تقدم نظيره. ﴿وَحَمِيمٍ﴾ معطوف على ﴿سَمُومٍ﴾، ﴿وَظِلٍّ﴾ معطوف على ﴿سَمُومٍ﴾ أيضاً، ﴿مِّن يَحْمُومٍ﴾ صفة لـ ﴿ظل﴾، ﴿لَّا﴾ نافية، ﴿بَارِدٍ﴾ صفة ثانية لـ ﴿ظل﴾، ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ معطوف على ﴿بَارِدٍ﴾. ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ ظرف، متعلق بمحذوف حال من اسم ﴿كان﴾ أو بـ ﴿مُتْرَفِينَ﴾. و﴿مُتْرَفِينَ﴾ خبر ﴿كَانُوا۟﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر إنّ، وجملة ﴿إِنَّ﴾ جملة تعليلية، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَكَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يُصِرُّونَ﴾ خبره. وجملة ﴿كَانُوا۟﴾ معطوفة على ﴿كان﴾ الأول. ﴿عَلَى ٱلْحِنثِ﴾ متعلق بـ ﴿يُصِرُّونَ﴾، ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ صفة لـ ﴿ٱلْحِنثِ﴾. ﴿وَكَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه، معطوف على ﴿كان﴾ الأوّل أيضاً، وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾ خبر ﴿كَانُوا۟﴾. ﴿أَئِذَا﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، دل عليه قوله: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، تقديره: أنبعث. ﴿إذا﴾ ظرف مجرد عن الشرط متعلق بذلك المقدر، ﴿مِتْنَا﴾ فعل، وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إذا﴾. ﴿وَكُنَّا﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿تُرَابًا﴾ خبر ﴿كان﴾، ﴿وَعِظَٰمًا﴾ معطوف على ﴿تُرَابًا﴾. وجملة ﴿كان﴾ معطوفة على جملة ﴿مِتْنَا﴾. ﴿أَءِنَّا﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، ﴿إنا﴾ ناصب واسمه، ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿مبعوثون﴾ خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ جملة استفهامية، مفسرة لذلك المحذوف. ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، والواو: عاطفة، ﴿ءَابَآؤُنَا﴾ معطوف على الضمير المستكن في ﴿مبعوثون﴾. وحسن العطف على الضمير من غير تأكيد بنحن وجود الفاصل الذي هو الهمزة. والتقدير: المبعوثون نحن وآباؤنا. ﴿ٱلْأَوَّلُونَ﴾ صفة لـ ﴿ءَابَآؤُنَا﴾.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾

﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ۝٥٥ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٥٦﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر. والجملة مستأنفة، مسوقة للرد على إنكارهم، وتحقيقاً للحق. ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ناصب واسمه، ﴿وَٱلْءَاخِرِينَ﴾ معطوف على ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾. ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿مجموعون﴾ خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ﴾ متعلق بـ ﴿مجموعون﴾، ﴿يَوْمٍ﴾ مضاف إليه، ﴿مَّعْلُومٍ﴾ صفة لـ ﴿يَوْمٍ﴾. وقد ضمن الجمع معنى السوق، فعدّاه بإلى، وإلاّ فكان الظاهر تعديته بفي. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب مع تراخ، ﴿إِنَّكُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿أَيُّهَا﴾ ﴿أي﴾ منادى نكرة مقصودة، والهاء: حرف تنبيه، ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾ بدل من ﴿أيّ﴾ أو نعت لها. وجملة النداء معترضة. ﴿ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ صفة لـ ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾، ﴿لَءَاكِلُونَ﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿آكلون﴾ خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾ الأولى. ﴿مِن شَجَرٍ﴾ متعلق بـ ﴿آكلون﴾، ﴿مِّن زَقُّومٍ﴾ نعت لـ ﴿شَجَرٍ﴾، أو بدل من ﴿مِن شَجَرٍ﴾، ﴿فَمَالِـُٔونَ﴾ الفاء: عاطفة ﴿مالئون﴾ معطوف على ﴿آكلون﴾، ﴿مِنْهَا﴾ متعلق بـ ﴿مالئون﴾، ﴿ٱلْبُطُونَ﴾ مفعول به لـ ﴿مالئون﴾. لأنّه اسم فاعل يعمل عمل الفعل. ﴿فَشَٰرِبُونَ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿شاربون﴾ معطوف على ﴿مالئون﴾، ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بـ ﴿شاربون﴾، ﴿مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ متعلق به أيضاً. ﴿فَشَٰرِبُونَ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿شاربون﴾ معطوف على ﴿شاربون﴾، ﴿شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ مفعول مطلق. ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ، ﴿نُزُلُهُمْ﴾ خبره، ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ ظرف متعلق بمحذوف حال من ﴿نُزُلُهُمْ﴾؛ أي: حال كونه كائناً في ذلك اليوم العصيب، أو من الضمير؛ أي: حال كونهم كائنين في ذلك اليوم الرهيب.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١﴾؛ أي: قامت القيامة. وصفت بأنها تقع لا محالة، أو كأنها واقعة في نفسها. ﴿رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ الرج: تحريك الشيء، وإزعاجه. والرجرجة: الاضطراب؛ أي: خافضة رافعة إذا حركت الأرض تحريكاً شديداً بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبل، كما مرّ. أصله: رججت مبنياً للمفعول، أدغمت عين الكلمة في لامها، وكذلك ﴿رَجًّا﴾ أدغمت عين المصدر في لامه، فوزنه فعل. وكذلك القول في ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥﴾؛ أي: فتتت حتى صارت مثل

السويق الملتوت. من بس السويق إذا لته. والبسيسة: سويق يلت فيتخذ زاداً، أو سيقت وسيرت من أماكنها من بس الغنم إذا ساقها، وفي «المصباح»: بست الحنطة وغيرها بسّاً من باب قتل. وهو الفت. فهي بسيسة فعيلة بمعنى مفعولة.

﴿هَبَآءً﴾ الهباء: غبار كالشعاع في الرقة، وكثيراً ما يخرج شعاع الشمس من الكوّة النافذة، وفيه إعلال بالإبدال. أصله: هباو، أبدلت ﴿الواو﴾ همزة لتطرفها إثر ألف زائدة. ﴿مُّنۢبَثًّا﴾؛ أي: منتشراً متفرقاً بنفسه من غير حاجة إلى هواء يفرقه. ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا﴾؛ أي: أصنافاً. قال الراغب: الزوج يكون لكل من القرينين الذكر والأنثى في الحيوانات المتزاوجة، ولكل قرينين منها، ومن غيرها كالخف والنعل، ولكل ما يقترن بآخر مماثلاً له أو مضاداً، اهـ.

﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ والميمنة: ناحية اليمين. والمشأمة: ناحية الشمال. والعرب يتيمنون بالميامن، ويتشاءمون بالشمائل. والمراد: أصحاب المرتبة السنية الرفيعة. وفي «القاموس»: اليمن: البركة كالميمنة، يمن فهو ميمون، وأيمن. والجمع ميامين، وأيامن واليمين ضد اليسار، والجمع أيمن، وأيمان، وأيامن، وأيامين، والبركة، والقوة. والشؤم ضد اليمن، والمشأمة ضد الميمنة، انتهى.

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ الثلة: الجماعة قلت أو كثرت، وقيل: الجماعة الكثيرة من الناس، كما قال:

وَجَاءَتْ إِلَيْهِمْ ثُلَّةٌ خِنْدِفِيَّةٌ   بِجَيْشٍ كَتَيَّارٍ مِنَ ٱلسَّيْلِ مُزْبِدِ

وفي «القاموس»: الثلة بالضم: الجماعة من الناس، والكثير من الدراهم. وقد تفتح. وبالكسر: الهلكة. والجمع ثلل، كعنب، اهـ. واشتقاقه من الثل؛ وهو الكسر، وجماعة السابقين مع كثرتهم مقطوعة مكسورة من جملة بني آدم، وقال الراغب: الثلة: قطعة مجتمعة من الصوف، ولذلك قيل للغنم: ثلة، ولاعتبار الاجتماع قيل: ثلة من الأولين.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ جمع سرير. وهو ما يجعل للإنسان من المقاعد العالية الموضوعة للراحة والكرامة، اهـ خطيب. ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾ من الوضن. وهو النسج. وفي «القاموس»: وضن الشيء يضنه فهو موضون ووضين ثني بعضه على بعض، وضاعفه. ووضن الغزل نسجه، والموضونة، الدرع المنسوجة، أو المتقاربة النسج،

أو المنسوجة حلقتين حلقتين، أو المنسوجة من قضبان الذهب، مشتبكة بالجواهر.

والمعنى: منسوجة متداخلة، كصفة الدرع. قال الأعشى:

وَمِـنْ نَسْـجِ دَاوُوْدَ مَوْضُونَـةٍ ... تُسَـاقُ إِلَـىٰ ٱلْـحَـيِّ عِيْـراً فَعِيْـرَا

﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا﴾؛ أي: على السرر على الجنب أو غيره كحال من يكون على كرسيّ فيوضع تحته شيء آخر للاتكاء عليه، اهـ خطيب. ﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾؛ أي: فلا ينظر بعضهم إلى قفا بعض. وقال مجاهد، وغيره: هذا في المؤمن، وزوجته وأهله. وقال الكلبي: طول كل سرير ثلاث مئة ذراع. فإذا أراد العبد أن يجلس عليه.. تواضع وانخفض له، فإذا جلس عليه ارتفع، اهـ خطيب.

﴿يَطُوفُ﴾ أصله: يطوف بوزن يفعل بضم العين، نقلت حركة الواو إلى الطاء فسكنت إثر ضمة، فصارت حرف مد نظير يقول. ﴿وِلۡدَٰنٞ﴾ بكسر الواو كصبيان باتفاق القراء جمع وليد بمعنى مولود، والولد يجمع على أولاد، كسبب وأسباب، اهـ من «المصباح». والصحيح: أنهم ولدان خلقوا في الجنة لخدمة أهل الجنة من غير ولادة أحد، كما خلقت الحور العين من غير ولادة. وأطلق عليهم اسم الولدان؛ لأنَّ العرب تسمى الغلام وليداً ما لم يحتلم، والأمة وليدة وإن أسنت. ﴿مخلدون﴾؛ أي: باقون، لا يموتون، ولا يهرمون، ولا يتغيرون. وقيل: من الخلد. وهو القرط. قال امرؤ القيس:

وَهَـلْ يَنْـعَـمَـنْ إِلاَّ سَـعِـيْـدٌ مُـخَـلَّـدٌ ... قَـلِـيْـلُ ٱلْـهُـمُـوْمِ مَـا يَـبِـيْـتُ بِـأَوْجَـالِ

﴿بِأَكۡوَابٖ﴾ جمع كوب؛ أي: بآنية لا عرا لها، ولا خراطيم. ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ جمع آب ريْ إفعيل، مشتق من البريق. وهو اللمعان لصفاء لونه. وقيل: أعجمية معربة أبازير. وهي آنية لها عراً وخراطيم. والعرا: ما يمسك بها المسماة بالآذان. والخراطيم: هي ما يصب منها المسماة بالبزابيز، اهـ شيخنا. قال عديّ بن الرقاع:

وَدَعَـوْا بِـٱلـصَّـبُـوحِ يَـوْمَـاً فَـجَـاءَتْ ... بِـهِ قَـيْـنَـةٌ فِـيْ يَـمِـيْـنِـهَـا إِبْـرِيْـقُ

﴿وَكَأۡسٖ﴾ والكأس: القدح إذا كان فيها شراب، وإلا فهو قدح. ﴿مِّن مَّعِينٖ﴾ أي: من خمر جارية من منبع لا يفيض، ولا ينقطع أبداً. يقال: معن الماء إذ جرى، فهو فعيل بمعنى فاعل، أو ظاهرة تراها العيون في الأنهار، كالماء المعين. وهو الظاهر الجاري. فيكون بمعنى مفعول من المعاينة، من عانه إذا شخصه وميزه

بعينه. قال في «القاموس»: المعن: الماء الظاهر، ومعن الماء أساله، وأمعن الماء جرى. والمعنان بالضم: مجاري الماء في الوادي. والمراد: أنها لم تعصر كخمر الدنيا.

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾؛ أي: لا يحصل لهم صداع بسبب شربها، كما يحدث ذلك في خمر الدنيا. والصداع: هو الداء الذي يأخذ الإنسان في رأسه، والخمر تؤثر فيه. والصدع: شق في الأجسام الصلبة كالزجاج، والحديد، ونحوهما. ومنه استعير الصداع. وهو الانشقاق في الرأس من الوجع. ومنه: الصديع للفجر.

﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ من أنزف الشارب إذا نفد عقله أو شرابه. فالنفاد إما للعقل. وهو من عيوب خمر الدنيا. أو للشراب. فإن بنفادهما تختل الصحبة. يقال: نزف الرجل بالبناء للمجهول؛ أي: ذهب عقله سكراً. ويقال للسكران: نزيف ومنزوف. ونزف الرجل دما رعف فخرج دمه كله، كلاهما وارد.

﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾﴾؛ أي: يختارون، ويرضون. يقال: تخيرت الشيء أخذت خيره. ﴿مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أصله: يشتهيون بوزن يفتعلون، استثقلت الضمة على الياء، فحذفت، فلما سكنت التقى ساكنان، فحذفت الياء لذلك.

﴿وَحُورٌ﴾ جمع حوراء، كحمر جمع حمراء. فمعنى الحور: النساء شديدات البياض؛ أي: بياض أجسادهن. والعين: جمع عيناء. فمعنى العين: شديدات سواد العيون مع سعتها، مثل: أعين الظباء والبقر.

قال الأصمعي: وليس في بني آدم حور عين، وإنما قيل للنساء: حور تشبيهاً بالظباء والبقر، اهـ.

وقوله: ﴿عِينٌ﴾ جمع عيناء، كسرت فاؤه لمناسبة الياء، وإلا فقياسه أن يجمع كما جمعت حمراء. فأصل «عين» عين بضم العين؛ لأنه نظير حمر جمع حمراء، فخفف بإبدال ضمة فائه كسرة لتصح الياء، وإنما لم تبدل ياؤه واواً وكما فعلوا في موقن وموسر. أصلها: ميقن وميسر، لأن الجمع أثقل من المفرد، والواو أثقل من الياء. فيجتمع حينئذٍ ثقلان. قال في الخلاصة:

وَيُكْسَرُ ٱلْمَضْمُومُ فِيْ جَمْعٍ كَمَا ... يُقَالُ هِيْمٌ عِنْدَ جَمْعِ أَهْيَمَا

﴿ٱلْمَكْنُونِ﴾؛ أي: المصون الذي لم تمسه الأيدي. وهو أصفى، وأبعد من

التغير. ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤﴾ الهمزة فيه مبدلة من ياء لتطرفها إثر ألف زائدة. فأصله: جزاي. ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا﴾؛ أي: باطلاً. قال في «القاموس»: اللغو واللغا: السقط، وما لا يعتد به من كلام وغيره، كما مر بسطه. ﴿وَلَا تَأۡثِيمًا﴾؛ أي: ما يقال حين سماعه: وقعتم في الإثم. والإثم: الأفعال المبطئة عن الثواب. والجمع آثام. ﴿إِلَّا قِيلٗا﴾ فيه إعلال بالقلب أصله: قولاً، قلبت ﴿الواو﴾ ياء لسكونها إثر كسرة.

﴿أَبۡكَارًا﴾ جمع بكر. والمصدر البكارة. قال الراغب: البكرة: أول النهار، وتصور منها معنى التعجيل لتقدمها على سائر أوقات النهار. فقيل لكل متعجل: بكر. وسميت التي لم تفتض بكراً اعتباراً بالثيب لتقدمها عليها، فيما يراد به النساء. ﴿عُرُبًا﴾ جمع عروب، كرسل جمع رسول. وهي المتحببة إلى زوجها، الحسنة التنقل، واشتقاقه من أعرب إذا بين. والعرب تبين محبتها لزوجها. ﴿أَتۡرَابٗا﴾ جمع ترب بالكسر. وهي اللدة، والسن. وفي «السمين»: الترب: هو المساوي لك في سنك؛ لأنه يمس جلدهما التراب في وقت واحد. وهو آكد في الائتلاف. وهو من الأسماء التي لا تتعرف بالإضافة لأنه في معنى الصفة. إذ معناه: مساويك، ومثله: خدنك؛ لأنه في معنى صاحبك، اهـ سمين.

﴿فِي سَمُومٖ﴾ السموم: حر نار ينفذ في المسام. قال في «القاموس»: السموم: الريح الحارة تكون غالباً في النهار. والحرور: الريح الحارة بالليل، وقد تكون بالنهار. ﴿وَحَمِيمٖ﴾ وهو الماء المتناهي في الحرارة. ﴿وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ٤٣﴾ وزنه يفعول، قال أبو البقاء: من الحم بالضم، أو من الحميم. واليحموم قيل: هو الدخان الأسود البهيم. وقيل: واد في جهنم. وقيل: اسم من أسمائها. والأول أظهر، اهـ سمين. وفي «المختار»: وحممه تحميماً سخم وجهه بالفحم، والحمم: الرماد، والفحم، وكل ما احترق من النار. الواحدة حممة، اليحموم: الدخان، اهـ.

﴿يُصِرُّونَ﴾ أصله: يصررون بوزن يفعلون، نقلت حركة الراء الأولى إلى الصاد فسكنت، فأدغمت في الراء الثانية. ﴿عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ﴾؛ أي: الذنب العظيم. وهو الشرك بالله، وجعل الأوثان والأنداد أرباباً من دون الله تعالى.

﴿أَئِذَا مِتْنَا﴾ قرىء ﴿مُتنا﴾ بضم الميم. لأنَّ المستعمل الفاشي في هذه الفاعل: مات يموت بوزن فعل يفعل، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح، ولما أسند الفعل إلى ضمير الرفع المتحرك التقى ساكنان: الألف والتاء لام الكلمة، فحذفت الألف لذلك، فاحتيج إلى معرفة هذه العين المحذوفة من الفعل الأجوف هل هي واو أو ياء؟ فحذفت حركة الفاء، وعوض عنها حركة مجانسة لتلك العين المحذوفة. وهي الضمة؛ لأن العين واو، فقيل: متنا بوزن فلنا. أما من قرأ ﴿مِتْنَا﴾ بكسر الميم فتوجيه ذلك أن في هذا الفعل لغة على فعل يفعل بكسر العين في الماضي والمضارع، ولما حذفت عينه لالتقاء الساكنين، كسرت فاؤه لتدل الكسرة على أن العين المحذوفة مكسورة كما قالوا: كلت من الكيل، وخفت من الخوف. فقولهم: متنا بكسر الميم كثير الاستعمال شاذ في القياس. وقوله: ﴿متنا﴾ بضم الميم قليل الاستعمال غير شاذ في القياس، وفي الفعل أيضاً لغة ثالثة، حكاها الكوفيون. وهي أنه من باب فعل بكسر العين في الماضي، وفتحها في المضارع. وعليه يتجه أيضاً كسر الميم كما في خفت.

﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٥٠﴾ أصله: موقات، قلبت الواو ياء لسكونها إثر كسرة. والميقات: هو الوقت المضروب للشيء ينتهي عنده أو يبتدأ فيه. ﴿مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ والزقوم: هو من أخبث الشجر المر ينبت في الدنيا بتهامة، وفي الآخرة ينبت في أصل الجحيم. وهو كريه المنظر، مر الطعم، منتن الرائحة. ﴿فَمَالِـُٔونَ﴾ اسم فاعل من ملأ الثلاثي. يقال: ملأ الإناء فهو مملوء من باب قطع. والمليء بالكسر: مقدار ما يأخذه الإناء إذا امتلأ. ﴿شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ وعبارة السمين: والهيم بكسر الهاء جمع أهيم للمذكر، وهيماء للمؤنث كحمر وأحمر وحمراء. وهو الجمل والناقة التي أصابها الهيام. وهو داء معطش تشرب الإبل منه إلى أن تموت، أو تسقم سقماً شديداً. والأصل: هيم بضم الهاء كحمر، قلبت الضمة كسرة لتصح الياء. وذلك نحو: بيض في أبيض، وبيضاء وفعل بضم الفاء جمع لأفعل، وفعلاء على حد قول ابن مالك:

فُعْلٌ لِنَحْوِ أَحْمَرٍ وحَمْرَا وفِعْلَةٌ جَمْعاً بِنَقْلٍ يُدْرَىٰ

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١﴾.

ومنها: التعبير باسم الفاعل الذي حقيقة في الحال عند الإطلاق عما في المستقبل. وهو القيامة إشعاراً بتحقق وقوعها. ولذا اختيرت إذا دون إن الشرطية، واختيرت صيغة الماضي أيضاً.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ وفيه أيضاً المجاز العقلي؛ لأن الخافض والرافع في الحقيقة هو الله تعالى، يرفع أولياءه، ويخفض أعداءه. وفي إسنادهما إلى القيامة مجاز عقلي؛ لما فيه من إسناد الشيء إلى زمانه كقولهم: نهاره صائم.

ومنها: تقديم الخفض على الرفع في قوله: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ مبالغة في التهويل منها.

ومنها: حذف الفاعل في قوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥﴾ لعلمه، وإفادة للتهويل منها.

ومنها: الطباق بين ﴿ٱلْمَيْمَنَةِ﴾، و﴿ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ وبين: ﴿ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ﴾.

ومنها: التفخيم والتعظيم في قوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ۝٢٧﴾ على طريق الاستفهام.

ومنها: التحقير والإهانة في قوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝٤١﴾.

ومنها: التفنّن في قوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ إلخ، وقوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ إلخ، بعد قوله أولاً: ﴿أصحاب الميمنة﴾ الخ، وقوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ إلخ.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣﴾؛ أي: كأمثال اللؤلؤ في بياضه وصفائه، حذف منه وجه الشبه. فهو مرسل مجمل.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥﴾ من الوضن. وهو حقيقة

في نسج الدرع. ثم استعير لكل نسج محكم.

ومنها: الإيجاز في قوله: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ فجمع في هاتين الكلمتين جميع عيوب الخمر في الدنيا.

ومنها: توافق الفواصل في الحرف الأخير في قوله: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾.

وقوله: ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ وهو مما يزيد في رونق الكلام، وحسنه. وهو المسمى عندهم بالسجع المرصع؛ أي: غير المتكلف به. وهو من المحسنات البديعية.

ومنها: المبالغة في التشبيه في قوله: ﴿سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾؛ لأنّ المخضود في سدر الدنيا، المقطوع المزال عنه شوكه. فإن سدر الدنيا مخلوق بشوك، والذي أزيل عنه شوكه يسمى مخضوداً. وسدر الجنة خلق بلا شوك، كأنه خضد شوكه؛ أي: قطع ونزع عنه. فقوله: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾ إما من باب المبالغة في التشبيه أو مجاز بعلاقة السببية، فإن الخضد سبب لانقطاع الشوك.

ومنها: تأكيد المدح بما يشبه الذم في قوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾﴾ لأن السلام ليس من جنس اللغو والتأثيم. فهو مدح لهم بإفشاء السلام. وهذا كقول القائل: ولا ذنب لي إلا محبتك.

ومنها: التهكم بأصحاب المشأمة في قوله: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ إشعارا بأنهم لا يستأهلون للظل البارد الكريم الذي هو لأضدادهم في الجنة.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾؛ أي: كالنزل الذي يعد للنازل مما أحضر مكرمة له.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله تعالى لما ذكر[١] الأزواج الثلاثة، وبين مآل كل منها، وفصل ما يلقاه السابقون وأصحاب الميمنة من نعيم مقيم، وذكر ما يلقاه أصحاب المشأمة من عذاب لازبٍ في حميم وغساق، وذكر أن ذلك إنما نالهم لأنهم أشركوا بربهم، وعبدوا معه غيره، وكذبوارسله، وأنكروا البعث والجزاء.. أردف ذلك بإقامة الأدلة على الألوهية من خلق ورزق لطعام وشراب، وأقام الدليل على البعث والجزاء. ثم أثبت الأصل الثالث ـ وهو النبوة ـ فيما بعد.

---

(١) المراغي.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر الأدلة على الألوهية والبعث والجزاء.. أعقب ذلك بذكر الأدلة على النبوة، وصدق القرآن الكريم. وأقسم على هذا بما يرونه في مشاهداتهم من مساقط النجوم، إنه لكتاب كريم لا يمسّه إلا المطهرون، وأنه نزل من لدن حضرة القدس على يد جبريل عليه السلام. فكيف تتهاونون في اتباع أوامره، والانتهاء عن نواهيه، وتجعلون شكركم على هذا تكذيبكم بنعم الله تعالى، وجزيل فضله عليكم.

قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[١] جحود الكافرين بآياته، وتكذيبهم رسوله وكتابه، وقولهم فيه: إنه سحر أو افتراء، واعتقادهم أن رزقهم من الأنواء.. أردف ذلك بتوبيخهم على ما يعتقدون، فإنه إذا كان لا بد للفعل من فاعل، وقد جحدتم الله، وكذبتم رسوله فالفاعل لهذا كله أنتم؛ لأنَّ الخالق إما الله وإما أنتم، فإذا نفيتم الله فأنتم الخالقون، وإذاً فلماذا لا ترجعون الروح لميتكم؟ وهو يعالج سكرات الموت. فإن كنتم صادقين فارجعوها، الحق إنكم لا تعقلون الدليل والبرهان، بل لا تفهمون إلا المحسوسات فلما لم تروا الفاعل كذبتم به، وهذا من شيمة الجهال. إذ للعلم وسائل عديدة. فليس عدم رؤية الشيء دليلاً عل عدم وجوده.

ثم بين حال المتوفى، ومن أي الأزواج الثلاثة هو؟. فإن كان من السابقين.. فله روح واطمئنان نفس علماً منه بما سيلقاه من الجزاء، ورزق طيب في جنات النعيم. فيرى فيها ما تلذ الأنفس، وتقر به الأعين، وإن كان من أصحاب اليمين.. فتسلم عليه الملائكة، وتعطيه أماناً من ربه، وإن كان من أصحاب الشمال.. فضيافته ماء حميم، وعذاب في النار أبداً.

ثم بين لرسوله ﷺ أن الخبر الذي أخبر به هو الحق اليقين، وعليه أن ينزه ربه العظيم عن كل ما لا يليق به.

---

(١) المراغي.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ...﴾ الآيات، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه مسلم، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مطر الناس على عهد رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ: «أصبح من الناس شاكر، ومنهم كافر». قالوا: هذه رحمة وضعها الله. وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا، وكذا. فنزلت هذه الآية: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾ حتى بلغ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾. وأصل الحديث بدون ذكر أنه سبب نزول الآية ثابت في «الصحيحين» من حديث زيد بن خالد الجهني، ومن حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنهما.

التفسير وأوجه القراءة

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ أيها الكفرة ﴿فَلَوْلَا﴾؛ أي: فهلا ﴿تُصَدِّقُونَ﴾ بالخلق فإن ما لا يحققه العمل، ولا يساعده، بل ينبىء عن خلافه ليس من التصديق في شيء أو بالبعث، فإن من قدر على الإبداء قدر على الإعادة. قال مقاتل: خلقناكم، ولم تكونوا شيئاً، وأنتم تعلمون ذلك فهلا تصدقون بالبعث. قال القاضي زكريا: فإن قلت: كيف قال ذلك مع أنهم مصدقون بذلك بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾؟ قلت: هم، وإن صدقوا بألسنتهم لكن لما كان مذهبهم خلاف ما يقتضيه التصديق كانوا كأنهم مكذبون به، أو أن ذلك تحضيض على التصديق بالبعث بعد الموت بالاستدلال بالخلق الأول، فكأنّه قال: هو خلقكم أولاً باعترافكم، فلا يمتنع عليه أن يعيدكم ثانياً. فهلا تصدقون بذلك؟ انتهى.

واعلم[2]: أنَّ الله سبحانه وتعالى إذا أخبر عن نفسه بلفظ الجمع يشير به إلى ذاته وصفاته وأسمائه كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾، وكما قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾. وإذا أخبر عن نفسه بلفظ المفرد يشير إلى ذاته المطلقة كما قال: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. هذا إذا كان القائل المخبر هو الله تعالى، وأما إذا كان العبد فينبغي أن يقول: أنت يا رب، لا أنتم؛ لإيهامه الشرك المنافي

(١) الشوكاني بتصرف. (٢) روح البيان.

لتوحيد الله القائل، ولذا يقال: أشهد أن لا إله إلا الله؛ ليدل على شهادته بخصوصه، فتعين توحيده، ويظهر تصديقه.

وفي قوله[1]: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾ التفات من الله سبحانه إلى خطاب الكفرة تبكيتاً لهم، وإلزاماً للحجة.

والمعنى[2]: أي نحن بدأنا خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، أفليس الذي قدر على البداءة بقادر على الإعادة بطريق الأولى، فهلا تصدقون بالبعث. وفي هذا تقرير للمعاد، ورد على المكذبين به المستبعدين له من أهل الزيغ والإلحاد الذين قالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾.

ثم أعاد الدليل فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾﴾؛ أي: ما تقذفونه، وتصبونه في أرحام النساء من النطف التي يكون منها الولد. فقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ بمعنى أخبروني، و﴿مَّا تُمْنُونَ﴾ مفعوله الأول. والجملة الاستفهامية أعني: قوله: ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ إلخ، مفعوله الثاني. يقال: أمنى الرجل يمني لا غير، ومنيت الشيء أمنيه إذا قضيته. وسمي المني منيًّا؛ لأن الخلق منه يقضى. ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾؛ أي: تقدرونه، وتصورونه بشراً سويًّا في بطون النساء ذكراً، أو أنثى ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ له؛ أي: أم نحن المقدرون المصورون له من غير دخل شيء فيه، و﴿أَمْ﴾ هي المتصلة، وهي أولى. وقيل: منقطعة ما بعدها جملة. فالمعنى: بل أنحن الخالقون على أن الاستفهام للتقرير. ومجيء الخالقون بعد ﴿نَحْنُ﴾ بطريق التأكيد لا بطريق الخبرية أصالة.

وفيه[3]: إشارة إلى معنى: أن وقوع نطف الأعمال، والأفعال، وموادها في أرحام قلوبكم ونفوسكم بخلقي، وإرادتي لا بخلقكم وإرادتكم. ففيه تخصيص مواد الخواطر المقتضية للأفعال والأعمال والأقوال إلى نفسه، وقدرته، وسلبها عن الخلق.

وقرأ الجمهور[4]: ﴿تُمْنُونَ﴾ بضم الفوقانية، من أمنى يمني. وقرأ ابن عباس،

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.
(٤) الشوكاني.

وأبو السمال، ومحمد بن السميقع، والأشهب العقيلي بفتحها، من مني يمني. وهما لغتان. وقيل: معناهما مختلف. يقال: أمنى إذا أنزل عن جماع، ومني إذا أنزل عن احتلام. وسمي المني منياً؛ لأنه يمنى؛ أي: يراق، وقد سبق في عبارة الروح معنى غير ما هنا.

وعبارة أبي حيان هنا[1]: وجاء ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ هنا مصرحاً بمفعولها الأول، ومجيء جملة الاستفهام في موضع المفعول الثاني على ما هو المقرر فيها إذا كانت بمعنى أخبروني، وجاء بعد ﴿أَمْ﴾ جملة فقيل: ﴿أَمْ﴾ منقطعة. وليست المعادلة للهمزة، وذلك في أربعة مواضع هنا ليكون ذلك على استفهامين. فجواب الأول لا، وجواب الثاني نعم. فتقدر ﴿أَمْ﴾ على هذا: بل أنحن الخالقون؟ فجوابه نعم. وقال قوم من النحاة: ﴿أَمْ﴾ هنا معادلة للهمزة، وكان ما جاء من الخبر بعد ﴿نَحْنُ﴾ جيء به على سبيل التوكيد. إذ لو قال: أمْ نحن.. لوقع الاكتفاء به دون ذكر الخبر، انتهى.

ومعنى الآية[2]: أي أخبروني عمّا قذفتم به في الأرحام من النطف أأنتم تقدرونه بشراً سويًّا تام الخلق أم الله الخالق لذلك؟. ولا شك أنهم لا يجدون إلا جواباً واحداً، لا ثاني له.

والخلاصة: أخبروني أيها المنكرون قدرة الله على إحيائكم بعد مماتكم عن النطف التي تمنون في أرحام نسائكم أأنتم تخلقونها أم نحن الخالقون لها؟

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا﴾ قرأ الجمهور[3]: ﴿قَدَّرْنَا﴾ بالتشديد. وقرأ مجاهد، وحميد، وابن محيصن وابن كثير بالتخفيف. وهما لغتان. يقال: قدرت الشيء، وقدرته؛ أي: قسمنا. ﴿بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾ وكتبناه عليكم، ووقتنا موت كل واحد بوقت معين حسبما تقتضيه مشيئتنا المبنية على الحكم البالغة. فمنهم من يموت صغيراً، ومنهم من يموت كبيراً.

وعبارة الخطيب هنا: أي قضينا به، وأوجبناه، وكتبناه فلم نترك أحداً منكم

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.

بغير حصة منه. وأقتنا موت كل واحد بوقت معين لا يتعداه، فقصرنا عمر هذا، وربما كان في الأوج «ضد الهبوط» من قوة البدن، وصحة المزاج. فلو اجتمع الخلق كلهم على إطالة عمره.. ما قدروا أن يؤخروه لحظة، وأطلنا عمر هذا، وربما كان في الحضيض من ضعف البدن، واضطراب المزاج، فلو تمالؤوا على تقصيره طرفة عين.. لعجزوا، اهـ، أي: والقادر على هذا كله قادر على إعادتكم وبعثكم.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾؛ أي: بمغلوبين، بل قادرين ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ﴾ منكم ﴿أَمْثَٰلَكُمْ﴾؛ أي: أشباهكم؛ أي: لا يغلبنا أحد على أن نذهبكم، ونأتي مكانكم بأشباهكم من الخلق. يقال: سبقته على كذا؛ أي: غلبته عليه، وغلب فلان فلاناً على الشيء إذا أخذه منه بالغلبة. وقال الضحاك: معناه: أنه جعل أهل السماء، وأهل الأرض فيه سواء، وما نحن بمسبوقين على أن نأتي بخلق مثلكم. وقال الزجاج: إن أردنا أن نخلق خلقاً غيركم.. لم يسبقنا سابق، ولا يفوتنا. وقال ابن جرير: المعنى: نحن قدرنا بينكم الموت على أن نبدل أمثالكم بعد موتكم بآخرين من جنسكم، وما نحن بمسبوقين في آجالكم؛ أي: لا يتقدم متأخر ولا يتأخر متقدم. ﴿وَ﴾ على أن ﴿نُنشِئَكُمْ﴾ ونوجدكم ﴿فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الأطوار، والصور، والهيئات. لا تعهدون بمثلها. وقال الحسن؛ أي: على أن نجعلكم قردة وخنازير، كما فعلنا بأقوام قبلكم إن لم تؤمنوا برسلنا. يعني: لسنا عاجزين عن خلق أمثالكم بدلاً منكم، ومسخكم من صوركم إلى غيرها. وقيل: المعنى: ننشئكم في البعث على غير صوركم في الدنيا. وقال مجاهد: ﴿فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني: في أي خلق شئنا. ومن كان قادراً على هذا فهو قادر على البعث. وقال سعيد بن المسيب: ﴿فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني: في حواصل طيور سود تكون ببرهوت، كأنها الخطاطيف. وبرهوت واد باليمن، اهـ.

والمعنى[1]: أي نحن قسمنا الموت بينكم، ووقتنا موت كل واحد بميقات معين لا يعدوه بحسب ما اقتضته مشيئتنا المبنية على الحكم البالغة. وما نحن بعاجزين عن أن نذهبكم، ونأتي بأشباهكم من الخلق، وننشئكم فيما لا تعلمون من

---

(١) المراغي.

الأطوار، والأحوال التي لا تعهدونها.

والخلاصة: نحن قدرنا بينكم الموت؛ لأن نبدل منكم أمثالكم بعد مهلككم، ونجيء بآخرين من جنسكم، فنحن نميت طائفة، ونبدلها بطائفة أخرى قرناً بعد قرن، وجيلا بعد جيل.

ثم ذكر دليلاً آخر على البعث. فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ واللام للقسم؛ أي: وعزتي وجلالي لقد علمتم أيّها الكفرة ﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾؛ أي: الخلقة ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾ هي خلقتهم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، ولم تكونوا قبل ذلك شيئاً. وقيل: هي فطرة آدم من التراب.

وعبارة الخطيب هنا: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: الترابية لأبيكم آدم، واللحمية لأمكم حواء، والنطفية لكم. وكل منها تحويل من شيء إلى غيره. فإن الذي شاهدتم قدرته على ذلك قادر على إعادتكم.

﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: فهلا تذكرون قدرة الله على النشأة الأخيرة، وتقيسونها على النشأة الأولى؛ فإن[1] من قدر على الأولى التي كانت بلا مواد قدر على الأخيرة حتماً فإنها أقل صنعاً لحصول المواد، وتخصص الأجزاء وسبق المثال.

وفي الخبر: «عجباً كل العجب للمكذب بالنشأة الآخرة؛ وهو يرى النشأة الأولى، وعجباً للمصدق بالنشأة الآخرة، وهو يسعى لدار الغرور». وفي الآية دليل على صحة القياس، حيث جهلهم في ترك قياس النشأة الأخرى على الأولى. وترك القياس إذا كان جهلاً.. كان القياس علماً، وكل ما كان من قبيل العلم فهو صحيح. قال أبو حيان: ولا تدل إلا على قياس الأولى لا على جميع أنواع القياس.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾ بالقصر. وقرأ مجاهد، والحسن، وابن كثير وأبو عمرو بفتح الشين في النشأة، وبألف بعدها فهمزة. وقرأ حمزة والكسائي وحفص بتخفيف الذال من ﴿تذكَّرون﴾. والباقون بالتشديد. وقريء ﴿تذْكُرون﴾ بسكون الذال، وضم الكاف من ذكر الثلاثي.

---

(١) روح البيان. (٢) المراح.

والمعنى[1]: والله لقد علمتم. أنَّ الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار، والأفئدة فهلا تتذكرون، وتعرفون أن الذي قدر على هذه النشأة وهي البداية قادر على النشأة الأخرى، وهي الإعادة بطريق الأولى، كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، وقال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

ثم أردف ذلك بدليل آخر في الرزق في المطعوم فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾؛ أي: أخبروني يا أهل مكة ﴿مَّا تَحْرُثُونَ﴾؛ أي: ما تبذرون، وتطرحون من الحبوب في أرضكم، وتعملون فيها بالسقي ونحوه. والحرثة: إلقاء البذر في الأرض، وتهيئتها للزرع. ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾؛ أي: تنبتونه، وتجعلونه زرعا ونباتاً يربو، وينمو إلى يبلغ الغاية. فيكون فيه السنبل والحب ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾؛ أي: بل نحن المنبتون له، الجاعلون له زرعاً لا أنتم. والاستفهام المفهوم من ﴿أَمْ﴾ للإنكار. والزرع: الإنبات، وحقيقة ذلك يكون بالأمور الإلهية دون البشرية، ولذا نسب الحرث إليهم، ونفى عنهم الزرع، ونسبه إلى نفسه. وفي الحديث: «لا يقولون أحدكم زرعت، وليقل حرثت، فإن الزارع هو الله».

والمعنى[2]: أي أخبروني أيها المشركون عن الحرث الذي تحرثونه: أأنتم تنبتونه أم نحن الذين ننبته؟ أي: أأنتم تصيرونه زرعاً أم نحن الذين نصيره كذلك؟ فإذا أقررتم بهذا فكيف تنكرون البعث؟. ورُوي عن حجر المنذريّ: أنه كان إذا قرأ ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾، وأمثالها يقول: بل أنت يا ربّ.

والحاصل[3]: أن الحرث فعلهم من حيث إن اختيارهم له مدخل في الحرث، والزرع خالص فعل الله سبحانه. فإن إنبات السنبل والحب لا مدخل فيه لاختيار العبد أصلاً، وإذا نسب الزرع إلى العبد، فلكونه فاعلاً للأسباب التي هي سبب الزرع والإنبات. وفي «الأسئلة المقحمة»: الأصح: أن الحرث والزرع واحد، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾. فهلا أضاف الحرث إلى نفسه أيضاً؟.

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

والجواب: أن إضافة الحرث إلينا إضافة الاكتساب، وإضافته إلى نفسه إضافة الخلق والإبداع. كقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾.

قال الحليمي: يستحب لكل من ألقى في الأرض بذراً أن يقرأ بعد الاستعاذة ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ إلى قوله: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾. ثم يقول: الله الزارع، والمنبت، والمبلغ. اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، وارزقنا ثمره، وجنبنا ضرره، واجعلنا لأنعمك من الشاكرين. ويقال: إنّ هذا القول أمان لذلك الزرع من جميع الآفات الدود، والجراد، وغير ذلك ببركة تلك الآيات، ولا مانع من ذلك، وإن كان لا أصل له.

وفي الآية[1]: امتنان ليشكروا على نعمة الزرع، واستدلال بأن من قدر على الإنبات قادر على الإعادة. فكما أنه ينبت الحب في الأرض، وينبت بذر النطفة في الرحم فكذا ينبت من حب عجب الذنب في القبر. فإن كلها حب، وذلك لأن بذر النطفة، وكذا عظم عجب الذنب شيء كخردلة.

﴿لَوْ نَشَآءُ﴾ ﴿لَوْ﴾ للمضي، وإن دخل على المضارع، ولذا لا يجزمه، فهو شرط غير جازم؛ أي: لو أردنا ﴿لَجَعَلْنَٰهُ﴾؛ أي: الزرع بمعنى المزروع ﴿حُطَٰمًا﴾ هشيماً؛ أي: يابساً متفتتاً متكسراً بعد ما أنبتناه، واخضر بحيث طمعتم في حيازة غلاله، وجمعها من بعد ظهوره وقبل اشتداد حبه. ﴿فَظَلْتُمْ﴾؛ أي: فصرتم بسبب ذلك ﴿تَفَكَّهُونَ﴾؛ أي: تتعجبون من سوء حاله إثر ما شاهدتموه على أحسن ما يكون من الحال، أو تندمون على ما فعلتم فيه من الاجتهاد، وأنفقتم عليه، أو تندمون على ما أصبتم لأجله من المعاصي فتتحدثون فيه.

والحطام[2]: الهشيم الذي لا ينتفع به، ولا يحصل منه حب، ولا شيء مما يطلب من الحرث. وقال الفراء: ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ تتعجبون فيما نزل بكم في زرعكم. وقال الحسن، وقتادة، وغيرهما: معنى الآية: تعجبون من ذهابها، وتندمون مما حل بكم. وقال عكرمة: تلاومون، وتندمون على ما سلف منكم من معصية الله. وقال ابن زيد: تفجعون. وهذا[3] كله تفسير باللازم. ومعنى ﴿تَفَكَّهُونَ﴾: تطرحون

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) البحر المحيط.

الفكاهة عن أنفسكم. وهي المسرة. ورجل فكه، منبسط النفس، غير مكترث بشيء. وتفكه من أخوات تحرج وتحوب.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فَظَلْتُمْ﴾ بفتح الظاء مع لام واحدة. وقرأ أبو حيوة، وأبو بكر في رواية الفيكي عنه بكسرها كما قالوا: مسست بفتح الميم وكسرها. وحكاها الثوريّ من ابن مسعود، وجاءت عن الأعمش، وقرأ ابن عباس، والجحدري ﴿فظللتم﴾ بلامين. أولاهما مكسورة على الأصل. وقرأ الجحدري أيضاً بفتحها. وهي لغة. والمشهور: ظللت بالكسر. وقرأ الجمهور ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ بالهاء. وقرأ أبو حزام العكلي: ﴿تفكنون﴾ بالنون بدل الهاء؛ أي: تندمون. قال ابن خالويه: ﴿تفكه﴾ تعجب تفكن تندم وفي «المصباح»: التفكن: التندم. ومنه: الحديث: «مثل العالم كمثل الحمة يأتيها البعداء، ويتركها القرباء. فبينا هم إذ غار ماؤها، فانتفع بها قوم يتفكنون» أي يتندمون. والحمة: العين الحارة من الحمم. وهو الماء الحار يستشفي به الأعلاء والمرضى.

وقوله: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ مقول لقول محذوف وقع حالاً من فاعل ﴿تَفَكَّهُونَ﴾؛ أي: فظلتم تفكهون حال كونكم قائلين: إنا لملزمون غرامة ما أنفقنا، والغرامة أن يلزم الإنسان ما ليس في ذمته، وعليه. كما في «المغرب». أو مهلكون بهلاك زرعنا، أبو بشؤم معاصينا، أو معذبون من الغرام، وهو أشد العذاب. قال الشاعر:

إِنْ يُعَذِّبْ يَكُنْ غَرَامَاً وَإِنْ   يُعْطِ جِزِيْلاً فَإِنَّهُ لاَ يُبَالِيْ

وقرأ الجمهور[2]: ﴿إِنَّا﴾ بهمزة واحدة على الخبر. وقرأ الأعمش، وأبو بكر، والجحدري، والمفضل، وزر بن حبيش بهمزتين على الاستفهام.

والظاهر من السياق المعنى الأول[3]. أعني: ملزمون غرما بما هلك من زرعنا، أي: إنا لمغرمون بذهاب ما حرثناه، ومصيره حطاماً. جمع مغرم. والمغرم: الذي ذهب ماله بغير عوض، ثم أضربوا عن قولهم هذا، وانتقلوا فقالوا:

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾ حرمنا رزقنا بهلاك زرعنا. والمحروم: الممنوع من الرزق الذي لا حظ له فيه، أو محدودون لا مجدودون؛ أي: ممنوعون من الحد وهو المنع؛ أي: لا حظ لنا، ولا جد، ولا بخت. ولو كنا مجدودين.. لما فسد علينا هذا.

روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: مر رسول الله ﷺ بأرض الأنصار، فقال: «ما يمنعكم من الحرث»؟ قالوا: الجدوبة. قال: «أفلا تفعلون فإن الله تعالى يقول: أنا الزارع إن شئت زرعت بالماء، وإن شئت زرعت بالريح، وإن شئت زرعت بالبذر». ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾ الآية. ففي الحديث إشارة إلى أن الله تعالى هو الذي يعطي ويمنع بأسباب وبغيرها. فالتوحيد هو أن يعتقد أن التأثير من الله تعالى لا من غيره، كالكوكب ونحوه، فإنه يتهم النفس بالمعصية القاطعة للرزق.

وفي الحديث: «ما سنة بأمطر من أخرى، ولكن إذا عمل قوم بالمعاصي حول الله ذلك إلى غيرهم، فإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك إلى الفيافي، والبحار». وفي الحديث: «دُم على الطهارة يوسع عليك الرزق». فإذا كان توسيع الرزق في الطهارة، فتضييقه في خلافها، والرزق ظاهر وباطن، وكذا الطهارة والنجاسة. فلا بد لطالب الرزق مطلقاً أن يكون على طهارة مطلقة دائماً.

فإن قلت: فما حال أكثر السلف؛ فإنهم كانوا فقراء مع دوام الطهارة؟

قلت: كان السلف في الرزق المعنوي أكثر من الخلف، وهو المقصود الأصلي من الرزق. وإنما كانوا فقراء في الظاهر لكمال افتقارهم الحقيقي، كما قال عليه السلام: «اللهم أغنني بالافتقار إليك». فمنعوا عن الغنى الصوري تطبيقاً لكل من الظاهر والباطن بالآخر، فهم أغنى الأغنياء في صورة الفقراء، وعداهم ممن ليس على صفتهم أفقر الفقراء في صورة الأغنياء، فالمرزوق من رزق غذاء الروح من الإلهامات، والعلوم، والفيوض، والمحروم: من حرمه، فاعرفه.

والمعنى: أي نحن أنبتناه بلطفنا ورحمتنا، وأبقيناه لكم. ولو شئنا.. لأيبسناه قبل استوائه واستحصاده؛ فأصبح لا ينتفع به في مطعم، ولا في غذاء. فصرتم تعجبون من سوء حاله إثر ما شاهدتم فيه من الخضرة، والنضرة، والبهجة، والرواء،

وتقولون: حقًّا إنا لمعذبون مهلكون لهلاك أرزاقنا؟ لا بل هذا أمر قدر علينا لنحس طالعنا، وسوء حظنا.

ثم أعقبه بدليل آخر في المشروب. فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾؛ أي: أخبروني أيها الناس ﴿ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ عذباً فراتاً، فتسكنون به ما يلحقكم من العطش، وتدفعون به ما ينزل بكم من الظمأ. واقتصر سبحانه على ذكر الشرب مع كثرة فوائد الماء، ومنافعه؛ لأنه أعظم فوائده، وأجل منافعه. ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾؛ أي: من السحاب. واحده مزنة. وقيل: هو السحاب، وماؤه أعذب. والمراد به: المطر. ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ له بقدرتنا دون غيرنا. فإذا عرفتم ذلك فكيف لا تقرون بالتوحيد، وتصدقون بالبعث. والرؤية[1] إن كانت بمعنى العلم، فمعلقة بالاستفهام، وإن كانت بمعنى الإبصار، أو المعرفة فالجملة الاستفهامية استئناف. وهذا هو اختيار الرضي.

ثم بين لهم سبحانه أنه لو يشاء لسلبهم هذه النعمة. فقال: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ﴾؛ أي: جعلنا ذلك الماء النازل من المزن ﴿أُجَاجًا﴾؛ أي: ملحاً زعافاً، لا يمكن شربه. والأجاج[2]: الماء الشديد الملوحة الذي لا يمكن شربه. وقال الحسن: هو الماء المر الذي لا ينتفعون به في شرب، ولا زرع، ولا غيرهما. وحذف[3] اللام ههنا، وأثبتها في الشرطية الأولى للفرق بين المطعوم والمشروب في الأهمية، وصعوبة الفقد. يعني: أن أمر المطعوم مقدم على أمر المشروب وأن الوعيد بفقده أشد، وأصعب من قبل أن المشروب إنما يحتاج إليه تبعاً للمطعوم. وقيل: ذكر اللام في جواب لو في الزرع عملاً بالأصل، وحذفها منه في الماء اختصاراً لدلالة الأول عليه.

﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: فهلا تشكرون ما ذكر جميعاً من المطعوم والمشروب بتوحيد منعمه، وإطاعة أمره. أو فلولا تشكرون على أن جعلناه عذباً؛ أي: فهلا تشكرون نعمة الله الذي خلق لكم ماء عذباً تشربون منه، وتنتفعون به.

والمعنى[4]: أي أفرأيتم أيها الناس الماء العذب الذي تشربونه أأنتم أنزلتموه

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

(٤) المراغي.

من السحاب الذي فوقكم إلى قرار الأرض، أم نحن منزلوه لكم لو نشاء لجعلناه ملحاً زعافاً لا تنتفعون به في شرب، ولا غرس، ولا زرع. فهلا تشكرون ربكم على إنزاله المطر عذباً زلالاً. ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١﴾.

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي جعفر رحمه الله عنه: أن النبي ﷺ كان إذا شرب الماء قال: «الحمد لله الذي سقانا عذباً فرتاً برحمته، ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إن تحت العرش بحراً تنزل منه أرزاق الحيوانات يوحي الله سبحانه إليه، فيمطر ما شاء من سماء إلى سماء حتى ينتهي إلى سماء الدنيا، ويوحي إلى السماء أن غربليه فتغربله، فليس من قطرة تقطر إلا معها ملك يضعها موضعاً، ولا ينزل من السماء قطرة إلا بكيل معلوم ووزن معلوم إلا ما كان من يوم الطوفان. فإنه نزل بغير كيل ولا وزن. وقال بعض الحكماء: إن المطر يأخذه قوس الله من البحر إلى السحاب، ثم ينزل من السحاب إلى الأرض. قال بعضهم: هو أدخل في القدرة. لأن ماء البحر مر، فيصعد ملحاً، وينزل عذباً.

وفي الآية[1]: إشارة إلى أن بعض بلاد العرب ليس لها آبار، ولا أنهار جارية. فلا يشرب أهلها إلا من المطر في المصانع.

فمنها: القدس الشريف، وينبع، وجدة المحروسة، ونحوها. وللماء العذب مزيد فضل من هذه البلاد، ولذا امتن الله به على العباد.

﴿أَفَرَءَيۡتُمُ﴾ أيها الكفرة ﴿ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ﴾؛ أي: أخبروني عن النار التي تقدحونها، وتستخرجوها من الزناد. والعرب تقدح بعودين، تحك أحدهما على الآخر، ويسمون الأعلى الزند، والأسفل الزندة. شبهوهما بالفحل والطروقة. يقال: ناقة طروقة؛ أي: بلغت أن يضربها الفحل. لأن الطرق الضرب. ﴿ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ﴾ وأوجدتم ﴿شَجَرَتَهَآ﴾ التي منها الزناد. وهي المرخ، والعقار، كما مر في سورة يس.

---

(١) روح البيان.

﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ لها بقدرتنا دونكم، ومعنى الإنشاء: الخلق، وعبر عنه بالإنشاء للدلالة على ما في ذلك من بديع الصنعة، وعجيب القدرة. ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا﴾؛ أي: جعلنا هذه النار التي في الدنيا ﴿تَذْكِرَةً﴾ لنار جهنم الكبرى؛ أي: جعلنا نار الزناد تذكيراً لنار جهنم من حيث إنه علقنا بها أسباب المعاش لينظروا إليها، ويذكروا ما أوعدوا به من نار جهنم. أو تذكرة وموعظة وأنموذجا من جهنم؛ لما روي عن النبيّ ﷺ: «ناركم هذه التي يوقدها بنو آدم جزء من سبعين جزءاً من حر نار جهنم». وقيل: تبصرة في أمر البعث. فإنه ليس أبدع من إخراج النار من الشيء الرطب. وفي «عين المعاني»: وهو حجة على منكري عذاب القبر، حيث تضمن النار ما لا يحرق ظاهره. ﴿وَمَتَٰعًا﴾؛ أي: منفعة، وبلغة. لأن حمل النار يشق. ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾؛ أي: للذين ينزلون القواء بالفتح، وهو القفر الخالي عن الماء، والكلاء، والعمارة، وهم المسافرون، وتخصيصهم بذلك؛ لأنهم أحوج إليها ليهرب منها السباع، ويصطلوا من البرد، ويجففوا ثيابهم، ويصلحوا طعامهم. فإن المقيمين أو النازلين بقرب منهم ليسوا بمضطرين إلى الاقتداح بالزناد. وتأخير هذه المنفعة للتنبيه على أن الأهم هو النفع الأخروي.

والمعنى[1]: أي أفرأيتم النار التي تقدحونها، وتستخرجونها من الزناد أأنتم أنشأتم شجرتها التي منها الزناد أم نحن المنشئون لها بقدرتنا؟ وكانت العرب توقد النار بطريق احتكاك المرخ بالعقار «نوعان من الشجر» فيأتون بعود من العقار، وبقطعة عريضة من المرخ. يحفرون في وسطها حفرة ثم يضعون عود العقار في هذه الفجوة. ويأت فتى من فتيان القبيلة، ويحرك عود العقار فيها بالتوالي، ويأتي بعده آخر، ويصنع صنيع سابقه، ولا يزالون يفعلون هكذا حتى تشتعل النار من كثرة الاحتكاك.

وهذه عملية شاقة عسرة، ومن ثم كان البيت في القبيلة إذا رأى النار موقدة استعار جذوة منها. وإلى هذا أشار بقوله سبحانه في قصص موسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾. ثم

(١) المراغي.

بين منافع هذه النار، فقال: ﴿نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا...﴾ إلخ؛ أي: نحن جعلنا النار تبصرة في أمر البعث، حيث علقنا بها أسباب المعاش لينظروا إليها، ويذكروا بها ما أوعدوا به؛ لأنَّ من أخرج النار من الشجر الأخضر المضاد لها فهو قادر على إعادة ما تفرقت مواده، وجعلناها منفعة لمن ينزلون القواء والمفاوز من المسافرين. فكم من قوم سافروا، ثم أرملوا فأججوا ناراً، فاستدفئوا، وانتفعوا بها. وقد كان من لطف الله أن أودعها الأحجار، وخالص الحديد فيتمكن المسافر من حملها في متاعه وبين ثيابه. وإذا احتاج إليها في منزله أخرج زنده، وأورى، وأوقد ناراً، فطبخ بها، واصطلى واشتوى واستأنس بها، وانتفع بها في وجوه المنافع المختلفة.

وفي الحديث: «المسلمون شركاء في ثلاثة: النار، والكلأ، والماء». وفي «فتح الرحمن»: بدأ سبحانه بذكر خلق الإنسان، ثم بما لا غنى له عنه. وهو الحب الذي منه قوته. ثم بالماء الذي به سوغه، وعجنه. ثم بالنار التي بها نضجه، وصلاحه. وذكر عقب كل من الثلاثة الأولى ما يفسده، فقال في الأولى: ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾، وفي الثانية: ﴿لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا﴾، وفي الثالثة: ﴿لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا﴾. ولم يقل في الرابعة ما يفسدها بل قال: ﴿نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ ۝٧٣﴾ انتهى.

والفاء في قوله: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ۝٧٤﴾ للإفصاح؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أيها الإنسان جميع ما عددته لك من النعم التي أنعمت بها على عبادي، وجحود المشركين لها، وتكذيبهم بها، وأردت بيان ما هو اللازم لك في الشكر فأقول لك: سبح؛ أي: نزه، وقدس اسم ربك عما لا يليق به كمشاركة غيره تعالى له في ذلك الاسم: كالإله، والرحمن والخالق. كما تنزه ذاته عن جميع النقائص؛ لأن ما ثبت للمسمى من التنزيه والتقديس فهو ثابت للاسم؛ لأن اسمه تعالى مهاب محترم معظم منزه، كما أن ذاته كذلك.

أي[1]: لا تقل لغيره تعالى: إنه إله. فإن الاسم يتبع المعنى، والحقيقة؛ أي: إن الكفار اعترفوا بأن الأمور من الله تعالى، وإذا طولبوا بالوحدانية قالوا: نحن لا نشرك في المعنى، وإنما نتخذ أصناماً آلهة في الاسم، ونسميها آلهة، والله هو الذي

(١) المراح.

خلقها، فنحن ننزهه تعالى في الحقيقة. فقال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾؛ أي: فكما أنت أيها العاقل اعترفت بعدم اشتراك الله مع غيره في الحقيقة اعترفت بعدم اشتراكهما في الاسم والمعنى. تعجب من أمرهم، وقل: سبحان الله العظيم.

ولم يقل[1]: فسبح ربك لأن سبح منزل منزلة اللازم، ولم يعتبر تعلقه بالمفعول، ومعناه: فأحدث التسبيح بذكر اسمه تعالى بإضمار المضاف شكراً على تلك النعم، وإن جحدها الجاحدون، أو أحدث التسبيح بذكره تعالى على المجاز؛ فإن إطلاق الاسم للشيء ذكر له. والباء للاستعانة، أو للملابسة، والمراد بذكر ربّه هنا: تلاوة القرآن، والعظيم صفة للاسم أو الرب.

قال ابن عطاء رحمه الله تعالى: سبحه إن الله أعظم من أن يلحقه تسبيحك، أو يحتاج إلى شيء منك، لكنه شرف عبيده بأن أمرهم أن يسبحوه ليطهروا أنفسهم بما ينزهونه به، انتهى.

وفي «فتح الرحمن»: قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾؛ أي[2]: نزه ربك. فقوله: «باسم» زائد. أو المعنى: نزه اسم ربك. فالباء زائدة، والاسم باق على معناه أو هو بمعنى الذات أو بمعنى الذكر. أو الباء متعلقة بمحذوف حال.

قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ ذهب[3] جمهور المفسرين إلا أنَّ ﴿لا﴾ مزيدة للتأكيد، وتقوية الكلام كما في قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾. والمعنى: فأقسم. ويؤيد هذا القول قوله فيما بعد: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ﴾. وقال جماعة من المفسرين: إنها للنفي، وإن المنفي بها محذوف. وهو كلام الكفار الجاحدين. وقال الفراء: هي نفي.

والمعنى: ليس الأمر كما تقولون، ثم استأنف فقال: أقسم. وضعف هذا القول بأن حذف اسم لا وخبرها غير جائز، كما قاله أبو حيان وغيره. وقيل إنها لام الابتداء. والأصل: فلأنا أقسم بذلك. فحذف المبتدأ، وأشبعت فتحة لام الابتداء، فتولد منها ألف، كقول الشاعر:

---

(١) روح البيان.
(٢) فتح الرحمن.
(٣) الشوكاني.

وقد قرأ هكذا ﴿فلأقسم﴾ بدون ألف الحسن، وحميد، وعيسى بن عمر.
وقيل: ﴿لا﴾ هنا على ظاهرها، وإنها لنفي القسم.

والمعنى: فلا أقسم على هذا إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم خصوصاً إلى مثل هذا القسم العظيم. وهذا القول مدفوع بتعيين المقسم به بقوله: ﴿بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾، وتفخيم شأنه بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾.

وقوله: ﴿بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾؛ أي[1]: بمساقطها. وهي مغاربها. وتخصيصها بالقسم لما في غروبها من زوال أثرها، والدّلالة على وجود مؤثر دائم لا يتغير، أو لأن ذلك وقت قيام المتهجّدين، والمبتهلين إليه، وأوان نزول الرحمة والرضوان عليهم. أو بمنازلهما ومجاريهما. فإن له تعالى في ذلك من الدليل على عظم قدرته، وكمال حكمته ما لا يحيط به البيان. وقيل: المراد بالنجوم: نجوم القرآن، ومواقعها أوقات نزولها، وإليه ذهب ابن عباس رضي الله عنهما وقيل: المراد بالنجوم: الصحابة، والعلماء الهادون بعدهم، ومواقعهم مقابرهم. وقيل: غير ذلك.

والمعنى: أقسم بمساقط النجوم، ومغاربها على أن هذا المنزل عليك لقرآن كريم، وله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وقد أقسم سبحانه على كثير من مخلوقاته العظيمة دلالة على عظم مبدعها، فأقسم بالشمس، والقمر، والليل، والنهار، ويوم القيامة، والتين، والزتيون، كما أقسم بالأمكنة. فأقسم بطور سينين، ومكة المكرمة.

وقرأ الجمهور: ﴿بِمَوَاقِعِ﴾ جمعاً. وقرأ عمر، وعبد الله، وابن عباس، وأهل المدينة، وحمزة، والكسائي، وابن محيصن، وورش عن يعقوب ﴿بموقع﴾. قال المبرد: موقع ههنا مصدر، فهو يصلح للواحد والجمع.

فائدة: المناسبة بين المقسم به وهو النجوم، وبين المقسم عليه وهو القرآن الكريم في هذه الآية أن النجوم جعلها الله سبحانه ليهتدي بها الناس في ظلمات البر والبحر، وآيات القرآن يهتدى بها في ظلمات الجهل والضلالة، وتلك ظلمات

---

(١) روح البيان.

حسية، وهذه ظلمات معنوية. فالقسم هنا جاء جامعاً بين الهدايتين: الحسية للنجوم، والمعنوية للقرآن. فهذا وجه المناسبة.

ثم أخبر سبحانه عن تعظيم هذا القسم، وتفخيمه. فقال: ﴿وإنه﴾؛ أي: وإن هذا القسم المذكور ﴿لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ لما في المقسم به من الدلالة على عظم القدرة، وكمال الحكمة، وفرط الرحمة. ومن مقتضيات رحمته أن لا يترك عباده سدى بغير كتاب. وجملة ﴿إِنَّ﴾ معترضة بين المقسم به، والمقسم عليه. وجملة ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾ معترضة بين الصفة والموصوف لتأكيد تعظيم المحلوف به. فهو اعتراض في اعتراض، وجواب ﴿لو﴾ متروك، أريد به نفي علمهم أو محذوف ثقة بظهوره؛ أي: لعظمتموه أو لعلمتم بموجبه، ففيه تنبيه على تقصير المخاطبين في الأمر، قال الفرّاء، والزجاج: وهذا يدل على أن المراد بمواقع النجوم: نزول القرآن. والضمير في ﴿إِنَّهُ﴾ يعود على القسم الذي يدل عليه ﴿أُقْسِمُ﴾، والمعنى: أن القسم بمواقع النجوم لقسم عظيم لو تعلمون.

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه، فقال: ﴿إِنَّهُ﴾؛ أي: إن هذا الكتاب المنزل عليك يا محمد ﴿لَقُرْءَانٌ﴾؛ أي: لكتاب ﴿كَرِيمٌ﴾ كرمه الله سبحانه، وأعزه، ورفع قدره على جميع الكتب، وكرمه عن أن يكون سحراً أو كهانة أو كذباً، وقيل: إنه كريم لدلالته على مكارم الأخلاق، ومعالي الأمور، وشرائف الأفعال. وقيل: لأنّه يكرم حافظه، ويعظم قارئه. وقيل: لأنّه كتاب كثير الخير والنفع لاشتماله على أصول العلوم المهمة في صلاح المعاش والمعاد على أن يستعار الكرم ممن يقوم به الكرم من ذوي العقول إلى غيرهم. قال الأزهريّ: الكريم اسم جامع لما يحمد. والقرآن كريم يحمد لما فيه من الهدى، والبيان، والعلم، والحكمة. ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾؛ أي: مصون من غير المقربين من الملائكة، أي: لا يطلع عليه من سواهم، وهو اللوح المحفوظ. وقيل: محفوظ عن الباطل، وقال عكرمة: هو التوراة والإنجيل فيهما ذكر القرآن، ومن ينزل عليه. وقال السدي: هو الزبور، وقال مجاهد، وقتادة: هو المصحف الذي في أيدينا.

فإن قلت: القرآن صفة قديمة قائمة بذات الله تعالى، فكيف يكون حالًا في كتاب مكنون؛ أي: لوح محفوظ أو مصحف؟

قلت: لا يلزم من كتابته في كتاب حلوله فيه كما لو كتب على شيء ألف دينار لا يلزم منه وجودها فيه، ومثله قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾. فثبت أنه ليس حالًا في شيء من ذلك، بل هو كلام الله تعالى، وكلامه صفة قديمة قائمة به لا تفارقه.

فإن قلت: إذا لم تفارقه فكيف سمّاه منزلاً؟.

قلت: معنى إنزاله تعالى له: إنه علمه جبريل، وأمره أن يعلمه النبي ﷺ ويأمره أن يعلمه لأمته مع أنه لم يزل، ولا يزال صفة لله تعالى قائمة به لا تفارقه.

وقوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ إمَّا[1] صفة لكتاب فالمراد بالمطهرين الملائكة المنزهون من الكدورات الجسمانية، وأوضار الأوزار أو للقرآن، فالمراد المطهرون من الأحداث مطلقاً. فيكون نفياً بمعنى النهي؛ أي: لا ينبغي أن يمسه إلا من كان على طهارة من الأدناس كالحدث والجنابة ونحوهما على طريقة قوله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يسلمه»؛ أي: لا ينبغي له أن يظلمه أو يسلمه إلى من يظلمه. فالمراد من القرآن: المصحف، سماه قرآناً على قرب الجوار والاتساع، كما روي أن رسول الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو، وأراد به: المصحف.

وفي الفقه: لا يجوز لمحدث بالحدث الأصغر ـ وهو ما يوجب الوضوء ـ مس المصحف إلا بغلافه المنفصل الغير المشرز كالخريطة ونحوها؛ لأن مسه ليس مسّاً بالقرآن حقيقة إلا المتصل في الصحيح. وهو المجلد المشرز؛ لأنه من المصحف يعني: تبع له، حتى يدخل في بيعه بلا ذكر، وهذا أقرب إلى التعظيم، وكره المس بالكم؛ لأنه تابع للحامل، فلا يكون حائلاً، ولهذا لو حلف لا يجلس على الأرض، فجلس وذيله بينه وبين الأرض حنث، وإنما منع الأصغر عن مس المصحف دون تلاوته؛ لأنه حل اليد دون الفم، ولهذا لم يجب غسله في الوضوء، والجنابة كانت حالة كليهما. ولا يرد العين؛ لأنّ الجنب حل نظره إلى مصحف بلا قراءة، وكذا لا يجوز لمحدث مس درهم فيه سورة إلا بصرته، ولا لجنب دخول

---

(١) روح البيان.

المسجد إلا لضرورة، فإن احتاج إلى الدخول تيمم، ودخل؛ لأنه طهارة عند عدم الماء، ولا قراءة القرآن، ولو دون آية لأن ما دونها شيء من القرآن أيضاً إلا على وجه الدعاء أو الثناء أو التبرك كالبسملة والحمدلة.

وفي «الأشباه»: لو قرأ الفاتحة في صلاته على الجنازة على قول الشعبي، ومن وافقه إن قصد الدعاء والثناء لم يكره، وإن قصد التلاوة كره، وفيه إشارة إلى أن حكم القراءة يتغير بالقصد، ويجوز للجنب الذكر والتسبيح، والدعاء. والحائض والنفساء كالجنب في الأحكام المذكورة، ويدفع المصحف إلى الصبيّ؛ إذ في الأمر بالوضوء حرج بهم، وفي المنع تضييع حفظ القرآن؛ إذ الحفظ في الصغر كالنقش في الحجر، وفي «الأشباه»: ويمنع الصبي من مس المصحف، انتهى. والتوفيق ظاهر.

وفي «كشف الأسرار»: وأما الصبيان فلأصحابنا فيهم وجهان:

أحدهما: أنهم يمنعون منه كالبالغين.

والثاني: أنهم لا يمنعون لمعنيين:

أولاً: أن الصبي لو منع ذلك.. أدى إلى أن لا يتعلم القرآن، ولا يحفظه. لأن وقت تعلمه، وحفظه حال الصغر.

ثانياً: أن الصبي وإن كانت له طهارة.. فليست بكاملة؛ لأن النية لا تصح منه، فإذا جاز أن يحمله على غير طهر كامل جاز أن يحمله محدثاً، انتهى.

هذا وقد ذهب جمهور العلماء[1] إلى منع المحدث، وكذا الجنب والحائض من مس المصحف، وحمله، وبذلك قال عليٌّ، وابن مسعود، وسعد ابن أبي وقّاص، وعطاء، وطاوس، وسالم، والقاسم، وجماعة من الفقهاء منهم: مالك، والشافعي، ويدل عليه ما روى مالك في الموطأ عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: إن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم: «أن لا تمس القرآن إلا طاهراً». أخرجه مالك مرسلاً. وقد جاء موصولاً عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده: أنَّ رسول الله ﷺ كتب إلى أهل

---

(١) الخازن.

اليمن بهذا، والصحيح فيه الإرسال. وروى الدارقطني بسنده عن سالم عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يمس القرآن إلا طاهر». والمراد بالقرآن: المصحف. وقال الحكم، وحماد، وأبو حنيفة: يجوز للمحدث، والجنب حمل المصحف، ومسه بغلافه، فإن قلت: إذا كان الأصح: أن المراد من الكتاب هو اللوح المحفوظ، وأن المراد من لا يمسه إلا المطهرون هم الملائكة. ولو كان المراد نفي الحدث.. لقال: لا يمسه إلا المتطهرون، من التطهر، كيف يصح قول الشافعي: لا يجوز للمحدث مس المصحف؟.

قلت: من قال: إن الشافعي أخذه من صريح الآية حمله على التفسير الثاني. وهو القول: بأن المراد من الكتاب هو المصحف. ومن قال: إنه أخذه من طريق الاستنباط قال: المس بطهر صفة دالة على التعظيم، والمس بغير طهر نوع استهانة، وهذا لا يليق بمباشرة المصحف الكريم، والصحيح: أنه أخذه من السنة. ودليله ما تقدم من الأحاديث. والله أعلم.

ومعنى الآيات: فأقسم بمساقط النجوم، ومغاربها، وإنَّ هذا القسم قسم عظيم لو تعلمون عظمته.. لانتفعتم بذلك، أو فاعلموا عظمته؛ أي: أقسم بمواقعها إنه لقرآن كريم؛ أي: عزيز مكرم مستقر في كتاب مكنون؛ أي: مصون مستور عند الله تعالى؛ أي: في لوح محفوظ من أن يناله الشيطان بسوء، أو في مصحف مصون محفوظ من التبديل والتحريف. والقول الأول أصح. لا يمس ذلك الكتاب المكنون أعني: اللوح المحفوظ إلا الملائكة المطهرون. وهذا مروي عن ابن عباس، وأنس. وهو قول سعيد بن جبير، وأبي العالية، وقتادة، وابن زيد. أو لا يمس ذلك المصحف إلا المطهرون من الشرك. يعني: لا يمكن أهل الشرك من قراءته. قال الفراء: لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن به، أو لا يمسه إلا المطهرن من الأحداث والجنابات. وقال الحسين بن الفضل: المراد: أنه لا يعرف تفسيره وتأويله إلا من طهره الله من الشرك والنفاق. وفي حرف ابن مسعود[1]: ﴿ما يمسه إلا المطهرون﴾.

وقرأ الجمهور ﴿ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ بتخفيف الطاء، وتشديد الهاء مفتوحة اسم مفعول من طهر مشدداً، وقرأ عيسى كذلك مخففاً اسم مفعول من أطهر. ورويت عن نافع

(١) البحر المحيط.

وأبي عمرو، وقرأ سلمان الفارسي ﴿المُطَهِّرُون﴾ بتخفيف الطاء، وشد الهاء وكسرها اسم فاعل من طهر المضاعف؛ أي: المطهرون أنفسهم. وقرأ الحسن، وزيد بن عليّ، وعبد الله بن عوف بتشديد الطاء والهاء وكسر الهاء. أصله: المتطهرون فأدغمت التاء في الطاء. وقرىء ﴿المتطهرون﴾.

وقرأ الجمهور ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ بالرفع[1] على أنه صفة ثالثة لقرآن، أو خبر مبتدأ محذوف. وقرىء بالنصب على الحال، أو على المصدرية بفعله المحذوف؛ أي: نزل تنزيلاً. أي: هذا القرآن منزل من عند رب العالمين منجماً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة؛ لأن صيغة التفعيل تدل على التكرير، فليس بالسحر، ولا بالكهانة، ولا بالشعر، وهو الحق الذي لا مرية فيه، وليس وراءه شيء نافع.

وبعد أن بين مزاياه، وأنه من لدن عليم خبير ذكر أنه لا ينبغي التهاون في أوامره ونواهيه، بل ينبغي التمسك به، فقال: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ الذي ذكرت نعوته الجليلة الموجبة لإعظامه وإجلاله، وهو القرآن الكريم، وسماه حديثاً؛ لأن فيه حوادث الأمور، كما في «كشف الأسرار». وهو متعلق بقوله: ﴿مُّدْهِنُونَ﴾. وجاز تقديمه على المبتدأ، لأنَّ عامله يجوز فيه ذلك. والأصل: أفأنتم مدهنون بهذا الحديث. ﴿أَنتُم﴾ يا أهل مكة ﴿مُّدْهِنُونَ﴾؛ أي:[2] متهاونون، مستحقرون كمن يدهن في الأمر؛ أي: يلين جانبه، ولا يتصلب فيه تهاوناً به، والتدهين كالمداهنة عبارة عن المداراة، والملاينة، وترك الجد، قال في «الإحياء»: الفرق بين المداهنة، والمداراة يكون بالنظر إلى الغرض الباعث على الإغضاء، فإن أغضيت لسلامة دينك، ولما ترى فيه من إصلاح أخيك بالإغضاء فأنت مدار، وإن أغضيت لحظ نفسك، واجتلاب شهواتك، وسلامة جاهك فأنت مداهن. قال أبو الدرداء رضي الله عنه: إنا لنبش في وجوه أقوام، وإن قلوبنا لتغلنهم، وهذا معنى المداراة. وهو منع شر من يخاف شره.

والمعنى[3]: أي فبهذا القرآن تتهاونون، وتمالئون من يتكلم فيه، ولا تظهرون

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

له المخالفة، وعدم الرضا.

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾؛ أي: شكر رزقكم بتقدير المضاف ليصح المعنى، كما حكاه الوادي عن المفسرين. والرزق[1] في الأصل مصدر سمي به ما يرزق، والمراد: نعمة القرآن، أي: تجعلون شكر رزقكم ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ بنعمة الله فتضعون التكذيب لرازقه موضع الشكر، أو تجعلون شكر رزقكم الصوري أنكم تكذبون بكونه من الله، حيث تنسبونه إلى الأنواء، وكان ﷺ يقول: «لو حبس الله القطر عن أمتي عشر سنين ثم أنزل.. لأصبحت طائفة منهم يقولون: سقينا بنوء كذا». وقال ﷺ: «أخوف ما أخاف على أمتي حيف الأئمة، والتكذيب بالقدر، والإيمان بالنجوم». وقال الهيثم: إن أزدشنوءة يقولون: ما رزق فلان؛ أي: ما شكر.

وعلى هذه اللغة لا يكون في الآية مضاف محذوف، بل معنى الرزق: الشكر. ومما يدخل تحت هذه الآية قول الكفار إذا سقاهم الله تعالى، وأنزل عليهم المطر: سقينا بنوء كذا، ومطرنا بنوء كذا.

ووجه التعبير بالرزق عن الشكر[2]: أن الشكر يفيض زيادة الرزق، فيكون الشكر رزقاً تعبيراً بالسبب عن المسبب، وقال الأزهري: معنى الآية: وتجعلون بدل شكركم رزقكم الذي رزقكم الله تعالى التكذيب بأنه من عند الله الرازق. وقال أبو حيان[3]: المعنى: وتجعلون شكر ما رزقكم الله من إنزال القرآن عليكم تكذيبكم به؛ أي: تضعون مكان الشكر التكذيب. ومن هذا المعنى قول الراجز:

مَكَانُ شُكْرِ ٱلْقَوْمِ عِنْدَ ٱلْمِنَنْ كَيُّ ٱلصَّحِيْحَاتِ وَفَقْءُ ٱلأَعْيُنِ

وقرأ علي، وابن عباس ﴿وتجعلون شكركم﴾. وذلك على سبيل التفسير لمخالفته السواد. وقرأ الجمهور[4] ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ بالتشديد من التكذيب. فالمعنى: أنه ليس من عند الله؛ أي: القرآن أو المطر، حيث ينسبون ذلك إلى النجوم. وقرأ

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) البحر المحيط.

(٤) البحر المحيط.

عليّ، والمفضل عن عاصم بالتخفيف من الكذب. والمراد بالكذب: قولهم في القرآن: سحر وافتراء، وفي المطر من الأنواء.

والخلاصة[1]: أنكم تضعون الكذب موضع الشكر. وهذا على نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾؛ أي: لم يكونوا يصلون، لكنهم كانوا يصفرون، ويصفقون مكان الصلاة. قال القرطبي: وفي هذا بيان بأن ما يصيب العباد من خير، فلا ينبغي أن يروه من قبل الوسائط التي جرت العادة بأن تكون أسباباً، بل ينبغي أن يروه من قبل الله تعالى، ثم يقابلوه بالشكر إن كان نعمة، وبالصبر إن كان مكروهاً تعبداً له وتذلُّلاً، اهـ.

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ لولا[2] للتحضيض لإظهار عجزهم. و«إذا» ظرفية مجردة أو مضمنة معنى الشرط. والحلقوم: مجرى الطعام. وفي «كشف الأسرار»: مجرى النفس. والبلعوم: مجرى الطعام. وجواب لولا هو ما سيأتي بقوله: ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾. والضمير في ﴿بَلَغَتِ﴾ عائد إلى غير مذكور. وهو الروح، ولم يتقدم لها ذكر.. لأن المعنى مفهوم عندهم إذا جاؤوا بمثل هذه العبارة؛ أي: فهلا إذا بلغت النفس؛ أي: الروح أو نفس أحدكم، وروحه الحلقوم وتداعت إلى الخروج. وفي الحديث: «إن ملك الموت له أعوان يقطعون العروق، ويجمعون الروح شيئاً فشيئاً حتى ينتهى بها إلى الحلقوم، فيتوفاها ملك الموت». ﴿وَأَنتُمْ﴾ ﴿الواو﴾ للحال من فاعل ﴿بَلَغَتِ﴾؛ أي: والحال أنتم أيها الحاضرون حول صاحبها ﴿حِينَئِذٍ﴾؛ أي: حين إذ بلغت الروح الحلقوم ﴿تَنظُرُونَ﴾ إلى ما هو فيه من الغمرات والسكرات. ولكم تعطف عليه، وشفقة ووفور رغبة في إنجائه من المهالك. ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى ذلك المحتضر علماً، وقدرة، وتصرفاً. قال بعضهم: عبر عن العلم بالقرب الذي هو أقوى سبب الاطلاع. ﴿مِنكُمْ﴾ أيها الحاضرون حوله، حيث لا تعرفون حاله إلا ما تشاهدونه من آثار الشدة من غير أن تقفوا عن كنهها، وكيفيتها، وأسبابها، ولا أن تقدروا على دفع أدنى شي منها. ونحن المتولون لتفاصيل أحواله بعلمنا وقدرتنا، أو بملائكة الموت الذين يقبضون روحه ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾؛ أي:

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

لا تدركون، ولا تعلمون كنه ما يجري عليه لجهلكم بشؤوننا. فقوله: ﴿لَّا تُبۡصِرُونَ﴾ من البصيرة، لا من البصر. والأقرب تفسيره بقوله: لا تدركون كوننا أعلم به منكم، كما في «حواشي سعديّ المفتي».

﴿فَلَوۡلَآ﴾ بمعنى هلا أيضاً ﴿إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ﴾؛ أي: غير مربوبين مملوكين أذلاء، من دان السلطان رعيته إذا سامهم، واستعبدهم. وفي «المفردت»: أو غير مجزيين؛ فإن الدين الجزاء أيضاً. وهو ناظر إلى قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾. فإن التحضيض يستدعي عدم المحضّض عليه حتماً. ﴿تَرۡجِعُونَهَآ﴾ أي[1]: النفس إلى مقرها، وتردون روح ميتكم إلى بدنه من الرجع. وهو الردّ، وهو العامل في ﴿إِذَا﴾، والمحضّض عليه بلولا الأولى. والثانية مكررة للتأكيد. وهي مع ما في حيّزها دليل جواب الشرط.

والمعنى: إن كنتم غير مربوبين، كما ينبىء عنه عدم تصديقم بخلقنا إيّاكم فهلا ترجعون النفس إلى مقرّها عند بلوغها الحلقوم ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في اعتقادكم. فإن عدم تصديقهم بخالقيته تعالى لهم عبارة عن تصديقهم بعدم خالقيته تعالى بموجب مذهبهم.

أي: فإذا لم يمكنكم ذلك، فاعلموا أن الأمر إلى غيركم، وهو الله تعالى. فآمنوا به. وقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ تكرير للتأكيد، لا من اعتراض الشرط. إذ لا معنى له هنا.

والمعنى[2]: أي فهلا إذا بلغت النفوس عند خروجها من أجساد موتاكم حلاقيمهم، وأنتم ومن حضركم من أهليكم تنظرون إليهم، ورسلنا الذين يقبضون أرواحهم أقرب إليهم منكم، ولكن لا تبصرون. وجواب لولا قوله الآتي: ﴿تَرۡجِعُونَهَآ﴾.

وخلاصة المعنى: إذا لم يكن لكم خالق وأنتم الخالقون فهلا ترجعون النفوس

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

إلى أجسادها حين خروجها من حلاقيمها؟ ثم كرر الحث والتحضيض مرة أخرى. فقال: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾﴾؛ أي: فهلا ترجعون النفس التي قد بلغت الحلقوم إلى مكانها الأول، ومقرّها من الجسد إن كنتم غير مصدقين أنكم تبعثون، وتحاسبون، وتجزون، ولن ترجعوها. فبطل زعمكم أنكم غير مربوبين، ولا مملوكين.

وبعد أن ذكر حال المحتضرين في الدنيا أردفها بذكر حالهم بعد الوفاة وقسمهم أزواجاً ثلاثة. فقال:

١ ـ ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ المتوفى ﴿مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾؛ أي: من الذين قربهم ربهم من جواره في جناته لفعله ما أمر به، وتركه ما نهي عنه، وهم أجل الأزواج الثلاثة. ﴿فَرَوْحٌ﴾؛ أي: فله استراحة وطمأنينة نفس ﴿وَرَيْحَانٌ﴾؛ أي: رزق واسع من عند الله تعالى. ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾؛ أي: بستان ذات تنعم ليس فيها غيره. وتبشره الملائكة بجنات النعيم، وقد جاء في حديث البراء بن عازب: «إن ملائكة الرحمة تقول: أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمرينيه فاخرجي إلى روح، وريحان، ورب غير غضبان». وقرأ الجمهور[1] ﴿فَرَوْحٌ﴾ بفتح الراء.

والمعنى: الراحة من الدنيا، والاستراحة من أحوالها. وقال الحسن: الروح: الرحمة. وقال مجاهد: الروح: الفرح، وقرأ ابن عباس، وعائشة، والحسن، وقتادة، ونصر بن عاصم، والجحدري، ونوح القارىء، والضحاك، والأشهب، وشعيب بن الحبحاب، وسليمان التيمي، والربيع بن خيثم، ومحمد بن عليّ، وأبو عمران الجوني، وغيرهم ﴿فرُوح﴾ بضم الراء. قيل: ومعنى هذه القراءة: الرحمة؛ لأنها كالحياة للمرحوم. والريحان: الرزق، قاله مجاهد، وسعيد بن جبير، ومقاتل. وقال الحسن: الريحان هو الريحان المعروف الذي يشم. قال قتادة، والربيع بن خيثم: هذا عند الموت، والجنة مخبوءة إلى أن يبعث.

٢ ـ ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ المتوفى ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ عبر عن السابقين بالمقربين لكونه أجل أوصافهم، وعبر عن أصحاب اليمين بالعنوان السابق. إذ لم يذكر لهم

---

(١) البحر المحيط والشوكاني.

فيما سبق وصف واحد ينبىء عن شأنهم سواه كما ذكر للفريقين الأخرين. واستعير اليمين للتيمن والسعادة، قاله الراغب. ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ﴾؛ أي: فتبشره الملائكة، وتقول له: سلام لك يا صاحب اليمين ﴿مِنْ﴾ إخوانك ﴿أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ يسلمون عليك عند الموت وبعده. فيكون السلام إشارة له إلى أنه من أهل الجنة، قال في «الإرشاد»: هذا إخبار من جهته تعالى بتسليم بعضهم على بعض، كما يفصح عنه اللام. لا حكاية لإنشاء سلام بعضهم على بعض، وإلا لقيل: عليك. والالتفات إلى خطاب كل واحد منهم للتشريف.

٣ - ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ المتوفى ﴿مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالحق ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ عن الهدى، وهم أصحاب الشمال. عبر عنهم بذلك حسبما وصفوا به عند بيان أحوالهم بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾﴾ ذمًّا لهم بذلك، وإشعاراً بسبب ما ابتلوا به من العذاب. وهو تكذيب البعث ونحوه ﴿فَنُزُلٌ﴾؛ أي: فله نزل كائن ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾؛ أي: من ماء حار يشرب بعد أكل الزقوم، كما فصل من قبل. ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾؛ أي: وإدخال في النار. وقيل: إقامة فيها، ومقاساة لألوان عذابها. وقيل: ذلك ما يجده في القبر من سموم النار، ودخانها. وهو مصدر مضاف إلى المفعول.

والمعنى: أي فيقدم ضيافة له ماء حميم يصهر به ما في بطنه والجلود، ويدخل في النار التي تغمره من جميع جهاته.

وقرأ الجمهور(١): ﴿وَتَصْلِيَةُ﴾ رفعاً عطفاً على ﴿فَنُزُلٌ﴾. وقرأ أحمد بن موسى، والمتقري، واللؤلؤي عن أبي عمرو بجر التاء عطفاً على ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾؛ أي: فنزل من حميم ومن تصلية جحيم.

ولما انقضى الإخبار بتقسيم أحوالهم، وما آل إليه كل قسم منهم أكد ذلك بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي ذكر في هذه السورة من أمر البعث الذي كذبوا به، ومن قيام الأدلّة عليه، ومن حال المقربين، وأصحاب اليمين، وحال المكذبين الضالين. ﴿لَهُوَ حَقُّ﴾ الخبر ﴿ٱلْيَقِينِ﴾ الذي لا شك فيه لتظاهر الأدلة القاطعة عليه، كأنه

---

(١) البحر المحيط.

مشاهد رأي العين. وهذا[1] على مذهب البصريين. فيجعلون المضاف إليه محذوفاً، والتقدير: حق الأمر اليقين، أو الخبر اليقين. وأما الكوفيون فيقولون: فهو من إضافة الشيء إلى نفسه؛ أي: لهو محض اليقين، وخالصه. قال المبرد: هو كقولك: عين اليقين، ومحض اليقين.

ولما[2] أعاد التقسيم موجزاً الكلام فيه أمره أيضاً بتسبيحه، وتنزيهه، والإقبال على عبادة ربه، والإعراض عن أقوال الكفرة المنكرين للبعث والحساب والجزاء. فقال: ﴿فَسَبِّحْ﴾ يا محمد أو أيها المخاطب؛ أي: نزه الله سبحانه عما لا يليق بشأنه حال كونك متلبساً ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾؛ أي: بذكره للتبرك به. وقيل: المعنى: فصل بذكر ربك. فالباء[3] متعلقة بمحذوف، كما قدرنا. وقيل: زائدة. والاسم بمعنى الذات. وقيل: هي للتعدية. لأن ﴿سَبِّحِ﴾ يتعدى تارة بنفسه كقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ①﴾، وتارة بحرف الجر كقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ⑦٤﴾. والأول أولى. والعظيم يجوز أن يكون صفة لاسم، ويجوز أن يكون صفة لربك، لأن كلا منهما مجرور.

والفاء في قوله: ﴿فَسَبِّحْ﴾ لترتيب التسبيح أو الأمر به على ما قبلها؛ فإن حقية ما فصل في تضاعيف السورة الكريمة يوجب تنزيهه تعالى عما لا يليق بشأنه الجليل من الأمور التي من جملتها الإشراك، والتكذيب بآياته الناطقة بالحقّ. وقال أبو عثمان: فسبح شكراً لما وفقنا أمتك إليه من التمسك بسنتك.

والمعنى[4]: أي فبعد أن استبان لك الحق، وظهر لك اليقين، فنزه ربك عما لا يليق به مما ينسبه الكفار إليه تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً.

وأخرج أحمد، وأبو داود، وابن ماجة عن عقبة بن عامر الجهني قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ⑦٤﴾ قال: «اجعلوها في

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

(٣) الشوكاني.

(٤) المراغي.

ركوعكم». ولما نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ قال: «اجعلوها في سجودكم». وكان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه: «سبحان ربي العظيم»، وفي سجوده «سبحان ربي الأعلى».

وسر اختصاص سبحان ربي العظيم بالركوع، والأعلى بالسجود[1] أن الأول إشارة إلى مرتبة الحيوان. والثاني: إشارة إلى مرتبة النبات والجماد. فلا بد من الترقي في التنزيه، والحق سبحانه فوق التحت كما أنه فوق الفوق. ونسبة الجهات إليه على السواء لنزاهته عن التقيد بالجهات، فلهذا شرع التسبيح في الهبوط. واختلف الأئمة في التسبيح المذكور في الصلاة. فقال أحمد: هو واجب، تبطل الصلاة بتركه عمداً، ويسجد لتركه سهواً. والواجب عنده مرة واحدة، وأدنى الكمال ثلاث. وقال أبو حنيفة، والشافعي: هو سنة. وقال مالك: يكره لزوم ذلك لئلا يعد واجباً فرضاً.

الإعراب

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩﴾.

﴿نَحْنُ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾ خبره. والجملة مستأنفة. ﴿فَلَوْلَا﴾ الفاء: عاطفة، ﴿لولا﴾ حرف تحضيض بمعنى هلّا، ﴿تُصَدِّقُونَ﴾ فعل مضارع، مرفوع بالنون، والواو: فاعل. والجملة التحضيضة معطوفة على ما قبلها. ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، ﴿رأيتم﴾ فعل، وفاعل، بمعنى أخبروني. والتقدير: أتنكرون البعث، وخلقي إيّاكم فأخبروني عمّا تمنون الخ. والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿مَّا﴾ اسم موصول في محل النصب، مفعول أول لـ ﴿رأيتم﴾، وجملة ﴿تُمْنُونَ﴾ صلة لـ ﴿مَّا﴾، والعائد محذوف، تقديره: ما تمنونه. ﴿ءَأَنتُمْ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاريّ، ﴿أنتم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ خبر. والجملة الاستفهامية في محل النصب مفعول ثان لـ ﴿رأيتم﴾. ويجوزإعراب ﴿أنتم﴾ فاعلاً بفعل مقدر؛ أي: أتخلقونه أنتم. فلما حذف الفعل لدلالة ما بعده عليه انفصل الضمير، وهو من باب الاشتغال. ولعله من جهة

---

(١) روح البيان.

القواعد أمكن لأجل أداة الاستفهام. ﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى بل الإضرابية، وهمزة الاستفهام التقريري، ﴿نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ مبتدأ وخبر. والجملة جملة إضرابية، لا محل لها من الإعراب؛ أي: بل نحن الخالقون لا أنتم، ويكون الكلام حينئذٍ مشتملاً على استفهامين. الأول: أأنتم تخلقونه. وجوابه لا. والثاني: مأخوذ من ﴿أَمْ﴾؛ أي: بل أنحن الخالقون، وجوابه نعم. ويجوز أن تكون ﴿أَمْ﴾ متصلة معادلة للهمزة، ويجاب عن وقوع الجملة بعدها بأن الخبر الذي بعد ﴿نَحْنُ﴾ أتي به على سبيل التأكيد، لا لتصحيح الكلام؛ إذ لو قيل: أم نحن لاكتفى به بدون الخبر. ويؤيد كونها متصلة أن الكلام يؤول إلى أي الأمرين واقع، وإذا صح ذلك كانت متصلة. إذا الجملة في تأويل المفرد، اهـ سمين.

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧)﴾.

﴿نَحْنُ﴾ مبتدأ، ﴿قَدَّرْنَا﴾ فعل، وفاعل، ﴿بَيْنَكُمُ﴾ متعلق بـ ﴿قَدَّرْنَا﴾ ﴿الْمَوْتَ﴾ مفعول به؛ أي: أوجبناه، وكتبناه عليكم. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ. والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَمَا﴾ الواو: عاطفة أو اعتراضية، ﴿مَا﴾ حجازية، ﴿نَحْنُ﴾ اسمها، ﴿بِمَسْبُوقِينَ﴾ خبرها، والباء: زائدة. والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا﴾، أو معترضة لاعتراضها بين الجار والمجرور الآتي، ومتعلقه الذي هو ﴿قَدَّرْنَا﴾. ﴿عَلَى﴾ حرف جر، ﴿أَنْ﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿نُبَدِّلَ﴾ فعل، وفاعل مستتر، منصوب بـ﴿أن﴾، ﴿أَمْثَالَكُمْ﴾ مفعول به. والجملة في تأويل مصدر مجرور بعلى؛ أي: على تبديلنا أمثالكم. والجار والمجرور متعلق بمسبوقين، أو بـ ﴿قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾. ﴿وَنُنْشِئَكُمْ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف على ﴿نُبَدِّلَ﴾، ﴿فِي مَا﴾ جار ومجرور، متعلق بـ ﴿ننشئكم﴾، وجملة ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾، أي: ننشئكم في صور لا تعلمونها من الحيوانات الممتهنة المرتطمة بالأقدار كالقردة والخنازير. ﴿وَلَقَدْ﴾ الواو: استئنافية، واللام موطئة للقسم، ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿عَلِمْتُمُ﴾ فعل، وفاعل، ﴿النَّشْأَةَ﴾ مفعول به، ﴿الْأُولَى﴾ صفة لـ ﴿النَّشْأَةَ﴾. والجملة جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة. ﴿فَلَوْلَا﴾

الفاء: عاطفة، ﴿لولا﴾ حرف تحضيض، ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ فعل، وفاعل. والجملة معطوفة على جملة جواب القسم. ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ تقدم إعراب نظير هذه الجملة آنفاً، فجدد به عهداً. ﴿لَوْ﴾ شرطية، ﴿نَشَآءُ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، والجملة فعل شرط لـ ﴿لَوْ﴾، ﴿لَجَعَلْنَٰهُ﴾ اللام: رابطة لجواب ﴿لَوْ﴾، ﴿جعلناه حطاماً﴾ فعل، وفاعل، ومفعولان. والجملة جواب لو الشرطية، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿فَظَلْتُمْ﴾ الفاء: عاطفة ﴿ظلتم﴾ فعل ناقص من أخوات كان والتاء اسمها. أصله: ظللتم بكسر اللام الأولى، فحذفت العين تخفيفاً. ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ فعل مضارع، وفاعل. أصله: تتفكهون. والجملة في محل النصب خبر ﴿ظل﴾، وجملة ﴿ظل﴾ معطوفة على جواب لو الشرطية. ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿لَمُغْرَمُونَ﴾ خبره، واللام حرف ابتداء. وجملة إن في محل النصب، مقول لقول محذوف وقع حالاً من فاعل ﴿تَفَكَّهُونَ﴾، كما مرّ، تقديره: فظلتم تفكهون حال كونكم قائلين: إنّا لمغرمون. ﴿بَلْ﴾ حرف عطف وإضراب، ﴿نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ مبتدأ وخبر. والجملة في محل النصب معطوفة على ما قبلها على كونها مقولاً لقول محذوف.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ﴾ تقدّم إعراب نظيرها، ﴿ٱلَّذِى﴾ صفة لـ ﴿ٱلْمَآءَ﴾، وجملة ﴿تَشْرَبُونَ﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف. ﴿ءَأَنتُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿أَنزَلْتُمُوهُ﴾ خبره. والجملة الاسمية في محل النصب مفعول ثان لـ ﴿رأيتم﴾. ﴿مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ متعلق بـ ﴿أَنزَلْتُمُوهُ﴾. ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ تقدم اعراب نظيرها ﴿لَوْ﴾ حرف شرط غير جازم، ﴿نَشَآءُ﴾ فعل شرط لها، ﴿جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ فعل، وفاعل، ومفعولان. والجملة جواب لو، وجملة لو مستأنفة. ﴿فَلَوْلَا﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة، ﴿لولا﴾ حرف تحضيض، ﴿تَشْكُرُونَ﴾ فعل، وفاعل. والجملة معطوفة على جملة ﴿لَوْ﴾.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ تقدم نظيرها، ﴿ٱلنَّارَ﴾ مفعول أول لـ ﴿رأيتم﴾، ﴿ٱلَّتِى﴾ صفة لـ

﴿ٱلنَّارَ﴾، وجملة ﴿تُورُونَ﴾ صلة الموصول، ﴿ءَأَنتُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿أَنشَأْتُمْ﴾ خبره، ﴿شَجَرَتَهَآ﴾ مفعول به. والجملة الاسمية في محل النصب مفعول ثان لـ ﴿رأيتم﴾. ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ مبتدأ وخبر، معطوف على ما قبله. ﴿نَحْنُ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿جَعَلْنَاهَا﴾ خبره. والجملة مستأنفة. ﴿تَذْكِرَةً﴾ مفعول ثان لـ ﴿جعلنا﴾، ﴿وَمَتَٰعًا﴾ معطوف عليه، ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾ متعلق بـ ﴿متاعا﴾ أو صفة له. ﴿فَسَبِّحْ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، وتقديره: إذا عرفت النعم المذكورة، وأردت بيان ما هو اللازم لك فأقول لك: ﴿سبح﴾. ﴿سبح﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر، ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ متعلق بـ ﴿سبح﴾ أو بمحذوف حال؛ أي: متبركاً. وقيل اسم مقحم، ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ صفة لـ ﴿اسم﴾ أو لـ ﴿رَبِّكَ﴾. والجملة الفعلية مقول لجواب إذا المقدّرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿فَلَآ﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، و﴿لا﴾ زائدة لتأكيد معنى القسم؛ أي: فأقسم، ﴿أُقْسِمُ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر. والجملة مستأنفة. ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ متعلق بـ ﴿أقسم﴾. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ الواو: اعتراضية، ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿لَقَسَمٌ﴾ خبره، واللام حرف ابتداء. والجملة معترضة لاعتراضها بين القسم وجوابه. ﴿لَّوْ﴾ حرف شرط، وجملة ﴿تَعْلَمُونَ﴾ فعل شرط لها، وجواب لو محذوف، تقديره: لو كنتم من ذوي العلم لعلمتم عظم هذا القسم. وجملة لو معترضة لا محل لها من الإعراب، لاعتراضها بين الصفة والموصوف. ﴿عَظِيمٌ﴾ صفة ﴿قسم﴾. ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿لَقُرْءَانٌ﴾ خبره، واللام: حرف ابتداء، ﴿كَرِيمٌ﴾ صفة أولى ﴿لَقُرْءَانٌ﴾. وجملة ﴿إنّ﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾ صفة ثانية ﴿لَقُرْءَانٌ﴾، ﴿مَّكْنُونٍ﴾ صفة لـ ﴿كِتَٰبٍ﴾، ﴿لَّا﴾ نافية ﴿يَمَسُّهُۥٓ﴾ فعل مضارع، ومفعول به، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ، ﴿ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ فاعل. والجملة صفة ثالثة ﴿لَقُرْءَانٌ﴾. ﴿تَنزِيلٌ﴾ صفة رابعة ﴿لَقُرْءَانٌ﴾، ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ صفة لـ ﴿تَنزِيلٌ﴾ أو متعلق به. ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي داخلة على محذوف، تقديره: أأنتم مكذّبون رسولي. والجملة مستأنفة. والفاء: عاطفة على

ذلك المحذوف، ﴿بهذا الحديث﴾ متعلق بـ ﴿مُّدْهِنُونَ﴾. ﴿ٱلْحَدِيثِ﴾ بدل من اسم الإشارة. ﴿أَنتُم﴾ مبتدأ، ﴿مُّدْهِنُونَ﴾ خبره. والجملة معطوفة على تلك المحذوفة. والتقدير: أأنتم مكذّبون رسولي، فأنتم مدهنون بهذا الحديث. ﴿وَتَجْعَلُونَ﴾ فعل، وفاعل، ﴿رِزْقَكُمْ﴾ مفعول أول. والجملة الفعلية معطوفة على ﴿مُّدْهِنُونَ﴾ على كونها خبر المبتدأ. ﴿أَنَّكُمْ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ خبره. وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر منصوب على كونه مفعولا ثانياً لـ ﴿تجعلون﴾، ولا بد من تقدير مضاف؛ أي: وتجعلون شكر رزقكم تكذيب رازقه.

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿فَلَوْلَآ﴾ الفاء: استئنافية، ﴿لولا﴾ حرف تحضيض بمعنى هلّا، ﴿إِذَا﴾ ظرف مجرد عن معنى الشرط، متعلق بـ ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾، ﴿بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ فعل، ومفعول به على الاتساع وفاعله ضمير يعود على النفس؛ أي: فهلا إذا بلغت الروح الحلقوم. ﴿وَأَنتُمْ﴾ الواو: حالية، ﴿أَنتُم﴾ مبتدأ، ﴿حِينَئِذٍ﴾ ظرف مضاف إلى مثله، منصوب ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل الجر مضاف إليه، مبني بسكون مقدر، والتنوين عوض عن الجملة المحذوفة المضافة إليها ﴿إذ﴾؛ أي: حين إذ بلغت الروح الحلقوم، والظرف متعلق بتنظرون، وجملة ﴿تَنظُرُونَ﴾ في محل الرفع، خبر عن ﴿أَنتُم﴾، ومتعلق النظر محذوف؛ أي: إليه؛ أي: إلى المحتضر. وجملة ﴿أَنتُم﴾ حال من فاعل ﴿بَلَغَتِ﴾. ﴿وَنَحْنُ﴾ الواو: حالية، أو استئنافية، ﴿نَحْنُ﴾ مبتدأ، و﴿أَقْرَبُ﴾ خبره، ﴿إِلَيْهِ﴾، ﴿مِنكُمْ﴾ متعلّقان بـ ﴿أَقْرَبُ﴾. والجملة الاسمية في محل النصب، حال من فاعل ﴿تَنظُرُونَ﴾ أو مستأنفة معترضة. ﴿وَلَٰكِن﴾ الواو: عاطفة، ﴿لكن﴾ حرف استدراك ﴿لا﴾ نافية، ﴿تُبْصِرُونَ﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿تَنظُرُونَ﴾؛ أي: لا تعلمون أنا أقرب إليه منكم بالعلم، أو لا تعلمون ما هو فيه من المشقة والكرب.

﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿فَلَوْلَآ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿لولا﴾ حرف تحضيض مؤكّدة لـ ﴿لولا﴾ الأولى تأكيداً لفظياً، ﴿إن﴾ حرف شرط، ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه، في محل

الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ خبر ﴿كان﴾، ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ فعل مضارع، مرفوع بالنون، والواو: فاعل، والهاء: مفعول به. والجملة الفعلية في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها. و﴿لولا﴾ تحضيضية، وهي للطلب. والمعنى: فارجعوا روح المحتضر إلى مقرّها وجسدها وقت بلوغها الحلقوم للنزع إن كنتم غير مدينين. ﴿إن﴾ حرف شرط، ﴿كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فعل ناقص واسمه وخبره في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فِعْلَ شرط لها، وجوابها معلوم مما قبلها؛ أي: إن كنتم صادقين في نفي البعث فارجعوها إلى جسدها. وهي مؤكّدة لجملة ﴿إن﴾ الشرطية الأولى. وملخص الكلام إن صدقتم في نفي البعث فردوا روح المختضر إلى جسده لينتفي عنه الموت، فينتفي البعث. اهـ «سمين».

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾.

﴿فَأَمَّآ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت حال المتوفّى عند وفاته، وأردت بيان حاله إثر وفاته فأقول لك: أما إن كان من المقربين إلخ. ﴿أمّا﴾ حرف شرط أبداً، وتفصيل غالباً، نائبه عن مهما الشرطية وفعل شرطها، ﴿إن﴾ حرف شرط جازم، ﴿كَانَ﴾ فعل ناقص في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، واسمها ضمير يعود على المتوفى، ﴿مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ خبرها. وجواب ﴿إن﴾ الشرطية محذوف لدلالة جواب أمّا عليه. والتقدير: إن كان من المقربين يجزى بالروح والريحان وجنة نعيم، وجملة إن الشرطية معترضة بين ﴿أمّا﴾، وجوابها، لا محل لها من الإعراب. ﴿فَرَوْحٌ﴾ الفاء: رابطة لجواب ﴿أمّا﴾ وجوباً، ﴿روح﴾ مبتدأ، خبره محذوف، مقدم عليه، تقديره: فله روح. ﴿وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ معطوفان على ﴿روح﴾. والجملة الاسمية جواب ﴿أمّا﴾ الشرطية، لا محل لها من الإعراب. وجملة ﴿أما﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً. والمعنى: فأقول لك مهما يكن من شيء، فللمتوفى روح وريحان، وجنة نعيم إن كان من المقربين، وسلام من أصحاب اليمين إن كان منهم الخ. ﴿وَأَمَّآ﴾ الواو: عاطفة، ﴿أمّا﴾ حرف شرط، ﴿إن﴾ حرف شرط، ﴿كَانَ﴾ فعل ناقص في محل

الجزم بـ ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، واسمها ضمير يعود على المتوفى، ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾، خبرها، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية محذوف، تقديره: إن كان من أصحاب اليمين يسلّم عليه. وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معترضة. ﴿فَسَلَٰمٌ﴾ الفاء: رابطة لجواب أمّا، ﴿سلام﴾ مبتدأ. سوغ الابتداء به ما فيه من معنى الدعاء. ﴿لَّكَ﴾ خبر عن ﴿سلام﴾ ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ نعت لـ ﴿سلام﴾ أو حال منه. والجملة الاسمية جواب أمّا، لا محل لها من الإعراب. وجملة ﴿أمّا﴾ في محل النصب، معطوفة على جملة أمّا الأولى.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ (٩٦)﴾.

﴿وَأَمَّآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿أمّا﴾. حرف شرط، ﴿إن﴾ حرف شرط، ﴿كَانَ﴾ فعل ناقص في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، واسمها ضمير يعود على المتوفى، ﴿مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ خبرها، ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ صفة لـ ﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾. وجواب ﴿إن﴾ محذوف، تقديره: إن كان المتوفى من المكذبين يجزى بالحميم والجحيم. وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معترضة بين ﴿أمّا﴾ وجوابها. ﴿فَنُزُلٌ﴾ الفاء: رابطة لجواب ﴿أمّا﴾ الشرطية، ﴿نزل﴾ مبتدأ، حذف خبره المقدم، ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ صفة لـ ﴿حميم﴾، ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤)﴾ معطوف على ﴿نزل﴾. والجملة الاسمية جواب ﴿أمّا﴾ الشرطية، لا محل لها من الإعراب. والتقدير: مهما يكن من شيء فللمتوفى نزل من حميم، وتصلية جحيم إن كان من المكذبين الضالّين. وجملة ﴿أمّا﴾ في محل النصب، معطوفة على جملة أما الأولى. ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ ناصب واسمه، ﴿لَهُوَ﴾ اللام حرف ابتداء، ﴿هو﴾ ضمير فصل، أو مبتدأ، و﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ خبر ﴿إن﴾ أو خبر هو. والجملة الاسمية خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. وإضافة حق إلى اليقين من إضافة الموصوف إلى صفته؛ أي: الحق المتيقّن الذي لا شك فيه. ﴿فَسَبِّحْ﴾ الخ، تقدم إعرابه، ولكن نعيده لزيادة بعض الفوائد. فنقول: الفاء: فاء الإفصاح كما مرّ، ﴿سبح﴾ فعل أمر بمعنى نزه، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿بِٱسْمِ﴾ الباء: حرف جر، ﴿اسم﴾ زائد، ﴿رَبِّكَ﴾ مجرور بالباء؛ أي: سبح بربك العظيم. ويجوز أن تكون الباء للحال؛ أي: حال كونك متلبساً باسم ربك أو متبركاً به، ويجوز أن تكون الباء للتعدية بناء على أنَّ ﴿سبح﴾ يتعدى تارة

بنفسه، وتارة أخرى بحرف الجر. ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ صفة.

فائدة: أثبتوا ألف الوصل هنا في اسم ربك؛ لأنه لم يكثر دورانها هنا كثرته في البسملة، وحذفوها من البسملة لكثرة دورانها. وهم شأنهم الإيجاز، وتقليل الكثير إذا عرف معناه. وهذا معروف لا يجهل. وإثبات ما أثبت من أشكاله مما لا يكثر دليل الحذف منه؛ ولذا لا تحذف مع غير الباء في اسم الله، ولا مع الباء في غير الجلالة الكريمة من الأسماء. اهـ خطيب انتهى من الفتوحات.

التصريف ومفردات اللغة

﴿مَّا تُمْنُونَ﴾؛ أي: ما تقذفونه في الأرحام من النطف. قرأ العامة بضم التاء، من أمنى الرباعي يمني إمناء. وقرىء بفتح التاء من مني الثلاثي يمني من باب رمى. كلاهما بمعنى قذف المني في الرحم. وأصله من المني. وهو التقدير. قال الشاعر:

لا تَـأْمَـنْ وَإِنْ أَمْـسَـيْـتَ فِـي حَـرَمٍ   حَتَّىٰ تُلاقِيَ مَا يُمْنِيْ لَكَ ٱلْمَانِيْ

ومنه: المنيَّة. لأنَّها مقدرة تأتي على مقدار. وفي «المختار»: وقد يقال: منى من باب رمى، وأمنى أيضاً. اهـ. وأصل ﴿تُمْنُونَ﴾: تمنيون بوزن تفعلون، أستثقلت الضمة على الياء فحذفت، ثم حذفت الياء لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة، وضمت النون لمناسبة الواو.

﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾؛ أي: نميتكم دفعة واحدة، ونخلق أشباهكم. ويجوز في ﴿أَمْثَٰلَكُمْ﴾ وجهان:

أحدهما: أنه جمع مثل بكسر الميم، وسكون الثاء؛ أي: نحن قادرون على أن نعدمكم، ونخلق قوماً آخرين أمثالكم. ويؤيده قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾.

والثاني: أنه جمع مثل بفتحتين. وهو الصفة؛ أي: نغير صفاتكم التي أنتم عليها خلقاً، وننشئكم في صفات غيرها، اهـ سمين.

﴿فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: في صورة لا تعلمونها في جنسكم كتبديل صوركم بصورة القردة والخنازير. قال الحسن؛ أي: نجعلكم قردة وخنازير كما فعلنا بأقوام

قبلكم. و﴿مَآ﴾ مقطوعة في الرسم على القاعدة من أن ﴿مَآ﴾ الموصولة مفصولة، اهـ خطيب.

﴿مَا تَحْرُثُونَ﴾؛ أي: تبذرون حبه، وتعملون في أرضه. قال الراغب: الحرث: تهيئة الزراعة، وإلقاء البذر فيها، اهـ.

والمعنى: المناسب هنا تفسير ما بالبذر، ومعنى تحرثون البذر؛ أي: تلقونه في الأرض فكأنه قال: أفرأيتم البذر الذي تلقونه في الطين أأنتم تزرعونه؛ أي: تنبتونه. وفي «المختار»: الزرع: طرح البذر. والزرع أيضاً: الإنبات، يقال: زرعه الله؛ أي: أنبته. ومنه قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾. وبابه قطع، اهـ.

﴿حُطَٰمًا﴾؛ أي: هشيماً متكسّراً متفتتاً لشدة يبسه، والحطام: الهشيم الذي لا ينتفع به في مطعم ولا غذاء. وأصل الحطم: كسر الشيء مثل الهشم، ونحوه. ثم استعمل لكل كسر متناه.

﴿فَظَلْتُمْ﴾ فيه إعلال بحذف عينه، إذ أصله: ظللتم بوزن فعلتم، حذفت عينه، وبقيت فاؤه، كما هي لغة فيه. وفيه لغة أخرى. وهي حذف العين، وكسر الفاء ظِلت. وهكذا كل فعل ثلاثي مكسور العين ماض عينه، ولامه من جنس واحد فيه ثلاث استعمالات، وهي استعماله تامًّا، كقولك: ظللت، وحذف عينه، وإبقاء حركة فائه كما هي. وحذف العين وكسر الفاء، كما تقدم.

﴿تَفَكَّهُونَ﴾ فيه حذف إحدى التاءين، كما تقدم. فأصله: تتفكهون حذفت إحدى التاءين تخفيفاً. وأصل التفكه: تناول ضروب الفواكه للأكل. والفكاهة: المزاح. ومنه: حديث زيد كان من أفكه الناس مع أهله، ورجل فكه طيب النفس. وقد استعير هنا للتنقل في الحديث. وقيل: معناه: تندمون. وحقيقته تلقون الفكاهة عن أنفسكم. ولا تلقي الفكاهة إلا من الحزن. فهو من باب تحرج وتأثم. وقيل: تفكهون تعجبون. وقيل: تتلاومون. وقيل: تتفجعون. كله من باب التفسير باللازم.

﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ جمع مغرم. والمغرم: هو الذي ذهب ماله بغير عوض. وأصل الباب اللزوم. والغرام: العذاب اللازم. والغرامة: أن يلزم الإنسان ما ليس عليه، ولا في ذمته.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾﴾ الإيراء: إظهار النار بالقدح. يقال: أورى يوري، ووريت بك زنادي، أي: أضاء بك أمري. ويقال: قدح فأورى إذا ظهرت النار، فإذا لم يور يقال: قدح فأكبى. وفي «المصباح»: ورى الزند يرى ورياً من باب وعى. وفي لغة ورى يرى بكسرهما، وأورى بالألف. وذلك إذا أخرج ناره. وفي «المختار»: وأوراه غيره أخرج ناره. وفي «معاجم اللغة»: تستخرجون النار من الزناد. وهو جمع زند. والزند: العود الذي يقدح به النار. وهو الأعلى. والزندة السفلى، فيها ثقب، وهي الأنثى. فإذا اجتمعا قيل: زندان، والجمع زناد. والعرب تقدح بعودين، تحك أحدهما على الآخر. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه قال: ما من شجر، ولا عود إلّا فيه النار سوى العناب، اهـ. وأصل ﴿تُورُونَ﴾: توريون مضارع أورى الرباعيّ، وفيه إعلال بالحذف ثلاث مرات:

أولاً: حذفت منه همزة أفعل، كما تقدم غير مرة.

وثانياً: حذفت الضمة التي على الياء للتخفيف.

وثالثاً: لما سكنت الياء بعد حذف حركتها حذفت لالتقاء الساكنين، وضمت الراء لمناسبة الواو.

﴿ٱلْمُزْنِ﴾ السحاب، جمع مزنة. وفي «القاموس»: المزن بالضم: السحاب أو أبيضه أو ذو الماء، والقطعة مزنة. ﴿أُجَاجًا﴾ في «المختار»: ماء أجاج: مر شديد الملوحة. وقد أج يؤج أجوجاً بالضم.

﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾؛ أي: للمسافرين الذين يسكنون القواء؛ أي: القفر، والمفاوز؛ أي: جعلناها ينتفع بها المسافرون. وخصوا بالذكر لأن منفعتهم بها أكثر من المقيمين. وأصل المقوين: المقويين اسم فاعل من أقوى الرباعي استثقلت الكسرة على الواو، وبعدها ياء مكسورة، وأخرى ساكنة، فحذفت كسرة الياء الأولى لام الكلمة، فلما سكنت حذفت لالتقائها ساكنة مع ياء الجمع فوزنه مفعين.

﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ أصله: يمسسه، نقلت حركة السين الأولى إلى الميم، فسكنت فأدغمت في السين الثانية. والظاهر والله أعلم: أن ضمة السين ضمة إعراب، وأنَّ ﴿لا﴾ نافية. وهذا أحد وجهين، ذكرهما السمين. ثم قال: والثاني: أن ﴿لا﴾ ناهية، والفعل بعدها مجزوم. لأنه لو فك عن الادغام.. لظهر ذلك، كقوله تعالى:

﴿لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾، ولكنه أدغم، ولما أدغم حرك آخره بالضم لأجل هاء ضمير المذكر الغائب. فضمته ضمة إتباع لحركة الهاء.

﴿مُّدْهِنُونَ﴾ قال الراغب: والإدهان في الأصل مثل التدهين، لكن جعل عبارة عن المداراة، والملاينة، وترك الجد. وقال المؤرخ: المدهن: المنافق أو الكافر الذي يلين جانبه ليخفي كفره. والإدهان والمداهنة: التكذيب، والنفاق، وأصله: اللين، وأن يضمر خلاف ما يظهر، وادهن داهن بمعنى واحد. وقال قوم: داهنت بمعنى واريت، وأدهنت بمعنى غششت. وفي «الشهاب»: وأصل الإدهان جعل الأديم، ونحوه مدهوناً بشيء من الدهن. ولما كان ذلك مليناً له ليناً محسوساً أريد به: اللين المعنوي على أنه تُجُوِّز به عن مطلق اللين، أو استعير له، ولذا سميت المداراة، والملاينة مداهنة. وهذا مجاز معروف، ولشهرته صار حقيقة عرفية، فلذا تجوز به هنا عن التهاون أيضاً؛ لأن المتهاون بالأمر لا يتصلب فيه، اهـ «شهاب».

﴿غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ جمع مدين، اسم مفعول من دان يدين. والأصل: مديونين، نقلت حركة الياء إلى الدال، فلما سكنت حذفت واو مفعول لالتقاء الساكنين، ثم كسرت الدال لمناسبة الياء الساكنة بعدها. فهو مثال مبيع.

﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ الروح بالفتح: الراحة، والرحمة، ونسيم الريح. والريحان: الرحمة، والرزق كما في «المختار». وفي «القاموس»: والريحان: نبت طيب الرائحة، أو كل نبت كذلك، أو أطرافه أو ورقه، والولد، والرزق. وأصله ريحان بوزن فعلان، والياء فيه منقلبة عن واو على غير قياس لعدم وجود سبب للقلب. وقيل: أصله: ريوحان لتصغيره على رويحان. فلما اجتمعت الواو والياء، وسبقت إحداهما بالسكون قلبت الواو ياء، وأدغمت فيها الياء، فصار ريحان بتشديد الياء، ثم خففت الياء لتسهيل اللفظ فصار ريحان. وقيل: إن الكلمة لا قلب فيها، ولا إدغام، أن الياء أصل، وهي عين الفعل بدليل جمعها على رياحين، وتصغيره على ريحين.

﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ ترسم ﴿جنَّت﴾ هنا مجرورة التاء. ووقف عليها بالهاء ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي، والباقون بالتاء على الرسم، اهـ خطيب. ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾؛ أي: احتراق بها. وهو بوزن تفعلة مصدر قياسي لفعَّل المضعف

المعتل اللام: كزكى تزكية، وولى تولية.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التحضيض في قوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧﴾ حثاً لهم على الاعتراف بالبعث والإعادة كاعترافهم بالخلق الأولى.

ومنها: تكرار ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ في مواضعها احتجاجاً على المشركين، وإلزاماً لهم بالحجة.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾، وقوله: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾، وقوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝٦٩﴾، وقوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝٧٢﴾. وجناس الاشتقاق بين ﴿ننشئكم﴾، وبين ﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾.

ومنها: فن صحة الإقسام في الآيات المذكورة من قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨﴾ إلى قوله: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝٧٣﴾. وهو عبارة استيفاء المتكلم جميع الأقسام للمعنى المذكور الآخذ فيه بحيث لا يغادر منه شيئاً.

ومنها: العدول من لفظ الحرمان والمنع إلى لفظ هو ردفه، وتابعه. وهو لفظ الجعل في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾.

ومنها: تأكيد الفعل باللام في قوله في الزرع: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾، وعدم تأكيده في الماء، حيث قال: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾؛ لأنّ الزرع، ونباته، وجفافه بعد النضارة حتى يعود حطاماً لما كان يحتمل أن يتوهم أنه من فعل الزارع، ولهذا قال سبحانه: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤﴾، أو يتوهم أن خصبه من سقي الماء، وأن جفافه من حرارة الشمس وعدم السقي، أو تواتر مرور الإعصار. أخبر سبحانه أنه هو الفاعل لذلك كله على الحقيقة، وأنه قادر على جعله.. لو شاء حطاماً في حالة نموه، وزمن شبيبته ونضارته، فلما كان هذا التوهم محتملاً..

أوجبت البلاغة تأكيد فعل الجعل فيه باللام، وإسناده لزارعه على الحقيقة، ومنشئه لرفع هذا التوهم، ولما كان إنزال المطر من السماء محالاً بما لا يتطرق احتمال توهم متوهم أن أحداً من جميع الخلق قادر عليه لم يحتج إلى تأكيد الفعل في جعله أجاجاً. فإنه لا يمكن أن يتوهم أحد أن أحداً ينزل المطر من السماء أجاجاً، ولا عذباً الذي هو أسهل من الأول، وأهون.

ومنها: فن التسهيم في هذه الآيات أيضاً. وهو وأن يكون ما تقدم من الكلام دليلاً على ما تأخر منه أو بالعكس فقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾﴾ يقتضي أوائل هذه الآيات أواخرها اقتضاء لفظيًّا ومعنوياً. كما ائتلفت الألفاظ فيها بمعانيها المجاورة ائتلاف الملائم بالملائم، والمناسب بالمناسب؛ لأن ذكر الحرث يلائم ذكر الزرع، وذكر كونه سبحانه لم يجعله حطاماً ملائم لحصول التفكه به، وعلى هذه الآية يقاس نظم أختها.

ومنها: زيادة لفظ ﴿اسم﴾ في قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾، وزيادة ﴿لا﴾ في قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ تأكيداً للكلام.

ومنها: الاعتراض بالجملة الاسمية بين القسم والمقسم عليه في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾.

ومنها: الاعتراض بين الصفة والموصوف في قوله: ﴿لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ حيث استعار الكرم ممن يقوم به الكرم من ذوي العقول للقران بجامع كثرة النفع لاشتماله على أصول العلوم المهمة في صلاح المعاش والمعاد.

ومنها: الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾﴾.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾؛ أي: شكر رزقكم.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ كأنما الروح شيء مجسم يبلغ الحلقوم في حركة محسوسة.

ومنها: تكرار لولا التحضيضية في قوله: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾﴾

لغرض التأكيد اللفظي.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾ لغرض الرد على المنكرين.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ﴾ لغرض التشريف.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة موضوعات هذه السورة

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

١ ـ اضطراب الأرض، وتفتت الجبال حين قيام الساعة.

٢ ـ إن الناس عند الحساب أزواج ثلاثة.

٣ ـ اجتماع الأولين والآخرين في هذا اليوم.

٤ ـ إقامة الأدلة على وجود الخالق.

٥ ـ إقامة البراهين على البعث، والنشور، والحساب.

٦ ـ إثبات أن هذه الأخبار حق لا شك فيها.

٧ ـ تبكيت المكذبين على إنكار الخالق.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

سورة الحديد

سورة الحديد مدنية. نزلت بعد الزلزلة. قال القرطبيّ في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت سورة الحديد بالمدينة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وقيل: مكية.

وآيها تسع وعشرون آية. وكلماتها خمس مئة وأربع وأربعون كلمة. وحروفها ألفان وأربع مئة وستة وسبعون حرفاً.

المناسبة: مناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها واضحة[1]؛ لأنه تعالى أمر بالتسبيح، ثم أخبر أن التسبيح المأمور به قد فعله والتزمه كل من في السموات والأرض.

وعبارة المراغي هنا: مناسبتها لما قبلها من وجهين[2]:

١ ـ إن هذه بدئت بالتسبيح، وتلك ختم به.

٢ ـ إن أول هذه واقع موقع العلة لآخر ما قبلها من الأمر بالتسبيح. فكأنه قيل: سبح باسم ربك العظيم. لأنه سبح له ما في السموات والأرض.

التسمية: سميت هذه السورة سورة الحديد لذكر الحديد فيها. وهو قوة الإنسان في السلم والحرب، وعدته في البنيان والعمران فمن الحديد تبنى الجسور الضخة، وبه تشاد العمائر، ومنه تصنع الدروع والسيوف والرماح، وتكون منه الدبابات، والغواصات، والسيارات، والطائرات، والمدافع الثقيلة إلى غير ما هنالك من المنافع التي كادت أن لا تحصى.

الناسخ والمنسوخ فيها: قال ابن حزم: سورة الحديد كلها مدنية إلا في قول

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

الكلبي. فإنه قال: إنها مكية، وكلها محكم ليس فيها ناسخ ولا منسوخ. ويرد[1] على القول بأنها مدنية ما نقل في سبب إسلام عمر بن الخطاب: أنه لما قرأ هذه الآيات من أول هذه السورة إلى قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وكانت مكتوبة في صحيفة عند أخته.. أسلم. فهذا يقتضي أن هذه الآيات مكية. فعلى هذا تستثنى على القول بأن السورة مدنية، تأمل.

فضلها: ومن فضائلها: ما أخرجه أحمد[2]، والترمذي، وحسنه، والنسائي، وابن مردويه، والبيهقي في «الشعب» عن العرباض بن سارية: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد، وقال: «إن فيهن آية أفضل من ألف آية». وفي إسناده بقية بن الوليد. وفيه مقال معروف. وقد أخرجه النسائي عن خالد بن معدان قال: كان رسول الله ﷺ، ولم يذكر العرباض بن سارية، فهو مرسل.

وأخرج ابن الضريس عن يحيى بن أبي كثير قال: كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يقرأ المسبحات، وكان يقول: «إن فيهن آية أفضل من ألف آية». قال يحيى: فنراها الآية التي في آخر الحشر. قال ابن كثير في تفسيره: والآية المشار إليها، والله أعلم هي قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ...﴾ الآية، والمسبحات المذكورة هي: الحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) الفتوحات. (٢) الشوكاني.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٥) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦) آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۙ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٩) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١) يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ مَأْوَاكُمُ النَّارُ ۖ هِيَ مَوْلَاكُمْ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥) ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧)﴾.

المناسبة

مناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها قد تقدم آنفاً.

وأما قوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ . . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر[1] أنواعاً من الأدلة تثبت وحدانيته، وعلمه، وقدرته. . فبين أن كل ما في السموات والأرض فهو في قبضته يصرفه كيفما يشاء على ما تقتضيه حكمته. ثم ذكر أنواعاً من الظواهر في الأنفس ترشد إلى هذا، وأومأ إلى النظر والتأمل فيها. أعقب بذكر التكاليف الدينية فأمر بدوام الإيمان الكامل الذي له آثاره العملية من إخبات النفس لله، وإخلاص العمل له، وترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

ثم طلب إنفاق المال في سبيله، وأبان أن المال عارية مستردة فهو ملك له، وأنتم خلفاؤه في تثميره في الوجوه التي فيها خير لكم، ولأمتكم، ولدينكم. ولكم على ذلك الأجر الجزيل الذي يضاعفه إلى سبع مئة ضعف. ثم حث على ذلك بأن جعل هذا صفوة دعوة الرسول، وقد أخذ عليكم العهد به، وآيات كتابه هادية لكم تخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان. والله رؤوف بكم إذ أنقذكم من هاوية الشرك، وهداكم إلى طاعته. ثم ذكر فضل السابقين الأوّلين الذين أسلموا قبل فتح مكة، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في إعلاء كلمة الله حين عز النصير، وقل المعين. فهؤلاء يستوون مع من فعل ذلك بعد الفتح، وبعد أن دخل الناس في دين الله أفواجاً، وهؤلاء وأولئك لهم المثوبة الحسنى والأجر الكريم عند ربهم. ثم حث على الإنفاق مرة أخرى، وسماه قرضاً حسناً له، وأنه سيرد هذا القرض، ويجازي به أجل الأجر يوم تبيض وجوه، وتسود وجوه.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم . . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما أمر[2] بالإيمان والإنفاق في سبيل الله، وحث على كل مهما بوجود موجباته. . فحث على الإيمان بوجود الأسباب التي تساعد عليه. وهي وجود الرسول بين أظهرهم، وكتابه الذي يتلى بين أيديهم، وحث على الإنفاق، فأبان أن المال مال الله، وهو عارية بين أيديهم، ثم يرد إليه، وأنهم ينالون على إنفاقه الأجر العظيم في جنات النعيم، ثم ذكر أن المنفقين أول الإسلام لهم من الأجر أكثر ممن أنفقوا من بعد، حين النصير

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

والمعين.. ذكر هنا حال المؤمنين المنفقين يوم القيامة. فبين أن نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، ليرشدهم إلى الجنة، وأنهم يبشرون بجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، ثم أردفه بذكر حال المنافقين إذ ذاك، وأنهم يطلبون من المؤمنين شيئاً من الضوء يستنيرون به ليهديهم سواء السبيل؛ فيتهكم بهم المؤمنون، ويخيبوا آمالهم، ويقولون لهم: ارجعوا إلى الدنيا، فالتمسوا نوراً بتحصيل العلوم والمعارف، فلا نور إلا منها.

ثم أرشد إلى أنه يضرب بين الفريقين حاجز باطنه مما يلي المؤمنين، فيه الرحمة، ومما يلي المنافقين فيه العذاب، لأنه في النار. ثم ذكر السبب فيما صاروا إليه، وأنهم أهلكوا أنفسهم بالنفاق والمعاصي، وانتظروا أن تدور على المؤمنين الدوائر فينطفيء نور الإيمان، وشكوا في أمر البعث، وغرهم الشيطان فأوقعهم في مهاوي الردى.

ثم أعقبه ببيان أنه لا أمل في النجاة لهم إذ ذاك فلا تجدي الفدية، كما تنفع في الدنيا. فلا مأوى لهم إلا النار، وبئس القرار.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر فرق ما بين المؤمنين والمنافقين يوم القيامة، وأن الأولين لهم نور يهديهم إلى طريق الجنة، وأن الآخرين يطلبون منهم أن يأتوهم قبساً من نورهم يهديهم إلى سبيل النجاة، فيردونهم خائبين، ويقولون لهم: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً.. أردف هذا[1] بعتاب قوم من المؤمنين، فترت همتهم عن القيام بما ندبوا له من الخشوع، ورقة القلوب بسماع المواعظ وسماع القرآن، ثم حذرهم أن يكونوا كأهل الكتاب الذين طال العهد بينهم وبين أنبيائهم، فقست قلوبهم، وأعرضوا عن أوامر الدين ونواهيه. ثم أبان لهم بضرب المثل: أن القلوب القاسية تحيا بالذكر، وتلاوة القرآن كما تحيا الأرض الميتة بالغيث، والمطر.

---

(١) المراغي.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه بن أبي شيبة في «المصنف» عن عبد العزيز بن أبي روّاد: أن أصحاب النبي ﷺ ظهر فيهم المزاح والضحك.. فنزلت هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾... الآية. وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال: كان أصحاب النبي ﷺ قد أخذوا في شيء من المزاح، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ...﴾ الآية.

وأخرج عن السدي عن القاسم قال: مل أصحاب رسول الله ﷺ ملة، فقالوا: حدثنا يا رسول الله. فأنزل الله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾. ثم ملوا ملة، فقالوا: حدثنا يا رسول الله. فأنزل الله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ...﴾ الآية.

وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه: أنه قال: لما قدم أصحاب رسول الله ﷺ المدينة فأصابوا من لين العيش ما أصابوا بعد أن كانوا في جهد جهيد. فكأنهم فتروا عن بعض ما كانوا عليه، فعوتبوا، فنزلت الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾؛ أي: نزه لله سبحانه وتعالى، وقدسه عن كل ما لا يليق به ذاتاً وصفات وأفعالاً، ومجده، وعظمه بكل الكمالات ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: جميع المخلوقات في السموات والأرض حيواناً وجماداً عقلاء وغير عقلاء، إما بلسان المقال أو بلسان الحال.

ومعنى التسبيح[2]: هو تنزيه الله تعالى اعتقاداً وقولاً وفعلاً عمّا لا يليق بجنابه سبحانه[3]، عبر هنا، وفي الحشر والصف بالماضي، وفي الجمعة والتغابن بالمضارع، وفي الأعلى بالأمر، وفي الإسراء بالمصدر استيعاباً للجهات المشهورة

---

(١) لباب النقول.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

لهذه الكلمة، وبدأ بالمصدر في الإسراء؛ لأنه الأصل، ثم بالماضي في الحديد، والحشر، والصف؛ لأنه أسبق الزمانين. ثم بالمضارع في الجمعة والتغابن لشموله الحال والمستقبل، ثم بالأمر في الأعلى لخصوصه بالحال مع تأخره في النطق به في قولهم: فعل يفعل إفعل.

وفيه تعليم[1] عباده استمرار وجود التسبيح منهم في جميع الأزمنة، والأوقات.

والحاصل: أن كلًّا من صيغتي الماضي والمضارع جردت عن الدلالة على مدلولها من الزمان المخصوص. فأشعر باستمراره في الأزمنة لعدم ترجح البعض على البعض. فالمكونات من لدن إخراجها من العدم إلى الوجود، مسبحة في كل الأوقات، لا يختص تسبيحها بوقت دون وقت، بل هي مسبحة دائماً في الماضي، وتكون مسبحة أبداً في المستقبل.

وفي الحديث: «أفضل الكلام أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. لا يضرك بأيهن بدأت». والمراد[2] بالتسبيح المسند إلى ما في السماوات والأرض من العقلاء، وغيرهم، والحيوانات، والجمادات: هو ما يعم التسبيح بلسان المقال كتسبيح الملائكة، والإنس، والجن. وبلسان الحال كتسبيح غيرهم. فإن كل موجود يدل على الصانع. وقد أنكر الزجاج أن يكون تسبيح غير العقلاء هو تسبيح الدلالة. وقال: لو كان هذا تسبيح الدلالة، وظهور آثار الصنعة لكانت مفهومة. فلِمَ قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾؟ وإنّما هو تسبيح مقال، واستدل بقوله: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾. فلو كان هذا التسبيح من الجبال تسبيح دلالة لم يكن لتخصيص داود فائدة.

وفعل التسبيح قد يتعدى بنفسه تارةً كما في قوله: ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾، وباللام أخرى كهذه الآية. واللام إما مزيدة للتأكيد كما في نصحت له، وشكرت له في نصحته وشكرته أو للتعليل، والفعل منزل منزلة اللازم؛ أي: فعل ما في السموات والأرض التسبيح، وأوقعه، وأحدثه لأجل الله تعالى وخالصاً لوجهه. وعبر بما التي لغير

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.

العاقل دون من التي للعاقل تغليباً لغير العقلاء لكثرتهم. وقوله: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قاله[1] هنا بحذف ﴿ما﴾ الثانية موافقة لقوله بعد: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، وقوله: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. وقاله في الحشر، والصف، والجمعة، والتغابن بإثباتها عملاً بالأصل.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: الغالب بقدرته، وسلطانه لا يمانعه، ولا ينازعه شيء. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ بلطفه وتدبيره، لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة. وفيه إشعار بعلية الحكم. فإن العزة، وهي الغلبة على كل شيء تدل على كمال القدرة. والحكمة تدل على كمال العلم. والعقل يحكم بأن الموصوف بهما يكون منزها عن كل نقص كالعجز والجهل ونحوهما. ولذا كان الأمن كفراً؛ لأن فيه نسبة العجز إلى الله تعالى، وكذا اليأس؛ لأن فيه نسبة البخل إلى الله الجواد.

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: له سبحانه لا لغيره التصرف الكلي، ونفوذ الأمر فيهما، وما فيهما من الموجودات من حيث الإيجاد والإعدام، وسائر التصرفات مما نعلم وما لا نعلم. يتصرف فيهما وحده، ولا ينفُذ غير تصرفه وأمره. وقيل: أراد خزائن المطر، والنبات، وسائر الأرزاق.

يقول الفقير: فإن قلت[2] كيف أضاف الملك إلى ما هو متناه، وكمال ملكه تعالى غير متناه؟.

قلت: إن للسموات والأرض ظاهراً وهو ما كان حاضراً، ومرئيًّا من عالم الملك وهو متناه؛ لأنّه من قبيل الأجسام والصور، وباطناً وهو ما كان غائباً غير محسوس من أسرارهما وحقائقهما، وهو غير متناه؛ لأنه من عالم الملكوت والمعاني، فإضافة الملك إلى الله تعالى إضافة مطلقة يندرج تحتها الملك والملكوت، وهما غير متناهيين في الحقيقة؛ ألا ترى أن القرآن لا تنقضي عجائبه. فهو بحر لا ساحل له، من حيث أسراره، ومن حيث أن المتكلم به هو الذي لا نهاية له، وإن كان القرآن متناهياً في الظاهر والحس. فالمراد بالملك: هو الملك

---

(١) فتح الرحمن.

(٢) روح البيان.

الحقيقي؛ لأن ملك البشر مجاز. فإن قلت[1]: قوله: ﴿لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ذكره مرتين، فهو مكرر.

قلت: لا تكرار فيه؛ لأنَّ الأول في الدنيا بدليل قوله عقبه: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾، والثاني في العقبى لقوله عقبه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

وهذه الجملة مستأنفة، لا محل لها من الإعراب. وقوله: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ مستأنفة أيضاً لبيان بعض أحكام الملك. أو في محل رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أو في محل نصب على الحال من ضمير ﴿له﴾. والمعنى: يحيي الموتى بالبعث، والنطف، والبيض في الدنيا، ويميت الأحياء في الدنيا. ومعنى الإحياء، والإماتة: جعل الشيء حيًّا، وجعله ميتاً. وقد يستعاران للهداية وللإضلال في نحو قوله[2]: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء التي من جملتها: ما ذكر من الإحياء والإماتة على مقتضى الحكمة والإرادة ﴿قَدِيرٌ﴾؛ أي: تام القدرة، لا يعجزه شيء كائناً ما كان، فإن الصيغة للمبالغة.

ومعنى الآيات[3]: أي إن ما دونه من خلقه ينزهه عن كل نقص تعظيماً له، وإقراراً بربوبيته، وإذعانا لطاعته. وهو القادر الغالب الذي لا ينازعه شيء. الحكيم في تدبير أمور خلقه، وتصريفها فيما شاء، وأحب له التصرف والسلطان فيهما. وهو نافذ الأمر، ماضي الحكم، فلا شيء فيهن يمتنع منه. يحيي ما يشاء من الخلق كيف شاء، فيحدث من النطفة الميتة حيواناً ينفخ فيه الروح، ويميت ما يشاء من الأحياء حين بلوغ أجله. وهو سبحانه ذو قدرة تامّة لا يتعذر عليه شيء أراده من إحياء، وإماتة، وإعزاز، وإذلال إلى نحو أولئك.

﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلْأَوَّلُ﴾؛ أي[4]: السابق على سائر الموجودات بالذات والصفات لما أنه مبدئها ومبدعها. فالمراد بالسبق، والأولية: هو الذاتي لا الزماني. فإن الزمان من جملة الحوادث أيضاً. ﴿وَٱلْآخِرُ﴾؛ أي: الباقي بعد فنائها

---

(١) فتح الرحمن.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.

حقيقة أو نظرا إلى ذاتها مع قطع النظر عن مبقيها؛ فإن جميع الموجودات الممكنة إذا قطع النظر عن علتها، فهي فانية. وقيل: الأول[1] هو الذي ليس لوجوده بداية مفتتحة. والآخر: هو الدائم الذي ليس له نهاية منقضية. وقيل: الأول الذي كان قبل كل شيء. والآخر الذي يبقى بعد هلاك كل شيء. وقال أبو بكر الوراق: الأول بالأزلية، والآخر بالأبدية. ﴿والظاهر﴾ وجوداً لكثرة دلائله الواضحة، أو العلي الغالب على كل شيء. من ظهر عليه إذا علاه، وغلبه. ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ حقيقة، فلا يحوم العقل حول إدراك كنهه، وليس يعرف الله إلا الله. وتلك الباطنية سواء في الدنيا والآخرة. فاضمحل ما في «الكشاف» من أن فيه حجة على من جوز إدراكه في الآخرة بالحاسة. وذلك فإن كونه باطناً بكنه حقيقته لا ينافي كونه مرئياً في الآخرة من حيث صفاته. أو العالم بما بطن، وخفي من الأمور، من قولهم: فلان يبطن أمر فلان؛ أي: يعلم داخلة أمره.

وقد فسر هذه الأسماء الأربعة رسول الله ﷺ، فيتعين المصير إليه[2]. وهو ما أخرجه ابن أبي شيبة، ومسلم، والترمذي، والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاءت فاطمة إلى رسول الله ﷺ تسأله خادماً. فقال قولي: «اللهم رب السموات السبع، ورب العرش العظيم، وربنا ورب كل شيء، منزل التوراة والإنجيل والفرقان، فالق الحب والنوى، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس قبلك شيء. اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر».

وقال الزمخشري: فإن قلت: فما معنى ﴿الواو﴾ في هذه الأسماء؟

قلت: الواو الأولى معناها: الدلالة على أنه الجامع بين الصفتين الأولية والآخرية، والثانية على أنه الجامع بين الظهور والخفاء. وأما الوسطى فعلى أنه الجامع بين مجموع الصفتين الأوليين، ومجموع الصفتين الأخريين، فهو المستمر الوجود في جميع الأوقات الماضية والآتية، وهو في جميعها ظاهر وباطن، جامع الظهور بالأدلة والخفاء، فلا يدرك بالحواس.

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يعزب عن علمه شيء من الظاهر والخفي. فإنَّ ﴿عَلِيمٌ﴾ صيغة مبالغة، تدل على أنه تعالى تام العلم بكل شيء جليه وخفيه.

والمعنى: أي: وهو ذو علم تامّ بكل شيء فلا يخفى عليه شيء، ولا يعزب عنه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾؛ أي: أنشأهما، وأبدعهما على غير مثال سابق بقدرته الكاملة وحكمته البالغة ﴿فِي﴾ قدر ﴿سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من أيام الآخرة، أو من أيام الدنيا تعليماً للعباد التأني في الأمور. قال ابن عطية: وهذا الأخير أصوب. أولها: الأحد، وآخرها الجمعة. وهذا بيان لبعض ملكه للسموات والأرض. ﴿ثُمَّ اسْتَوَى﴾؛ أي: ارتفع، وعلا استواء يليق به من غير كيف ولا تمثيل ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ المحيط بجميع الأجسام.

والمعنى[1]: هو الذي أنشأ السموات السبع والأرضين. فدبَّرهنَّ وما فيهن في ستة أطوار مختلفات، ثم استوى على عرشه، فارتفع عليه ارتفاعاً يليق بجنابه لا نكيفه ولا نمثله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

﴿يَعْلَمُ﴾ سبحانه ﴿مَا يَلِجُ﴾ ويدخل ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ كالكنوز، والدفائن والموتى، والبذور، وكالغيث ينفذ في موضع وينبع في الآخر. ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾؛ أي: من الأرض كالجواهر من الذهب، والفضة، والنحاس، وغيرها، والزروع، والحيوانات، والماء، وكالكنوز والموتى يوم القيامة. ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ كالكتب، والملائكة، والأقضية، والصواعق، والأمطار، والثلوج. ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾؛ أي: وما يصعد إليها كالملائكة الذين يكتبون الأعمال، والدعوات، والأعمال، والأرواح السعيدة، والأبخرة، والأدخنة. وقد تقدم تفسيره مستوفى في سورة الأعراف، وفي غيرها.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿مَعَكُمْ﴾ بقدرته، وعلمه، وسلطانه ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾؛ أي: في أي مكان كنتم فيه من الأرض من برّ وبحر. وهذا تمثيل[2] لإحاطة علمه بهم،

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

وتصوير لعدم خروجهم عن قبضته أينما داروا. وفي الحديث: «أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان». وقال موسى عله السلام: «أين أجدك يا رب؟ قال: يا موسى إذا قصدت إلي فقد وصلت إلي».

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالكم فيجازيكم عليه ثواباً وعقاباً، وهو عبارة عن إحاطته بأعمالهم، فتأخيره عن الخلق لما أن المراد: ما يدور عليه الجزاء من العلم التابع للمعلوم، لا لما قيل: من أن الخلق دليل على العلم، فبالخلق يستدل على العلم، والدليل يتقدم على المدلول.

وفي الآية: إيقاظ للغافلين، وتنشيط للمتيقظين، ودلالة لهم على الخشية والحياء من رب العالمين، وإشارة لهم إلى أن أعمالهم محفوظة، وأنهم مجزيون بها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. قال بعض الكبار: ﴿والله بما تعملون بصير﴾؛ لأنه العامل بكم وفيكم، ولا بد لكل عامل أن يبصر عمله، وما يتعلق به.

والمعنى[1]: أي وهو رقيب عليكم، سميع لكلامكم، يعلم سركم ونجواكم. كما قال: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠﴾.

وفي «الصحيح»: أن رسول الله ﷺ قال لجبريل لما سأله عن الإحسان: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، وقال عمر رضي الله عنه: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: زودني حكمة أعيش بها، فقال: «استح الله كما تستحي رجلاً من صالحي عشيرتك لا يفارقك». وكان الإمام أحمد كثيراً ما ينشد هذين البيتين:

إِذَا مَا خَلَوْتَ ٱلدَّهْرَ يَوْماً فَلاَ تَقُلْ ... خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبُ
وَلاَ تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ يَغْفَلُ سَاعَةً ... وَلاَ أَنَّ مَا تُخْفِي عَلَيْهِ يَغِيبُ

وقوله: ﴿لَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ أي: سلطنتهما والتصرف فيهما. تكرير للتأكيد كما مر الجواب عنه، وتمهيد لقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه، لا إلى غيره استقلالاً، واشتراكاً ﴿تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾؛ أي: ترد جميع الأمور.

---

(١) المراغي.

فاستعدوا للقائه باختيار أرشد الأمور، وأحسنها عند الله تعالى. وقرأ الجمهور[١] ﴿تُرْجَعُ﴾ مبنياً للمفعول، فيكون بمعنى ترد، وقرأ الحسن، وابن أبي إسحاق، والأعرج مبنياً للفاعل، فيكون بمعنى تصير. والأمور عام في جميع الموجودات أعراضها وجواهرها.

ومعنى الآية: أي هو سبحانه المالك لما فيهما، والمدبر لأمورهما، والنافذ حكمه فيهما، وإليه مصير جميع خلقه، فيقضي بينهم بحكمه، كما قال: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾، وقال: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿يُولِجُ﴾؛ أي: يدخل سبحانه وتعالى: ﴿اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾؛ أي[٢]: يدخل بعض ساعات الليل في النهار حتى يصير النهار أطول ما يكون خمس عشرة ساعة، والليل أقصر ما يكون تسع ساعات. ﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ﴾؛ أي: بعض ساعاته ﴿فِي اللَّيْلِ﴾ بحسب اختلاف الفصول، واختلاف مطالع الشمس ومغاربها حتى يصير الليل أطول ما يكون خمس عشرة ساعة، والنهار أقصر ما يكون تسع ساعات. ومجموع الليل والنهار أربع وعشرون ساعة دائماً.

والمعنى: أي يقلب الله سبحانه الليل والنهار، ويقدرهما بحكمته كما يشاء. فتارة يطول الليل ويقصر النهار، والعكس بالعكس، وتارة يتركهما معتدلين، وحيناً يجعل الفصل شتاء أو ربيعاً أو صيفاً أو خريفاً، وكل ذلك بتدبيره، وفائدة خلقه.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿عَلِيمٌ﴾؛ أي: مبالغ في العلم ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾؛ أي: بخطرات قلوب العباد، ومكنوناتها اللازمة لها من الأسرار، والمعتقدات. وذلك أغمض ما يكون، وأخفاه؛ أي: عليم بالسرائر، وإن دقت وخفيت. فهو يعلم نوايا خلقه كما يعلم ظواهر أعمالهم من خير أو شرّ. وفي ذلك حث لنا على النظر والتأمل، ثم الشكر على ما أولى وأنعم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال[٣]: اسم الله الأعظم في أول سورة

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

الحديد في ست آيات من أولها. فإذا علقت على المقاتل في الصف لم ينفذ إليه حديد، كما في فتح الرحمن. ولكن لا أصل له.

﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ﴾؛ أي: صدقوا بوحدانية الله يا معشر الكفار ﴿و﴾ صدقوا برسالة ﴿رسوله﴾ ﷺ. وهذا خطاب لكفار العرب. ويجوز أن يكون خطاباً للجميع، ويكون المراد بالأمر بالإيمان في حق المسلمين: الاستمرار عليه أو الإزدياد منه.

ثم لما أمرهم بالإيمان أمرهم بالإنفاق في سبيل الله فقال: ﴿وَأَنفِقُوا﴾؛ أي: واصرفوا أيها المؤمنون في طاعة الله ﴿مِمَّا جَعَلَكُم﴾؛ أي: من المال الذي جعلكم الله تعالى ﴿مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾؛ أي؛ خلفاء في التصرف فيه من غير أن تملكوه حقيقةً. فإن المال مال الله، والعباد خلفاء الله في أمواله فعليهم أن يصرفوها فيما يرضيه.

عبر[1] عما بأيديهم من الأموال والأرزاق بذلك تحقيقاً للحق، وترغيباً لهم في الإنفاق. فإن من علم أنها لله، وأنه بمنزلة الوكيل والنائب بحيث يصرفوها إلى ما عينه الله تعالى من المصارف.. هان عليه الإنفاق أو جعلكم خلفاء من قبلكم فيما كان بأيديهم بتوريثه إياكم، فاعتبروا بحالهم حيث انتقل منهم إليكم، وسينتقل منكم إلى من بعدكم، فلا تبخلوا به. قال الشاعر:

وَيَكْفِيْكَ قَوْلُ ٱلنَّاسِ فِيْمَا مَلَكْتَهُ   لَقَدْ كَانَ هَذَا مَرَّةً لِفُلاَنِ

فلا بد من إنفاق الأموال التي هي للغير، وستعود إلى الغير. فكما أن الإنفاق من مال الغير يهون على النفس إذا أذن فيه صاحبه، فكذا من المال الذي على شرف الزوال.

روي: أن الآية نزلت في غزوة ذي العشيرة، وهي غزوة تبوك، والظاهر[2] أن معنى الآية: الترغيب في الإنفاق في الخير، وما يرضاه الله على العموم. وقيل: هو خاص بالزكاة المفروضة، ولا وجه لهذا التخصيص.

ومعنى الآية: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾؛ أي:[3] أقروا بوحدانية الله، وصدقوا

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراغي.

رسوله فيما جاءكم به عن ربكم، تنالوا الفوز برضوانه، وتدخلوا فراديس جنانه، وتسعدوا بما لم يدر لكم بخلد، ولم يخطر لكم ببال، وأنفقوا مما هو معكم من المال على سبيل العارية، فإنه قد كان في أيدي من قبلكم ثم صار إليكم، واستعملوه في طاعته وإلا حاسبكم على ذلك حساباً عسيراً. ولله در لبيد إذ يقول:

وَمَا ٱلْمَالُ وَٱلأَهْلُونَ إلاَّ وَدَائِعٌ   وَلاَ بُدَّ يَوْمَاً أَنْ تُرَدَّ ٱلْوَدَائِعُ

وفي هذا الترغيب أيما ترغيب في الإنفاق. لأن من علم أن المال لم يبق لمن قبله، وانتقل إليه علم أنه لا يدوم له بل ينتقل إلى غيره. وبذا يسهل عليه إنفاقه.

قال شعبة: سمعت عن قتادة يحدث عن مطرف بن عبد الله عن أبيه قال: «انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ①﴾، يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت، وما سوى ذلك فذاهب، وتاركه للناس». رواه مسلم.

ثم حث على ما تقدم من الإيمان، والإنفاق في سبيل الله تعالى، فقال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ بالله، وصدقوا رسوله ﴿وَأَنفَقُوا۟﴾ مما خولهم الله عمن قبلهم في سبيل الله حسبما أمروا به ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾؛ أي: ثواب عظيم عند ربهم، وهو الجنة. وهناك يرون من الكرامة، والمثوبة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ثم وبخهم على ترك الإيمان الذي أمروا به، وأبان أنه ليس لهم في ذلك من عذر. فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: وأي عذر لكم، وأي مانع من الإيمان، وقد أزيحت عنكم العلل. و﴿ما﴾ مبتدأ، و﴿لَكُمْ﴾ خبره. والاستفهام فيه للتوبيخ والتقريع. وجملة ﴿لَا تُؤْمِنُونَ﴾ حال من الضمير في ﴿لَكُمْ﴾، والعامل فيه ما فيه من معنى الفعل، وهو الاستقرار؛ أي[1]: أي شيء ثبت لكم، وحصل حال كونكم غير مؤمنين، وحقيقته ما سبب عدم إيمانكم بالله على توجيه الإنكار، والنفي إلى السبب فقط مع تحقق المسبب.

وقيل المعنى: أي شي لكم من الثواب في الآخرة إذا لم تؤمنوا؟. وجملة قوله: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير ﴿لَا

---

(١) روح البيان.

﴿تُؤْمِنُونَ﴾ مفيدة لتوبيخهم على الكفر مع تحقق ما يوجب عدمه بعد توبيخهم عليه مع عدم ما يوجبه؛ أي: وأي عذر في ترك الإيمان، والحال أن الرسول يدعوكم إليه، وينبهكم على صحة ما جاءكم به بالحجج والآيات. فإن الدعوة المجردة لا تفيد. فلو لم يجب الداعي دعوة مجردة، وترك ما دعاه إليه لم يستحق الملامة والتوبيخ، فلام ﴿لِتُؤْمِنُواْ﴾ بمعنى إلى، ولا يبعد حملها على التعليلية؛ أي: يدعوكم إلى الإيمان لأجل أن تؤمنوا.

وجملة قوله: ﴿وَقَدْ أَخَذَ﴾ الله سبحانه ﴿مِيثَٰقَكُمْ﴾ وعهدكم المؤكد باليمين على الإيمان من قبل دعوة الرسول إيّاكم إليه بنصب الأدلة والتمكين من النظر، حال من مفعول ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ أو من فاعله على التداخل. وحمله بعضهم على الميثاق المأخوذ يوم الذر، حين أخرجهم من صلب آدم في صورة الذر. وهي النمل الصغير. والمعنى؛ أي: والحال أن الله قد أخذ ميثاقكم حين أخرجكم من ظهر أبيكم آدم.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَقَدْ أَخَذَ﴾ مبنياً للفاعل، وهو الله لتقدم ذكره ﴿مِيثَٰقَكُمْ﴾ بالنصب. وقرأ أبو عمرو مبنياً للمفعول، ﴿مِيثَٰقُكُمْ﴾ بالرفع.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لموجب ما. فإن هذا موجب لا موجب وراءه. وفي «عين المعاني»؛ أي: إن كنتم مصدقين بالميثاق. وفي «فتح الرحمن»؛ أي: إن دمتم على ما بدأتم به، وفي «الشوكاني»: إن كنتم مؤمنين بما أخذ عليكم من الميثاق، أو بالحجج والدلائل، أو كنتم مؤمنين بسبب من الأسباب، فهذا من أعظم أسبابه، وأوضح موجباته، وقال أبو حيان: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ شرط جوابه محذوف، تقديره: إن كنتم مؤمنين لموجب ما، فهذا هو الموجب لإيمانكم، أو إن كنتم ممن يؤمن فما لكم لا تؤمنون، والحالة هذه، وهي دعاء الرسول، وأخذ الميثاق. وقال الطبري: إن كنتم مؤمنين في حال من الأحوال، فالآن فإنه قد تطابقت الدلائل النقلية والعقلية، وبلغت مبلغاً لا يمكن الزيادة عليها.

والمعنى[2]: أي وأي شيء يمنعكم من الإيمان والرسول بين أظهركم يدعوكم إلى ذلك، ويبين لكم الحجج، والبراهين على صحة ما جاءكم به، وقد أخذ الله

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

عليكم الميثاق بما نصب لكم من الأدلة على وحدانيته في الكون أرضه وسمائه، بره وبحره، وفي الأنفس بما تشاهدن فيها من بديع صنعها، وعظيم خلقها إن كنتم تؤمنون بالدليل العقلي والنقلي.

وصفوة القول: إن الأدلة تظاهرت على وجوب الإيمان بالله ورسوله، فقد نصب في الكون ما يرشد إلى وجوده، وأرسل الرسل يدعون إلى ذلك، وأقاموا البراهين على صدق ما يقولون، فما عذركم، وإلام تستندون في رد هذا؟ الآن قد تبين الرشد من الغيّ، وأفصح لذي عينين. وماذا بعد الحق إلا الضلال «فهل من مدّكر».

ثم قطع عليهم الحجة، وأزال معذرتم. فقال: ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإله ﴿الَّذِي يُنَزِّلُ﴾ بواسطة جبرئيل عليه السلام، وقرىء[1] في السبعة ﴿يُنْزِلُ﴾ مضارعاً. فبعض ثقل، وبعض خفف. وقرأ الحسن بالوجهين. وقرأ زيد بن علي، والأعمش ﴿أنزل﴾ ماضياً. ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ﴾ محمد ﷺ ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾؛ أي: واضحات من الأمر والنهي، والحلال، والحرام وهي الآيات القرآنية. وقيل: المعجزات، والقرآن أعظمها. ﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ الله سبحانه أيها المؤمنون بتلك الآيات ﴿مِّنَ الظُّلُمَٰتِ﴾؛ أي[2]: من ظلمات الكفر، والشرك، والشك، والجهل، والمخالفة ﴿إِلَى النُّورِ﴾؛ أي: إلى نور الإيمان، والتوحيد، واليقين، والعلم، والموافقة. أو ليخرجكم عبده محمد ﷺ بتلك الآيات أو بالدعوة. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: لكثير الرأفة والرحمة بليغهما، حيث هداكم إلى سعادة الدارين بإنزال كتبه، وإرسال رسله لهداية عباده بعد نصب الحجج العقلية، فلا رأفة، ولا رحمة أبلغ من هذا. والرأفة: أشد الرحمة.

والمعنى: أي هو الذي ينزل على رسوله دلائل واضحات، ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن الضلالة إلى الهدى، ولرأفته بكم، ورحمته لكم مكن لكم من النظر في الأنفس، والآفاق لتهتدوا إلى معرفته على أتم وجه، وأهون سبيل.

---

(١) البحر المحيط.　　(٢) روح البيان.

وبعد أن وبخهم على ترك الإيمان، وبخهم على ترك الإنفاق، وأبان أنه لا معذرة لهم في ذلك. فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ ﴿ما﴾ مبتدأ، ﴿لَكُمْ﴾ خبره. والاستفهام للتقريع والتوبيخ؛ أي: وأي عذر لكم في ﴿أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؟. وأي شيء يمنعكم من أن تنفقوا فيما هو قربة إلى الله ما هو له في الحقيقة، وإنما أنتم خلفاؤه في صرفه إلى ما عينه من المصارف. فقوله: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ مستعار لما يكون قربة إليه، وقال بعضهم: معناه: لأجل الله، والأصل في «أن لا تنفقوا» كما أشرنا إليه في الحل.

وقيل[1]: إنَّ ﴿أن﴾ زائدة. وجملة قوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ في محل النصب على الحال من فاعل ﴿أَلَّا تُنفِقُوا﴾ أو من مفعوله المحذوف. والمعنى: وأي شيء يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله، والحال أنه لا يبقى لكم منها شيء، بل تبقى كلها لله بعد فناء الخلق. وإذا كان كذلك.. فإنفاقها بحيث تستخلف عوضاً يبقى، وهو الثواب كان أولى من الإمساك؛ لأنها إذاً تخرج من أيديكم مجاناً بلا عوض، ولا فائدة. قال الراغب: وصف الله نفسه بأنه الوارث من حيث إن الأشياء كلها صائرة إليه؛ وقال أبو الليث: إنما ذكر لفظ الميراث؛ لأن العرب تعرف أن ما ترك الإنسان يكون ميراثاً، فخاطبهم بما يعرفون فيما بينهم.

والخلاصة[2]: أنفقوا أموالكم في سبيل الله قبل أن تموتوا؛ ليكون ذلك ذخراً لكم عند ربكم. فبعد الموت لا تقدرون على ذلك. إذ تصير الأموال ميراثاً لمن له السماوات والأرض.

ثم بين سبحانه تفاوت درجات المنفقين بحسب تفاوت أحوالهم في الإنفاق. فقال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُمْ﴾ يا معشر المؤمنين. روي أن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أنفقوا نفقات كثيرة حتى قال ناس: هؤلاء أعظم أجراً من كل من أنفق قديماً، فنزلت الآية مبينة أن النفقة قبل فتح مكة أعظم أجراً؛ أي: لا يستوي منكم معشر المؤمنين ﴿مَّنْ﴾ آمن، وهاجر، و﴿أَنفَقَ﴾ ماله في سبيل الله ﴿مِن قَبْلِ الْفَتْحِ﴾؛ أي: قبل فتح مكة الذي أزال الهجرة ﴿وَقَاتَلَ﴾ لإعلاء كلمة الله؛ أي: لا يستوي هو ومن

---

(١) الشوكاني.   (٢) المراغي.

أنفق بعد الفتح، وقاتل العدو تحت لواء رسول الله ﷺ. والاستواء[1] يقتضي شيئين. فقسيم ﴿من آمن﴾ محذوف لوضوحه، ودلالة ما بعده عليه؛ أي: لا يستوي في الفضل والثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل، ومن أنفق من بعده وقاتل. وقرأ الجمهور ﴿مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ﴾. وقرأ زيد بن علي ﴿قَبْلِ ٱلْفَتْحِ﴾ بغير من.

وإنما كانت النفقة، والقتال قبل الفتح أفضل من النفقة والقتال بعد الفتح؛ لأن حاجة الناس كانت إذ ذاك أكثر، وهم أقل وأضعف، ولم يؤمن إذ ذاك إلا الصديقون. أما بعد الفتح فقد انتشر الإسلام، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وتقديم الإنفاق على القتال للإيذان بفضيلة الإنفاق لما كانوا عليه من الحاجة، فإنهم كانوا يجودون بأنفسهم، ولا يجدون ما يجودون به من الأموال، والجود بالنفس أقصى غاية الجود.

والإشارة بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلى ﴿من﴾ باعتبار معناها، وهو مبتدأ، وخبره ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾؛ أي: أرفع منزلة عند الله، وأعلى رتبة ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ﴾ أموالهم في سبيل الله تعالى ﴿مِنۢ بَعْدُ﴾؛ أي: من بعد فتح مكة. ﴿وَقَٰتَلُواْ﴾ مع رسول الله ﷺ. قال الزجاج: لأن المتقدمين نالهم من المشقة أكثر مما نال من بعدهم، وكانت بصائرهم أيضاً أنفذ.

وقال الشعبي، والزهري: فتح الحديبية. قال قتادة: كان قتالان أحدهما أفضل من الآخر، ونفقتان إحداهما أفضل من الأخرى، كان القتال والنفقة من قبل فتح مكة أفضل من النفقة والقتال بعد ذلك.

والمعنى[2]: أي أولئك المنفقون المقاتلون قبل الفتح، وهم السابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار أعظم درجة، وأرفع منزلة عند الله، وبعظم الدرجة يكون عظم صاحبها. فالدرجة بمعنى المرتبة والطبقة، وجمعها درجات، كما سيأتي. ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ﴾؛ لأنّهم إنما فعلوا من الإنفاق، والقتال قبل عزة الإسلام، وقوّة أهله عند كمال الحاجة إلى النصرة بالنفس والمال، وهؤلاء فعلوا ما فعلوا بعد ظهور الدين، ودخول الناس فيه أفواجاً، وقلة الحاجة إلى الإنفاق

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

والقتال. وقد صرح ﷺ بفضل الأوّلين بقوله: «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه».

﴿وَكُلًّا﴾؛ أي: كل واحد من الفريقين. وهو مفعول أول لقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: المثوبة الحسنى. وهي الجنة. لا الأوّلين فقط، ولكن الدرجات متفاوتة. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أيها العباد ﴿خَبِيرٌ﴾ بظواهره وبواطنه، ويجازيكم بحسبه.

قال في «المناسبات»: لما كان زكاة الأعمال إنما هو بالنيات، وكان التفضيل مناط العلم قال مرغّباً في حسن النيات، مرهّباً من التقصير فيها: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: تجددون عمله على ممر الأوقات ﴿خَبِيرٌ﴾؛ أي: عالم بباطنه وظاهره علماً لا مزيد عليه بوجه. فهو يجعل جزاء الأعمال على قدر النيّات التي هي أرواح صورها. وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَكُلًّا﴾ بالنصب، وقرأ ابن عامر، وعبد الوارث بالرفع على أنه مبتدأ.

والمعنى[2]: أي وكل من المنفقين قبل الفتح وبعده لهم ثواب على ما عملوا، وإن كان بينهم تفاوت في مقدار الجزاء، كما قال في آية أخرى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةًۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾ الآية. ثم وعدوا وأوعد. فقال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؛ أي: والله عليم بظواهر أحوالكم وبواطنها فيجازيكم بذلك، ولخبرته تعالى بكم فضل أعمال من أنفق من قبل الفتح وقاتل، على من أنفق بعده وقاتل، وما ذاك إلا لعلمه بإخلاص الأول في إنفاقه في حال الجهد والضيق. ولأبي بكر الصديق رضي الله عنه الحظ الأوفر من هذه الآية، فإنه سيد من عمل بها، إذ أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله تعالى، ولم يكن لأحد عنده من نعمة يجزيه بها.

ثم ندب إلى الإنفاق في سبيله، ووبخ على تركه. فقال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ من[3] مبتدأ، خبره ﴿ذَا﴾، و﴿ٱلَّذِي﴾ صفة ﴿ذَا﴾، أو بدله.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

والإقراض حقيقة: إعطاء العين على وجه يطلب بدله. و﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ مفعول مطلق له بمعنى إقراضاً حسناً. وهو الإخلاص في الإنفاق؛ أي؛ الإعطاء لله، وتحري أكرم المال، وأفضل الجهات.

والمعنى: من ذا الذي ينفق ماله في سبيل الله رجاء أن يعوضه. فإنه كمن يقرضه. وقال في «كشف الأسرار»: كل من قدم عملاً صالحاً يستحق به مثوبة، فقد أقرض، ومنه قولهم: الأيادي قروض، وكذلك كل من قدم عملاً سيئاً يستوجب به عقوبة فقد أقرض، فلذلك قال تعالى: ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾. لأنّ المعصية قرض سيء. قال أمية:

لاَ تَـخْـلُـطَـنَّ خَـبِـيـثَـاتٍ بِـطَـيِّـبَـةٍ   وَٱخْلَـعْ ثِـيَـابَـكَ مـنـهـا وَٱنْـجُ عُـرْيَـانَـا
كُلُّ ٱمْرِىءٍ سَوْفَ يُجْزىٰ قَرْضَه حَسَناً   أَوْ سَـيِّـئـاً وَيُـدَانُ مِـثْـلَ مَـا دَانَـا

وقيل: المراد بالقرض: الصدقة، انتهى. وههنا وجه آخر، وهو أن القرض في الأصل: القطع من قرض الثوب بالمقراض إذا قطعه به، ثم سمي به ما يقطعه الرجل من أمواله، فيعطيه عيناً بشرط رد بدله، فعلى هذا يكون ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ مفعولاً به.

والمعنى: من ذا الذي يقرض الله مالاً حسناً؛ أي: حلالاً طيباً. فإنه تعالى لا يقبل إلا الحلال الطيب.

فائدة: قال بعض العلماء: لا يكون القرض حسناً حتى يجمع أوصافاً عشرة: وهو أن يكون المال من الحلال؛ وأن يكون من أجود المال، وأن تتصدق به وأنت محتاج إليه، وأنت تصرف صدقتك إلى الأحوج إليها، وأن تكتم الصدقة ما أمكنك، وأن لا تتبعها بالمن والأذى، وأن تقصد بها وجه الله تعالى ولا ترائي بها الناس، وأن تستحقر ما تعطي وإن كان كثيراً، وأن يكون من أحب أموالك إليك، وأن لا ترى عز نفسك وذل الفقير. فهذه عشرة خصال، إذا اجتمعت في الصدقة كانت قرضاً حسناً، انتهى ذكره في «الفتوحات» نقلاً عن القرطبي. وقيل: القرض الحسن هو الخالص عن شوائب الرياء. أما القرض الذي يدفع إلى الإنسان من المال بشرط بدله فهو سنة مؤكدة. قد يجب للمضطر، ويحرم على من يستعين به على معصية.

﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ بالنصب على جواب الاستفهام باعتبار المعنى. كأنّه قيل:

أيقرض الله أحد فيضاعفه له؛ أي: فيعطيه أجره أضعافاً من فضله، وإنّما قلنا: باعتبار المعنى؛ لأنَّ ﴿الفاء﴾ إنما تنصب فعلاً مردوداً على فعل مستفهم عنه كما قال أبو علي الفارسي. وههنا السؤال لم يقع عن القرض، بل عن فاعله. ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ وذلك الأجر المضموم إليه الأضعاف كريم حسن طيب مرضي في نفسه، حقيق بأن يتنافس فيه المتنافسون، وإن لم يضاعف فكيف وقد ضوعف أضعافاً كثيرة.

والمعنى[1]: أي من هذا الذي ينفق أمواله في سبيل الله محتسباً أجره عند ربه بلا من ولا أذى، فيضاعف له ذلك القرض، فيجعل له بالحسنة الواحدة سبع مئة، وله بعد ذلك جزاء كريم بمثبوته بالجنة، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا...﴾ الآية، قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله، وإن الله ليريد منا القرض، قال: «نعم يا أبا الدحداح، قال: أرني يدك يا رسول الله قال: فناوله يده قال: إني أقرضت ربي حائطي - بستاني - وكان له حائط فيه ست مئة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها. قال أبو الدحداح: فناديتها يا أم الدحداح، قالت: لبيك، قال أخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل، قالت له: ربح بيعك يا أبا الدحداح. ونقلت منها متاعها وصبيانها. فقال رسول الله ﷺ: «كم من عذق رداح في الجنة لأبي الدحداح».

وهذا الأسلوب يستعمل في الأمر العزيز النادر، فيقال: من ذا الذي يفعل كذا إذا كان أمراً عظيماً. وعلى هذا جاء قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

وقرأ ابن عامر، وابن كثير[2]: ﴿فيُضعِّفه﴾ بإسقاط الألف مع التضعيف، إلا ابن عامر، ويعقوب نصبوا الفاء. وقرأ نافع، وأهل الكوفة والبصرة ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾ بالألف وتخفيف العين، إلا أن عاصماً نصب ﴿الفاء﴾ ورفع الباقون. قال ابن عطية: الرفع على العطف على ﴿يُقْرِضُ﴾ أو الاستئناف، والنصب لكون ﴿الفاء﴾ في جواب الاستفهام. وضَعَّف النصب أبو علي الفارسي، قال: لأن السؤال لم يقع عن القرض، وإنما وقع عن فاعل القرض، وإنما تنصب ﴿الفاء﴾ فعلاً مردوداً على فعل

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

مستفهم عنه، لكن هذه الفرقة حملت ذلك على المعنى: كأن قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ بمنزلة قوله: أيقرض الله أحد، كما مرّ آنفاً. قال أبو حيان[1]: وهذا الذي ذهب إليه أبو علي الفارسي ليس بصيحح، بل يجوز النصب إذا كان الاستفهام بأدواته الاسمية نحو: من يدعوني فاستجيبَ له، وأين بيتك فأزورَك، ومتى تسير فأرافقَك، وكيف تكون فأصحبَك. فالاستفهام هنا واقع عن ذات الداعي، وعن ظرف المكان وظرف الزمان، والحال، لا عن الفعل، وحكى ابن كيسان عن العرب: أين ذهب زيد فنتبعه، وكذلك كم مالك فنعرفه، ومن أبوك فنكرمه بالنصب بعد الفاء. وقراءة ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾ بالنصب قراءة متواترة. وإذا جاز النصب في نحو هذا فجوازه في المثل السابقة أحرى، مع أن سماع ابن كيسان ذلك محكيًّا عن العرب يؤيد ذلك، انتهى.

والظرف في قوله: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ منصوب بإضمار اذكر تفخيماً لذلك اليوم، أو بـ ﴿كَرِيمٌ﴾ أو بـ ﴿يضاعفه﴾ أو بالعامل في ﴿لَهُمْ﴾. وهو الاستقرار. والخطاب لكل من يصلح. وقوله: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ في محل نصب على الحال من مفعول ﴿تَرَى﴾. والنور: هو الضياء الذي يرى. والسعي: هو المشي السريع؛ أي: واذكر أيها المخاطب وقت رؤية المؤمنين والمؤمنات على الصراط، وهو يوم القيامة حال كونهم يسعى نور إيمانهم وطاعتهم ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ جمع يمين بمعنى الجارحة. والمراد هنا: جهة اليمين. و﴿بَيْنَ﴾ ظرف للسعي. قال أبو الليث: يكون النور بين أيديهم، وبأيمانهم، وعن شمائلهم إلا أن ذكر الشمال مضمر.

قال في «فتح الرحمن»: وخص بين الأيدي بالذكر؛ لأنه موضع حاجة الإنسان إلى النور، وخص ذكر جهة اليمين تشريفاً، وناب ذلك مناب أن يقول: وفي جميع جهاته. وفي «كشف الأسرار»: لأن طريق الجنة يمنةٌ، وتجاههم، وطريق أهل النار يسرة ذات شمال، وفي الحديث: «بينا أنا على حوضي أنادي هلم إذا أناس أخذتهم الشمال، فاختلجوا دوني، فأنادي ألا هلم فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقاً».

وقرأ الجمهور[2]: ﴿ٱلنُّورِ﴾ أصله يكون بأيمانهم، والذي بين أيديهم هو

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط.

الضوء المنبسط من ذلك النور. وقيل: الباء بمعنى عن؛ أي: عن أيمانهم. وقال الزمخشري: وإنما قال: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ لأنّ السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين، كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم، ووراء ظهورهم. وقرأ الجمهور ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ بفتح الهمزة، جمع يمين. وقرأ سهل بن سعد الساعدي، وأبو حيوة ﴿بإيمانهم﴾ بكسرها وعطف هذا المصدر على الظرف؛ لأنَّ الظرف متعلق بمحذوف؛ أي: كائناً بين أيديهم، وكائناً بسبب إيمانهم. والمراد بالإيمان: ضد الكفر. وقيل: هو القرآن.

وتقول لهم الملائكة الذين يتلقونهم: ﴿بُشْرَىٰكُمُ﴾؛ أي: ما تبشرون به اليوم. وعبارة الخطيب هنا؛ أي: بشارتكم العظيمة في جيمع ما يستقبلكم من الزمان. ﴿جَنَّٰتٌ﴾؛ أي: بساتين أو بشراكم دخول جنات، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه في الإعراب. ﴿تَجْرِى﴾ وتسيل ﴿مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت أشجارها، وقصورها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الأربعة المعروفة في الجنة: اللبن، والماء، والخمر، والعسل. حال كونهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾؛ أي: في تلك الجنات. ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ما ذكر من النور والبشرى بالجنات المخلدة ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا يقادر قدره، حتى كأنه لا فوز غيره، ولا اعتداد بما سواه لكونهم ظفروا كل ما أرادوا.

ومعنى الآية[1]: أي لهم الأجر الكريم حين ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى بين أيديهم ما يكون السبب في نجاتهم، وهدايتهم إلى سبيل الجنة من العلوم التي كملوا بها أنفسهم في الدنيا: كالاعتقاد، بالتوحيد، وخلع الأنداد والأوثان، والقبور، والأعمال الصالحة التي زكوا بها أنفسهم، وبها أخبتوا لربهم، وأنابوا إليه مخلصين له الدين، وبأيمانهم تكون كتبهم. كما جاء في آية أخرى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾. وتقول لهم الملائكة: أبشروا بجنات تجري من تحتها الأنهار جزاء وفاقاً لما قدمتم من صالح الأعمال، وجاهدتم به أنفسكم في ترك الشرك والآثام، وكنتم تذكرون الله بالليل والناس نيام، فطوبى لكم وهنيئاً بما عملتم. ونحو الآية قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ

---

(١) المراغي.

﴿عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾. ذلك الخلود في الجنات التي سمعتم أوصافها هو النجح العظيم الذي كنتم تطلبونه بعد النجاة من عقاب الله.

وبعد أن ذكر حال المؤمنين في موقف القيامة أتبعه ببيان حال المنافقين. فقال: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ بدل من ﴿يَوْمَ تَرَى﴾؛ أي: اذكر يا محمد لقومك أو اذكر أيها المخاطب أهوال يوم يقول المنافقون والمنافقات ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: أخلصوا الإيمان بكل ما يجب الإيمان به: ﴿ٱنظُرُونَا﴾؛ أي: انتظرونا. يقولون ذلك لما رأوا المؤمنين يسرع بهم إلى الجنة كالبروق الخاطفة على ركاب تزف بهم، وهؤلاء مشاة أو انظروا إلينا. فإنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم، فيستضيئون بالنور الذي بين أيديهم. فانظرونا على هذا الوجه من باب الحذف والإيصال؛ لأن النظر بمعنى الإبصار لا يتعدى بنفسه، وإنما يتعدى بإلى. وهذان المعنيان على قراءة الجمهور. فإنهم قرأوا ﴿ٱنظُرُونَا﴾ أمراً بوصل[1] الهمزة وضم الظاء، من نظر الثلاثي. وقرأ زيد بن علي، وابن وثاب، والأعمش، وطلحة، وحمزة ﴿أنظرونا﴾ بقطع الهمزة وكسر الظاء، من أنظر الرباعي؛ أي: أنظرونا وأخرونا. لأن الإنظار: الإمهال على أن تأنِّيهم في المضي ليلحقوا بهم إنظار لهم وإمهال؛ أي: تأخروا لأجلنا، ولا تسرعوا في مضيكم ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾؛ أي: نستضيء منه، ونمش فيه معكم. وأصله: اتخاذ القبس. وهو محركة شعلة نار تقتبس من معظم النار كالمقباس، كما سيأتي. وقيل: ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾؛ أي: نأخذ من نوركم قبساً سراجاً وشعلة.

﴿قِيلَ﴾ طرداً لهم، وتهكّماً بهم من جهة المؤمنين، أو من جهة الملائكة ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ﴾؛ أي: إلى الموقف ﴿فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾؛ أي: فاطلبوا نوراً. فإنه من ثمة يقتبس، أو ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا النور بتحصيل مباديه من الإيمان والأعمال الصالحة.

والمعنى[2]: قال لهم المؤمنون أو الملائكة زجراً لهم، وتهكماً بهم: ارجعوا

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

ورائكم إلى الموضع الذي أخذنا منه النور. فالتمسوا واطلبوا هنالك نوراً لأنفسكم. فإنه من هنالك يقتبس. وقيل: المعنى: ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا النور بما التمسناه من الإيمان والأعمال الصالحة. وقيل: أرادوا بالنور: ما ورائهم من الظلمة تهكماً بهم.

وعن أبي أمامة الباهليّ رضي الله عنه: أنه قال: بينا العباد يوم القيامة عند الصراط إذ غشيهم ظلمة، يقسم الله النور بين عباده، فيعي الله المؤمن نوراً، ويبقي المنافق والكافر لا يعطيان نوراً. فكما لا يستضيء الأعمى بنور البصير لا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن. فيقولون: انظرونا نقتبس من نوركم. فيقولون لهم: ارجعوا حيث قسم النور، فيرجعون فلا يجدون شيئاً، فيرجعون وقد ضرب بينهم بسور، أو ارجعوا خائبين خاسئين، وتنحوا عنا فالتمسوا نوراً آخر، وقد علموا أن لا نور ورائهم، وإنما قالوه تخييباً لهم أو أرادوا بالنور ما ورائهم من الظلمة الكثيفة تهكماً بهم.

وحاصل معنى الآية: في ذلك اليوم يقول[1] المنافقون والمنافقات: أيها الذين نجوتم بإيمانكم بربكم، وفزتم برضوانه حتى دخلتم فسيح جناته، انتظرونا نلحق بكم، ونقتبس من نوركم حتى نخرج من ذلك الظلام الدامس، والعذاب الأليم الذي نحن مقبلون عليه، فيجابون بما يخيب آمالهم، ويلحق بهم الحسرة والندامة، كما قال: ﴿قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا﴾؛ أي: ارجعوا من حيث أتيتم واطلبوا لأنفسكم هناك نوراً. فإنه لا سبيل إلى الاقتباس من نورنا الذي كان بما قدمنا لأنفسنا، وادخرنا لها من عمل صالح. فهيهات هيهات أن تنالوا نوراً، إذ لا ينفع المرء حينئذٍ إلا عمله. ولله درّ القائل:

صَاحِ هَلْ رَأَيْتَ أَوْ سَمِعْتَ بِرَاعِ   رَدَّ فِيْ ٱلضَّرْعِ مَا قَرَىٰ فِيْ ٱلْحِلَابِ

ولا يخفي ما في هذا من التهكم بهم والاستهزاء بطلبهم كما استهزؤوا بالمؤمنين في الدنيا حين قالوا: آمنا، وما هم بمؤمنين. وذلك ما عناه سبحانه بقوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾؛ أي: حين يقال لهم: ﴿ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا﴾.

---

(١) المراغي.

ثم ذكر ما يكون بعد هذه المقالة، فقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم﴾؛ أي[1]: بني بين الفريقين المؤمنين والمنافقين ﴿بِسُورٍ﴾ الباء زائدة أي: حائط بين الجنة والنار كما قاله قتادة، أو حجاب كما في سورة الأعراف كما قاله مجاهد، وقال: من قال: ارجعوا إلى الدنيا المراد بضرب السور امتناع العود إلى الدنيا؛ أي: ضربته الملائكة بينهم بأمر إلٰهي.

ولما[2] كان البناء مما يحتاج إلى ضرب باليد ونحوها من الآلات عبر عنه بالضرب، ومثله: ضرب الخيمة كضرب أوتادها بالمطرقة. ﴿بِسُورٍ﴾؛ أي: حائط بين شق الجنة وشق النار؛ فإن سور المدينة حائطها المشتمل عليها لحفظها، وقال بعضهم: هو سور بين أهل الجنة والنار، يقف عليه أصحاب الأعراف يشرفون على أهل الجنة وأهل النار، وهو السور الذي يذبح عليه الموت، يراه الفريقان معاً.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿فَضُرِبَ﴾ مبنياً للمفعول. وقرأ زيد بن عليّ، وعبيد بن عمير مبنياً للفاعل؛ أي: ضرب الله سبحانه وتعالى. ويبعد قول من قال: إن هذا السور هو الجدار الشرقي من مسجد بيت المقدس، وهو مروي عن عبادة بن الصامت، وابن عباس، وعبد الله بن عمر، وكعب الأحبار. ولعله لا يصح عنهم.

ثم وصف سبحانه السور المذكور، فقال: ﴿لَّهُ﴾؛ أي: لذلك السور ﴿بَابٌ﴾ يدخل فيه المؤمنون. فيكون السور بينهم باعتبار ثاني الحال أعني: بعد الدخول لا حين الضرب. ﴿بَاطِنُهُ﴾؛ أي: باطن ذلك السور، أو باطن الباب ﴿فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ لأنّه يلي الجنة ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ﴾؛ أي: من جهته، وعنده ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ لأنه يلي النار؛ أي: من جهته عذاب جهنم. وقيل: إن المؤمنين يسبقونهم فيدخلون الجنة، والمنافقون يحصلون في العذاب، وبينهم السور. وقيل: إن الرحمة التي في باطنه نور المؤمنين، والعذاب الذي في ظاهره ظلمة المنافقين.

والمعنى: أي فضرب بين الفريقين حاجز جانبه الذي يلي مكان المؤمنين وهو الجنة، فيه الرحمة وجانبه الذي يلي المنافقين وهو النار فيه العذاب.

ولما ضرب بالسور بين المؤمنين والمنافقين أخبر الله سبحانه عما قاله

---

(١) المراح.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

المنافقون إذ ذاك فقال: ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ استئناف واقع في جواب سؤال مقدر كأنه قيل: فماذا يفعلون بعد ضرب السور، ومشاهدة العذاب؟ فقيل: ينادي المنافقون المؤمنين من وراء السور ﴿أَلَمْ نَكُن﴾ في الدنيا ﴿مَّعَكُمْ﴾ يريدون به موافقتهم لهم في الأمور الظاهرة: كالصلاة، والصوم، والمناكحة، والموارثة، ونحوها.

ثم أخبر سبحانه عما أجابهم به المؤمنون فقال: ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قال المؤمنون: ﴿بَلَىٰ﴾ كنتم معنا بحسب الظاهر ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ﴾ أيها المافقون ﴿فَتَنتُمْ﴾ وابتليتم ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ ومحنتموها بالنفاق، وأهلكتموها. وإضافة[1] الفتنة إلى النفس إضافة الميل والشهوة، وإلى الشيطان في قوله: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ إضافة الوسوسة، وإلى الله تعالى في قوله: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾ إضافة الخلق. لأنه خلق الضلال فيه ليفتتن. ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالمؤمنين الدوائر. والتربص: الانتظار. وقال مقاتل: وتربصتم بمحمد ﷺ الموت، وقلتم: يوشك أن يموت فنستريح منه. وهو وصف قبيح؛ لأن انتظار موت وسائل الخير، ووسائط الحق من عظيم الجرم والقباحة. إذ شأنهم أن يرجى طول حياتهم ليستفاد منهم، ويغتنم بمجالستهم. ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾؛ أي: شككتم في أمر الدين أو في النبوة، أو في هذا اليوم، ولم تصدقوا ما نزل من القرآن، ولا بالمعجزات الظاهرة. ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾ الفارغة الباطلة التي من جملتها: الطمع في انتكاس أمر الإسلام. جمع أمنية كأضحية. وفي «عين المعاني»: وغرتكم خدع الشيطان. وقال أبو الليث: أباطيل الدنيا. ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: الموت. وقيل: نصره سبحانه لنبيه ﷺ. وقال قتادة: هو إلقاؤهم في النار. ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ﴾ الكريم ﴿ٱلْغَرُورُ﴾؛ أي: الشيطان؛ أي: غركم الشيطان بأن الله عفو كريم لا يعذبكم. قال قتادة: ما زالوا على خدعة من الشيطان، حتى قذفهم الله تعالى في النار. قال الزجاج: الغرور على وزن فعول. وهو من أسماء المبالغة، يقال: فلان أكول كثير الأكل، وكذا الشيطان الغرور. لأنه يغر ابن آدم كثيراً. قال في «المفردات»: الغرور: كل ما يغر الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان، وقد فسر بالشيطان؛ إذ هو أخبث الغارين بالدنيا لما قيل: الدنيا تغر، وتضر، وتمر.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ بفتح الغين، وهو صفة على فعول، والمراد به:

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

الشيطان؛ أي: خدعكم بحلم الله وإمهاله الشيطان. وقرأ أبو حيوة، ومحمد بن السميفع، وسماك بن حرب بضمها، وهو مصدر.

ومعنى الآية[1]: أي ينادي المنافقون المؤمنين أما كنا معكم في دار الدنيا نصلي معكم الجماعات، ونقف معكم بعرفات، ونحضر معكم الغزوات، ونؤدي معكم سائر الواجبات؟ فيجيبهم المؤمنون قائلين لهم: بلى كنتم معنا ولكنكم أهلكتم أنفسكم باللذات والمعاصي، وأخرتم التوبة، وشككتم في أمر البعث بعد الموت، وغرتكم الأماني فقلتم: سيغفر لنا، وما زلتم كذلك حتى حضركم الموت، وغركم الشيطان فقال لكم: إن الله عفو كريم لا يعذبكم.

والخلاصة: أنكم كنتم معنا بأبدانكم لا بقلوبكم، وكنتم في حيرة من أمركم فلا تذكرون الله إلا قليلاً.

ثم أيأسوهم من عاقبة أمرهم، وأنهم هالكون لا محالة، ولا سبيل إلى الخلاص من النار. فقال: ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: ففي هذا اليوم الحاضر. وهو يوم القيامة ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ﴾ أيها المنافقون ﴿فِدْيَةٌ﴾؛ أي: فداء تدفعون به العذاب عن أنفسكم. والفداء: حفظ الإنسان نفسه من النائبة بما يبذله من مال أو نفس؛ أي: لا يؤخذ منكم دية، ولا نفس أخرى مكان أنفسكم.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿لَا يُؤْخَذُ﴾ بالياء. وقرأ أبو جعفر، والحسن، وابن أبي إسحاق، والأعرج، وابن عامر، وهارون عن أبي عمرو ﴿تُؤخَذ﴾ بالتاء لتأنيث الفدية. ﴿وَلَا﴾ تؤخذ فدية أيضا ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ﴾ ظاهراً وباطناً. وفيه[3] دلالة على أن الناس ثلاثة أقسام: مؤمن ظاهراً وباطناً وهو المخلص، ومؤمن ظاهراً لا باطناً، وهو المنافق، وكافر ظاهراً وباطناً. ﴿مَأْوَىٰكُمُ﴾؛ أي: مرجعكم، ومقركم، ومنزلكم الذي تأوون إليه أيها المنافقون ومرجع الكفار أيضاً ﴿ٱلنَّارُ﴾؛ أي: نار جهنم لا ترجعون إلى غيرها أبداً. ﴿هِيَ﴾؛ أي: النار ﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾؛ أي: والية أموركم تتصرف فيكم تصرف الموالي في عبيدهم لما أسلفتم من المعاصي. والمولى في الأصل: من يتولى مصالح الإنسان، ثم استعمل فيمن يلازمه. وقيل: معنى ﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾:

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

مكانكم عن قرب من الولي. وهو القرب. وقيل: إن الله يركب في النار الحياة والعقل فهي تتميز غيظاً على الكفار. وقيل: هي ناصركم على طريقة قول الشاعر:

تَحِيّةُ بينهم ضرب وجيع

فإن مقصوده نفي التحية فيما بينهم قطعاً؛ لأن الضرب الوجيع ليس بتحية، فيلزم أن لا تحية ألبتة، فكذا إذا قيل لأهل النار: هي ناصركم يراد به أن لا ناصر لكم ألبتة. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ أي: المرجع الذي تصيرون إليه، وهو النار.

والمعنى[1]: أي فاليوم لو جاء أحدكم بملء الأرض ذهباً، ومثله معه ليفتدي به من عذاب الله ما قبل منه. فمصيركم إلى النار، وإليها متقلبكم ومثواكم، وهي أولى بكم من كل منزل آخر لكفركم وارتيابكم، وساءت مصيراً ومآلاً.

والخلاصة: أنّ لا مناص من النار، فلا فداء ولا فكاك منها.

والاستفهام في قوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ للتوبيخ والتقرير. ﴿يَأْنِ﴾ فعل مضارع مجزوم من[2] أنى الأمر يأني أنياً من باب رمى إذا جاء إناه أي: وقته، وحان حينه؛ أي: ألم يأت، ولم يجيء، ولم يقرب للذين آمنوا بالله ورسوله ﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ تعالى؛ أي: ألم يأت وقت خشوع قلوبهم وخضوعها لذكره تعالى، ومواعظه، وطمأنينتها به، ومسارعتها إلى طاعته بالامتثال لأوامره، والانتهاء عما نهوا عنه من غير توان، ولا فتور. قال بعضهم: الذكر إن كان غير القرآن يكون المعنى: أن ترق، وتلين قلوبهم إذا ذكر الله، فإن ذكر الله سبب لخشوع القلوب أي سبب. فالذكر مضاف إلي مفعوله، واللام بمعنى الوقت، والمعنى: ألم يأت للذين آمنوا خشوع قلوبهم وقت ذكرهم إياه تعالى، وإن كان القرآن فهو مضاف إلى الفاعل، واللام للعلة.

والمعنى[3]: ألم يأت للذين آمنوا وقت خشوعهم لذكر الله تعالى، ومواعظة التي ذكرها في القرآن، ولآياته التي تتلى فيه. ﴿و﴾ أن تخشع لـ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: من القرآن. وهو معطوف على ﴿ذكر الله﴾ فإن كان هو المراد به أيضاً فالعطف

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

لتغاير العنوانين. فإنه ذكر وموعظة، كأنه حق نازل من السماء. وإلا فالعطف كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾. ومعنى الخشوع لما نزل: الانقياد التام لأوامره ونواهيه، والعكوف على العمل بما فيه من الأحكام التي من جملتها ما سبق، وما لحق من الإنفاق في سبيل الله.

قرأ الجمهور[1]: ﴿أَلَمْ﴾. وقرأ الحسن، وأبو السمّال ﴿ألمّا﴾. وقرأ الجمهور ﴿يأن﴾ مضارع أن إذا حان. وقرأ الحسن ﴿يئن﴾ بكسر الهمزة وسكون النون مضارع آن إذا حان أيضاً. وقرأ الجمهور، وأبو بكر عن عاصم ﴿وما نزّل﴾ بتشديد الزاي؛ أي: ولما نزله الله من القرآن. وقرأ نافع، وحفص مخففاً. والجحدري، وأبو جعفر، والأعمش، وأبو عمرو في رواية يونس، وعباس عنه مبنيًّا للمفعول مشدداً، وقرأ عبد الله ﴿أنزل﴾ بهمزة النقل مبنيًّا للفاعل.

وعبارة الشوكاني: والمعنى: أنه[2] ينبغي أن يورثهم الذكر خشوعاً ورقة، ولا يكونوا كمن لا يلين قلبه للذكر، ولا يخشع له. ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ معطوف على ﴿ذكر الله﴾. والمراد بما نزل من الحق: القرآن. فيحمل الذكر المعطوف عليه على ما عداه مما فيه ذكر الله سبحانه باللسان، أو خطور بالقلب. وقيل: المراد بالذكر: هو القرآن، فيكون هذا العطف من باب عطف التفسير أو بتغاير المفهومين، انتهى.

وقرأ الجمهور[3] قوله: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ بالتحتانية على الغيبة جرياً على ما تقدم عطفاً على ﴿أَن تَخْشَعَ﴾. وقرأ أبو حيوة، وابن أبي عبلة، وإسماعيل عن أبي جعفر، وعن شيبة، ويعقوب، وحمزة في رواية عن سليم عنه ﴿ولا تكونوا﴾ بالفوقانية على الخطاب التفاتاً، وبها قرأ عيسى، وابن إسحاق إما نهياً وإما عطفاً على ﴿أَن تَخْشَعَ﴾؛ أي: ألم يأن لهم أن تخشع قلوبهم ولا يكونوا كالذين... إلخ.

والمعنى: النهي لهم عن أن يسلكوا سبيل اليهود والنصارى الذين أوتوا التوراة

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الشوكاني.
(٣) البحر المحيط.

والإنجيل من قبل نزول القرآن. ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾؛ أي: طال عليهم الزمان بينهم وبين أنبيائهم، أو الأعمار والآمال، وغلبهم الجفاء والقسوة، وزالت عنهم الروعة التي كانت تأتيهم من التوراة والإنجيل إذا تلوهما أو سمعوهما. وقرأ الجمهور[1] ﴿ٱلْأَمَدُ﴾ بتخفيف الدال. وهي الغاية من الزمان. وقرأ ابن كثير في رواية عنه بتشديدها. وهو الزمان بعينه الأطول. وقيل: المراد بالأمد عل القراءة الأولى: الأجل والغاية، يقال: أمد فلان كذا؛ أي: غايته. ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: تصلبت وغلظت بذلك السبب بحيث لا تنفعل للخير والطاعة، فهي كالحجارة أو أشد قسوة. فلذلك حرفوا وبدلوا. فنهى الله سبحانه أمة محمد ﷺ أن يكونوا مثلهم. ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: من أهل الكتاب ﴿فَٰسِقُونَ﴾؛ أي: خارجون عن طاعة الله تعالى؛ لأنهم تركوا العمل بما أنزل إليهم، وحرفوا، وبدلوا، ولم يؤمنوا بما نزل على محمد ﷺ لفرط الجفاء والقسوة. قيل: هم الذين تركوا الإيمان بعيسى ومحمد ﷺ. وقيل: هم الذين ابتدعوا الرهبانية. وهم أصحاب الصوامع.

وفيه[2]: إشارة إلى أن عدم الخشوع في أول الأمر يفضي إلى الفسق في آخر الأمر، وروي عن عيسى عليه السلام قال: لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله تعالى فتقسوا قلوبكم، فإن القلب القاسي بعيد من الله تعالى، ولا تنظروا في ذنوب العباد كأنكم أرباب، وانظروا في ذنوبكم كأنكم عبيد، فإنما الناس رجلان: مبتلى ومعافى. فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية.

ومعنى الآية[3]: أي أما آن للمؤمنين أن ترق قلوبهم عند سماع القرآن والمواعظ، فتفهمه، وتنقاد له، وتطيع أوامره، وتنتهي عن نواهيه. وإذا كان المؤمنون قد أصابهم الوهن، ولم يمض على الإسلام أكثر من ثلاث عشرة سنة، كما قال ابن عباس: فما بالهم اليوم وقد مضى عليهم أكثر من ثلاثة عشر قرناً؟. فتعبير الآية عن حالهم الآن بالأولى. فالوهن الآن أضعاف مضاعفة عما كان في تلك الحقبة، ومن ثم أفرط الأفاريج في إذلالهم واستعبادهم، وصاروا غرباء في ديارهم، والأمر والنهي فيها لسواهم.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

وَيُقْضَى الأَمْرُ حِيْنَ تَغِيْبُ تَيْمٌ   وَلاَ يُسْتَأْذَنُوْنَ وَهُمْ شُهُوْدُ

ثم حذرهم أن يكونوا كأهل الكتاب قبلهم فقال: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ الآية؛ أي: لا يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى، حين طال الأمد بينهم وبين أنبيائهم، فقست قلوبهم، ولم تقبل موعظة، ولم يؤثر فيها وعد ولا وعيد، وبدلوا كتاب الله الذي بأيديهم، واشتروا به ثمناً قليلاً، ونبذوه وراء ظهورهم، وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال المؤتفكة، وقلدوا في دين دون دليل ولا برهان، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وكثير منهم خرج عن أوامر الدين في الأعمال والأقوال. كما قال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: فسدت قلوبهم فقست، وصار سجيتهم تحريف الكلم عن مواضعه، فتركوا الأعمال التي أمروا بها، واجترحوا ما نهوا عنه.

والخلاصة: أن الله نهى المؤمنين أن يكونوا حين سماع القرآن غير متدبرين مواعظه كاليهود والنصارى الذين قست قلوبهم، لما طال العهد بينهم وبين أنبيائهم.

ثم ضرب المثل لتأثير المواعظ وتلاوة القرآن في القلوب. فقال: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ﴾؛ أي[1]: يلين القلوب بالخشوع الناشيء عن الذكر، وتلاوة القرآن بعد قساوتها كما يحيي الله سبحانه الأرض بالغيث بعد يبسها، وكذلك يحيي الله الموتى من القبور بالمطر. وهذا تمثيل لإحياء القلوب القاسية بالذكر، والتلاوة بإحياء الأرض الميتة بالغيث للترغيب في الخشوع والتحذير عن القساوة. ﴿قَدْ بَيَّنَّا﴾ وأوضحنا ﴿لَكُمُ﴾ أيها المؤمنون ﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالة على باهر قدرتنا، وبليغ حكمتنا التي من جملتها هذه الآيات. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: لكي تعقلوا ما فيها، وتعملوا بموجبها فتفوزوا بسعادة الدارين.

والمعنى[2]: أي إن الله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها، ويهدي النفوس

---

(١) المراح.   (٢) المراغي.

الحيارى بعد ضلتها، ويفرج الكروب بعد شدتها ببراهين القرآن ودلائله، وبالمواعظ والنصائح التي تلين الصخر الأصم، ويحييها بعد موتها كما يحيي الأرض الهامدة المجدبة بالغيث الوابل الهتان، وقد ضرب لكم الأمثال كي تتدبروا، وتكمل عقولكم. فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الضلال، والمضل لمن أراد بعد الكمال. وهو الفعال لما يشاء، الحكم العدل في جميع الفعال، اللطيف الخبير المتعال.

الإعراب

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١) لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣)﴾.

﴿سَبَّحَ﴾ فعل ماض، مبني على الفتح، ﴿لِلَّهِ﴾ متعلق به. وقيل: اللام زائدة في المفعول. وقد تقدم القول في هذا الفعل، وأنه يتعدّى تارة بنفسه، وتارة باللام. ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل الرفع، فاعل، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ متعلق بمحذوف صلة الموصول، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿وَهُوَ﴾ الواو: حالية أو استئنافية ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ خبر أول ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ خبر ثان، والجملة الاسمية إما حال من لفظ الجلالة أو مستأنفة. ﴿لَهُۥ﴾ خبر مقدم، ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على السموات. والجملة مستأنفة. ﴿يُحْيِۦ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿وَيُمِيتُ﴾ معطوف عليه، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ضمير ﴿لَهُۥ﴾، أو مستأنفة، ﴿وَهُوَ﴾ الواو: عاطفة، ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ متعلق بـ ﴿قَدِيرٌ﴾، و﴿قَدِيرٌ﴾ خبر المبتدأ. والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿يُحْيِۦ﴾. ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ مبتدأ وخبر. والجملة مستأنفة. ﴿وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ معطوفات على الأوّل. ﴿وَهُوَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ متعلق بـ ﴿عَلِيمٌ﴾، و﴿عَلِيمٌ﴾ خبر المبتدأ. والجملة معطوفة على ما قبلها.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾.

﴿هُوَ﴾ مبتدأ، ﴿ٱلَّذِى﴾ خبر. والجملة مستأنفة. ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة صلة الموصول. ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾،

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿خَلَقَ﴾. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب مع تراخ، ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ متعلق به. والجملة معطوفة على جملة ﴿خَلَقَ﴾. ﴿يَعْلَمُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله. والجملة مستأنفة أو حال من فاعل ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب، مفعول به، ﴿يَلِجُ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿مَا﴾، ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق بـ ﴿يَلِجُ﴾. والجملة صلة الموصول. ﴿وَمَا يَخْرُجُ﴾ معطوف على ﴿مَا يَلِجُ﴾، ﴿مِنْهَا﴾ متعلق بـ ﴿يَخْرُجُ﴾، ﴿وَمَا﴾ الواو: عاطفة، ﴿مَا﴾ معطوف على ﴿ما﴾ الأولى، وجملة ﴿يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ معطوف على ﴿ما﴾ الأولى.

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَهُوَ﴾ الواو: عاطفة، ﴿هو﴾ مبتدأ، ﴿مَعَكُمْ﴾ ظرف كان متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة معطوفة على ما قبلها أو مستأنفة. ﴿أَيْنَ مَا﴾ اسم شرط جازم في محل النصب على الظرفية المكانية مبنيٌّ على الفتح لشبهه بالحرف شبهاً معنويًا، والظرف متعلق بالجواب المحذوف، دل عليه ما قبله، تقديره: يكن معكم. ﴿كُنتُمْ﴾ فعل تامّ، وفاعله في محل الجزم بـ ﴿أَيْنَ﴾ على كونه فعل شرط لها، وجملة الشرط مستأنفة. ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ، ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ متعلق بـ ﴿بَصِيرٌ﴾ و﴿بَصِيرٌ﴾ خبره. والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها. وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿لَّهُۥ﴾ خبر مقدم، ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على السماوات، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿تُرْجَعُ﴾. ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ فعل، ونائب فاعل. والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿يُولِجُ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، ﴿ٱلَّيْلَ﴾ مفعول به، ﴿فِي ٱلنَّهَارِ﴾ متعلق بـ ﴿يُولِجُ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ معطوف على ما قبله، ﴿وَهُوَ﴾ مبتدأ ﴿عَلِيمٌ﴾ خبر المبتدأ. والجملة معطوفة أو مستأنفة. ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ متعلق بـ ﴿عَلِيمٌ﴾.

﴿ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾.

﴿ءَامِنُواْ﴾ فعل أمر، وفاعل. والجملة مستأنفة مسوقة للشروع في مخاطبة كفّار قريش، وأمرهم بالإيمان بعد أن ذكر أنواعاً من دلائل التوحيد. ﴿بِاللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿ءَامِنُواْ﴾، ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ معطوف على الجلالة، ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ فعل أمر، وفاعل، معطوف على ﴿ءَامِنُواْ﴾، ﴿مِمَّا﴾ متعلق بـ ﴿أنفقوا﴾، ﴿جَعَلَكُم﴾ فعل، وفاعل مستتر يعود على ﴿الله﴾، ومفعول أول، ﴿مُّسْتَخْلَفِينَ﴾ مفعول ثان، ﴿فِيهِ﴾ متعلق بـ ﴿مُّسْتَخْلَفِينَ﴾ والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿فَالَّذِينَ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم الأمر المذكور، وأردتم بيان جزاء من فعل ذلك فأقول لكم. ﴿الذين﴾ مبتدأ، ﴿ءَامَنُواْ﴾ صلته، ﴿وَأَنفَقُواْ﴾ معطوف على ﴿ءَامَنُواْ﴾، ﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدم، ﴿أَجْرٌ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿كَبِيرٌ﴾ صفة أجر. والجملة في محل الرفع خبر عن الموصول، وجملة الموصول في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ الواو: استئنافية، ﴿ما﴾ اسم استفهام للإنكار والتوبيخ، في محل الرفع مبتدأ، ﴿لَكُمْ﴾ خبره. والجملة مستأنفة. ﴿لَا﴾ نافية، ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ فعل، وفاعل ﴿بِاللَّهِ﴾ متعلق به. والجملة الفعلية في محل النصب حال من ضمير ﴿لَكُمْ﴾. والمعنى: أيّ شيء ثبت لكم حال كونكم غير مؤمنين. ﴿وَالرَّسُولُ﴾ الواو: حالية، ﴿الرسول﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب، حال من ﴿الواو﴾ في ﴿تُؤْمِنُونَ﴾. ﴿لِتُؤْمِنُوا﴾ اللام: حرف جرّ وتعليل، ﴿تؤمنوا﴾ فعل، وفاعل منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿يَدْعُوكُمْ﴾، واللام بمعنى إلىٰ؛ أي: يدعوكم إلى الإيمان. ﴿بِرَبِّكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿تؤمنوا﴾. ﴿وَقَدْ﴾ الواو: حالية، ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق، ﴿أَخَذَ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر، يعود على الرسول أو على الله، ﴿مِيثَاقَكُمْ﴾ مفعول به، والجملة في محل النصب على الحال من فاعل ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ على التداخل أو على الحال من ﴿رَبِّكُمْ﴾. ﴿إِن﴾ حرف شرط جازم، ﴿كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فعل ناقص واسمه وخبره في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وجواب الشرط محذوف، تقديره: إن كنتم مؤمنين فالآن

ظهرت أعلام اليقين، ووضحت الدلائل والبراهين. والجملة الشرطية مستأنفة.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ⑨﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾ مبتدأ وخبر. والجملة مستأنفة. ﴿يُنَزِّلُ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ﴾ متعلق بـ ﴿يُنَزِّلُ﴾، ﴿ءَايَٰتٍ﴾ مفعول به، ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ صفة ﴿ءَايَٰتٍ﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ اللام: حرف جر وتعليل، ﴿يخرجكم﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، يعود على الله، ومفعول به، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي. ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ متعلق بـ ﴿يخرج﴾، ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ متعلق بـ﴿يخرجكم﴾ أيضاً، وجملة ﴿يخرجكم﴾ مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لإخراجه إيّاكم من الظلمات إلى النور، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يُنَزِّلُ﴾. ﴿وَإِنَّ﴾ الواو: عاطفة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه، ﴿بِكُمْ﴾ متعلق بـ﴿رؤوف﴾، ﴿لَرَءُوفٌ﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿رؤوف﴾ خبر أول. لأنّ ﴿رَّحِيمٌ﴾ خبر ثان لها. وجملة إنَّ معطوفة على جملة قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ﴾.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ما﴾ اسم استفهام إنكاري في محل الرفع، مبتدأ، ﴿لَكُمْ﴾ خبره. والجملة مستأنفة. ﴿أَلَّا﴾ ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿لا﴾ نافية، ﴿تُنفِقُوا۟﴾ فعل، وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية، والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بحرف جرّ محذوف، تقديره: وأيّ شيء ثبت لكم في عدم إنفاقكم في سبيل الله، الجار والمجرور متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر، ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿تُنفِقُوا۟﴾. ﴿وَلِلَّهِ﴾ خبر مقدم، ﴿مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مبتدأ، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. والجملة الاسمية في محل النصب، حال من فاعل الاستقرار أو مفعوله؛ أي: وأيّ شيء يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله، والحال أن ميراث السموات والأرض له تعالى. ﴿لَا﴾ نافية، ﴿يَسْتَوِى﴾ فعل مضارع، ﴿مِنكُم﴾ حال من ﴿مَّنْ﴾ الموصولة الواقعة فاعلاً، ﴿مَّنْ﴾ اسم موصول في محل الرفع، فاعل ﴿يَسْتَوِى﴾، ﴿أَنفَقَ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر.

والجملة صلة ﴿من﴾ الموصولة. ﴿مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلّق بـ ﴿أَنفَقَ﴾ ﴿وَقَٰتَلَ﴾ معطوف على ﴿أَنفَقَ﴾، ومقابله محذوف لدلالة الاستواء عليه؛ لأنّه لا يقال إلا في شيئين فأكثر؛ أي: لا يستوي منكم من أنفق، ومن لم ينفق، والجملة الفعلية مستأنفة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ، ﴿أَعْظَمُ﴾ خبره، والجملة مستأنفة. ﴿دَرَجَةً﴾ تمييز من الذين متعلق بـ ﴿أَعْظَمُ﴾، وجملة ﴿أَنفَقُواْ﴾ صلة الموصول، ﴿مِنۢ بَعْدُ﴾ جار ومجرور، متعلق بـ ﴿أَنفَقُواْ﴾، ﴿وَقَٰتَلُواْ﴾ معطوف على ﴿أَنفَقُواْ﴾، ﴿وَكُلًّا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿كلا﴾ مفعول به أوّل مقدم لـ ﴿وَعَدَ﴾، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ مفعول ثان لـ ﴿وَعَدَ﴾. والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ، ﴿بِمَا﴾ متعلق بـ ﴿خَبِيرٌ﴾، و﴿خَبِيرٌ﴾ خبر المبتدأ، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ صلة الموصول، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها. ﴿مَّن﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿ذَا﴾ اسم إشارة خبره، ﴿ٱلَّذِى﴾ صفة لاسم الإشارة أو بدل منه. والجملة مستأنفة، ويصح أن يكون ﴿مَّن ذَا﴾ اسم استفهام مركّباً في محل الرفع مبتدأ، و﴿ٱلَّذِى﴾ خبره، ويصح أن تكون ﴿ذا﴾ مبتدأ، و﴿ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ صفة، و﴿مَّن﴾ خبر المبتدأ مقدم عليه لما فيه من معنى الاستفهام. ﴿يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، ﴿قَرْضًا﴾ مفعول مطلق، ﴿حَسَنًا﴾ صفة ﴿قَرْضًا﴾. والجملة الفعلية صلة الموصول، ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾ الفاء: عاطفة سببية، ﴿يضاعفه﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿الفاء﴾ السببية الواقعة في جواب الاستفهام، ﴿لَهُۥ﴾ متعلق بـ ﴿يضاعف﴾، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيّد من الجملة التي قبلها من غير سابك لإصلاح المعنى، تقديره: من ذا الذي يكن إقراضه لله فمضاعفته له، وقرىء بالرفع على الاستئناف أو على العطف. ﴿وَلَهُۥٓ﴾ الواو: حالية ﴿له﴾ خبر مقدم، ﴿أَجْرٌ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿كَرِيمٌ﴾ صفة ﴿أَجْرٌ﴾. والجملة الاسمية في محل النصب، حال من ضمير ﴿لَهُۥ﴾.

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن

تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾.

﴿يَوْمَ﴾ منصوب على الظرفية الزمانية متعلق باذكر محذوفاً أو متعلق بـ ﴿يضاعفه﴾، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به. لأن رأى بصرية. ﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ معطوف على ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. والجملة في محل الجر مضاف إليه ليوم. ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ فعل، وفاعل. والجملة في محل النصب، حال من ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾. ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿يَسْعَىٰ﴾، ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ معطوف على ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾. ﴿بُشْرَىٰكُمُ﴾ مبتدأ، ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ ظرف متعلق بالبشرى. لأنه مصدر بمعنى المبشر به. وقيل: متعلق بالقول المقدر، وفيه خفاء. ﴿جَنَّٰتٌ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول للقول المحذوف؛ أي: يقال لهم: بشراكم في هذا اليوم جنات الخ. أو يقال لهم في ذلك اليوم: بشراكم جنات الخ. ﴿تَجْرِى﴾ فعل مضارع، ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ متعلق به، ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فاعل، والجملة صفة لـ ﴿جَنَّٰتٌ﴾. ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال من ضمير المخاطبين المقدر مع العامل فيها، والتقدير: بشراكم دخولكم جنات حالة كونكم خالدين فيها، فحذف الفاعل وهو ضمير المخاطبين، وأضيف المصدر إلى مفعوله، فصار دخول جنات، ثم حذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه في الإعراب. ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، ﴿هُوَ﴾ مبتدأ ثان، ﴿ٱلْفَوْزُ﴾ خبره. والجملة خبر ﴿ذَٰلِكَ﴾، وجملة ﴿ذَٰلِكَ﴾ مستأنفة. ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ صفة لـ ﴿ٱلْفَوْزُ﴾.

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾.

﴿يَوْمَ﴾ ظرف بدل من ﴿يَوْمَ﴾ قبله. وقال ابن عطية: ويظهر لي أن العامل فيه ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، كأنّه يقول: إن المؤمنين يفوزون بالرحمة يوم يعتري المنافقين كذا، وكذا. ورده أبو حيان. ﴿يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه. ﴿وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ معطوف على ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾، ﴿لِلَّذِينَ﴾ متعلق بـ﴿يَقُولُ﴾، وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صلة الموصول، ﴿انظروا﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والواو: فاعل، و﴿نا﴾ ضمير متصل في محل النصب مفعول به. والجملة

الفعلية في محل النصب، مقول لـ ﴿يَقُولُ﴾. وإن شئت قلت: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ مقول محكيّ. ﴿نَقْتَبِسْ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر مجزوم بالطلب السابق، ﴿مِن نُّورِكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿نَقْتَبِسْ﴾، والجملة جزاء المقول، لا محل لها من الإعراب. ﴿قِيلَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ نائب فاعل محكيّ لـ ﴿قِيلَ﴾. وجملة ﴿قِيلَ﴾ مستأنفة. وإن شئت قلت: ﴿ٱرْجِعُوا۟﴾ فعل أمر، مبني على حذف النون، والواو: فاعل، ﴿وَرَآءَكُمْ﴾ ظرف متعلّق بـ ﴿ٱرْجِعُوا۟﴾. والجملة في محل الرفع نائب فاعل لـ ﴿قِيلَ﴾. ﴿فَٱلْتَمِسُوا۟﴾ الفاء: عاطفة، ﴿التمسوا﴾ فعل أمر، وفاعل، معطوف على ﴿ٱرْجِعُوا۟﴾، ﴿نُورًا﴾ مفعول به. ﴿فَضُرِبَ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿ضرب﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، ﴿بَيْنَهُم﴾ متعلق بـ ﴿ضرب﴾، ﴿بِسُورٍ﴾ جار ومجرور، في محل الرفع نائب فاعل، وقيل: الباء: زائدة، ﴿سور﴾ نائب فاعل. والجملة الفعلية معطوفة على ﴿قِيلَ﴾. ﴿لَّهُۥ﴾ خبر مقدم، ﴿بَابٌۢ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة صفة لـ ﴿سور﴾، ﴿بَاطِنُهُۥ﴾ مبتدأ، ﴿فِيهِ﴾ خبر مقدم، ﴿ٱلرَّحْمَةُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة خبر لـ ﴿بَاطِنُهُۥ﴾، وجملة ﴿بَاطِنُهُۥ﴾ صفة ثانية لـ ﴿سور﴾ أو صفة لـ ﴿بَابٌۢ﴾، ولعله أولى لقربه. ﴿وَظَٰهِرُهُۥ﴾ مبتدأ، ﴿مِن قِبَلِهِ﴾ خبر مقدم، ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة خبر ﴿ظاهره﴾، وجملة ﴿ظاهره﴾ معطوفة على جملة ﴿بَاطِنُهُۥ﴾، ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به. والجملة مستأنفة أو حال من الضمير في ﴿بَيْنَهُم﴾، ﴿أَلَمْ﴾ الهمزة: للاستفهام التقريري، و﴿لم﴾ حرف جزم، ﴿نَكُن﴾ فعل ناقص مجزوم بلم، واسمه ضمير يعود على المتكلمين، ﴿مَّعَكُمْ﴾ خبر ﴿نَكُن﴾. وجملة الاستفهام جملة مفسرة لجملة النداء، لا محل لها من الإعراب، أو منصوبة بقول مقدّر. ﴿قَالُوا۟﴾ فعل، وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿بَلَىٰ﴾ حرف جواب قائم مقام الجواب المحذوف، تقديره: كنتم معنا. وجملة الجواب جزء مقول.

﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٥﴾.

﴿وَلَٰكِنَّكُمْ﴾ الواو: عاطفة، ﴿لكنكم﴾ ناصب واسمه، ﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة في محل الرفع خبر ﴿لكن﴾، وجملة ﴿لكن﴾ معطوفة على جملة الجواب المحذوف على كونها مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ فعل، وفاعل،

معطوف على ﴿فَتَنتُمْ﴾، ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿فَتَنتُمْ﴾ أيضاً، ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾ فعل، ومفعول به، وفاعل، معطوف على ﴿فَتَنتُمْ﴾ أيضاً. ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جر وغاية، ﴿جَآءَ﴾ فعل ماض في محل النصب بأن مضمرة بعد ﴿حَتَّىٰ﴾، ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ فاعل. والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور بحتى بمعنى إلى، تقديره: إلى مجيء أمر الله، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿غرتكم﴾. ﴿وَغَرَّكُم﴾ فعل، ومفعول، ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿غركم﴾، ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ فاعل، والجملة معطوفة على ﴿غرتكم﴾. ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أحوالكم الدنيوية، وأردتم بيان مآلكم الأخروية فأقول لكم اليوم لا يؤخذ. و﴿اليوم﴾ منصوب على الظرفية، متعلق بـ ﴿يُؤْخَذُ﴾. ﴿لَا﴾ نافية، ﴿يُؤْخَذُ﴾ فعل مضارع مغيّر الصيغة، ﴿مِنكُمْ﴾ متعلق به، ﴿فِدْيَةٌ﴾ نائب فاعل، والجملة في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَلَا﴾ الواو: عاطفة، ﴿لا﴾ نافية، ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾ جار ومجرور، معطوف على ﴿مِنكُمْ﴾ وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾ صلة الموصول، ﴿مَأْوَىٰكُمُ﴾ خبر مقدم، ﴿ٱلنَّارُ﴾ مبتدأ مؤخر، أو بالعكس. والجملة مستأنفة أو حال من ضمير ﴿مِنكُمْ﴾. ﴿هي﴾ مبتدأ، ﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾ خبر، والجملة في محل النصب حال من النار أو مستأنفة. ﴿وَبِئْسَ﴾ الواو: استئنافية، ﴿بئس﴾ فعل ماض من أفعال الذمّ، ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ فاعل، والمخصوص بالذمّ محذوف، تقديره: النار. والجملة الفعلية جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾.

﴿أَلَمْ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري التوبيخي، ﴿لم﴾ حرف جزم، ﴿يَأْنِ﴾ فعل مضارع مجزوم بلم، وعلامة جزمه حذف حرف العلّة، ﴿لِلَّذِينَ﴾ متعلّق به، وجملة ﴿أمنوا﴾ صلة الموصول، ﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ ناصب، وفعل منصوب، وفاعل، والجملة في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية، والتقدير: ألم يأن للذين آمنوا خشوع قلوبهم. والجملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿تَخْشَعَ﴾، ﴿وَمَا﴾ معطوف على ﴿ذكر الله﴾، وجملة ﴿نَزَلَ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾، ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ حال من فاعل ﴿نَزَلَ﴾، ﴿وَلَا﴾ الواو: عاطفة، ﴿لا﴾ نافية، ﴿يَكُونُوا۟﴾ فعل

ناقص واسمه، معطوف على ﴿تَخۡشَعَ﴾ ﴿كَٱلَّذِينَ﴾ خبر ﴿يَكُونُواْ﴾، ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، ونائب فاعله، ومفعول ثان. والجملة صلة الموصول. ﴿مِن قَبۡلُ﴾ تعلق بـ ﴿أُوتُواْ﴾.

﴿فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿فَطَالَ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿طال﴾ فعل ماض، ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ متعلق به، ﴿ٱلۡأَمَدُ﴾ فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿أُوتُواْ﴾. ﴿فَقَسَتۡ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿قست﴾ فعل ماض، ﴿قُلُوبُهُمۡ﴾ فاعل. والجملة معطوفة على جملة ﴿طال﴾. ﴿وَكَثِيرٞ﴾ مبتدأ، ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ صفة له. وهو المسوّغ للابتداء بالنكرة. ﴿فَٰسِقُونَ﴾ خبر، والجملة مستأنفة. ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾ فعل أمر، وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه، ﴿يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به، ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ متعلق به. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنّ﴾ في تأويل مصدر ساد مسدّ مفعولي ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾. ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿بَيَّنَّا﴾ فعل، وفاعل، ﴿لَكُمُ﴾ متعلق بـ ﴿بَيَّنَّا﴾ ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ مفعول به، والجملة مستأنفة، ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ خبره. وجملة ﴿لعل﴾ جملة تعليلية، لا محل لها من الإعراب.

التصريف ومفردات اللغة

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ والتسبيح: تنزيه الله تعالى اعتقاداً وقولاً وفعلاً عما لا يليق بجنابه سبحانه وتعالى من صفات المحدثين: كإثبات شريك له أو ند، وكون الملائكة بنات له، وكون عيسى ابناً له، هذا في حق العقلاء، وأما تسبيح غيرهم فهو دلالة وجوده على عظم خالقه، وانقياده له في كل آنٍ.

﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ هو الذي لا ينازعه في ملكه شيء. ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ هو الذي يفعل أفعاله وفق الحكمة والصواب. ﴿يُحۡيِۦ﴾ النطف، فيجعلها أشخاصاً عقلاء فاهمين ناطقين. ﴿وَيُمِيتُۖ﴾ الأحياء. وأصله: يموت بوزن يفعل نقلت حركة الواو إلى الميم فسكنت إثر كسرة فقلبت ياء، ففيه إعلال بالنقل والتسكين.

﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ﴾؛ أي: السابق على سائر الموجودات. ﴿وَٱلۡأٓخِرُ﴾؛ أي: الباقي

بعد فنائها. ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾؛ أي: الذي ظهرت دلائل وجوده، وتكاثرت، فهو ظاهر بآثاره وأفعاله، وظاهر بغلبته على مخلوقاته وتسخيرها لإرادته. ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾؛ أي: الذي خفي عنا كنه ذاته، فلم تره العيون، فهو باطن بذاته، ومشرق بجماله وكماله، وباطن بعلمه بما خفي من مخلوقاته، فلا تخفى عليه خافية.

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أصله: أيوام بوزن أفعال، اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياء، وأدغمت فيها الياء، فصار أيَّام بوزن أعال.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من الولوج. وهو الدخول في مضيق، وفي «المناسبات»: الولوج: الدخول في الساتر لجملة الداخل، وفيه إعلال بالحذف، أصله: يولج بوزن يفعل، حذفت فاؤه في المضارع لوقوعها بين ياء مفتوحة وكسرة، وهي الواو. إذ ماضيه ولج، فهو مثال واويّ.

﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ قرىء مبنيًّا للمفعول من رجع رجعاً؛ أي: رد ردًّا وبالبناء للفاعل من رجع رجوعاً إذا صار إليه. ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ﴾ من أولج الرباعي، والإيلاج: الإدخال. يستعمل في المحسوسات كإيلاج الحشفة في الفرج، وفي «المعنويات» كإيلاج الليل في النهار.

﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ والميثاق: العهد المؤكد باليمين. وأصله: موثاقكم، قلبت الواو ياء لسكونها إثر كسرة. ﴿مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أصله: موراث، من الوراثة، قلبت الواو ياء لسكونها إثر كسرة، فصارت حرف مدٍّ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾؛ أي: أرفع منزلة عند الله تعالى، وبعظم الدرجة يكون عظم صاحبها. فالدرجة بمعنى المرتبة والطبقة، وجمعها درجات. وإذا كانت بمعنى المرقاة فجمعها درج.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ والإقراض حقيقته: إعطاء العين على أن يرد بدله من القرض. وهو في الأصل: القطع، من قرض الثوب بالمقراض إذا قطعه به، ثم سمي به ما يقطعه الرجل من أمواله فيعطيه عيناً بشرط رد بدله. فعلى هذا يكون ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ مفعولاً به.

﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ أصله: يسعى بوزن يفعل، تحركت الياء وانفتح ما قبلها قلبت

ألفاً. ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ جمع يمين بمعنى الجهة، والمراد: جميع الجهات من إطلاق البعض وإرادة الكل.

﴿انظُرُونَا﴾ أمر من النظر. والنظر: هو تقليب العين إلى الجهة التي فيها المرئي. والمراد: رؤيته. ومادة «نظرت» وما تصرف منه يستعمل على ضروب:

أحدها: أن تريد به نظرت إلى الشيء، فتحذف الجار، وتصل الفعل. ومن ذلك ما أنشده أبو الحسن:

ظَاهِرَاتُ ٱلْجَمَالِ وَٱلْحُسْنِ يَنْظُرْ نَ كَمَا يَنْظُرُ ٱلأَرَاكَ ٱلظِّبَاءُ

والمعنى: ينظرن إلى الأراك، فحذف الجار.

والثاني: أن تريد به: تأملت وتدبرت، وهو فعل غير متعد. فمن ذلك قولهم: اذهب فانظر زيد أبو من هو. فهذا يراد به: التأمل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾، و﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾. وقد يتعدى هذا بالجار كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ فهذا حض على التأمّل. وقد يتعدى هذا بفي نحو قوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

والثالث: أن تريد به: انتظرته. ومن ذلك قوله: ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾.

والرابع: أن يكون نظرت بمعنى أنظرت، تريد بقولك: نظرت التنفيس الذين يطلب به الانتظار. فمن ذلك قول عمرو بن كلثوم:

أَبَا هِنْدٍ فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْنَا وَأَنْظِرْنَا نُخَبِّرْكَ ٱلْيَقِيْنَا

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾. إنّما هو طلب الإمهال والتسويف.

﴿نَقْتَبِسْ﴾ وأصل الاقتباس: طلب القبس؛ أي: الجذوة من النار. والجذوة: شعلة نار تقتبس من معظم النار. قال بعضهم: النار والنور من أصل واحد. وهو الضوء المنتشر يعين على الإبصار. وكثيراً ما يتلازمان، لكن النار متاع للمقوين في الدنيا، والنور متاع لهم في الدنيا والآخرة. ولأجل ذلك استعمل في النور الاقتباس، وقيل: ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾؛ أي: نأخذ من نوركم قبساً وسراجاً وشعلة.

﴿بِسُورٍ﴾ والسور: الحاجز. ﴿مِّن قِبَلِهِ﴾ من جهته. ﴿بَلَىٰ﴾؛ أي: كنتم معنا. ﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أهلكتموها بالمعاصي والشهوات. ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ انتظرتم بالمؤمنين مصايب الزمان وحوادثه. ﴿لَّهُۥ بَابٌۢ﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: بوب، تحركت الواو وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً يدل على ذلك تصغيره على بويب، وجمعه على أبواب.

﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ أصله: يناديونهم بوزن يفاعلون، استثقلت الضمة على الياء فحذفت فسكنت فحذفت لالتقاء الساكنين، وضمت الدال لمناسبة الواو.

﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾؛ أي: شككتم في أمر البعث، أصله: ارتيب بوزن افتعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها، فصار ارتاب، ثم أسند الفعل إلى ضمير الرفع المتحرك فسكن آخره فالتقى ساكنان، فحذفت الألف.

﴿ٱلْأَمَانِيُّ﴾ الأباطيل التي لا أصل لها من طول الآمال، الطمع في انتكاس الإسلام. جمع أمنية كأضحية وأضاحي، وأصل أمنية: أمنوية بضم الهمزة، اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياءً، وأدغمت الياء في الياء، ثم كسرت النون لمناسبة الياء.

وقرأه أبو جعفر بتخفيف الياء ساكنة، فلم يعتد بحرف المد الموجود في المفرد الذي هو سبب التشديد عند الجمهور.

﴿ٱلْغَرُورُ﴾ بالفتح: الشيطان. ﴿فِدْيَةٌ﴾ والفدية والفداء: ما يبذل لحفظ النفس أو المال من الهلاك. ﴿مَأْوَىٰكُمُ﴾؛ أي: منزلكم الذي تأوون إليه. وأصله: مأويكم بوزن مفعل بفتح العين، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿هِيَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أصله: موليكم بوزن مفعل بفتح العين، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ بسكون الهمزة وكسر النون مضارع أنى من باب رمى، يقال: أنى الأمر يأني كرمى يرمي رمياً وأناءً وأني إذا جاء أناه؛ أي: وقته. فهو معتل حذفت منه الياء التي هي لامه للجازم، فوزنه يفع لحذف لامه.

وقرأ الحسن ﴿يَئِنْ﴾ بكسر الهمزة وسكون النون مضارع آن من باب باع، يقال: آن يئين مثل: باع يبيع، فجزم بسكون النون، ومعنى ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾؛ أي: ألم يقرب وقت خشوع قلوبهم، ويجيء وقته. ومنه: قول الشاعر:

أَلَمْ يَأْنِ لِيَ يَا قَلْبُ أَنْ أَتْرُكَ الجَهْلاَ   وَأَنْ يُحْدِثَ الشَّيْبُ المُنِيرُ لَنَا عَقْلا

﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أصله: أءتيوا، استثقلت الضمة على الياء، فحذفت للتخفيف، ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين، وضمت التاء لمناسبة الواو، وأبدلت الهمزة الساكنة واواً حرف مد للأولى.

﴿فَطَالَ﴾ أصله: طول، من باب فعل المضموم، فقلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح، ففيه إعلال بالقلب. ﴿فَقَسَتْ﴾ أصله: قسو، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف لالتقائها مع تاء التأنيث الساكنة لما لحقت الفعل، فوزنه فعت. والقسوة: غلظ القلب، وعدم لينه لقبول الخير كما مر.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الطباق بين ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، وبين ﴿الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ وبين ﴿الظاهر والباطن﴾.

ومنها: المقابلة بين ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾، وبين ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾.

ومنها: رد العجز على الصدر في قوله: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾.

ومنها: حذف مفعول ﴿أَنْفَقُوا﴾ في قوله: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ للمبالغة في الحث على الإنفاق، وعدم البخل بالمال. وحذف مفعول ﴿تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لما تقدم ولتشديد التوبيخ؛ أي: وأيّ شيء لكم في أن لا تنفقوا ما هو قربة لله تعالى.

ومنها: الاستعارة التصريحية في ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لأن السبيل حقيقة في الممر، فاستعير لكل خير يوصلهم إليه تعالى.

ومنها: حذف ثاني الاستوائين لأن الاستواء لا يتم إلا بعد شيئين، فلا بد من تقدير ثان، تقديره: لا يستوي منكم من أنفق من قبل فتح مكة، وقوّة الإسلام، ومن

أنفق من بعد الفتح. فحذف لوضوح الدلالة عليه، ويسمى هذا الحذف بالإيجاز.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾؛ أي: ليخرجكم من ظلمات الشرب إلى نور الإيمان. فاستعار لفظ الظلمات للكفر والضلالة، ولفظ النور للإيمان والهداية.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ فقد شبه الإنفاق في سبيل الله بإقراضه، ثم حذف المشبه وأبقى المشبه به، والجامع بينهما إعطاء شيء بعوض.

ومنها: حذف متعلق الظرف في قوله: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أعني اذكر تفخيماً لشأن ذلك اليوم، كما في «الروح».

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ حيث استعار النور للهدى والرضوان الذي هم فيه، فحذف المشبه وأبقى المشبه به.

ومنها: تخصيص الإيمان بالذكر في قوله: ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ ولم يذكر الشمائل مع أن المراد: جميع الجهات إظهاراً لشرفها على الشمائل.

ومنها: الالتفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ بعد قوله: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ حيث استعار الضرب للبناء لكون البناء مما يحتاج إلى ضرب باليد، ونحوها من الدلالات.

ومنها: الأسلوب التهكمي في قوله: ﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ أيضاً حيث شبه بقاء المنافقين في حندس نفاقهم وظلامه بمن ضرب بينهم، وبين النور الهادي سور يحجب كل نور.

ومنها: الطباق بين باطنه وظاهره وبين الرحمة والعذاب في قوله: ﴿بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾.

ومنها: حذف الجواب في قوله: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ إقامة لحرف الجواب مقامه.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

ومنها: الأسلوب التهكمي في قوله: ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾؛ أي: لا ولي لكم ولا ناصر إلا نار جهنم. وهو تهكم بهم.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ حيث شبه تليين القلوب بالذكر والتلاوة بعد قساوتها ونبوها عن استماع الحق والعمل بأوامره بإحياء الأرض الميتة بالغيث من حيث اشتمال كل واحد منهما على بلوغ الشيء إلى كماله المتوقع بعد خلوه عنه، أو يكون استعارة تمثيلية لإحياء الأموات، بأن شبه إحياءها بإحياء الأرض الميتة، وأن من قدر على الثاني قادر على الأول. فحقه أن تخشع القلوب لذكره.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما[1] وازن بين المؤمنين والمنافقين فيما مضى، وأبان ما يكون

(١) المراغي.

بينهما من فارق يوم القيامة.. ذكر هنا التفاوت بين حال المؤمنين وحال الكافرين.

قوله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمّا بشر المؤمنين بأن نورهم يوم القيامة يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، وحثهم على بذل الجهد وترك الغفلة، وذكر ثواب المتصدقين والمتصدقات.. أردف ذلك بوصف حال الدنيا، وسرعة زوالها، وتقضيها، وضرب لذلك مثل الأرض ينزل عليها المطر، فتنبت الزرع البهيج الناضر الذي يعجب الزرّاع لنمائه وجودة غلته، وبينما هو على تلك الحال إذا به يصفر بعد النضرة والخضرة، ويجف ثم يتكسر ويتفتت، وما الحياة الدنيا إلا مزرعة للآخرة، فمن أجاد زرعه حصد وربح، ومن توانى وكسل ندم ولات حين مندم.

قال سعيد بن جبير: الدنيا متاع الغرور إذا ألهتك عن طلب الآخرة، فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله تعالى وطلب الآخرة فنعم المتاع، ونعم الوسيلة، ثم حث سبحانه على عمل ما يوصل إلى مغفرة الله ورضوانه، ويمهد إلى الدخول في جنات عرضها السموات والأرض، أعدها لمن آمن به وبرسله فضلاً منه ورحمة، وهو المنعم عظيم الفضل.

قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين[1] أن متاع هذه الدنيا زائل فان، وأن ما فيها من خير أو شر لا يدوم.. أردف ذلك بتهوين المصايب على المؤمنين، فذلك يكون مصدر سعادة نفوسهم واطمئنانها، وبدونه يكون شقاؤها وكآبتها. وآية ذلك أن لا يحزنوا على فائت، ولا يفرحوا بما يصل إليهم من لذاتها الفانية.

ثم بين أن المختالين الذين يبخلون بأموالهم على ذوي الحاجة والبائسين، ويأمرون بذلك، ويعرضون عن الإنفاق لا يبخلون إلا على أنفسهم، والله غني عنهم، وهو المحمود على نعمه التي لا تدخل تحت حد.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أنه أرسل الرسل بالبينات والمعجزات، وأنه أنزل الميزان

---

(١) المراغي.

والحديد، وأمر الخلق بأن يقوموا بنصرة رسله؛ أتبع ذلك ببيان ما أنعم به على أنبيائه من النعم الجسام، فذكر أنه شرف نوحاً وإبراهيم عليهما السلام بالرسالة، ثم جعل في ذريتهما النبوة والكتاب، فما جاء أحد بعدهما بالنبوة إلا كان من سلائلهما.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ...﴾ إلى آخر السورة، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أن من آمنوا من أهل الكتاب إيماناً صحيحاً لهم أجرهم عند ربهم. ذكر هنا من آمنوا منهم بعيسى أولاً، وبمحمد ﷺ ثانياً يؤتيهم أجرهم مرتين لإيمانهم بنبيهم، ثم بمحمد من بعده، ثم ذكر أن النبوة فضل من الله ورحمة منه، لا يخص به قوماً دون قوم، فهو أعلم حيث يجعل رسالته، لا كما يقول اليهود: إن الوحي والرسالة فينا، لا تعدونا إلى سوانا، فنحن شعب الله المختار، ونحن أبناء الله وأحبّاؤه.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه الطبراني في الأوسط بسند فيه من لا يعرف عن ابن عباس: أنّ أربعين من أصحاب النجاشي قدموا على النبي ﷺ، فشهدوا معه أحداً، فكانت فيهم جراحات، ولم يقتل منهم أحد، فلما رأوا ما بالمؤمنين من الحاجة قالوا: يا رسول الله إنا أهل ميسرة، فأذن لنا نجيء بأموالنا نواسي بها المسلمين، فأنزل الله فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ الآيات، فلمّا نزلت قالوا: يا معشر المسلمين أما من آمن منا بكتابكم فله أجران، ومن لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجوركم. فأنزل الله عزّ وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ...﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل قال: لما نزلت: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ...﴾ الآية، فخر مؤمنو أهل الكتاب على أصحاب النبي ﷺ، فقالوا: لنا أجران ولكم أجر، فاشتد ذلك على الصحابة، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ

---

(١) لباب النقول.

ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ...﴾ الآية. فجعل لهم أجرين مثل أجور مؤمني أهل الكتاب.

قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن جرير عن قتادة قال: بلغنا أنه لما نزلت: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾.. حسد أهل الكتاب المسلمين عليها، فأنزل الله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ....﴾ الآية.

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال: قالت اليهود: يوشك أن يخرج منا نبيٌّ فيقطع الأيدي، والأرجل، فلما خرج من العرب كفروا. فأنزل الله سبحانه: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ...﴾ الآية. يعني بالفضل: النبوّة.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ﴾ قرأ الجمهور[1] بتشديد الصاد والدال في الموضعين، من الصدقة، وأصله: المتصدقين والمتصدقات، فأدغمت التاء في الصاد، وقرأ أبي ﴿المتصدقين والمتصدقات﴾ بإثبات التاء على الأصل.

والمعنى على هاتين القراءتين: إن الذين آمنوا من الرجال والنساء، وتصدقوا صدقة واجبة أو تطوعاً.

وقرأ ابن كثير، وأبو بكر، والمفضل، وأبان، وأبو عمرو في رواية هارون بتخفيف الصاد وتشديد الدال من التصديق؛ أي: إن الذين صدقوا رسول الله ﷺ فيما جاء به عن الله، واللاتي صدقنه كذلك.

وقوله: ﴿وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ معطوفة على اسم الفاعل في المصدقين؛ لأنه وقع صلة للألف واللام الموصولة، حل محل الفعل، فصح العطف عليه، نظير قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤﴾. والإقراض[2] الحسن عبارة عن التصدق من الطيب عن طيبة النفس، وخلوص النية على المستحق للصدقة.

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

والمعنى على القراءتين الأوليين: إن الناس الذي تصدقوا، واللاتي تصدقن أي صدقة سواء كانت حسنة أم لا، والذين أقرضوا الله قرضاً حسناً واللاتي أقرضن كذلك، فاندفع ما يتوهم من التكرار؛ لأن الإقراض تصدق مقيد، وما قبله تصدق مطلق، وأما على القراءة الثالثة فلا إيهام، ولا إشكال.

وقوله: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾ على البناء للمفعول، مسند إلى ما بعده من الجار والمجرور. وقيل: إلى مصدر ما في حيز الصلة على حذف مضاف؛ أي: يضاعف لهم ثواب التصدق والإقراض الحسن، والجملة خبر ﴿إنَّ﴾، والمضاعفة هنا أن الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وقوله: ﴿وَلَهُمْ﴾؛ أي: لأولئك المتصدقين والمقرضين ﴿أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾؛ أي: ثواب حسن في الجنة. والأجر الكريم: هو الذي يقترن به رضا وإقبال.

وهذا العطف أعني: عطف ﴿أقرضوا﴾ على صلة الألف واللام على مذهب أبي عليّ الفارسي، ومن وافقه كالزمخشري، قال أبو حيّان[1]: ولا يصح أن يكون معطوفاً على ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾؛ لأن المعطوف على الصلة صلة، وقد فصل بينهما بمعطوف، وهو قوله: ﴿وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾. ولا يصح أيضاً أن يكون معطوفاً على صلة أل في ﴿المصدقات﴾ لاختلاف الضمائر. إذ ضمير المتصدقات مؤنث، وضمير ﴿وَأَقْرَضُوا﴾ مذكر. فالأولى أن يتخرج ما هنا على حذف الموصول لدلالة ما قبله عليه، فكأنّه قيل: والذين أقرضوا الله. فيكون مثل قوله:

فَمَنْ يَهْجُوْ رَسُوْلَ ٱللهِ مِنْكُمْ ... وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ

يريد: ومن يمدحه. وقيل: جملة ﴿وَأَقْرَضُوا ٱللَّهَ﴾ معترضة بين اسم ﴿إنّ﴾ وخبرها، وهو ﴿يُضَٰعَفُ﴾.

وقرأ الجمهور: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾ بالبناء للمفعول. وقرأ الأعمش[2] ﴿يضاعفه لهم﴾ بكسر العين على صيغة المعلوم، وزيادة الهاء. والفاعل ضمير يعود على الله. وقرأ ابن كثير، وابن عامر، ويعقوب ﴿يُضَعَّفُ لهم﴾ بتشديد العين وفتحها.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الشوكاني.

والمعنى: أي[1] إنَّ المتصدقين والمتصدقات بأموالهم ابتغاء مرضات الله تعالى، لا يريدون جزاءاً ولا شكوراً، يضاعف لهم ربهم ثواب إنفاقهم فيقابل الحسنة بعشر أمثالها، ويضاعف ذلك إلى سبع مئة ضعف، ولهم ثواب جزيل ومرجع صالح.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ جميعاً. وهو مبتدأ أول. والإشارة بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلى الموصول، وهو مبتدأ ثان. ﴿هُمُ﴾ مبتدأ ثالث، خبره قوله: ﴿الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَآءُ﴾. وهو مع خبره خبر لأولئك، والجملة خبر للموصول؛ أي: أولئك ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ بمنزلة الصدّيقين والشهداء، المشهورين بعلو المرتبة ورفعة المحل، وهم الذين سبقوا إلى التصديق، واستشهدوا في سبيل الله تعالى، فالكلام على التشبيه البليغ، والصديق[2] من أبنية المبالغة. قال الزجاج: ولا يكون فيما أحفظ إلا من ثلاثي. وقال مجاهد: كل من آمن بالله ورسله فهو صديق. وقال المقاتلان: هم الذين لم يشكوا في الرسل حين أخبروهم، ولم يكذبوهم، وقال في «فتح الرحمن»: الصديق نعت لمن كثر منه الصدق، وهم ثمانية نفر من هذه الأمة، سبقوا أهل الأرض في زمانهم إلى الإسلام: أبو بكر، وعلي، وزيد وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد، وحمزة. وتاسعهم عمر بن الخطاب رضي الله عنهم، ألحقه الله بهم، وإن تم به الأربعون لما عرف من صدق نيته.

وقيل: الشهداء على ثلاث درجات[3]:

الدرجة الأولى: الشهيد بين الصفين، وهو أكبرهم درجة.

والدرجة الثانية: ثم كل من قضى بقارعة أو بلية، مثل: الغرق، والحرق، والهالك في الهدم، والمطعون، والمبطون، والغريب، والميتة بالوضع، والميت يوم الجمعة وليلة الجمعة، والميت على الطهارة.

والدرجة الثالثة: ما نطقت به هذه الآية العامة للمؤمنين. وقال بعضهم في معنى الآية: هم المبالغون في الصدق، حيث آمنوا، وصدقوا جميع أخباره تعالى

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

ورسله، والقائمون بالشهادة لله بالوحدانية، ولهم بالإيمان أو على الأمم يوم القيامة. وقال مجاهد: هذه الآية للشهداء خاصة، وهم الأنبياء الذين يشهدون للأمم وعليهم. واختار هذه القول الفراء، والزجاج. وقال مقاتل بن سليمان: هم الذين استشهدوا في سبيل الله، وكذا قال ابن جرير. وقيل: هم أمم الرسل يشهدون يوم القيامة لأنبيائهم بالتبليغ.

والظاهر[1]: أنّ معنى الآية: إن الذين آمنوا بالله ورسله جميعاً بمنزلة الصدّيقين والشهداء، المشهورين بعلو الدرجة عند الله تعالى.

ثم بين سبحانه ما لهم من الخير بسبب ما اتصفوا به من الإيمان بالله ورسله. فقال: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ مبتدأ وخبر. والجملة خبر ثان للموصول، والضمير الأول على الوجه الأول أعني: كون الكلام على التشبيه راجع للموصول، والأخيران للصدّيقين والشهداء. ولا بأس بتشتيث الضمائر عند الأمن. وهذه الجملة بيان لثمرات ما وصفوا به من نعوت الكمال.

والمعنى[2]: أي للذين آمنوا مثل أجر الصديقين والشهداء، ونورهم المعروفين بغاية الكمال وعزة المنال، وقد حذف أداة التشبيه تنبيهاً على قوّة المماثلة وبلوغها حد الإتحاد، فالمماثلة بين تمام ما للأول من الأصل والأضعاف، وبين ما للأخيرين من الأصل بدون الأضعاف؛ ليحصل التفاوت. وأما[3] على قول من قال: إن الذين آمنوا بالله ورسله هم نفس الصديقين والشهداء. فالضمائر الثلاثة كلها راجعة إلى شيء واحد. والمعنى: لهم الأجر والنور الموعودان لهم.

وهذا المعنى المذكور على القول: بأن الشهداء معطوف على الصديقين. ويجوز أن يكون الوقف على ﴿الصِّدِّيقُونَ﴾، ﴿وَالشُّهَدَاءُ﴾ مبتدأ، وما بعده خبره، ومعنى الآية عليه؛ أي:[4] والذين أقروا بوحدانية الله، وصدقوا رسله، وآمنوا بما جاؤوهم به من عند ربهم أولئك هم في حكم الله بمنزلة الصديقين، والذين استشهدوا في سبيل الله لهم أجر جزيل، ونور عظيم يسعى بين أيديهم. وهم

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراح.
(٣) الشوكاني.
(٤) المراغي.

يتفاوتون في ذلك بحسب ما كانوا عليه في الدنيا من الأعمال.

والخلاصة: أن العاملين أقسام. فمنهم: النبيون، والصديقون، والشهداء، والصالحون كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾﴾.

ولما ذكر الله سبحانه السعداء ومآلهم.. أردف ذلك بذكر حال الأشقياء ومصيرهم. فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله ورسله ﴿وكذبوا بأياتنا﴾؛ أي: كذبوا بآيات الله، وحججه، وبراهينه الدالة على وحدانيته وصدق رسله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالصفات القبيحة المذكورة ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾؛ أي: أصحاب النار، خالدين فيها أبدا لا يفارقونها، يعذبون بها، ولا أجر لهم ولا نور، بل لهم عذاب مقيم وظلمة دائمة.

وفيه[1]: دليل على أن الخلود في النار مخصوص بالكفار، من حيث إن التركيب يشعر بالاختصاص، والصحبة تدل على الملازمة عرفاً، وأراد بالكفر: الكفر بالله، فهو في مقابلة الإيمان بالله، وبتكذيب الآيات: تكذيب ما بأيدي الرسل من الآيات الإلهية، وتكذيبها تكذيبهم فهو في مقابلة الإيمان والتصديق بالرسل. ففيه وصف لهم بالوصفين القبيحين اللذين هما: الكفر والتكذيب.

ولما ذكر سبحانه حال الفريق الثاني، وما وقع منهم من الكفر والتكذيب، وذلك بسبب ميلهم إلى الدنيا وإيثارها بين لهم حقارتها، وأنها أحقر من أن تؤثر على الدار الآخرة. فقال: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾ أيها المكبون على الدنيا المعرضون عن الآخرة ﴿أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ لفظ الحياة زائد، والمضاف مضمر، و﴿ما﴾ صلة؛ أي: اعلموا أن أمور الدنيا وشؤونها لعب إلخ، ويجوز أن تجعل الحياة الدنيا مجازاً عن أمورها بعلاقة اللزوم. وفي «كشف الأسرار»: الحياة القربى في الدار الأولى. فإن المقصود الحياة في هذه الدار، فكل ما قبل الموت دنيا، وكل ما تأخر عنه أخرى. ﴿لَعِبٞ﴾؛ أي: عمل باطل تتعبون فيه أنفسكم إتعاب اللاعب بلا فائدة. واللعب[2] في أصله: هو فعل الصبيان الذين يتعبون أنفسهم جدًّا، ثم إن تلك الملاعب تنقضي من غير

---

(١) روح البيان.
(٢) المراح.

فائدة. ﴿وَلَهْوٌ﴾ تلهون به أنفسكم، وتشغلونها عما يهمكم من أعمال الآخرة. واللهو في أصله: هو فعل الشبان، فبعد انقضائه لا يبقى إلا التحزن؛ لأنَّ العاقل يرى المال ذاهباً والعمر ذاهباً، وقال مجاهد: كل لعب لهو، وقيل: اللعب ما رغب في الدنيا، واللهو ما ألهى عن الآخرة. ﴿وَزِينَةٌ﴾ من الملابس، والمراكب، والمنازل الحسنة تتزينون بها. والزينة في أصله: دأب النسوان؛ لأن المطلوب من الزينة تحسين القبيح وتكميل الناقص. ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ بالأنساب والأحساب، تتفاخرون بها كتفاخر الأقران، يفتخر بعضهم على بعض بالنسب، أو بالقوة، أو بالقدرة، أو بالعساكر. وكلها ذاهبة، كما هو شأن العرب، والتفاخر في أصله: هو دأب الأقران، ومعنى الفخر: المباهاة في الأشياء الخارجة عن الإنسان كالمال والجاه، ويعبر عن كل نفس بالفاخر، كما في «المفردات». وقرأ الجمهور[1] بتنوين ﴿تفاخر﴾، والظرف صفة له أو معمول له، وقرأ السلمي بالإضافة. ﴿وَتَكَاثُرٌ﴾؛ أي: مغالبة في الكثرة ﴿فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ وتطاول بكثرة العَدَد والعُدَد، ومباهاة بكثرتهما. لا سيما التطاول بها على الفقراء والمساكين، فإنهم كانوا يتكاثرون بأموالهم وأولادهم، ويتطاولون بذلك على الفقراء، والتكاثر في أصله: شأن الدهقان «بضم الدال وكسرها: التاجر، ورئيس الإقليم، معرب». فالحياة[2] الدنيا غير مذمومة، وإنما المذموم من صرف هذه الحياة إلى طاعة الشيطان ومتابعة الهوى، لا إلى طاعة الله تعالى.

والمعنى: اعلموا أن شغل البال بالحياة الدنيا دائر بين هذه الأمور الخمسة، وقيل: الدنيا لعب كلعب الصبيان، وزينة كزينة النسوان، وتفاخر كتفاخر الأقران، وتكاثر كتكاثر الدهقان.

قال علي بن أبي طالب لعمار بن ياسر رضي الله تعالى عنهما: لا تحزن على الدنيا، فإن الدنيا ستة أشياء: مطعوم، ومشروب، وملبوس، ومشموم، ومركوب، ومنكوح. فأكبر طعامها العسل: وهو ريقة ذبابة، وأكبر شرابها الماء، ويستوي فيه جميع الحيوان، وأكبر الملبوس الديباج: وهو نسج دودة، وأكبر المشموم المسك: وهو دم ظبية، وأكبر المركوب الفرس وعليها يقتل الرجال، وأكبر المنكوح النساء،

---

(١) الشوكاني. (٢) المراح.

وهو مبال في مبال، وفي الحديث: «ما لي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا، كراكب قام في ظل شجرة في يوم صائف ثم راح وتركها».

والخلاصة[1]: أي اعلموا أيها الناس أن متاع الدنيا ما هو إلا لعب ولهو تتفكهون به، وزينة تتزينون بها، وبها يفخر بعضكم على بعض، وتتابهون فيها بكثرة الأموال والأولاد.

ثم ضرب مثلاً يبين أنها زهرة فانية، ونعمة زائلة، فقال: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾؛ أي: كمثل مطر ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ﴾؛ أي: الزراع ﴿نَبَاتُهُۥ﴾؛ أي: النبات الحاصل بذلك المطر. ومحل[2] الكاف النصب على الحالية من الضمير في ﴿لعب﴾؛ لأنَّ فيه معنى الوصف؛ أي: تثبت لها هذه الأوصاف حال كونها مشبهة غيثاً، أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هي كمثل أو خبر بعد خبر للحياة الدنيا. والغيث؛ مطر محتاج إليه، يغيث الناس من الجدب عند قلة المياه، فهو مخصوص بالمطر النافع، بخلاف المطر، فإنه عام. والمراد بالكفار هنا: الحراث، والعرب تقول للزارع: كافر لأنه يكفر، أي: يستر بذره بتراب الأرض، والكفر لغة: الستر، كما سيأتي. وقيل[3]: المراد بهم. الكافرون بالله؛ لأنهم أشد إعجاباً بزينة الدنيا، ولأن المؤمن إذا رأى معجباً. . انتقل فكره إلى قدرة صانعه فأعجب بها، والكافر لا يتخطى فكره عما أحسن به فيستغرق فيه إعجاباً، وقد منع في بعض المواضع عن إظهار الزينة صوناً لقلوب الضعفاء، كما في الأعراس ونحوها.

أي: صفة الدنيا في إعجابها كصفة مطر أعجب الزراع النبات الحاصل بذلك ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾؛ أي: يجف ذلك النبات وييبس بعد خضرته ونضارته بآفة سماوية أو أرضية. ﴿فَتَرَىٰهُ﴾؛ أي: فترى أيها المخاطب ذلك النبات بعد ما رأيته ناضراً ﴿مُصْفَرًّا﴾؛ أي: متغيراً عما كان عليه من الخضرة والرونق إلى لون الصفرة والذبول. وإنما لم يقل: فيصفر إيذاناً بأن اصفراره مقارن لجفافه، وإنما المرتب عليه رؤيته كذلك، وقرىء ﴿مُصْفَارًّا﴾. ﴿ثُمَّ يَكُونُ﴾ ذلك النبات المصفر ﴿حُطَٰمًا﴾؛

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

أي: فتاتاً هشيماً متكسراً متحطماً بعد يبسه؛ أي: مثل الحياة الدنيا كمثل الزرع يعجب الناظرين إليه لخضرته وكثرة نضارته، ثم لا يلبث أن يصير هشيماً تبناً كأن لم يكن. وحطام[1] صيغة مبالغة كعجاب.

وحاصل المعنى: أي ما مثل هذه الحياة الدنيا في سرعة فنائها وانقضائها على عجل، إلا مثل أرض أصابها مطر وابل فأنبتت من النبات ما أعجب الزراع، وجعلهم في غبطة وحبور وبهجة وسرور، وبينما هو على تلك الحال إذا هو يصوح، ويأخذ في الجفاف واليبس، ثم يكون هشيماً تذروه الرياح. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

ثم ذكر عاقبة المنهمكين فيها، الطالبين لتحصيل لذاتها، المتهالكين في جمع حطامها، والمعرضين عنها الطالبين لرضوان ربهم. فقال: ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لمن أقبل عليها، ولم يطلب بها الآخرة، وقدم ذكر العذاب لأنه من نتائج الانهماك فيما فصل من أحوال الحياة الدنيا ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ عظيمة كائنة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه ﴿وَرِضْوَٰنٌ﴾ كثير منه تعالى، لا يقادر قدره لمن أعرض عنها، وقصد بها الآخرة، بل الله تعالى لأن الدنيا والآخرة ليستا مقصودتين لأهل الله؛ أي: وفي الآخرة إما عذاب شديد دائم لمن انهمك في لذاتها، وأعرض عن صالح الأعمال، ودسّ نفسه بالشرك، والآثام، وإما مغفرة من الله ورضوان من لدنه لمن زكي وأخبت لربه وأناب إليه.

قَدِّمْ لِرِجْلِكَ قَبْلَ ٱلْخَطْوِ مَوْضِعَهَا ... فَمَنْ عَلاَ زَلَقاً عَنْ غِرَّةٍ زَلَجَا

ثم ذكر سبحانه بعد الترهيب والترغيب حقارة الدنيا، فقال: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾؛ أي: إلا كالمتاع الذي يغر ويخدع به الغير أي: إلا مثل[2] المتاع الذي يتخذ من نحو الزجاج، والخزف مما يسرع فناؤه يميل إليه الطبع أول

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

ما رآه، فإذا أخذه، وأراد أن ينتفع به ينكسر ويفنى.

والمعنى: أي وما هذه الحياة الدنيا إلا متاع فانٍ زائل خادع من ركن إليه، واغتر به، وأعجبه حتى اعتقد أن لا دار سواها، ولا معاد وراءها، واطمأن بها ولم يجعلها ذريعة إلى الآخرة، وأما من اشتغل بطلب الآخرة.. فهي له متاع بلاغ إلى ما هو خير منها، وهي الجنة، والدنيا غير مقصودة لذاتها بل لأجر الآخرة، وفي الحديث: نعم المال الصالح للرجل الصالح» فما شغل العبد عن الآخرة.. فهو من الدنيا، وما لا.. فهو من الآخرة.

وهذه[1] الجملة مقررة للمثل المتقدم ومؤكدة له. ولما أبان أن الآخرة قريبة، وفيها العذاب الأليم، والنعيم حث على المبادرة إلى فعل الخيرات، فقال: ﴿سَابِقُوٓاْ﴾؛ أي: سارعوا أيها الناس مسارعة السابقين لأقرانهم في المضمار، وهو الميدان. ﴿إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ﴾ عظيمة كائنة ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ ومالككم، أي: سارعوا إلى أسبابها وموجباتها كالاستغفار وسائر الأعمال الصالحة؛ أي: بحسب وعد الله، وإلا فالعمل نفسه غير موجب، وفي دعائه ﷺ «أسألك عزائم مغفرتك»؛ أي: أن توفقني للأعمال التي تغفر لصاحبها لا محالة، ويدخل فيها المسابقة إلى تكبيرة الإحرام مع الإمام، قاله مكحول. وقيل: المراد الصف الأول، ولا وجه لتخصيص ما في هذه الآية بمثل هذا بل هو من جملة ما تصدق عليه صدقاً شمولياً أو بدليًا.

﴿و﴾ إلى ﴿جنة عرضها كعرض السماء والأرض﴾؛ أي: كعرض سبع سموات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض على أن يكون اللام في ﴿ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ للاستغراق، وإذا كان عرضها كذلك فما ظنك بطولها؛ فإن طول كل شيء أكثر من عرضه. وفي «البحر»: ﴿عَرۡضُهَا﴾؛ أي: مساحتها في السعة اهـ. ويقال: هذا التشبيه[2] تمثيل للعباد بما يعقلون، وبما يقع في نفوسهم من مقدار السموات والأرض، وتقديم المغفرة على الجنة لتقدم التخلية على التحلية، وقيل: المراد بالجنة التي عرضها هذا العرض هي جنة كل واحد من أهل الجنة، وقال ابن كيسان: عني به: جنة واحدة من الجنات؛ أي: سابقوا أقرانكم في مضمار الأعمال الصالحة، وأدوا ما كلفتم به من أوامر الشريعة، واتركوا نواهيها يدخلكم ربكم بما

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

قدمتم لأنفسكم جنة سعتها كسعة السموات والأرض.

ثم وصف سبحانه تلك الجنة بصفة أخرى، فقال: ﴿أُعِدَّتْ﴾؛ أي: هيئت ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ﴾ سبحانه ﴿و﴾ بجميع ﴿رسله﴾ كافة عليهم الصلاة والسلام. ويجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفة، وفيه[1] دليل على أن الجنة مخلوقة بالفعل كما هو مذهب أهل السنة، وأن الإيمان وحده كاف في استحقاقه إذ لم يذكر مع الإيمان شيء آخر، ولكن الدرجات بالأعمال، وفيه شيء لأن هذا مقيد بالأدلة الدالة على أنه لا يستحقها إلا من عمل بما فرض الله عليه، واجتنب عما نهاه الله عنه، وهي أدلة كثيرة في الكتاب والسنة، ولأن الإيمان بالرسل لا يكمل إلا بالإيمان بما في أيديهم من الكتب الإلهية والعمل بما فيها.

والإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما وعد الله من المغفرة والجنة ﴿فَضْلُ اللَّهِ﴾ وعطاؤه. وهو ابتداء لطف بلا علة ﴿يُؤْتِيهِ﴾؛ أي: يعطيه تفضلاً وإحساناً ﴿مَن يَشَاءُ﴾ إيتاءه إياه من غير إيجاب، لا كما زعمه أهل الاعتزال؛ أي[2]: هذا الذي أعده الله تعالى لهم هو من فضله ورحمته ومنته عليهم، وفي الصحيح: أن فقراء المهاجرين قالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدثور «الأموال» بالأجور والدرجات العلا، والنعيم المقيم، قال: «وما ذاك؟» قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدّقون ولا نتصدّق، ويعتقون ولا نعتق، قال: «أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه.. سبقتم من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم، تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين»، قال: فرجعوا فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال ما فعلنا ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾؛ أي: والله واسع العطاء، عظيم الفضل، فيعطي من يشاء ما شاء كرماً منه وفضلاً، ويبسط له الرزق في الدنيا، ويهب لهم النعم، ويعرفهم مواضع الشكر، ثم يجزيهم في الآخرة ما أعده لهم مما وصفه قبل.

ثم بين سبحانه أن ما يصاب به العباد من المصائب، قد سبق بذلك قضاؤه

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

وقدره، وثبت في أم الكتاب. فقال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ «ما» نافية. والمراد بالمصيبة هنا: النائبة. و﴿من﴾ زائدة؛أي: مصيبة، وذكر[1] فعلها وهو جائز التذكير والتأنيث، ومن التأنيث ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾. ولفظ ﴿مُّصِيبَةٍ﴾ يدل على الشر؛ لأنَّ عرفها ذلك كما مر آنفاً. قال ابن عباس: ما معناه: أنه أراد عرف المصيبة، وهو استعمالها في الشر، وخصها بالذكر؛ لأنها أهم على البشر، والمصيبة في الأرض مثل القحط، والزلزلة، وعاهة الزرع، واحتلال الأجانب الظالمين، واستيلاء الحكام الفاسقين، وفي الأنفس: الأسقام والموت. وقيل: المراد بالمصيبة[2]: الحوادث كلها من خير أو شر؛ أي: ما حدثت حادثة كائنة في الأرض كجدب وعاهات في الزروع والثمار. ﴿وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ أيها العباد كمرض، وآفة وموت ولد، وخوف عدو، وجوع. وقوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ﴾ في محل نصب على الحال من مصيبة؛ أي: إلا حال كونها مكتوبة مثبتة في علم الله سبحانه، أو في اللوح المحفوظ.

وجملة قوله: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾؛ أي: من قبل أن نخلق الأنفس أو المصائب أو الأرض في محل جر، صفة لكتاب، والضمير في ﴿نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ عائد إلى المصيبة أو إلى الأنفس أو إلى الأرض أو إلى الجميع. و﴿نَّبۡرَأَهَآۚ﴾؛ أي: نخلقها، فإن البرء في اللغة: هو الخلق، والبارىء: الخالق.

وذكر[3] ربيع بن صالح الأسلمي قال: دخلت على سعيد بن جبير حين جيء به إلى الحجاج حين أراد قتله، فبكى رجل من قومه، فقال سعيد: ما يبكيك؟ قال: ما أصابك، قال: فلا تبك قد كان في علم الله أن يكون هذا ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾؟ قال في «الروضة»: رؤي الحجاج في المنام بعد وفاته، فقيل: ما فعل الله بك؟ فقال: قتلني بكل قتيل قتلة. وبسعيد بن جبير سبعين قتلة. وفصل المصيبة هنا بقوله: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ و﴿فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ وأجمل في التغابن حيث قال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ موافقة لما قبلها. لأنه فصَّل هنا بقوله: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ الآية، بخلافه ثَمَّ.

وفي الآية: دليل على أن جميع الحوادث الأرضية قبل دخولها، كذا جميع أعمال الخلق بتفاصيلها مكتوبة في اللوح المحفوظ، ليستدل الملائكة بذلك المكتوب على كونه تعالى عالماً بجميع الأشياء قبل وجودها، وليعرفوا حلمه؛ فإنه تعالى مع علمه أنهم يقومون على المعاصي خلقهم، ورزقهم وأمهلهم، وليحذروا من أمثال تلك المعاصي، وليشكروا الله تعالى على توفيقه إياهم للطاعات وعصمته إياهم من المعاصي، وفيها دليل أيضاً على أنه تعالى يعلم الأشياء قبل وقوعها؛ لأن إثباتها في الكتاب قبل علمها محال، ولو سأل سائل: أن الله تعالى هل يعلم عدد أنفاس أهل الجنة؟ يقال له: إن الله يعلم أنه لا عدد لأنفاسهم.

والمعنى[1]: أي ما أصابكم أيها الناس من مصائب في آفاق الأرض كقحط وجدب وفساد زرع، أو في أنفسكم من أوصاب وأسقام إلا في أم الكتاب من قبل أن نبرأ هذه الخليقة.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إثباتها في كتاب مع كثرتها ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ متعلق بقوله: ﴿يَسِيرٌ﴾ غير عسير لاستغنائه فيه عن العدة والمدة، وإن كان عسيراً على العباد. والمعنى؛ أي: إن علمه بالأشياء قبل وجودها وكتابته لها طبق ما توجد في حينها يسير عليه تعالى؛ لأنه يعلم ما كان، وما سيكون وما لا يكون، أخرج الحاكم وصححه عن أبي حسان: أن رجلين دخلا على عائشة رضي الله عنها، فقالا: إن أبا هريرة يحدث أن النبي ﷺ كان يقول: «إنما الطيرة في المرأة والدابة والدار»، فقالت: والذي أنزل القرآن على أبي القاسم ﷺ ما كان يقول هكذا، كان يقول: «كان أهل الجاهلية يقولون: إنما الطيرة في المرأة والدابة والدار». ثم قرأ: و﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾.

ففي الآية[2]: توطين للنفوس على الرضا بالقضاء والصبر على البلاء، وحمل لها على شهود المبتلى في عين البلاء، فإن به يسهل التحمل، وإلا فمن كان غافلاً عن مبدأ اللطف، والقهر فهو غافل في اللطف والقهر، ولذا تعظم عليه المصيبة،

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

بخلاف حال أهل الحضور؛ فإنهم يلتذون بالبلاء التذاذهم بالعافية، بل ولذة البلاء فوق لذة العافية، ومن أمثال العرب ضرب الحبيب زبيب؛ أي: لذيذ.

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا﴾ يقال: أسي على مصيبة يأسى أسى من باب علم إذا حزن والجار والمجرور فيه متعلق بمحذوف، تقديره: أخبرناكم بإثباتها وكتابتها في كتاب لكيلا يحصل لكم الحزن والألم، أي: لكيلا تحزنوا حزناً يوجب القنوط كما يقيد بذلك في الفرح، وإلا فالحزن والفرح: الطبيعيان لا يخلو عنهما الإنسان. ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من نعم الدنيا كالمال والخصب والصحة والعافية. ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾؛ أي: أعطاكم الله منها. فإن من علم أن كلا من المصيبة والنعمة مقدر يفوت ما قدر فواته، ويأتي ما قدر إتيانه لا محالة، لا يعظم جزعه على ما فات ولا فرحه بما هو آتٍ؛ إذ يجوز أن يقدر ذهابه عن قريب، وكل زائل عن قريب لا يستحق أن يفرح بحصوله، ولا يحزن على فواته.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ بالمد؛ أي: أعطاكم. وقرأ عبد الله ﴿بما أوتيتم﴾ مبنياً للمفعول؛ أي: أعطيتم. وقرأ أبو العالية ونصر بن عاصم، وأبو عمرو ﴿بما أتاكم﴾ بالقصر؛ أي: جاءكم. واختار القراءة الأولى أبو حاتم، واختار القراءة الأخيرة أبو عبيد.

ومعنى الآية[2]: أي أعلمناكم بتقدم علمنا، وسبق كتابتنا للأشياء قبل وجودها، لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم، وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم، فلا تحزنوا على فائت، ولا تفرحوا بآت.

والخلاصة: أن كل شيء قدر في الكتاب فكيف نفرح أو نحزن. قال عكرمة: ليس أحد إلا وهو يفرح أو يحزن، ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً.

وقال حكيم: الصبر مخرج من الشقاء فلا سعادة إلا بالصبر، ووصول النفس إلى كمالها الخلقي بحيث يمر المال والولد والقوة والعلم عليها، فيصيبها مرة ويخطئها أخرى، وهي مطمئنة لا يدخلها زهو ولا إعجاب بما نالت ولا حزن على ما فاتها، اهـ.

---

(١) الشوكاني والبحر المحيط.

(٢) المراغي.

وفي الآية[1]: إشارة إى أنه يلزم أن يثبت الإنسان على حالة واحدة في السراء والضراء، فإن كان لا بد له من فرح فليفرح شكراً على إعطائه لا بطراً، وإن كان لا بد من حزن فليحزن صبراً على قضائه لا ضجراً، وفي تخصيص[2] التذييل بالنهي عن الفرح المذكور إيذان بأنه أقبح من الأسى. قال قتيبة بن سعيد: دخلت على بعض أحياء العرب فإذا أنا بفضاء مملوء من الإبل الميتة بحيث لا تحصى، ورأيت شخصاً على تل يغزل صوفاً فسألته فقال: كانت باسمي فارتجعها من أعطاها، ثم أنشأ يقول:

لاَ وٱلَّـذِيْ أَنَـا عَـبْـدٌ مِـنْ خَـلاَئِـقِـهِ ... وَٱلْمَرْءُ فِيْ ٱلدَّهْرِ نَصَبُ ٱلرِّزْءِ وَٱلْمِحَنِ

مَـا سَـرَّنِـيْ أَنَّ إِبْـلِـيْ فِـيْ مَـبَـارِكِـهَـا ... وَمَـا جَـرَىٰ مِـنْ قَـضَـاءِ ٱللهِ لَـمْ يَـكُـنِ

وبالجملة[3]: فالحزن المذموم هو ما يخرج بصاحبه إلى ما يذهب عنه الصبر والتسليم لأمر الله ورجاء الثواب، والفرح المنهي عنه هو الذي يطغى على صاحبه ويلهيه عن الشكر، ولذا عقب بقوله: ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾؛ أي: متكبر بما أوتي من الدنيا ﴿فَخُورٍ﴾؛ أي: مبالغ في الفخر به على الناس؛ فإن من فرح بالحظوظ الدنيوية، وعظمت في نفسه اختال، وافتخر بها لا محالة والمختال[4]: المتكبر المعجب وهو من الخيلاء، وهو التكبر من تخيل فضيلة تتراءى للإنسان من نفسه؛ أي: لا يحب الله من اتصف بهاتين الصفتين وهما: الاختيال والافتخار، وقيل: المختال الذي ينظر إلى نفسه، والفخور الذي ينظر إلى الناس بعين الاستحقار.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾؛ أي: يمسكون أموالهم، ولا يخرجون منها حق الله تعالى؛ فإن البخل إمساك المقتنيات عما يحق إخراجها فيه، ويقابله الجود. ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾؛ أي: بإمساك أموالهم عن إخراجها في الحقوق الواجبة بدل من ﴿كُلَّ مُخْتَالٍ﴾. وقيل: هو مستأنف، لا تعلق له بما قبله، وهو في محل رفع بالابتداء، والخبر مقدر، فيكون بيانا لصفة اليهود.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

(٤) روح البيان.

والمعنى عليه[1]: الذين يبخلون ببيان صفة النبي ﷺ التي في كتبهم لئلا يؤمن به الناس فتذهب مأكلتهم، ويأمرون الناس بالبخل به، لهم عذاب شديد، أو فإن الله غني عنهم، ويدل على هذا قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾. قال سعيد بن جبير: هم الذين يبخلون بالعلم، ويأمرون الناس بالبخل به لئلا يعلموا الناس تلك المعجزة على يده.

أي: ولقد أرسلنا رسلنا إلى الأمم مؤيدين بالمعجزات الدالة على صدقهم في دعواهم. ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: جنس الكتب الشامل للكل لتبيين الحق وتمييز صواب العمل؛ أي: لتكميل القوة النظرية والعملية.

وقوله: ﴿مَعَهُمُ﴾ يجعل على تفسير الرسل بالأنبياء حالاً مقدرة من ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾. أي: مقدراً كونه معهم، وإلا فالأنبياء لم ينزلوا حتى ينزل معهم الكتاب. فالنزول مع الكتاب شأن الملائكة، والإنزال إليهم شأن الأنبياء، ولذا قدم الوجه الأول؛ إذ لو كان المعنى: لقد أرسلنا الأنبياء إلى الأمم.. لكان الظاهر أن يقال: وأنزلنا إليهم الكتاب. ﴿و﴾ أمرناهم بـ ﴿الميزان﴾؛ أي: بالعدل ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ﴾؛ أي: ليتعامل الناس فيما بينهم ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾؛ أي: بالعدل إيفاء واستيفاء، ولا يظلم أحد أحداً في ذلك. ومعنى إنزاله: إنزال أسبابه، والأمر بأعداده، وإلا فالميزان من مصنوعات البشر، وليس بمنزل من السَّماء. وعلى القول: بأن المراد به: الآلة التي يوزن بها يكون معنى إنزاله إرشاد الناس إليه، وإلهامهم الوزن به، ويكون الكلام من باب علفتها تبناً وماء بارداً».

وروي: أن جبريل عليه السلام نزل بالميزان نفسه فدفعه إلى نوح عليه السلام، وقال: مر قومك يزنوا به.

والمعنى: أي ولقد أرسلنا الأنبياء إلى أممهم، ومعهم البراهين الدالة على صدقهم، المؤيدة لبعثهم من عند ربهم، ومعهم كتب الشرائع التي فيها هداية البشر وصلاحهم في دينهم ودنياهم، وأمرناهم بالعدل ليعملوا به فيما بينهم، ولا يظلم بعضهم بعضاً.

---

(١) المراح.

ولما كان الناس فريقين: فريقاً يقوده العلم والحكمة، وفريقاً يقوده السيف والعصا، وكان ما يزع الشيطان أكثر مما يزع القرآن، وكان العدل والقانون لا بد له من حام يحميه، وهو الدولة والملك وأعوانه والجند، وهؤلاء لا بدل لهم من عدة يحمون بها القانون والعدل في داخل البلاد، وفي خارجها أعقب بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾؛ أي: خلقناه كما في قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾، والمعنى: أنه خلقه في المعادن، وعلم الناس صنعته واستخراجه من معدنه. وذلك أن أوامره وقضاياه وأحكامه تنزل من السماء، قاله الحسن. وأصل الحديد: ماء نزل من السماء، فتجمد في معادنه، ولذلك احتاج في صوغه إلى النار، كما أن الماء المثلج يحتاج إلى الحرارة في ذوبه. وقال بعضهم: وأخرجنا الحديد من المعادن؛ لأن العدل إنما يكون بالسياسة، والسياسة مفتقرة إلى العدة، والعدة مفتقرة إلى الحديد، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ثلاثة أشياء نزلت مع آدم عليه السلام: الحجر الأسود وهو أشد بياضاً من الثلج، وعصا موسى، وكانت من آس الجنة طولها عشرة أذرع، والحديد. ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في الحديد ﴿بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾؛ أي: قوة شديدة يعني: السلاح للحرب؛ لأن آلات الحرب، إنما تتخذ منه. قال الزجاج: يمتنع به ويحارب.

والمعنى: أنه تتخذ منه آلة للدفع، وآلة للضرب. قال مجاهد: فيه جنة وسلاح. ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: وفيه منافع كثيرة للنَّاس، فإنهم ينتفعون بالحديد في كثير من أمور معاشهم كالسكين، والفأس والإبرة، وآلات الزراعة والصناعة، ونحوها. فإنه ما من صنعة إلا، والحديد أو ما يعمل بالحديد آلتها كالمراكب، والبواخر، والطوائر، والسوائر. وفيه إشارة إلى أن القيام بالقسط كما يحتاج إلى القائم بالسيف يحتاج أيضاً إلى ما به قوام التعايش من الصنائع وآلات المحترقة.

وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ﴾ معطوف[1] على قوله: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾؛ أي: لقد أرسلنا رسلنا، وفعلنا كيت وكيت ليقوم الناس بالقسط، وليعلم الله.. إلخ. أو معطوف[2] على علة مقدرة يدل عليها ما قبله، فإنه حال متضمنة للتعليل كأنه قيل: وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد، ومنافع للناس ليستعملوه، وينتفعوا

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

به، وليعلم الله علماً يتعلق بالجزاء من ينصره ورسله باستعمال السيوف والرماح، والمدافع، والبنادق، وسائر الأسلحة في مجاهدة أعدائه. وقال الشوكاني: والأول أولى؛ لأن عدم التقدير أولى من التقدير.

وقوله: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حال من فاعل ﴿يَنصُرُهُ﴾؛ أي: ليعلم الله سبحانه من ينصر دينه، وينصر رسله حال كونهم غائبين عن الله تعالى مشاهدين له، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: ينصرونه ولا يبصرونه. وإنما يحمد ويثاب من أطاع بالغيب من غير معاينة للمطاع، أو حال من مفعوله؛ أي: حال كونه تعالى غائباً عنهم غير مرئي لهم[1]، أو حال من ﴿رسله﴾؛ أي: وإنما فعل ذلك ليراكم ناصري دينه باستعمال السلاح، والكراع لمجاهدة أعدائه وناصري رسله، وهم غائبون عنكم لا يبصرونكم.

روى أحمد، وأبو داود عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿قَوِيٌّ﴾ على إهلاك من أراد إهلاكه ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يفتقر إلى نصرة الغير، وإنما أمرهم بالجهاد، لينتفعوا به ويستوجبوا ثواب الامتثال فيه؛ أي: إنّ الله قوي قادر يدفع بقوته بأس من يعرض عن ملته غالب على أمره لا يقدر أحد على دفع العقوبة حتى أحلها بأحد من خلقه، وليس له حاجة إلى أن ينصره أحد من عباده وينصر رسله، بل كلفهم بذلك، لينتفعوا به إذا امتثلوا، ويحصل لهم ما وعد به عباده المطيعين. قال الزروقي رحمه الله تعالى[2]: القوي هو الذي لا يلحقه ضعف في ذاته وصفاته، ولا في أفعاله، فلا يمسه نصب ولا تعب، ولا يدركه قصور، ولا عجز في نقض ولا إبرام. وخاصية هذا الاسم ظهور القوة في الوجود، فما تلاه ذو همة ضعيفة إلا وجد القوة، ولا ذو جسم ضعيف إلا كان له ذلك، ولو ذكره مظلوم بقصد إهلاك الظالم ألف مرة كان له ذلك، وكفى أمره. وخاصية الاسم العزيز: وجود الغنى، والعز صورة أو معنى، فمن ذكره أربعين يوماً في كل يوم أربعين مرة أعانه الله وأعزه، فلم يحوجه إلى أحد من

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

خلقه. وقال السهرودي رحمه الله تعالى: من قرأه سبعة أيام متواليات كل يوم ألفاً أهلك خصمه، وإن ذكره في وجه العسكر سبعين مرة ويشير إليهم بيده؛ فإنهم ينهزمون.

ولما ذكر سبحانه إرسال الرسل إجمالاً أشار هنا إلى نوع تفصيل، فذكر رسالته لنوح وإبراهيم، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ وكرر القسم للتأكيد؛ أي: وعزّتي وجلالي.. لقد بعثنا ﴿نُوحًا﴾ إلى قومه. وهم[1] بنوا قابيل، وهو الأب الثاني للبشر. ﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ إلى قومه أيضاً، وهم نمرود ومن تبعه. ذكر الله رسالتهما تشريفاً لهما بالذكر، ولأنهما من أول الرسل وأبوان للأنبياء عليهم السلام، فالبشر كلهم من ولد نوح. والعرب والعبرانيون كلهم من ولد إبراهيم. ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا﴾؛ أي: في نسلهما ﴿النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ بأن استنبأنا بعض ذريتهما، وأوحينا إلهم الكتب مثل: هود، وصالح، وموسى، وهارون، وداود، وغيرهم، فلا يوجد نبي ولا كتاب إلا وهو مدل إليهما بأمتن الأنساب، وأعظم الإنسان.

أي: جعلنا فيهم النبوّة، والكتب المنزلة على الأنبياء منهم، وقيل: جعل بعضهم أنبياء، وجعل بعضهم يتلون الكتاب.

والمعنى: ولقد بعثنا نوحاً إلى طائفة من خلقنا، ثم بعثنا إبراهيم من بعده إلى قوم آخرين، ولم يرسل بعدهما رسلاً بشرائع إلا من ذريتهما.

ثم بين أن هذه الذرية افترقت فرقتين ﴿فَمِنْهُم﴾؛ أي: فمن ذريتهما ﴿مُّهْتَدٍ﴾ إلى الحق مستبصر ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾؛ أي: ضلال خارجون عن طاعة الله تعالى، ذاهبون إلى طاعة الشيطان، مدسون أنفسهم باجتراح الآثام، وفي الآية إيماء إلى أنهم خرجوا من الطريق المستقيم بعد أن تمكنوا من الوصول إليه، وبعد أن عرفوه حق المعرفة، وهذا أبلغ في الذم وأشد في الاستهجان لعملهم.

والمعنى: أي فمن الذرية من اهتدى بهدي نوح وإبراهيم. وقيل: المعنى: فمن المرسل إليهم من قوم الأنبياء مهتد بما جاء به الأنبياء من الهدى، وكثير منهم خارجون عن طاعتنا. ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم﴾؛ أي:[2] أتبعنا على آثار الذرية، أو

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.

على آثار نوح، وإبراهيم ﴿بِرُسُلِنَا﴾ الذين أرسلناهم إلى الأمم كموسى، والياس، وداود، وسليمان، وغيرهم. فالضمير[1] لنوح وإبراهيم، ومن أرسلا إليهم من الأمم؛ أي: أرسلنا بعد نوح هوداً وصالحاً، وبعد إبراهيم إسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف مثلاً. وفي «الروح»: الضمير لا يرجع إلى الذرية؛ فإن الرسل المقفى بهم من الذرية. يقال: قفا[2] أثره أتبعه، وقفى على أثره بفلان؛ أي: أتبعه إياه وجاء به بعده. والآثار جمع إثر بالكسر، كما سيأتي. تقول: خرجت على إثره؛ أي: عقبه. فالمعنى: أتبعنا من بعدهم واحداً بعد واحد من الرسل.

والخلاصة[3]: أي ثم بعثنا بعدهم رسولاً بعد رسول على توالي العصور والأيام.

ثم خص من أولئك الرسل عيسى لشهرة شريعته في عصر التنزيل ولوجود أتباعه في جزيرة العرب وغيرها، فقال: ﴿وَقَفَّيْنَا﴾؛ أي: أتبعنا أولئك الرسل الذين قفيناهم بعد نوح وإبراهيم ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾؛ أي: أرسلنا رسولاً بعد رسول حتى انتهى إلى عيسى ابن مريم، فأتينا به بعدهم؛ أي: جعلناه تابعاً لهم؛ أي: متأخراً عنهم في الزمان. فأول أنبياء بني إسرائيل موسى، وآخرهم عيسى عليهما السلام، وهو من ذرية إبراهيم من جهة أمه. ونسبه إلى أمه على حقيقة الإخبار. ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ﴾؛ أي: أعطينا عيسى ﴿ٱلْإِنجِيلَ﴾ دفعة واحدة، وهو الكتاب الذي أنزله الله عليه، وقد تقدَّم ذكر اشتقاقه في سورة آل عمران، وقرأ الجمهور[4] ﴿ٱلْإِنجِيلَ﴾ بكسر الهمزة. وقرأ الحسن بفتحها. قال أبو الفتح: وهو مثال لا نظير له، انتهى، وهي لفظة أعجمية فلا يلزم فيها أن تكون على أبنية كلم العرب. وقال الزمخشري: أمره أهون من أمر برطيل، يعني: أنه بفتح الباء، وكأنّه عربيّ، وأما الإنجيل فأعجمي.

والمعنى: أي ثم أرسلنا رسولاً بعد رسول حتى انتهى الأمر إلى عيسى عليه السلام، وأعطيناه الإنجيل الذي أوحيناه إليه، وفيه شريعته ووصاياه، وقد جاء ما فيه مكملاً لما في التوراة، ومخفّفاً بعض أحكامها التي شرعت تغليظاً على بني إسرائيل

---

(1) روح البيان.
(2) روح البيان.
(3) روح البيان.
(4) البحر المحيط.

لنقضهم العهد والميثاق كما جاء في قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾.

ثم بين صفات أتباع عيسى، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ﴾ المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾؛ أي: اتبعوا عيسى في دينه كالحواريين وأتباعهم. ﴿رَأْفَةً﴾؛ أي: ليناً. وقرىء ﴿رآفة﴾ بوزن فعالة، كما في «البيضاوي». ﴿وَرَحْمَةً﴾؛ أي: شفقة؛ أي[1]: جعلنا في قلوبهم رأفة؛ أي: أشد رقة ولين على من كان يتسبب إلى الاتصال بهم، والاتباع لهم ورحمة؛ أي: رقة وعطفاً وشفقة على من لم يكن له سبب في الاتصال بهم والاتباع لهم، أي: يعطفون على جميع الناس من وافقهم في الدين، ومن لم يوافقهم، كما كان الصحابة رضي الله عنهم رحماء بينهم حتى كانوا أذلة على المؤمنين مع أن قلوبهم في غاية الصلابة، فهم أعزة على الكافرين. قيل: أمروا في الإنجيل بالصفح، والإعراض عن مكافأة الناس على الأذى. وقيل: لهم من لطم خدك الأيمن فوله خدك الأيسر، ومن سلب ردائك فأعطه قميصك، ولم يكن لهم قصاص على جناية في نفس أو طرف. فاتبعوا هذه الأوامر، وأطاعوا الله تعالى، وكانوا متوادين ومتراحمين. ووصفوا بالرحمة خلاف اليهود الذين وصفوا بالقسوة.

وقوله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ منصوب[2] على الاشتغال بفعل مضمر يفسره المذكور بعده؛ أي: وابتدع أتباع عيسى رهبانية ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾؛ أي: اخترعوها من قبل أنفسهم، وباختيارهم لا بأمر من الله، فيكون الكلام مستأنفاً؛ أي: حملوا أنفسهم على العمل بها. والرهبانية: المبالغة في العبادة بمواصلة الصوم، ولبس المسوح، وترك أكل اللحم، والامتناع عن المطعم والمشرب والملبس والمنكح، والتعبد في الغيران، والتخلي في الصوامع. ومعناها: ابتدعوا الفعلة المنسوبة إلى الرهبان بفتح الراء: وهو الخائف، فإن الرهبة مخافة مع تحزن واضطراب كما في «المفردات»، وهو فعلان من رهب كخشيان من خشي. وقيل: معطوفة على ما قبلها، وجملة ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ صفة لها؛ أي: وجعلنا في قلوبهم رأفة ورحمة ورهبانية مبتدعة مخترعة من عندهم؛ أي: وفقناهم للتراحم بينهم ولابتداع الرهبانية، واستحداثها لينجوا من

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

فتنة بولس اليهودي. والأوّل أولى[1]، ورجحه أبو علي الفارسي وغيره.

وجملة ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ صفة ثانية لـ ﴿رهبانية﴾ أو مستأنفة مقررة لكونها مبتدعة من جهة أنفسهم. والمعنى: ما فرضنا عليهم تلك الرهبانية في كتابهم، ولا على لسان رسولهم.

وسبب ابتداعهم إياها[2]: أن الجبابرة ظهروا على المؤمنين بعد رفع عيسى، فقاتلوا ثلاث مرات فقتلوا حتى لم يبق منهم إلا قليل، فخافوا أن يفتتنوا في دينهم، فاختاروا الرهبانية في قلل الجبال، فارين بدينهم، مخلصين أنفسهم للعبادة، منتظرين البعثة النبوية التي وعدها لهم عيسى عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ الآية.

وروي: أن الله تعالى لما أغرق فرعون وجنوده استأذن الذين كانوا آمنوا من السحرة موسى عليه السلام في الرجوع إلى الأهل والمال بمصر، فأذن لهم ودعا لهم فترهبوا في رؤوس الجبال، فكانوا أول من ترهب، وبقيت طائفة منهم مع موسى عليه السلام حتى توفاه الله تعالى؛ ثم انقطعت الرهبانية بعدهم حتى ابتدعها بعد ذلك أصحاب عيسى عليه السلام.

والرهبانية[3] بفتح الراء وضمها، وقد قرئ بهما، وهي بالفتح من الرهب. وهو الخوف. وبالضم منسوبة إلى الرهبان، وذلك لأنهم غلوا في العبادة، وحملوا على أنفسهم المشقات في الامتناع من المطعم والمشرب والملبس والمنكح، وتعلقوا بالكهوف والصوامع؛ لأن ملوكهم غيروا وبدلوا وبقي منهم نفر قليل، فترهبوا وتبتلوا. ذكر معناه الضحاك، وقتادة وغيرهما.

وحاصل المعنى[4]: أن اتباع عيسى الذين ساروا على نهجه وشريعته اتصفوا بما يأتي:

١ ـ الرأفة بين بعضهم وبعض فيدفعون الشر ما استطاعوا إلى ذلك سبيل، ويصلحون ما فسد من أمورهم.

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

(٤) المراغي.

٢ ـ الرحمة فيجلب بعضهم لبعض الخير، كما قال تعالى في حق أصحاب النبيّ ﷺ: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾.

٣ ـ الرهبانية المبتدعة فقد انقطعوا عن الناس في الفلوات والصوامع معتزلين الخلق، وحرموا على أنفسهم النساء، ولبسوا الملابس الخشنة تبتلا إلى الله وإخباتاً له، ما فرضنا عليهم هذه الرهبانية ولكنهم استحدثوها طلباً لمرضاة الله والزلفى إليه.

والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا﴾ منقطع؛ أي؛ لكن ابتدعوها ﴿ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ تعالى؛ أي: لطلب رضا الله تعالى. وقال الزجاج[1]: ما كتبناها عليهم معناه: لم نكتب عليهم شيئاً البتة. قال: ويكون قوله: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ بدلاً من الهاء في ﴿ كَتَبْنَٰهَا﴾.

والمعنى: ما كتبنا عليهم إلا ابتغاء رضوان الله. فيكون الاستثناء متصلاً. ﴿فَمَا رَعَوْهَا﴾؛ أي: فما حفظ العيسويون الرهبانية ﴿حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾؛ أي: حق حفظها؛ لأنهم أتوها لطلب الدنيا والرياء والسمعة؛ أي: فما رعوا[2] جميعاً حق رعايتها، بل أفسدوها بضم التثليث والقول بالاتحاد، وقصد السمعة، والكفر بمحمد ﷺ، ونحوها إليها. وروي عنه ﷺ: أنه قال: «من آمن بي وصدقني.. فقد رعاها حق رعايتها، ومن لم يؤمن بي.. فأولئك هم الهالكون». قال مقاتل: لما استضعفوا بعد عيسى عليه السلام التزموا الغيران فما صبروا وأكلوا الخنازير، وشربوا الخمور، ودخلوا مع الفساق، اهـ. وفي «المناسبات» ﴿فَمَا رَعَوْهَا﴾؛ أي: لم يحفظها المقتدون بهم بعدهم كما أوجبوا على أنفسهم حق رعايتها؛ أي: بكمالها، بل قصروا فيها ورجعوا عنها، ودخلوا في دين ملوكهم، ولم يبق على دين عيسى عليه السلام إلا قليلا منهم، ذمهم الله تعالى بذلك من حيث إن النذر عهد مع الله لا يحل نكثه سيما إذا قصد رضاء الله تعالى.

﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: فأعطينا الذين آمنوا إيماناً صحيحاً ﴿مِنْهُمْ﴾؛ أي: من العيسيين، وهو الإيمان بمحمد ﷺ بعد رعاية رهبانيتهم لا مجرد رعايتها؛ فإنها بعد البعثة لغو محض، وكفر بحت، وأنى لهم استتباع الأجر. قال في «كشف

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

الأسرار»: لما بعث محمد ﷺ ولم يبق منهم إلا قليل حط رجل من صومعته، وجاء سائح من سياحته، وصاحب الدير من ديره، فآمنوا به ﷺ، وهم المرادون بقوله: ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾. والصومعة: كل بناء متصومع الرأس؛ أي: متلاصقه. والدير: خان النصارى، وصاحبه ديار.

أي: فآتينا الذين آمنوا منهم ﴿أَجْرَهُمْ﴾ الذي يستحقونه بالإيمان، وذلك لأنهم آمنوا بعيسى، وثبتوا على دينه حتى آمنوا بمحمد ﷺ لما بعثه الله تعالى؛ أي: أعطيناهم ما يحسن، ويليق بهم من الأجر، وهو الرضوان الذي طلبوه برهبانيتهم، وبإيمانهم بمحمد ﷺ.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: من العيسيين، وهم الذين ابتدعوا فضيعوا، وكفروا بمحمد ﷺ ﴿فَـٰسِقُونَ﴾؛ أي: خارجون عن حد الاتباع، وهم الذين تهودوا وتنصروا؛ أي: خارجون عن الإيمان بما أمروا أن يؤمنوا به؛ ووجه[1] الذم لهم على تقدير أن الاستثناء منقطع، أنهم قد كانوا ألزموا أنفسهم الرهبانية معتقدين أنها طاعة، وأن الله يرضاها، فكان تركها، وعدم رعايتها حق الرعاية يدل على عدم مبالاتهم بما يعتقدونه ديناً، وأما على القول: بأن الاستثناء متصل؛ وأن التقدير: ما كتبناها عليهم لشيء من الأشياء إلا ليبتغوا بها رضوان الله بعد أن وفقناهم لابتداعها، فوجه الذم ظاهر.

والمعنى[2]: أي فما حافظوا على هذه الرهبانية المبتدعة، وما قاموا بما التزموه حق القيام، بل ضيعوها وكفروا بدين عيسى بن مريم، فضموا إليه التثليث، ودخلوا في دين الملوك الذين غيروا وبدلوا. وفي هذا ذم لهم من وجهين:

١ ـ أنهم ابتدعوا في دين الله ما لم يأمر به.

٢ ـ أنهم لم يقوموا بما فرضوه على أنفسهم بما زعموا أنه قربة يقربهم إلى ربهم. وقد كان ذلك كالنذر الذي يجب رعايته، والعهد الذي يجب الوفاء به.

روى ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: «قال لي رسول الله ﷺ: يا ابن مسعود قلت: لبيك يا رسول الله قال: «اختلف من كان قبلنا على إحدى وسبعين

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

فرقة نجا منهم ثلاث وهلك سائرهم، فرقة من الثلاث وازت الملوك، وقاتلتهم على دين الله، ودين عيسى ابن مريم صلوات الله عليه، فقتلتهم الملوك، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك، فأقاموا بين ظهراني قومهم يدعونهم إلى دين الله، ودين عيسى ابن مريم صلوات الله عليه، فقتلتهم الملوك بالمناشير، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك، ولا بالمقام بين ظهراني قومهم يدعونهم إلى دين الله، ودين عيسى ابن مريم صلوات الله عليه فلحقوا بالبراري، والجبال فترهبوا فيها، فهو قول الله عزّ وجلّ ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ الآية. فمن آمن بي، واتبعني وصدقني فقد رعاها حق رعايتها، ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الفاسقون».

﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟...﴾ الآية؛ أي: فأعطينا الذين آمنوا منهم إيماناً صحيحاً طبعت آثاره في أعمالهم، فزكوا أنفسهم وأخبتوا لربهم، وأدوا فرائضه أجورهم التي استحقوها كفاء ما عملوا، وكثير منهم فسقوا عن أمر الله واجترحوا الشرور والآثام، وظهر فسادهم في البر والبحر، بما كسبت أيديهم فكبكبوا في النار، وباءوا بغضب من الله، ولهم عذاب عظيم.

ثم أمر سبحانه المؤمنين بالرسل المتقدمين بالتقوى والإيمان بمحمد ﷺ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: بالرسل المتقدمة ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيما نهاكم عنه ﴿وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ﴾؛ أي: بمحمد ﷺ، وفي إطلاقه إيذان بأنه علم فرد له في الرسالة لا يذهب الوهم إلى غيره. ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾؛ أي: نصيبين ﴿مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ بسبب إيمانكم برسوله بعد إيمانكم بمن قبله من الرسل، لكن لا على أن شريعتهم باقية بعد البعثة بل على أنها كانت حقًّا قبل النسخ. ونقل عن الراغب: الكفل: الحظ الذي فيه الكفالة، كأنّه تكفل بأمره، والكفلان هما النصيبان المرغوب فيهما بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ انتهى.

وقيل[1]: النداء في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ نداء لمن آمن به من أمة محمد ﷺ، فمعنى ﴿ءَامِنُوا۟﴾: داوموا واثبتوا على إيمانكم، وهكذا المعنى في كل أمر يكون المأمور متلبساً بما أمر به يؤتكم كفلين. قال أبو موسى الأشعري: ﴿كِفْلَيْنِ﴾ ضعفين بلسان الحبشة، انتهى.

---

(١) البحر المحيط.

والمعنى: أنه يؤتكم مثل ما وعد من آمن من أهل الكتاب من الكفلين في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ إذ أنتم مثلهم في الإيمانين لا تفرقون بين أحد من رسله. وروي: أن مؤمني أهل الكتاب افتخروا على غيرهم من المؤمنين بأنهم يؤتون أجرهم مرتين، وادعوا الفضل عليهم فنزلت هذه الآية.

وقيل: النداء للمنافقين.

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم اتقوا الله، وآمنوا بقلوبكم إيماناً صحيحاً. ويؤيد المعنى الأول ما رواه الشعبي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه، وآمن بمحمد ﷺ، والعبد المملوك إذا أدى حق مواليه، وحق الله عز وجل، ورجل كانت عنده أمة يطؤها فأدبها، فأحسن تأديبها، وعلمها، وأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران» متفق عليه.

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ على الصراط وبين الناس حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ فهو[1] الضياء الذي يمشون به على الصراط إلى أن يصلوا إلى الجنة.

وذلك لأن جهنم خلقت من الظلمة، إذ هي صورة النفس الأمّارة بالسوء، وهي ظلمانية، فنور الإيمان والتقوى يدفعها ويزيلها. وقيل المعنى: ويجعل لكم سبيلاً واضحاً في الدين تهتدوا به ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ما أسلفتم من الذنوب والمعاصي. فأما حسنات الكفار فمقبولة بعد إسلامهم على ما ورد في الحديث الصحيح، كما رواه مسلم. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي مبالغ في المغفرة والرحمة.

والمعنى[2]: أي يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله من أهل الكتابين: التوراة والإنجيل، خافوا الله بأداء طاعته واجتناب معاصيه، وآمنوا بمحمد ﷺ يعطكم ضعفين من الأجر لإيمانكم بعيسى، والأنبياء قبل محمد ﷺ ثم بإيمانكم بمحمد بعد أن بعث نبياً، ويجعل لكم نوراً تستبصرون به من العمى والجهالة، ويغفر لكم ما أسلفتم من الذنوب، وما فرطتم في جنب الله، والله واسع المغفرة لمن يشاء، رحيم

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

بعباده يقبل توبتهم متى أنابوا إليه وخشعت له قلوبهم.

والخلاصة[1]: أنه تعالى وعد المؤمنين برسوله بعد إيمانهم بالأنبياء قبله بأمور ثلاثة:

١ ـ أن يضاعف لهم الأجر والثواب.

٢ ـ أن يجعل لهم نوراً بين أيديهم، وعن شمائلهم يوم القيامة يهديهم إلى الصرط السوي ويوصلهم إلى الجنة.

٣ ـ أن يغفر لهم ما اجترحوا من الذنوب والآثام.

ثم رد على أهل الكتاب الذين خصوا فضل الرسالة بهم، فقال: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ واللام[2] فيه متعلقة بمضمون الجملة الطلبية المتضمنة معنى الشرط، إذ التقدير: إن تتقوا الله وتؤمنوا برسوله.. يؤتكم كذا وكذا لئلا يعلم الذين لم يسلموا من أهل الكتاب؛ أي: ليعلموا، و﴿لا﴾ مزيدة كهي في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ كما ينبىء عنه قراءة ﴿ليعلم﴾، وقراءة ﴿لكي يعلم﴾، وقراءة ﴿لأن يعلم﴾ بإدغام النون في الياء. قال في «كشف الأسرار»: وإنما يحسن إدخالها في كلام يدخل في أواخره، أو في أوائله جحد، اهـ. و﴿أن﴾ في قوله: ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، وجملتها في حيز النصب علي أنها مفعول ﴿يَعْلَمَ﴾؛ أي: ليعلم الذين لم يسلموا من أهل الكتاب أنهم لا ينالون شيئاً مما ذكر من فضله الذي تفضل به على من آمن، بمحمد ﷺ من الكفلين والنور والمغفرة، ولا يتمكنون من نيله حيث لم يأتوا بشرطه الذي هو الإيمان بمحمد ﷺ، ولا يقدرون على دفع ذلك الفضل الذي تفضل الله به على المستحقين له. وجملة ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى معطوفة على جملة ﴿أن﴾ المخففة؛ أي: ليعلموا أنهم لا يقدرون، وليعلموا أن الفضل بيد الله سبحانه. وقوله: ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ خبر ثان؛ لأنَّ أو هو الخبر، والجار والمجرور في محل نصب على الحال. وجملة قوله: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ مقررة لمضمون ما قبلها؛ أي: والله واسع الفضل، كثير العطاء، يمنحه من شاء من عباده،

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

لا يخص به قوماً دون آخرين، ولا شعباً دون آخر. والمراد بالفضل هنا: ما تفضل به على الذين اتقوا، وآمنوا برسوله ﷺ من الأجر المضاعف، وقال الكلبيّ: هو رزق الله، وقيل: نعم الله التي لا تحصى، وقيل: هو الإسلام. وقيل[1]: إن ﴿لا﴾ في ﴿لئلا﴾ غير مزيدة، وضمير ﴿لا يقدرون﴾ للنبيّ ﷺ وأصحابه، والمعنى: لئلا يعتقد أهل الكتاب أنه لا يقدر النبي، والمؤمنون على شيء من فضل الله الذي هو عبارة عما أوتوه. والأول أولى.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ﴾ بلا المزيدة. وقرأ خطاب بن عبد الله ﴿لأن يعلم﴾. وقرأ عبد الله، وابن عباس، وعكرمة، وعبد الله بن سلمة ﴿ليعلم﴾ وقرأ الجحدري ﴿لِيَنْيَعَلَمَ﴾، أصله: لأن يعلم، قلبت الهمزة ياء لكسرة ما قبلها، وأدغم النون في الياء بغير غنة كقراءة خلف ﴿أن يَضْرب﴾ بغير غنّةٍ، وروى ابن مجاهد عن الحسن ﴿لَيْلاَّ﴾ مثل: ليلى اسم امرأة، ﴿يعلم﴾ برفع الميم، أصله: لأن لا بفتح لام الجر، وهي لغة فحذفت الهمزة اعتباطاً، وأدغمت النون في اللام، فاجتمعت الأمثال وثقل النطق بها فأبدلوا من الساكنة ياء، فصار ليلاً ورفع الميم لأن ﴿أن﴾ هي المخففة من الثقيلة لا الناصبة للمضارع، إذ الأصل لأنه لا يعلم. وروى قطرب عن الحسن أيضاً ﴿لئلا﴾ بكسر اللام، وتوجيهه كالذي قبله إلا أنه كسر اللام على اللغة المشهورة في لام الجر. وعن ابن عباس ﴿كَيْ يَعْلَم﴾، وعنه: ﴿لِكَيْلا يعلم﴾. وعن عبد الله، وابن جبير، وعكرمة ﴿لكي يعلم﴾. وقرأ الجمهور[3] ﴿أَلَّا يَقۡدِرُونَ﴾ بالنون، فأن هي المخففة من الثقيلة. وقرأ عبد الله بحذفها، فأن هي الناصبة للمضارع. والله أعلم.

الإعراب

﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعَفُ لَهُمۡ وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴾.

﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ﴾ ناصب واسمه، ﴿وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ﴾ معطوف على ﴿ٱلۡمُصَّدِّقِينَ﴾،

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

(٣) البحر المحيط.

﴿وَأَقْرَضُواْ﴾ فعل، وفاعل، معطوف على صلة أل في ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾، والتقدير: إن الذين اصدقوا وأقرضوا الله، ولفظ الجلالة الله مفعول به، و﴿قَرْضًا﴾ مفعول مطلق، ﴿حَسَنًا﴾ صفة ﴿قَرْضًا﴾، ﴿يُضَٰعَفُ﴾ فعل مضارع، مغير الصيغة، ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل، ويجوز أن يكون نائب الفاعل ضمير التصدق، ولكنه على تقدير مضاف. ﴿وَلَهُمْ﴾ متعلق بـ ﴿يُضَٰعَفُ﴾؛ أي: يضاعف لهم ثواب التصدق. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿وَلَهُمْ﴾ خبر مقدم، ﴿أَجْرٌ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿كَرِيمٌ﴾ صفة ﴿أَجْرٌ﴾. والجملة الاسمية في محل الرفع، معطوفة على جملة ﴿يُضَٰعَفُ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ الواو: استئنافية، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿ءَامَنُواْ﴾ صلة الموصول، ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿ءَامَنُواْ﴾، ﴿وَرُسُلِهِۦٓ﴾ معطوف على الجلالة، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ثان، ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل، ﴿ٱلصِّدِّيقُونَۖ﴾ خبر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، و﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وخبره خبر الأوّل. ويجوز أن يكون ﴿هُمُ﴾ مبتدأ ثالثاً، و﴿ٱلصِّدِّيقُونَۖ﴾ خبره، و﴿هُمُ﴾ مع خبره خبر الثاني، والثاني وخبره خبر الأول. ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ إمّا معطوف على ﴿ٱلصِّدِّيقُونَۖ﴾ والوقف عنده تام أخبر عن الذين آمنوا أنهم صديقون شهداء، ويجوز أن تكون ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ مبتدأ، وخبره إما الظرف بعده أعني: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ والثاني: أنه قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ ﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدم، ﴿أَجْرُهُمْ﴾ مبتدأ مؤخر، و﴿نُورُهُمْ﴾ معطوف على ﴿أَجْرُهُمْ﴾، و﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ظرف متعلق بمحذوف حال من أجرهم؛ أي: حال كونه مدّخراً لهم عند ربهم. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿كَفَرُواْ﴾ صلته، ﴿وَكَذَّبُواْ﴾ معطوف على ﴿كَفَرُواْ﴾، ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ متعلق بـ ﴿كَفَرُواْ﴾، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ثان، ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ خبر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾. والجملة خبر الموصول، وجملة الموصول مستأنفة.

﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًاۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾ فعل أمر، و﴿الواو﴾ فاعل، والجملة مستأنفة مسوقة لتحقير الدنيا، وبيان هوان أمرها. ﴿أَنَّمَا﴾ ﴿أنّ﴾ مكفوفة، و﴿ما﴾ كافّة، ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ﴾ مبتدأ، ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ صفة، ﴿لَعِبٞ﴾ خبر. والجملة الاسمية سادة مسد مفعولي ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾. ﴿وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ﴾ معطوفات على ﴿لَعِبٞ﴾، ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾ ظرف متعلق بمحذوف، صفة لـ ﴿تفاخر﴾، و﴿تكاثر﴾ معطوف على ﴿لَعِبٞ﴾، ﴿فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ﴾ متعلق بـ ﴿تكاثر﴾، ﴿وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾ معطوف على ﴿ٱلۡأَمۡوَٰلِ﴾، ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: مثلها كمثل غيث أو حال من معنى ما تقدم؛ أي: ثبتت لها هذه الصفات حال كونها مشبهة بغيث. ﴿أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ﴾ فعل، ومفعول مقدم، ﴿نَبَاتُهُۥ﴾ فاعل، والجملة في محل الجر صفة لـ ﴿غَيۡثٍ﴾. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب مع التراخي، ﴿يَهِيجُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على النبات، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَعۡجَبَ﴾. ﴿فَتَرَىٰهُ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة ﴿ترى﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير المخاطب، والهاء: مفعول له، ﴿مُصۡفَرّٗا﴾ حال. لأن الرؤية هنا بصرية، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَهِيجُ﴾. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف، ﴿يَكُونُ﴾ فعل مضارع ناقص، واسمها ضمير يعود على النبات، ﴿حُطَٰمٗاۖ﴾ خبره. والجملة معطوفة على جملة ﴿تراه﴾. ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ الواو: عاطفة، ﴿في الآخرة﴾ خبر مقدم، ﴿عَذَابٞ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿شَدِيدٞ﴾ صفة لـ ﴿عَذَابٞ﴾. والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾. ﴿وَمَغۡفِرَةٞ﴾ معطوف على ﴿عَذَابٞ﴾، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ صفة لـ ﴿مغفرة﴾، ﴿وَرِضۡوَٰنٞۚ﴾ معطوف على ﴿مغفرة﴾. ﴿وَمَا﴾ الواو: عاطفة، ﴿ما﴾ نافية، ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ﴾ مبتدأ، ﴿ٱلدُّنۡيَآ﴾ صفة لـ ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ﴾، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ، ﴿مَتَٰعُ﴾ خبر المبتدأ، ﴿ٱلۡغُرُورِ﴾ مضاف إليه. والإضافة فيه بيانية. والجملة معطوفة على ما قبلها.

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾.

﴿سَابِقُوٓاْ﴾ فعل أمر، وفاعل. والجملة مستأنفة مسوقة لبيان أسباب المفاخرة الحقيقية التي يصح التفاخر بها. ﴿إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ﴾ متعلق بـ ﴿سَابِقُوٓاْ﴾، ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ صفة لـ ﴿مَغۡفِرَةٖ﴾، ﴿وَجَنَّةٍ﴾ معطوف على ﴿مَغۡفِرَةٖ﴾، ﴿عَرۡضُهَا﴾ مبتدأ، ﴿كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه خبر المبتدأ، ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

والجملة صفة لـ﴿جنة﴾، ﴿أُعِدَّتْ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود إلى الجنّة. والجملة صفة ثانية لـ ﴿جنة﴾، ويجوز أن تكون مستأنفة. ﴿لِلَّذِينَ﴾ متعلق بـ ﴿أُعِدَّتْ﴾، ﴿ءَامَنُوا﴾ صلة الموصول، ﴿بِاللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿ءَامَنُوا﴾، ﴿وَرُسُلِهِ﴾ معطوف على الجلالة. ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿يُؤْتِيهِ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿اللَّهِ﴾، ومفعول أول، ﴿مَن يَشَاءُ﴾ مفعول ثان، وجملة ﴿يَشَاءُ﴾ صلة ﴿من﴾ الموصولة، وجملة ﴿يُؤْتِيهِ﴾ حال من ﴿فَضْلُ اللَّهِ﴾. ﴿وَاللَّهُ﴾ مبتدأ، ﴿ذُو الْفَضْلِ﴾ خبره، ﴿الْعَظِيمِ﴾ صفة لـ ﴿الْفَضْلِ﴾. والجملة مستأنفة.

﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾.

﴿مَا﴾ نافية، ﴿أَصَابَ﴾ فعل ماض، ﴿مِن مُّصِيبَةٍ﴾ فاعل، و﴿مِن﴾ زائدة، وذكّر الفعل لأن المصيبة مجازيّ التأنيث، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ صفة لـ ﴿مُّصِيبَةٍ﴾ أو متعلق بها، أو متعلق بـ ﴿أَصَابَ﴾، ﴿وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ معطوف على في الأرض. ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿فِي كِتَابٍ﴾ حال من مصيبة لتخصصها بالوصف، أو بالعمل، أو خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: إلا وهي كائنة في كتاب، والجملة أيضاً حال من ﴿مُّصِيبَةٍ﴾. ﴿مِن قَبْلِ﴾ متعلق بما تعلق به قوله: ﴿فِي كِتَابٍ﴾؛ أي: إلا ثابتة في كتاب من قبل أن نبرأها، أو صفة لكتاب؛ أي: كتاب كائن من قبل أن نبرأها، ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿نَّبْرَأَهَا﴾ فعل مضارع، ومفعول به، وفاعله ضمير المتكلم المعظم نفسه، يعود على الله سبحانه، والجملة الفعلية مع أن المصدرية في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه؛ أي: من قبل برئنا إياها. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ ناصب واسمه، ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿يَسِيرٌ﴾، و﴿يَسِيرٌ﴾ خبره. وجملة ﴿إِنَّ﴾ جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب. ﴿لِّكَيْلَا﴾ اللام: حرف جرّ وتعليل، ﴿كي﴾ حرف نصب ومصدر بمنزلة أن المصدرية وليست للتعليل لئلا يلزم علينا اجتماع حرفي تعليل في معلّل واحد، و﴿لا﴾ نافية ﴿تَأْسَوْا﴾ فعل مضارع منصوب بكي، وعلامة نصبه حذف النون، والواو: فاعل، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام، والجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره: أعلمناكم ذلك أو أخبرناكم لكيلا تأسوا؛ أي لعدم أساكم. ﴿عَلَىٰ مَا﴾ جار ومجرور، متعلق بـ ﴿تَأْسَوْا﴾، ﴿فَاتَكُمْ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿مَا﴾، ومفعول به،

والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة.

﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَىٰكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَلَا تَفْرَحُوا﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿تَأْسَوْا﴾، و﴿لَا﴾ نافية، ﴿بِمَا﴾ متعلق بـ ﴿تَفْرَحُوا﴾، وجملة ﴿ءَاتَىٰكُمْ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة، ومتعلق ﴿فَاتَكُمْ﴾ و﴿ءَاتَىٰكُمْ﴾ محذوف، تقديره: من النعم. ﴿وَاللَّهُ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿لَا يُحِبُّ﴾ خبره. والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ مفعول به، ﴿فَخُورٍ﴾ نعت مختال، ﴿الَّذِينَ﴾ بدل من قوله: ﴿كُلَّ مُخْتَالٍ﴾؛ أي: لا يحب الذين يبخلون، أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هم الذين يبخلون، أو منصوب على الذمّ، وجملة ﴿يَبْخَلُونَ﴾ صلة الموصول. ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول معطوف على ﴿يَبْخَلُونَ﴾، ﴿بِالْبُخْلِ﴾ متعلق بـ ﴿يأمرون﴾، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ الواو: استئنافية، ﴿من﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع، مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب أو هما، ﴿يَتَوَلَّ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر مجزوم بـ ﴿من﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وعلامة جزمه حذف حرف العلّة. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطة وجوباً لكون الجواب جملة اسمية: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل، وفي قراءة سقوطه وهو مما يرجح كونه فصلاً لا مبتدأ، ﴿الْغَنِيُّ﴾ خبر ﴿إنّ﴾، ﴿الْحَمِيدُ﴾ خبر ثان لها، والجملة الاسمية في محل الجزم على كونها جواباً لمن الشرطية، وجملة من الشرطية مستأنفة.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿لَقَدْ﴾ اللام: موطئة للقسم، ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق، ﴿أَرْسَلْنَا﴾ فعل، وفاعل، ﴿رُسُلَنَا﴾ مفعول به، ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ حال من ﴿رُسُلَنَا﴾؛ أي: حال كونهم مؤيدون بالمعجزات، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة. ﴿وَأَنزَلْنَا﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿مَعَهُمُ﴾ ظرف متعلق بمحذوف حال مقدرة من ﴿الْكِتَابَ﴾، و﴿الْكِتَابَ﴾ مفعول به؛ أي: وأنزلنا الكتاب حال كونه آيلاً وصائراً،

لأن يكون معهم إذا وصل إليهم في الأرض. ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ معطوف على الكتاب، ﴿لِيَقُومَ﴾ اللام: حرف جرّ وتعليل، ﴿يقوم﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، ﴿ٱلنَّاسُ﴾ فاعل، ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ متعلق بـ ﴿يقوم﴾. والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام؛ أي: لقيام الناس بالقسط، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿أنزلنا﴾ و﴿أَرْسَلْنَا﴾. لأنه علة للإرسال والإنزال. ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به، معطوف على ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿فِيهِ﴾ خبر مقدم، ﴿بَأْسٌ﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة في محل النصب حال من ﴿ٱلْحَدِيدَ﴾؛ أي: فيه قوة ومنعة، ﴿شَدِيدٌ﴾ صفة ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ معطوف على بأس، ﴿لِلنَّاسِ﴾ صفة لـ ﴿منافع﴾، ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ الواو: عاطفة على محذوف، واللام: حرف جرّ وتعليل، ﴿يعلم﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل، و﴿مَن﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿يَنصُرُهُۥ﴾ صلة لمن، ﴿وَرُسُلَهُۥ﴾ معطوف على الهاء؛ أي: وينصر رسله أيضاً، ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حال من مفعول ينصره؛ أي: غائباً عنهم غير مرئيّ لهم في الدنيا، وجملة ﴿يَعْلَمَ﴾ مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، والجار والمجرور معطوف على تعليل محذوف، دل عليه ما قبله، تقديره: وأنزلنا الحديد ليستعملوه وينتفعوا به وليعلم الله علماً يتعلق بالجزاء من ينصره ورسله باستعمال السيوف والرماح في مجاهدة أعدائه، أو معطوف على قوله: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾. والأوّل أولى خلافاً لما قاله الشوكاني كما مرّ؛ لأن هذا ليس علة للإرسال. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه، ﴿قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ خبران له، والجملة تعليلية، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، واللام: موطئة للقسم، ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة جواب القسم، وجملة القسم معطوفة على جملة القسم السابق. ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ معطوف على ﴿نُوحًا﴾، ﴿وَجَعَلْنَا﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿فِى ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ في موضع المفعول الثاني لـ ﴿جعلنا﴾، ﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾ مفعول أوّل لـ ﴿جعلنا﴾، ﴿وَٱلْكِتَٰبَ﴾ معطوف على ﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾، ﴿فَمِنْهُم﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت

إرسالنا، وجعلنا المذكور وأردت بيان مآلهم بعد ذلك فأقول لك. ﴿مِنْهُم﴾ خبر مقدم، ﴿مُّهْتَدٍ﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة الاسمية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَكَثِيرٌ﴾ مبتدأ، ﴿مِنْهُمْ﴾ صفة لـ ﴿كثير﴾، ﴿فَٰسِقُونَ﴾ خبره. والجملة معطوفة على قوله: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ﴾.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ (٢٧)﴾.

﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب، ﴿قَفَّيْنَا﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿جعلنا﴾، ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ متعلق بـ ﴿قَفَّيْنَا﴾، ﴿بِرُسُلِنَا﴾ مفعول به لـ ﴿قَفَّيْنَا﴾، والباء: زائدة، ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿قَفَّيْنَا﴾ الأول، ﴿بِعِيسَى﴾ مفعول به، والباء: زائدة، ﴿ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ صفة لـ ﴿عيسى﴾، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ فعل، وفاعل، ومفعولان معطوف على ﴿قَفَّيْنَا﴾ الثاني، ﴿وَجَعَلْنَا﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿آتيناه﴾، ﴿فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه في موضع المفعول الثاني لـ ﴿جعلنا﴾، ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة صلة الموصول. ﴿رَأْفَةً﴾ مفعول أول لـ ﴿جعلنا﴾ ﴿وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً﴾ معطوفان على ﴿رَأْفَةً﴾ ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به. والجملة صفة لـ ﴿رهبانية﴾. ويجوز أن يكون ﴿رهبانية﴾ منصوباً على الاشتغال بفعل محذوف يفسّره المذكور بعده، تقديره: وابتدعوا رهبانية، والجملة المحذوفة معطوفة على جملة ﴿جعلنا﴾. وجملة ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ جملة مفسرة، لا محل لها من الإعراب. والرهبانية: رفض الدنيا وشهواتها من النساء وغيرهن، واتخاذ الصوامع. ﴿مَا﴾ نافية، ﴿كَتَبْنَٰهَا﴾ فعل وفاعل ومفعول به ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿كتبنا﴾. والجملة صفة ثانية لـ ﴿رهبانية﴾ أو مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾ منصوب على الاستثناء، إن قلنا: إن الاستثناء منقطع بمعنى لكن، أو منصوب على أنه مفعول لأجله إن قلنا: إن الاستثناء متصل؛ أي: ما كتبناها عليهم لشيء من الأشياء إلا لابتغاء مرضاة الله تعالى، ويكون ﴿كتب﴾ بمعنى قضى. ﴿رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه، ﴿فَمَا﴾ الفاء: عاطفة، ﴿ما﴾ نافية، ﴿رَعَوْهَا﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به، معطوف على ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾، ﴿حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة، ﴿رِعَايَتِهَا﴾ مضاف

إليه، ﴿فَـَٔاتَيۡنَا﴾ الفاء: عاطفة، ﴿آتينا الذين﴾ فعل، وفاعل، ومفعول أول، معطوف على قوله: ﴿فَمَا رَعَوۡهَا﴾. ﴿ءَامَنُواْ﴾ فعل، وفاعل، صلة الموصول، ﴿مِنۡهُمۡ﴾ حال من الموصول، ﴿أَجۡرَهُمۡۖ﴾ مفعول ثان لـ ﴿آتينا﴾، ﴿وَكَثِيرٞ﴾ الواو: استئنافية، ﴿كثير﴾ مبتدأ، ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ صفة له، ﴿فَٰسِقُونَ﴾ خبر، والجملة مستأنفة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾ حرف نداء، ﴿أي﴾ منادى نكرة مقصودة، والهاء،: حرف تنبيه زائد، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة لـ ﴿أيّ﴾ أو بدل منه، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ءَامَنُواْ﴾ فعل ماض، وفاعل والجملة صلة الموصول، ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فعل أمر، وفاعل، ومفعول به، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿وَءَامِنُواْ﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿ٱتَّقُواْ﴾، ﴿بِرَسُولِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿وَءَامِنُواْ﴾ ﴿يُؤۡتِكُمۡ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، يعود على الله، ومفعول أول مجزوم بالطلب السابق، وعلامة جزمه حذف حرف العلة. والجملة جواب الطلب، لا محل لها من الإعراب، ﴿كِفۡلَيۡنِ﴾ مفعول ثان لـ ﴿يُؤۡتِكُمۡ﴾، ﴿مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ صفة لـ ﴿كِفۡلَيۡنِ﴾، ﴿وَيَجۡعَل﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، معطوف على ﴿يُؤۡتِكُمۡ﴾ ﴿لَّكُمۡ﴾ متعلق بـ ﴿يجعل﴾، وهو في موضع المفعول الثاني، ﴿نُورٗا﴾ مفعول أول لـ ﴿يجعل﴾، وجملة ﴿تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ صفة لـ ﴿نُورٗا﴾، ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ معطوف على ﴿يُؤۡتِكُمۡ﴾ أيضاً، ﴿لَكُمۡ﴾ متعلق بـ ﴿يغفر﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ، ﴿غَفُورٞ﴾ خبر أول، ﴿رَّحِيمٞ﴾ خبر ثان، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿لِّئَلَّا﴾ اللام: حرف جر وتعليل، ﴿أن﴾ حرف مصدر ونصب، و﴿لا﴾ زائدة، ﴿يَعۡلَمَ﴾ فعل مضارع منصوب بأن المصدرية، ﴿أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فاعل، والجملة الفعلية مع أن المصدرية في تأويل مصدر مجرور باللام؛ أي: لعلم أهل الكتاب، الجار والمجرور متعلق بمحذوف، تقديره: إن تتقوا الله، وتؤمنوا برسوله يؤتكم كذا وكذا لعلم أهل الكتاب؛ أي: ليعلموا. ﴿أَلَّا يَقۡدِرُونَ﴾ ﴿أن﴾ مخففة من الثقيلة،

واسمها ضمير الشأن، ﴿لا﴾ نافية، ﴿يَقۡدِرُونَ﴾ فعل وفاعل، ﴿عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ متعلق بـ ﴿يَقۡدِرُونَ﴾، ﴿مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ صفة لـ ﴿شَيۡءٖ﴾، وجملة ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ المخففة، وجملة ﴿أن﴾ المخففة في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿علم﴾؛ أي: فعلنا ذلك بكم ليعلم أهل الكتاب عدم قدرتهم على شيء من فضل الله. ﴿وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ﴾ ناصب واسمه، ﴿بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ خبره، وجملة أن معطوفة على ﴿أَلَّا يَقۡدِرُونَ﴾، داخل في حيز المعلوم. وجملة ﴿يُؤۡتِيهِ﴾ مستأنفة، أو خبر ثان لـ ﴿أنّ﴾، والهاء مفعول أول لـ ﴿يُؤۡتِيهِ﴾، لأنّه بمعنى أعطى. ﴿من﴾ اسم موصول مفعول ثان ليؤتيه، جملة ﴿يَشَآءُۚ﴾ صلته. ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ﴾ مبتدأ وخبر، ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾ صفة لـ ﴿ٱلۡفَضۡلِ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ﴾ قرىء بتشديد الصاد والدال فيهما اسم فاعل من تصدق الخماسي من باب تفعل، وأصله: المتصدّقين والمتصدّقات أبدلت التاء صاداً، ثم أدغمت في الصاد فاء الكلمة. وقرىء ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَدِّقِينَ وَٱلۡمُصَدِّقَاتِ﴾ بتخفيف الصاد فيهما اسم فاعل من صدّق الرباعي من باب فعّل المضعّف العين.
﴿قَرۡضًا حَسَنًا﴾ مصدر حذفت زوائده، أصله: إقراضاً حسناً نظير قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧﴾؛ أي: إنباتاً، والإقراض الحسن: هو عبارة عن الدفع بالمال الطيّب بطيب نفس، وخلوص نيّة ابتغاء مرضاة الله تعالى، لا يريدون جزاء ممن أعطوه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ﴾ جمع صديق، وهو من أوزان المبالغة ولا يجيء إلا من ثلاثي غالباً، اهـ سمين. وفرقوا بين الصديق، والصادق بأن الصادق كالمخلص بالكسر من تخلص من شوائب الصفات النفسانية مطلقاً كالرياء، والسمعة والصديق كالمخلص بالفتح من تخلص أيضاً عن شوائب الغيرية، والثاني أوسع فلكاً، وأكثر إحاطة، فكل صديق ومخلص بالفتح صادق ومخلص بالكسر من غير عكس، اهـ من الروح.

﴿لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾ واللعب: إتعاب النفس بلا فائدة كفعل الصبيان، واللهو: شغل النفس عما يهمك من أعمال الآخرة، والتفاخر بالأنساب والأحساب، والفخر:

المباهاة بالأشياء الخارجة عن الإنسان: كالمال والجاه.

﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ والغيث: المطر المحتاج إليه؛ لأنّه يغيث الناس من الجدب عند قلة المياه، فهو مخصوص بالمطر النافع بخلاف المطر؛ فإنه عام. ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ﴾؛ أي: الحرّاث والزرّاع. قال الأزهري: والعرب تقول للزارع: كافر، لأنه يكفر؛ أي: يستر بذره بتراب الأرض، والكفر في اللغة: التغطية، ولهذا سمي الكافر كافراً؛ لأنه يغطي الحق بالباطل، والكفر أيضاً: القبر لسترها الناس.

﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ يقال: هاج النبت هيجاً وهيجاناً، وهياجاً بالكسر إذا يبس، والهائجة: أرض يبس بقلها أو اصفر، وأهاجه أيبسه وأهيجها وجدها هائجة للنبات. ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ قال في «القاموس»: الحطم: الكسر أو خاص باليابس.

﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أصله: أعتدت، قلبت التاء دالاً فأدغمت الدال في الدال فصار أعدت؛ أي: هيئت. ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ والمصيبة أصلها في الرمية، يقال: أصاب السهم إذا وصل إلى المرمى الصواب، ثم اختص بالنائبة والحادثة. وأصل ﴿أَصَابَ﴾ أصوب بوزن أفعل، نقلت حركة ﴿الواو﴾ إلى الصاد، فسكنت لكنها أبدلت ألفاً لتحركها في الأصل وانفتاح ما قبلها الآن. ﴿مُّصِيبَةٍ﴾ أصله: مصوبة بوزن مفعلة اسم فاعل من أصاب الرباعي، نقلت حركة ﴿الواو﴾ إلى الصاد فسكنت إثر كسرة فقلبت ياء حرف مد.

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا﴾ مضارع منصوب بحذف النون، والواو: فاعل. وأصله: تأسيون، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، فصارت تأساون، فالتقى ساكنان: الألف والواو التي هي الفاعل، فحذفت لالتقاء الساكنين، فصار وزنه تفعون، لأن لامه التي هي الياء المنقلبة ألفاً قد حذفت. والمصدر أسى مقصور، فيقال: أسي أسىً مثل: جوي جوىً من باب تعب. فقول بعض النحاة عند الاستشهاد بهذه الآية في باب النواصب. والتقدير: لأجل عدم إساءتكم فيه نظر؛ لما علمت من أن مصدر هذا الفعل أسىً لا إساءة، اهـ شيخنا. وفي «المصباح»: أسي أسىً من باب تعب حزن، فهو أسي على فعيل مثل: حزين اهـ. وفي «المختار»: وأسي على مصيبته من باب عدا أي: حزن، وأسي له أي: حزن له، اهـ.

﴿مَا فَاتَكُمْ﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: فوتكم تحركت ﴿الواو﴾ انفتح ما قبلها قلبت ألفاً، فصار فاتكم. ﴿ءَاتَىٰكُمْۗ﴾ فيه إعلالان، أصله: أأتيكم بوزن أفعل، أبدلت الهمزة الثانية ألفاً حرف مد مجانساً لحركة الأولى، وقلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿مُخْتَالٍ﴾ اسم فاعل من اختال من باب افتعل الخماسي، أصله: مختيل قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. والمختال: هو المتكبر بسبب فضيلة تراءت له من نفسه. والفخور: هو المباهي بالأشياء العارضة: كالمال والجاه، وهو صيغة مبالغة.

﴿بِٱلْبُخْلِۗ﴾ والبخل: إمساك المال عما يجب إخراجه فيه.

﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ أصله: موزان بوزن مفعال، من الوزن قلبت ﴿الواو﴾ ياء حرف مد لسكونها إثر كسرة.

﴿قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾ والتقفية: جعل الشيء في إثر الشيء على الاستمرار، ولهذا قيل لمقاطع الشعر: قواف. إذ كانت تتبع البيت على أثره مستمرة على منهاجه. وفي المختار: وقفا أثره اتبعه، وبابه عدا، وقفى على أثره بفلان أي: أتبعه إياه، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾، ومنه الكلام المقفى.

﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ والمراد من الرأفة: دفع الشر، ومن الرحمة: جلب الخير، وبذا يكون بينهم مودة.

﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ والرهبانية: المبالغة في العبادة والرياضة والانقطاع عن الناس. وهي هنا عبارة عن ترهبهم في الجبال فارّين بدينهم من الفتنة، مخلصين أنفسهم للعبادة متحملين المشاق من الخلوة واللباس الخشن والاعتزال عن النساء والتعبد في الغيران والكهوف. منسوبة إلى الرهبان بفتح الراء، وهو المبالغ في الخوف من رهب، كالخشيان من خشي، ومعناها الفعلة المنسوبة إلى الرهبان، وهو الخائف فإن الرهبة: مخافة مع تحزن واضطراب، كما في «المفردات». وهو فعلان من رهب كخشيان من خشي. وقرئت بالضم كأنها نسبت إلى الرهبان جمع راهب كراكب وركبان. وعبارة «القاموس»: والراهب واحد رهبان النصارى، ومصدره الرهبة والرهبانية، أو الرهبان بالضم قد يكون واحداً، وجمعه راهبين ورهابنة ورهبانون. ولا رهبانية في الإسلام، هي كالإخصاء، واعتناق السلاسل، ولبس

المسوح، وترك اللحم، ونحوها، اهـ.

﴿ٱبۡتَدَعُوهَا﴾ استحدثوها، ولم تكن في دينهم. ﴿ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: طلباً لرضاه، ومحبته، وفيه إعلال بالإبدال، أصله: ابتغاى أبدلت الياء همزة لتطرفها إثر ألف زائدة.

﴿فَمَا رَعَوۡهَا﴾؛ أي: ما حافظوا عليها، أصله: رعيوها، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة.

﴿كِفۡلَيۡنِ﴾؛ أي: نصيبين ضخمين. والكفل: الحظ. قال المؤرخ السدوسي: الكفل: النصيب بلغة هذيل. وقال غيره: بل بلغة الحبشة. وقال المفضل الضبي: أصل الكفل: كساء يديره الراكب حول سنام البعير، ليتمكن من القعود عليه، والنوم إذا أراده، فيحفظه من السقوط، ففيه حظ من التحرز.

﴿تَمۡشُونَ﴾ أصله: تمشيون بوزن تفعلون، أستثقلت الضمة على الياء فحذفت فالتقى ساكنان، فحذفت الياء وضمت الشين لمناسبة الواو.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ﴾ فقد حذف أداة التشبيه تنبيهاً على قوة المماثلة، وبلوغها حد الاتحاد، كما فعل ذلك أوّلاً حيث قال: ﴿هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ﴾. وليست المماثلة بين ما للفريق الأول من الأجر والنور، وبين تمام ما للأخيرين من الأصل بدون الإضعاف، فيحصل التفاوت، كذا في «روح البيان»، فراجعه إن شئت.

ومنها: التشبيه التمثيلي في قوله: ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ...﴾ الآية، حيث مثل الحياة الدنيا في سرعة انقضائها، وقلة جدواها بحال نبات أنبته الغيث فاستوى، وأعجب به الحراث. فوجه التشبيه منتزع من متعدد.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ...﴾ إلخ، فقد طابق بين العذاب والمغفرة في قوله: ﴿وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ﴾ ولكنه طابق بين واحد وشيئين،

فهو من باب: لن يغلب عسر بين يسرين، وسيأتي تفصيله في سورة الانشراح.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾؛ أي: إلا كالمتاع الذي يتخذ من نحو الزجاج، والخزف في كونه مزخرف الظاهر فحذف الأداة ووجه الشبه.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ حيث شبه مبادرتهم إلى الطاعات بمسابقة الفرسان في الميدان.

ومنها: التنوين للتعظيم في قوله: ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ﴾.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

ومنها: التشبه في قوله: ﴿كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تمثيلاً للعباد بما يعقلون، ويقع في نفوسهم.

ومنها: تقديم المغفرة على الجنة في قوله: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا﴾ إلخ، لتقدم التخلية على التحلية.

ومنها: الاقتصار على الإيمان في قوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ إشعاراً بأن مجرد الإيمان كاف في استحقاق الجنة. إذ لم يذكر مع الإيمان شيئاً آخر، ولكن الدرجات مختلفة باختلاف الأعمال.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

ومنها: تخصيص التذييل بالنهي عن الفرح المذكور إيذاناً بأنه أقبح من الأسى.

ومنها: الجناس المغاير بين ﴿يَبْخَلُونَ﴾ و﴿البخل﴾ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾.

ومنها: التهديد في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

ومنها: الجناس الناقص في قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ لتغير الشكل وبعض الحروف.

ومنها: السجع المرصع كأنه الدر المنظوم في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة

١ ـ صفات الله وأسماؤه الحسنى، وظهور آثاره في بدائع خلقه.

٢ ـ الحض على الإنفاق.

٣ ـ بشرى المؤمنين بالنور يوم القيامة.

٤ ـ ثواب المتصدقين الذين أقرضوا الله قرضاً حسناً.

٥ ـ ذم الدنيا وأنها لهو ولعب.

٦ ـ الترغيب في الآخرة وتشمير العزيمة للعمل لها.

٧ ـ التسلية على المصايب.

٨ ـ ذم الاختيال والفخر والبخل.

٩ ـ الحث على العدل.

١٠ ـ الاعتبار بالأمم السالفة.

١١ ـ قصص نوح وإبراهيم.

١٢ ـ إن أهل الكتاب الذين آمنوا برسلهم، وآمنوا بمحمد ﷺ يضاعف لهم الأجر عند ربهم.

١٣ ـ الله يصطفي من رسله من يشاء فهو أعلم حيث يجعل رسالته[١].

والله أعلم

* * *

(١) والحمد لله أوّلاً وآخراً وباطناً وظاهراً وسرّاً وجهراً على إتمام تفسير هذا الجزء السابع والعشرين، لقد بذلت جهدي، وطاقتي على حسب القوى البشرية في تلخيصه وتهذيبه وتنقيحه، فرحم الله أمرءاً نظر فيه بعين الإنصاف، فسامح ووقف في التصحيح على خطأ فأصلح، وأعوذ بالله من حاسد إذا حسد وبغى، واستغفره جل اسمه من قلم زل، وسهى أو حرف شيئاً عن موضعه وطغى، وهو حسبي ونعم الوكيل. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه وسلم تسليماً كثيراً =

شعرٌ

الْعَفْوُ يُرْجَىٰ مِنْ بَنِي آدَمٍ فَكَيْفَ لاَ أَرْتَجِي مِنْ رَبِّي
فَإِنَّهُ أَرْأَفُ بِي مِنْهُمْ حَسْبِيْ بِهِ حَسْبِيْ بِهِ حَسْبِيْ

آخرُ

يَا مَنْ مَلَكُوْتُ كُلِّ شَيْءٍ بِيَدِهْ طُوْبَىٰ لِمَنِ ارْتَضَاكَ ذُخْراً لِغَدِهْ

آخرُ

سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا أُلْهِمْتَ لَنَا
سُبْحَانَكَ بِعَدِّ مَا سَيَكُوْنُ وَكَانَا

= وكان الفراغ من مسودة هذا الجزء بمكة المكرمة في المسفلة، حارة الرشد، أواخر ليلة الثلاثاء لثمان بقين من رمضان الليلة الثانية والعشرين منه، من شهور سنة خمس عشرة بعد الأربع مئة والألف ١٤١٥/٩/٢٢ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلوات وأزكى التحيّات.

تَمّ بعون الله وتوفيقه المجلد الثامن والعشرون من تفسير «حدائق الروح والريحان»، ويليه المجلد التاسع والعشرون، وأوّله سورة المجادلة.

الفهرس